الألف كتاب الثاني
١٩١

الحمر والبيض والسود

الهيئة المصرية العامة للكتاب



تأليف : جاري ب . ناش

ترجمة : مصطفى أبو الخير عبد الرازق

الحُمر والبيض والسود

تاريخ الصراع العنصري في أمريكا

الألف كتاب الثاني

الإشراف العام

د. سمير سرحان

رئيس مجلس الإدارة

رئيس التحرير

لمعي المطيعي

مدير التحرير

أحمد صليحة

الإشراف الفني

محمد قطب

الإخراج الفني

محسنة عطية

الحمر والبيض والسود

تاريخ الصراع العنصري في أمريكا

تأليف

جارى ب. ناش

ترجمة

مصطفى أبو الخير عبد الرازق



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٥

هذه هى الترجمة العربية الكاملة لكتـــاب :

RED, WHITE, AND BLACK

The Peoples of Early America

by

Gary B. Nash

الفهـــــرس

الموضــوع	الصفحة

شكر وتقدير

بدأت صفحات هذا الكتاب تتضح صورتها في ذهني ، منذ ثلاث سنوات ، عندما شرعت أنا والكسندر ساكستون Alexander Saxton ، وستيفان ثيرنستروم Stephan Thernstrom في اعادة التخطيط للمقرر التمهيدى للتاريخ الأمريكى ، فى جامعة كاليفورنيا بمدينة لوس أنجيليس Los Angeles • وكان جهدنا متجها الى جعل التاريخ الأمريكى أكثر فهما وقبولا لدى الطلبة الدارسين على اختلافهم عرقيا ، واجتماعيا ، وفكريا بدراستهم لعملية التغير التى مر بها شعب له خلفيات حضارية شديدة التباين ، تفاعلت تفاعلا مشتركا خلال أربعة قرون من الزمان • وبالرغم من أنى لم أتبين خطورة هذه الفكرة ، فى أول الأمر ، الا أنى اكتشفت أنها تتطلب منى قراءة واسعة فى مجالات لم يتوقف ذهنى عندها كثيرا أثناء الخمس عشرة سنة التى قضيتها فى دراسة وتدريس تاريخ المستعمرات الأمريكية أنثربولوجيا – أى من حيث دراسة أصل الجنس البشرى وسلالاته ، وتطوره ، وعاداته ، ومعتقداته ، وتاريخ الأجناس البشرية ، والتاريخ الأفريقى ، وتاريخ أمريكا اللاتينية ، فقد كنا نعبر عن فكرنا بطريقة ملتوية ، ولقد حاولنا فى هذا الكتاب ، أن ننتقى جيدا مما نقرؤه ونفكر فيه ونكتبه بطريقة تعكس نزعاتنا الثقافية• ولم يكن الأمر يحتاج الى أكثر من تغيير « زاوية الرؤية » لنوضح أن التاريخ الأمريكى القديم « يمكن » أن يصبح هو التاريخ القديم لسكان أمريكا اذا ما وسعت كثيرا نطاق قراءاتى وتفكيرى حول هذا الموضوع •

وخلال هذه الخطوات من التفكير ، وفى مراحل تأليف هذا الكتاب ، تلقيت الكثير من المعلومات ، والمساعدة ، والتصحيح ، والتشجيع ، والمساندة على مختلف الدرجات من السادة : فيليب بوردين Borden ، وروبرت جريفث Griffith ، وفرانسيس جيننجز Jennings ،

وجـــورج فيليبس ، وتيرينس ورينجـــر Terrence O. Ranger ■ ونيل ســالزبرى Neal Salisbury ، ومارجـــريت ستروبـــل Margaret Strobel ، فضـــلا عن عدد لا يحصى من الطلبـــة والخريجين فى جامعـــة كاليفـــورنيا فى لوس أنجيليس ، الـــذين ســـاعدونى ببصيرتهم النافذة ، واهتمامهم البالغ لمواصلة هذا العمل ٠

جارى ب ٠ ناش

تمهيـــــــد

من الواضح تفرد هذه الدراسة وتميزها منذ البداية • وعلى خلاف الطريقة التقليدية فى دراسة التاريخ الأمريكى القديم ، لم يبدأ جارى ناش Gary B. Nash بالوثبـــــة الانجليزية الأولى على بلايمـــوث روك Plymouth Rock ، ورونوك آيلاند Roanoke Island ، ولا برحلة كريســـتوفر كولومبس ، بل بدأ بنحـــو ٢٠٫٠٠٠ ســنة قبل الميلاد ، عندما انتشر الأمريكيون الأوائل على أرض القارة • وفى الوقت الذى نجح فيه الأوروبيون فى شق طريقهم الى « العالم الجديد » القديم ، كانت توجد حضارات وطنية مختلفــة ، منذ عدة آلاف من السنين • ولما كان ناش يعارض دراسة التاريخ على أساس عرقى ، نــراه لذلك يدرس محاولة اضفاء الطابع الأوربى على العالم الجديد باعتبارها احدى الفترات الحرجة فى نشـــأة وتطور مجتمع المستعمرات • فتاريخ الشعب الأمريكى ليس قصة المستوطنين الأوروبيين فى الأســـاس ، بل هو التفاعل المعقد بين ثلاث مجموعات حضارية كبرى هى : حضارة البيض والحمر والسود : هى « قصة أقلية من الانجليز تفاعلت مع أغلبيـــة من قبائل الايروكوا Iroquois ، والديلاوير Delawares ، والناراجانسيت Narragansetts ، والبيكوت Pequots ، والماهيكان Mohicans والكتاوبا Catawbas ، والتوسكارورا Tuscaroras ، والكريك Creeks ، والشيروكى Cherokees ، والشوكتاو Choctaws ، والايبو Ibos ، والماندنجو Mandingos ، والفولا Fulas واليوروبا Yorubas ، والأشـــانتى Ashantis ، والألمـــان ، والفرنسيين ، والأســـبان ، والســـويديين ، والايرلنديين من أصـــل اسكتلندى » • ويرجع ظهور الأوروبيين كمجموعة سائدة ومسيطرة الى مهارتهم التنظيمية ، وبراعتهم الحربية ، ومعرفتهم بفنون الخداع والنفاق وأساليب القمع •

عندما اختارت يد الله ، فى الثلاثينات من القرن السابع عشر ، من بين الشعب الانجليزى ، جماعة من الرجال ، ووجهتها الى أرض كنعان الجديدة ، هذه ، أصـــــدر القس البيوريتانى المتزمت ، بيتر بولكلى Peter Bulkeley ، بيـــانه التـــاريخى الذى يقول : « نحن شـــعب

نيو انجلند ، فى هذه المدينة القائمة على هذا المرتفع ، على مرأى من سكان الأرض جميعا ، لتنظر الينا عيون العالم ، لأننا نذرنا أنفسنا أن نكون شعبا على عهد وميثاق مع الله » • وعلى غرار كثير من المؤرخين المحدثين يرفض ناش الفكرة العـامة القائلة بأن البيوريتان كانوا أفرادا يثيرون الكآبة والضجر ، ويفتقدون روح الدعابة والمرح ، ويكبتون الشـــهوه الجنسية ، وذلك ما شجع هنرى ل • مينكين Henry L. Mencken على تعريف البيوريتانية المتزمتة بأنها « الخوف المستمر المزعج من احتمال وجود شخص ما ، فى مكان ما ، سعيدا » • ولكنه لم يستثن البيوريتان من تأييد الدكتاتورية ، والتعصب ، والعنف (وليس من الضرورى أن نأخذ برأى أحد أعضـاء مجلس الشيوخ الأمريكى بأن البيوريتـــان ، والتقاليد المتحدرة عبر الأجيال السابقة هى عوامل ساعدت على اغتيال الرئيس جون كيندى) (*) • ولا ريب أن نيوانجلند ، كما أثبت ناش لم تعد ذلك المجتمع المتجانس الذى تخيله بعض مؤسسيه ، تحولت الى منطقة صرفت فيها روح التجارة والمضاربة والعمل انتباه الأجيال الجديدة عن الطريق القويم للخلاص • وعلى كل ، فبدلا من أن يقصر ناش نفسه على دراسة المناورات السياسية الداخليـــة ، ومحاولات التظاهر بالتقى والورع انصرف الى دراسة تفاعل البيوريتان مع القبائل الهندية المتعددة ، التى وجدوا أنفسهم بينها أول الأمر • فالهندى الأحمر يمثل للبيوريتان تحديا حقيقيا ، ليس فقط لأنه مالك الأرض التى يتوقون اليها ، بل أيضا لأنه يظهر وكأنه « الصورة العكسية للانسان المتحضر ، والتى تفتقر الى معظم القيم التى يقدرها البيوريتان من حيث اللطف ، والتقوى المسيحية ، والعزيمة ، والعمل الأخلاقى » ، وبالنسبة للهندى ، من جهة أخرى ، يرى ناش أن المستوطنين الأوائل قد أعطوا للهندى نموذجا لمثالب الرجل الأبيض من صور الخداع ، والنكث بالعهد ، والعجـرفة ، والوحشية • فيقول ناش : « كنا نرى أن الحكمة تقتضى أن نشن الحرب بلا هوادة ازاء تهـــديد الهنود الحمر ، بدلا من معاقبة اخواننـــا الانجليز الذين بدءوا بالعنف » • هذا الاحساس العميق برسالة التبشير التى عمت البيوريتان، وكذلك الاحساس بالحاجة الى حماية أمنهم الداخـــلى من « شـــياطين العالم المجهول » هو الذى جعل الكويكرز Quakers (**) ، والهراطقة ، والعرافين ، وكذلك الهنود الحمر ضـــحايا لهم ، مع اختلاف فى درجـة الضراوة والوحشية •

(*) كان جون كيندى أول رئيس كاثوليكى للولايات المتحدة التى يغلب عليها الطابع البروتستنتى •

(**) الكويكرز : جماعات دينية يسمى اعضاؤها بالعصابيين أو المهتزين • وتتسم اجتماعاتهم عادة بفترات من الصمت الطويل ـ (المترجم) •

إن القصة المأساوية للبيوريتان ، وعلاقتهم بالهنود الحمر ، بالرغم من أنها لاتزيد عن جزء صغير من دراسة جاري ناش للاحتكاك الأوروبي بالهنود الحمر ، تصور المنظور الواسع لدراسته لتاريخ أحفاد الأجيال السابقة (مثل البيوريتان) • ولقد أولت الدراسات العامة القليلة للمؤرخين الأمريكيين السابقين اهتماما كبيرا بالصراعات العرقية والحضارية بين الهنود الحمر والأوروبيين البيض والزنوج السود وهي صراعات نابعة من نظرة الرجل الانجليزي الى الهندي الأحمر في بادىء الأمر ، والصور المتناقضة التي نجمت عن علاقتهم ببعض ، والتوقعات الأولى للمستوطنين الأوروبيين والهنود الحمر ، وكذلك شهوة الرجل الأبيض النهمة الى اقتناء المزيد من الأرض والثروة ، وكان الصراع يتسم بالعنف والوحشية ، حتى أمكن تبرير ابادة الهنود بأنها انقراض لشعب همجي ، حقير ، لا حضارة له • ولقد أوضح ناش أن العلاقة بين الأوروبي والهندي كانت تختلف من منطقة لأخرى • وبالرغم من تعرض حضارة القبائل الهندية الساحلية أخيرا الى الانهيار والخراب ، يبرهن ناش كيف أن المقاومة المستمرة لهذه القبائل أعطت لحضارات القبائل الداخلية الوقت الكافي « لتتكيف مع الوجود الأوروبي ، وتبتكر استراتيجياتها للبقاء مع تحرك حدود الزاحفين الى الغرب قريبا منهم » • كما أوضح ناش نقطة أخرى بصورة جلية ، وهي أن كثيرا من سكان المستعمرات الأوائل ، قد تصوروا مجتمعا فاضلا يقوم على مفاهيم « التبادل التجاري ، والتعلق بالقيم الروحية ، والمعيشة في جماعة ذات مصلحة مشتركة ، في وطن واحد، وفي ظل قوانين واحدة » • ولكن ، مع مرور الوقت ، ومع النمو المطرد للسكان البيض « أصبح السكان الوحيدون في أمريكا الشمالية الذين تمسكوا بهذه القيم ، ونظموا مجتمعهم على أساسها مجتمعات هامشية » •

وإذا كان الهندي الأحمر قد أثار بين البيض ردود فعل عنيفة بسبب وجوده واختلافه الحضاري معهم ، أثار الزنوج أيضا كراهية فطرية شديدة بين أناس اعتبروا اللون الأسود تجسيدا حيا للشر والقبح ، ومرادفا للوثنية ، والهمجية ، والبهيمية • وفي دراسة لأصول التمييز العنصري والرق ، قام ناش بفحص واستعراض الحضارة الوافدة • وقد ساعدت نتائج خبرة العمال الزنوج ومعاناتهم لقرون عديدة في أمريكا الشمالية على تأييد وتقوية الانطباعات الأولى لدى الزنوج ، وخلقت ما عبر عنه ناش بصدق ، بأنه أحد التناقضات الظاهرية الكبرى في التاريخ الأمريكي ، « حيث أدخل نظام الرق الذي ظل مجهولا لعدة قرون في أمريكا وهي الأرض التي توصف بأنها رائدة الحرية ، ومانحة الفرص الشخصية » • وفي تساؤل له مع نفسه عن سبب ذلك ، يدرس ناش

أيضا الأمريكيين الزنوج باعتبارهم « مشاركين نشطين في عملية الحضارة » • ويصف مدى استجابتهم لعملية الرق • وفي تصويره للعلاقة بين الزنوج ومستعبديهم بأنها « تصادم أو تفاعل بين حضارتين » يرى ناش أن « التحول الحضارى الطارىء على ثقافة العبيد لايتضمن فقط التكيف مع ضريبة الارتباط اليومي بالأرض حتى الموت في المزارع ، بل يشمل أيضا تعلم استراتيجية البقاء ، والمقاومة ، والتمرد والعصيان ».

وبهذا الكتاب ، يركز ناش انتباهنا على هؤلاء « الصامتين تاريخيا »، ولا يقصد بذلك العبيد ، والهنود الحمر فقط ، بل أيضا ، البيض المأجورين والبيض الذين حملوا على الهجرة اضطرارا ، وأولئك الذين وفدوا الى أمريكا تحدوهم الآمال العريضة ، ولكنهم ظلوا في أدنى طبقة في مجتمع سكان المستعمرات البيض • ومهما كانت أسطورة النجاح الأمريكي ، والفرص الواسعة بلا حدود ، اكتشف ناش الوجه الآخر للقصة • واذا كانت الديمقراطية السياسية قد انتشرت في مجتمع المستعمرات الأمريكية ، فان الديمقراطية الاقتصادية كانت تنحسر ، وتتضاءل • ويقول ناش ان « المجتمع المفتوح أو الحر وتوافر فرص كافية في القرن الثامن عشر للمقاولات التجارية والقلة النسبية للقيود ، التى فرضتها الحكومة عوامل ، أدت بشكل متناقض ظاهر الى اتساع الفجوة بين الأغنياء والفقراء ، والى تركيز القوة الاقتصادية في أيدي طبقة عليا ضئيلة من المجتمع ، فتحول المجتمع الي شيء شبيه بالمجتمعات الأوروبية التي سبق أن هربوا منها » • وعلى طريقة علماء الدراسات الاحصائية للسكان (الديموغرافيين) المحدثين ، أثبت ناش أن النمو المطرد للسكاني، والتقدم الاقتصادي نشأ عنه تفتيت مستمر للثروة ، وتعدد في الطبقات الاجتماعية ، وتزايد ملحوظ في انعدام الملكية • ولئن ظل المجتمع الأمريكي يمثل في فجر الثورة أرض الفرص الوفيرة أمام معظم الناس ، فإن ناش يذكرنا بأن نحو ربع السكان كانوا مستعبدين ، أو طردوا من أراضيهم ، وأن « الوعد بالنجاح في مجتمع المستعمرات الأمريكية كان قائما أساسا على استغلال العامل الزنجي ، وأرض الهندى ، بصورة لايمكن نسيانها » •

ان هذا الكتاب الذى يتوقع القارىء منه معالجة تقليدية لموضوعات تقليدية ، انما يوحي بمنظور ومنهج مختلفين تماما • والقول بأن هذه رؤية « غير مألوفة » للتاريخ الأمريكي المبكر ، انما يؤكد أن تناول المؤرخين لهذا التاريخ كان يتسم بالسذاجة ، وضيق الأفق •

ليون اف • ليتواك

(الناشر)

مقدمة

« ان اللـــه انجليزى » ، هذا ما قاله القس الانجليزى الورع جون آيلمر J. Aylmer ، وهو يحض رجال أبرشيته فى سنة ١٥٥٨ على التمسك بالتقوى وحب الوطن ! • ومنذ ذلك الحين ، ترددت هـذه الفكرة ، وان لم تذكر أبدا بهذا النص بصورة مباشرة فى كتب التاريخ لدينا • وان غالبيتنا ، وكذلك أطفال المدارس ، وطلاب الكليات ، والمواطنين الذين نفترض أنهم على دراية وعلم ، كل هؤلاء تربوا على ما حسبناه أعظم قصة للنجاح فى التاريخ البشرى ــ القصة البطولية عن كيف حاولت مجموعة شجاعة ، فخورة من المتحدثين بالانجليزية أن تقلب قوانين التاريخ ، باثبات ما يمكن أن تفعله النفس البشرية المتحررة من قيود التقاليد ، والخرافات والسلطة الجائرة ، فى ذلك الركن المكتشف حديثا من الكرة الأرضية • يبدأ تاريخ المستعمرات الأمريكية عند غالبية الأمريكيين بالسير والتر رالى ، وجون سميث ، ويستمر متصلا من جون وينثروب ، ووليام برادفورد حتى جوناثان ادواردز ، وبنيامين فرانكلين ، وينتهى عشية الثورة بعدد ضخم من المستوطنين الفاتحين الذين استعدوا لغرس أنفسهم فى هذه الأرض ، ومواجهة استبداد وطنهم الأم المتزايد •

ولكن فى الستينات هاجم المؤرخون المتحررون البيض ، والمواطنون الأمريكيون الذين تضرب جذورهم فى أفريقية وآسيا والمكسيك ، أو فى الحضارات الوطنية من أمريكا الشمالية ، هاجموا هذه النظرة العرقية لأحداث التاريخ • كما أن ايمان المستعمرين الأوائل والمستكشفين بأهمية أوربا المفرطة جعلهم يغضبون من أهمية قارة فى اتساع أمريكا الشمالية ، كذلك وجد المؤرخون الأمريكيون صعوبة فى اعتبار هذه الفترة من تاريخنا الخاص قصة للتفاعل بين أقلية من الانجليز مع أكثرية من الايروكوا ، والديلاوير ، والبيكوت ، والماهيكان ، والكتاوبا ، والتوسكارورا ، والكريك ، والشيروكى ، والشوكتاو ، والايبو ، والماندى ، والفولا ، واليوروبا ، والأشانتى ، والألمان ، والفرنسيين ، والأسبان ، والسويديين، والأيرلنديين من أصل اسكتلندى ، فاكتفوا باشارات عابرة فقط الى بعض العناصر الحضارية التى كانت موجودة فوق القارة •

وحديثا ، حاول رجال التاريخ الأمريكيون ، الذين تعلم معظمهم في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية ، أن يصححوا التاريخ المتحيز للبيض وبطولتهم في الكتب المقررة بالمدارس الثانوية ، الا أن جهودهم لم تثمر سوى زيادة بسيطة في عدد العظماء من الأبطال الوطنيين بعد أن أضافت اليهم بعض المواطنين من غير البيض . وهكذا تعدلت النظرة الأساســية الى كريسبس أتوكس Crispus Attucks ابن بوســطن ، ذلك الصياد نصف الهندي ونصف الزنجي ، الذي كان أول من سقط في مذبحة بوسطن ، وكذلك الجنرال « الي باركر Eli Parker » ، ذلك الهندي الذي ساعد الشمال في كسب الحرب الأهلية ، ثم خدم أخيرا صــديقه أوليسس جرانت Ulysses Grant عندما أصبح الأخير رئيســا للجمهورية ، وكذلك سيزار شافيه Caesar Chavez زعيم عمال المزارع بالولايات المتحدة ، الذي أحرز مكاسب عظيمة لعمال شيكاغو الزراعيين .

ولكن هذا الضرب من اعادة النظر في تاريخنا لن يؤتي بنتائج كبيرة ، وان أسهم في زيادة الأساطير القديمــة عن أبطال التاريخ . ولكن ، هل نعتبر ذلك « تاريخا جديدا » كاملا اذا اقتصر الأمر على تغيير النظــرة الأحادية اللون للشخصيات الى النظرة المتعددة الألوان ، مع بقاء الخط التاريخي دون تغيير ؟ أي استمرار تقييم أحداث الماضي من منظور المجتمع الأبيض باعتبار أن الهنود والزنوج في فترة المستعمرات شعوب خاملة ، يتقرر مصيرها بأكمله على يد المستوطنين البيض ؟!

وفقدان الذاكرة التاريخي هذا الذي لطخ ماضــينا كثيرا ، يكون علاجه بالنظر الى التاريخ الأمريكي ، باعتباره تفاعلا بين كثير من الشعوب ذات الخلفية الحضارية العريضــة ، والجذور الاجتماعية الضــاربة في التاريخ : ويعني ذلك بالنسبة « لفترة المستعمرات » ألا نفهم فقط كيف « اكتشف » الانجليز وغيرهم من الأوروبيين أمريكا الشماليــة ، وكيف شرعوا في غرس حضارتهم هناك ، بل نفهم أيضا كيف شاركت المجتمعات التي كانت في أمريكا الشمالية وأفريقية منذ آلاف السنين ، في هذه العملية بشكل جوهري ونشط ، اذ لم يكن الزنوج مجرد عبيد ، ولا كان الهنود الحمر مجرد أفراد مطرودين من الأرض . وعلينا أن نصدر حكمنا على الشعوب الصامتة ، التي أسدل عليها ستار النسيان مع أنها أثرت بقوة في مسيرة تقدمنا التاريخي كأمة .

لم يكن الهنود ولا الزنوج مجرد شعب « بدائي » يمكن أن نطحنهم تحت رحي « التفوق » الحضــاري الأوروبي . فقبائــل البيكوت ، والناراجانسيت في جنوب نيوانجلند مثلا ، لم يتأثروا بحضارة البيوريتان فقط ، بل استجابوا أيضا ، بطرق مختلفة لمجيء الأوروبيين . والمهم أن

نفهم رؤية كل منهما للآخر ، فكلتا النظرتين أدت الى قرارات وردود أفعال معينة فى ضوء اهتمام كل منهما بمصالحه الخاصة • وقد عبر بنيامين فرانكلين عن ذلك ، منذ أكثر من مائتى سنة بقوله : « نحن نسميهم متوحشين ، لأن عاداتهم وأساليبهم فى الحياة تختلف عن عاداتنا وأساليبنا التى نعتقد أنها بلغت حد الكمال ، من حيث اللطف والكياسة ، وهم يعتقدون نفس الشيء بالنسبة لما لديهم » (١) •

لقد تعودنا أن ندرس ، بنفس الدرجة ، كيف ابتكر الأوروبيون وسائل مختلفة للتغلب على هؤلاء الناس الذين اجتاحوا أرضهم • ولكن هذه الشعوب المحلية ، فى نفس الوقت ، رسمت لنفسها استراتيجيات للتكيف مع الوجود الأوروبى ، ولوضع هذا الوجود فى خدمة احتياجاتهم الشخصية • لقد امتزج الأوروبيون بمختلف جذورهم الاجتماعية والسياسية بالهنود ذوى التقاليد القبلية المختلفة ، فى عملية تفاعل سياسى ، واقتصادى ، وثقافى ، لأكثر من مائتى سنة ، فى الطرف الشمالى الشرقى من القارة ، واذا بسطنا نظرتنا الى الهنود على أنهم كانوا مجرد ضحايا للعدوان الأوروبى ، فاننا نغفل كيف أن القبائل العديدة ، الذين كانوا يتطورون ذاتيا من عدة قرون ، قبل أن تلمس أقدام الأوروبيين أرض القارة ، قد استجابوا بصورة بناءة وقوية للوافدين عبر المحيط ، وبذلك ، كان لهم أثرهم فى تشكيل مسيرة الاستيطان الأوروبى •

يتخذ هذا الكتاب مدخلا حضاريا لتاريخنا المبكر ، وأقصد بذلك : أننا سننظر الى « أمريكا الشمالية » كمكان تجمع فيه عدد من الحضارات المتباينة فى فترة مهمة من التاريخ ــ من حوالى ١٥٥٠ م الى ١٧٥٠ م ــ وبتعميم كبير ، يمكننا تحديد هذه المجموعات الحضارية بأنها : الهنود ، والزنوج ، والأوروبيون • وبتعبير آخر ، ان هذا الكتاب ، ليس عن تاريخ المستعمرات الأمريكية ، بل هو عن تاريخ « شعوب » أمريكا الشمالية خلال القرنين اللذين سبقا الثورة الأمريكية •

تختلف كل من هذه المجموعات الثلاث عن بعضها البعض اختلافا هائلا • فاختلاف الايروكوا فى خصائصهم الحضارية عن قبائل الناتشيز Natchez كاختلاف الانجليزى عن المصرى ، ويختلف الهاوسا Hausas عن اليوروبا كاختلاف البيكوت عن الكريك • وقد تحارب الفرنسيون والأسبان والانجليز من أجل النفوذ والقوة فى القرن السابع عشر ، تماما كما فعل الهورون Hurons ، والايروكوا ، والكريك ومهمتنا أن نكشف عما حدث ، عندما احتكت شعوب مختلفة الأشكال من قارات مختلفة فى مرحلة معينة من التاريخ • انها عملية « تقدم » و « تغيير » ثقافى واجتماعى ، سنهتم بها بشكل أساسى : كيف

تأثرت ، وكيف تغيرت مصائرها بتجربة احتكاكها بالحضارات الأخرى فيما يسميه الأنثروبولوجيون « التثاقف » (أو « التبادل الثقافي »)(*)، ويسميه رجال التاريخ « التغير الاجتماعي » ، ومع كلتا التسميتين ، علينا أن نذكر أننا ندرس عمليـــة التفاعل الديناميكي ، التي شملت تاريـخ الأمريكيين ، والأوروبيين ، والزنوج في أمريكا الشماليـــة في القـرنين السابع عشر والثامن عشر ٠

ويحسن أن نذكر ، أيضا ، أننا حين نتكلم عن « مجموعات ثقافية » أو « مجمتعات » انما نتكلم بأسلوب تجريدي ٠ « فالمجتمع » هو مجموعة من الناس منظمة فيما بينها لتحقيق حاجاتها الأساسية ، خاصة حاجتها الى البقاء في المقام الأول ٠ أما « الثقافة » فهي تعبير أوسع ، يضم كل الخصائص النوعية للمجتمع من وسائل تقنية لتوفير ضروريات الحيـاة ورفاهيتها ، وأشـــكال الملبس والمأكل ، والتنظيمات الاقتصـــادية والاجتماعية والسياسية ، وأنواع الوقاية ، والمسكن ، والدين ، واللغة ، والفن ، والقيم ، وطرق تربية الأطفال ٠٠ وهلم جرا ، نتيجة اتصـالهم الفعلي ببعضهم البعض ٠ وبتبسيط أكثر ، تعني « الثقافة » (أو «الحضارة ») طريقة الحياة ، والاطار الذي تفهم فيه أية مجموعة من الناس ــ المجتمع ــ العالم من حولها ، وتتصرف في دائرته ٠ ولكن كلمتي « ثقافة »و« مجتمع » تتضمنان كذلك قواعد وأشكال السلوك والصفات الشخصية للأفراد عندما نشير الى « السمات الحضارية (الثقافية) » أو « السلوك الجماعي » ٠ وفي توظيفنا لهذه المصطلحات مخاطرة بأن نفقد الرؤية الصحيحة للأفراد الذين لايتشابه الواحد منهم مع الآخر في تكوين هذه الثقافة ٠

ولأننا أمريكيون ، ننتمي الى وطن واحد ، ونتكلم لغـــة واحدة ، ويظلنا قانون واحد ، ونمارس أنظمة اقتصـــادية وسياسية واحـدة ، مما كون « الثقافة » الأمريكية ، ولا يعني ذلك أننا على قدم المســاواة فيما بيننا ، والا لما كانت التوترات العنصرية أو الصراعات السياسية ٠ ويقال نفس الشيء عن الألمان والكوريين والنيجيريين ، فضلا عن أن بعض الأمريكيين قد يشتركون في الخصـائص مع أفراد نيجيريين أو كوريين أكثر من اشتراكهم مع بعض أقرانهم الأمريكيين ٠ ورغـــم ذلك ، فان الأمريكيين ينظمون حياتهـــم ، ويتصرفون عامة بشكل مختلف عن بقية الشعوب الأخرى في العالم ٠ وهذا يقدم لنا ــ على الأقل ــ مع وعينـا بمشكلات المدخل الحضاري أو الثقافي للتاريخ ، وسيلة لفهم تفاعل هذه المجموعة الضخمة من الناس ذوي الخلفيات الحياتية الشديدة الاختلاف

(*) التثاقف : تعديلات تطرأ على ثقافة بدائية نتيجة احتكاكها بمجتمع أكثر تقدما ٠٠ هذا وسنراعي استعمال هذا اللفظ دائما ــ (المترجم) ٠

والذين وجدوا أنفسهم يتعايشون معا فى جزء من « العالم الجديد » لقرون عديدة مضت ·

ومن الضرورى أن نراعى أيضا ، ونحن نتكلم دائما عن المجموعات العنصرية والتفاعل العنصرى أن هذه الاصطلاحات لاتدل على مجموعات من البشر مختلفين وراثيا ، ذلك أنه طوال نصف قرن صب علماء الأنثروبولوجيا اهتمامهم وجهدهم فى محاولات تصنيف شعوب العالم ابتداء من أقزام جزيرة بورنيو Borneo الى الآلوت Aleuts فى ألاسكا طبقا للفروق الوراثية ، فقاسوا الأنف وحجم الجمجمة ، ولاحظوا شعر الجسم ، ووصفوا الشفاه ، وصنفوا الشعر ولون العين ، فى محاولة لتحديد علمى لمختلف الخصائص الجنسية للانسان ، ثم اثبات أن هذه الخصائص تتفق مع درجة الاختلاف فى « التقدم الحضارى » · ولذلك لاندهش أن تؤدى هذه الجهود المكثفة لعلماء الأنثروبولوجيا البيض الغربيين الى القول بامكانية البرهنة « علميا » على سيادة وتفوق الشعوب القوقازية فى العالم ·

واليوم ، قضت علوم الوراثة على محاولة الخمسين عاما هذه ، وأصبحنا الآن أقل اقتناعا بأن الفروق الوراثية المميزة تفصل بين « المجموعات الجنسية » كما صنفها الأنثروبولوجيون من قبل · وباستعادتنا للأحداث الماضية ، والتأمل فيها ، يظهر لنا بجلاء أن مجموعات مختلفة من الأوروبيين فى العالم الجديد شكلت قواعد وقوانين مختلفة من العلاقات العرقية العنصرية على أساس حاجاتهم الشخصية ، واتجاهاتهم فيما يتعلق بتصنيف الناس والتمييز بينهم ·

وهكذا ، نجد أساسا ضعيفا للتمييز بين المجموعات الحضارية على المستوى البيولوجى أو العضوى · فنحن لا نبحث فى جماعات مختلفة وراثيا ، بل نبحث فى سكان من البشر من مختلف أنحاء العالم ذوى اختلافات ثقافية · وفوق ذلك كله ، نفحص بعناية الطريقة التى تعاملت بها هذه الشعوب كل منها مع الآخر ، وكيف تطورت على مدى عدة قرون ، بصورة تشكل مجرى التاريخ الأمريكى للأجيال القادمة ·

المراجع

« Remarks Concerning the Savages of North Franklin, » ed. Albert H. Smyth (New York : The Macmillan Co., 1907), 10 : 97 .

الفصل الأول

ما قبل كولومبس

لايبدأ تاريخ الشعب الأمريكى بعام ١٤٩٢ م . كما تذكر أغلب كتب التاريخ ، بل يبدأ بأكثر من ٣٠٫٠٠٠ سنة قبل الميلاد ، حيث كان أول اكتشاف لما عرف فيما بعد بأمريكا . وهكذا ، يمكننا أن نبدأ ببعض الأسئلة البسيطة التالية : من هم السكان الأوائل « للعالم الجديد » ؟ ومن أين أتوا ؟ وكيف كانت أشكالهم ؟

تكاد تأتينا كل الاجابات عن هذه الأسئلة عن طريق علماء الآثار الذين نقبوا عن مواقع الحياة الأولى فى أمريكا الشمالية ، بكشفهم عن أدوات الحضارة القديمة من أوعية ، وآلات ، وحلى ، وغير ذلك ، ثم جمعوا أجزاء الهياكل العظمية « للأمريكيين الأوائل » ، وباستخدام الكربون ١٤ لتحديد العمر أرخوا لوصول الانسان الى أمريكا بحوالى ٣٠٫٠٠٠ سنة ق.م، مع بعض محاولات للرجوع بهذا التاريخ خمسة آلاف أو عشرة آلاف سنة أخـــرى .

ويتفق علماء الأنثروبولوجيا ، عامة ، على أن سكان القارة الأوائل قد جاءوا رجالا ونساء من القبائل الرعوية فى سيبيريا الآسيوية القاحلة عبر مضيق بيرنج Bering البرى ، الذى يربطها بألاسكا ، بحثا عن مصادر أوفر للغذاء . وبعد حوالى سنة ١٠٫٠٠٠ قبل الميلاد ، اختفى هذا المعبر تحت الماء مع بدء ذوبـــان الثلاجـــات الهائلة المتكونة من العصر الجليدى ، مما رفع مستوى الماء فى منطقة مضيق بيرنج لأكثر من مائتى أو ثلاثمائة قدم ، واســـتمر اندفاع هؤلاء الآسيويين من تندرا سيبيريا الوعرة ، القاحلة فى جماعات عبر هذا الطريق الحر ، المؤقت ، الى العالم الجديد .

وقد أظهرت البقايا العظمية لهياكل هذه الشعوب الرحل ، العديد من الخصائص غير الآسيوية ، لعلها كانت تمثل خليطا من سكان آسيا ، وأفريقية ، وأوروبا ، الذين اختلطوا مع بعضهم البعض لعدة آلاف من السنين . ومهما كان هذا التخليط الوراثى ، يظل الأمريكيون الأوائـــل آسيويين فى أصلهم الجغرافى .

انتشار الحضارات :

فى وقت ما ، بدأ هؤلاء المهاجرون رحلة طويلة ، صعبة فى اتجاه الجنوب ثم الشرق ، وراء الكلأ والصيد • وعلينا أن نتذكر أن سكان أوروبا فى ذلك الحين ، كانوا يعيشون على الجمع والالتقاط ، والصيد • ولعل أجيالا عديدة مرت قبل أن يصلوا الى المحيط الهادى جهة الشمال الغربى ، وآلافا من السنين قبل أن تصل الهجرة الكبرى فى النهاية الى أقصى طرف أمريكا الجنوبية والساحل الشرقى لأمريكا الشمالية • ويجب أن ننتبه الى أننا حين نتكلم عن حركات الهجرة لشعوب أمريكا ، انما نعنى أولا الهجرة ناحية الجنوب والشرق ، والمسافة عظيمة ، بطبيعة الحال ، تبلغ ١٥٠٠ ميل من الوطن الآسيوى الى تييرا ديلفويجو Tierra del Fuego عند أقصى الطرف الجنوبى لأمريكا الجنوبية ، و ٦٠٠٠ ميل من سيبيريا الى الحافة الشرقية لأمريكا الشمالية •

وطوال القرون التى استغرقتها هذه الهجرات الطويلة ، اتسع انتشار الأمريكيين الأوائل فى مساحة واسعة جدا من اليابسة • وانقسموا الى جماعات ، مما نعتبره بداية ظهور حضارات مختلفة فى القارة تعد بالمئات • هذه الفروق الحضارية عبر آلاف السنين ، ازدادت وضوحا وفقا لاختلاف البيئات الطبيعية • وقد اعتاد الأوروبيون أن يجمعوا ، بروح من التعصب وعدم التمييز ، « تشكيلة » كبيرة من الحضارات الوطنية تحت مسمى واحد هو « حضارة الهنود » ، لكن الواقع أن عددا من أساليب المعيشة ، لايمكن حصره ، قد ظهر منذ وجد الأوروبيون طريقهم الى « العالم الجديد » القديم جدا • والمثال على ذلك أن الأوروبيين لو كانوا استطاعوا الوصول الى القرى الممتدة من ساحل الأطلنطى الى ساحل المحيط الهادى ، ومن ألاسكا الى خليج المكسيك سنة ١٤٩٢ ، لوجدوا « الهنود » يعيشون فى منازل مستطيلة مبنية من ألواح الخشب السميكة فى قبيلة الكواكيوتل Kwakiutle على الساحل الشمالى الغربى ، وفى منازل مستطيلة ذات جمالون فى بلاد الشوكتاو فى أقصى الجنوب ، وفى منازل بدائية قبابية الشكل من القش لدى الويشيتا Wichita ، وفى أكواخ قريبة من الأرض عند البالونى Pawnee فى منطقة البرارى ، وفى مساكن منتظمة مستطيلة ذات سطح أسطوانى فى قرى الألجونكى Algonquian فى الغابات الشمالية الشرقية • وابتكرت الجماعات المنعزلة أساليب فنية متنوعة تماما بتنوع مواد البناء والظروف الجوية فى مناطقها ، لتوفر لنفسها الوقاية الضرورية • وبنفس التنوع ، تميزت حليهم ، وملابسهم ، وطعامهم من حرفة الجمع والالتقاط •

ويتضح هذا التنوع والاختلاف بجلاء ، فى لغاتهم أيضا . فيقسم العلماء اللغات الهندية عند مجيء الأوروبيين واتصالهم بحضارات أمريكا الشمالية الى اثنى عشر أصلا لغويا ، تختلف عن بعضها كاختلاف اللغات السامية عن اللغات الهندو ـ أوروبية . وتنقسم كل مجموعة أساسية منها الى عدد كبير من اللغات واللهجات المنفصلة ، تختلف فيما بينهما اختلاف اللغة الانجليزية عن اللغة الروسية . أى أن الأمريكيين كانوا يتكلمون حوالى ألف لغة تختلف عن بعضها اختلافا لم نر له مثيلا فى أى جزء آخر من العالم .

وتفسير الهذا التنوع المدهش فى حضارة الهنود ، يلزم أن نفهم ظروف البيئة وطرق تكيفهم معها للبقاء . فقد اشتغلوا ، فيما قبل التاريخ ، بحرفتى الجمع والالتقاط ، والصيد ، وظلوا تحت رحمة بيئتهم باستمرار ، رغم محاولتهم السيطرة عليها . ومثال ذلك ، أنه عندما حدثت التغيرات الجيولوجية الكبرى فى أمريكا الشمالية حوالى ٨٠٠٠ ق.م تحولت مساحات شاسعة تمتد من ولاية يوتاه Utah حتى مرتفعات أمريكا الوسطى من مراع خضراء الى صحراء جرداء لم تستطع الحيوانات الكبيرة والنباتات التى تحتاج الى مياه وفيرة أن تبقى فيها . وكان على الهنود ، اما أن يرحلوا وراء مصادر أخرى للغذاء ، أو يشكلوا حضارتهم وفق الظروف الجديدة ، ولم تستطع البقاء الا الحيوانات الصغيرة الحجم ، والنباتات التى تكيفت مع الظروف الصحراوية . ولعله أثناء هذه العملية ، وما صاحبها من تغيرات مناخية ، رحلت بعض المجتمعات ، وانقرض بعضها الآخر ، وتكيف البعض منها مع الظروف الجديدة .

الثورة الزراعية :

بدأ الإنسان خطوته الأولى للسيطرة على البيئة حين تعلم كيف يتحكم فى الحياة النباتية عن طريق الزراعة ، التى بدأت تحرر الكائنات الحية من الخضوع المطلق للطبيعة ، ولكى يتعلم كيف يبذر ، ويستنبت ، ويجمع المحصول ، كان لابد أن يقوم ببعض المهام ، وبذلك اكتسب سيطرة جزئية على البيئة ، وبهذا حدثت تغيرات حضارية هائلة .

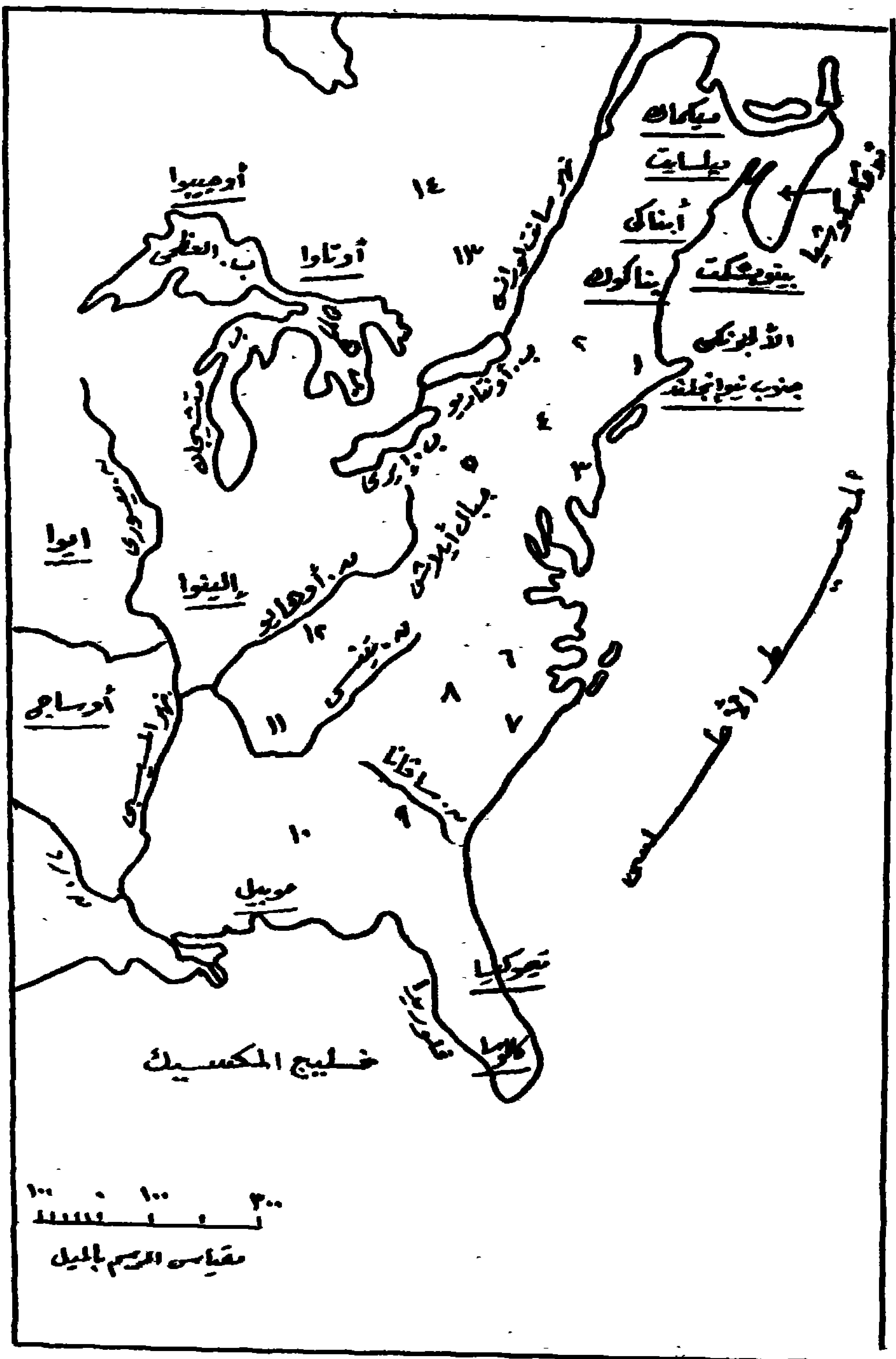
من الصعب تحديد تاريخ بدء الزراعة تحديدا دقيقا فى العالم الجديد ، وربما كان هذا فيما بين ٨٠٠٠ ق.م الى ٥٠٠٠ ق.م ، وكانت الزراعة فى ذلك الحين قائمة فى أوروبا وآسيا وأفريقية . وسواء ظهرت الزراعة مبكرة فى هذا الجزء من العالم أو ذاك ، فان الحقيقة الأهم هى أن « الثورة الزراعية » بدأت مستقلة فى أنحاء متعددة من العالم ، متباعدة جدا بعضها عن البعض الآخر .

وعندما حل انتاج الغذاء محل الجمع والالتقاط ، حدثت تغيرات هائلة في حياة المجتمعات لأسباب كثيرة منها : أولا ، أن استئناس النبات تطلب بقاء الانسان بجوار زراعته ، على عكس ما تعود الرعاة الرحل وأشباههم ، ثانيا ، أنه سمح بزيادة كبيرة فى السكان ، نظرا لزيادة الانتاج الغذائى ووفرته عند أية زيادة بسيطة في مساحة الأرض المزروعة ولو بنسبة ١٪ ، ثالثا ، قللت عملية الزراعة الوقت والجهد في الحصول على الغذاء ، فخلقت بذلك ظروفا مضمونة للنمو الاجتماعى ، والسياسى ، والدينى ، والفنى ، وابتكار الأساليب الفنية للأداء ، وأخيرا ، حدث تقسيم للعمل بين الجنسين فى كثير من المناطق ، فارتبط الرجل بصيد الحيوان ، بينما ارتبطت المرأة بالزراعة ٠

وهكذا ، أعادت الثورة الزراعية تشكيل الحضارات الوطنية ، حيث صاحب نمو السكان ، وبدء الاستقرار في القرى تعقيدات اجتماعية وسياسية متزايدة ، وبدأت القبيلة فى بعض المناطق تتطور الى كيانات اجتماعية أكبر ، يتولى السلطة فيها أفراد أو جماعات معينة فى نظام هرمى ، تنظم الانتاج وتتحكم فيه ، وفى توزيع فائض الغذاء ، وازداد التخصص فى العمل والواجبات ، وأصبحت التركيبة الاجتماعية أكثر تعقيدا ٠ كما أصبح رجال الدين فى معظمها هم الرمز المسيطر كما هو الحال فى أنحاء العالم الأخرى التى حدثت بها الثورة الزراعية ، فهو ينظم العامة من أتباعه ويوجههم للعمل ، ويحظى منهم بالاحترام والتبجيل ، نظير تعهده بحماية المجتمع من القوى المعادية ٠

وعندما وصل الأوروبيون الى « العالم الجديد » ، كان لدى الأهالى الأمريكيين صور مختلفة من هذه الثورة الزراعية ، مما ميز حضاراتهم بما فيها من اختلافات لافتة للنظر ٠ وهذا ما ستوضحه لنا اللمحة التى سنلقيها على كثير من هذه المجتمعات التى احتك بها الأوروبيون الأوائل فى بداية القرن السادس عشر ٠ فنجد أن حضارة الهوبى Hopi ، والثونيى Zuni فى منطقة جنوب غرب أمريكا الشمالية كانت مرتبطة بالزراعة وحياة الاستقرار فى القرى قبل وصول الأسبان اليهم بثلاثة آلاف سنة ٠ وفيما بين سنتى ٧٠٠ م ــ ٩٠٠ م ، بدأت هذه القبائل تتخلى عن نظام السكن فى الكهوف الصخرية ، وتبنى حجرات مستطيلة منتظمة فى شكل أبنية سكنية ٠ وفى حوالى سنة ١٢٠٠ م ، ظهرت فى حضارة « البويبلو » (*) Pueblo ، كما سماها الأسبان

(*) بويبلو : كلمة اسبانية ، تعنى الشعب أو العامة ، أو قرية الهندى الاحمر ، أو الهندى الاحمر من سكان اريزونا ونيومكسيكو ــ (المترجم) ٠



١ ـ الماهيكان
٢ ـ الايروكوا
٣ ـ الديلاوير
٤ ـ السسكيهانا

٥ ـ الايرى
٦ ـ التوسكارورا
٧ ـ الكاتاوبا
٨ ـ الشيروكى

٩ ـ الكريك
١٠ـ الشوكتاو
١١ـ التشيكاساو
١٢ـ الشاونى

١٣ـ الهدسن
١٤ـ الالجونكى

قبائل الهنود الحمر شرق امريكا الشمالية فى بداية الاتصال الاوربى ٠

قرى ذات صفوف من المبانى الكبيرة يحتوى كل منها على عدد من الغرف ٠ وقد بنيت هذه القرى في مواقع دفاعية ، تحميها الصخور من فوقها ، على واجهة صخرية منحدرة ، أو على قمم مسطحة ، أو على هضـــاب مستوية السطح ، منحدرة الجوانب ، وكلها مواقع تحمى الهوبى والثونيى من الأباش Apaches أعدائهم الشماليين ٠ وأكبر هذه القرى عنــد بويبلو بونيتا ، وتضم حوالى ثمانمائة غرفة يمكن أن يسكنها ألف شخص ٠ ولم نر نموذجا أكبر من هذه الغرف السكنية تم بناؤه فى القــارة لعدة مئات من السنين بعد ذلك حتى القرن التاسع عشر فى نيويورك سيتى ٠

ومع وصول الأسبان ، كانت قبائل الهوبى والثونيى تشق الترع وتقيم السدود ، وتسوى المنحدرات على شكل مدرجات توفيرا لمياه الرى لتلك المنطقة التى ظلت قرونا ، أرضا قاحلة ، أو تعيش على هامش الزراعة٠ وفى الوقت ذاته ، زاد اتقان صناعة الخزف ، وحل القطن محل ألياف اليكه Yucca (نبات أسبانى من الفصيلة الزنبقية) كمادة أساسية فى صناعة الملابس ، وازدادت صناعة السلال فنا وجمالا ٠٠ بهذا الحل الفنى لمشكلة الرى ، وبممارسة الزراعة ، والمعيشة فى القرية ، لم يكن مجتمع البويبلو عند بدء وصول الأسبان يختلف جوهريا عن المجتمعات الريفية فى معظم أجزاء العالم الأوروبى والآسيوى ٠

الآزتيــك : The Aztecs

فى أقصى الجنوب ، حيث ركز الأسبان جهودهم الاستعمارية الأولى ، نشأت حضارة مزدهرة تخالف حضارتهم تماما ٠ تلك هى امبراطورية الآزتيك الأسطورية فى وادى المكسيك ، حيث أدت الظروف المناسبة فى هذه المنطقة الى حدوث الثــورة الزراعية في أقصى مراحل تقدمها فى القارة ، مما زاد من سرعة التغير الحضارى ٠ لقد زادت كثافة السكان فى مجتمع ما قبل الآزتيك حوالى سنة ٩٠٠ ق٠م ، وزادت قدرتهم على الزراعة ، وتعقد تركيبهم الاجتماعى ٠ وبدأ التوتر يزداد بين بعض المراكز ذات السلطة القوية هناك والمنطقة الداخليــة ، أى بين المدن والريف ٠ وأصبحت هذه المجتمعات المدنية مركزا للتطور الفنى ، والقوة السياسية المهيمنة ، والتجارة ٠ وفى الفترة الأخيرة من العصــور الوسطى ، بينما كانت أوروبا مشغولة فى حروب طويلة حققت بها الطبقة الأرستقراطيــة امتيازاتها التى استمدتها من عرق الفلاحين ، وعلى بعد آلاف الأميال ناحية الغرب ، ظهر الآزتيك الذين تمكنوا خلال سلسلة من الحروب من فرض سيطرتهم على عدد من السكان قد يبلغ أربعة أو خمسة ملايين ، أى مجموع سكان فرنسا وانجلترا فى ذلك الحين ٠ وكان من خصائص القرن السابق لمجىء الأسبان ، التضحية بالدم ، ومواكب الأبهة والعظمة ، والتمســك

بالشـكليات والتقاليد ، والتباهي بالانفاق خاصة على موائد الطعام والملبس . كما ترجمت قوة الآزتيك الى مشروعات معمارية ضخمة كبناء المعابد والتماثيل ، والسـاحات العامة ، والأشغال الفنية الرفيعة من السيراميك والمعدن والحجر .

وجاء الأسبان ، وهم يتوقعون ألا يجدوا سوى شعب « بدائي » ، فظن كثير من جنودهم أنهم في حلم عندما وصـلوا الى تينوشتتلان Tenochtitlan عاصمة امبراطورية الآزتك ، ودليل ذلك ما كتبه برنار دياز دل كاستيو Bernal Diaz del Castillo، أحـد جنـود كورتيز Cortez ، حيث ذكر : « قال بعض الجنود الذين كانوا معنا ، والذين سبق لهم أن ذهبوا الى مناطق أخرى كثيرة مثـل القسطنطينية ، وجابوا ايطاليا ، وروما انهم لم يسـبق لهم أن رأوا مثل هذه الأسـواق الواسعة ، وهذه الكثرة من الناس ، بهذا النظـام والترتيب » (١) . وكان الجند الاسبان يفغرون أفواههم دهشة أمام روائع الهندسة والفن والنحت والتصميم المعماري المذهل . ويحق لهم ذلك ، لأن سـكان تينوشتتلان وعددهم ستون ألفا ، عشية الفتح الأسـباني ، قد حققوا مسـتوى رفيعا في الصناعة واقتصادا زراعيا متكاملا بما فيه من نظم متعددة للري ، وتسوية المنحدرات الجبلية على شكل مصاطب ، وبناء الجزر الصـناعية في البحيرات ، كل ذلك جعل الأوروبيين ينبهرون بما شاهدوه في أراضيهم .

حضارات هندية قديمة أخرى :

ظهرت حضارات أمريكية وطنية أخرى ، قوية ، تختلف تماما عن حضارات الثونيي ، والهوبي ، والآزتيك ، على امتداد عدة آلاف من الأميال شمال شرق امبراطورية الآزتيك ، وكانت تنتمي الى ثلاث مجموعات لغوية رئيسية ، وهي قبائل الألجونكي ، والايروكوا ، والسيبيوى Siouan ، وامتدت من وسط أمريكا الشمالية الى السهل الساحلي للأطلنطي ، وذلك منذ ١٠٠٠٠ سنة قبل الميلاد ، وكانـوا يجمعون بين حرفة الزراعة ، والجمع والالتقاط ، وصيد البر والبحر . ثم بنوا بالتدريج قرى صغيرة شبه ثابتة ، وأنشأوا شبكة واسعة من التجارة فيما بينهم عندما بدءوا يتأثرون بالثورة الزراعية كغيرهم من القبائل . وعلى العكس من الآزتيك الذين أخذوا بالسلطة الهرمية لرجال الدين ، الذين عاشـوا على خدمة المزارعين لهم ، نجد سكان منطقة الغابات هذه ، يعيشون في قرى تقوم على المساواة في حياة بسيطة للغاية .

بناة الاستحكامات :

من أكثر هذه المجتمعات اثارة للاعجاب ، أولئك الذين عرفوا باسم بناة الاستحكامات في وادى نهر أوهايو ، الذين شيدوا أعمالا هندسية عملاقة يشبه بعضها أحيانا شكل الانسان أو الطير أو الأفعى الملتوية . ولما عبر سكان مرتفعات الأباش لأول مرة ، بعد أكثر من قرن ونصف من وجودهم على أرض القارة ، ذهلوا بشدة من هذه الانشاءات الضخمة التى ارتفع بعضها الى أكثر من سبعين قدما . فلم يصـــدقوا أن هذه الانشاءات قد بناها الأهالى الوطنيون الذين كانوا يحسبونهم من البدائيين. ولذلك نسجوا الأساطير التى تقول بأن أقواما كانوا يعيشون على الجزر الغارقة الآن فى المحيط الأطلسى ، وأن سلالات من المصريين والفينيقيين طافت بهذه المنطقة النائية ، وبنوا هذه الآثار المثيرة للدهشة والاعجاب ثم اختفوا ، والآن ، يقول علماء الآثار والأنثروبولوجيون انهم أسلاف قبائل الكريك والشبوكتاو ، والناتشيز الذين تطورت حضارتهم فى بطء عبر قرون طويلة ، وازدادا تعقدها بصورة واضحة منذ مجيء المسيحية . وقد كشفت الحفائر فى جنوب أوهايو ــ فقط ــ عن عشرة آلاف ربوة صغيرة استخدمت للدفن ، كما تحددت بدقة ألف حظيرة مســورة بحوائط من الطين ، تضم احداها حصنا ضخما يبلغ محيطه نحو ثلاثة أميال ونصف الميل ، ويعرف علماء الآثار أن بناة الاستحكامات ، قد ساهموا فى شبكة واسعة للتجارة غطت النصف الشرقى من القارة ، واســتدلوا على ذلك بما عثر عليه فى المقابر من مواد مختلفة يمكن ارجاعها الى أجزاء أخرى من القارة ، مثل الشفرات الكبيرة الموضـــوعة مع الموتى ، وكانت تصنع من الظران أو الزجاج البركانى الذى يوجد فى التكوينـــات الصـــخرية فى ييلوستون ناشيونال بارك ، ومثل الصديريات المزينة بنقوش بارزة ، والحلى والأسلحة المصنوعة من النحاس الخام الموجودة فى منطقة البحيرات العظمى ، ومثل أدوات الزينة المشتقة من رقائق الميكا من جنوب جبـال الأبلاش ، والحلى المصنوعة من أسنان سمك القرش والتمساح الأمريكى أو من الصدف من خليج المكسيك .

حضارة المسيسبى :

أخذت حضارة بناة الاستحكامات فى الأفول حوالى سنة ٥٠٠ م ، اما نتيجة هجمات القبائل الأخرى عليهم ، أو لقسوة التغيرات المناخية التى قضت على الزراعة تدريجيا ، بينما كانت حضـــارة أخرى تزدهر ، فى الغرب ، ومركزها شمال سانت لويس الحالية ، وتنتشر لتشمل معظم خط سقوط الأمطار لنهر المسيسبى ابتداء من ويســـكونسن Wisconsin حتى لويزيانا ، ومن أوكلاهوما حتى تنسى Tennessee ، وتضـم

آلاف القرى . وفي حوالى ٧٠٠ م ، بدأت حضـارة المسيسبى هذه ، كما يسميها الأثريون ، تؤثر فى حياة معظم قبائل منطقة الغابات الشرقية، ومثلما فعل بناة الاستحكامات فى منطقة أوهايو ، ربما تأثـرت هذه القبائل بحضارة أمريكا الوسطى عن طريق التجارة والحروب ، فشيدوا أعمالا هندسية ضخمة كان بعضها أماكن للدفن والاحتفالات الجنازية ، وكان أكبرها على شكل ٤ مدرجات بارتفاع مائة قدم ، وله قاعدة مستطيلة تغطى نحو ٦٠٫٠٠٠ م٢ ، أى أكثر من قاعدة الهرم الأكبر فى مصر . وكان بناؤها فيما بين ٩٠٠ ــ ١١٠٠ م وكانت هذه المتاريس الضخمـة تواجه المدينة الهندية المسـورة بسياج من الأوتاد الخشـبية القوية ، والمبنية على جرف شاهق شديد الانحدار ، وتضم أكثر من مائة ربوة صناعية ، تدل على أماكن للدفن . وقد انتشرت فيها القرى الواسعة التى أسماها علماء الآثار حديثا (المدن الكبرى الأولى فى أمريكا) وكان عدد سـكان الواحدة منها نحو ٣٠٫٠٠٠ شخص حسب التقديرات الحالية .

وكشف مركز كاهوكيا Cohokia لحضـارة المسيسبى عن أوان خزفية ، ومشغولات دقيقة من الصخر ، ورقائق من النحاس والميكا ، بارزة أو محفورة بدقة ، وبعض الأغطية الجنازية المكونة من ١٢٫٠٠٠ خرزة من الصدف ، مما يدل على أن كاهوكيا كان مركزا حضريا بمعنى الكلمة ، بما يضم من تجمعات سكنية ، وأسواق ، وصناع مهرة للآلات والملابس المصنوعة من جلد الحيوان ، والقدور ، وأشغال المجوهرات ، والنسيج ، وصناعة الملح .

كانت حضارة بناة الاستحكامات وحضارة المسيسبى ، فى عنفوانها قبل وصول الأوروبيين الى شاطىء الأطلنطى بعـدة قرون ، ثم اضمحلت لأسباب غير واضحة حتى الآن ، الا أن آثارها انتقلت شرقا ، وغيرت من حضارة منطقة الغابات . وبالرغم من أن القبائل الواسعة الانتشار ، والتى كانت بطونا صغيرة لقبائل أكبر ، تمتد من نوفاسكوشيا (بأقصى الشمال) حتى فلوريدا (بأقصى الجنوب) لم تضارع أبدا المجتمعات الأولى فى وسط القارة فى التصميم المعمارى ، وأعمال الحفر ، وفنونها التعبيرية ، الا أنها كانت أبعد ما تكون عن الصورة البدائية التى رسمها الأوروبيون لسكان هذه الغابات . ونظرا لتأثرهم بحضـارة الهـوبويل Hopewellian ، والمسيسبى حوالى سنة ٩٠٠ م . أضافوا قليلا من الزراعة الى مهاراتهم التى اكتسبوها باستغلالهم لأنواع النباتات الطبيعية المختلفة ، المنتشرة فى الغذاء ، الدواء ، والصباغة ، ومكسبات الطعم والرائحة ، والتدخين . وقد استغلوا وسط هذا الخليط من النظم الاقتصادية ، جميع المصـادر الطبيعية حولهم ــ من أرض مكشوفة ، وغابات ، وأنهار ، وكذا ساحل الأطلنطى .

كانت شعوب الغابات الشرقيـــة ، هذه ، التى بدأ الصـــيادون الأوروبيون يعســـكرون فى أراضيها ، ويجففون ســـمك القد Cod على سواحلهم ، فى أواخر القرن الخامس عشر ، يعيشـــون فى قرى خاصة بهم ، بعد تأثرهم بالعـــادات الزراعية فى مجتمعات وادى أوهايو ، والمسيسبى · وحين خصصوا حقولا لزراعة الحبوب بالقرب من أماكن صيد السمك ، وتعلموا تسميد النباتات فى بداية نموها برءوس السمك، زادت حياة الاستقرار لديهم · وتجمعت مساكنهـــم المكونة من أكواخ بيضوية الشكل أو مستديرة ، ومصنوعة من خشب البتولا وشـــجر الدردار ، والتى اقتبسها الأوروبيون من الهنود الحمر فى السنين المبكرة ، فى قرى لها ســـياج من أســـياخ خشبية متينة مستدقة الأطراف · كما يسر لهم البرك (*) وسيلة سهلة للاتصال والتجارة فى منطقة مترامية الأطراف · وقد أبان علماء الآثار مدى التطور بين مجتمعات منطقة الغابات الشرقية فى باكورة الاتصال الأوروبى ، بما كانت تضمه مدينة للهورون فى منطقة البحيرات العظمى من أكثر من مائة مبنى ضخم كان يسكنـــه ما بين أربعة أو ستة آلاف فرد · هذه المستعمرات كانت أكبر حجمـــا من قرية أوروبية متوسطة الحجم فى القرن السادس عشر ، وأكبر من بعض مدن المستعمرات الأمريكيـــة بعـــد قرن ونصف من الاســـتعمار الأوروبى ·

واجه الأوروبيون عددا لا يحصى من القبائل الوطنية المتفرعة من قبائل الغابات الشرقيـــة على امتـــداد ســـاحل الأطلنطى ، من خليج سانت لورانس حتى فلوريدا ، وكل منها تحتفظ بعناصر حضـــارية خاصة بها ، وإن اشتركت فى سمات كثيرة ، مثل طرق الزراعة وصناعة الفخار ، والتنظيم الاجتماعى ، وصنع الأدوات والآلات · وأهم من ذلك كله ، براعتهم فى السيطرة على الحياة النباتية والحيوانية فى بيئتهم المحلية ، بطريقة أبقت على حياتهم ، وضمنت لهم الاستمرار والبقاء ، وقد كانت هناك ، فى أقصى المناطق الشمالية قبائل الأبناكى Abnakis ، والبينوبســـكوت Penobscots ، والباســـاماكودى Passamaquoddys ، وغيرهم ممن كانوا يعيشون على خيرات البحر ، ويدعمون وجبتهم الغذائية بسكر القيقب (**) ، وقليل من المواد الغذائية الأخرى · وفى أقصى الجنوب ، فيما يسمى اليـــوم بنيوانجلنـــد ، كان هنـــاك الماساشوستس Massachusetts ، والوامبانوج Wampanoags ، والبيكوت ، والنارانجانست ، والنيانتيك Niantics ، والماهيكان ، وغيرهم ،

(*) البرك : مركب ذو ثلاثة صوار ، مصنوع من خشب البتولا ، يسهل على الرجل حمله بمفرده ، والانتقال به من نهر الى آخر ـ (المترجم) ·

(**) القيقب : شجر بالمناطق المدارية الحارة فى الهند ـ (المترجم) ·

وجميعهم قبائل صغيرة ، لكل منهـا أرضها التى تناسب معيشتهم ، ولا يتصلون ببعضهم الا للتجارة من حين لآخر · والى الجنوب منهم ، فى منطقة وسط الأطلنطى اليوم كان اللينى Lenni ، والليناب Lenaps ، والسسكيهانوك Susquehannocks ، والنانتيكوك Nanticokes ، والبامانكى ، والشاونى Shawnees ، والتوسكارورا ، والكتاوبا ، وغيرهم ، وقد عاشوا جميعا على حرفة الزراعة مع جمع المحار ، وصـيد الحيوان ، وجمع النباتات البرية فى حياة شبه مستقرة فى قرى ·

وقد اكتشفت أماكن أخرى لعدد من الحضارات الغنية المتطورة ، التى ارتبطت ببعضها بنوع من التحالف الحر ، فى واحدة من أكثر المناطق ازدحاما على ساحل الأطلنطى جهة الجنوب الشرقى · ويمكننا تتبع أسلاف هذه الشعوب التى تنتمى الى مجموعات لغوية كثيرة الى ٨٠٠٠ عام على الأقل · فتوجد فى الجنوب الشرقى بعض المصنوعات الفخارية أكثر تطورا من نظيراتها فى النصف الشرقى من القارة ، قد بدأت حوالى سنة ٢٠٠٠ ق·م ، وقد تأثرت هذه الحضارات ببعضها ، كما نراه فى طرق بناء المقابر المحفـورة فى الصخور لدى قبائـل الهوبويل · وقبـل أن يتجول « دى سوتو » فى المنطقة ببضع مئات من السنين ، فى الأربعينات من القرن السادس عشر ، وجدت ساحات جنازية فخمة ، أنشئت فى منطقة شاسعة ، أصبحت الآن أحد المعالم البارزة لهذه الحضارة · وباحتكاكهم بحضارة المسيسبى طورت قبائل المنطقة الجنوبية الشرقيـة صـناعة السيراميك ، والسلال ، وتجارتهم الخارجية مع جيرانهـم الأبعدين ، كما اتصلوا فى بعض الأحيـان بالناتشيز ذوى التنظيمات الاجتماعية والسياسية التى أخذت بمبدأ اخضاع الفرد ، وحقوقه بالكامل للسـلطة الدينية · ويضم هؤلاء قبائل الكريك ، والياماسى الأقوياء فى منطقتى جورجيا والالاباما حتى مرتفعات الأباش فى فلوريدا ، وعلى طـول خليج المكسيك الى الشوكتاو ، والتشيكاساو Chickasaws ، والناتشيز فى وادى المسيسبى الأدنى ، وحتى الشيروكى فى جنوب الأبلاش ، بالاضافة الى عشرات القبائل الصغيرة المتناثرة على امتداد ساحل الجنوب الشرقى ·

هذا ، ويصعب الحصول على أرقام يعول عليهـا فى معرفة العدد الاجمالى لكل هذه الشعوب المتباينة ، التى كانت موجودة فى بداية الاتصال الأوروبى · وقد ناقش علماء الأنثروبولوجيا لعشرات السنين ، مستويات السكان فيما « قبل الفتح » ، وبحثوا عن الوسائل التى تمدهم بالتقديرات الموثوق بها · وقد قدرتها الأبحاث الأخيرة تقديرا مرتفعا بنسبة كبيرة · ويعتقد كثير من العلماء الآن أن عدد سكان الأمريكتين وأمريكا الوسطى قد

بلغ المائة مليون نسمة. ولا شك أن النصف الشرقي من أمريكا الشمالية لم يكن بهذه الكثافة السكانية كما كانت أمريكا الوسطى والجنوبية، وأنه طبقا لأكثر التقديرات تسامحا لم يزد عدد سكان أمريكا الشمالية كلها عن ١٠ ملايين نسمة، وربما كان ٥٠٠٫٠٠٠ نسمة منهم يحتلون منطقة امتداد الساحل خلال القرن الأول من المجيء الأوروبي. ونؤكد أنه حتى لو نزلنا بتقديرات أحدث علماء الدراسات السكانية وعلماء الأنثروبولوجيا الى النصف لبقيت لدينا الحقيقة المذهلة التي تقول بأن الأوروبيين لم يعبروا المحيط الأطلنطي، ليحتلوا أرضا جرداء مقفرة، بل غزوا أرضا كان سكانها في الكثير من أجزائها في كثافة أوروبا نفسها.

الايروكوا :

من بين حضارات منطقة الغابات الشرقية، سنركز باختصار على شعب الايروكوا، لنأخذ انطباعا حيا من نظام الحياة والمجتمع في واحدة، على الأقل، من حضارات الهنود الحمر. لم تكن الايروكوا واحدة من أكثر القبائل الشمالية الشرقية كثافة سكانية فقط، بل وأكثرها قوة أيضا. تمتد أراضيهم من جبال أديروننداك Adiro nadak حتى البحيرات العظمى، ومن شمال نيويورك حتى بنسلفانيا. وتسكنها خمس قبائل هي: الموهوك (« شعب الصوان »)، والأونيدا Oneidas (« شعب الحجر »)، والأونونداجا Onondagas (« شعب الجبل »)، والكيوجا Cayugas (« شعب المرسى »)، والسينيكا Senecas (« شعب التل العظيم »)، وتكون كلها ما يسميه الأوروبيون « عصبة الأيروكوا » أو « الجانونسيوني » Ganonsyoni التي تعني بلغة الايروكوا « الأسرة الهندية الممتدة بالطول ». وكان هذا الاتحاد الايروكوي امتدادا شاسعا لمجموعة قرابة واحدة ميزت النموذج الأسرى في الغابات الشمالية الشرقية. وربما ضمت « الجانونسيوني » ١٠٫٠٠٠ نسمة في بداية القرن السابع عشر.

لقد افتتن علماء التاريخ بأصل نشأة عصبة الايروكوا، لأكثر من قرن من الزمان، وحاول بعضهم اثبات أن الايروكوا كانوا ضعافا، غير منظمين عند بدء الاستيطان الانجليزي والفرنسي في العقد الأول من القرن السابع عشر، واستنتجوا أن هذه العصبة أو الرابطة، كان ظهورها رد فعل لمجيء الأوروبيين. الا أن الدراسات الحديثة، والتي تلقى قبولا واسعا تميل الى الأخذ بأن العصبة تكونت في أواخر القرن الخامس عشر نتيجة محاولات الايروكوا مواجهة المشكلة التي أزعجتهم لعدة أجيال خلال « اتحادهم العرقي المهلهل »، الا وهي مشكلة العداوات الثأرية، والعنف المستمر على نطاق محدود مع جيرانهم من قبائل الألجونكي. فقد أدت

زيادة السكان في الشمال الشرقي ، التوسع في نظام الزراعة الواسعة الى زيادة الحاجة الى الصيد أثناء تلك الفترة ، مما زاد من التقاء القبائل واحتكاكها ببعضهـا ، فكانت قرى الايروكوا مسيجة بالأوتاد الخشبية القوية المدببة في القرن الخامس عشر ، علامة على كثرة منازعاتهم ، وكان الرجال في القرى مشغولين بالحروب والقتال بصفة مستمرة • ولما أبحر جاك كارتييه Cartier نحو نهر سنت لورانس سنة ١٥٣٤ ، سمع من قبائل الألجونكي أن أعداءهم الايروكوا قد أزيحوا من منطقة اللورانس منذ عدة أجيال •

وتروى احدى الأساطير ، أن الايروكوا قد توحدوا على يد هياواتا Hiawatha وهو ساشم (*) من قبيلة الموهوك ، فقد سنة ١٤٥٠ تقريبا ، عددا كبيرا من أقاربه ، فخرج هائما على وجهه في القفار ، ومن المحتمل أنـه رأى ، وهو يهـذى ، مخلوقا غـير طبيعي يدعى « ديكاناويدا » Dekanawidah ، الذى ظهر أمامه ، وعينه نائبا عنه • وقد كتب أنتونى والاس أن « ديكاناويدا أصدر قرارا بتجديد حياة مجتمع الايروكوا » ، وحمل هياواتا هذا القرار معه من قرية الى قرية ، وجند معه حواريين له ، اعتبروه قائدا ملهما (٢) • واتخذت تخيلاته ورؤاه تدريجيا شكل خطة لتكوين اتحاد جديد ، قوى لقرى الايروكوا ذات التحالف الضعيف آنذاك • وكان مفتاح هذه الخطة هو تحريم القتل ، فاذا قتل لواحد منهم عزيز من أفراد أسرته ، أقيمت له طقوس العزاء والمواساة لتخفيف حدة الحزن ، وهو ما لم يكن ينفع فيه ، سابقا ، سوى الأخذ بالثأر • ويتكون مجلس من ٤٩ زعيما تفوضهم القبائل الخمس للاجتماع في أونونداجا ، واتخاذ القرارات الواجبة التنفيذ • وهكذا أنشأوا التنظيم السياسى الذى يحفظ السلام بين جميع قبائل الايروكوا ، ويشد اليهم القبائل المحيطة بهم ليدخلوا في حلفهم تدريجيا •

تقبلت القبائل بالتدريج ، ما بشر به هياواتا من تصورات ديكاناويدا وتخيلاته ، ولذا تحول اتحادهم العرقى المهلهل الى اتحاد سياسى أكثر تماسكا ، ذلك أن تحريم الثأر فيما بينهم أعطى القرى الفرصة للنمو ، والتمتع بالاستقرار ، وزيادة عدد السكان ، وتطوير أساليبها السياسية في حـل مشكلاتهـا الداخلية ، وكذلك لتكوين جبهة موحدة قوية في مفاوضاتهم مع الجيران من الألجونكي للسماح لهم باستخدام أراضى الصيد الواقعة الى الشمال ، أو السماح للقبائل التابعة لها بالاقامة في أرضهم • ونرى أن الايروكوا كانوا محظوظين بأن حدث ذلك كله خلال القرن السابق

(*) الساشم : تعنى الزعيم الهندى الاحمر — (المترجم) •

لمجيء الأوروبيين ، حيث سهل عليهم اقامة سياسية منسقة فى تعاملهم مع هؤلاء الوافدين • وقد تشابهت « حركة احياء » الايروكوا هذه ، فى كثير من جوانبهـا ، مع تلك الحركات التى ظهرت فى بعض أجزاء أخرى من العالم ، فى أوقات متباعدة كثيرة • فظهور شخص فى صـورة المخلص المنتظر ، الذى يفجر موجة أخلاقية جديدة ، وينظم طريقا جديدا للحياة ، وبالتالى يجدد حياة المجتمع فى أوقات الشدة ، كان لابد وأن يجد صداه القوى لدى الأوروبيين بما عندهم من أساطيرهم المسيحية • والواقع ، أن رسالة ديكاناويدا كانت تعكس الاحساس بالتضامن والارتباط الجماعى المشترك الذى كان سـمة مميزة للبيوريتانية فى نيوانجلند لعدة قرون تالية ، حيث يقول : « اننا نشد بعضنا بعضا فى دائرة متينة جدا ، لا يمكن لشجرة اذا وقعت عليها أن تكسرهـا أو تهزهـا ، لذلك سيبقى شعبنا وأحفادنا فى هذه الدائرة فى أمان ، وسعادة ، وسلام » (٣) •

اذن ، كان هدف عصبة الايروكوا ، فى أبسط صوره ، قبل وصول الأوربى هو « تقوية القرى ، وربطها ببعضها ، وتحصينهم ضد الهجوم من الخارج ، أو تجزئتهم من الداخل » • ثم قدم فلاسفتهم فيما بعد ، هدفا أسمى ، وجد له نظير فى وعى البيوريتانى أخلاقيا برسالته التبشيرية • ويقولون فى تفسير ذلك : : « ان القصد من هداية جميع البشر أن يكون السلام والسعادة من نصيب شعوب الأرض جميعا » • ولكى يأتلف الناس جميعا فى تحالف انسانى ، يزعمون قول ديكاناويدا : « ان الجذور البيضاء لشجرة السلام العظيمة ، ستظل تنمو ، وتدفع العقل السليم الى الاستقامة والسـلام ، وتنتقل الى أراضى الشـعوب الوطنية المتناثرة فى أعماق الغابة » (٤) •

واذا كان الأوروبيون قد شاركوا فى بعض مظاهر حضارة الايروكوا ، الا أن بعض المظاهر الأخرى كانت مختلفة لدرجة أقنعت المستعمرين بأن مجتمعهم ليس على غرار مجتمع الشعوب الوطنية الا فى القليل • ومثال ذلك ، أن العمل فى قرى الايروكوا يتم بصـورة جماعية ، لكن الأفراد لا يملكون الأرض ، فهى مشاع بينهم ، ويمكن للأسرة الواحدة أن تفلح رقعتها من الأرض ، وهى تدرك أنها لا تملكها ملكية خاصة • وكذلك الصيد ، عمل جماعى ، ورغم تفاوت الصيادين فى قدراتهم على مطاردة الحيوان فان الحصـيلة المتجمعة لابد أن تعود على القرية وتوزع بين الجميع ، كما أن المبنى السكنى المستطيل تسكنه عدة أسر ، ولكنه ملكية مشاع ، اذ أن مفهوم الملكية الخاصة عند الايروكوا بمعنى ملكية كل فرد لأرضه ومسكنه ، ترتبط فى الصميم بتنظيمهم ، ألا وهو المبدأ التعاونى

أو الجماعى • وقد كتب عن ذلك أحد الجزويت (*) الفرنسيين سنة ١٦٥٧ يقول : « لا حاجة بهم الى انشاء تكايا أو ملاجىء للعجزة والمحتاجين ، نظرا لعدم وجود مرضى أو معوزين يعيشون على الاعانات ، كما لا يوجد بينهم أغنياء • فالشفقة بينهم والانسانية ، والتعاطف ، والمجاملة تمنعهم من أن يكونوا أحرارا فيما يملكون ، فالملكية مشتركة بينهم • ويجب على القرية ألا تبيت وعندها حبة قمح وفيهم فرد جائع » • وفى نفس الوقت ، كتب باعطاء الناس بدلا من الأخذ منهم بعكس الحال عند المسيحيين » (٥) •

وينتظمون فى سكنهم فى القرية على أســـاس مجموعات القرابة الموسعة • وعلى العكس من الأوروبيين ، ترتبط أسرة الايروكوا فى نسبها بالأم ، وتتحدد العضوية فيها بالخط النسوى ، ولذلك تتكون الأسرة النموذجية لديهم من الأم الكبيرة ، وبناتها ، ومعهن أزواجهن وأبناؤهن ، ومن أحفادها وحفيداتها غير المتزوجين • ويظل الابن والحفيد فى مجموعة قرابة الأم حتى يتزوج فيصبح عضوا فى أسرة زوجته • ويقتصر حق الطلاق على الأم ، فاذا رغبته فما عليها الا أن تضع المتعلقات الشخصية لزوجها خارج الباب الرئيسى للبيت • وتبعـا لذلك ، نجد المجموعات العـــديدة من ذوى الخئولة ــ المرتبـــطة بالدم من جهـة الأم ــ تكون « الأواتشيرا » Ohwachira أى العشيرة ، وتتجمع العشائر فى مجموعات ، وقد تتكون القرية الواحدة من اثنتى عشرة عشيرة أو أكثر • وتتحد القرى أو العشائر لتكون الشعب (أو « دولة القرابة » كما كانت تسمى) عند السينيكا أو الموهوك (٦) •

لم يقتصر التنظيم الاجتماعى للايروكوا على نسب الأم فقط ، بل كان للنســـاء سهم فى الســـياسة ، حيث كان النفوذ السياسى يستمد من « العشائر » التى ترأسها السيدات العجائز ، وهن اللاتى يقمن بتعيين الرجال المندوبين عن العشائر فى القرى ومجالس القبائل ، وكذلك التسعة والأربعين ساشيم أو رئيسا ، الذين يجتمعون دوريا فى أونونداجا كمجلس حاكم للشعوب أو القبائل الخمس المتحالفة • وكان هؤلاء الرؤساء المدنيون « الروتيانير » rotiyanehr فى العادة من الشيوخ أو أكبر الرجال سنا الذين حازوا شهرة فى الحرب ، ولكنهم « تركوا الحرب الآن الى الحماسة فى المجلس » (٧) • ولم يقتصر نفوذ المرأة السياسى على مجرد تعيين أعضاء مجالس الحكم المختلفة ، ففى الاجتماع الأخير لأفراد العشائر فى مدينة نيوانجلند ، حضرت النسوة العجائز بالكامل ، على شكل مؤتمر حزبى

(*) الجزويت : جماعة دينية للرجال ، أسسها القديس اغناطيوس ليولا عام ١٥٣٤ م (المترجم) •

خلف دائرة الرجال الخطباء ، ليضغطن عليهم ويوجهنهم ، فيبدو الأمر للغريب عنهم وكأنَ الرجال هم الذين يحكمون ، لأنهم يلقون الخطب ، ويتخذون القرارات رسميا ، الا أن النساء تشاطرنهم هذه السلطة والنفوذ. واذا انحرف رجال القرية أو مجلس القبيلة بعيدا عن ارادة النساء اللائى قمن بتعيينهم ، يتم اقصاؤهم أو « تنزع عن رؤوسهم قرون الماشية » ، وطالما رضيت هذه العجائز عنهم فانهم يظلون فى مراكزهم آمنين ٠

وللنساء أيضا ، دورهن فى اقتصاد القبيلة ، اذ تقع مسئولية الصيد فى البر والبحر على الرجال ، ويقع واجب الزراعة الأساسى على النساء ٠ وبتحملهن عبء العناية بالمحاصيل ، يصبح لهن نفس الأهمية فى الحفاظ على المجتمع وبقائه ٠ فضلا عن أن الرجال يتركون للنساء مسئولية ادارة الحياة اليومية فى مجتمع القرية عند خروجهم للصيد ، واضطرارهم فى كثير من الأوقات الى الابتعاد عن القرية لمسافات طويلة ، وأسابيع عديدة ٠ ولهن دور مهم فى شئون الحرب ، اذ يقمن بصناعة النعال من الجلد الناعم للمحاربين ، ويقدمنَ لهم الطعام ، فاذا امتنعن عن ذلك فمعناه عدم موافقتهن على القيام بالغزوة ٠ وهكذا تتوزع السلطة بين الجنسين ، وتختفى تماما فكرة الأوروبى عن سيادة الرجل وخضوع المرأة فى كل شىء ٠

ولكى نفهم طبيعة التفاعل بين الايروكوا والأوروبى ، علينا أن نبحث فى نشأة « شخصية » الأيروكوى ، ونموذج سلوكه الفردى ٠ ونحن نعلم أن علماء النفس يرون أن معظم خصائص الشخصية لدينا ، وطريقتنا فى الاستجابة للأشخاص والأحداث المحيطة بنا ترتبط بجذور قوية بتربيتنا فى الصغر ٠ فوسائل المجتمع فى تربية الطفل ، اذن ، مهمة فى فهم سلوك الجماعة ٠ والايروكوا وشعوب الغابات ــ وهم ليسوا أقل من الأوروبيين ــ قد ربوا أطفالهم على الأساليب التى تنقل اليهم المعرفة والمهارات اللازمة لبقاء مجتمعهم ٠ كما نقلوا اليهم ميراثهم الحضاري والتاريخي لكي تنطبع فيهم شخصية الجماعة ، والإحساس القوي بالولاء لها ، والمسئولية تجاهها ٠ وهكذا يعلمونهم كيفية الصيد ، وصنع الآلات ، وزراعة المحاصيل ، وكيفية تحديد أنواع النباتات والحيوانات ، تماما كما كان الانجليز يعلمون أطفالهم مبادىء الحياة اليومية ٠ وقد حرص كل من المجتمع الانجليزى والإيروكوى على ملء أطفاله بالاحساس بتراثهم ، وغرس ولائهم للجماعة من خلال الشعائر والطقوس ٠

ولكن تختلف أوجه تربية الطفل بين الأوروبى والايروكوى فى موقفه تجاه السلطة ٠ فالفرد المثالى فى مجتمع الايروكوا هو الفرد الاستقلالى ، المخلص لجماعته ، ولكنه حر ، ومتحفظ ، ومنعزل أكثر منه خاضعا ومطيعا٠ وقد لاحظ أحد الكويكرز فى بداية القرن التاسع عشر أن « الحرية بأجلى

معانيها هى الرغبة المتحكمة فيهم » · وكان لهذه الملاحظة صدى لتقديرات الجزويت (اليسوعيين) منذ قرنين من الزمان (٨) · وينتظر من أولادهم أن يكونوا صيادين مهرة ، غير أنانيين ، مخلصين للعشيرة ، ويفقدون احترامهم اذا اتكلوا على غيرهم ، أو خضعوا لهم ، أو اذا أفرطوا فى الخوف من السلطة · ويتدربون فى باكورة حياتهم ، على حد قول والاس « على أن يفكروا لأنفسهم ، ويعملوا للآخرين » (٩) · ويجرى اعدادهم لدخول مجتمع البالغين على أساس المساواة ، وتوزيع السلطة بالتساوى بين الرجال والنساء أو بين الكبار والشباب · يخالفون بذلك المجتمع الأوروبى حيث كانت السلطة فيه هرمية · ونظراً لأن الواحد منهم لا يكافأ بحيازته لقطعة أرض ، أو باعطائه أدوات يمتلكها ، لذا فقدت ملكية الأرض أهميتها فى المنافسة ، وأصبح الفرد يستمد احترامه وهيبته باعتباره صيادا ماهرا ، أو محاربا قويا ، كما أن السعى وراء مصلحته على حساب زميله فى العشيرة لا يورثه الا الازدراء · ونعلم أنه فى المجتمع الأوروبى ، حيث يتوق الفرد إلى الملكية المادية ، ولو مما فى يد الغير ، وحيث يفرق البناء الإجتماعى ، بدقة وبصورة معقدة ، بين الغنى والفقير ، والتقى والشرير ، والمتعلم والأمى ، والرجل والمرأة ، ومن له حق الانتخاب ، ومن يحرم منه ، يعطى هذا المجتمع الأوروبى اهتماما بالغا فى قواعد التربية الأساسية للطفل للحفاظ على احترام السلطة بالقدر المناسب وطاعة الحكومة ، والمحافظة على التسلسل الطبقى ·

وكانت أساليب تربية الطفل عند الايروكوا تتسم بدرجة كبيرة من حرية الاختيار · ولا يعتقد الوالدان فى العقوبة البدنية القاسية ، بل يشجعان صغيرهما على تقليد سلوك الكبار ، ويتسامحان معه اذا حاول التجربة فأخطأ · فالأم تتعهد طفلها بالرعاية والحماية ، ولكنها فى ذات الوقت تقسو عليه بحمام من الماء البارد · ولا يبدأ فطامه فى العادة قبل سن الثالثة أو الرابعة · وبدلا من زجره ليتحكم فى نفسه عند قضاء الحاجة ، يسمحان له بتحقيق ذلك الضبط تدريجيا وبشكل طبيعى · ذلك كله كان يناقض بشدة أساليب الأوروبى فى تربية الطفل ، التى تؤكد على أهمية تعويده على الطاعة المبكرة ، ويعزز ذلك بفطامه وعمره سنتان تقريبا ، وتدريبه من الصغر على ضبط النفس عند قضاء الحاجة ، وبتطبيق العقاب البدنى دائما ، وتجريم الفضول الجنسى المبكر لديه ، والتأكيد على الطاعة واحترام السلطة · ويمكننا النظر الى الآباء الايروكويين على أنهم لم يفهموا نصيحة جون روبنسون ، راعى الكنيسة ، وهو يعظ حشدا من المصلين حيث يقول : « ولدى جميع الأطفال ، بالتأكيد ··· تصلب ، وعناد نابعان من الاعتزاز الطبيعى بالنفس ، والأساس الأول للتربية هو كسر هذا التصلب والعناد ، حتى يسهل اخضاعهم وتشكيلهم فى المستقبل ، وغرس

الفضائل الأخرى فى حينها ••• ويجب ألا يعرف الأبناء ، ان أمكن اخفاء ذلك عنهم ، أن لهم رغباتهم الخاصة بهم ، بل لابد أن تتطابق رغباتهم مع رغبات آبائهم » (١٠) •

ويختلف أعضاء المجتمع البالغون فى تعاملهم مع السلطة ، اذ تخلو حضارة الايروكوا ، مثلها مثل معظم الحضارات الهندية فى أمريكا الشمالية من نظم المجتمع الأوروبى المستخدمة فى توجيه حياة الأفراد وضبطها ، فلا يمكن أن تجد قوانين وأوامر ، ولا عمدا ولا شرطة ، ولا قضاة ومحلفين ، أو محاكم وسجونا فى الغابات الشمالية الشرقية قبل المجىء الأوروبى ، ومع ذلك كانت قواعد السلوك المقبول مرعية بكل صرامة • وبالرغم من اعتزاز الايروكوا بشخصيته الاستقلالية ، يحتفظ بادراكه لمعنى الخطأ والصواب ، وبعيدا عن أدوات السلطة الرسمية المألوفة ، يقيمون السلوك على أساس ما تشربوه من وعى تام بالتقاليد ، والارتباط بالجماعة عن طريق أداء الطقوس الجماعية • هذا الشعور بالواجب ، الذى يدعمه الخوف من القيل والقال ، ومن الاعتقاد الراسخ فى قدرة القوى الشريرة على معاقبة المخطىء ، هو الذى يكبح الغرائز الضارة بالمجتمع عند الايروكوا • أما المجتمع الأوروبى فيواجه السلوك الاجرامى أو اللا أخلاقى باجراءات البحث والتحرى ، والقبض على الفاعل ، واقامة الدعوى واصدار الحكم ، والسجن ، مع ما تتضمنه مختلف الخطوات من سلطة لعدد من الأفراد ، والأجهزة القانونية • لكن المجتمع الايروكوى له نظام أقل تعقيدا من الشخص المنحرف ، فمن يسرق طعام غيره ، أو يجبن فى الحرب يوبخه أهله ، وتنبذه عشيرته حتى يكفر عن سيئته ، ويثبت لهم بما فيه الكفاية أنه قد تطهر من ذنبه •

لم يتوقع الأوروبيون الوافدون الى أمريكا الشمالية أن يجدوا غير شعب « بدائى » ، ورغم ذلك بهرهم ذلك الجانب من التقاليد الدينية عند الايروكوا التى تحث الفرد على النظر الى الأخلاق كمفتاح لحل مشكلاته ، والانهماك فى علاج نفسى جماعى ، يجد فيه المساعدة من رفاق القبيلة • فقبل ظهور نظرية فرويد للتحليل النفسى بأكثر من قرنين كان الايروكوا ، وغيرهم من هنود الشمال يعرفون كثيرا من أسس علم النفس الحديث • فعرفوا الشعور واللاشعور فى الذاكرة ، وأن رغبات اللاشعور غالبا ما تعبر الأحلام عنها بالرموز ، وأنه اذا لم يتم حلها أو اشباعها يمكن أن تسبب مرضا نفسيا أو جسديا نفسيا (سيكوسوماتى Psychosomatic) • كما عرفوا أن الكوابيس والأحلام المزعجة يمكن الشفاء منها اذا حكاها الفرد لجماعة تحاول مساعدته على تفسيرها والشفاء من مشكلته المترسبة فى اللاشعور •

وقد وصف الأب راجينو Ragueneau ، وهو قسيس متشكك من الجزويت ، نظرية الأحلام هذه كما شاهدها فى قرى الهورون سنة ١٦٤٩ ، فقال ان الهنود الحمر يعتقدون أنه :

بالاضافة الى الرغبات التى نعتبرها ــ بصفة عامة ــ حرة أو على الأقل اختيارية فينا ٠٠ توجد رغبات نفسية أخرى فطرية مكبوته ، تأتى ــ على حد قولهم ــ من أعماق النفس دون أية خبرة ، بل تنتقل بوسائل خفية من النفس الى أشياء معينة ما نسميه بلغة الفلسفة « الرغبات الفطرية » (الخلقية) Desideria innata تمييزا لها عن « الرغبات الظاهرية » Desideria Elicita ، وتكشف عنها نفوسنا بلغة الأحلام ، واذا تحققت تم اشباعها ، وعلى العكس من ذلك ، اذا لم يتيسر لها ما ترغبه تنذر بالغضب ، ولا تحرم الجسم الراحة والسعادة فقط ، بل غالبا ما تثور عليه مسببة مختلف الأمراض وربما الموت أيضا ٠٠٠ ونتيجة لهذه الأفكار الخاطئة يحرص معظم أفراد الهورون على الاهتمام بأحلامهم ، فيحاولون توفير ما صورته لهم أثناء نومهم ٠ فاذا رأوا ، مثلا ، الرمح فى الحلم حاولوا الحصول عليه ، واذا رأوا أنهم يقيمون وليمة ، أولموها بعد الاستيقاظ اذا توفر معهم المال اللازم ، وهكذا ٠٠٠ ، ويسمون ذلك « أوندينونك Ondinnonk » ، أى رغبة نفسية خفية تظهر فى الحلم (١١) ٠

ان من الخطأ أن نصور حضارة الايروكوا فى صورة رومانسية ، أو نحكم عليها بأنها أرقى من حضارة الغزاة الأوروبيين ٠ والا ، فاننا بذلك نستعمل نفس تصنيف « الأسمى » و « الأدنى » الذى اعتاد الأوروبى أن يبرر به العنف الذى أطلق له العنان عند وصوله الى العالم الجديد ، وننسى أن تصنيف الحضارات يكاد يعتمد كلية على ماهية المعايير المستخدمة فيه ٠ وبدلا من التصنيف على أساس التمييز العنصرى ، يجب أن نفهم أن مجتمع الايروكوا مثله مثل المجتمع الانجليزى أو الفرنسى ، كان تنظيما اجتماعيا كاملا خاضعا للتغيير ــ التغيير الذى يرونه مساعدا لتحقيق ما يرونه مهما ٠ وكانت حضارة الايروكوا قديمة جدا كحضارة الانجليزى أو الفرنسى ، وخضعت لتحولات كبيرة قبل مجىء الأوروبى ٠ وباحتكاكهم الديناميكى مع بيئتهم ، ومع الشعوب المجاورة أصبحت قراهم الصغيرة أكثر ازدحاما ، وأكثر استقرارا ، وازدادت مهارتهم فى الزراعة ، وفى تطور الفنون واتقانها ، وأصبحوا من أقوى المجتمعات الوطنية المحاربة ، والمتحدة سياسيا فى منطقة الغابات الشمالية الشرقية ، حتى انهم بعد

تكوين عصبة الايروكوا التى كان من أهدافها منع الحروب الداخلية بين القبائل ، يبدو أن عدة حروب قد نشبت بين شعوبها الخمسة وشعب الألجونكى الموجود بينهم ، وكان كثير من هذه الصراعات تحقيقا لمظاهر العظمة ، وكان بعضها اختبارا لتحالف القبائل الخمس القائم حديثا ضد القبائل الأقل شأنا ، والتى يمكن ضمها تحت لواء الايروكوا · ومهما كانت الأسباب ، فان الايروكوا عشية مجيء الأوربيين كانوا مهابين من جيرانهم ، وأحيانا مكروهين لمهارتهم وقسوتهم فى الحرب ، وهم يعتقدون فى تفوق حضارتهم كاعتقاد الأوروبيين الوافدين فى حضارتهم أيضا ·

لم يكن الايروكوا ، بالطبع ، هم القبائل الهندية الوحيدة التى واجهها الأوروبيون فى أوائل القرن السابع عشر ، فعلى طول ساحل الأطلنطى ، من خليج سنت لورنس الى فلوريدا ، قابل الانجليز ، والأسبان ، والهولنديون ، والفرنسيون عددا كبيرا من القبائل ، تختلف عن بعضها كثيرا فى عدد سكانها ، وقوتها ، وكثيرا ما حدثت تفاعلات ثقافية فيما بينها حتى فى أقل المناطق كثافة فى السكان · وفى مناطق عديدة ، ونتيجة الصراع الداخلى بين القبائل ، نشأت وحدات أو اتحادات سياسية ، كان على الأوروبيين أن يحسبوا لها حسابها · ومن الواضح أنه حتى الأعداد القليلة من الهنود كان من الممكن أن يمثلوا مشكلة كبيرة لهؤلاء الذين قصدوا احتلال أراضيهم ·

المراجـــع

1. Bernal Diaz del Castillo, « The Discovery and Conquest of Mexico, 1517 — 1521 » (New York : Farrar, Straus and Cudahy, 1956), pp. 218-19.
2. Anthony F.C. Wallace, «The Dekanawidah Myth Analyzed as the Record of a Revitalization Movement », Ethnohistory, 5 (1958) : 126.
3. Anthony F. C. Wallace, « The Death and Rebirth of the Seneca » New York : Alfred A. Knopf, Inc., 1970), p. 42.
4. Ibid., p. 42.
5. Reuben Gold Thwaites, ed., « The Jesuit Relations and Allied Documents ; Travels and Explorations of the Jesuit Missionaries in New France, 1610-1791 » (Cleveland : Burrows Brothers, 1899), 43 : 271 ; Johannes Megapolensis, Jr. « A Short Account of the Mohawk Indians », (1644), in J. Franklin Jameson, « Narratives of New Netherland, 1609-1664 » (New York : Charles Scribner's Sons, 1909), p. 179.
6. William N. Fenton, The Iroquois in History, in «North American Indians in Historical Perspective », eds. Eleanor Burke Leacock and Nancy Oestreich Lurie (New York : Random House, Inc., 1971), p. 139.
7. Ibid., p. 138.
8. Quoted in Wallace, « Death and Rebirth of the Seneca, p. 38 ».
9. Ibid., p. 34.
10. Quoted in John Demos, « A little Commonwealth : Family Life in Plymouth Colony » (New York : Oxford Univ. Press, Inc., 1970), pp. 134-35.
11. Quoted in Anthony F. C. Wallace, « Dreams and the wishes of the Soul : A Type of Psychoanalytic Theory among the Seventeenth-Century Iroquois, » American Anthropologist, 60 (1958) : 236.

الفصل الثانى

الأوروبيون يصلون الى الأمريكيتين

سادت في التاريخ الانســـانى ، فيما بين القرنين الخامس عشر ، والعشرين محاولة صبغ العالم بالصبغة الأوروبية • أو بمعنى أدق ، التوسع العسكرى لشعوب أوروبا وحضارتها فى القارات الأخرى • ولم تتوقف هذه العملية ، الا فى النصف الأخير من هذا القرن ، حيث ناضلت الحضارات القديمة لاستعادة استقلالها عن طريق حروب التحرير الوطنى والثقافى • ويرى المؤرخون الغربيون أن هذا الانتشــــار العالمى كان معادلا بالضبط لانتشار « المدنية » ، أى نقل الحضارة الأوروبية الراقية ، فى زعمهم ، الى مناطق العالم التى كانوا يسمونها « بدائية » • وهكذا ، نظرا لابتلاع حضارات شتى على يد الأوروبيين المستعمرين ، ازدادت قوة الانطباع العام بأن « التقدم » بهذا الشـــكل من انتشار المدنية الأوروبية الخادعة ، وبلا حدود ، قد تحقق فعلا •

ومع ذلك ، اذا استعدنا الأحداث الماضية ، وتأملناها نجد أن التفوق الحضارى الأوروبى فى ذلك الوقت الذى انكشف (وليس اكتشف) فيه نصف الكرة الغربى أمامهم ، هو مسألة بعيدة عن الوضوح • فقد أحاط الشـــك ـ حقيقة ـ بهذه الفكرة الغامضـــة عن « تفوق » و « تدنى » الحضارات ، وحان الوقت للاقلاع عن هذه المفاهيم فى دراساتنا للتاريخ • والحقيقة الأهم ، هى أنه كانت هناك « عوالم جديدة » وضعت فى خدمة المستعمر الأوروبى وقذفت بأوروبا بعيدا عن فترة الركود والرجعية التى طالت زمنا • ذلك أنه قبل تحول المحيط الأطلنطى الى كيان مائى معروف بأكثر من قرن من الزمان ، كانت أوروبا تعانى من نقص سكانها ، نتيجة الأوبئة ، والحروب الطويلة ، والركود الاقتصـــادى الذى يتضح من قلة الانتاج ، وانحسار التجارة ، كما كانت تعانى من جمود الحضارة المسيحية بصفة عامة ، فى فترة اتسمت بغياب التقدم فى العلوم الطبيعية واضمحلال الجامعات ، وانهيار الامبراطورية الرومانية المقدسة • وكانت الحضارة الاسلامية هى أكبر قوة فعالة ونشطة فى أوروبا فى القرنين الرابع عشر

والخامس عشر · تلك الحضارة التي انتشرت في أفريقية بسرعة ، وأخذت تتقدم شيئا فشيئا الى أوروبا من جهة الشرق · وتميزت أوروبا الغربية قبل « عصر الكشوف » بالنظرة التشاؤمية (*) ، والكلبية (**) ، واليأس ، فكان العصر عصرا سوداويا كئيبا · فضلا عن أن الموارد الطبيعية في أفريقيا وآسيا والأمريكتين – من ذهب ، وفضة ، وأرض ، وسكان – أدت الى انتعاش تجارى خلال أربعة قرون من التوسع والتطور الأوروبى · فعندما حاول كولومبس البحث عن طريق مائى الى أقدم أجزاء العالم القديم ، أخطأ طريقه فوصل الى العالم الجديد ، حسب التصور الأوروبى فقط · الا أن هذا الخطأ الذى جاء وليد الصدفة ألهب خيال الأوروبيين (ولعل ذلك كان أهم ميزة فيهم) وأحيا روح المغامرة والتوسع فيما وراء البحار لأكثر من أربعمائة سنة ·

التوسع الأسبانى فى العالم الجديد :

ظن كولومبس أنه وصل الى الهند ، عندما سار لأول مرة على جزيرة اسبانيولا Hispaniola سنة ١٤٩٢ · وكان هذا هو هدفه بالضبط ، أن يجد طريقا مائيا بالكامل الى الشرق ، ليتمكن التجار الأوروبيون الذين يقايضون على البهارات التى لا غنى عنها لاعطاء الطعام الأوروبى مذاقا طيبا ، من تفادى دفع المكوس لحكومات الشرق الأوسط ، الذين كانوا يكسبون أولا بأول من وراء أية مغامرة تجارية على الطرق البرية · ومن المألوف أن نركز على الأهمية البحرية والجغرافية لرحلات كولومبس ، ولكن الحقيقة أن انحرافه عن الطريق البحرى السليم كان سيكتب عنه فشل باهظ الثمن ، اذا ظهر أنه لم يعثر على الطريق البحرى المزعوم الى الهند ، ولم يكتشف الذهب فى جزيرة اسبانيولا سنة ١٤٩٣ ، فبدون الذهب ، وغيره من المعادن النفيسة ، تصبح هذه الأرض المكتشفة حديثا مجرد عقبة على الطريق البحرى الى الشرق ·

ولكن بالرغم من اكتشافه صدفة ، كان كولومبس لا يزال نموذجا أصليا للتوسع الأوروبى ، وتفكيره نموذجا كاملا للعصور الوسطى ، وكان أيضا طموحا ومغامرا ، مستعدا لترجمةأية فكرة ، مهما كانت مثيرة للسخرية ، ويترجمها الى عمل حقيقى · وكان متهورا الى الدرجة التى جعلته يحافظ على هدفه عندما كان جنوده البحارة مستعدين للتمرد عليه

(★) التشاؤمية : الاعتقاد بأن كفة الشر والشقاء هى الأرجح فى هذا العالم ، عن كفة الخير والسعادة ·

(★★) الكلبى . المتشائم ، الساخر ، الذى يؤمن بأن السلوك البشرى تهيمن عليه المصالح الشخصية الذاتية وحدها ·

ليأسهم من مجرد رؤية اليابسة مرة ثانية • وباستفادته من التقدم الكبير في التكنولوجيا البحرية ، والكشوف البرتغالية في القرن السابق ، اكتشف كولومبس ، مثله في ذلك مثل الفايكنج Vikings قبله بخمسمائة سنة ، أن المحيط الغربي من أوروبا لم يكن بلا حدود ، **وكانت لديه الجزأة الأوروبية التي أثبتت قيمتها في عملية الاستعمار في القرون التي تلت ، وبالتالي أثبتت أهميتها في تدمير الحياة الانسانية •**

وباكتشاف الذهب ، بدأت حركة اندفاع تجار الجملة من شباب أقل الطبقات نبلا في أسبانيا بالمغامرة بعبور الأطلنطي • وكانوا في الخمسينات من القرن السادس عشر قد اكتشفوا ، وفتحوا باسم الملكة ، وادعوا حق ملكيتهم في برزخ بنما ، والمكسيك ، ومعظم أمريكا الجنوبية ماعدا البرازيل ، والسهول الجنوبية القصوى ـ وكذلك المراكز الجنوبية المهمة في أمريكا الشمالية ، امتدادا من كاليفورنيا على ساحل المحيط الهادى الى فلوريدا على ساحل الأطلنطي • وثبتوا سلطة الأسبان ، والكنيسة الكاثوليكية بقيادة شخصيات عسكرية مثل كورتيز ، وبثارو Pizzaro ، وكورونادو Coronado على مساحة تربو على مساحة وطنهم الأم ، ويزيد عدد سكانها أضعافا مضاعفة • وبنهاية القرن السادس عشر تم فتح المراكز الرئيسية للسكان الوطنيين ، وأخذت نحو ستين سفينة تمخر عباب الأطلنطي سنويا بين أشبيلية والمستعمرات الأسبانية ، تنقل آلافا من العبيد المستوردين من أفريقية ، وكميات مذهلة من الفضة المستخرجة من مناطق أسبانيا الجديدة •

ظلت السيادة الاستعمارية لأسبانيا على أمريكا طوال القرن الأول من التوسع الأوروبي فيما بين تسعينات القرن الخامس عشر الى تسعينات القرن السادس عشر • ولم ينافسها في ذلك سوى البرتغال ، التي اتجهت جهودها أساساً الى استعمار جزر الآزور بالأطلنطي والواقعة على بعد ٨٠٠ ميل من ساحل البرتغال • وأنشأت مراكز تجارية على السواحل الشرقية والغربية لأفريقية • وحتى الخمسينات من القرن ١٦ لم تدع البرتغال لها حقا في البرازيل ، التي أصبحت مركز نشاطها في العالم الجديد • وبنهاية القرن ، احتاج انتاج السكر الى جهد الخمسة والعشرين ألف مستعمر برتغالي ، وربما الى عدد مساو لذلك من العبيد الزنوج في البرازيل •

دخول الانجليز سباق المستعمرات :

في الوقت الذي أدركت فيه انجلترا ، ما يبشر به العالم الجديد من خيرات ، كانت القوتان في شبه جزيرة أيبيريا (أسبانيا والبرتغال) قد ترسخت أقدامهما بقوة هناك • أما انجلترا فكانت أكثر الدول الأوروبية

التى تواجه الأطلنطى تخلفا فى كشف الأمريكتين واستعمارهما • فرحلات جون كابوت John Cabot وصحة اسمه ، جوهان كابوتى Johann Caboti المولود فى جنوا – هى التى أعطت انجلترا الحق فى أن يكون لها مكان فى سباق العالم الجديد • ولم يعقب هذه الرحلات التى قام بها كابوت فى التسعينات من القرن السادس عشر أية رحلات أخرى مشابهة ، وحتى تلك الرحلات الشهيرة لجون هوكنز J. Hawkins فى الستينات من القرن السادس عشر يجب تجاهلها لعدم أهميتها فى التوسع الأوروبى فى أمريكا ، لأن هوكنز كان ، فى الأساس ، مشغولا بقرصنته من الدرجة الأولى بغاراته على التجارة الأسبانية فى البحر الكاريبى بمساندة من التجار الانجليز المعادين للكاثوليكية ، والذين يأملون فى اغراء حكومتهم بتقديم الرعاية والعون المالى فى محاولاتهم المنعزلة ، غير المنظمة للقضاء على الاحتكار الأسبانى والبرتغالى للعالم الجديد •

لا يرجع دخول الانجليز فى سباق الاستعمار ، الى الرغبة فقط فى المشاركة فى استغلال العالم الجديد ، بل الى المساهمة أيضا فى الحرب العقائدية التى شبت فى أوروبا خلال النصف الأخير من القرن السادس عشر حيث أنهكت جميع القوى الأوروبية الغربية المطلة على الأطلنطى باستثناء الدول الاسكندنافية فى الصراع بين أولئك الذين آمنوا بالكاثوليكية والذين التزموا بالبروتستانتية • هذا النزاع القومى ، الأيديولوجى ، يجب النظر اليه كاستمرار للموضوعات والاهتمامات التى برزت فى حركة الاصلاح البروتستانتية وحركة الاصلاح المضادة لها • ومن المهم أن ندرك ، أن الاهتمام باستعمار العالم الجديد جاء « فى فترة من التاريخ الغربى تتميز بالعنف غير العادى ، والاستقطاب العقائدى » (١) •

ومن السهل على باحثى القرن العشرين أن يفهموا فكرة المنافسة الوطنية أكثر من فهمهم للصراع الأيديولوجى • فالمستعمرات فى الأجزاء المكتشفة حديثا من الكرة الأرضية تمثل مصادر قوة اضافية للوطن الأم ، بما تمده به من أسواق ومواد خام جديدة ، فاذا كانت تشمل الذهب والفضة ، أضافت الى رصيده معيارا من معايير قوة الأمم فى ذلك الحين • لذلك كانت انجلترا فى نهاية القرن السادس عشر شغوفة باقامة موطىء قدم لها على ساحل أمريكا الشمالية ، لأن أسبانيا والبرتغال قد سيطرتا بالفعل على أجزاء من البحر الكاريبى فى قارة أمريكا الجنوبية ، وادعت (انجلترا) كذلك حقها فى الأجزاء الجنوبية من مساحة القارة الواسعة • فاذا لم تسارع انجلترا بالتحرك ، فسيفوت الأوان • وكانت أسبانيا للسبب نفسه تصر على مقاومة أية غارات انجليزية على ما كانت تعتبره فى دائرة نفوذها الأسبانى • لذلك ، حينما بدأ الانجليز أولى خطواتهم

في اقامة امبراطورية لهم ، خططت أسبانيـــا لشن هجمات بحرية على المستعمرات التى قد يؤسسها الانجليز على الســاحل الأطلنطى لأمريكا الشمالية . كما أن أول خريطة معروفة لتلك المستعمرة الانجليزية الصغيرة جدا التى أقيمت فى جيمس تاون بفرجينيا ، والتى رسمها ملاح أيرلندى كاثوليكى من طاقم السفينة الانجليزية التى نقلت المستعمرين الى خليج تشيزابيك Chesapeake ، هذه الخريطة تم تهريبها الى أسبانيا ، التى اعتبرتها وثيقة ممتازة ، وأمدتها بالمعلومات الضرورية لشن هجوم مباغت على أول موطىء قدم للانجليز على ساحل أمريكا الشمالية .

الأهداف الدينية للاستعمار :

ترتبط الأهداف الدينية للاستعمار ارتبــاطا وثيقـا بتلك المفاهيم الوطنية المتعلقة بممتلكات ما وراء البحار . اذ نظر الكاثوليك والبروتستانت الى احتلال العالم الجديد على أنه حملات دينية صليبية . وكانت أسبانيا منهمكة منذ قرون فى صراع ضد مسلمى الأندلس . وحدث أن وصــل كولومبس الى العالم الجديد فى نفس السنة التى تم فيها طرد العرب من أسبانيا . اذن ، لم يكن فتح العالم الجديد مطلبا وطنيا فقط ، بل ومطلبا دينيا أيضا لقارة مليئة بالشعوب « الوثنية » التى تنتظر تحويلهـا الى المسيحية .

وأدى انقســـام المسيحية الى كاثوليكية وبروتستانتية ، الى تعقيد الحركة الدينية ، فبالرغم من أن نظرة الأوروبى الى الوثنية واحدة ، الا أن القضية التى ثارت هى : الى أى المذهبين سيتحول هؤلاء (الوثنيون) ؟ وذلك لأن المسيحيين انقسموا بشدة على أساس أنهم يستطيعون القتال فى حروب دينية لعدة قرون مع ما يسببونه من تدمير شامل باسم الله ، لكن الأمر يثير حيرة أولئك الذين نشأوا فى مجتمع غير دينى . الا أن حدة هذا النزاع والتنافس داخل أوروبا المسيحية يمكن فهمه اذا تذكرنا أن الدين بالنسبة لرجال هذا العصر ونسائه ــ وكما كان منذ قرون سابقة ــ هو العقيدة الأساسية المنظمة لحياتهم . ولما كانت سيطرة الانسان على بيئته محدودة جدا ، لارتباط ذلك بمدى معرفته العلمية والتكنولوجية ، لذا ازداد ميله الى أن يعزو ما لا يستطيع فهمه أو السيطرة عليه الى قوى طبيعية خارقة قد اضطر الى عبادتها ، وجعلها محور حياته .

ولأن الايمان لم يكن هو المبرر الوحيد للتحكم فى الحياة ، وجد أصحاب العقائد المختلفة أنفسهم ملتزمين عاطفيا بالدفاع عن مذاهبهم ، ومهاجمة المخالفين لهم فى الرأى .

هذان « المذهبان » ـ البروتستانتية والكاثوليكية ـ يمكن فهمهما اذن بشكل أفضل بوصفهما قواعد للحياة ، ووسائل للفهم بعيدا عن القوى والأحداث التى تحيط بالانسان ويتعذر السيطرة عليها ، ووسيلة لاعطاء نظام ومعنى لعـــالم الفرد ومكانتـه فيه • وبهذا المعنى لم تختلف هذه الأيديولوجيات كثيرا عن « مذاهب » اليوم ـ شـــيوعية واشـــتراكية وديمقراطية ، فهذه أيضا نماذج فكر واعتقاد ، وأساليب لتنظيم حيـاة المجتمع ، وتوجيه لمجرى طاقاته وقيمه ، كما أنها تعطى معنى لكل ما نفعله ، وتمدنا بالاحساس بهويتنا • ويعتقد أغلب الناس اليوم فى أحد هذه المذاهب بحماس لا يقل عن اعتقاد أسلافهم فى البروتستانتية أو الكاثوليكية أو الاسلام • ونرى أن حروبنا ، نحن اليوم ، والتى تتم فى وحشية بالغة ، وقسوة تقنية باسم النظم الايديولوجية ، تفسر لنا لماذا كان المسيحيون والمسلمون أو الكاثوليك والبروتستانت يحاربون بقوة لا تلين لحماية عقيدتهم أو نشرها (*) فى أوائل العصر الحديث •

وخلال فترة طويلة من القرن السادس عشر ، تأرجحت انجلترا بين المذهبين الدينيين ، حيث عاشت أولا تحت الحكم البروتستانتى للملك هنرى الثامن وابنه المعتل صحيا ادوارد السادس ، ثم تحت الحـــكم الكاثوليكى لابنته مارى تيودور ، التى تزوجت فيليب الثانى ملك أسبانيا ، الذى كان يمثل الدعامة الرئيسية للكاثوليكيـة فى أوروبا • ثم عادت انجلترا الى البروتستانتية مرة ثانية ، بعد وفاة مارى تيودور ، وتولى اليزابث ، الابنة الثانية لهنرى ، مقاليد الحكم عام ١٥٥٨ • فقد استحسنت البروتستانتية كوالدها ، كتعبير أساسى عن الاستقلال الوطنى • وقصدت فى المقام الأول ، الى خلق ظروف للازدهار والرخاء القومى • وبالرغم من أنها حققت بعض النجاح الاقتصادى ، الا أن المسألة الدينية ظلت تهددها دائمـا اذ اعتبرها فيليب الثانى ، زوج أختها الأسبانى ، من المنشقين البروتستانت ، وتآمر عليها باستمرار •

الآرمادا الأســـبانية (**) :

فى سنة ١٥٨٧ ، بدأ النزاع الغاضب المكبوت بين أسبانيا الكاثوليكية وانجلترا البروتستانتية يتحول الى صراع علنى ، وأخذت انجلترا تقوى نفسها لمواجهة الهجوم البحرى المنتظر من الأسطول الأسبانى ، الذي كان

(*) لم ينتشر الاسلام بالسيف مطلقا ، كما يزعم المغرضون من الأوربيين دائما ـ (المترجم) •

(**) الآرمادا armada : الأسطول باللغة الأسبانية ، والانجليزية ـ وتطلق بوجه خاص على الأسطول الأسبانى سنة ١٥٨٨ ، الذى دمرت معظمه العواصف والأسطول الانجليزى •

يعتبر حينذاك أقوى أسطول بحرى فى العالم · وتعرف المعركة التى تلت ذلك بالآرمادا الأسبانية · ففى ربيع ١٥٨٨ ، أبحر الأسطول الأسبانى الى انجلترا ووصل الى هدفه فى أواخر يولية ، حيث نشبت المعركة فى البحر مدة أسبوعين ، ولدهشة أوروبا انتصر الانجليز بمساعدة الهولنديين ، ولم يترتب على هزيمة أسبانيا تفوق بحرى للانجليز ، أو امتلاك أية أرض فيما وراء البحار اعترافا بانتصارها ، كما لم تغر الهزيمة بريطانيا بالدخول فى السباق الاستعمارى فيما وراء البحار ، الا أنها منعت ، بحق ، أى انتصار جدى للكاثوليكية فى أوروبا ، وأنهت أحلام الأسبان بالسيطرة على أوروبا مؤقتا · وقد وضعت الآرمادا الحروب الدينية فى مأزق مؤقت ، وأوضحت لجيل كامل ــ حتى سنة ١٦١٨ حين ألقت حرب الثلاثين سنة بأوروبا ، ثانية ، فى صراع دينى علنى ــ أن التوحيد الدينى يجب ألا يفرض بالقوة · وأصبحت انجلترا حرة فى ممارسة هويتها متحررة من تسلط القوى الأوروبية الأخرى ، وطنيا وعقائديا ·

بداية الاستعمار الانجليزى :

مع خلو الطريق أمام التوسع فيما وراء البحار ، بدأت « حمى الاتجاه نحو الغرب » تعم انجلترا بنهاية القرن السادس عشر · فجرت محاولة بسيطة فاشلة لتأسيس مستوطنة صغيرة على جزيرة رونوك على ساحل كارولينا الشمالية فى الثمانينات من القرن السادس عشر · وبعد معركة الآرمادا ، أدركت الطبقة العليا ، والتجار الانجليز مدى الأرباح المغرية الموجودة فى العالم الجديد · ففى أمريكا الشمالية مصدر غنى للمواد الخام تماما كما وجد الأسبان والبرتغاليون فى مستعمراتهم بأمريكا الجنوبية ، وينتظر الذهب والفضة القلوب (الجريئة) لاستغلالهما · ويتطلب الأمر بالضرورة العثور على الطريق الشمالى الغربى البديل الى المشرق ، عبر تلك القارة التى كانوا يعتبرونها ذات ممرات ضيقة ·

وظهر رجل وابن أخيه ، يعرف كل منهما باسم ريتشارد هاكلويت Hakluyt ، وأخذا يبسطان وجهة نظرهما لمواطنيهم فى الريف ، اذ كرسا نفسيهما فى الربع الأخير من القرن السادس عشر لشرح مزايا سكنى المناطق البعيدة المنعزلة على الجانب الآخر من الأطلنطى ، فبدآ ينشران فى كتيب وراء كتيب حججهما المؤيدة لعملية الاستعمار · فالمجد والشهرة والمغامرة تنتظر كل فرد ·· فطبقة النبلاء يعدها الاستعمار بامبراطورية فى العالم الجديد تكون مصدرا لامتلاك ضياع واقطاعيات جديدة ، وللتجار أسواق جديدة ومساحات واسعة مملوءة بالمنتجات الغربية التى يمكن تسويقها فى وطنهم · ورجال الدين تنتظرهم قارة مليئة « بالوثنيين »

المحتاجين لهدايتهم الى مجد المسيح العظيم . وللعامة مجال يغرى بالمغامرة ، وفرص اقتصادية بلا حدود . ولعامل اليومية الفقير أمل ينتظره لبدء حياة جديدة فى قـارة لا حدود لأرضها والفرص فيها عظيمة . فنجد فى أحد كتيبات هاكلويت ، « مقال فى المشروع الغربى » ، دعوة لزرع سـلالة انجليزية عبر الأطلنطى ، كما ساهم شيكسبير بنصيب فى اثارة الشعور الوطنى بكتابة مسرحيته « العاصفة » يتحدث فيها عن أولئك الذين عبروا المحيط ليمدوا عظمة بلادهم بعيدا .

بدأت مساهمة الانجليز فى عصر الكشوف والاستعمار بجيـل من الملاحين المهرة ، والمغامرين ، ورجال ذوى شهامة مثل والتر رالى walter Raleigh ، وفـرنسيس دريك Francis Drake ، وهمفـرى جيلبرت Humphrey Gilbert ، وريتشـارد جرانفيـل Richard Granville ، وبرءوس أموال قليلة ، وبمساندة بسيطة جدا من التاج ، قاموا بمحاولات كثيرة انتهت معظمها بالفشل ، ورغم أننـا نفرد لهذه المحاولات الجريئة مواضع كثيرة فى كتب التاريخ ، لأنها كانت المحاولات الأولى من نوعها ، الا أن انجلترا لم تصبح قوة اسـتعمارية ذات شأن فى العـالم الجديد الا عندما بذلت الحكومة ــ كما حدث فى أسبانيا والبرتغال ــ مساندتها الفعالة للمشاريع الاستعمارية ، ولم تزدد أهميتها الا عندما بدأ مجتمع التجار والطبقة الوسطى الحديثة يستثمرون رءوس أموالهم فى تجارب اسـتعمارية وراء البحار . وهكذا لم تبلغ جميع الجهود الأولى شـيئا ، أو بلغت القليل ، مثل رحلات هوكنز فى الستينات من القرن السادس عشر الى « ماين » الأسبانية ، ورحلات الرونوك بين عامى ١٥٨٥ ، ١٥٨٨ والتى انتهت بالفشل ، ومستوطنة ساجادا هوك Sagadahoc على ساحـل « ماين » سنة ١٦٠٧ التى تدم سوى سنة واحدة . كذلك مستوطنة جيمس تاون فى فرجينيا سنة ١٦٠٧ التى تطورت ببطء وصعوبة مدة جيل قبل أن تؤمن موقعها كقاعدة ارتكاز حقيقية .

افتقد الانجليز فى كل هذه المحاولات العاثرة ، عناصر النجاح التى ميزت جهود الأسبان والبرتغاليين . فلم يلقوا من حكومتهم سوى مساندة ضئيلة فى شكل اعانات مالية أو سفن أو حماية بحرية ، وكذلك الحد الأدنى من تأييد الكنيسة، مقارنة بالاسهام الواسع من الكنيسة الكاثوليكية فى المسـتعمرات البرتغـالية والأسبانية ، كما لم يلقوا ، فى الواقـع ، مساعدة من الجيش أو من الرجال ذوى الخبرة العسكرية أمثال أولئك الذين فتحوا المكسيك من الأسبان فى القرن السادس عشر . ولكنهم وجدوا مساندة بسيطة من مواطنيهم المستثمرين ، وهم جمهور عريض من الطبقة المتوسـطة والراقيـة الذين يرغبون فى المخاطـرة بنقودهم فى تجـارب

استعمارية • وهكذا ، فطالما بقى الاستعمار الانجليزى فى أيدى مجموعة من النبلاء المغامرين أو الأبناء الذين حرموا من الميراث (*) أو رجال الحاشية المقربين من الملك ، فلا يمكن اذن أن نتوقع منهم شيئا ذا بال ، اذ أن المسألة لم تكن مجرد تجهيز بعض السفن القليلة ، وحشد بعض مئات من المقامرين أو الأشخاص اليائسين ليتغلبوا على العقبات التى تلازم عملية الاستعمار فيما وراء البحار • فالوصول الى العالم الجديد فى سفن صغيرة من الخشب ، وانزال عدة مئات من الرجال ومعهم امدادات تكفيهم عدة شهور ، شىء ، وتشكيل هؤلاء الناس فى تنظيم اجتماعى ، اقتصادى ، ليستطيعوا البقاء فى بيئة جديدة مثيرة للخوف ، ولم تستغل مواردها الدفينة فى باطنها بنجاح كبير ، شىء آخر تماما •

ولما لم يكن مستطاعا جر الحكومة ، والكنيسة ، والعسكريين الى مشروعات استعمارية ، اذن ، كان الأمر يحتاج الى أموال وتأييد الطبقة المتوسطة الناشئة من المجتمع الانجليزى ، تلك الطبقة التى لم تكن لها أهمية تذكر فى بداية عصر مارى تيودور Tudor ، ثم تقدمت بسرعة بالغة فى النصف الثانى من القرن السادس عشر • ولعل حركة الاستعمار لم تكن لتنجح على يد طبقة النبلاء الانجليز ، ما لم تدعمها هذه الشريحة العريضة من المجتمع الانجليزى • ولم ترحب بذلك الطبقة الوسطى فى النصف الأول من القرن السابع عشر ، فقد اجتذبت الأرباح السريعة المستثمرين الى زراعة قصب السكر فى جزر الهند الغربية ، التى رأوا فيها ربحا مضمونا عن المغامرة بالمشروعات الاستثمارية الأخرى فى أمريكا الشمالية مثل زراعة المحاصيل وقطع الأخشاب وصيد السمك •

ولقد واجه الانجليز ادعاءات الدول الأوروبية الأخرى المنافسة فى حقها فى ملكية تلك الأرض الجديدة ، كما أن هذه الدول حاولت أن تدعم ادعاءاتها بالاحتلال الفعلى للأرض فى كثير من الحالات ، فكان لدى أسبانيا نحو ٩٠٫٠٠٠ مستوطن جديد فى ممتلكاتها الخارجية • وبالرغم من أن أغلبهم كان فى بيرو والمكسيك حيث أقيمت مراكز استيطان كبيرة فى بوتوسى Potosi ، ومكسيكوسيتى ، وقرطاجنة Cartagena ، وأقاموا أيضا مراكز على الحدود فى جنوب غرب أمريكا الشمالية وعلى ساحل الأطلنطى من فلوريدا حتى خليج تشيزابيك • وامتدت ادعاءات الأسبان بحقوقهم الى أقصى الشمال حتى شبه جزيرة نيوفوندلاند • وعندما كان الانجليز يقتربون من شاطىء أمريكا الشمالية كانوا يدركون تماما مدى التهديد الأسبانى • ولا أدل على ذلك من أنهم بعد اقامتهم لمستوطناتهم الأولى ،

(*) كانت قاعدة التوريث فى بريطانيا تمنح الميراث للابن الاكبر وتحرم منه باقى الأخوة •

بنوا قلاعهم فى مواجهة البحر لصد هجمات الأسبان بدلا من الداخل حيث يقبع الخطر الهندى • ولم يكن لديهم شك فى أنهم يمارسون عمليات اعتداء تشبه القرصنة على المستعمرات الأسبانية القائمة •

كذلك كانوا على علم باحتلال الفرنسيين للقارة ، فمنذ سنة ١٥٢٤ حين اكتشف جيوفانى دا فيرتسانو Giovanni da Verrazzano الطرف السرقى لأمريكا الشمالية باسم ملك فرنسا ، تصور الفرنسيون أنهم اكتشفوا الطريق الشمالى الغربى للصين ومدن الذهب ، ولقد حاولوا فيما بعد زرع مستعمرات لهم فى فلوريدا والبرازيل ولكن الأسبان والبرتغاليين ازالوها من الخريطة ، فأقنع الفرنسيون أنفسهم بتنمية الأراضى الشاسعة المتجمدة فى كندا واستغل تجارهم سواحل نيوفوندلاند ونوفاسكوشيا منذ أوائل القرن ١٦ ، وتطورت تجارة الفراء مع هنود المنطقة ، والتى بدأت نحو سنة ١٥٣٥ • وأقنعت هذه الجهود الفرنسيين بامكانية استغلال منطقة نهر سانت لورنس والاستفادة منه ، رغم قسوة المناخ وعدم ملاءمته للمعيشة والسكن اذ أن نهرى سانت لورنس ، وهدسن Hudson R. هما مصدرا المياه الوحيدان بالأجزاء الداخلية من القارة • وقد كان الفرنسيون سنة ١٦٠٣ أذكياء باختيارهم اقامة أولى مستوطناتهم بالقرب من مصب نهر سانت لورنس ، وبذلك بدءوا بحثهم عن شكل آخر من ذهب العالم الجديد ، ألا وهو جلود الحيوانات ذات الفراء •

لذلك ، كان على الانجليز أن يلتفتوا الى الجزء الأوسط من ساحل الأطلنطى لاقامة مرتكز صغير لهم فى القارة • وكان الأهالى الأصليون ، سكان هذه الأرض هم الذين استحقوا انتباه الانجليز أكثر من أى سكان آخرين •• فماذا كان يعرف رجال أمثال جلبرت ، ورالى عن سكان القارة عند مجيئهم الى الساحل الوعر لأمريكا الشمالية فى العقد الثامن من القرن السادس عشر ؟ وكيف سيستقبلهم هؤلاء الناس الذين أسماهم كولومبس خطأ بالهنود عندما ظن أنه وصل الى الصين وكيف سيملكون أو يستفيدون من الأرض التى يشغلونها ؟ وكيف تأثرت آراؤهم عن طبيعة الشعوب الهندية بذلك المطلب الشائك ، الخاص بالسيادة على الأرض ؟

تصور الانجليز لأهالى أمريكا الشمالية الوطنيين :

يمكننا الاطمئنان الى أن الانجليز ، كانوا يدركون بالخبرة تلك المفاهيم التى ملأت أذهان أولئك المستكشفين الذين حاولوا اختراق المجهول • ومن الواضح أيضا أنهم كونوا فكرة جيدة عن شعب العالم الجديد من الهنود منذ تقرير كولومبس عن العالم الجديد الذى طبع فى عدد من العواصم الأوروبية سنتى ١٤٩٣ ، ١٤٩٤ ، وهذا الكم الهائل من

التقارير ، والقصص ، والروايات الدعائية التى تداولها البحارة ، والتجار ، والجغرافيون ، ورجال الكنيسة الذين شاركوا أو شجعوا الرحلات الأولى للكشف ، والتجارة ، والاستيطان ، وأصبح ذلك كله هو الأساس لفهم العالم الجديد لدى أى مغامر يحاول شق طريقه الى الطرف الشرقى من اليابس ، غرب المحيط الأطلنطى ٠

ومن هذا الكم الضخم من الكتابات المتداولة ، استمد المستعمرون الأوائل صورة جزئية لأهالى أمريكا الشمالية الأصليين ٠ فمن ناحية ، كان لديهم مبرر للاعتقاد بأن الهنود أناس وديعون ، وأنهم سيستقبلون أولئك الذين لم يأتوا ليضروهم ، وانما للمعيشة بينهم والتجارة معهم ٠ فقد كتب كولومبس عن « التفاهم العظيم معنا » الذى لقيه فى سان سلفادور سنة ١٤٩٢ ، ووصف الهنود من الأراواك Arawak بأنهم « شعب ودود ، لا يشتهون ما فى يد الغير » ، و « كانوا مسرورين جدا ، وأصبحوا أصدقاء لنا ، تماما ، الأمر الذى أثار دهشتنا » ٠ و « قد أحضر الهنود الينا الببغاوات ، والخيوط القطنية فى حفلات راقصة ، وكذلك الحراب وأشياء أخرى كثيرة مما استبدلناه منهم بأشياء أخرى مثل حبات الخرز الزجاجية الصغيرة » (٢) وفى سنة ١٥٢٤ ، نجد فيراتسانو ، أول أوروبى يبحر الى الحافة الشرقية للقارة ، يكتب بتفاؤل مماثل ، من خليج نيويورك فيقول :

« بعد مائة فرسخ ، وجدنا مكانا مناسبا جدا بين تلين صغيرين بارزين ، بينهما نهر واسع جدا ، عميق عند مخرجه ، ويصب فى البحر ٠٠٠ صعدنا بقاربنا فى هذا النهر الى أرض وجدناها مزدحمة بالسكان الذين لا يختلفون كثيرا عن غيرهم ، حيث يلبسون ريش الطيور المختلف الألوان ، وقد جاءوا نحونا فى مرح ، يطلقون صيحات عالية تعبر عن الدهشة ، ويدلوننا على أكثر الأماكن امنا للرسو بالقارب » (٣) ٠

ومنذ ذلك الحين ، أخذت الروايات عن الأهالى الوطنيين فى العالم الجديد تتضمن كثيرا من صور الحماسة التى تصفهم ، وتصف مدى تلهفهم على استقبال المستكشفين ، والمستوطنين الأوروبيين ، هذا الجانب الايجابى من صورة الهنود ، لا يعكس فقط الاستقبال الودى الذى يبدو أن الأوروبيين قد لاقوه فى نيوفوندلاند ، وأجزاء من فلوريدا ، وكل مكان آخر فى البحر الكاريبى وأمريكا الجنوبية ، بل يمثل أيضا ، جزء من تصورهم للعالم الجديد على أنه احدى جنات عدن فى الأرض ، حيث يمكن للأوروبيين الذين مزقتهم الحروب ، وأفقرتهم أن يجدوا فيها الحياة

وسط سخاء الطبيعة الذى مكن الأهالى الأصليين من أن يعيشوا بها قرونا عديدة فى راحة ملموسة · وان اعتقاد كولومبس ، عندما وصل الى نهر أورينوكو Orinoko سنة ١٤٩٨ أنه كشف جيحون ـ أحد الأنهار الواردة فى الكتاب المقدس التى تنبع من جنة عدن ، لدليل على نوع العقلية الأوروبية آنذاك ·

والسبب الآخر لاعطاء هذه الصــورة المتفائلة أن الانجليز كانوا يأملون ، كغيرهم من المستعمرين الأوروبيين فى أن تصبح التجارة مع هذه الشعوب مصدرا كبيرا للربح على الجانب الآخر للأطلنطى ، وأنهم سيحتاجون الى مساعدة هذه الشعوب لهم · ولم تهدف الرحلات الانجليزية الأولى ، أساسا ، الى اقامة مستعمرات على نطاق واسع أو الى الانتاج الزراعى ، بل كان أساس التقدم عبر البحار هو الرغبة فى التجارة مع الهنود ، والبحث عن الذهب والفضة ، وكشف الطريق الشمالى الغربى · ولم يكن الأهالى يقدمون سوقا جديدة لتجارة الصوف الانجليزى فقط ، بل كان المتوقع أن تتدفق جميع السلع من العالم الجديد الى انجلترا · لقد كانت الأرض هى الهدف الأساسى لدى الأسبان والبرتغاليين ، ولم يكن الهدف العسكرى لفتح هذه الأراضى ذا أهمية فى ذهن الانجليز فى المراحل الأولى من النشاط الاستعمارى · بل كان الهدف الأهم هو اقامة مراكز تجارية حصينة على رءوس الأنهار حيث يمكن للأهالى المجىء للتجارة معها · وهكذا كان الانجليز فى أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر متأثرين باسهامهم المبكر فى تجارة الحرير مع الشرق حيث ربحوا من هذه التجارة ، مدة نصف قرن ، دون غــزو لأراضى الشـعوب الأخرى أو طردهم منها ، بل بالمقايضة معهم دون تهديد لملكيتهم لأراضيهم أو محاولة اخضـاعهم · لذلك كان هناك باعث خاص للنظر الى الهندى باعتباره أكثر من مجرد « همجى » ، فالهندى الصديق هو فقط ، الذى يمكن أن نتاجر معه ، ومادامت التجارة هى أساس التقدم عبر البحار ، فلا غرابة اذن أن يرى التجار ضرورة أن يكون الهندى كريما ومتفتحا ، يمكن اقناعه ، وكسبه لصالح التجارة ·

رغم ذلك ، كانت هناك صورة مناقضة لذلك عن الهندى الأحمر ، مستقرة فى أذهان الانجليز الوافدين ، هذه الصورة السلبية التى تمثله همجيا ، معاديـا ، أقرب الى الحيوان فى مظهره وسلوكه ، وكانت هذه الصورة مستمدة من روايـات المغامرين الأسبان والفرنسيين ، كما أن سباستيان كابوت ـ Sebastian Cabot كان قد عرض فى انجلترا ثلاثة من الاسكيمو ، أسرهم فى رحلته الى منطقة القطب الشمالى سنة ١٥٠٢ ، ووصف أحد المعاصرين الأهالى الوطنيين بأنهم آكلة لحوم البشر ، ويبدأون

« يتكلمون لغة لا يمكن لأحد أن يفهمها ، ويشبهون الوحوش في تصرفهم » (٤) • وامتلأت الكتب في النصف الثاني من القرن السادس عشر تصف الوطنيين بعبارات غير مشجعة لا تبعث على التفاؤل فوصفت الهنود بأنهم مخادعون ، أجلاف ، متوحشون وأنصاف آدميين ، تشمئز النفس منهم ، وأنهم من آكلي لحوم البشر كما ذكر كتاب منشور سنة ١٥٧٨ حيث يقول : « لا يجدون أى لحم أو سمك فاسد (كريه الرائحة جدا) الا أكلوه على حالته دون أى نوع من الطهى » • وتصفهم روايات أخرى بأنهم بهيميون ، ينغمسون في ملذاتهم الجنسية ، وتحركهم العواطف ، عامة ، أكثر مما يحركهم العقل •

وبصرف النظر عن قصص الرحلات والمغامرة هذه ، كان لدى الانجليز سبب آخر ليتصوروا أن هؤلاء السكان لن يتاجروا معهم بأسلوب ودى • فقد كانوا يقرؤون منذ سنوات عن التجربة الأسبانية مع الشعوب الهندية في المكسيك وبيرو – وهى صورة لم تكن جميلة – ومن أبرز هذه القصص قصة الراهب الدومينكانى ، بارثولومى دى لاس كاساس Bartholomé de Las Casas المسماة « رواية موجزة عن ابادة الهنود » ، والتى ترجمت الى الانجليزية ، ونشرت سنة ١٥٨٣ بعنوان « المستعمرة الأسبانية أو عرض تاريخى مختصر لتصرفات ومغامرات الأسبان في جبال الأنديز » • وقد استثار الانجليز بوصف لاس كاساس للأعمال الوحشية الأسبانية وعمليات الابادة الجماعية التى أكدت أسوأ ما يعتقده الانجليز البروتستانت في الأسبان الكاثوليك الذين كانوا على وشك الدخول معهم في حرب ، وقد وردت في الكتاب القصة التالية :

« بدأ الأسبان يتعمدون القتل ، ويرتكبون اعمالا وحشية غريبة • فدخلوا المدن والقرى والنجوع ، بأحصنتهم وسهامهم ورماحهم ، لا يبقون على نسوة مع أطفالهن ، أو نسوة حوامل ، الا ويبقرون بطونهن ويقطعونهن اربا ، كما لو كانوا يذبحون خرافا في حظائرهم • ويتراهنون على تفريغ كرش هذا الرجل او ذاك ، او اخراج احشائه بطعنة واحدة من سيفه او قطع رأسه بضربة سيف ، ويزهقون أرواح الأطفال الرضع بكعوب احذيتهم بعد ان ينتزعوهم من فوق أثداء امهاتهم ، ثم يسحقون رؤوسهم بدقها على الصخور ، ويلقون بعضهم الى النهر وسط ضحكاتهم واستهزائهم ، قائلين لمن يتخبط منهم في المياه قبل ان يدركه الغرق : انقذ نفسك يا أكبر جيفة ، او يربطون الطفل مع امه ويسددون اليهما طعنة سيف واحدة ، وينصبون المشانق بارتفاعات مختلفة بحيث لا تكاد تسمح

لأقدام المعلقين عليها أن تلمس الأرض ، وتكفى كل منها لثلاثة عشر فردا ، وذلك (العدد) تقربا الى مخلصنا المسيح وحوارييه الاثنى عشر (حسب قولهم المعتاد) ، ثم يضرمون النار تحتهم لتحرقهم جميعا » (٦) .

كانت هذه الروايات كافية لتغذية أعداء الأسبان بمبررات للتحامل عليهم ، وشغف رجال أمثال هاكلويت وابن أخيه بالاقتباس منها حيث وصفا المستعمرين الأسبان بأنهم « الذئاب ، زبانية جهنم » .

ولكن هذه الروايات كانت تنبىء أيضا عن استحالة تجنب هذا النوع من المذابح عندما يقابل الأوروبيون شعبا « بدائيا » . وقد ردت جمهرة من الكتاب الأسبان على لاس كاساس ، فى محاولة لتبرير السلوك الأسبانى ، باصرارهم على أن الهنود هم الذين دفعوهم الى اراقة الدماء بطبيعتهم الوحشية التى لا تتغير ، بحيث لم تكن هناك طريقة أخرى للتعامل معهم . ومهما كانت فائدة هذه القصص عن وحشية الأسبان للمؤلفين البروتستانت ، كان لابد للانجليز المبحرين الى العالم الجديد أن يتساءلوا فى حيرة هل تنتظرهم مثل هذه الأمور ؟ ولم يشك أكثرهم فى أنهم يملكون التفوق الفنى كالأسبان ، وأنهم اذا ما أرادوا ، يمكنهم تدمير البلد الذى يدخلونه ، فضلا عن التجربة الانجليزية مع الأيرلنديين الذين اكتسب فى بلادهم ضباط أمثال جلبرت ، ورالى خبرة فى اخضاع « الأجناس الأدنى » منذ عشرات السنين . وتوحى هذه التجربة بأن الانجليز كانوا قادرين تماما على تنفيذ أية أعمال وحشية قام بها الأسبان . ومهما بدت المقايضة مع الهنود سهلة وممكنة ، فى بعض الكتابات الانجليزية ، الا أن صورة الهمجى المعادى الذى يترقب المغامرين المسيحيين لم يسهل محوها أبدا من ذهن الانجليزى ، فهم يعرفون جيدا ، سواء من التجربة الأسبانية والبرتغالية فى العالم الجديد ، أو من غزوهم لايرلندة وهولندة فى أواخر القرن السادس عشر أن من المعتاد ألا يقابل الأهالى الوطنيون بمودة أولئك القادمين للسيطرة عليهم . وأن تصور الهندى حيوانا متوحشا هو وسيلة للتنبؤ بما سيحدث والاستعداد له ، وتبرير ما سيتم من تصرف ، حتى قبل أن يتسبب فيه أحد .

والعامل الثالث ، الذى غذى الصورة السلبية عن الهنود ، يتصل مباشرة بملكية الأهالى للأرض التى يتشوق الأوروبيون الى امتلاكها ، وذلك لأن سكنى الهنود للأرض تسبب لهم مشكلات قانونية ، وأخلاقية ، وعملية . ففى أوائل الثمانينات من القرن السادس عشر ــ اعترف جورج بيكهام Peckham بأن بعض الانجليز شكك فى حقهم فى الاستيلاء على أراضى الغير ، وأثار الفكرة مرة ثانية سنة ١٦٠٩ روبرت جراى الذى تساءل

بأسلوب بلاغي : « بأي حق أو مبرر ندخل أرض هؤلاء البدائيين ، وننتزع حقهم الموروث ، ونزرع أنفسنا في أماكنهم دون أن يسيئوا الينا أو يستفزونا لذلك ؟ » (٧) سؤال وجيه ، لان الانجليز ، كغيرهم من الأوروبيين، قد نظموا مجتمعهم على مفهوم الملكية الخاصة للأرض ، واعتبروا ذلك من مميزات تفوقهم الحضاري ، ولم يتعاموا عن حقيقة دخولهم أرض شعب آخر يمكنه بملكيته السابقة أن يدعي بحقه وحده في ملكية القارة بأكملها ·

وكان يمكن حل هذه المشكلة بصورة ما ، بمحاولة الاقناع بأن الانجليز لا يريدون الاستيلاء على أراضي الهنود ، بل يقصدون فقط أن يشاركوهم في ذلك الاقليم الذي يبدو شاسعا للغاية ، وأنهم سينقلون الى الهنود ، في المقابل ، مميزات أغنى حضارة ، ومدنية متفوقة جدا ، والأهم من ذلك كله مزايا الدين المسيحي ، وهذا ما استعمله المجلس الحاكم في فرجينيا سنة ١٦١٠ عندما أعلن في انجلترا أن المستوطنين « عن طريق التجارة والمقايضة يشترون منهم (أي الهنود) نعيم الأرض ، ويبيعونهم نعيم الجنة » (٨) · لذلك رفضت قبائل تشيزابيك أن تبادل أرضها مقابل هذا النعيم ، لأن مظهر المهاجرين الأشعث الأغبر لم يطمئنهم الى وعودهم ·

وكانت الطريقة العجيبة الثانية للرد على مناقشة حق الانجليز في الاستيلاء على الأرض هي انكار الطبيعة البشرية للهنود · لذلك قال روبرت جراي بأن الطبيعة غير البشرية للهنود قد حرمتهم من الحق الشرعي في امتلاك الأرض ، وكتب كذلك : « ان الله قد أعطى الأرض لأبناء البشر ، الا أن الجزء الأكبر منها امتلكه ، اغتصابا وبطريق غير شرعي همج متوحشون ، ومخلوقات غير عاقلة ، أو أجلاف حمقى بطبيعتهم ، وهم أسوأ من أشد الحيوانات ضراوة ووحشية · وذلك لجهلهم الالحادي ، وتجديفهم على الله كذبا » (٩) ·

لقد هددت هذه السلسلة من التبريرات الهنود · فبينما قال بعض المستوطنين بأن « كل قدم من الأرض ، سنستولى عليه أو نستفيد به ، سنساوم عليه ثم نشتريه منهم » · ورغم ذلك وجد غيرهم أن من الأسهل والأربح أن يدعى أن الهنود قد حرموا أنفسهم من حقهم الشرعي في ملكية الأرض (١٠) ، لأنهم من الملحدين البرابرة ، وبهذا المعنى ، ازدادت الفائدة من وراء تعميق الصور السلبية للشعوب الوطنية ، فكلما أظلمت الصورة ازداد تعريف سكان البلاد الأصليين بصفات لا انسانية ، وازداد ادعاء الأوروبي بحقه في ملكية الأرض في العالم الجديد · ان تعريف الهندي بأنه « همجي » أو « جلف أحمق » أو « حية رقطاء » ، لا يعطي الأوروبيين الحق الشرعي في طرد الهنود من أراضيهم ، ولكن يعطيهم حقا أدبيا في

ذلك اذا تحققت لهم القوة المادية ، وهو ما لم يختلف فيه الانجليزى كثيرا عن الأسبانى والبرتغالى ، أو الهولندى أو الفرنسى •

لقد صـــدر كتيب فى انجلترا ، حين كانت الحملة الاستعمارية الانجليزية الأولى تعد للابحار والرسو على جزيرة رونوك ، بعيدا عن ساحل كارولينا الشمالية ، يصور لنا كيف كانت كل من الصـــور الايجابية والسلبية عن الهنود تؤثر فى العقلية الانجليزية ، وقد أصدر هذا الكتيب أو هذه النشرة ، سير جورج بيكهام ، الذى رافق همفرى جلبرت فى رحلة كشفية لنيوفوندلاند سنة ١٥٨٣ ، وطبع فى لندن بعنوان « تقرير واقعى عن الاكتشافات الأخيرة ٠٠٠٠ فى نيوفوندلاند » • كان وصف بيكهام تعبيرا واضحا عن صورة الاستعمار الانجليزى التى يتقنع بها ، فتحت عبارات المؤلف التى تعرب عن مشاعر الود والارتياح وتشرح المصالح المتبادلة التى يمكن تحقيقها من اتصال الحضارة الانجليزية بالحضارة الهندية صـــور مظلمة ، وتوقعات لأحداث عنيفة • وبدأ الكتاب بدفاع محكم عن حقوق الدول البحرية فى « التجارة والمقايضة والنقل » مع الشعوب « البدائية » ، وأكد للانجليز على أن مثل هذه المشروعات التجارية لابد أن تكون « مربحة للتجار المغامرين » على الخصوص ، ومفيدة للشعوب البدائية ، وأنها مسألة يمكن تحقيقها دون صعوبات أو خطر كبير » • واعترف بأن بعض الأهالى « سيخافون بطبيعتهم » ، ويقلقون من « شكل السفن الانجليزية الغريب ، بما فيها من أشرعة ، ومدافع ، ودروع وأسلحة » ، ولكن من الممكن أن نكسبهم بشىء من « الكياسة واللطف » مع توافر كمية من « السلع اللطيفة ، والأشـــياء التافهة ، مثل النظارات ، والأجراس ، والعقود ، والأساور والسلاسل ، والأطواق ، والزجاج الشفاف ، والكهرمان الأسود أو الأصفر المائل للحمرة ، والمرايا ، والأوانى الزجاجية » ، و « ونستميل طبيعتهم البربرية ، ليصبحوا مجتمعا ودودا ومتعاونا » (١١) •

ثم ينتقل بيكهام الى بيان ما يعتبره أكثر الأحداث احتمالا للوقوع فيقـــول :

الا أنه ، بعد استعمال هذه الأساليب الطيبة والعادلة ، اذ لم يرض الأهالى البدائيون بها ، وشرع البعض منهم فى صد المسيحيين بعنف عن موانيهم ، وأراضـــيهم الآمنة ، او قاوموهم بعد ذلك ليمنعوهم من التمتع بحقوقهم التى خاطروا بانفسهم للوصول اليها بصعوبة ، وبصورة شرعية ، اذن ، ففى مثل هذه الحالة ، لا اعتبره خروجا على مبدأ المساواة ان يدافع المسيحيون عن انفسهم ، وان ينتقموا بعنف ، ويمارسوا كل ما هو ضرورى لتحقيق سلامتهم • فكل القوانين تسمح فى مثل هذه المحن ، بمقاومة العنف بالعنف (١٢) •

وأخذ بيكهام يذكر مواطنيه بمسئوليتهم عن توظيف كل الوسائل الضرورية لتحويل الهنود الحمر من « الضلال الى الحق ، ومن الظلام الى النور ، ومن مهاوى الهلاك الى طريق الحياة ، ومن خرافات الوثنية الى المسيحية الصادقة ، ومن الشيطان الى يسوع المسيح ، ومن العذاب الى النعيم » ·

هكذا تصارعت صورتان متعارضتان عن الهنود للسيطرة على العقلية الانجليزية ، حين بدأت المحاولات الأولى لاستعمار العالم الجديد · فنجد الانجليز ، ينزعون أحيانا الى تصوير المواطن الهندى متخلفا ، ولكنه متفتح يمكن اقامة علاقات ودية مثمرة معه · ولعل الصورة السلبية المليئة بمظاهر العنف ، واراقة الدماء هى التى انعكست بشكل أقوى فى أذهان الذين أبحروا تجاه أرض مسكونة فعلا بأناس ذوى حضارة مغايرة ·

الصدام الانجليزى ـ الهندى الأول :

ان تجربة جزيرة رونوك لا أهمية لها فى مجمل تاريخ الاستعمار الأوروبى للعالم الجديد · اذ أن حفنتي الرجال الذين رسوا هناك ، لم يفعلوا أكثر من مجرد الصراع للبقاء أحياء لمدة ثلاث سنوات ، وعندما تعطل وصول سفينة التموين السنوى سنة ١٥٨٨ بسبب اقتراب الآرمادا الأسبانى من ساحل الانجليز ، هلكوا اما جوعا أو لهجوم الهنود عليهم · ولكن قصتهم لها أهميتها فهذا هو أول صدام معروف بين الهنود الحمر والبروتستانت الانجليز ، فبالنسبة للهنود ، ساعدهم ما حدث على تثبيت انطباعاتهم عن ماهية هؤلاء الانجليز ، أما الروايات الثلاث التى نشرها فى لندن عن حملة رونوك الأشخاص الذين رجعوا الى انجلترا بعد السنة الأولى ، فقد ساعدت على ملء أذهان كل الانجليز الآخرين الذين أتوا الى أمريكا فى بداية القرن السابع عشر بأفكار عن نوعية الناس الذين يحتمل أن يقابلوهم ·

وتتفق كل الروايات ، رغم اختلافها فى التفاصيل ، على أن الهنود على ساحل كارولينا كانوا متفتحين ، ومستعدين لتفهم مقترحات الانجليز وعروضهم · فقد كتب آرثر بارلو Arthur Barlow ، أحد أعضاء الحملة الأولى يقول : « اننا استمتعنا بكل الحب والعطف ، والسخاء والكرم حسبما تقضى به عاداتهم · لقد وجدنا الناس مهذبين للغاية ، ومحبين ، ومخلصين ، تخلو نفوسهم من المكر والخداع والخيانة » ، كما لاحظ بارلو أن الهنود قد أسفوا لارتياب الانجليز فى صدق وكرم ضيافتهم (١٣) ·

ونظرا لمجيء الانجليز بأعداد قليلة فمن المحتمل أن الهنود لم يتوجسوا منهم خطرا كبيرا · ويبدو أن الفضول وحب الاستطلاع كان قويا لدى الطرفين · وبقدر استطاعتنا ، نقرر من الأدلة المتبقية ، أنه لم يحدث أى

نزاع بينهما ، الى أن اكتشف الانجليز ضياع كأس فضية ، فقاموا بشن حمله تأديبية علي قرية هندية قريبة منهم • ولما أنكر الهنود أخذ الكأس ، أحرقوا القرية عن بكرة أبيها ، وأتلفوا لهم مخزون الحبوب ، بقصد استعراض القوة أمامهم • وتدهورت العلاقات بعد ذلك بينهم • ولما كان الانجليز يدركون ظروفهم السيئة من الناحية العددية ، ووضعهم المحفوف بالمخاطر ، لقيامه على غير أساس شرعى ، بالغوا فى استعراض قوتهم ليقنعوا الهنود باستحالة التعرض لهم بالضرر أو الايذاء ، واعترف أحد أعضاء الحملة بقوله : « فى نهاية السنة ، أظهر بعض زملائنا قسوة وضراوة يذبح بعض الأفراد فى بعض المدن » (١٤) • ولذا رأت القبائل الساحلية أن الانجليز غير جديرين بالثقة ، وأنهم يلجأون الى السلاح سريعا ، ولا يمكن التنبؤ بأفعالهم • وقد علق على ذلك قائلا : « اننا لم نفقد فقط فى هذه المستعمرة الضائعة مجموعة الرجال فحسب ، بل فقدنا أيضا حلم الرجل الانجليزى والهندى بالعيش جنبا الى جنب فى حرية وسلام ، وهو ما لم نستطع استعادته أبدا بالمغامرات التى تلت ذلك » (١٥) •

وبالرغم مما لاقوه من عقبات أبدى الأعضاء الأساسيون فى مستعمرة رونوك الذين عادوا الى انجلترا ، تقديرا كبيرا للحضارة الهندية ، فقد كتب توماس هاريوت Thomas Hariot « بالرغم من أنه لم يكن لديهم مثل ما لدينا من آلات وحرف وعلوم وفنون ، الا أنهم أظهروا عقلية ممتازة فيما صنعوه فى هذه المجالات » (١٦) • كما أن عشرات الرسوم التخطيطية ولوحات الألوان المائية للرسام جون هوايت الذى رافق الحملة ، تبين الهنود وهم فى مظاهر مختلفة من العمل واللعب ، وتكشف لوحاته عن تقدير صادق لقدرة الهنود على التحكم فى بيئتهم من خلال أساليبهم فى الصيد ، والزراعة ، وحياتهم العائلية والجماعية ، وغير ذلك من مظاهر حضارتهم •

لم يقم الانجليز ، بعد تجربة رونوك ، بأية مغامرة استعمارية جديدة لمدة ٢٠ سنة ، الا أن بعض القباطنة الانجليز الممثلين للتجار الذين اشتغلوا بتجارة الأنديز الغربية حضروا لفترات قصيرة الى ساحل أمريكا الشمالية فى محاولة للمقايضة مع الهنود ، وأفادت تقاريرهم بأن علاقاتهم كانت ودية بصفة عامة • ثم توقفت المحاولات الاستعمارية الانجليزية بعد ذلك حتى وفاة الملكة اليزابث سنة ١٦٠٣ التى شهد حكمها كثيرا من الدعاية لاستعمار أمريكا والحصول على تأييد التاج وأموال التجارة الوطنية ، وكانت أمريكا الشمالية حتى ذلك الوقت حكرا على الأسبان والفرنسيين •

المراجـــع

1. John Shy, « The American Military Experience : History and Learning », « The Journal of Inter-disciplinary », 1 (1970-71) : 211 W

2. Quoted in Wilcomb E. Washburn, ed., « The Indian and the White Man » (Garden City, N. Y. : Doubleday & Co., Inc., 1964), p. 4.

3. Lawrence C. Wroth, « The Voyages of Giovanni da Verrazzano, 1524-1528 » (New Haven : Yale University Press, 1970), p. 137.

4. Richard Hakluyt, « Divers Voyages touching the discoverie of America, and the Ilands adjacent unto the Same » (1582), Hakluyt Society Publications, 1st Ser., 7 (London : The Hakluyt Society, 1850) : 23.

5. Vilhjalmur Stefansson, ed., « The Three Voyages of Martin Frobisher » (London : The Argonaut Press, 1938), 2 5 23.

6. Quoted in William S. Maltby, « The Black Legend in England : The Development of Anti-Spanish Sentiment, 1558-1660 » (Durham, N.C. : Duke University Press, 1971), p. 16.

7. « A Good Speed to Virginia (1609)2», quoted in Wesley Frank Craven, « Indian Policy in Early Virginia », William and Mary Quarterly, 3rd Ser., 1 (1944) : 65.

8. « A True Declaration of the Estate of the Colonie in Virginia ... (1610), in Tracts and Other Papers, Relating Principally to the Origin, Settlement, and Progress of the Colonies in North America ..., » Peter Force, comp. (Washington D.C., 1884), 3 : No. 1, p. 6.

9. « A Good Speed to Virginia (1609), quoted in Gary B. Nash, « The Image of the Indian in the Southern Colonial Mind », William and Mary Quarterly, 3rd Ser., 29 (1972) : 210.

10. William Strachey, « The Historie of Travel into Virginia Britania » (1612), eds. Louis B Wright and Virginia Freund, Hakluyt Society Publications, 2nd Sed., 103 (London : The Hakluyt Society, 1953) : 26.

11. David Beers Quinn, ed., « The Voyages and Colonizing Enterprises of Sir Humphrey Gilbert », Hakluyt Society Publications, 2nd Ser., 84 (London : The Hakluyt Society, 1940) : 450-52.

12. Ibid., 453.

13. David Beers Quinn, ed., « The Roanoke Voyages, 1584-1590, » Hakluyt Society Publications, 104 (London : Hakluyt Society, 1955) : 108.

14. Ibid., 381-82.

15. Edmund S. Morgan, « Slavery and Freedom : The American Paradox », Journal of American History, 59 (1972-43) : 16.

16. Quinn, ed.. « Roanoke Voyages », 104 : 371.

الفصل الثالث

التقاء الحضارات عند خليج تشيزابيك

تأسست أول مســـتوطنة انجليزية دائمة فى العالم الجديد ، فى جيمستاون بفرجينيا سنة ١٦٠٧ ، ولم تكن مستعمرة بالمعنى المضبوط ، أو على الأقل ، لم تكن وحدة سياسية تحكمها الدولة الأم ٠٠ بل كانت ، على الأصح ، مشروعا تجاريا تملكه شركة فرجينيا بلندن ، المكونة من حاملى الأسهم ، وهيئة المديرين المسئولة مباشرة أمام الملك جيمس الأول ٠ والهدف الأول من تأسيسها ، العودة بالربح على حاملى أسهمها ـ من التجار والشخصيات السياسية فى البلاط الملكى ، وغيرهم من المستثمرين بأمل تحقيق نفس النجاح الملحوظ الذى حققه الأسبان والبرتغاليون فى المكسيك وبيرو والبرازيل ٠

وبدأ صك الامتياز الملكى ، بتوجيه للشركة بأن تعنى بنقل الدين المسيحى الى هؤلاء الذين « لازالوا يعيشون فى ظلام الجهل المخزى بحقيقة الرب وعبادته » ٠ ولا شك ، أن هذه الاشارة الى تحويل هنود منطقة تشيزابيك الى المسيحية قد أثارت اهتمام الانجليز كثيرا فى منطقة كان التنافس فيها مع الأسبان ، من أجل السيطرة على شعوب الأرض التى لا عقيدة لها ، يناظر الصراع من أجل شعوب « العالم الثالث » على يد الدول الشيوعية والرأسمالية بعد الحرب العالمية الثانية ٠ الا أن الأهم من ذلك عند من اكتتبوا فى أسهم شركة فرجينيا هو استلامهم العائد من استثمارهم ٠ وكما كتب بعد ذلك ، الكابتن جون سميث ، الذى أصبح شخصية رئيسية فى الدراما المكشوفة فى فرجينيا : « انا لنعجب فعلا كيف أمكن لرجال عقلاء كهؤلاء أن يعذبوا أنفسهم ويعذبونا بمثل هذه السخافات والمستحيلات الغريبة : أى جعل الدين صبغة لهم ، بينما لم يكن كل همهم سوى الربح العاجل ٠٠٠ وأنا لست من الغباء حتى أعتقد أن هناك أى دافع آخر غير الثروة والغنى سيقيم مصلحة عامة فى فرجينيا فى يوم ما » (١) ٠

كيف تثرى شركة فرجينيا مساهميها ؟ لم يكن أى شخص متأكدا من ذلك تماما ، ولكن كان يفترض أن المكاسب فى العالم الجديد يمكن أن

تأتى بأشكال متنوعة ، منها : اكتشاف الذهب وغيره من المعادن ، والتجارة مع الهنود ، وإنتاج القار والقطران والبوتاس وغيرها من منتجات الغابة ، التى يحتاجها رجال البحرية الانجليز ، وكذلك تنمية صناعة صيد السمك • والأفضل من كل ذلك ، باكتشاف الطريق المتوهم الى الصين عبر قارة أمريكا • ولقد تحققت بعض هذه الأهداف فى مشروعات تجارية انجليزية برأسمال مشترك على يد شركة موسكو .Moscovy Co فى روسيا ، وشركة ليفانتين .Levantine Co فى الشرق الأوســـط ، وشركة الهند الشرقية الشرقية .East India Co فى الشرق الأقصى ، فلماذا لا تطبق فى أمريكا الشـــمالية ؟

كانت المشكلة الرئيسية فى أى وقت يتم فيه الحصول على رأسمال هى تجنيد العاملين الذين سيذهبون الى المستعمرة كموظفين لشركة فرجينيا، ويقيمون شكل الادارة والسلطة التى تفتح قنوات جهودهم نحو أهدافهم المرغوبة ، وقد كانت كلتا المشكلتين شائكة فى السنوات الأولى •

وكانت الثمرة النهائية لسنة من التخطيط فى لندن ، هى ذلك الأسطول الصغير جدا الذى أبحر الى فرجينيا فى ديسمبر ١٦٠٦ مكونا من ٣ سفن تحمل حوالى ١٢٠ استعماريا يباشرون عملهم تحت امرة الكابتن كريســـتوفر نيوبورت Christopher Newport ، وبعد توقفه فى جزر الهند الغربية للتزود بالماء والتموين ، نزل الرجال بمؤنهم عند خليج تشيزابيك • وبعد أيام قليلة ، اختفت السفن فى الأفق تاركة وراءها هذه العصبة الصغيرة من الرجال ، وحيدة على أرض مجهولة •

سوء الحظ المبكر :

ان ما حدث فى تسعة الأشهر التى تلت ، قبل أن يعود الكابتن نيوبورت بامدادات من المؤن والذخيرة ومستوطنين اضافيين ، لدليل كاف عن العجز البشرى وسوء الحظ • فقد جرت محاولات لاستكشاف المنطقة وبناء حصن بداخله ملاجىء ، وزراعة والمحاصيل ، وصيد قليل من السمك • ولكن يبدو أن المستعمرين قضوا وقتا طويلا منقسمين الى جماعات تدبر كل منها المكائد ضد الأخرى • وسرعان ما تضاءلت المؤن وأصبح الرجال على وشك الهلاك جوعا ، وهاجر بعضهم الى القوة الهندية حيث الطعام الوفير ، وعانت المستوطنة من مرض الدوسنتاريا • وتم طرد أحد أعضاء مجلس الادارة المقيمين ، على يد زملائه الساخطين ، وحكم على آخر بالاعدام بتهمة التجسس للأسبان ــ حيث كان الظن أنهم يدبرون لازالة المستعمرة ، ولم ينقذ الثالث من الشنق الا عودة سفن التموين من انجلترا • ولما عاد نيوبورت فى يناير ١٦٠٨ لم يكن باقيا على قيد الحياة سوى ٣٨ مستوطنا ،

وبعد ثلاثة أيام دمرت النيران معظم المباني البسيطة فى جيمستاون ، ومعظم الامدادات المفرغة من السفن ·

أرسلت شركة فرجينيا في لندن سفنا بالمستوطنين الجدد والمؤن ، وذلك مرتين سنة ١٦٠٨ ، ومرت سنة ١٦٠٩ ، لكن المحنة استمرت وكتب أحد الفرجينيين فى القرن الثامن عشر ينعى عليهم كسلهم ويأسى لمعاكسة وضاعت ثمار جهود الرجال » (٢) · ورغم ارسال أكثر من ٩٠٠ مستوطن الى فرجينيا فى السنوات الثلاث الأولى ، لم يتبق منهم بحلول شـــتاء ١٦٠٩/١٦١٠ سوى ٦٠ مستوطنا لجأ بعضهم الى أكل الجيف ، كما كتب أحد الفرجينيين فى القرن الثامن عشر ينبغي عليهم كسلهم ويأسى لمعاكسة الظروف لهم حتى هلك الـــكثيرون قبل أن يتمكنوا من جمع والتقاط طعامهم (٣) · وفى لندن ، وبينما كان مديرو شركة فرجينيا يروجون الشـعارات ، مثل « حظ سـعيد لفرجينيا » ، « قيمة فرجينيا بمواردها الطبيعية » ، تناقل الشارع اشاعات بأن المستعمرة فشلت فشلا ذريعا ، وأن المستثمرين أخذوا يحصون خسائرهم فى هذه الشركة المنحوسة ، ويتساءل الناس عما حدث لحظة اقامة الوجود الانجليزى فى أمريكـــا الشـــمالية ·

ومن عيوب تخطيط منظمى الاستعمار الانجليزى ، أنهم أساءوا تقدير حقيقة وطبيعة ساحل أمريكا الشمالية ، اذ كان معظم المستثمرين والمساهمين يأملون فى تطبيق التجربة الأسبانية فى بيرو والمكسيك · اذ كانوا يحلمون بالثراء من استخراج المعادن النفيسة من الأرض ، ويأملون فى تشغيل القوة العاملة الوطنية ، أو على الأقل أن يثروا من التجارة مع الهنود ، الا أن فرجينيا شيء والمكسيك وبيرو كانتا شيئا آخر ، فلم تحتو أرضها على ذهب أو فضة ، وبالتالى كانت كل عمليات الحفر المسعور فى الشهور الأولى ، وكل حمولات السفن من الرمل المختلط بذرات الميكا التى ظنها المستعمرون ذهبا استنزافا للجهد ، وسراب أحلام · وكتب جون سميث « هازئا من أحلام الثراء الذهبية التى جعلت المستوطنين يعملون كالرقيق : فلا حديث ولا أمل ولا عمل ، ولكن استخرج الذهب ، واغسل الذهب ، ونق الذهب ، واحمل الذهب [لتحميله] على السفينة التى تتمايل بالرمال المموهة بالميكا » (٤) ·

وضاعف من خيبة الأمل ، عدم قدرتهم على الاستفادة من خدمات وجهود هنود المنطقة ، فقد افترض معظم الانجليز الذين جاءوا الى فرجينيا فى المرحلة الأولى من الاستعمار أنهم يستطيعون استغلالهم بمجهود بسيط ، وأن يبنوا على ظهورهم مجتمعا زاهرا · فقـد هزم كورتيز امبراطورية الآزتيك القوية ببضع مئات من الرجال ، ثم حول جهود آلاف الهنود

لتحقيق مصالح الأسبان ، وكذلك فعل بيزارو فى بيرو ، فلم لا يكون الأمر كذلك فى فرجينيا ؟

لكن الانجليز وجدوا فى منطقة تشيزابيك أن الأهالى الوطنيين ليسوا بكثافة تسمح باستعبادهم بسهولة · وقد كتب سميث فيما بعد أن الأسبان كانوا محظوظين تماما فى استعمار هذه الأجزاء التى بها أعداد وفيرة من الناس (٥) · فضلا عن أن الأسبان مارسوا « السلب والنهب » للمناطق المستكشفة لأنهم أحضروا معهم قوة حربية قادرة على قهر مجتمع الوطنيين · أما الانجليز ، فقد أقاموا فى فرجينيا حيث لا توجد امبراطورية هندية غنية ليهزموها ، ولا يسهل اذابة ٣٠٫٠٠٠ هندى فى منطقة تشيزابيك فى قوة عاملة تحت امرة الأوروبيين لأنهم لم يحضروا معهم جيشا من الفاتحين ولا من الواعظين ليحولوا الهنود الى الديانة الأوروبية · ونظرا لعجزهم عن استغلال السكان الوطنيين أو الاستفادة منهم ، وجد مستوطنو فرجينيا جنة العالم الجديد أبعد ما تكون عن فكرة المدينة الفاضلة (اليوتوبيا) ·

ويرجع العيب الثالث فى خطة الاستيطان الانجليزى الى تركيبة المستوطنين الأصليين الأوائل فى جيمستاون ، الذين كان من بينهم عدد من المغامرين الأغنياء غير المؤهلين للقيام بالعمل الشاق ، الخشن فى بناء المستعمرة ، وأثبتوا أنهم عالة فقط على الموارد الضئيلة بالمستوطنة · وبنفس الدرجة ، لم يوجد سوى قليل من العمال والفلاحين القادرين على قطع الأشجار وبناء المنازل وزراعة الأرض · وكانت شكوى جون سميث أنه كان يكفيهم عدد قليل من الســـادة الأثرياء الباحثين عن المغامرة ، أما « أن يكون هناك الكثير الذين ينتظرون ، ويلعبون أكثر مما يعملون ، أو الكثير من الرؤساء والموظفين أكثر من العمال المجدين » ، فهذا سخف « لأن الجندى العادى فى فرجينيا الذى يمكنه استعمال الفأس والجاروف هو أفضل من خمسة فرسان » (٦) · ولم يكن المولودون لحياة العمل بأفضل كثيرا من غيرهم ، ويقول رئيس الشركة متنمرا : « انهم طاقم لعين ، لم تلفظ الجحيم مثله من قبل » · وردد رأيه هذا ، وزينه واحد من مؤرخى فرجينيا الأوائل الذى وصف المستعمرين الأصليين بأنهم « رجال شديدو التأنق ، عنيدون ، قد شحنهم أصدقاؤهم بعيدا هربا من مصير أسوأ ، ينتظرهم فى الوطن ، وسادة فقراء ، وتجار مفلسون ، وفجار مستهترون ، وغيرهم ممن كانوا خليقين بافساد الولاية الأمريكية أو بهدمها ، أكثر من بنائها أو صيانتها » (٧) · هذا الاختيار السيىء للمستعمرين ، لم يخلق مشكلات فى القوى العاملة فقط ، بل أدى أيضا الى توتر اجتماعى مطرد · ولئن اعتبر وجود ذوى المركز الاجتماعى العالى فى انجلترا ضرورة لاستقرار وقوة المجتمع ، لكنه بات فى مســـتوطنة على قارة واسعة غير معروفة

مصدرا للسخط والاستياء ، لأن هؤلاء النبلاء ترفعوا عن العمل فاستخف بهم من هم دونهم ، لأنهم رأوا فيهم قوة عاطلة غير جديرة بالاحترام ·

وتمثل حالة الكابتن جون سميث أفضل مثال للتوتر الاجتماعى ، الذى نشأ عن مجىء الانجليز الى بيئة جديدة غرب الأطلنطى · فهو لم يدع دما أرستقراطيا ، بل كان ابن فلاح أجير بسيط ، وأدرك منذ الصغر أن حياة الفلاح الفقير لا تحفظ له شيئا فانطلق يحاول فى مجالات أخرى أكثر اثارة · وقبل أن يبلغ منتصف العشرين من عمره شق طريق الكفاح عبر أوروبا ، وعاد جنديا محترفا ، يبيع خدماته فى الحروب المحلية فى ترانسلفانيا ، وضد تركيا فى السهول الغربية للمجر ، وتم أسره واسترقاقه فى استانبول لعدة سنوات ، ثم هرب الى روسيا ، ثم رجع الى انجلترا عن طريق شمال أفريقية · وبفضل خبرته الحربية ، ومهارته كرسام للخرائط ، وبفضل أصدقائه فى لندن المهتمين بشركة فرجينيا التى أنشئت لأغراض الدفاع والمراقبة سنة ١٦٠٦ ، تم تجنيده عضوا فى أول بعثة لجيمس تاون ، وكانت خبرته توحى بأنه سيكون الرجل المناسب ، وقت الشدة ·

لقد تشاجر سميث خلال الرحلة فى المحيط مع بعض القادة ممن تجرى الدماء الأرستقراطية فى عروقهم ، وعندما فضت الأوامر السرية عند الوصول الى تشيزابيك ، تبين أنه قد عين عضوا فى المجلس الحاكم بفرجينيا ، مما أثار المزيد من الاستياء ، ولم يتردد فى الاعلان عن ازدرائه لمن يعتقدون أن أصولهم الاجتماعية تعفيهم من العمل اليدوى · وقد ثبت فعلا أنه واحد من أولئك المستعمرين الأوائل الذين كانت لديهم الشجاعة والمقدرة على كشف ورسم المنطقة المحيطة بجيمستاون ، واقامة اتصالات مع الهنود ، والتفاوض معهم ، وتنظيم القوى البشرية الضئيلة بالمستعمرة على أسس معقولة ومناسبة · وقد رأى المترفون من المستوطنين وأعضاء مجلس الادارة فى جهوده محاولة محسوبة ليسيطر على المستعمرة ويخضعهم بمرور الأيام · ورغم ما بذل من محاولات لابعاده ، الا أنه بحلول سبتمبر ١٦٠٨ تغلب على معظم خصومه ، وصار بعد عام واحد رئيسا للمجلس الحاكم ·

التبغ واعادة التنظيم :

بعد ثلاث سنوات من الفوضى السياسية والاجتماعية والفشل تقريبا فى ايجاد طرق لاستغلال منطقة تشيزابيك لصالح حاملى أسهم شركة فرجينيا ، أدرك مديروها بلندن أنها ليست بحاجة الى جنود ينشدون الثراء ، بل الى مزارعين عاديين يمكنهم استخراج الغذاء الضرورى من

الأرض ، ابقاء على حياة المستعمرة ، والبدء في زراعة محصــــول ثابت • وأعيد تنظيم الشركة سنة ١٦٠٩ ، وأغرى عدد كبير من المستوطنين بالذهاب الى فرجينيا على وعد بامتلاك أرض مجانا بعد انتهاء سنوات من العمل لحساب الشركة •

وبهذا النظام الجديد من التعبئة اجتذب ١٢٠٠ مهاجر جديد الى فرجينيا فيما بين سنتي ١٦١٠ ، ١٦١١ ، ورغم ذلك ، عجزت الشركة عن زراعة محاصيل ثابتة أو ايجاد وسيلة ، تعود بالفائدة على مستثمريها • فتعثرت المستعمرة وعجزت عن تحقيق الاكتفاء الذاتي ، وانخفض السكان الى ٣٥٠ مستوطنا سنة ١٦١٦ نتيجة الوفاة والهجرة الى انجلترا • وهنا زادت الشركة اغراءاتها ، وقدمت ١٠٠ فدان تقريبا دفعة واحدة لأى فرد في انجلترا يسافر الى المستعمرة ، وبدلا من أن يتعهد الفرد على نفسه بالعمل لفترة محددة قبل أن يتحول الى مالك منفرد للأرض ، أعلنت الشركة أن بوسع كل فرد أن يصبح مالكا مستقلا للأرض بمجرد وصوله الى تشيزابيك ، بهدف اجتذاب أبناء الطبقات الدنيا الى الهجرة •

بهذا البرنامج الجديد ، تخلت الشركة نهائيا عن أملها فى تكوين ثروة لمساهميها عن طريق تشغيل القوى العاملة سواء الوطنية منها أو الانجليزية • وتصرفت من تلك اللحظة كهيئة لتنمية وبيع الأراضي بهدف تشجيع أكبر عدد ممكن من الانجليز للمجيء الى فرجينيا سعيا وراء ثرواتهم بشكل مستقل • فاذا أثبتت المستعمرة نفعها ، عاجلا أو آجلا ، يمكن أن تباع مواردها من الأرض الواسعة بثمن مربح • كما قدمت تنازلات أخرى اذ صدر الأمر للحاكم المقيم بالسماح بانتخاب جمعية نيابية يمكنها المشاركة فى ادارة المستعمرة وبذلك يرتبط المستعمرون بالأرض عاطفيا ، وأرسلت الشركة فى نفس العام حمولة مركب من النساء غير المتزوجات للحفاظ على الجانب الأخلاقى وزيادة السكان القليلين •

واستجابة لهذه الامتيازات ، وصل أكثر من ٤٥٠٠ مستعمر فيما بين سنتى ١٦١٩ ، ١٦٢٤ للعمل كموظفين فى شركة فرجينيا أو بصـــفتهم الشخصية وأصبحوا تحت التصرف الكامل للمجلس المقيم والمجلس الحاكم فى لندن • وقد تعلمت الشركة خلال مرات فشـــلها أنه لا يحقق أمل المستعمرة في البقاء والنمو سوى الوعد بالملكية العاجلة للأرض ، والسماح بدرجة معينة من الحكم المحلى • ولم تبدأ المستعمرة بالباحثين عن الحرية السياسية أو الدينية ، بل بالمستثمرين المنهومين الى المكاسب ، ومتصيدى الثراء من المغامرين ، ومن العامة وسكان الأزقة وسجون انجلترا ، ولكنهم بعد عقدين من السنين ، تخلوا عن خططهم الأصلية بعد أن عدلوا توقعاتهم طبقا لواقع العالم الجديد •

لم تكن اعادة تنظيم الشركة والاغراءات الجـــديدة فقط هى التى انتشلت المستعمرة من هوة الفوضى الاجتماعية ، وعدم ربحيتها فى السنوات الأولى ، بل كان أيضا اكتشاف أن التبغ ـ أو كما يسمونه « حشيشة المرح » ينمو جيدا بشكل استثنائى فى تربة منطقة تشيزابيك • هذا التبغ الذى صار أحد المواد المخدرة المنتشرة الاستعمال فى القرن السابع عشر جلب لأول مرة من فلوريدا الى البرتغال فى ستينات القرن السادس عشر ، الا أن حمولة المركب التى جمعها فرانسيس دريك من الهند الغربية سنة ١٥٨٦ ثم انتشرت بعد ذلك ، على يد رالى وسط الطبقة العليا وسرعان ما تحول عن أغراضه العلاجية الى ادمان اجتماعى ، اذ اكتسح انجلترا جنون التدخين بحلول القرن السابع عشر ، وأطلق الشباب الانجليزى تسميات مميزة تعبيرا عن شدة اعجابهم القريب من التقديس للتدخين مثل : « الحلقة أو الطوق » (*) و « النفخة » و « البلعة » ، و « الحبسة » ، وكلها قد أصبحت جزءا من العادة الاجتماعية الجديدة • ولم تفلح المعارضة الشديدة من الملك جيمس فى كبح شعبية تدخين التبغ • ونشر جيمس مع اغفال اسمه كتاب « نفخة مضادة للتبغ » وصف فيه التدخين بأنه عادة غير مفهومة ، مؤذية للعين ، كريهة للأنف ، ضارة بالدماغ ، خطرة على الرئتين، وتكاد تشبه بدخانها الأسود النتن دخان جهنم وهو خارج من الفم ، لكن الكتاب لم يأت بفائدة ، لأن المجتمع الانجليزى كان قد استورد الكثير والكثير من أوراق التبغ من العالم الجديد • وكانت جزر الهند الغربية فى بادىء الأمر تمده بالجزء الأكبر من المحصول ، ولو أن تجارب استزراع التبغ للأغراض الطبية أثبتت نجاحا غير عادى ، وزادت صادرات أوراقه من ٢٣٠٠ رطل انجليزى (**) سنة ١٦١٦ الى ٢٠٠ر٠٠٠ رطل سنة ١٦٢٤ ، ثم ارتفع فجأة الى ٣ر٠٠٠ر٠٠٠ رطل سنة ١٦٣٨ • وهكذا أصبح التبغ بالنسبة لمنطقة تشيزابيك كالسكر بالنسبة لجزر الهند الغربية ، والفضة لبيرو والمكسيك •

الخدم ذوو عقود الاستخدام ذات الأجل :

بزيادة الطلب على التبغ بحث المزارعون الانجليز فى تشيزابيك عن مصدر للعمالة رخيص • وكان المستوطنون بالمستعمرات الأســـبانية والبرتغالية قد استطاعوا أن يدمجوا السكان الوطنيين فى نظام للعمل الاجبارى يكاد يشبه العبودية والرق ، ولكن الانجليز اكتشـــفوا أنهم

(*) لعلهم استمدوا اللفظ من حلقات الدخان المتصاعدة من السيجارة أو من طوق النجاة فى السفينة ـ (المترجم) •

(**) الرطل الانجليزى (الباوند) حوالى ٤٥٣ جراما •

تنقصهم القوة فى السنوات الأولى حتى يستعبدوا القبائل المحلية ، لذلك رجع الى انجلترا زراع التبغ للبحث عن العمالة بين أشد قطاعات السكان فقرا ، وأغروا الشبان على بيع خدمتهم لمدة من أربع الى سبع سنوات ، نظير عبورهم الأطلنطى والحصول على فرصة بعد قضاء (مدتهم) ليصبحوا ملاكا للأرض ، وأصحاب مزارع للتبغ مستقلين فى العالم الجديد • هؤلاء الرجال يسمون بالخدم بأجل ، لأنهم يقدمون أنفسهم لخدمة السيد لفترة معينة بعقد رسمى ، ولا يختلفون فى ذلك عن المستخدمين الأوائل لدى شركة فرجينيا الا فى تعاقدهم مع أفراد • وصار الواحد منهم قادرا على العناية بحوالى ألف أو ألفى شجرة تبغ وهى كمية يمكن أن تدر عائدا من مائة الى مائة وخمسين جنيها فى السنة ، وهو مبلغ لم يتوافر فى انجلترا الا للقليل من العمال •

بعد أن أثبت التبغ نجاحه فى فرجينيا ، طالب عدد قليل جدا بتوفير هؤلاء الخدم بأجل ، ليزيدوا من مساحة زراعته • وبعد شحنهم كانوا يباعون على ظهر السفينة بالمزاد العلنى ، فكلما زاد الخدم لدى المالك زاد دخله من التبغ وبالتالى توسع فى شراء الخدم والأرض ، كما صور ذلك أحد المؤرخين بقوله : « لقد اختلفت فرجينيا عن تلك المدن الأمريكية التى ازدهرت فيما بعد فى عدم اعتمادها على اكتساب قطع الأرض المناسبة بل على الحصول على الرجال • فالأرض القابلة لزراعة التبغ كانت فى كل مكان ، وبوفرة جعلت الناس لا يقلقون فى بادىء الأمر على تدبير الحصول عليها ، وكانت وسيلتهم الى ذلك وضع اليد عليها وبيعها بعد ذلك مع رفع سعرها بالمزاد العلنى الى أربعة أو خمسة أو ستة أمثال الثمن الأساسى » (٨) •

كانت حياة هؤلاء « الخدم المتعاقدين » بأجل حياة قاسية ، اذ كانوا ملكية شخصية لعدد قليل من أصحاب المزارع الطامحين ، القساة ، الذين ملكوا النفوذ السياسى والاجتماعى الى جانب الثروة فى المستعمرة ، وسيطروا على الحكومة المحلية دون أى قيود على تصرفاتهم ، وتجلى ذلك فى حادثة ريتشارد بارنيس Richard Barnes سنة ١٦٢٤ ، وكان مهاجرا عاديا انتقد النظام الذى تتحكم فيه القلة تحت تأثير الخمر وأفلت لسانه بكلمات « نابية ومهينة » فى احدى الحانات ، وصدر الحكم عليه ، لهذا السبب ، بتجريده من سلاحه ، وكسر ذراعيه ، وثقب لسانه بمخراز ، وبأن يمر أمام ٤٠ جنديا من المشاة ليضربه كل منهم بكعب بندقيته القديمة ويركله ثم يلقى به خارج الحصن ، وينفى من جيمس سيتى ومن الجزيرة ، بحيث لا يكون كفؤا للتمتع بالحرية •••• [بعدئذ] » (٩) •

لم يكن بارنيس من الخدم المتعاقدين بأجل ، بل كان شخصا حرا متمتعا بالحقوق الكاملة للمواطن ، لأن حياة الخادم المتعاقد الذى يتحدى ارادة المجموعة المهيمنة من مزارعي التبغ ، تكون أشد تعرضا للمخاطر حيث لم يكن يختلف الاسترقاق فى فرجينيا عن النظام القديم لملكية الرقيق الا من حيث الدرجة فقط • فنظرا لعدم التقيد بالمحاكم التى تحمى حقوق الخدم فى الوطن الأم من السادة الجائرين ، عاملهم الملاك على أنهم جزء من ممتلكاتهم المنقولة • حتى ان تاجرا انجليزيا رفض أن يأخذ شحنة مركب من خدم العقود الى فرجينيا ، وبرر ذلك بأن « الخدم يباعون فى الذهاب والجيئة كالخيول » • وقد كتب ادموند مورجان Edmund Morgan عما حدث فى فرجينيا « وقت ازدهارها » أن الشركات التجارية الخاصة تتصرف من آن لآخر دون رقيب أو حسيب ، وتسرف فى جشعها حتى بات البشر يعاملون وكأنهم منقولات » (١٠) •

العلاقات الانجليزية ـ الهندية :

بينما كان المستثمرون ، ومؤسسو الشركات فى فرجينيا يكيفون خططهم تبعا لواقع البيئة المحيطة بتشيزابيك ، لم يكن المستوطنون يطورون وسائل استغلال الأرض والعمال والمهاجرين فقط ، بل كانوا يصطدمون بأهالى المنطقة ويدخلون معهم فى مناوشات • وسواء أكان ذلك يحدث أم لا فان تنمية ثروات أية منطقة لا تتم بدون مجابهة صريحة ومباشرة لسـكان الأرض الأصليين • فمنذ أن لمست بعثة جيمس تاون الأولى الأرض ، والانجليز فى اتصال واحتكاك مباشر مع الهنود الحمر ، وكان الاستيطان الدائم يتطلب حصول المستوطنين البيض على الأرض التى يملكها الهنود • وكانت هذه الحقيقة وحدها هى البداية لسلسلة الأحداث التى أثرت على العلاقات الاجتماعية بين البيض والحمر •

لا يمكن أن نعرف بالضبط ، ما كان يتوقعه الانجليز من الهنود وهم يقتربون من خليج تشيزابيك فى ربيع ١٦٠٧ م • ، ولا أن نتأكد مما اذا كان تدمير الهنود لحملة أسبانية فى نفس المنطقة قبل جيل مضى كان تعبيرا عن عـداء تجـاه كل الأوروبيين • ولكننا نرجح أن كلا الجانبين لم يكن متفائلا بلقاء الآخر فمستعمرة رونوك كانت قد تحولت الى كومة من العظام على يد الهنود منذ جيل سابق ، أما تجربة الهنود مع الأوروبيين على فترات متفرقة ، فقد جعلتهم يرونهم أناسا متشربين للروح العسـكرية ، ومحبين للنظام • ولابد أن تشاؤم الانجليز قد تعاظمت حدته عندما هوجمت حملة جيمستاون بالقرب من كيب هنرى ، وهى أبعد نقطة داخل البحر فى منطقة تشيزابيك ، وكانت أول ما وقعت عليه العين من اليابس • ومن هذا المنطلق ، تقدم الانجليز بمنتهى الحذر وهم يتوقعون العنف والغدر

من الهنود حتى وهم يتقربون منهم بطرق فى ظاهرها الود • وهكذا ، عندما قاد كابتن نيوبورت ، أول رحلة استكشافية فى اتجاه نهر جيمس الذى سمى بهذا الاسم عقب تأسيس مستوطنة صغيرة جدا فى جيمستاون ، تحير لما لاقاه من ود الهنود الذين كان يحسبهم قوما غدارين بطبيعتهم ، ولكنه ألفى فيهم كرما بالغا (١١) •

ويروى أحد أعضاء البعثة أن الهنود دعوا الانجليز الى الطعام وشرب النبيذ ، وبينوا أنهم « على خصـــام » مع القبائل الأخرى بما فيها قبيلة تشيزابيك ، التى هاجمت الانجليز فى كيب هنرى ، ولذلك فهم راغبون فى التحالف مع الانجليز ضد أعدائهم •

تشير الدراسة الأنثروبولوجية ، الى أن هنود المنطقة كانوا يصفون موقفهم بدقة بالغة عندما قالوا انهم « على خصام » مع القبائل الأخرى • فقد كان يعيش فى منطقة تشيزابيك نحو خمسين قبيلة صغيرة ، وقبل وصول الانجليز كان بوهاتان Powhatan الرئيس الأعلى لعشرات منها ، يشـــدد قبضـــته ، على القبـــائل الأقـــل شـــأنا بالمنطقة ، بينمـــا يمنـــع خطر قبـــائل بيدمونت Piedmont الداخلية • ولعله رأى أن تحالفه مع الانجليز يبسط سيطرته على منطقته الساحلية ، بينما يقضى بذلك تلقائيا على نفوذ أعدائه فى الغرب • وفى نفس الوقت ، كانت له تجربة غير سارة مع الأوروبيين ، قبل ثلاث سنوات عندما وصلت سفينة انجليزية عابرة ، وأكرم ضيافة طاقمها ، ورغم ذلك قتلوا أحد الزعماء بالمنطقة وخطفوا العديد من الهنود ، تلك التجربة جعلت بوهاتان يحاذر كثيرا من هؤلاء الوافدين •

وسرعان ما فهم جون سميث وآخرون غيره التوتر الداخلى بين القبائل ، وكذلك الاختلافات اللغوية بين الهنود • ولكنهم لم يستطيعوا اقناع أنفسهم ، فيما يبدو بأن بعض زعماء القبائل يمكنهم أن يجدوا فى مجيئهم قوة تنفعهم • فلم يسعهم الا أن يروا فى الهنود جميعا تهديدا لهم • وهكذا ، لم يروا فى الهنود سواء المعادين منهم أو المحبين سوى اختلاف فى السلوك الظاهرى فقط ، أما فى داخلهم فهم « همج » تماما ، وغدارون ، يتحينون الفرصة فقط لطرد الانجليز الى البحر الذى طلعوا عليهم منه •

وتكشف تشوش العقل والمزاج الانجليزى مرة بعد مرة أثناء الشهور الأولى من الاحتكاك • ففى خريف سنة ١٦٠٧ تناقصت الامدادات الغذائية بشكل خطير ، وتفشى المرض بين مستوطنى جيمستاون فأقعدهم ذلك عن العمل ، وأنقذ بوهاتان المستعمرة بتزويدها بالطعام الكافى حتى وصلت سفينة النجدة • الا أن الكثيرين رأوا فى ذلك مثالا للعداء المقنع من بوهاتان ، ومحاولة منه لخدمة مصالحه بالتحالف مع الانجليز ، ويؤكد

ذلك ما كتبه جون سميث (١٢) ، الذى كان ذا خبرة حربية واسعة مع الشعوب « البرابرة » فى كل أجزاء العالم ، لذلك لم يكن راغبا فى أن يصدق أن الهنود بمساعدتهم للمستعمرة كانوا يهتمون ببقاء الانجليز على قيد الحياة • وعزا قائد آخر فى المستعمرة السلوك الكريم للهنود الى تدخل رب الرجل الأبيض ، حيث كتب أنه « لولا أن الله سره أن يوقع الرعب فى قلوب (الهمج) لهلكنا جميعا على يد أولئك الوثنيين القساة ونحن فى موقف الضعيف » (١٣) •

وقع سميث أسيرا ، فى ديسمبر ١٦٠٧ ، أثناء احدى غاراته فى بلاد بوهاتان ، وسيق الى ويروؤكوموكو Werowocomoco • ويبدو أن بوهاتان أراد استغلال الفرصة ليترك لدى الانجليز انطباعا بقوته ، ورتب لذلك اجراء صوريا لمحاكمته واعدامه • وفى اللحظة الحاسمة ، وبينما يستعد القائمون على التنفيذ بتسديد ضربتهم ، ألقت بوكاهونتاس Pokahontas وهى الابنة الأثيرة لدى بوهاتان ، بنفسها على سميث لتنقذه ، وأصبحت بوكاهونتاس على مدى اثنتى عشرة سنة زائرة مستديمة لجيمستاون ، ورسول والدها بعد أن اكتسبت ثقة سميث الذى أدرك أن عملية الانقاذ كانت وسيلة يظهر بها بوهاتان قوته ورغبته فى التحالف مع الوافدين الجدد ، ربما بدافع تقريره لقوتهم ، أو لعلها العناية الالهية التى دفعته لذلك ، ولكن العداء المتأصل فى ذاكرة الانجليز دفعهم الى اساءة الظن به •

أصبحت بوكاهونتاس ، فى أعقاب الحادثة ، سفيرة لبوهاتان الى مستعمرة جيمستاون وأتقنت الانجليزية ، ونقلت الى بوهاتان أخبار الانقسامات الداخلية بين الانجليز • وفى أواخر سنة ١٦٠٨ ، وبوصول المزيد من المستعمرين الى جيمستاون ، تبنى سميث ، بوصفه الرئيس الجديد للمجلس ، موقفا عدوانيا بحرق الزوارق الطويلة الخفيفة للهنود ، وحقولهم ، وقراهم لكى يحرموهم من الطعام ، ويخضعوا بوهاتان والرؤساء الأقل منه • ولما رأى سميث أن فرجينيا لن تستطيع مواصلة التزود بالمؤن بشكل فعال من انجلترا كل بضعة أشهر ، وأن المستعمرين لن يتمكنوا من الحفاظ على حياتهم فى بيئتهم الجديدة ، لذلك سعى الى المتاجرة مع بوهاتان بالقوة • الأمر الذى أثار الزعيم الهندى الذى صمم فى نهاية سنة ١٦٠٨ على ترك الانجليز يهلكون جوعا ، فرفض التجارة معهم ، وسحب أيضا بعثة بوكاهونتاس التى صدر حكم باعدامها • وفى مواجهة بين الزعيمين فى يناير ١٦٠٩ قال بوهاتان بنغمة ساخرة : « أيها الكابتن سميث، لقد شك البعض فى أنك ستأتينى هنا ، وذلك لا يجعلنى أنوى انقاذك كما كنت [أحب] ، لأن الكثيرين أخبرونى بأن حضورك ليس للتجارة ، وانما لغزو شعبى ، وامتلاك بلدى » (١٤) •

كان رد سميث كقائد لمستعمرة يهجرها البعض الى الهنود ، ويهلك البعض الآخر فيها من الجوع ، أن يغير على قرى الهنود للحصول على المؤن . ورد بوهاتان على ذلك بمهاجمة الانجليز أينما وجدهم ، حتى ان وصول الامدادات الجديدة والمئات العديدة من المستعمرين الجدد في يولية وأغسطس لم تغنهم شيئا لسرعة نفاد المؤن ، وأثبت الرجال أنهم يستهلكون أكثر مما ينتجون . ولما رحلت سفن الانقاذ في أكتوبر ١٦٠٩ وجـــون سميث على ظهر احداها ، عانت فرجينيا من اليأس سنة بأكملها . فقد نشط شبح الموت في ظل بوهاتان الذى لم يتوقف عن مهاجمة سكان المستعمرات كلما أمكنه ذلك .

وقد كتب خليفة سميث جورج بيرسى أنهم بعد أن أكلوا الخيول ، وأهلكت الدوسنتاريا كثيرا من الفرجينيين فانقلبوا الى أكل بعض الحيوانات الضارة مثل الكلاب والقطط وفئران المنازل ، وجرذان الحقول ، وبعد نفادها لجأوا الى « أشياء لا يمكن تصديقها ، كنبش القبور واخراج ما بها من جثث لأكلها ، وكان البعض يلعق ما يتساقط من دماء من أجســاد زملائهم المنهارين من الضعف ، بل كان يبعث على الأسى البالغ أن قتل أحد المستعمرين زوجته وشق رحمها وانتزع منه الطفل وألقاه في اليم ، ثم قطع الأم اربا ، وملحها للأكل ولم يكتشف أحد الأمر ، الا بعد أن أكل جزءا منها » (١٥) .

نجحت سياسة انسحاب بوهاتان من التجارة مع المعتدين على التمسك بحقوقه . وفى ربيع ١٦١٠ كتب سفير أسبانيا لدى بريطانيا ، ألونسو دى بيلاسكو Alonso de Velasco تقريرا دقيقا يقول فيه ان « الهنود جعلوا الانجليز محصورين في المكان الحصين الذى اختاروه هناك بعد أن قتلوا الجزء الأكبر منهم ، وتركوا الباقين بدون مؤن مطلقا ، مما يجعل الهرب مستحيلا . وأشار بيلاسكو على حكومته بأن من الممكن ازالة فرجينيا من الخريطة بسهولة « بارسال قليل من السفن للقضاء على ما قد يكون متبقيا هناك » (١٦) . ولكنه لم يكن يعلم أن سفينتى نجدة قد وصلتا فى مايو ١٦١٠ الى جيمستاون ، الا أنهما وجدتا الموقف كئيبا جدا حتى ان سير توماس جيتس Thoma Gates بعد أن وصل ليتولى حكم المستعمرة ، قرر ارسال الستين مستوطنا الباقين على قيد الحياة ، الى انجلترا ، وصرح بأن الانجليز لا يستطيعون سكنى تشيزابيك بصفة دائمة . فأمر جيتس ، فى ٧ يونية ١٦١٠ ، بتجريد المستوطنة البائسة المهجورة مما بها من ممتلكات ضئيلة وأن تشحن الحفنة الباقية على قيد الحياة ليبحروا فى نهر جيمس الى المحيط المكشوف . وقد رفعت السفن مراسيها للاقلاع ليلا ، بعد وصولها الى رأس تشيزابيك واعتزمت بدء رحلة العودة فى المحيط فى اليوم التالى .

وفي اليوم التالي ، لاحت على مرمى البصر ، ثلاث سفن ، كانت تحمل ١٥٠ عضوا جديدا أرسلتهم شركة فرجينيا مع حاكم جديد ، هو سير توماس وست ، لورد دي لاوور • لقد ولدت جيمستاون من جديد في لحظة انقراضها •

نشط مستعمرو جيمستاون ، الذين انبعثت فيهم الحياة ، في بسط سياستهم الحربية نحو الهنود ، وذلك بعد أن تجدد تسليحهم وتموينهم بالأغذية • وكان الوضع الجديد ازاء حلف بوهاتان واضحا بأوامر صدرت سنة ١٦٠٩ لتحكم المستعمرة ، وكانت شركة فرجينيا قد أصدرت قبل ذلك بثلاث سنوات أمرها بأن « من الواجب عليك ، في كل طرقك التى تسلكها أن تحرص بشدة على عدم اغضاب الأهالى الذين يتصرفون بطبيعتهم، اذا استطعت أن تتفادى ذلك » (١٧) • أما الآن فقد صدرت الأوامر الى الحاكم لينتهى من احتلال المنطقة ما بين نهرى جيمس ، ويورك ليخضع كل القبائل له بدلا من بوهاتان ، وليأخذ الحبوب والفراء ومواد الصباغة من كل قبيلة ، ويضم الأهالى كلما أمكن فى قوى عاملة زراعية ، مثلما فعل الأسبان فى مستعمراتهم • ولما زادت قوة المستوطنة الانجليزية ، تابع خلفاء سميث سياسة الارهاب والغزو العسكرى • وأخذ بوهاتان فيما بين سنتى ١٦١٠ ، ١٦١٢ يهاجم المستعمرين ، أينما سنحت له الفرصة ، وصعد الانجليز هجماتهم التى قضت على الجزء الأكبر من ثلاث قبائل صغيرة ، ودمرت قريتين هنديتين • ويبدو أن أغلب كميات الحبوب التى أبقت على حياة المستعمرة فى هذه السنين قد انتزعت بالقوة من قرى بوهاتان •

فى سنة ١٦١٣ ، خطف الانجليز بوكاهونتاس فى خطة مسبقة لاستعادة أسراهم وكمية الأسلحة التى حصل الهنود عليها على مر السنين، ولاجبارهم على سداد « كمية ضخمة من الحبوب » حسبما حددها مختطف بوكاهونتاس ، الكابتن صمويل أرجال Samuel Argall • (١٨) ولما كان بوهاتان يدرك أن ابنته لن تضار بشيء ، قدم تنازلات محدودة ، ولكنه رفض أن يفى بكل شروط الفدية • وفى السنة التالية ، عندما أعلن الرجل الأرمل ، جون رولف J. Rolfe ، الذى اكتسب خبرة فى زراعة التبغ منذ سنة ١٦١٠ ، عزمه على الزواج من بوكاهونتاس وأغرى بوهاتان ، على مضض ، بالمزايا السياسية من وراء السماح بأول زواج انجليزى / هندى فى تاريخ فرجينيا المبكر ، وأصبحت بوكاهونتاس أداة لهدنة غير مستقرة بين مجتمعين ، وقد توفيت بعد ذلك بسبع سنوات فى ١٦١٧ ، وتجددت الأعمال العدائية بعد خمس سنوات من وفاتها عندما توافد المئات من المهاجرين الى أمريكا •

التبادل الثقافى (الحضارى) :

بالرغم من سوء الفهم ، والشك ، والعنف من كلا الجانبين ، عاش الانجليز والبوهاتان على اتصال وثيق خلال العقد الأول من الاستيطان الانجليزى ، وحدث تبادل حضارى على نطاق واسع . وبالرغم من أنه كان أمرا عاديا فى أذهان العامة منذ لحظة التقاء الأوروبيين بالأمريكيين الوطنيين ، أن الأوروبيين « متقدمون » والهنود « بدائيون » ، رغم ذلك ، كانت الاختلافات التقنية بين الحضارتين متعادلة أو يرجح بعضها البعض بالمتشابهات بين هذين المجتمعين الزراعيين ، كما نبهتنا اليه الأنثروبولوجية نانسى لورى Nancy Lurie (١٩) . فقد كانت المزايا التقنية الرئيسية للانجليز هى قدرتهم على نقل كميات كبيرة من المياه فى السفن الخشبية ، وتفوقهم فى استخدام الحديد فى تشكيل الأدوات والأسلحة . الا أن الهنود قد جسدوا مفردات عصر الحديد بسرعة وأدخلوها فى حضارتهم كغلايات الشاى ، والشصوص ، والفخاخ ، والأبر ، والسكاكين ، والبنادق . وفى المقابل ، أمدوا الانجليز بكيفية استعمال الشباك والسياج لصيد السمك الوفير والصدف فى مياه تشيزابيك ، كما قدموا للأوروبيين سلسلة كبيرة من المنتجات الزراعية لم تكن معروفة فى أوروبا قبل الوصول الى العالم الجديد . وهكذا ، تعلم الانجليز فى فرجينيا من أهالى المنطقة كيف يزرعون التبغ ، والحبوب ، والبقول ، والقرع واليقطين (*) ، والأرز الجاف ، وغيره ، كما كان تعريف الانجليز بسلسلة كبيرة من الأعشاب الطبية ، والأصباغ ، وبعض الأدوات المهمة مثل المركب الطويلة الضيقة جزءا من عملية التبادل الحضارى .

تواصل هذا التفاعل باطراد ، حتى أثناء العداء وأعمال العنف المتقطعة فى السنوات التالية . ومما سهل ذلك ، معيشة بعض الهنود وسط الانجليز كعمال يومية ، بينما هرب عدد من المستوطنين الى القرى الهندية ، مفضلين ذلك على تحمل صرامة الحياة وسط الحكام الانجليز المستبدين ، وزراع التبغ الظالمين . وخلق هذا النوع من التبادل معرفة وفهما للحضارة الأخرى . ولذا ، عندما اتبع الانجليز سياسة الارهاب والتهديد فى السنوات السابقة ، لم يكن يخفى عليهم مرونة الحضارة الهندية وقوتها ، فقد اندهش سميث نفسه من قوة قبائل تشيزابيك وذكائها وموهبتها فى صيد البر والبحر ، وأعجب بموسيقاهم ووسائل تسليتهم . ولاحظ أنهم يقيمون حكما متمدينا ، ويتقيدون بتقاليدهم الدينية ، وأن كثيرا من عاداتهم ومؤسساتهم الاجتماعية لم تكن تختلف

(*) اليقطين نوع من القرع ـ (المترجم) .

عن مثيلاتها الأوروبية • حيث قرر سميث أنه « بالرغم من أن سكان البلاد برابرة الا أن لديهم حكومة من بينهم ، لحكامها القيادة الحكيمة ، ولشعبها الخضوع اللازم والطاعة الواجبة ، ويتفوقون على أماكن كثيرة تعتبر متمدينة جدا » • ويصور ذلك ، نزوع العقل الانجليزى الى تقبل الصور المتناقضة للهنود همجية كانت أو مدنية على السواء • وكتب انجليز آخرون ، مثل القس الأنجليكانى ، الكسندر ويتيكر Alexander Whitaker الذى كان يبشر وسط الهنود بأننا افترضنا خطأ بأن الهنود هم مجرد شعب همجى ، « لأنهم كانوا ذوى أجسام قوية ورشيقة جدا : فهم جيل ذكى جدا ، سريعو الفهم ، سريعو التصرف ، رقيقون فى تعاملهم ، مبدعون فى خيالهم ، مجـــدون فى عملهم » (٢٠) لذلك ، عندما كيف كل من الطرفين نفسه لوجود الطرف الآخر استغرق فى اقتباس ثقافة الآخر ، فى عملية جرت بين شعبين تفصلهما فجوة حضارية ليست من الاتساع بحيث تسوغ للأوروبيين أن يصفوا احداهما بأنها « همجيـــة » والأخرى « متمدنة » •

تجدد العـــداوة والتعـــدى :

خضعت العلاقات بين الشعبين لتغير جوهرى ، بعد الزيادة السكانية التى صاحبت النمو السريع فى انتـــاج التبغ • فبينما درت زراعته على فرجينيـــا محصـــولا نقديا ذا امكانات عظيمة ، خلقت طلبـــا هائلا على الأرض ، وبينما اندفع الرجال مرارا الى أعالى الأنهار التى تتدفق نحو خليج تشيزابيك فى كفاح للحصول على مزارع التبغ ، أدرك هنود المنطقة أن الأمريندر بالخطر • فقد مات بوهاتـــان سنة ١٦١٨ مباشرة بعد أن بـــدأت زراعـــة التبـــغ تنتشر بسرعـــة ، وأخـــذ ابن عمه أوبيشـــانكاناو Opechancanough يراقب التوســـع الانجليزى فى قلق ، مدة أربـــع سنين • ثم بدأ سنة ١٢٦٢ ، ينسق هجـــوما موحدا على كل المستوطنات الانجليزية • وكان قتل احدى الشخصيات الهندية المحترمة فى اتحاد بوهاتان هو السبب الذى أشعل مذبحة المستوطنين فى فرجينيا سنة ١٦٢٢ ، الا أن الأساس الجوهرى لهذا الجو الملتهب قد نشأ نتيجة توسع الرجل الأبيض ، والضغط على أراضى الصيد الهندية لمدة ست سنوات •

وبالرغم من عدم تحقيق الهدف من هذه الحمـــلات بانهاء الوجود الانجليزى فى المنطقة ، الا أن هجوم سنة ١٦٢٢ قد محا ثلث السكان البيض ، وكان من بين الضحايا ، جون رولف ابن أخت أوبيشانكاناو ، وكانت تلك الحادثة ، بالنسبة لشركة فرجينيا فى لندن ، هى القشة التى قصمت ظهر البعير • اذ أعلنت افلاسها بعد ذلك بقليل ، وتركت المستعمرة

لحكومة التاج • وكانت أهم النتائج ، أن أولئك الذين نجوا من الهجوم قد تركوا ليواصلوا مع الهنود سياسة لا ترحم ، وحتى بالرغم من تصريح كثير من قادة المستعمرة لبعض الرجال فى انجلترا بأن السبب الحقيقى للهجوم الهندى هو « تعاملنا معهم بالغدر والخيانة » كان الاتفاق العام أن يكون المستعمرون ابتداء من ذلك الحين أحرارا فى اقتناص كل هندى أينما يعثرون عليه • ولم يعد الأمر يحتاج للاعتراف بالالتزام « بتمدين » الوطنيين وتنصيرهم • ويمكننا أن نتناول الآن « المشكلة الهندية » دون حجر على فهمنا ، حيث باح أحد قادة المستعمرة بعد الهجوم بقوله :

ان أيدينا التى كانت مقيدة قبل ذلك بقواعد اللطف والمعاملة العـادلة قد أطلقت الآن حريتها ، بسبب عنف الخونة الهمج •••• اننا لم نحصل على غير أراضيهم الجدباء بينما كسبوا هم من ورائنا صفقات قيمة ، ويمكننـــا الآن ، بما لنا من حقوق يخولها لنا قانون الحرب وشرائع الأمم أن نغزو بلدهم ، وندمرهم ، فهم الذين سعوا الى تدميرنا ، وستصبح أراضيهم التى نحرثها فى أية قرية من قراهم ملكا لنا منذ الآن (٢١) •

هكذا تعلل المهاجرون الجدد بتلك المبررات المفضوحة لتدمير القرى الهندية ، والاستيلاء على أجود الأراضى بدلا من شرائها • ويقرر جون سميث فى انجلترا ، بعد سنتين من الهجوم ، أن البعض كانوا يؤمنون بأن الهجوم « سيكون فى صالح المزارع ، لأن لدينا الآن سببا مشروعا لتدميرهم بكل ما يمكننا من وسائل » • وبرر كاتب آخر الابادة الجماعية للهنود بأن الهنود أنفسهم قد قدموا الى الانجليز الحافز على ابادتهم • وأخذ يعدد ، فى تلذذ ، الوسائل التى يمكن أن يباد بها « الهمج » فيقول : « يمكن تحقيق النصر بعدة طرق هى : القوة ، والمباغتــة ، والتجويع ، وحرق حبوبهم ، وتخريب وحرق بيوتهم ، وقواربهم وزوارقهم المستطيلة ، واضعاف قدرتهم على صيد السمك ، والإغارة عليهم أثناء الصيد الذى يوفر لهم مئونة الشتاء ، كذلك اقتفاء أثرهم ومطاردتهم بخيولنا وكلاب المطاردة وكلاب الحراسة لتمزيقهم » (٢٢) •

ما أن انطفأ الظمأ الى الانتقام ، حتى انحصر النقاش فى التساؤل حول ما اذا كانت ابادة الهنود ستكون فى صالح المستعمرة أم لا ؟ وقدم أحد أصحاب المزارع البارزين « أسباب عدم الموافقة نهائيا على ابادة الهمج البدائيين لأن هذا الشعب ، من الممكن اذا أحسن اخضاعه أن يثرى فرجينيا كلها بالعمالة • الا أن كلا من الاخضاع والاحتواء يتطلب مزيدا من الوقت والعناء أكثر مما كان الفرجينيون مستعدين له • وكان أبسط منهج يتسق مع تعليمات لندن « باقتلاع [الهنود] حتى لا يكونوا شعبا أبدا » هو

اتباع سياسة حرق الأرض واتلافها عند الاضطرار لتركها ، وتدمير القرى والمحاصيل كل صيف بواسطة الحملات العسكرية (٢٣) · وفى سنة ١٦٢٩ فشلت مفاوضات لعقد معاهدة سلام ، حيث قرر المجلس أن « العداء المستمر » يخدم المستعمرة بشكل أفضل · وتلك سياسة ضمنية مؤكدة ، على أساس الاعتقاد بأن التبادل الحضارى بين الشعبين أمر غير مرغوب فيـــه ·

كان من آثــار كارثة الهجوم الهندى سنة ١٦٢٢ انتشار صـورة سلبية تماما للهندى ، فى عقلية الفرجينى · وقد سبق أن استعملت فى وصف الوطنيين كلمات مثل « غادر بطبعه » ، و « ماكر » ، و « همجى » ، و « قصير النظر » ، ولكن حضارتهم ظلت محل احترام شديد فى نظر الانجليز · أما بعد سنة ١٦٢٢ فكان من النادر أن ينظر الى حضارة الهنود بعين الاعتبار ، كما زحفت كثير من الكلمات البذيئة على وصف الانجليز للهندى، وأسقطت عليه صفات سلبية وهدامة· وبينما وصف جون سميث وآخرون الهنود ، فى السنوات العشر الأولى بأنهم « مهرة ، مبدعون » ، و « مجدون » ، و « سريعو الفهم » ، أكد أحد كتاب تاريخ المذبحة ، عقب الحادث مبـاشرة أن هنود تشيزابيك كسالى بطبعهـم ، وقتلة ، وسوداويون ــ ينزعون الى الحزن والكآبة ــ أقذار فى الجسم والملبس ، أحوالهم سيئة ، كذابون ، ضعاف الذاكرة ، عديمو الاخلاص والوفاء ، وأكثر النـاس كذبا فى العالم ، لا ينظرون أبدا الى الأخطـار المتوقعة ، ولا تتعدى قدرتهم قدرة أطفال فى السادسة أو السابعة ، وأقـل ذكاء ومهارة من غيرهـم » (٢٤) · ولا يعكس هذا الكم من المفـردات اللغوية السيئة ، فقط ، مدى غيظ المستعمرة ، التى هلك أغلبها ، بل يعـكس أيضا الحاجة الداخلية الدفينة الى تبرير السياسة الاستعمارية للأجيال القادمة ، وبعدئذ يسهل جدا تبرير القضاء على الهنود ، اذ ينظرون اليهم على أنهم همج بلا حضارة ، وغير قابلين للتنظيم من جديد بدلا من القول بأنهم شعب معاد ، هيأته حضــارته بصورة ممتـازة لأن يحيا ويبقى فى منطقة تشيزابيك رغم اختلافها فى بعض الوجوه عن الحضارة الانجليزية ·

استمرار العــداوة :

بلغ عدد سكان فرجينيا ، فى العشرين سنة التى تلت الهجوم الهندى سنة ١٦٢٢ ، نحـو ٦٫٠٠٠ مسـتوطن · وحتى سنة ١٦٤٥ ، شـحنت المستعمرة ملايين الأرطال من التبغ الى انجلترا سنويا · وبالرغـم من تعيين حكومة الملك للحاكم بالاشتراك مع مجلس معين ومجلس برلمانى منتخب من الانجليز ، الا أن السلطة الحقيقية فى المســتعمرة ظلت فى

المستوى المحلى ، حيث كان مزارعو التبغ يتصرفون بشكل مستقل ، غير عابئين كثيرا بالسلطة المركزية • فقد اشتكى البعض مثل جون هارفى ، الحاكم المعين سنة ١٦٢٦ من أن هؤلاء المزارعين « يفضلون كثيرا تحقيق أهدافهم الخاصة بدلا من تحقيق الصالح العام » (٢٥) • لكن ، لم يكن يسعه سوى القليل ليقوى روح المجتمع أو يكبح شهوات أصحاب مزارع التبغ النهمين ، المتيقظين للربح • فعندما حاول رسم سياسة هندية معتدلة فى العشرينات من القرن السابع عشر ، وعرض على سبيل المثال ، أن يكون السلام الدائم بالتفاوض مع الهنود ، وترك قبائل تشيزابيك بدون ازعاج فى الأراضى التى يشغلونها ، رفض المزارعون التعاون معه ، اذ لم يكن لديهم أى اتجاه أو ميل للسماح للحاكم بالتدخل فى توسيعهم لمزارعهم الشاسعة ، أو الاستمرار فى سياستهم العدوانية نحو الهنود • وحينما حاول هارفى فرض ارادته مرة ثانية سنة ١٦٣٥ تآمرت عليه عصبة من زعماء فرجينيا ، واستعملوا العنف معه ، وطردوه من المستعمرة ، بينما أرسلوا عرائض الى الوطن الأم يشكون فيها من تعسفه ، واستبداده ، وسياسته غير المعقولة •

رجال كهؤلاء ، طامحون ، مشاكسون ، صنعوا أنفسهم بأنفسهم ، لا يردعهم وازع دينى أو انسانى تجاه الهنود ، ولا تقيدهم حكومة ، وكان على قبائل تشيزابيك مواجهتهم ، وأيضا مواجهة التغير السريع فى النقص الخطير لأعدادهم نتيجة المرض والحرب أثناء الربع الأول من القرن الذى جاء فيه الانجليز ، فى مقابل الزيادة السريعة فى أعداد الانجليز بعد سنة ١٦٢٤ • وقد كانت هذه العوامل خارج سيطرة قبائل تشيزابيك • ورغم أنهم لم يستبشروا بمستقبل طيب ، استمر الوطنيون يتبعون أسلوبهم التقليدى فى الحياة ، اذ أن سنوات الصراع والاحتكاك مع الحضارة الأوروبية لم تقنعهم كثيرا بضرورة تغيير نظامهم الاجتماعى والسياسى ، أو قيمهم ومعتقداتهم الى النمط الانجليزى • ولم يدخل حضارتهم الا الابتكارات التكنولوجية وبعض المصنوعات ، أما المظاهر الأخرى للحضارة الأوروبية فكان نصيبها المقاومة والرفض •

وكانت الانتفاضة الهندية ، سنة ١٦٤٤ ،وبالرغم من قلة عددهم عما كان عليه سنة ١٦٢٢ ، فقد هجمت القبائل تحت قيادة المعمر أوبيشانكاناو وهو محمول على محفة • وأنزل الانجليز بهم خسائر فادحة وكان المحاربون من الشبان الذين لم يعرفوا ما حدث فى الحرب السابقة الا من الروايات والوصف الشفهى ، وقد عزموا على المخاطرة بهجوم شامل (٢٦) ، وهم يدركون مدى الانتقام الذى سينزل بهم اذا ما انهزموا، مما يدل على « مقاومة الهنود العنيفة لابادتهم حضاريا » (٢٦) • ولقد

خسرت قبائل بوهاتان مرة ثانية ، فى حرب سنة ١٦٤٤ ، لأن المساعدة التى توقعوها من سكان ميريلاند البيض ، الذين كانوا على علاقة سيئة دائما مع فرجينيا ، لم تتحقق ، ولكن بسالة الهنود فى القتال جعلت أهالى فرجينيا يستبعدون محاولة اخضاعهم بالقوة والقهر ، ولتفادى أخطار حروب قادمة ، استعاد رجال المستعمرة سياسة العشرينات من القرن السابع عشر ، ووقعوا معاهدة رسمية سنة ١٦٤٦ مع من بقوا أحياء من اتحاد بوهاتان ، رسمت خطا فاصلا بين أراضى الحمر وأراضى البيض ، وكان معنى هذا استبعاد ذوبان أى من الشعبين فى الآخر ، كما ضمن هذا التقسيم لأهالى البلاد ملجأ يقيهم جشع البيض ونهمهم الى الأرض والعدوان . وفى مقابل ذلك ، تعهدت قبائل بوهاتان بمساعدة البيض عسكريا فى حالة تعرضهم لهجوم قبلى خارج منطقة تشيزابيك ، وألزمتهم المعاهدة بدفع جزية سنوية لمستعمرة فرجينيا من فراء السمور الغالى الثمن .

اضمحلال القوة الهندية :

عندما أجرى تعداد سكانى ، فى فرجينيا عام ١٦٦٩ ، لم يكن بالمستعمرة سوى ١١ قبيلة من ٢٨ قبيلة وصفها جون سميث عام ١٦٠٨، ونحو ٢٫٠٠٠ هندى من ٣٠٫٠٠٠ كانوا موجودين عند مجىء الانجليز . مما يدل على أن الغلبة كانت للانجليز فى هذا التصادم الحضارى ، حيث أقبل الكثيرون على الهجرة الى المستعمرة فى الوقت الذى تناقص فيه الهنود ، الذين افتقروا أيضا الى التسليح القوى الفعال . (ولو أن ذلك غير مؤكد ، طالما أن القوس والسهم كان لهما نفس فعالية وتأثير البندقية للمشاة فى حرب الغابات) . وعجزهم عن توحيد أنفسهم ضد الشعوب الأوروبية الوافدة عليهم . لقد فاقوا الانجليز عددا خلال العقدين الأولين من الاستيطان ، ولابد أنهم توقعوا مزيدا من المساعدة من الفئات الداخلية القوية ، التى شددت قبضتها على مستعمرة فرجينيا عدة سنوات . ولكن فى أوقات الأزمات العسكرية ، كان المستعمرون أقدر على التوحد ، فى أية لحظة عن قبائل منطقة تشيزابيك .

والعامل الآخر الذى لعب دورا مهما فى التدهور التدريجى فى قوة الهنود ، هو عدم توظيف قبائل تشيزابيك مهنيا داخل النظام الاقتصادى والاجتماعى الانجليزى . ونفهم ذلك جيدا بمقارنة النظام الاستعمارى الانجليزى ، بالمستعمرات الأسبانية ، التى استخدمت أعدادا كثيفة من السكان الوطنيين فى الزراعة ومناجم الفضة . ونجح الأسبان فى اقامة مراكز سكانية فى المكسيك وبيرو ، جعلوا منها بؤرا لجهودهم الاستعمارية .

ولما كان الهنود يمدون شركات التعدين والانتاج الاستعمارى بالجزء الأساسى من الأيدى العاملة فى العقود الأولى ، أصبح من الضرورى ، وليس من المرغوب فيه فقط ، استيعابهم فى الثقافة الأوروبية ، هذا فضلا عن أن الكنيسة الأسبانية كان لها اهتمامها الراسخ بالهنود ، فأرسلت مئات من المبشرين الى المستعمرات بهدف واضح ، وعاجل هو هداية أكبر عدد ممكن الى الدين الجديد من أجل مزيد من المجد للكنيسة · والسبب الثالث، هو أن الزيادة الفائقة للمهاجرين الأسبان من الرجال ، استدعت مجىء النسوة الهنديات للخدمة فى البيوت ، كما اتخذ منهن البيض الخليلات والزوجات وان كن أدنى منزلة من الأسبانيات ، فتحقق بذلك قدر من الامتزاج بين الشعبين ، وكان الأسبان آنذاك قد هيمنوا على السكان المحليين ، باستخدام العنف والقسوة فى بادىء الأمر ، فلم يعودوا ينظرون الى الهنود كمصدر تهديد لهم ، بل نظروا اليهم كسكان يمكن أن يسدوا الاحتياجات الاقتصادية والدينية والبيولوجية للوافدين الأوروبيين · لجذب الوطنيين الى الحضارة الأسبانية والاختلاط بهم ، وحمايتهم · وبالرغم من الانتشار المفجع للأمراض التى جلبها الأوربيون معهم مما أدى الى نقص السكان الهنود بأكثر من ٧٥٪ فى القرن الأول من الاتصال ، لكن ذلك لم يؤثر على مسيرة الامتزاج الحضارى والتبادل الثقافى ·

ولكن الأمر اختلف فى فرجينيا · فلم يحضر الانجليز قوة عسكرية تضاهى فاتحى بيرو والمكسيك من الأسبان ليخضعوا بها قبائل تشيزابيك المتناثرة وليسوقوهم الى العمل الزراعى ، وأرسلت الكنيسة الأنجليكانية الى المستعمرة ، مجرد حفنة من القساوسة ، قاموا بجهود رمزية فى الحملة التبشيرية ، وكان نفوذهم على المستوطنين المحليين محدودا للغاية ، كما لم تكن هناك حاجة مستمرة الى النساء الهنديات الأمر الذى كان من الممكن أن يساعد على الامتزاج الحضارى ، حيث أصلح وفود المهاجرات من أوربا الخلل فى التفاوت بين أعداد الذكور والاناث · وكان من المعتاد منذ منتصف القرن السابع عشر أن تهاجر العائلات بأكملها ، وهو ما لم يتحقق للأسبان · ولم يكن الامتزاج وتخالط الأجناس معروفا فى فرجينيا ، تقريبا · أما حالات الاتصال القليلة التى حدثت فعلا بين الرجل الأبيض والمرأة الهندية فقد اقتصرت على مناطق الحدود ، حيث تزوج التجار والصيادون ، من السيدات الوطنيات بين حين وآخر ·

وكانت الطريقة الوحيدة التى أشبع بها الهنود احتياجات المستعمر الأبيض هى تجارة الفراء ، حيث أفادوه فى الصيد ونصب الفخاخ · الا أن تجارة الفراء لم تكن ذات أهمية تذكر فى المستوطنات الفرجينية الأولى ، وبحلول العشرينات من القرن السابع عشر هيمن التبغ على اقتصاد

فرجينيا . وقد أثبتت كارثة الهجوم سنة ١٦٢٢ أن ما كان يريده المستعمر أساسا ، من الهندى هو أرضه وهى خالية منه . وظهر مع جيل الاستيطان الأول أن أيا من الطرفين الأوروبى والهندى لم يكن يملك القدرة العسكرية لاخضاع الآخر والسيطرة عليه ، وهذا الاخضاع لم يكن لازما للانجليز ، وكان مفهوما أن الهنود ليسوا من الكثرة بحيث يساهمون فى تحقيق أهداف الاستعمار الانجليزى ، كما كان ينظر اليهم على أنهم مجرد عائق . وبهذا الشكل ، أصبحت قبائل تشيزابيك هدفا ليس لسياسات الاستيعاب ، بل لخطط التمييز العنصرى التى تنادى بالفصل أو الابادة . وفى سياسة مغايرة تقريبا للسياسة الأسبانية الهندية عمل الانجليز فى الحضارة الى أدنى حد . وكانت تلك الخطة قائمة فيما يشبه السياسة الأسبانية القابلة للاستغلال فى المستعمرات الانجليزية والأسبانية ، والاختلافات فى درجة الكثافة السكانية الهندية ، وفى التركيبة السكانية للمجتمعات المستعمرة (بكسر الميم) والمستعمرة (بفتح الميم) ، وفى الخلفية الاجتماعية للمستعمرين ، فضلا عن الفروق فى السمات الوطنية والمواقف ازاء الأهالى الأصليين ، أو فى السياسة القومية ، وكل ذلك كان مسئولا عن مواصلة الاحتواء والامتصاص فى أمريكا الأسبانية ، ومواصلة الفصل العنصرى فى فرجينيا .

المراجــع

1. Edward Arber and A.G. Bradley, eds., « Travels and Works of Captain John Smith (Edinburgh : J. Grant, 1910), 2 : 928.

2. John Rolfe, « A Relation of the State of Virginia (1616) », quoted in Perry Miller, « Religion and Society in the Early Literature : The Religious Impulse in lde Founding of Virginia », William and Mary Quarterly, 3rd Ser., 6 (1949) : 29.

3. William Stith, « The History of the First Discovery and Settlement of Virginia » (New York : Joseph Sabin, 1865), p. 98.

4. Arber and Bradley, eds., « Works of Smith, » 1 : 104.

5. Quoted in Sigmund Diamond, « From Organization to Society Virginia in the Seventeenth Century, » American Journal of Sociology, 63 (1958) : 460.

6. Ibid., 461.

7. George Sandys of John Ferrar, 1623, in Susan M. Kingsbury, ed., « The Records of the Virginia Company of London » (Wsahington, D.C. : Government Printing Office, 1906-35), 4 : 23 ; William Stith, « History of Virginia », p. 103.

8. Edmund S. Morgan, « The First American Boom : Virginia 1618 to 1630 », William and Mary Quarterly, 3rd Ser., 28 (1971) : 183.

9. Ibid., 193.

10. Ibid., 198.

11. Philip L. Barbour, ed., « The Jamestown Voyages Under the First Charter, 1606-1609 » Hakluyt Society Publications, 2nd Ser., 136 (London : The Hakluyt Society, 1969, 103-4).

12. Arber and Bradley, eds., « Works of Smith », 1 : 8-9.

13. Barbour, ed., « Jamestown Voyages », 136 :144-45.

14. Quoted in Philip L. Barbour, « Pocahontas and Her World » (Boston : Houghton Mifflin Company, 1970), p 46.

15. Quoted in Ibid., pp. 64-65.

16. Quoted in Grace Steele Woodward, « Pocahontas » (Norman, Okla. : University of Oklahoma Press, 1969), p. 120.

17. E.G.R. Taylor, ed., « The Original Writings of Correspondance of the Two Richard Hakluyts » Hakluyt Society « Publications », 2nd Ser., 77 (London, 1935) : 494.

18. Quoted in Woodward, « Procahontas », p. 156.

19. Nancy Lurie « Indian Cultural Adjusment to European Civilization », in « Seventeenth-Century America : Essays in Colonial History, » ed. James M. Smith (Chapel Hill : University of North Carolina Press, 1959), pp. 38-45.

20. Arber and Bradtey, eds., « Works of Smith », 1 : 43-84 ; whitaker, « Good News from Virginia, (1613) », quoted in Roy H. Pearce, « The Savages of America : A Study of the Indian and the Idea of Civilization » (Baltimore : The Johns Hopkins University Press, 1953), p. 13.

21. Edward Waterhouse, « A Declaration of the State of the Colony and Affaires in Virginia ... » (1662), in Kingsburg, ed., « Records of Virginia Company », 3 : 556-57.

22. « Travels and Works of Smith », 2 : 578-79 ; Waterhouse, « State of the Colony », in Kingsbury, ed., « Records of Virginia Company », 3 : 557.

23. John Martin, « The Manner Howe to Bringe the Indians into Subjection », in Kingsbury, ed., « Ricords of Virginia Company », 3 : 705-7.

24. Waterhouse, « State of the Colony », in Kingsbury, ed., « Records of Virginia Company, » 3 : 562-63.

25. Quoted in Bernard Bailyn, « Politics and Social Structure in Virginia », in Smith, ed., « Seventeenth-Century America », p. 97.

26. « Indian Cultural Adjustment », in Smith, ed., « Seventeenth-Century America », pp. 51-52.

الفصل الرابع

الحضارات تلتقى فى الشمال الشرقى

بينما كان هنود اتحاد بوهاتان يخططون لهجومهم على مستوطنات البيض في تشيزابيك ســـنة ١٦٢٢ ، كان الانجليز ومنهم البيورتان يرتبون « غزوا » للأراضى الهندية الواقعة على بعد خمسمائة ميل شمالا ٠ ورغم آن البيورتان كانوا من الجماعات الدينية المتشددة التى نذرت حياتها لمصارعة الشيطان ، لكن أسلوبهم فى التعامل مع الهنود لم يختلف كثيرا عن المستوطنين الآخرين ٠

البيوريتانية (المنهب التطهرى) :

كانت البيوريتانية ، حركة اصلاح دينى ٠ فمنذ تحولت انجلترا فى عهد هنرى الثامن الى البروتسانتية ، أرهقت البلاد بالتوتر بين الكاثوليك والبروتستانت ٠ وعندما اعتلت اليزابث العرش عام ١٥٥٨ ، حاولت اجراء تسوية دينية لهذا النزاع ٠ وكان الانجليز من غير الكاثوليك يرون أن كنيسة انجلترا ، التى ازدهرت تحت حكم الملكة اليزابث ، نقطة التقاء وسط بين كنيسة منحرفة ، وأخرى طاهرة ٠ هذا فى أحسن الأحوال ، أما على أسوأ الأحـوال ، فلا يرونهـا تزيد كثيرا على كنيسة روما ذات الطقوس والأردية الكهنوتية ، والبيروقراطية المقبضة ٠ وقد رغب الانجليز فى مزيد من الطهارة والتمسك بأهداب الفضيلة فى الكنيسة ، فأسموا أنفسهم بالبيوريتان أى المتطهرين ٠

كانت البيوريتانية أيضا ، استجابة سياسية واجتماعية للتغييرات طويلة المدى التى حدثت فى المجتمع الانجليزى ، اذ أن الرجال والنساء ، كانوا يعيشون فى فترة ، يخلى فيها المجتمع الاقطاعى التقليدى مكانه لنظام اجتماعى عصرى جديد شهد انقلابا فى تقاليد الكنيسة ، ونموا فى المدن ، وتنظيما فى المجتمع ، وزيادة فى التجارة ، وظهورا للمجتمع الرأسمالى الذى يتمتع فيه الأفراد باستقلالهم الشخصى٠وكان آكبر مظاهر هذا التجمع طرد الفلاحين من الأرض (لتحويلها الى مراع لتربية الأغنام حتى يستغل صوفها فى الصناعة) مما أدى الى زيادة أعداد المتشردين وارتفاع معدل الجرائم

فى المدن المزدحمة خاصة لندن ، التى زاد سكانها من ٧٥٫٠٠٠ نسمة سنة ١٥٥٠ الى ٢٠٠٫٠٠٠ نسمة سنة ١٦٠٠ ٠

ومن هذه التغيرات التى عمت المجتمع الانجليزى ما تعلق بالقيم والسلوك الفردى ٠ لقد كانت روح المجتمع مشبعة بنظام راسخ من السلطة الهرمية — فى الكنيسة ، والحكومة ، والهيئات الاقتصادية ، والأسرة — ولكن فى فترة التحول أخذ الأفراد يتصرفون بحرية بعيدا عن سلطان الجماعة ، فتقوضت تدريجيا السلطة الدينية التى كانت تملى معتقداتها على الأفراد ، والسلطة السياسية التى سيطرت بصرامة على السلوك المدنى ، وحددت الحقوق السياسية ، وكذلك تقوضت نقابات الصناع والتجار التى كانت تنظم الأسعار والأجور وشروط العمل ٠ وهكذا بدأ « المحتجون » أو « البروتستانت » يتحدون كنيسة روما ، وبدأ المقاولون يتحدون حق نقابات أصحاب الأعمال فى تنظيم العمل ، كما تحدت المؤسسات التجارية الاحتكارية التى استبعدت غير المنتمين اليها من الاستفادة بالأراضى ذات النشاط الاقتصادى ، وبدأ مديرو المؤسسات الزراعية فى شراء مزارع صغيرة بما عليها من مبان مع دمجها فى وحدات زراعية أكبر وطرد مستأجريها والعمال الزراعيين بها ٠

وأزعجت هذه التغيرات الاجتماعية البيوريتان اذ رأوا الأفراد ينفلتون من قيود العادات والقوانين ٠ ولم يكن هناك بأس من ذلك فى الأمور الدينية اذا كان الهدف وضع الأفراد فى علاقة مباشرة مع الله ، بازاحة الوسطاء التقليديين ، خاصة الكنيسة الكاثوليكية ٠ الا أن مذهب الفردانية هذا كان مزعجا فى المجالات الأخرى ، اذ يترك الناس لأهوائهم مما يؤدى الى الفوضى السياسية والاجتماعية ، الأمر الذى يهدد بانهيار القيم الاجتماعية واحترام السلطة والأخلاق وسط النظام الاجتماعى والاقتصادى الجديد ٠ أو كما لخصه ناقد اجتماعى بقوله ان المرء يرى فى كل مكان « رجالا كسالى ، لا ضابط لهم » ٠

ان هذه النزعة المغالية فى الفردية التى هى من صميم معتقداتنا وسلوكنا العصرى ، كانت للمفكرين ، والنقاد الاجتماعيين ، والزعماء الدينيين ، فى أواخر القرن السادس عشر قرينة الفوضى المزعجة ، حيث هددت مفهوم الجماعة المترابطة فى اطار التزامات ومسئوليات معينة ٠ ففى المفهوم القديم للمجتمع أن كل فرد قد اكتسب حقوقه لا بصفته شخصا بذاته ، بل بوصفه عضوا مشاركا فى جماعة مترابطة فى المجتمع ، فكانت الحقوق ممنوحة على أساس هذه المنظمات والمجموعات المشتركة ، دينية وسياسية واقتصادية واجتماعية ٠ أما الفرد ذاته فكانت النظرة

اليه على أنه عنصر ضئيل وضعيف لا أهمية له . ولكن الفرد أصبح الآن ، في علم الأخلاق الجديد هو وحدة التفكير ، دون الجماعة . وقد ترجم ذلك لدى البيوريتان الى رؤية مفزعة معادية ومضادة للجماعة .

وقد اتجهت البيوريتانية ، بوصفها حركة اجتماعية وسياسية الى الانكباب على هذه المشكلة ، مشكلة الفرد ازاء المجموع فسعت لمواجهة مسيرة الفوضى والاضطراب والشر و « عدم الانضباط » التى رأتها تنتشر بسرعة فى المجتمع الانجليزى . فكانوا يأملون ، عن طريق نظام جديد ، فى خلق نظام اجتماعي متجدد يستعيدون به التوازن المفقود لمجتمعهم ، وذلك بأن يؤكدوا على أهمية العمل ، والكدح والاجتهاد فى أية حرفة كانت – كوسيلة أساسية للتقرب الى الله . ولا يشترط أن يشغل الفرد مهنة راقية أو حرفة معينة ، وانما عليه فقط أن يكد فى أى موقع يجد المرء نفسه فيه ، سواء أكان محاميا أو حدادا أو مجرد عامل بسيط . فكل « مهنة » تتساوى فى نظر الله ، ولابد أن تؤدى المواظبة عليها والاجتهاد أو المجاهدة فيها بالفرد الى سمو روحه . وليس المهم هو المكانة الاجتماعية والثراء فالمعيار الأساسى هو تكريس الشخص لعمله ، وقد كتب فى ذلك أحد زعماء البيوريتان قائلا : « اذا كنت رجلا تعيش بلا مهنة توجهها للصالح العام ، فأنت اذن بهيمة نجسة . حتى وان كان ايرادك السنوى ألفى جنيه تصرفها ، ان الله أرسلك الى هذا العالم بصفته دارا للاصلاح ، وليس مسرحا للعب الأطفال » (١) .

ثانيا ، اجتهد البيوريتان فى تنظيم أنفسهم فى تجمعات دينية يعمل الرجال والنســاء فيها سـويا ، وينظمون أنفسهم ، ويعملون للخلاص المشترك . فيجب أن تهتم الجماعة بتعزيز الفضيلة ، فلا يعمل كل عضو لبلوغه أو بلوغها فقط ، بل يمعن النظر فى سلوك الآخرين لكشف أى علامة تدل على العصيان . وثالثا ، تبنى البيوريتان فكرة أنهم اذا كانوا سيتجهون الى اصلاح مجتمعهم ككل ، لا مجرد اصلاح أنفسهم فحسب ، فعليهم أن يتكفلوا بمسئولية الاشراف – أخلاقيا – على كل المحيطين بهم . ففى عالم يعمه التشوش والفوضى ، ليس من واجب « المختارين » من الله أن ينقذوا أنفسهم فقط ، بل أن يتكفلوا أيضا بأعباء الحكومة المدنية لكى يصلحوا المجتمع بصفة عامة . وأما من لا يجدون فى قلوبهم صدق البيوريتان فلابد من اجبارهم على الطاعة كرها والتحكم فيهم ، والاشراف عليهم ، ولذلك يجب أن يتعاهد الجميع على خدمة الرب . وبهذا المفهوم أصبح القصد من البيوريتانية أن تكون أداة لتنفيذ آراء واتجاهات سياسية رسمت للاستيلاء على الحكومة المدنية لتحقيق هداية المجتمع كله ، فتحكم الأرض كلها حركة فكرية قائمة على قاعدة جماهيرية عريضة ، وهى صياغة متطرفة لفكرة الحق الالهى فى الحكم .

ان قصة ظهور حركة البيوريتانية أثناء حكم اليزابث ، وما تلاه من اضطهاد للبيوريتان على يد خليفتها جيمس الأول ، مشروحة فى كتب تاريخية أخرى. ولكن يكفينا هنا أن نعرف أن البيوريتان بالرغم من نجاحهم الأول فقد تعرضوا لمضايقات متزايدة تحت حكم الملك جيمس الأول واقتنع الكثيرون فى عشرينات القرن السابع عشر بأنه اذا كان لابد من انجاز مهمة اصلاح المجتمع الانجليزى ، فان الحملة العنيفة لرسم حياة جديدة يجب أن تنفذ أولا فى جزء آخر من العالم بعيدا عن انجلترا . كما أن الفرص الاقتصادية المغرية التى ظهرت فى وقت شعر فيه الكثير منهم بآثار الكساد والبطالة فى انجلترا ، كان لها جانب مهم فى قرارهم . لكن التزامهم المثالى وضع حدا فاصلا بينهم وبين مستعمرى فرجينيا ، فهم بشر التهبت مشاعرهم رجالا ونساء بفكرة اقامة المدينة الفاضلة المسيحية لاصلاح المجتمع القائم على مفهوم الجماعة ، وعقيدتهم التى ترى أن الكد والاجتهاد ، والاقتصاد فى الانفاق ، والانضباط الذاتى ، كلها جوانب لا غنى عنها فى عبادة الله . وعلى العكس ، كانت روح الطائفية واضحة فى فرجينيا التى كانت تفتقر فى مجتمعها الى روح المثالية والتى كانت مشبعة بالطموحات الاقتصادية ، لا الأفكار المثالية .

كان البيوريتان ، على أية حال ، أول من وصل من الأوروبيين الى شواطىء ما عرف فيما بعد بنيوانجلند ، والتى كانت الوطن الأم لعدد من المتكلمين لغة قبائل الألجونكى المستقرين بصورة متفرقة ، متناثرة ، وكان صيادو السمك من مختلف الجنسيات الأوروبية يستغلون شواطىء نيوفوندلاند ، ويجففون ما يصطادونه من الأسماك عند كيب كود Cape Cod ، وساحل ماين منذ أواخر القرن السادس عشر . وقد زارت المئات من سفن الصيد ساحل نيوانجلند ، واتصلت بهنود المنطقة قبل سنة ١٦٠٧ عند أول محاولة انجليزية لاستعمار المنطقة ، حيث بنيت مستعمرة فى تلك السنة ولكنها لم تعش طويلا ، لأن العدد القليل من المستوطنين الذين رسوا على ساحل ماين عانوا نقص الطعام ، والحرائق والرياح غير المواتية وكلها عوامل ساعدت على تقويض المستعمرة ، ولم تجر محاولة أخرى للاستعمار حتى سنة ١٦٢٠ ، حين جاء بضع مئات من المهاجرين الانجليز الذين سبق أن هربوا الى هولنده ، ووطدوا أنفسهم حينذاك للعيش فى العالم الجديد . ثم ترسخت ببطء فى العشرينات من القرن السادس عشر مستوطنات لتجارة الفراء وتجفيف السمك على طول الشاطىء . ولكن لا يمكن مقارنة واحدة منها بالهجرة البيوريتانية الكبيرة التى بدأت سنة ١٦٣٠ على متن احدى عشرة سفينة . ونحو سبعمائة مسافر (ثم تزايدت أعدادهم حتى وصلوا الى ١٢ ألف نسمة فى نيو انجلند سنة ١٦٤٠ .

البحث عن المدينة الفاضلة (اليتوبويا) :

شرع البيوريتان تحت قيادة أحد أعضاء الطبقة العليا الانجليزية ، جون ويتتروب فى مهمة بناء « المدينة على التل » كما سموا تجربتهم فى بناء المدينة الفاضلة · وكان أملهم أن يؤسسوا جماعات من المسيحيين الأطهار ، الذين عاهدوا الله بأن يعملوا على تحقيق غايته وقصده ، وهم مدركون أنه سيحرسهم بدوره · وكان لابد من كبح جماح النزوات والنزعات الفردية · وفى سبيل ذلك ، أقر البيوريتان استخدام ما يجب أن نسميه بالوسائل الاستبدادية لفرض الاستقامة الخلقية على أفراد المجتمع ، ورأوا أن يكون الحكم حقا مقصورا على أولئك الذين شملهم الله برحمته وعفوه ، وفقا لما يقرره أعضاء الكنيسة ، ورأوا ضرورة التفتيش عن الآثمين مدنيا ودينيا وأخذهم بالشدة ، وكذلك دمج كل أوجه الحياة فى مطلب المدينة الفاضلة : من حيث النشاط الاقتصادى والسياسى والفكرى والدينى · بمعنى أن البيوريتان كانوا يحاولون دمج كل عناصر حضارتهم فى مطلب واحد ، فى وقت كان يتميز المجتمع الأوروبى المعاصر باختلافات عظيمة وبالنزعة الفردية · وقد وافق المشاركون فى التجربة ، على الأقل فى بدايتها ، على التنازل عن بعض حرياتهم لكى ينجزوا أهدافا أعظم · وكان التجانس ، وليس الاختلاف بين الأعضاء هو المسعى المشترك والاهتمام الأساسى لحماية حقوق الطائفة أكثر من حقوق أشخاص أعضائها ، ومعنى ذلك أن يكون المجتمع متراضيا ، فى الأصل ، استبداديا فى الأداء والعمل · فكأن ما صاغه البيوريتان فى انجلترا من أفكار للتمرد والعصيان قد استخدمت الآن للتحكم والتسلط ·

واتسمت الشهور الأولى فى فرجينيا بالصعوبة · فقد هلك أكثر من مائتين من السبعمائة مهاجر الأوائل ، وعاد الى انجلترا مائة آخرون فى الربيع التالى وكان شتاء نيوانجلند بقسوته قد أصابهم بالاكتئاب · الا أن البيوريتان استمروا فى المجىء ، وبدأت القرى « تحتشد » على طول شواطىء خليج « باك باى Back Bay » عند بوسطن ، وعلى امتداد الأنهار التى فيه ، جنوب كونيكتكت Connecticut الآن ، وشمالا بامتداد ساحل ماساشوستس ، وزرعت المحاصيل وبدأ صيد السمك ، وحققت ماساشوستس بسرعة انطلاقها الاقتصادى الذى افتقرت اليه فرجينيا بشدة فى السنوات الأولى · ولا شك أن هذا النجاح لا يمكن تفسيره بالعمل الأخلاقى النضالى والنظام الذى ساهم فيه معظم المستوطنين فقط ، بل أيضا بنوعية القيادة التى مارسها رجال أمثال وينتروب وجون كوتون J. Cotton ، وجون اليوت J Eliot ، وتوماس شبرد Thomas Shepard ذوى الخبرة فى الحكم المحلى والقانون والقدرة على اسداء النصح · وكان نموذج القائد ، أول الأمر ، فى فرجينيا هو الجندى الساعى وراء

الشهرة والحظ ، أو المغامر الجلف الذى كانت كل مؤهلاته تقريبا هى اللصوصية الكاملة • أما ماساشوستس فقد تزعمها فى السنوات الأولى كهنة مثقفون جامعيا ، وأعضاء متمرسون من أبناء الطبقة الانجليزية الدنيا ، ورجال متشددون في تصميم على تحقيق ما اعتبروه وحيا من الله فى نيوانجلند •

الشقاق المبكر :

عانت ماساشوستس ، رغم ذلك ، من النزاع والشقاق طوال عقودها الأولى ، سواء فيما بين جماعاتها المختلفة أو فى احتكاكها مع أهالى المنطقة ، حتى انه أثناء الرحلة عبر الأطلنطى ، بدأ البعض يلمحون بأن الشمس لن تشرق على تجربة البيوريتان أبدا • وقد اضطر وينتروب فى منتصف الرحلة الى أن يذكر بعض الأعضاء الأقل اذعانا بأن الخضوع للسلطة جزء أساسى وضرورى فى هذه المغامرة الجديدة • فقد أطلت النزعات الحزبية والفردية برأسها آنذاك ، ذلك أنه ما أن وجد الناس أنفسهم على أرض قارة لا حدود لها ، لم يكن من السهل اسكات غريزة التملك لديهم أو الابقاء عليهم ملتزمين بمواثيقهم • فبدأ المتضجرون ينتقلون بعيدا عن مركز السلطة ، ومن بقى منهم قريبا منها حاولوا اثارة الرأى العام لتحقيق نظام سياسى أكثر رحابة ولا مركزية ، ويعطى للمدن الحق فى ادارة شئونها بنفسها • وقد تساءل وينتروب ، بعد سنتين فقط عما اذا كان البيوريتان قد « خرجوا من فخ ليقعوا فى حفرة » • وظل يجاهد ثلاث عشرة سنة أخرى ، لاقناع من حوله بقوله : « اذا ظللتم تناضلون من أجل حرياتكم الطبيعية الضائعة ، وتفعلون ما ترونه صالحا ، فلن تتحملوا أدنى قدر من السلطة ، بل ستتذمرون وتعارضون ، وتكافحون للتخلص من هذا النير » (٢) •

تجمعت المشاكل على وينتروب • ففى سنة ١٦٣٣ ، وصل روجر وليامز الى نيو انجلند ، وأصبح المرشدون الدينيون المعينون . يواجهون رجلا مثاليا حالما ، ومشاكسا ، عرف الاستقامة الدينية بعبارات تختلف عن تعريفهم لها ، وليس لديه أى ميل الى تغيير آرائه ليلتقى معهم فى آرائهم الدينية ، بل ألح فى القول بأن البيوريتان غير طاهرى الذيل فى الواقع ، لأنهم لم يعلنوا صراحة انفصالهم عن كنيسة انجلترا ، وحاول اثبات أن تفسيرهم للانجيل خاطىء • ولعله قد خيب الآمال وهو يتهم ساكنى المستعمرات بأنهم متطفلون على التراب الهندى ، يحرمون الوطنيين من حقوقهم بطريق غير شرعى • وقد قاوم وليامز حتى سنة ١٦٣٥ كل من جاهدوا ليثنوه عن آرائه ، وتحدى كل الحكام المدنيين أن يعاقبوه

على تعاليمه أو يحاولوا ذلك • واقتناعا منهم بأنه سيشق المستعمرة الى جماعات دينية متناحرة ، ويدمر كل استقرار وتماسك وسلطة ، ويتسبب في تفسخ المستعمرة بمذهبه في الكمال (*) ، لذلك نفاه قضاة ماساشوستس من المستعمرة ، وحاولوا ابعاده الى انجلترا ، ولكنه أفلت منهم ، وشق طريقه بصعوبة نحو الجنوب ، حيث بدأ في اقامة مستوطنة صغيرة لمريديه ، فكانت نواة لمستعمرة رود أيلاند •

وفي نفس اللحظة التي نفى فيها وليامز الى جنته النائية ، واجه المسئولون واعظة أخرى ، غير تقليدية ، تسمى آن هتشينسون Anne Huchinson وكانت في الأصل قابلة (مولدة) وقد تحولت بفضل ذكائها ، وتأثيرها الساحر على الجماهير ، الى مستشارة روحية لهم في الشهور التى أعقبت وصولها فى بداية سنة ١٦٣٤ • ولكنها في السنتين التاليتين ، تعدت دورها كمستشارة ، وجمعت حولها الكثيرين في دروس دينية ، ثم أخذت تحلل عظات الأحد القديمة ، وانتقدت التفسير اللاهوتي لجون ولسن ، قسيس بوسطن البروتستنتي • وبعد قليل أصبحت محورا لحركة سميت بمذهب « التناقضية » Antinomianism ، الذى يعتبر تفسيرا مخالفا لمبدأ البيوريتان ، يؤكد على الجوانب الباطنية الخفية في نعم الله ، والاتصال بالله عن طريق التأمل فيها ، وعبث تطبيق قواعد ونظم محددة على أسلوب تفاهم الفرد مع ربه • وبحلول سنة ١٦٣٦ ، كانت بوسطن منقسمة الى معسكرين ، ولم تجتذب آن هتشنسون الى دائرتها فقط ، أولئك المؤمنين بأحاديثها ، ومعالجاتها لموضوع اللاهوت ، بل اجتذبت أيضا معظم الساخطين في المجتمع ، من التجار الغاضبين من الحكومة وسيطرتها على الأشعار ، والشباب الكارهين لسلطة شيوخ الكنيسة والحكومة ، والحرفيين الرافضين للسيطرة على الأجور ، وذلك منعا للتضخم المالى الذى بدأ يزحف اليهم •

ونظرا لتصميم الحكام على التخلص من هذا التهديد الثانى لوحدة الرأى ، لفقوا تهما لآن هتشنسون سنة ١٩٣٦ ، وبعد محاكمة صورية ، تقررت نتيجتها مقدما ، صدر الحكم بطردها من المستعمرة بتهمة التبشير باثنين وثمانين رأيا لاهوتيا خاطئا • ويعبر الحكم الذى قرىء أمامها في نهاية المحاكمة عن خوف أهالى بوسطن ، وكذلك عزم القضاة على اخماد أى انقسام في المجتمع ، حيث قال القاضي : « لما كنت ، أيتها الآنسة هتشنسون ، قد ارتكبت اثما بالغا ••• وضايقت الكنيسة وأزعجتها

(*) الكمالية أو مذهب الكمال ، يعتبر الارتفاع بالخلق الى مرتبة الكمال هو أسمى الغايات الأخلاقية • أو هو المذهب الذى يقول بإمكان التحرر من الاثم فى هذه الحياة الدنيا ـ (المترجم) •

بأخطائك ، وأغريت كثيرا من النفوس التافهة ، ونظرا لأنك كذبت ... لذلك ، فاني باسم سيدنا يسوع المسيح ... أطردك ... وأسلمك الى الشيطان ... وأعتبرك وثنية ، من الآن فصاعدا ، وآمرك باسم يسوع المسيح وباسم هذه الكنيسة ، بصفتك منبوذة أن تنسحبى بعيدا عن رعايا الكنيسة » (٣) • فقامت آن مع عدد من أتباعها باقتفاء طريق روجر وليامز الى رود أيلاند • وهكذا برهن زعماء المستعمرة ، القائمون على حراسة حلم المدينة المسيحية الفاضلة ، على مدى استعدادهم للمحافظة الدائمة على تجانسهم •

لكن نيوانجلند لم تستطع فى الواقع أن تبقى متجانسة ، بصرف النظر عن عدد المنشقين المطرودين من بينهم ، ولا هى استطاعت كبح غريزة التملك التى آكلت مفهوم الجماعة ، وغذت المستوطنين الميالين الى الفردانية بما فيهم القادة ، فقد كان من المحتم أن يثمر العمل ثمارا مادية ، وان كان الباعث اليه أخلاقيا • ومع النجاح الدنيوى أظهر الناس مزيدا من الطموح ـ وعلى وجه الدقة ـ كشفوا عما كان المبشرون البيوريتان يخشون أن يخرب النظام المتسق ، المستقر الذى كانوا يحاولون بناءه • وقد عملت الزيادة السكانية ، والتوسع الجغرافى ، والاتصالات التجارية مع العالم الخارجى ضد فكرة المجتمع المشترك ، المغلق ، القاصر على أعضائه المفرطين فى التدين • وبالرغم من تأكيدات الهداة المرشدين بأن « رعاية الجمهور ومراقبته يجب أن تفوق كل الاعتبارات الشخصية » أثبتت ماساشوستس ، حتى فى بداية نشأتها صعوبة ، أو استحالة التغلب على نهم الانجليز الى تملك الأرض فى العالم الجديد ، أو الحد من شهواتهم ودوافعهم الفردانية ، ذلك لأن قوى الطرد المركزى بعيدا عن الفكر الدينى للجماعة ، فى هذه البيئة ، كانت تفوق قوى الجذب المركزى نحوه •

البيوريتان والهنود :

ان افتراض المثالية فى المجتمع البيوريتانى ، وسعيه لاصلاح العالم قد يجعلنا نعتقد بأن الصراع الذى غير العلاقات الأنجلو ـ هندية فى تشيزابيك لم يكن له موضع فى نيوانجلند ، ولكن لم يكن هذا هو الحال •

فالقبائل المتكلمة بالألجونكية فى منطقة نيوانجلند لم تزدد أبدا عن خمسة وعشرين ألفا ، يقيم أغلبهم فى قرى صغيرة على امتداد الساحل ووديان الأنهار ، الا أن الساحل الشمالى الشرقى ، كما هو الحال فى منطقة تشيزابيك كان مشغولا عند وصول الأوروبيين بسكانه القليلين المتناثرين • وفى الوقت الذى تم فيه تسكين أول المستوطنين الدائمين فى العشرينات من القرن السابع عشر كانت قبائل الأبيناكى Abenakis ،

والماساشـوستس ، والناراجانست ، والوامبـانوج ، وعم أكبر قبائل المنطقة ، على اتصال فعلى بالأوربيين منذ عدة أجيال ، ومنهم صيادو السمك الذين كانوا يجففون محصـولهم وارتبطوا بمقايضات تجارية بسيطة ، كما أن محاولات الاستيطان الفرنسية والانجليزية ، قصيرة الأمد فى العقد الأول من القرن السابع عشر ، قد أمدت الهنود بمزيد من المعلومات عن السلوك الأوروبى • فعندما نزل الى البر ، جورج بوفام G. Popham ، قائد المستعمرة الانجليزية على ساحل ماين سنة ١٦٠٧ أدهشه أن يجد الهنود أشخاصا ودودين بصفة عامة ، رغم حذرهم أيضا منذ أن جاءت البعثة الاستشكافية منذ سنتين ، واختطفت العديد منهم وعادت بهم الى انجلترا • ولكن العلاقات لم يشبهـا أى عنف ، الى أن هاجم الانجليز الهنود لأسباب مجهولة ، وأفرطوا فى معاملتهم السيئة » (٤) ، ووقعت حوادث خطف أخرى سنة ١٦٠٨ ، وسنة ١٦١٤ عندما أسر أربعة وعشرون هنديا ، وبيعوا فى سوق النخاسة فى مالقة Malaga (على ساحل جنوب أسبانيا) مما زاد ـ بكل تأكيد ـ من عدم ثقة السكان فى الرجل الأبيض ، ولو أنها لم تكن كافية لتقليل اهتمامهم بالبضائع الانجليزية • ولذلك ، عندما زار جون سميث ساحل نيوانجلند فى مغامرة تجارية فى السـنة التالية اكتشف لهفة الأهالى الى مقايضة أسماكهم وفرائهم •

بعد ذلك بسنتين فقط ، نزل بعض الصيادين الانجليز بالمنطقة ، وتركوا وراءهم أشد الأسلحة الأوروبية فتكا ـ وهو فيروس وبائى ، ما لبث أن انتشر بسرعة الضوء فأهلك آلاف الهنود فى فترة وجيزة • وبعدها بخمس سنين ، كتب أحد الانجليز بعد أن تجول فى المنطقة : « ان العظام والهياكل العظمية التى تفترش الأرض جعلتنى أتصور أننى أجول فى موقع معركة حربية » (٥) •

ولعل نصف السكان الوطنيين فى منطقة نيوانجلند قد هلكوا بفعل هذا المرض • وهذا مثال صارخ على الدور الذى لعبته الميكروبات التى جلبها الأوروبيون معهم الى العالم الجديد ، فى القضاء على الجزء الأكبر من الحضارات الوطنية • ولقد شكلت هذه الأمراض البكتريولوجية المعدية ـ كالجدرى ، والدفتريا ، والحمى القرمزية ، والحمى الصفراء ، وغيرها ـ كوارث سكانية فى أوروبا فى القرنين السادس عشر والسابع عشر • الا أن السكان المصابين اكتسبوا المناعة ضدها بالتدريج • أما الهنود فلم تكن لديهم هذه المناعة عندما وصل الأوروبيون حاملو هذه الميكروبات ، مما جعل تأثيرها سريعا ومميتا ، وأبيدت قبائل بكاملها ، فى أحوال كثيرة ، خلال سنوات قليلة ، تاركة وراءها مناطق شاسعة خالية من السكان • وكانت الكثافة السكانية بين الهنود عاملا على سرعة إنتشار المرض • ففى

المكسيك ، وغيرها من أجزاء الامبراطورية الأسبانية ذات الكثافة السكانية ، بلغت خسائر الهنود درجة أخطر وأقسى منها فى سواحل أمريكا الشمالية القليلة السكان . ولكن فى مناطق محلية ممتازة ، مثل نيوانجلند ، كانت للحرب البكتريولوجية الفعالة ، غير المنظمة ، نتائجها المهمة .

فحينما وصل المهاجرون الأوائل سنة ١٦٢٠ ، وجدوا منطقة الساحل الشمالي الشرقي شبه خالية ، وكان من حظهم أن قابلوا سكوانتو Squanto ، أحد هنود الوامبانوج ، الذى كان قد اختطفه قبطان سفينة انجليزية سنة ١٦١٤ وباعه فى أسبانيا ، ولكنه شق طريقه ، بشكل ما ، الى انجلترا حيث رافق قبطانا انجليزيا الى ساحل نيوانجلند عدة مرات . وفي ثانى هذه الرحلات البحرية ، وجد سكوانتو أن معظم أفراد قبيلته قد قتلهم الطاعون ،ولكنه بقى فى منطقة كيب كود حتى نزل المهاجرون الأوائل إلى الساحل ، وحصلوا عن طريق صداقتهم له على مساعدات مهمة في السنوات الأولى من مجيئهم .

لقد كتب وليام برادفورد William Bradford ، قائد مستعمرة المهاجرين الأوائل بعد عشر سنوات من الاستيطان الأول أن الانجليز جاءوا وهم يتوقعون « الخطر المستمر من ناحية الأهالى الهمج ، المتوحشين ، البرابرة ، الخونة » ، تلك الخصائص التى جعلت أمعاء الرجال تضطرب وزلزلت الضعفاء منهم (٦) ، ولكن هذا الوصف كان أجدر بالانجليز منه بالهنود . فرغم أن السكان المحليون كانوا لا يثقون بالمهاجرين الجدد ، الا أن حادثة عنف واحدة ، لم تقع فى بلايموث ، حتى بعد أن اكتشف الوافدون مخازن الحبوب الخاصة بالأهالى ، تحت الأرض ، وسرقوا ما أمكنهم نقله منها للاستعمال فى فصل الشتاء . وحتى هذه اللحظة ، اختار الهنود أن يحدوا من اتصالهم بالمستوطنين ، بالرغم من أن الموت قد أنقص سكان المستعمرة بلايموث الى نحو خمسين فردا بحلول ربيع ١٦٢١ .

ولعل حاجة الوامبانوج الى حليف عسكري يساعدهم فى نضالهم ضد جيرانهم الناراجانسيت ، تفسر لنا تحملهم معاملة الانجليز السيئة ، بل وتوقيعهم لمعاهدة سنة ١٦٢١ التى وضعت أسس التجارة والمعاونة المتبادلة مع الانجليز .

لم تستمر هذه الصداقة والتفاهم سوى عام واحد . ففى سنة ١٦٢٢ ، أدى وصول نحو ستين وافدا من غير المهاجرين الى المستعمرة الى احتكاك خطير ، حيث أقام هؤلاء المستعمرون الجدد أنفسهم فى ويساجوسيت Wessagusset ، على مقربة من مستعمرة المهاجرين ، وسرقوا حبوب جيرانهم الماساشوستس ، وخططوا للهجوم عليهم أكثر من

مـــرة ٠ وتحت ستار كذبة بأن الهنود يتآمرون ضـد كلتا المجموعتين من البيض ، قام ستانديش الذى كان يضمر الحقد ، للهنود بهجوم عدوانى على أصـــدقائه الودودين ، وقتـل منهم ثمـــانية ، وعلق رأس الساشم (الزعيم الهندى) ويتوواميت Wituwamet على قمة قلعة بلايموث ، كرمز على قـوة الرجل الأبيض ٠ ولما ســمع بهذا جون روبنســـون J. Robinson ، وهو قسيس المهاجرين السابق فى هولندا ، كتب ، منزعجا ، الى الحاكم برادفورد يسـألـه لماذا انغمس الانجليز فى عنف لا ضرورة له : ماذا يحدث للرجال « المتحضرين » فى تلك البرية ؟ هل سيبدءون فى التصرف مثل « الهمج » ، ناسين أنه من المفروض أن يمثلوا الزهد والتقوى ؟ وأشار الى مايلز ستانديش ، القائد العسكرى لبلايموث ، بأنه الوحيد الذى يرضى غروره بقتل الهنود (٧) ٠ وقد أصبح المستعمرون الإنجليز ، يسمون منذ ذلك الحين ، « ووتوكوينانج wotouquenange » التى تعنى بلغتهم « السفاحين أو قاطعى الرقاب » (٨) ٠

وعندما بدأت هجرة البيوريتان سنة ١٦٣٠ ، كان للهنود على ساحل نيوانجلند أكثر من جيل له تجاربه مع الحضـــارة الانجليزية ، ولكن العداوات بين القبائل جعلت من المستوطنين حلفاء نافعين بالضرورة ، كما كان الهنود مهتمين بالحصول على بضـائعهم ومصنوعاتهم أما البيوريتان فكانوا ملتزمين علانية بالتآلف بين مختلف الأجناس ، ولكنهم يستعدون لما هو أسوأ ٠ فنجد مثلا ، « شركة خليج ماساشوستس » تتكلم عن تعهدها بتحويل الهنود الى المسيحية فتعلن : « ان الهدف الأساسى لهذه المستعمرة الجديدة هو كسب أهالى البلاد وحثهم على معرفة وطاعة الاله الحق ، الوحيد ، مخلص البشر ، والى الدين المسيحى » (٩) ٠ ولكن تعليمات الشركة الى جون وينتروب ، كشفت بدقة عما كان متوقعـا ٠ فبموجب هذه الأوامر ، كان على جميع الرجال التدريب على استعمال الأسلحة النارية كما حظرت على الهنود دخول المدن البيوريتانية ، وكانت عقوبة من يبيع أسلحة نارية الى الهنود أو يعلمهم استعمالها الترحيل بالقوة الى انجلترا ٠ بينما تصدر الأوامر بضرورة معاملة الهنود بالعدل كانت الشركة تظهر الروح العسكرية التى كان على المستوطنين اظهارها فور نزولهم ، واستقرارهم ٠ كما لم يبدأ أى نشاط تبشيرى مدة ثلاث عشرة سنة ٠

ولم يغضب الهنود البيوريتان ، فى السنوات الأولى من الاستيطان ، اذ قدم زعماؤهم عروضـا للصداقة ، حيث زودت قبائل الماساشوستس الشرقية المستعمرين بالحبوب فى أول شتاء قاس ، وبدأت التجارة بسلع ثانوية ٠ وقد حكى أحد قادة البيوريتان فى دهشة أنه خلال الشتاء الأول

حينما « لم يكن لدى البيوريتان الا القليل من المســاكن التى تؤويهم وتحميهم ، لم يتعرض الأطفال ولا الزوجات لأدنى ضرر ، بالرغم من مجيء الهنود اليهم ، فى تلك الأوقات وكانوا آنذاك ، يفوقون الانجليز ، بكثير ، قوة وعددا » (١٠) ٠

لم يدم هذا التعايش سوى سنين قليلة ، فقد انتشر وباء الجدرى بين قبائل ماساشوستس الشرقية سنتى ١٦٣٣ ، ١٦٤٣ ، فقتل عـدة آلاف فى أقصى الشمال عند ماين الى أقصى الجنوب عند وادى كونيكتيكت ، واعتبر المستعمرون ذلك برهانا على تدخل الرب لمصلحة البيوريتان فى الوقت الذى بدأ فيه الاحتكاك حول حقوق ملكية الأرض بسبب نزعات المستوطنين التوسعية ٠ وتبين سجلات مدينة تشارلستون ، مثلا ، أنه « لولا هذه الضربة الرهيبة التى أنزلها الله بالأهالى لم نكن لنحصل على الأرض أو نشتريها الا بثمن أكبر بكثير مما دفعناه » (١١)٠وكانت الحاجة الى الأرض فى فرجينيا هى الحافز الى التمادى فى هذا الجور ٠ ونظرا لسرعة النمو السكانى فى مستعمرات بيوريتان نيوانجلند ، زاد تحفز الأوروبيين لاعتبار الهنود مجرد أشياء يجب ازاحتها بدلا من النظر اليهم على أنهم بشر يجب استيعابهم فى حضارة الرجل الأبيض ٠

اكتساب الأرض :

كانت نظريات البيوريتان التى وضعوها لتبرير الاستيلاء على الأرض، وراء هذا التصنيف الذى يساعد على العنف أكثر مما يساعد على الاستيعاب أو المعايشة السلمية ٠ فقد ادعى البيوريتان ، كغيرهم من الأوروبيين ، ملكية الأرض التى يغزونها بحق الاكتشاف ، ويستمدون هذه النظرية من الادعاء القديم بأن المسـيحيين مخولون فى كل مكان بطرد غـير المسـيحيين من أرضهم ٠ وتدعمهم نظرية أوروبية أخرى قانونية تقول بأن الأرض غير « المشغولة » أو « المسكونة » تؤول بالمصادرة الى أولئك الذين يعمرونها ٠ وكتب جون وينتروب ، قبل أن تطأ قدمه العالم الجديد ما يلى :

> **« اما عن الأهالى الوطنيين فى نيوانجلند ، فانهم لم يسيجوا اية قطعة ارض ، ولم تكن لهم اقامة ثابتـة او ماشية اليفة يصلحون بها الأرض ، ولذلك ليس لهم سوى الحق فى العيش فى هذه البلاد ، واذا كنا سنترك لهم ما يكفى لاستعمالهم ، فيجب ان ناخذ الباقى قانونا ، وهناك ما يزيد عن الكفاية لنا ولهم » (٢١) ٠**

وهكذا ، لا يحتاج امتلاك الأرض فى نيوانجلند ، فى نظر البيوريتان لأكثر من التأكيد على أن اختلاف أسلوب الهنود فى العيش مبرر كاف

لمصادرة كل الأراضى التى « طافوا » بها ولم « يستقروا » فيها • فكانت الأرض حسب التعريف الأوروبى منزلا فارغا vaccum domicilium غير مسكون •

احتل البيوريتان الأرض بجرأة ووقاحة ، وهم مدركون ألا حاجة بهم الى موافقة الهنود أثناء التفاوض أو الشراء ، مما يعطى فكرة عن مركز القوة الذى شغلوه وسط القبائل المحلية التى أتلفها المرض • وقد أعلنت آراء قانونية تبرر هذا الاستيلاء المبكر على الأرض ، ولكن هذا التبرير لم يكن ليثمر كثيرا عندما تكون القبائل الساحلية فى وضع يسمح لها بمقاومة هذه السياسة الاحتمالية • وقد أعلنت حجج وبراهين مماثلة فى فرجينيا عن حقوق الغزاة فى أرض الأهالى ، لكن حجم المستوطنين هناك لم يكن فى وضع يسمح لهم بمعاداة قبائل تشيزابيك بالاستيلاء على الأرض خلال العقود الأولى •

تشكلت سياسة الأرض ، أساسا ، وفقا لتوفر القوة أو غيابها • وظهرت واضحة سنة ١٦٣٣ ، عندما أعلن الانجليز فى نيو انجلند عن شراء بقعة من الأرض من زعيم هندى محلى • ولم يكن ذلك توثيقا لحقوق الهنود أو مطالبهم ، بل كان ردا على الادعاءات الهولندية فى منطقة نيو انجلند • فمنذ سنة ١٦٢٤ ، سيطر الهولنديون تحت رعاية شركة الهند الغربية الهولندية ، على منطقة وسط الأطلنطى ، وركزوا جهودهم فى نيوامستردام (أصبحت مدينة نيوريوك فيما بعد) وفورت أورانج (ألبانى فيما بعد) ، وامتدت اتصالاتهم التجارية مع الهنود شمالا الى أعالى نهر هدسن ، وجنوبا حتى خليج ديلاوير • الا أن ادعاءاتهم الاقليمية وصلت الى أبعد من ذلك — الى كل الطريق الى نيوانجلند — بالرغم من أنه لم تكن لديهم الطاقة البشرية أو السبل لمحاولة استيطان المنطقة • لكن الهولنديين ، اشتروا سنة ١٦٣٣ بقعة من الأرض من الهنود البيكوت الذين يسيطرون على وادى نهر كونيكتيكت • ولما كان الانجليز مضطرين الى الاعتراف بالسندات الشرعية لملكية الأرض التى فى أيدى الأوروبيين ، « المتمدنين » غير « الهمج » باتت الوسيلة الوحيدة لمقاومة الشراء الهولندى هى الشراء بالمثل ، وهذا ما فعله تجار بلايموث بالضبط بشرائهم نفس قطع الأرض التى اشتراها الهولنديون من قبل ، ولكن من القبيلة التى طردها البيكوت من أرضها • وقد كتب فرانسيس جيننجز Francis Jennings أنه بالرغم من أنهم كانوا يدافعون بقوة عن حقوق الاستيلاء على الأرض بالفتح ، يعلن الآن رجال بلايموث صراحة أن عملاءهم الهنود لم يفقدوا حقوقهم الشرعية بهزيمتهم أمام البيكوت ، وأن صكوك الملكية للبلايموثيين سلبت شرعية الصكوك الهولندية (١٣) •

وهذا الشراء للأرض من الهنود يبرهن على أن توفر أو غياب القوة

المعارضة كان هو العامل الحاكم فى سياسة الأرض · ففى سنتى ١٦٣٣ . ١٦٣٤ تحمس روجر وليامز لاثبات أن الامتياز الملكى الممنوح لشركة خليج ماساشوستس لا ينقل اليها الملكية القانونيـة لأرض نيوانجلند ، التى لا يمكن الحصول عليها الا عن طريق شرائها من مالكيها الأصليين ، كما أقر الهولنديون بذلك ، ولكن حكومة ماساشوستس أسرعت بالغاء وظيفة وليامز المثير للقلاقل والفتن ، وطرد من المستعمرة فورا · وقدم له زعيم الناراجانسيت أرضا فى رود أيلاند ، وهكذا وجد «وسط الهمج المتوحشين» مكانا يمكن أن يعبد فيه أنصاره الرب فى سلام حسبما ترضيه ضمائرهم · وكان ردو وينتروب على حجج ويليامز أنه « اذا لم يكن لنا حق فى هذه الأرض ، فلله الحق ، مع ذلك · واذا كان يسره أن يعطيها لنا ويأخذها من أناس اغتصبوها مدة طويلة ، وأساءوا معاملة خلقه فمن ذا الذى سيتحكم فيه أو فى مشيئته ؟ » (١٤) وبهذا الادعاء بأن الله يوجه سياسة البيوريتان كلها،أشهر وينتروب سيف اتهامه لكل من يعارضه بأنه يعارض مشيئة الله وليس سياسة البيوريتان وحدها ·

تقدمت ببطء ، عملية شراء الأرض الهندية باستمرار الاستيطان ، الا أن هذا الشراء كان يتم غالبا ودائما للحصول على استيطان مناسب فى المواضع التى كان يشتهى ملكية أرضها كل من المستوطنين الانجليز والهولنديين أو الجماعات الانجليزية المتنافسة · وفى مثل هذه الحالات ، كان نقل صك ملكية الأرض موضوع النزاع من بائع هندى هو أفضـل وسيلة لاقناع المحكمة بادعاء صحة الملكية ، وحتى فى تلك الدعاوى التى كانت المنافسة فيها حتمية بين الأوروبيين أنفسهم فى شراء الأرض الهندية ، كان البيع ينتهى من خلال مجموعة من الخدع المخطط لها بتخفيض الثمن للمستوطن الأبيض ، ومنها أن يطلقوا الماشية الى الحقول الهندية المتعهدة بالزراعة ، ويتركوها بها فترة من الوقت كوسيلة فعالة لاقناع الهندى بأن أرضه تفقد قيمتها ، كما كان يستخدم الكحول دائما لاضعاف براعة الهندى فى التفاوض ، أو يشترون الأرض بأبخس ثمن من زعيم هندى يدعى كذبا ملكيتها ، ثم يقيمون الدعوى على أى زعيم ينازعهم عليها · وبذلك نادرا ما كان يكسب المدعى الهندى قضية خاصـة أمام محكمة انجليزية يكون المحامون فيها والقضاة والمحلفون جميعهم من البيض · ولعل أشد هذه الوسائل فعالية هى تغريم الهندى عن أى اعتداء أو اهانة بسيطة للقانون الانجليزى ـ كالتنزه يوم الأحد (بوصفه يوم راحـة وعبادة) ، أو دخول مدينة دخولا غير قانونى ـ ثم « ينقذونه » من الدين الذى سيعجز عن سداده باعفائه من الغرامة نظير شريحة من أرضه · ولم تكن هذه الوسائل والترتيبات تسـتعمل مع القبائل الهندية القوية ، الموحدة ، بل كانت فعاليتها واضحة وسط القبائل المبعثرة والصغيرة جدا ، والمقسمة فى جنوب نيوانجلند ·

مفهوم التبشير عند البيوريتان :

فى نيوانجلند ، كان لابد من اجتماع العوامل التى تكاتفت فى فرجينيا لاحداث الاحتكاك بين المجتمعين ـ وهى اشتهاء الانجليز للأرض ، والنظرة المنتقصة من قدر الحضارة الوطنية ، والتوتر فيما بين القبائل الهندية · وقد زاد فى فرجينيا ، بشكل أعم ، عامل آخر لم يتوفر فى تشيزابيك ، وهو مفهوم التبشير عند البيوريتان · فبالنسبة لهؤلاء الرجال ذوى الهدف الأخلاقى النبيل ، الذين يعيشون يوميا فى قلق من أن يفشلوا فيما رأوه الفرصة الأخيرة لانقاذ البروتستانتية الغربية المنحرفة ، وقف الهندى الأحمر ، باختلافه عنهم ، بصفته تحديا مباشرا لتلك « المهمة فى البرية القفر » · اذ كانت مهمة البيوريتان التبشيرية هى تذليل البيئة الجديدة المحيطة بهم وتمدينها ، واقامة ولاية دينية « تضىء كالمنارة » و « تتألف كنار على علم » وراء انجلترا المتدهورة · ولكن كيف يمكن أن يسود الترتيب والنظام فى البيئة الجديدة ما لم يروض سكانها و « يتحضروا » ؟ لقد وصف وليام برادفورد ، حاكم بلايموث بصورة معبرة ، الأرض التى دخل اليها بأنها « قفار موحشة ، كئيبة ، مليئة بالحيوانات المتوحشة ، والأشخاص الهمج » (١٥) · وتجب السيطرة على كل من الأرض ، والحيوان ، والبشر · فلا أقل من السماح باستمرار الفوضى ، ومن ثم تفرض ارادة الرب النظام المسيحى · فقد ظل الهندى ، كما شرح روى هـ · بيرس Roy H. Peerce ، هو المنبه الحى الى ما لا يصح أن يكون عليه الانجليز ، لأنه الصورة المضادة للانسان المتحضر ، يفتقر الى أشد ما يقدره البيوريتان من اللطف والورع المسيحى ، والعزم ، والعمل الأخلاقى ، فاذا لم يتمكن البيوريتان من جعل هؤلاء الناس جزءا من النظام البيوريتانى ، اذن يثبتون بذلك عجزهم عن السيطرة على هذا الركن من الأرض الذى ساقهم الله اليه ، ولابد أن يكون العقاب الالهى هو الرد على هذا الفشل · وهكذا سيطر البيوريتان على أنفسهم ـ سيطرة داخلية ـ عن طريق التحكم فى العالم الخارجى بما به من غابات وحقول وهنود (١٦) ·

وكلما زادت الشكوك حول نجاح هذه التجربة المثالية ، الخيالية ، تلك الشكوك التى ضخمها الصراع الداخلى ، زادت الحاجة الداخلية لكبح عدم الثقة فى الذات من خلال أعمال القمع وبسط السيطرة · وهكذا ، أصبح الهنود فى نيوانجلند عقبة بمعنيين : أنهم يمثلون فى فرجينيا ، وأى مكان آخر عائقا ماديا طالما هم يملكون الأرض ولا يمكن اخضاعهم لخدمة الأهداف الانجليزية ، ويمثلون أيضا عائقا نفسيا طالما يظلون « همجا » يهددون الهوية الفردية للبيوريتانى ، والنجاح الجماعى لحركتهم ·

ولكى يقضى المرء على « الهمجية » لا يتطلب الأمر ، بالضرورة ، الا أن يقضى على « الهمج » أنفسهم • ومن كتاباتهم ، نرى أن البيوريتان يؤثرون هداية « الوثنى » الى المسيحية • الا أن ذلك لا يمكن أن يتم الا بمضى وقت طويل وجهد عظيم • وقد أرسل الأسبان والبرتغاليون مئات من المبشرين برفقة الفاتحين والمستوطنين ، أما البيوريتـان فقد جاءوا مع قساوستهم فقط ، وعمل هؤلاء بمـا فيه الكفاية وأكثر لصـيانة التقوى وأصول الأخلاق داخل المجتمع الأبيض ، لذلك لم تكن لهداية الأهالى أبدا ، درجة الأفضلية فى نيوانجلند •

فبالاضافة الى هداية « همج » نيوانجلند ، حاول البيوريتان اخضاعهم للحكومة المدنية ، أى جعلهم مسئولين تماما أمام القوانين المحلية التى حكمت سلوك البيض فى ماساشوستس • وعلى قدر ما كان الهنود راغبين لاخضاع أنفسهم لدستور السلوك الجديد لدى البيض ، بعيدا عن الخوف عادة ، استطاع البيوريتان أن ينتشروا ، ويكونوا هم العنصر الغالب ، وعينهم على كل الهنود داخل منـاطق اسـتيطان البيض ، يوقفونهم أمام القضاء عند أية اساءة للقانون الأبيض ، وهكذا نجد كثيرا من القبائل الصغيرة فى ماساشوستس الشرقية التى تعرضت لكارثة اضعافها بالأمراض الأوروبية أو ظلت تعيش فى خوف من جيرانها الأقوياء المعادين لها ، فعلت كل ما كان لازما لارضاء الوافدين الجدد • الا أنه لم يمكن تجنب مسألة السيطرة فقد أصبحت مسألة عسكرية لا مفر منها عندما واجه البيوريتان قبيلة كانت من القوة بحيث قاومت فقدها لهويتها الحضارية واستقلالها السياسى •

تلك هى قبيلة البيكوت ـ قبيلة قوية مناضلة ، هاجرت الى جنوب نيوانجلند فى القرن السابق لمجىء الانجليز ، وفى الثلاثينات من القرن السـابع عشر أخضعوا القبـائل الأصـغر منهم فى المنطقة ، واعتبروا النارجانسيت هم الند ، المنافس ، الوحيد لهم فى جنوب نيو انجلند ، واجتهد البيكوت لاقناع جيرانهم هؤلاء بأن بقاء كل من القبيلتين لن يتم بالتوحد ضد الانجليز ، ولكنهم لم يجدوا لديهم أذنا صاغية • اذ أن النارجانسيت ، باتباعهم لنصيحة روجر وليامز ، وافقوا على التحالف مع الماساشوستس ، تاركين البيكوت يقفون وحدهم فعلا ، فى اصرارهم على مقاومة الانجليز •

تفجرت الأعمـال العدائيـة بين البيكوت والانجليز بمقتل قبطانين لسفينة للبيض وطاقمها السبعة فى أرض البيكوت لاختطافهم ـ حسب قول البيكوت ـ لاثنين من المحاربين الهنود • وكان أحد الربانين ، وهو جون ستون ، مكروهـا من الانجليز بشـدة لمحاولته قتل أمير بلايموث

الحاكم ، ثم اختفى بعد ذلك من ماساشوستس بسبب خطايا أخرى ارتكبها ، وبعد ذلك بسنتين ، عثر على القائد جون أولدهام J. Oldham مقتولا فى قاربه الصغيرة المستخدمة لتأمين الاتصال بين السفينة والشاطىء. واستغلالا لهذين الحادثين كمبرر لتأديب البيكوت العصاة ، سارت قوة مشتركة من كونيكتيكت وماساشوستس الى موطن البيكوت وطالبت بتسليم القتلة ، الذين تبين أنهم ليسوا من البيكوت ، بالاضافة الى « ألف قامة » (*) من عقود الصدف ، تعويضا عن الضرر » • وبعض أطفال من البيكوت كرهائن • وقد أدرك البيكوت ، بحق ، أن القضية أبعد من مجرد قتل الانجليزيين ، فأهم ما فى الموضوع هو هل سيرضخون لحكم البيوريتان أم لا ، وهل سيسمحون بالاغارات على منطقة وادى نهر كونيكتيكت التى يمتلكونها ؟ ولذلك اختاروا المقاومة •

وجد الانجليز وحلفاؤهم الناراجانسيت أن البيكوت كانوا أكثر من ند فى حرب المقاومة هذه ، الى أن استطاعوا محاصرة حصنهم الرئيسى على نهر مايستيك Mystic River فى كونيكتيكت فى مايو سنة ١٦٣٧ عندما هاجموه فى الفجر وتسللوا اليه ، وأشعلوا النيران فى أكواخ ووغام (مفردها وغم) Wigwams البيكوت البيضوية أو المستديرة الشكل قبل دق طبول الانسحاب السريع • وخلال المعمعة داخل الحصن ، أصيب نحو أربعين من الناراجانسيت بجروح على يد الانجليز الذين صعب عليهم التمييز بين الحلفاء والأعداء من الهنود الحمر • وفى أثناء الانسحاب من الحصن المحترق ، تجمع الانجليز ثانية ، وانتظروا الهاربين الناجين من الجحيم ، ليطلع النهار على قبيلة البيكوت ، وقد قتل جزء كبير منها ، أكثرهم بالنار والآخرون برصاص البنادق ، كما طورد من كانوا خارج الحصن أثناء الغارة ، فقتلوا الرجال ، واستحيوا النساء والأطفال ، واتخذوهم عبيدا ، أو باعوهم للقبائل الأخرى ، أو شحنوهم مكبلين فى السفن الى جزر الهند الغربية • وكتب أحد مؤرخى نيوانجلند القدامى ــ وليام هابارد William Hubbard ــ أنه تم وضع عشرات من الأسرى البيكوت على ظهر سفينة الكابتن جون جالوب J. Gallup « التى أثبتت أنها أسرع وسيلة لتغذية الأسماك بهم » (١٧) • كما كتب أحد قادة الميليشيا أنه عند حصن مايستيك « سخر الرب ••• [من] أعدائه وأعداء شعبه ، بأن جعلهم فرنا ملتهبا ••• [و] ملأ المكان بجثث الموتى » • لكن وليام برادفورد كتب أنك « كنت تخاف من منظرهم وأنت تراهم يقلون فى النار وأنهار الدم تطفئهم ، ويفزعك شم النتن والرائحة الكريهة من جراء ذلك ، ولكنه بدا لهم أن النصر يستحق قربانا طيبا ، وقدموا

(★) القامة : مقياس لعمق المياه ، يساوى ٦ أقدام ــ (المترجم) •

الشكر لله الذى وقف معهم بصورة رائعة ، فأوقع أعداءهم فى قبضتهم ، ومنحهم نصرا سريعا على كل عدو متغطرس ، حقير » (١٨) · وبعد جيلين ، كرر كوتون ماثر Cotton Mather ، وهو أحد أعمدة الكهنوت البيوريتان قوله : « فيما لا يزيد عن الساعة بقليل ، أصبح خمسمائة أو ستمائة من هؤلاء الهمج مطرودين من عالم كان ينوء بعبئهم » (١٩) ·

كانت هذه الوحشية التى أظهرها البيوريتان « المتحضرون » فى حصن مايستيك صدمة للناراجانسيت « الهمج » الذين حاربوا فى صفهم · فطبقا لرواية ضابط انجليزى أنهم جاءوا بعد النصر « مبتهجين لانتصاراتنا ، معجبين جدا بأسلوبنا فى القتال ، ولكنهم كانوا يصيحون بأنه نصر تافه ، لأنه كان قاسيا ، وتسبب فى قتل كثير جدا من الرجال · ذلك تعليق لاذع فى محله على أساليب الحرب المختلفة فى كلا المجتمعين » (٢٠)·

دلت ابادة البيكوت على سطوة البيوريتان السياسية والحربية ، كما كانت رد فعل للقلق والتهديدات التى انتشرت فى كل مكان بالمستعمرة · هذه المخاوف ، لم ترتبط بتهديد البيكوت فقط ، بل بالنزاعات داخل مجتمع البيوريتان أيضا · ولا ننسى أن الحرب قد جاءت عقب ثلاث سنوات من الخلاف الداخلى المكثف ، الذى تركز حول تحديات روجر وليامز وآن هتشينسون لسلطة الحكام والقضاة · ولم تشمل هذه التحديات بدورها مسائل اللاهوت فقط ، بل والقيود الاقتصادية أيضا ، وتوزيع النفوذ السياسى ، والتنافس على ادعاء ملكية الأرض بين المستوطنين الانجليز فى ماساشوستس وكونيكتيكت وورود أيلاند · ولما رأى قادة البيوريتان مستعمراتهم وقد أحدق بها الشجار والخلافات تحدثوا بصورة مروعة عن غضب الرب وهو يرى شعبه المختار يهدم « المدينة » فوق « التل » · وبهذا المعنى ، يمكن فهم تصميم البيوريتان على ابادة البيكوت ، والعنف الفظيع الذى ظهر فى حصن مايستيك على أنه عدم ثقة فى الذات ، ومعصية لا يمكن للبيوريتان التكفير عنها الا بابادة عدد كبير من « أدوات الشيطان » ، وهكذا قدموا موتى البيكوت كفارة للرب عن عيوبهم ·

أدى هذا النصر على البيكوت ، الى سيطرة الانجليز بشكل حاسم على كل هنود نيوانجلند الجنوبية الشرقية ، فيما عدا الناراجانسيت ، وأزاح العائق الوحيد المتبقى أمام انتشارهم فى وادى نهر كونيكتيكت ، وظلت العلاقات مضطربة مع الناراجانسيت حتى كانت سنة ١٦٤٣ ، حينما باع زعيمهم ميانتونومو Miantonomo قطعة كبيرة من أرض جيدة على خليج ناراجانسيت الى ذلك الماكر ، الخارج عن العقيدة ، صمويل جورتون Samuel Gorton الذى كرهه للغاية كل بيوريتانيى نيو انجلند لانتقاده

الصريح لسياسة ماساشوستس ، فشجع الانجليز قتله بيد أعدائه من الموهيجان ، عملاء حكومة كونيكتبكت ٠

هذه المنازعات المتقطعة وأمثالها ، جعلت قبائل نيوانجلند الجنوبية بعد أن تقلص عددها الى حوالى النصف بعد جيل من الاحتكاك بالمستعمرين الانجليز ، جعلها تكيف نفسها ما أمكنها مع واقع قوة البيوريتان ٠ وقد ساعدت تجارة الفراء المهمة على ابقاء المجتمعين على صلة بينهما ، ووفرت وسائل ادخال ودمج السلع الانجليزية المصنوعة من الحديد فى الحضارة المادية الهندية ، وازدهرت التجارة فى الثلاثينات وأوائل الأربعينات من القرن السابع عشر ، ولكن نقصت الامدادات من فراء السمور أو القندس من الغابات الشرقية بدرجـة خطيرة فى منتصف القرن ، واتجه الهنود للتجارة بما أمكنهم الحصـــول عليه من جلد الحيوان غـير المدبوغ مع الهولنديين ، الذين كانوا يرغبون ــ على عكس البيوريتان فى مقايضة الفراء بالأسلحة النارية ، الا أنه من هذه الاتصالات التجارية ، اختارت أغلب القبائل التى نجت من وصول الانجليز ، أن تحافظ على طريقتها الوطنية فى الحياة ٠ ولم نجد سوى عدد قليل من الجماعات الضئيلة ، الضعيفة جدا تتبع حفنة المبشرين الذين استحثوهم للعمل فى نهاية الأمر سنة ١٦٤٣ بسبب الانتقادات الانجليزية التى هاجمت بحق اهمال الهداية الى الدين الجديد بشكل متعمد ، لأكثر من عشر سنوات ٠ وبعد جهـد استمر عشر سنوات ، تم توطين أقل من ألف هندى من المنطقة فى أربع قرى « للهنود المبتهلين » أو (« الهنود المصلين ») ، كما أعلن أقل من مائة منهم تحولهم الى المسيحية على منهج البيوريتان ٠ وحتى هؤلاء ، حدثت ردة بين الكثير منهم فى السبعينات من القرن السابع عشر ، عندما نشبت الحرب فى ماســاشوستس ، ففى فرجينيــا ، مثلا ، دمج الأهــالى فى حضارتهم بعض عناصر الزى التى حصلوا عليها من التجارة الأوروبية ، ولكنهم ، حتى بعد هزائمهم الحربية الكبرى ، فضلوا بشكل عارم أن يقاوموا التثاقف الحضارى غير المتكافىء اذا كان القصد منه قبول الديانة الانجليزية ، وأشكال الحكم وأنماط الحياة ، ونماذج النظام الاقتصــادى والاجتماعى الانجليزى ٠

لم ينفع الهنود البيوريتان وغـير البيوريتـــان الذين هاجروا الى نيوانجلند فى أعداد متزايدة بعد منتصف القرن ٠ فكما هو الحال فى فرجينيا نجد ان التوازن المتقارب بين الذكور والاناث الانجليز قد قلل الحاجة الى اتخاذ زوجات هنديات ، ولم تهتم الكنيسة بالهنود الا قليلا ، حيث لا تتوافر فيهم المؤهلات التى فرضها البيوريتان على أفرادهم لعضوية

الكنيسة ، الا نادرا • ولقد ذوت أهمية التجارة الهندية الى أدنى حد ، فى اقتصاد المستوطنين عندما أصبح صيد السمك ، وقطع الأشجار ، ونشر الخشب ، وبناء السفن ، والزراعة هى دعامات الاقتصاد الأساسية • هذا النقص فى دور الحضارة الأوروبية ، مع الميل الخاص للبيوريتان الى اعتبار الهنود همجا يميلون للتشبث بالمبادىء والمعتقدات البالية ، مما جعل عملية التبادل والاحتواء الحضارى مستحيلة تقريبا •

المراجــــع

1. Quoted in Perry Miller and Thomas H. Johnson, « The Puritans » (New York : American Book Company, 1938), pp. 325-26.

2. Quoted in Richard S. Dunn, « Puritans and Yankees : The Winthrop Dynasty of New England, 1630-1616 » (Princeton : Princeton University Press, 1962), p. 24.

3. Quoted in Emery Battis, « Saints and Secretaries : Anne Hutchinson and the Antinominan Controversy in the Massachusetts Bay Colony » (Chapel Hill : University of North Carolina Press,, 1962), p. 246.

4. Quoted in Alden T. Vaughan, « New England Frontier : Puritans and Indians, 1620-1675 » (Boston : Little, Brown and Company, 18»5), p. 14.

5. Thomas Morton, « New English Canaan, » in « Tracts and Other Papers Relating Principally to the Origin, Settlement and Progress of the Colonies in North America, » Peter Force, comp. (Washington, D.C., 1836), 2, No. 5 : 19.

6. William Bradford, « Of Plymouth Plantation, 1620-1647, ed. » Samuel Eliot Morison (New York : Alfred A. Knopf, Inc., 1966), p. 26.

7. Ibid., p. 375.

8. Thomas Morton, « New England Canaan, » p. 76, quoted in Neal H. Salisbury, « Conquest of the « Savage » : Puritans, Puritan Missionaries, and Indians, 1620-1680). (Ph.D. diss., University of California, Los Angeles, 1972), p. 86.

9. Nathaniel B. Shurtleff, « Records of the Governor and company of the Massachusetts Bay in New England, 5 vols », (Boston . W. White, 1853-54), I · 17.

10. Edwad Johnson « Wonder-Working Providence », quoted in Salisbury, « Conquest of the «Savage » », pp. 63-64.

11. Quoted in Vaughan, « New England Frontier », p. 104.

12. « Generall Considerations for the Plantation in New England ... » (1629), in Winthrop Papers, 5 vols., ed. Allyn B. Forbes (Boston : Massachusetts Historical Society, 1929-47), 2 : 118.

13. « Virgin Land and Savage People », American Quarterly, 23 (1971) : 351.

14. Quoted in ibid., 534 n.

15. Bradford, « Plymouth Plantation », p. 62.

16. Roy H. Pearce, « The Savages of America : A Study of the Indian and the Idea of Civilization » (Baltimore : The Johns Hopkins Press, 1953), pp. 3-24.

17. William Hubbard, « A Narrative of the Troubles with the Indians in New England » (1677), quoted in Carolyn T. Forman, « Indians Abroad 1493-1938 » (Norman University of Oklahoma Press, (1943), p. 29.

18. John Mason, « A Brief History of the Pequot War, » Massachusetts Historical Society Collections, 2d Ser., 8 (Boston : 1826) : 140-41. Bradford « Plymouth Plantation », p. 296.

19. Cotton Mather, « Magnolia Christi Americana ; or, The Ecclesiastic History of New-England » (New York : Russell & Russell, 1967), 2 : 558.

20. John Underhill, « News from America », quoted in Salisbury, « Conquest of the « Savage », p. 81.

الفصل الخامس

نماذج التفاعل الهندى / الأوروبى

لما كان تاريخ المستعمرات الأمريكية الأولى ، قد كتب بوصفه فى المقام الأول ، سجلا للانجليز فى أمريكا الشمالية ، فمن السهل اذن أن نلاحظ أن الطرف الشرقى للقارة كان فى القرن السابع عشر ، فى الأعم الأغلب ، مسرحا للتنافس المر فيما بين الأوروبيين • فقد كان الانجليز يحرضون ، بصفة دورية ضد الهولنديين والسويديين والفرنسيين والأسبان ، كما لم يتوقف الصراع هناك ، لأن الانجليز أنفسهم قد اشتبكوا فى سلسلة من الخلافات والعصيان المسلح الذى أضر بعملية الاستعمار فى الثلثين الأولين من القرن السابع عشر ، وأدى الى صراع مسلح على امتداد الساحل شمالا وجنوبا فى الربع الأخير من القرن • وفى كثير من المراحل كانت الجماعات الوطنية قادرة على الاستفادة من هذا التوتر القائم بين الأوروبيين ، وكذلك بين الانجليز أنفسهم فى محاولاتهم لصياغة استراتيجيات للتكيف والبقاء • ولكنهم تعرضوا أيضا للغزو من مجموعة متنوعة من الأوروبيين الذين ازداد عددهم باطراد • ورغم اختلافهم اللغوى والثقافى وتنافسهم على البقاء ، كانوا قادرين على دفن خلافاتهم حين يشعرون بخطر المقاومة الهندية يلوح فى الأفق • وبنظرة مقارنة الى العلاقات الانجليزية/الهندية ، والهولندية/الهندية ، والفرنسية/الهندية نستطيع أن نتعرف الكثير عن المواجهة بين مختلف الحضارات فى العالم الجديد •

الهولنديون الأقوياء :

بالنسبة لكل من الانجليز والهنود ، الذين سكنوا منطقة وسط الأطلنطى ، تلك البقعة التى كان فيها واديا نهرى ديلاوير وهدسون بمثابة بؤر مهمة للانتقال الى الداخل ، كان الهولنديون هم الذين طرحوا أكبر قضية منذ عشرينات القرن السابع عشر حتى سبعيناته بتحقيق استقلالهم عن الأسبان ، سادتهم فى الاستعمار سنة ١٦٠٩ فقط ، ولكنهم أصبحوا منذ ذلك الحين المتعهدين الأساسيين لنقل التجارة البحرية فى أوروبا الغربية ، وبدءوا يتطفلون على التجارة الأسبانية والبرتغالية الى

العالم الجديد عن طريق المتاجرة غير المشروعة مع المستوطنين الذين أسعدهم أن ينتهكوا السياسة التجارية لبلادهم وراء سعر أفضل مع الهولنديين في تجارة الملابس والعبيد • حينئذ ، دخل الهولنديون خلال جيل من الانجازات المثيرة ، المذهلة في مقدمة سباق الثروة في العالم الجديد • ففي سنة ١٦٢١ ، انطلقت شركة الهند الغربية الهولندية بتمويل مؤثر ، ومساندة كاملة من الحكومة وكان هدفها التجارة والفتح - لتسيطر على تجارة العالم الجديد مع أوروبا وأفريقية بأقصى ما تستطيع ، ولتأسيس المستعمرات حينما لاحت لها الفرصة • وجاءها النجاح في الحال ، تقريبا ، ونتج عنه أن اكتسبت خلال بضع عشرات من السنين قوة مذهلة بدرجة لا يمكن القول معها بأن أضخم الشركات الأمريكية في منتصف القرن العشرين ربما لم تسطع ممارسة النفوذ الذى حققته شركة الهند الغربية الهولندية في الربع الثاني من القرن السابع عشر • وفي سنة ١٦٢٨ اعترض أسطولها الأسطول الأسباني الصغير وأسره أثناء عودته من البحر الكاريبي بعد نوبة الحراسة السنوية ، وقد اغترف في هذا العمل البطولي حوالى ١٥ مليون جيلدر (*) لدفع ٥٠٪ من أرباح أسهم الشركة مع تجنيب جزء كبير ، يفي بتمويل حملة عسكرية ضد المستوطنات البرتغالية في شمال شرق البرازيل ، وسيطر الهولنديون في النصف الثاني من القرن على حركة السفن التجاريه الى العالم الجديد بدرجة أضعفت التجارة الأسبانية والبرتغالية ، الى حد بعيد •

بدأ الهولنديون ، في نفس الوقت ، غزواتهم ضد منافسيهم في تجارة الرقيق الأفريقي ، وبنوا قواعد لهم على الساحل الأفريقي منذ سنة ١٦١١ ، ولكنهم بدءوا الانقضاض بعد ذلك في العشرينات والثلاثينات من القرن السابع عشر على القلاع والمحطات التجارية البرتغالية • وبحلول سنة ١٦٣٧ ، حينما استولوا على قلعة المينا Elmina Castle على ساحل الذهب (الأفريقي) ، المركز البرتغالي لنشاط تجارة الرقيق ، كانوا قد أزاحوا البرتغاليين تقريبا من مجال النخاسة في الأطلنطي • وكانت القواعد البحرية على الساحل الأفريقي مرتبطة تماما بنظيراتها في البحر الكاريبي التي تم الاستيلاء عليها من الأسبان ، في كوراكاو Curacao ، وسابا Saba ، وسان مارتن St. Martin ، وسان ايوستاتيوس St. Eustatius ، وصاحب ذلك ، الهجمات على البرازيل البرتغالية ، ابتداء من سنة ١٦٢٤ ثم هدأت سنة ١٦٣٠ ، عندما سحق الهولنديون البرتغاليين ، وسيطروا على مزارع القصب الغنية على الساحل الشمالي الشرقي ، والتي تمثل للمطبخ الأوروبي أهم مصدر للسكر ، وامتدت أذرع

(*) الجليدر هو وحدة النقد الهولندي - (المترجم) •

أخرى للامبراطورية التجارية الهولندية لتصل الى جزر الهند الشرقية ، والهند ، وسيلان ، وفورموزا ٠

نشط الهولنديون الأقوياء ، أيضا ، على أرض قارة أمريكا الشمالية فاستهلوا بتجارة الفراء مع الهنود سنة ١٦٠٩ فى أول رحلة لهنرى هدسون ، الذى أبحر بوصفه موظفا لدى شركة الهند الشرقية الهولندية ٠ وبعد خمس سنوات ، أقاموا محطة تجارية صغيرة على نهر هدسون قرب ألبانى ، وبعد فترة وجيزة من الترخيص لشركة الهند الغربية سنة ١٦٢١ ، أقيمت مستوطنة دائمة محل مدينة نيويورك حاليا ، وأصبحت بتسميتها نيوأمستردام ، مركزا للاستعمار الهولندى فى أمريكا الشمالية على مدى النصف الثانى للقرن السابع عشر ٠ وقد فاق الفراء السكر ، والذهب كمصدر للربح لمستعمرة نيونيزرلاند ، تلك المستوطنة الصغيرة ، التى أصبحت منذ سنة ١٦٢٨ ترسل ٨٫٠٠٠ قطعة فراء تقريبا الى الوطن الأم سنويا ٠ وتشعب الهولنديون من هذا المركز فى وادى نهر هرسون بأعداد قليلة طوال الأربعين سنة التالية ٠ فخططوا لاقامة مستوطنات ناحية الشمال فى وادى نهر كونيكتيكت ، والى الجنوب فى وادى نهر ديلاوير ، وعبر نهر هدسون فيما أصبحت الآن نيوجرسى ، والى الشرق عند لونج أيلاند ، ولم تكن أعدادهم كبيرة مما مكن الأعداد الكبيرة من الانجليز من قهرهم فى الوقت المناسب ، الا أن قوتهم البحرية ، لم تكن ليستهان بها ، الأمر الذى اكتشفه الفرجينيون سنة ١٦٦٧ ، عندما أسر القراصنة الهولنديون عشرين سفينة تبغ فى نهر جيمس ، وكذلك عندما نجحوا فى هذه المحاولة مرة ثانية سنة ١٦٧٣ ، وهكذا ، نجد أنه بينما لم ينجحوا فى توطين أكثر من ١٠٫٠٠٠ شخص فى مستعمراتهم فى وسط الأطلنطى ، استطاعوا أن يمارسوا نفوذهم وسطوتهم القوية على المصالح التجارية لانجلترا ٠ وعندما حان الوقت ، وأصبح الانجليز أكثرية فى السكان ، ووقعت ثلاث حروب بينهم وبين الهولنديين ، فى أوروبا ما بين سنتى ١٦٥٠ ، ١٦٧٥ أصبحت مستعمرة نيونيزرلاند هدفا للهجوم الانجليزى ، حيث استولوا عليها سنة ١٦٦٤ ، ثم استعادها الهولنديون سنة ١٦٧٣ لفترة قصيرة ، استردها الانجليز بعدها ٠ وبذلك انتهت القوة السياسية الهولندية فى أمريكا الشمالية ٠

الفرنسيون :

شابه الفرنسيون الهولنديين قوة ، فى العالم الجديد ، قبل قوة الانجليز ٠ واقتصر نشاطهم فى أواخر القرن السادس عشر وأوائل السابع عشر ، مثل الهولنديين ، على الاغارة على المصالح التجارية البحرية لأسبانيا

والبرتغال ، والمتاجرة السرية مع المستوطنين الأيبيريين فى منطقة الكاريبى وأمريكا الجنوبيــة ، وزرع مستوطنـات صغيرة جدا للصيد البحرى ، والتجارة على أرض قارة أمريكا الشمالية • وقد بدأ الفرنسيون مبكرين فى الثلاثينـــات من القرن الســـادس عشر ، عندما قام جاك كارتييه Jacque Cartier بعــدة رحلات كشفية الى نيو فوندلاند وخليج سانت لورانس • وقد جعلت اكتشافاته مجرى نهر لورنس معروفا للأوروبيين ، بالرغم من أنه لم يكن واضحا لهم حينذاك أنه أحد المدخلين المائيين الى قلب القارة • وتلت ذلك بعض المحاولات الفاشلة فى اقامة محطات صغيرة فى الأربعينات من القرن الســـادس عشر ، ولكن الفرنســيين ، عاجلا ما اكتشفوا أن الثروة الحقيقية فى المناطق الشمالية ، لا تكمن فى الذهب أو الماس ، وانما فى صيد السمك ، وفى تجارة الفراء بوجه خاص • وبنهاية القرن السادس عشر ، جاءت نحو خمسمائة سفينة صيد أوروبية سنويا ، الى المياه الكندية ، وكانت السيادة بينهم للسفن الفرنسية • وعندما قضى البرتغاليون والأسبان ، على التوالى ، سنة ١٥٦٠ ، ١٥٦٥ على المستوطنـات الفرنسية الصغيرة عند مدخل ريو دى جانيرو ، وعلى الساحل الجنوبى لأمريكا الشمالية ، قرر الفرنســيون أن يتركزوا فى الشمال حيث تتحرر تجارتهم من التحرش الأسبانى والبرتغالى •

وكما كان لصيد السمك قيمته ، أصبح الفراء مصدرا كبيرا للربح على نطاق واسع ، ولم يحتج الأمر لأكثر من احضار البضائع التى يرغبها الهنود عبر الأطلنطى ، فتلقى القليل من السفن مراسيها فى جزء مستتر من خليج سانت لورنس انتظارا لمجيء التجار الهنود ومعهم جلود الحيوان غير المدبوغة • ولم يكن من الضرورى فتح الأرض عسكريا ، بل ان ذلك فى الواقع ، يؤثر على الارتباط التجارى مع الهنود تأثيرا عكسيا • كما لم يتطلب الأمر ، أيضا مستوطنات كبيرة ، اذ أن تجارة الفراء تضمنت مجرد علاقة المقايضة البسيطة بين الفرنسيين والهنود •

الا أن الفرنسيين قرروا اقامة مستوطنات فى أمريكا الشمالية عندما تأكدوا أنهم بدون مستعمرة سكانية فان محطاتهم التجارية ستكون هدفا لغارات النهب الهولندية ، والانجليزية أو من أية دولة استعمارية أخرى • وهكذا أنشئت مستعمرة فى بورت رويال فى نوفاسكوشيا سنة ١٦٠٤ ، وأخرى سنة ١٦٠٨ فى كويبك • هذا الدليل على نية الفرنسيين عدم الاقتصار على التجارة والصيد فقط ، بل وتأييد ادعاءات ملكيــة الجزء الشمالى من القارة كان كافيا لاغراء الانجليز — على بعد ألف ميل منهم جنوبا — بأن يشنوا عليهم حملة تفنيهم • فبالرغم من أنه لم يكن بين انجلترا ، وفرنسا حرب ، الا أن سير توماس ديل Thomas Dale ، حاكم

فرجينيا ، بعث بالمستكشف المتمرس ، والملاح الماهر ، صمويل أرجول S. Argall ليهاجم المستوطنات الفرنسية سنة ١٦١٣ ، واستطاع القضاء تماما على المستوطنة الفرنسية فى بورت رويال بعد شهور قليلة من اقصاء بوكاهونتاس في فرجينيا • وخلال عشرات السنين القليلة التالية ، كافح الفرنسيون لزرع مستوطنات صغيرة وحمايتها في وجه المقاومة الانجليزية النامية والمتركزة في نيوانجلند • ولكن فرنســا كانت مشغولة بحرب الثلاثين عاما فى أوروبا ، ولا يمكنها أن توفر الرجال أو الأموال للتوسع فيما وراء البحار • وبحلول سنة ١٦٤٣ ، وبعد نصف قرن من الاستعمار تقريبا كان لا يزال هناك أقل من أربعمائة فرنسى فى نيوفرانس ، أغلبهم من التجار والهنود أو القساوسة الجزويت الذين وفدوا بأعداد وفيرة لهداية الهنود الى المسيحية • وقد علق أحد الحكام الملكيين فى كندا مؤخرا أنه لم يوجد فى نيوفرانس سوى نوعين فقط من المهـام أو الأعمال هما : تحويل النفوس ، وتحويل الفراء •

تحت قيادة صمويل تشامبلين S. Champlain ، تسانده شركة نيوفرانس ، قامت الشركة بعملية تجارية أخرى برأسمال مشترك ، على أساس أكثر رسوخا ، وبتقديم الأرض للصيد ، أغرت مستوطنى فرنسا باقامة مجتمع زراعى ثابت ، مخصص لتكرار المؤسســـات الاجتماعية الفرنسية بعاداتها وتقاليدها فى البرية القفر • وفى سنة ١٦٦٠ ، تناثرت المدن على امتداد نهر سانت لورنس ، بالرغم من أن عدد السكان الفرنسيين لم يتعد الألفين فى المستعمرة ، لكنهم يمثلون عشرة أمثـال العـدد فى نيوانجلند •

العلاقات الهولندية/الهندية :

كيف كانت العلاقة بين السكان الهولنديين والفرنسيين فى هذه المستوطنات المحلية والاستراتيجية ، وان كانت صغيرة ، وبين المجتمعات الهندية التى صادفتهم ؟ وهل كانت الاختلافات فى الشخصية الوطنية أو أسلوب حياتهم ذات أهمية فى التفاعل بين الهولنديين والهنود ، والفرنسيين والهنود ؟ وهل كانت التجربة الانجليزية/الهندية فى فرجينيا ونيوانجلند متطابقتين ؟ لكى نتخذ مدخلا مقارنا الى العلاقات الأوروبية ـ الهندية ، يحسن بنا أن نتفهم تفرد التجربة الانجليزية ، وشكلهـا النموذجى ، ونختبر بعض الأسس العامة ، الشهيرة والبسيطة لما ينسب الى المؤرخ الشهير فرانسيس بارلمان Francis Parlmann ، الذى كتب منذ قرن مضى ، يقول ان فى أمريكا الشمالية « قد سحقت المدنية الأسبانية الهنود ، واحتقرتهم المدنية البريطانية وأهملتهم ، بينما تقبلتهم المدنية الفرنسية وأعزتهم » (١) •

فبالنسبة للهولنديين ، طالما كانت تجارة الفراء ناجحة ، وتمثل المصدر الأول للربح فى نيونيزرلاند ، ظلت العلاقات سلمية مع الموهيكان فى منطقة ألباني والقبائل المحلية فى المنطقة المجاورة لنيوأمستردام . وبذل الهولنديون كل جهدهم للمحافظة على مودة الهنود ، بعد أن اتضح لهم بجلاء أنه طالما يقلون عن الهنود عددا ، ويعتمدون على مكاسبهم من التجارة فهم بحاجة اذن الى الهنود أكثر من حاجة الهنود اليهم . وذلك يعكس الحال مع سكان فرجينيا فى تشيزابيك أو البيوريتان فى نيوانجلند ، حيث لم يهدفوا أساسا الى الزراعة أو الاستيطان على نطاق واسع ، بل مجرد المقايضة المربحة للبضائع الأوروبية بجلود الغزال والسمور أو القضاعة (ثعلب الماء) ، ولم يكن لدى الهندى ما يخاف عليه كثيرا من الوجود الأوروبى ، لأن الهولنديين الذين جاءوا فى أعداد قليلة لم يكن لهم مخطط ظاهر لاقتناء الأرض ، وكانوا شغوفين بالمتاجرة فيما يحتاج اليه الهنود ، ويمكنهم صيد الحيوانات المتوفرة فى أراضيهم .

الصراع للسيطرة على مصادر الفراء :

بقدر ما بدت مقايضة الفراء وجلود الحيوانات بالبضائع الأوروبية مرغوبة لدى القبائل الهندية ، بقدر ما تضمنت خطرا مستترا له مغزى كبير ومهم . فقد كان الهنود ، قبل مجيء الأوروبيين يعيشون على صيد الحيوان ، وقد أدت قلة احتياجاتهم لصيدها ، الى صيانة هذا المصدر . ولكن ما أن دخلت جلود الحيوانات ذات الفراء الى السوق الدولية للأطلنطى حتى اندفع الهنود الى الصيد بلا رحمة فيما أصبح عملية ابادة للحيوانات ، مما استنزف حيوان السمور بسرعة مخيفة فى مساحات معينة . وهنا ، كما حدث مع الموهيكان الذين كانوا يبيعون للهولنديين أثناء الربع الأول من القرن السابع عشر ، بدأ تجار الفراء بشركة الهند الغربية الهولندية يسعون لمصادقة خصومهم ، الموهوك ، أقرب القبائل الشرقية للايروكوا الذين تمتد أراضيهم غربا حتى البحيرات العظمى ، وأصبح الايروكوا أكبر ممون للجلود غير المدبوغة للهولنديين ، وقد حولهم هذا الدور الى قوة هائلة فى الشمال الشرقى .

كذلك انشغل الفرنسيون فى تجارة الفراء الى الشمال من المستوطنات الهولندية مع قبائل الهورون Hurons القوية ، التى سيطرت على الأراضى ، شمال البحيرات العظمى . ثم جاء الوقت الذى هاجم فيه الايروكوا قبائل الهورون تحت اغراء المزايا التى يجنونها من تجارة الفراء مع الهولنديين ، ونضوب الفراء فى أراضى القبائل التى يسيطرون عليها ، فان نجحوا ، استطاعوا تحويل مصادر الفراء الشاسعة فى كندا ، شمال

مونتريال وهى المركز الرئيسى للنشاط التجارى الفرنسى ، الى ألبانى وهى المحطة التجارية الرئيسية الهولندية • وكان ذلك فى الواقع محاولة لجعل أمستردام هى المتلقى الأكبر لجلود السمور فى أمريكا الشمالية بدلا من باريس • حيث أحضر الايروكوا بنهاية سنة ١٦٣٣ أكثر من ٣٠٫٠٠٠ قطعة جلد غير مدبوغة سنويا ، الى المراكز التجارية الهولندية • ثم تعاظمت الحاجة الى السيطرة على أراضى الصيد البعيدة ، والى القيام بدور الوسيط الذى يتسلم الجلود من كثير من الصيادين من الغرب ، وينقلها شرقا الى الهولنديين فى ألبانى • وهكذا يشتد العداء الكامن بين الايروكوا والهورون ، ويتحول الى تنافس صريح للسيطرة على فراء الغرب خلال عشرات السنين الأولى من القرن السابع عشر • وقد ازداد العداء بينهما نتيجة امدادات الهولنديين للايروكوا بالسلاح النارى الاوروبى ، الذى استعملوه فى الأربعينات من القرن السابع عشر ، وبعد ذلك أصبحت حروب ابادة للهورون • وقد كتب مؤرخ كندى معلقا بأنه « قبل مجىء الأوروبيين، كانت الحروب بين الهنود محدودة ، ولم تساعد الدوافع اليها ولا الأسلحة البدائية على خسائر كبيرة فيها ، وبعد ذلك أصبحت حروب ابادة ــ حروبا شاملة ، لأسباب اقتصادية ، ثم ازدادت تدريجيا من أجل أهداف أوروبية » (٢) ، كالحرب من أجل المكانة والهيبة الشخصية ، أو ثأر دموى ، حل محل القتال للسيطرة التجارية •

ان أهم ما تجدر ملاحظته ، حول طبيعة تأثير الوجود الأوروبى على أكبر الحضارات الهندية وأقواها فى الشمال الشرقى أن الأمر لم يتطلب سوى عدد قليل جدا من الأوروبيين للقيام بها • ففى الربع الثانى من القرن أبيد شعب الهورون ، تقريبا بعد أن كان يضم ٣٠٫٠٠٠ نسمة أو يزيد، وذلك بسبب الأمراض الأوروبية وهجمات أعدائهم من الايروكوا، المدفوعين الى ذلك بالرغبة فى البضائع الأوروبية • وفى نفس الوقت ، استغل الايروكوا علاقاتهم التجارية الواسعة مع الأوروبيين لتنمية قوتهم• كل ذلك ، فجرته مستوطنات صغيرة هولندية وفرنسية ومراكز تجارية متناثرة على امتداد وادى نهر سانت لورنس ، وهدسن ، التى لم يبلغ مجموع سكانها على مدى نصف قرن تقريبا ، أكثر من ثلاثة آلاف نسمة •

أما ما حدث للقبائل الهندية الأقل شأنا ، والتى لم يكن لها القوة أو الميزة الجغرافية لتلعب دورا فى تجارة الفراء ذات الأهمية البالغة ، فيمكن تصوره بما آل اليه مصير الاثنتى عشرة عشيرة أو قبيلة هندية ، أو نحو ذلك والتى عاشت بالقرب من نيوأمستردام فى الأربعينات من القرن السابع عشر • ذلك أن شركة الهند الغربية الهولندية ، بدأت قبل هذا العقد بقليل ، تعبىء المستوطنين لبناء قاعدة المجتمع الزراعى ،

وتضاعف عدد السكان فيما بين سنتى ١٦٣٨ ، ١٦٤٣ الى نحو الألفين ، مما استدعى شراء الأرض من القبائل الهندية المحلية ، مثل قبائل الروكاواى Rockaways والكنارسى Canarsees ، والماسابيكا Massapequas والمريك Merrics ، الذين لم يروا مبررا للرحيل عن أرضهم التى باعوها الا بعد أن يسدد المشترون كامل ثمنها ، ويشرعوا فى استغلالها ، وهكذا عاش المزارعون من كلا الطرفين جنبا الى جنب ، فى مناطق لونج ايلاند ، وروكاواى ، وستاتين أيلاند Staten Island . الا أنه عندما وطئت قطعان الماشية الهولندية الحقول الهندية ، أو هاجمت الكلاب المسعورة للهنود مواشى الهولنديين ، انفجرت لذلك مشاعر الغضب ، وزاد الطين بلة محاولة وليم كيفت W-Kieft ، الحاكم اللقيم لشركة الهند الغربية الهولندية ، اصلاح الميزانية المتدنية فى المستعمرة بفرض ضريبة على كافة هنود المنطقة ، وحاول الهنود مقاومة هذه الضريبة أو الاتاوة ، وأحيت جميع القبائل الرأى الجرىء ، القائل بأن كيفت « لابد أن يكون شخصا تافها ، وضيعا ، بمجيئه للعيش فى هذا البلد دون أن يدعوه أحد ... ويرغب الآن فى طردهم أو يعطوه قمحهم بلا مقابل » (٣) .

العنف بين الهولنديين والهنود :

ان مبدأ التوسع الهولندى ، والمتاجرة النشطة ، المتسمة بالاثرة مع الجماعات الهندية المحلية قد جلب معه العنف المتفرق ، لا مفر . وعندما كان يترتب عليه فقد أرواح بعض الهولنديين ، كان الرد المعتاد على ذلك ، هو المطالبة بتسليم الهنود المسئولين الى القاضى الهولندى . وكان الهولنديون ، فى الواقع ، كما كان الانجليز فى نيوانجلند ، يحتاجون الى الاعتراف والتسليم بسيادتهم . وقد حدث فى سنة ١٦٤٢ أن جماعة من الهاكينساك Hackensack نيوأمستردام عبر خليج نيوآرك Newark Bay قامت بقتل مزارعين هولنديين ، كانت ماشيتهما قد أتلفت قمحهم ، وخدعاهم فى التجارة . هنا عرض زعماء الهاكينساك تقديم عقد من الصدف الى أرملة الضحية تعويضا لها « وتكفيفا لدموعها » حسب العرف المتبع لدى الهنود ، ولكنهم رفضوا تسليم القتلة حتى لا يكون ذلك اعترافا بخضوعهم لقانون الهولندى ، وبدلا من ذلك ، طلبوا من الحاكم ، كيفت أن يوقف تجارة الكحول الخطرة ، ويمنع الاغارة على الأراضى الهندية .

أصبحت القضية بالنسبة للهولنديين ، كما كانت عند البيوريتان مسألة سلطة ، وكما فكر البيوريتان تماما فى حل عسكرى لهذا النوع من المشكلات السياسية . رد الهولنديون فى أول مناسبة بأن أنشأوا بالقوة ما لم يستطيعوا الحصول عليه بالتحذير والنصح أو المفاوضات . فقد

حدث أن قتلت جماعة من « الويكايسجيك » Wecquaesgeek فى ويستشستر westchester رجلا هنديا ، وبعدها بسنتين اى سنة ١٦٤٣ قدم فريق من المحاربين ، لعلهم من الموهيكان من منطقة ألبانى وقتلوا منهم سبعة عشر وأسروا غيرهم ، مما اضطر بقية الجماعة الى الهرب فى فزع الى المستوطنات الهولندية فى نيوأمستردام طلبا للحماية ، فسمح لهم الهولنديون بالاقامة فى موقعين بالقرب من المدينة • الا أن كيفت وغيره من قدة المستعمرة لم يمكنهم مقاومة الاغراء بابادة هؤلاء الويكايسجيك المعسكرين فى الخيام ، ليكون واضحا لكل القبائل التى تقع فى مدار نيوأمستردام ، بما لا يدع مجالا للشك أن عليهم قبول شروطهم فى التجارة ، وأن يدفعوا ما يفرض عليهم من جزية كلما احتاج الأمر ، وأن يضعوا أنفسهم تحت السيادة الهولندية •

وفى ليل ٢٥ فبراير ١٦٤٣ ، هاجم ثمانون جنديا هولنديا معسكر الويكايسجيك بعد أن صدرت لهم الأوامر بقتل الرجال فقط ، وأسر النساء والأطفال • وقد كتب أحد القادة الهولنديين فى تقريره :

الأطفال الصغار ، انتزع بعضهم من أمهاتهم ، وقطعوا اربا امام أعين والديهم ، وألقيت أشلاؤهم فى النار أو النهر ، وربط الأطفال الآخرون على ألواح من الخشب ، ثم قطعوا وذبحوا كالحيوانات مما ينفطر له قلب الحجر ، كما ألقى البعض فى النهر ، وعندما حاول آباؤهم وأمهاتهم انقاذهم ، لم يسمح لهم الجنود بالعودة الى الشاطئ بل تركوا الجميع ، كبارا وصغارا يغرقون •• وهرب القليل منهم الى مستوطنيناه وقد فقد البعض منهم يده والبعض الآخر رجله ، والبعض ممسكون بأمعائهم بأيديهم • هكذا كان الكل اما مقطع الأوصال ، او مضروبا بآلة حادة ، أو مشوها بدرجة لا يمكن تصور أسوا منها • لقد كانوا بحق فى حالة اعتقد معها أبناؤنا ان هؤلاء المصابين قد فاجأتهم قبيلة ماكاى [موهوك] المعادية لهم (٤) •

وأحدث هجوم آخر على المخيم الثانى للويكايسجيك نتائج مماثلة، الا أن محاولة ابادة القبيلة ، وبالتالى اضعاف معنويات جميع القبائل الهندية بالمنطقة أتت بنتائج عكسية • فقد بدأ الهنود فى منطقة استيطان الهولنديين حملة الانتقام ، حيث شاهد روجر وليامز عند وصوله الى نيوأمستردام ليبحر الى أوروبا على سفينة هولندية « أن شوارعهم تتقد غضبا ، والهولنديون ، والانجليز مذبوحون ـ بعينى رأيت ••• السنة اللهب فى مدنهم ••• واندفاع الرجال والنساء والأطفال لنقل كل

ما يمكنهم نقله للهروب الى هولنـدة » (٥) · وأثناء السنتين التـاليتين ، هاجمت اثنتا عشرة مجموعة هندية ، على الأقل ، المزارع والمسـتوطنات المنعزلة على أطراف نيوأمستردام، وأزهقت أرواح عدة مئات من الهولنديين والانجليز بما فى هؤلاء آن هتشنسون وعائلتها التى كانت قد هاجرت الى لونج أيلاند عن طريق رود أيلاند ، بعد طردها من ماساشوستس قبـل ذلك بسبع ساعات ·

هذا ، وبالرغم من أن الهنود قد أنهكوا المستوطنـات الهولنـدية بالغارات المتعددة ، وأضعفوا معنويات المستعمرة ومواردها المالية ، الا أنهم كانوا الخاسرين فى النهاية · فتشير التقديرات أن أكثر من ألف هندى فقدوا حياتهم قبل توقف الأعمال العدائية سنة ١٦٤٥ · وحدثت أفدح الخسائر بالقرب مما يعرف الآن بباوند ريدج Pound Ridge فى مقـاطعة وستشستر ، حيث قامت مجموعة من الرجال بقيادة الكابتن جون أندرهل J. Underhill ، بطل مذبحة مايستيك فورت ضـد البيكوت منذ ست سـنوات ، بمفاجأة قرية هندية صغيرة فى جـوف الليل البهيم ، فقتلوا بالرصاص والحرائق أكثر من خمسمائة من قبائل التانكيتيك Tankitekes والويوانوى Wiwanoys ، والوابينجر Wappingers .

وهكذا ، تختلف العلاقـات الهولنـدية / الهندية كثيرا فى منطقة نيوأمستردام عن احتكاكات الانجليز مع الحضارات الوطنية فى نيوانجلند وعند تشيزابيك · فقد قلت مكاسب تجارة الفراء بعد السنوات القليلة الأولى منذ أن استنفد الصيد حيوان السمور بالمنطقة · وأصبح الهولنديون يعتمدون على تجارهم فى ألبانى لاستنزاف مصادر الفراء الغنية بالداخل · كما أن الهنود المحليين لم يستطيعوا أن يحققوا أى نفع من وراء احتمال تحولهم الى الصورة المسيحية الهولندية ، لأن شركة الهند الغربية الهولندية لم تهتم كثيرا بارسال بعثات تبشيرية الى هنود المنطقة الذين كانوا ينظر اليهم بوصفهم جهلة ، بهيميين ، بينهم وبين الهولنـديين هوة لا يمـكن تخطيها · كمـا أن الهولنديين لم يكونوا بحاجة الى زوجات هنـديات ، حيث استغنوا عنهن بذلك المدد الوافر من الأوروبيات ، منذ البـداية ، تقريبـا ·

بهذا الموقف المعقد ، مع اعتماد النشاط الاقتصادى على الأراضى ، بدلا من التجارة فى الغـالب ، أصبحت القبـائل المحلية هى العقبة أمام التوسع والنفوذ الهولنديين · ولما كانت هذه القبائل منقسمة داخليا ، وموزعة بين جماعـات الوابينجر ، والتابان Tappans ، والهاكينسـاك ، والويكايسجيك ، والنيـاك Nyacks ، والكنارسى ، وغيرهـا ، كل ذلك سـهل على الهولنديين أن يقرروا اتخـاذ الحل العسكرى ازاء « المشكلة

الهندية » • وعلى خلاف الموهوك فى أعالى نهر هدسون ، الذين لا يقدرون بثمن فى اعتماد الهولنـديين عليهم فى تجـارة الفراء المهمة ، بكل معنى الكلمة ، لم تؤد القبائل والجماعات الهندية فى أدنى الهدسن أعمالا معينة فى سلسلة الاحتياجات الهولندية • الا أنهم نظرا لامتلاكهم قوة أكبر من الهولنديين كانت العلاقات الودية معهم أفضل من العداء ، خاصة وأن حرب كيفت بين سنتى ١٦٤٣ ، ١٦٤٦ لم تؤد الى هزيمتهم هزيمة كاملة • وقد نظم عدد من الجماعات الهندية أنفسهم سنة١٦٥٥، وهاجموا نيوأمستردام، وقتلوا خمسين هولنديا ، على الأقل ، وأسروا مائة أو يزيدون ، وأشعلوا الحرائق فى المنازل ومخازن الأغذية ، واستمرت هذه الاعتداءات خـلال الخمسينات من القرن السابع عشر والعقد التالى لها ، ولكن قوتهم أخذت تنحسر بعد عشرات السنين من حرب الاستنزاف والانهاك • وبينما استعاد الهولنديون قوتهم من العدد والعتـاد من أوروبـا ، لم يكن لدى الهنود ما يعتمـدون عليه سوى مواردهـم المتضائلة • وعندما هـزم الانجليز الهولنديين فى نيونيزرلاند سنة ١٦٦٤ لم يجدوا سوى بقايا من السكان الهنود الأوائل ، منهارة معنوياتهم •

وعلى النقيض ، كانت العلاقـات الهولندية / الهندية فى ألبـانى علاقات سلمية ومثمرة • ومن المحتمل أن ما لا يزيد عن مائة هولنـدى كانوا يسكنون هناك فى الأربعينات من القرن السابع عشر ، لم يهاجموا الموهوك الأقوياء ، ولم يتعرضوا للهجـوم منهم ، لأن أفراد كلا الشعبين كانوا يخدمون احتياجات بعضهم بعضا بشكل يدعو للاعجاب • فبالرغم من قلة عددهم الواضحة ، لم يتردد مستوطنو ألبانى أن يبيعوا السلاح والذخيرة لشركائهم التجار الهنود • وعلى النقيض منذلك ، كان المستعمرون فى نيوأمستردام يفوقون الهنـود عددا ، مع تفرق الهنـود فيما بينهم ، لذلك فرضت قوانين صارمة على بيع السلاح • ولم يكن من الصعب فهم هذه السياسة عند مقارنة التنافس على الأرض فى منطقة نيوأمستردام بالنشاط التعاونى بين الهولنديين والموهوك فى منطقة ألبانى ، فقد كان السـلاح يقدم للموهوك على أن يسـتعمله الهنود للسـيطرة على قبيلة الهورون ، حليفة فرنسا • وبهذا المعنى ، فان أية بندقية فى يد هندية كانت تساهم فى التدفق المربح لجلود السمور الى أمستردام عن طريق نهر هدسن ، بدلا من ذهابه الى باريس عن طريق نهر سانت لورنس • ولم تجلب هذه التجارة المربحة ، بالضرورة الاحتـرام والاعجاب المتبادل بين الهولنديين والموهوك ، فقد شاعت السرقات والهجمات على الحيوانات ، والاعتداءات الصارخة على الحقول بين المجموعتين • ولكن أكثر المؤرخين حذرا ، قد كتب عن العلاقات الهندية مع نيوأمستردام فى القرن السابع عشر ، فقال : « كان السلم محفوظا لأن كلا الجانبين كان سيفقد كل شىء ،

ولن يكسب شيئا بالأعمال العدائية ... لقد نظر كل عنصر منهما الى الآخر على أنهم لصوص غلاظ ، ومعتدون على أملاك الطرف الآخر ، أو هنود يعطون ما معهم ، وليسوا مصادر رخاء اقتصادى ، أما اعتقاد كل منهم فى الآخر شخصيا فكان خارج الموضوع » (٦) .

نيونزرلاند (نيوهولند) أصبحت نيويورك :

بعد جيل من الصراع الأهلى ، الذى بلغ ذروته باستعادة الملكية فى انجلترا بتولى تشارلز الثانى العرش عام ١٦٦٠ ، قررت انجلترا أن تبذل محاولة ضخمة ثانية فى استعمار جزر الهند الغربية وأرض أمريكا الشمالية ، فكانت المستعمرة الهولندية فى نيونزرلاند ، بذلك أحد أهدافها الأولى . ونظرا لتكثيف المنافسة التجارية بين الانجليز والهولنديين منذ منتصف القرن ، أصبحت المستعمرة الهولندية هدفا مغريا لوقوعها بين المستعمرات الانجليزية وتشيزابيك ونيوانجلند . ولابد ، للاستيلاء عليها ، من طرد الهولنديين كلية من الساحل الشرقى،وتوحيد الامبراطورية الانجليزية فى أمريكا الشمالية . ولهذا الغرض ، أرسلت بعثة عسكرية بقيادة ريتشارد نيكولز Richard Nicholls الذى استولى عليها سنة ١٦٦٤ دون مقاومة تذكر من الحامية الصغيرة الوحيدة فى الطريق . وأصبحت نيونزرلاند هى نيويورك ، واضطر السكان الهولنديون الى الاندماج فى النظام الاستعمارى الانجليزى . وبالرغم من ضرورة انقضاء عدة أجيال قبل أن يؤلف الانجليز وأو نصف سكان نيويورك الا أن النظام الاستعمارى الانجليزى قد اشتمل بشكل محكم على السلطة السياسية والتجارة والشئون العسكرية .

لم يكن لتغير السلطة السياسية أهمية تذكر بالنسبة للقبائل الهندية فى نيويورك ، وكان من الصعب تمييز الفروق بين الهولنديين والانجليز فى علاقتهم كأوروبيين مع هذه القبائل . ولم يستطع مجىء الانجليز أن يغير حقيقة أن المرض والحرب قد قضيا على الجزء الأكبر من قبائل الألجونكى عند نهر هدسن الأدنى . ولا كان الانجليز ميالين الى تغيير نموذج العلاقات منذ أن اضطلعوا بالسيادة الأوروبية التى اعتمد عليها الهنود المحليون بدرجة تدعو الى الشفقة . ولا شك أن الانجليز قد اعتبروا أن من حسن حظهم أنهم استعمروا منطقة اكتملت فيها تماما عملية اخضاع السكان الأصليين ، كما لم يكونوا أكثر من الهولنديين ميلا الى تجميع الأنصار من القبائل المحلية بصنوف الاغراء ، عندما كانت الأمور التجارية الأكثر أهمية تتطلب جهدهم .

لقد شهد الثلث الأخير من القرن السابع عشر فى نيويورك أقصى تدهور للقبائل الصغيرة فى منطقة مانهاتن ، ولونج أيلاند ، والوادى الأدنى لنهر هدسن • فقد تضاءل السكان الهنود عندما كافح الوطنيون للبقاء عن طريق مزيج من الاشتغال بصيد الحيوانات وصيد السمك والعمل بالمزارع ، أو أجراء باليومية فى مستوطنات البيض ، فأصبحت علاقاتهم بالأوروبيين علاقة كاملة للعبيد الأرقاء ، تقريبا ، كما لخصها واحد من لونج أيلاند ١٦٧٠ بقوله : « لا يوجد الآن سوى القليل منهم على الجزيرة • ولم تكن هذه القلة مؤذية بأية حال ، بل كانت نافعة للانجليز ، وانا لنعجب كيف تناقصوا بهذه الصورة الغريبة على يد الرب منذ أول استيطان للانجليز فى هذه النواحى » (٧) •

لقد أصبح الهنود المعادون هنودا أصدقاء ، الا أن هذه الصداقة لم تكن سوى المظهر الخارجى لما يعتمل فى نفوسهم من اضطراب اجتماعى وسياسى ، وما صحب ذلك من تبعية ثقافية • وفى هذه الحالة من الافساد والفوضى أصبحت الكحوليات أكثر أهمية لدى القبائل المحلية • فقد أسهمت كثيرا فى توقف نشاطهم بقتلها الاحساس فيهم بنوعية حياتهم المتآكلة • لقد عرف النيويوركيون أن قدرة الهندى على المساومة فى البيع تتضاءل بعد تقديم كمية كافية من شراب الروم له • وبالرغم من تحريم بيع الكحوليات الى الهنود ، « مع ذلك ، كان كل واحد (منا) يبيعها » ، على حد تعليق أحد المراقبين سنة ١٧٦٩ (٨) • كما احتج أحد زعماء المنيسيك Minisik بشدة ، بعد ذلك ، بسنتين بأن الكحوليات قد تسببت فى موت ستين من رجاله فى ثلاث سنوات • ان اضطرار المجلس المحلى للتأكيد سنة ١٦٧٩ ، وفى عدة مرات أخرى فى الثمانينات من القرن السابع عشر على أن الهنود فى المستعمرة « أحرار وليسوا عبيدا » ، ولا يجب استخدامهم كخدم ضد ارادتهم مدى الحياة ، كل ذلك كان دليلا صارخا على أن السكان الهنود الذين يتناقصون باستمرار لم يفقدوا استقلالهم الحضارى فقط ، بل وحريتهم البدنية ، بنفس الدرجة •

لم يأت حلول الانجليز فى ألبانى بتغيير ذى بال فى العلاقات الهندية • فقد استمر الايروكوا فى تعاملهم مع التجار الهولنديين فى بادىء الأمر ، ومع المتعهدين الهولنديين أيضا ، وكذلك استقبالهم السلع البريطانية نظير الفراء • وبطبيعة الحال اتجهت التجارة ، بعد مرور الفراء عبر نيويورك الى الأسواق الانجليزية أكثر من اتجاهها للأسواق الهولندية . وتعددت مصادر البضائع التى يستقبلونها من مختلف أنحاء العالم الأوروبى ، الا أن ذلك كله لم تترتب عليه عواقب تذكر ، بالنسبة لمن كانوا ينصبون الفخاخ للايروكوا • وأهم من حلول الانجليز محل الهولنديين

فى الادارة السياسية ، أن الفتح الانجليزى للمستعمرة لم يكن فيه ما يستطيع أن يغير من حالة الركود فى تجارة الفراء الذى طال منذ حوالى سنة ١٦٦٠ • لقد نتج هذا الهبوط عن استنزاف حيوان السمور فى المناطق الشرقية من البحيرات العظمى وصعوبة خداع الفرنسيين للسيطرة على مصادر السمور الغربية •

العلاقات الفرنسية / الهندية :

بينما كان الهولنديون والانجليز يجاهدون للسيطرة على تجارة الفراء من الغرب ، كان الفرنسيون فى الشمال يصوغون علاقاتهم مع المجتمعات الهندية فى مناطق سانت لورنس وشمالى البحيرات العظمى • وكانت للهنود أهميتهم الحيوية بالنسبة للفرنسيين ، بمعنى الكلمة ، هذا الاعتماد على الأهالى الأصليين ، بالاضافة الى الاختلاف الصريح فى موقف الكنيسة الكاثوليكية قد أدى بالعلاقات الهندية ، فى القرن السابع عشر ، الى عزل المستعمرات الفرنسية بعيدا عن غيرهم من الأوروبيين فى أمريكا الشمالية • لقد بدأت الفروق بالأعداد ، حيث كان الفرنسيون قليلى العدد جدا بحيث لم يتمتعوا بأدنى أمل فى البقاء بدون صداقة الشعوب الوطنية المحيطة بهم • وفى سنة ١٦٤٠ ، وبعد أربعة عقود من النشاط الاستعمارى بلغ المجموع الكلى للسكان الفرنسيين فى أمريكا الشمالية حوالى ٢٤٠ فرنسيا ، بما لا يوازى عدد سكان أية مدينة فى نيوانجلند • وحتى بعد جيل آخر ، أى سنة ١٦٦٣ ، تزايد عددهم الى ٢٥٠٠ فرنسى فقط ، أى أقل من سكان مدينة بوسطن ، أو كثير من مدن الهورون فى شمال البحيرات العظمى •

وزاد من اتكال هؤلاء الفرنسيين على جيرانهم الهنود أن نسبة كبيرة منهم كانت من الذكور ، اذا قارناهم بالمستوطنين الانجليز والهولنديين ، حيث كانت نسبتهم الجنسية بين الرجال والنساء متوازنة للغاية • أما الفرنسيون فقد اتخذوا من الهنديات ، دون تهيب منهم ، ربات للبيوت، ومحظيات ، وزوجات • اذ لم يظهروا أى تخوف من اختلاط الدماء ، وكان من الصعب عليهم أن يفهموا شعور الانجليز بالغثيان من هذه العلاقات الجنسية المختلطة • وفى نوفاسكوشيا ، حيث كان عدد النساء الفرنسيات نادرا بشكل غير عادى ، شاع هذا الزواج المختلط لدرجة أن أحد الثقات يعتقد أنه بحلول سنة ١٦٧٦ كانت كل العائلات الفرنسية بها دماء هندية فى عروقها ، فعلا • وفى المناطق الأكثر استيطانا فى وادى سانت لورنس ، حيث قبائل الألجونكى أقل استقرارا ، وحيث أثار القساوسة الجزويت بعض الاعتراضات على الاختلاط العرقى ، شاع الزنا بدلا من الزواج

المختلط · وكان الجزويت لا يرحبون بالزواج الكنسى بين شخصين من حضارتين مختلفتين ، الا أنهم لم يستطيعوا شيئا ازاء حالات الاضطرار الجنسى العاجلة لأبناء الأبرشية ، كما كتب بارون دى لاهونتان Baron de Lahontan « انهم جميعا ، باستثناء الجزويت يتنقلون فى الليل ، من ماخور الى ماخور ليضاجعوا النساء الهمجيات » · وفى أقصى الغرب ، حيث المحطات التجارية ، « كان الزواج بين صائدى حيوان الفراء ، والنساء الهنديات هو القاعدة ، وليس الاستثناء » (٩) ·

لقد أصبح الامتزاج بين الأجناس سياسة رسمية للحكومة فى الستينات من القرن السابع عشر ، عندما قام كولبرت Colbert ، المخطط والمنفذ لمشروع لويس الرابع عشر الخاص باعادة تنظيم الاستعمار ، بالمناداة بالتكامل التام ، والدمج العرقى بين الأجناس ، على قدم المساواة ، وطلب من المستوطنين الفرنسيين « أن يقوموا بتمدين الألجونكيين ··· وغيرهم من الهمج ، الذين اعتنقوا المسيحية ، وأن يقنعوهم بالمجئ اليهم ويوطنوهم فى المجتمع معهم، ليعيشوا بينهم،ويربوا أبناءهم على أساليبهم وعاداتهم »· وبالرغم من معارضة الكنيسة الكاثوليكية ، شجع كولبرت ، أيضا ، الزواج المختلط ، وحث حاكم نيوفرانس أن يتعهد الامتزاج بين الحضارات « لأنه ، اذا ما صار لهم قانون واحد وحاكم واحد ، فانهم سيشكلون شعبا واحدا ودماء واحدة » (١٠) · وتلك سياسة مبتكرة لوضع الهنود تحت السيطرة الفرنسية الصارمة ، ولكنها مرسومة فى نفس الوقت ، على ألا تدمر السكان الأصليين أو تضعفهم ، بل تستوعبهم وتمتصهم · هذا وقد تأمل عالمان من فرجينيا ، بعد ذلك بنصف قرن ، وهما وليام بيرد ، وروبرت بيفرلى هذه « السياسة الحديثة » التى تبنتها فرنسا فى كندا (ولويزيانا) ، وأسفا على أن « الرقة الزائفة » الانجليزية فى سنوات تشيزابيك الأولى قد منعتهم من الزواج المختلط كما فعل الفرنسيون (١١)·

وقد أشار أحد الدارسين الكنديين الى أن التزاوج بين البيض وغير البيض عندما حدث ، كان فى الأغلب بين الفرنسيين والهنديات ، وأن النسل الناتج من هذه الاتصالات كان يتبع الأم · ومعنى ذلك أن الدماء الهندية نادرا ما تضاف الى الجينات الفرنسية · ولكن ، رغم صحة ذلك ، يهمنا أن نسجل بنفس الدرجة الآثار الاجتماعية لهذه الزيجات المختلطة الواسعة · هذا الاختلاط المستمر ، أوجد صلات ودية للغاية بين الشعبين، أدت الى تفاهم متبادل بينهما ، بدرجة كبيرة · لقد أعطى نقص نيوفرانس فى الرجال « وفى النساء » سببين مهمين لعلاقات الود والوئام مع الأهالى الوطنيين فى منطقة سانت لورنس ·

وكان جميع سكان نيوفرانس يشتغلون بتجارة الفراء أو بتبشير الهنود وتنصيرهم · وكان تعاون الهندى ضروريا فى كلتا العمليتين ، ونادرا ما يمكن أن تتم أى من العمليتين بالاكراه · وهكذا كان التجار الفرنسيون يسافرون مئات الأميال داخل مناطق الهورون النائية حول البحيرات العظمى ينشئون المحطات التجارية ويتعلمون لغة القبائل وعاداتها ، ويشاركون فى عملية التبادل الحضارى · وكان التجار الهنود هم الاستثناء فى المستوطنات الانجليزية والهولندية ، خاصة بعد السنوات القليلة الأولى حيث كانت الغالبية العظمى من المستوطنين مزارعين ، منهمكين فى نشاط لم يكن بحاجة الى خبرة الهندى ، بعد أن أصبحت أساليبه الفنية فى زراعة المحاصيل البلدية فى المنطقة معروفة للأوروبيين ·

أما غير التجار فى نيوفرانس فكانوا من القساوسة الجزويت ، بصفة عامة · أنشأوا الأبرشيات المحلية ، وضحوا بأنفسهم فى سبيل التبشير فى أراضى الهنود المعادين لهم ، ومجدوا الرب بهداية الهنود الى الكاثوليكية · وكانت تجارة الفراء ، فى العادة تسير جنبا الى جنب مع العمل التبشيرى عن طريق مقار الارساليات التى أقيمت عند طرق الالتقاء المهمة بالنهر حيث تزدهر تجارة الفراء · وبالرغم من أن بعض الجزويت شقوا طريقهم ببطء ومشقة نحو الشمال ، حيث الشواطىء النائية من خليج سانت لورنس ، وابتعدوا غربا حتى خليج جورجيا Georgian Bay الا أن جهودهم تركزت وسط ٣٠ ألفا من الهورون المستقرين فى منطقة البحيرات العظمى ، فى مدن يبلغ عدد سكان الواحدة منها عدة آلاف · لقد كان الجزويت أكثر استعدادا من البيوريتان للظن بأن اعتقاد الهندى فى وجود كائن أعلى ، وبخلود الروح ، والقوى الخارقة الطبيعية يمكن تنقيحها بدرجة تكفى لقبولهم من ربهم المسيحى (كذا) ، وبينما كان البيوريتان يصرون على أن يمحو الهندى فى نيوانجلند ، قيمه أولا ، ويتخلى عن أساليبه فى الحياة ، ويهجر معتقداته الدينية كنقطة انطلاق لقبوله المسيحية ، درس الجزويت التركيب الايمانى لدى الهندى ، وحاولوا البناء عليه ، بدلا من هدمه واستبداله كلية · ولعل بيان الأب راجينو Ragueneau سنة ١٦٤٧ قد صدم رجل الدين البيورتيانى بوصفه (بيانا) من عمل الشيطان ، الا أنه كشف رد الفعل الايجابى للألجونكى تجاه الكاثوليكية :

> **يجب على المرء ان يكون حريصا جدا ، قبل ان يشجب آلاف الأشياء من بين عاداتهم ، التى تضايق الى حد كبير العقول التى تربت وترعرعت فى دنيا اخرى · ومن السهل ان تسمى مجرد الحماقة بأنها زندقة ، وان تحسب الشىء انه من عمل الشيطان**

وهو لايزيد عن كونه عمل الانسـان ، عندئذ يعتقد المرء أنه مضطر لتحريم أشياء معينة تتسم بالعقوق أو عدم التقوى ، لمجرد أنها تمت عن جهل وبراءة ، أو هى على الأكثر ، سخيفة ولكنها ليست عادات اجراميه مؤثمة ..... انى لا أتردد فى القول بأننا كنا قساة جدا فى هذه النقطة (١٢) .

هذه المرونة العظيمة ، والرغبة فى تقبل حضارة الأهالى الوطنيين ، بأشكالها الخاصة حتى وان كانت النظرة اليها حقيرة ، قد أدت الى كثير من التفاعل بين الحضارات فى نيوفرانس أكثر منه فى نيوانجلند . وحيث استقر البيوريتان كان النشاط التبشيرى الضئيل مركزا على أضـعف القبائل ، تلك التى فقدت أو كانت تفقد استقلالها السياسى ، واكتفاءها الذاتى الحضارى . ونظرا لتعرضهم للأمراض والحروب ، التى أضعفتهم ، ولافساد أخلاقهم ومعنويـاتهم نتيجة النمو المطرد للمجتمع الأوروبى ، تخلوا عن الجزء الأكبر من حضارتهم ، وحاولوا تعديل أنفسهم فى صـورة الرجل الأبيض . ونظرا لمعيشـتهم فى « قرى مؤمنة » قلدوا أسـاليب الانجليز فى الزى ، وعادات العمل وأشكال العبادة . وعلى النقيض من ذلك ، نجح الجزويت فى نيوفرانس ، وسط أشد المجتمعات الهندية قوة ، حيث بنوا فوق الحضارة الهندية القائمة فعلا ، وهم يطلبون ألا ينسلخ الوطنيون من تراثهم الحضارى ، بل أضافوا اليه .

وتتكشف الطبيعة الخاصة للعلاقات الفرنسية مع الألجونكى من موقف الفرنسيين تجاه السيادة الهندية . ففى جميع الاتصالات الأوروبية — الهندية ، يمكن اعتبار مفهوم السيادة كنوع من الاختبار لميزان القوى بين الحضارتين . وفى العـلاقة مع الهنود الذين تعتبرهم كافة الشعوب الأوروبية شعبا أدنى فى درجته كانت السيادة هى الهدف النهائى المطلوب الوصول اليه ، اذ يعنى ذلك اعترافا من الشعوب الوطنية بأنها لم تعد قوية بحيث تحافظ على استقلالها السياسى . وحيثما تستسلم السلطة ، يكن الاستعباد وراءها مبـاشرة ، ان لم يكن قد سبقها فعـلا . ولذلك ، عندما حارب مؤسسو نيوانجلند قبائل البيكوت سنة ١٦٣٧ ، كان هدفهم استئصال القبيلة الوحيدة القوية التى رفضت قبول نفوذ البيوريتان فى هذا الاقليم أو اخضاعها للقانـون والتشريـع الانجليزى . ومثال ذلك ، ما فعله المستعمرون فى تشيزابيك بمجرد أن أصبحوا أقوياء بشكل كاف ، حيث أجبروا الهنود على التسليم بقوتهم، وكانت البداية بعقود جون سميث لينتزع ضرائب جديدة من قبل اتحاد البوهاتان . لكن المجلس الحاكم فى نيوفرانس ، حتى سنة ١٦٦٤ ، تناقش فيما اذا كان الهندى الألجونكى

الذى يغتصب زوجة مستوطن فرنسى يحاكم أمام القضاء الفرنسى ، اذ يقول أحد مؤرخى كندا الأوائل :

كانت مسألة العلاقات الفرنسية مع الهنود هنا واضحة الصورة بالكامل ، فبالنسبة للهنود الذين يرتكبون أعمالا يعتبرها القانون الفرنسي جرائم ، يقبض عليهم المسئولون عن هذا القانون . وهكذا نقول ان الفرنسيين كانوا سادة مسيطرين فعلا . فاذا لم يستطيعوا ، واذا اعتبر الهنود أنفسهم خاضعين فقط لقوانينهم البدائية بالنسبة للجرائم التى يرتكبونها ضد الرعايا الفرنسيين ، فالواضح أنهم يكونون أحرارا ، مستقلين ، غير مقيدين بحكم حقهم الشرعى بقيود المستعمرة الفرنسية ، ولا يعنى ذلك سوى أن نيوفرانس قد قسمت السلطة فى الواقع الى فرنسية ، وهندية (٣١) .

من الطبيعى أن يكون اعلان السيادة شيئا ، ووضعها موضع التنفيذ شيئا آخر . وقد ظل مجتمع المستعمرين الأوروبيين الذين يعتبرون قوتهم كافية لاعلان سيادتهم ، ظلوا يواجهون مهمة فرضها . فقد صدر فى نيوفرانس القرار ، سنة ١٦٦٤ بالتشاور مع رؤساء القبائل المجاورة فى هذا الأمر . وعند الترتيب للمؤتمر ، أشار المتحدث الهندى الى أن العلاقات الودية كانت قائمة ومصونة لعشرات من السنين ، رغم بعض العنف والتصرفات الاجرامية الفردية على كلا الجانبين وضرورة أن يبذل كلا الطرفين جهده للسيطرة على أفراده ، ووافق الفرنسيون الهنود فى هذه الحالة على عدم محاكمة المذنب . وبعد نصف قرن أعلن الهنود سنة ١٧١٤ أن الفرنسيين ليس لهم الحق فى سجنهم أو معاقبتهم على شرب الخمر ، طالما أنهم غير خاضعين لقوانين المستعمرة . وكان اعتقادهم أن الخمر ، وليس شاربها هى المسئولة عن اساءة التصرف . كان الرد الرسمى هو الاذعان ، وذلك باعتراف الفرنسيين بأنها « مسألة ذوق واحساس بالآخرين » . ورغم موافقة الفرنسيين على ما أكده الهنود بأنهم مستقلون شخصيا استقلالا ذاتيا ، كامل السيادة لكن أصدروا قوانين تحرم بيع المشروبات الروحية للهنود . وعندما ارتكب الهنود بعض الجرائم تحت تأثير الخمر ، حاولت المحاكم الفرنسية اكتشاف المورد المخالف ومحاكمته لخرقه القانون الفرنسى ، وتغريمه قيمة التلفيات التى أحدثها الهندى المخمور .

لم تظهر السياسة الفرنسية ، بالضرورة ، مبدأ حب الخير كثيرا ، أو فهما وتسامحا للهندى ، أو تقبلا لحضارته ، وهى سياسة ناشئة عن ضعف أولا وقبل كل شىء ، كما كتب ايكلز Eccles : « كان الفرنسيون

عاجزين عن فرض قانونهم على الهنود ، أو اذا حاولوا ، لأى سبب آخر قوى ، أن يفرضوه بدرجة ما من العنف ، كانوا لابد أن ينفروا منهم الهنود، الأمر الذى لم يكن الفرنسيون قادرون على فعله » (١٤) • وبالسيطرة على رعاياهم فى بيع الكحوليات ، واستمرار اعترافهم بسلطة الألجونكيين ، أمكن الفرنسيين أن يتعايشوا بسلام مع الجماعات الوطنية بدرجة غير مسبوقة فى أى مكان آخر بأمريكا الشمالية • وقد ساعد على ذلك ، بدون شك ، صغر مستوطناتهم كثيرا ، وقلة تنافسهم على الأراضى الخالية •

هذا ، وبالرغم من التميز السلمى نسبيا فى العلاقات الفرنسية ــ الألجونكية ، لم يستثن كل الهنود ، تماما ، من النهب والتخريب ، الذى أزعج الحضارات الوطنية الأخرى بعد مجىء الأوروبى • فالأمراض الوبائية ، لم تكن قضية سياسية ، أو خاصية قومية ، وقد أصابت الهورون بدرجة مميتة سنة ١٦٤٩ ، كما حدث مع هنود ماساشوستس فى الشرق ، قبل ذلك بثلاثة عقود ، ولم يستطع الفرنسيون ، مهما كانت نواياهم طيبة أن يتفادوا الهجوم على حلفائهم الهورون ، على أيدى الايروكوا بعد أن بدأ التنافس الأوروبى على تجارة الفراء • وحينما استنفدت الامدادات من جلود السمور فى أراضى الصيد التقليدية للايروكوا ، اضطرت الشعوب الخمسة أن تقوم بدور الوسطاء بين الهورون وقبائل الأوتاوا Ottawa ، شمال بحيرتى ايرى وأونتاريو ، وبين تجار ألبانى • ولما لم يتم ذلك بالأسلوب الدبلوماسى ، كما حدث فى الأربعينات من القرن السابع عشر ، قامت الحرب لهذا السبب ، وخلال سنوات قليلة ، تم القضاء الفعلى على الهورون، والبيتون Petuns ، والايرى Eries ، الذين يعيشون حول بحيرة ايرى • بعد ذلك ، اشتعلت الحرب بصورة متقطعة عندما استغل الايروكوا جلود السمور المتبقية فى أراضيهم المفتوحة حديثا ، ومهروا فى اختطاف أساطيل المراكب الموسوقة بالفراء من أراضى أوتاروا جهة الشمال حيث يتجهون بها رأسا الى الأسواق الفرنسية فى مونتريال •

العلاقات الفرنسية مع الناتشيز :

ان القول بأن الشخصية القومية الفرنسية لم تدخل فى حسابها العوامل الاقتصادية والسكانية ، ضمن علاقاتها مع المجتمعات الهندية ، يمكن شرحه بالتجربة الفرنسية مع الناتشيز ، فى اقليم المسيسبى الأدنى فى أوائل القرن الثامن عشر • كان الناتشيز شعبا على درجة عالية من التنظيم ، والتمسك بالطقوس ، وهم سلالات أقصى الجنوب من بناة الاستحكامات القدماء ، ويقتربون جدا من الحضارة الأوروبية أكثر من أية جماعة أخرى فى شمال شرق أمريكا الشمالية ، بما لديهم من نظام

الطبقـات الاجتماعية ، والسلطة الدينية ، والنظام الطبـقى الوراثى ، والاحتفال بمناسبة الحرب • وقد علمتهم التجربة العملية ، بعد أن دخل دى سوتو De Soto بلادهم سنة ١٥٤٢ ألا يحتكوا بالأوروبيين أبدا ، الى أن وصل روبرت لاسال Robert La Salle ، المكتشف الفرنسى الذى ادعى بحق فرنسا فى ملكية وادى المسيسبى الأدنى ، سنة ١٦٨٢ • وبعد ثـلاثة عقود أخرى ، حـين أنشأ الفرنسيون محطة تجـارية صغيرة على المسيسبى سـنة ١٧١٣ حيث كان للناتشيز فى آخر الأمر اتصال بالبعثات التبشيرية الفرنسية والتجار الفرنسيين والانجليز •

وعندما بدأ الفرنسيون بناء مستوطنة دائمة فى بلاد النـاتشيز ، فى العقد الثانى من القرن الثامن عشر كجزء من خطتهم للسيطرة على داخل القـارة ، وتطويق الانجليز ، أحضروا معهم الجنـود والنساء والعبيـد السود • لقد كانت التجارة مع الناتشيز أمرا ثانويا عند الفرنسيين • وعندما احتد الخلاف فى سنة ١٧١٥، قتل فيها الهنود أربعة من الفرنسيين ردا على سوء المعاملة التى لاقاها الهنود ، وجه الفرنسيون أسلحتهم المتفرقة اليهم دون تحفظ • وحينما اندلعت حرب ثانية سنة ١٧٢٢ أحرق الحاكم الفرنسى بيانفيل Bienville ، ثلاث قرى للناتشيز ، وسواها بالأرض ، كمـا طالب امبراطور النـــاتشيز تاتوت سيربنت Tattooed Serpent بأن يرسل له رأس واحد من أصغر الزعماء ، وذلك انتهاكا من بيانفيل للعادة القبلية التى تعفى رؤساء القبائل من عقوبة الاعدام •

لم تؤد هذه السياسة الصارمة ، الا الى المزيد من العداوات • ففى سـنة ١٧٢٩ ، عنـدما طالب الفرنسيون بالتخلى عن بعض الأراضى دون تعويض ، وشملت موقع احــدى قرى الناتشيز المهمة ، رد الناتشيز على ذلك بالتخطيط لهجوم يقضى على مضايقاتهم • وليس أوضح فى ذلك الوقت من أن الفرنسيين لم يجدوا فائدة فى الناتشيز لتحقيق أغراضهم فى المسيسبى الأدنى ، ولم يشعروا بوخز الضمير لمحـاولتهم ازالتهم • وبالرغم من نجاح الناتشيز فى هزيمة الفرنسيين فى حصن روزالى سـنة ١٧٢٩ ، وقتلوا مئـات عديدة منهم ، وأسروا كثيرا من النساء والأطفال والعبيد من السود والهنود ، كانت هزيمة الفرنسيين هزيمة مؤقتة ، حيث وصلت التعزيزات سنة ١٧٣٠ ، وبمسـاعدة من حلفائـهم الشوكتاو ، أمطروا معاقل الناتشيز بعاصفة من نيران مدافعهم ، فقتل أكثر من ألف ، وأحرق منهم مئات من الأسرى بعد شدهم الى الخوازيق ، وبيع نحـو ٤٠٠ فى سوق النخاسة فى سانتو دومينجو ، وحاول من بقوا أحياء من الناتشيز اللجوء فى جماعات مبعثرة الى القبائل الجنوبية الشرقية • وبنهاية العام ، لم يعد لقبيلة الناتشيز بقاء مستقل ، وهى التى بلغت ذات مرة الخمسة

آلاف تقريبا . ولما لم يجد الفرنسيون طريقا لاستخدام الهنود لصالحهم الخاص ، اتجهوا الى القضاء بالكامل على هذا الشعب القديم من عبدة الشمس ، بدرجة لابد أن أثارت حسد الانجليز فى نيوانجلند ، والهولنديين فى نيوأمستردام ، والأسبان فى المكسيك .

جهود الاستعمار فى كارولينا الجنوبية :

بينما كان الايروكوا ، والانجليز ، والهورون الفرنسيين يكافحون للسيطرة على تجارة الفراء فى الشمال ، كان غيرهم من الانجليز يبذلون جهدا استعماريا على بعد ألف ميل الى الجنوب فى المنطقة التى سميت فيما بعد بكارولينا الجنوبية . وأصبحت هذه المنطقة الخصبة الشاسعة ، مؤخرا ، مركز نظام عبيد المزارع فى أمريكا الشمالية ، مع أنها لم تكن فى أعين الانجليز فى الستينات من القرن السابع عشر، عند بدء الاستيطان سوى أرض حدود قفر . ولكنها كانت أرضا تفاعل فيها أناس أوروبيون آخرون وهم الأسبان مع المجتمعات الوطنية لأكثر من قرن ونصف القرن . وكان الرواد المستكشفون ، والمغامرون الأسبان هم المترددين على المنطقة ، وأكثر الأسماء المألوفة بينهم اسم بونثى دى ليون Ponce de Leon ، وقد رسموا خرائط للأطلنطى الجنوبى ، وسواحل الخليج منذ أواخر القرن الخامس عشر ، ويجرون اتصالات متقطعة مع أهالى المنطقة . وبحلول سنة ١٥٢٠ ، لابد وأن كانت قبائل السهل الساحل على وعى تام بالأخطار المصاحبة للاتصال بالأوروبيين ، حيث عمل فى هذه السنة ، لوكاس باسكويث دى أيليون Lucas Vasquez de Ayllon الضابط الاستعمارى الأسبانى وعضو المجلس الملكى لأمريكا اللاتينية ، على اغراء نحو خمسين هنديا وحملهم على سفينة وانطلق بهم مسرعا الى سوق العبيد فى جزر الهند الغربية . وقد علق الكاتب المعاصر لهم بيتر مارتر Peter Martyr قائلا : « بمثل هذه الوسائل ، بذروا الكراهية ، والصراع فى هذه المنطقة الآمنة ، الودودة ، بفصلهم الأطفال عن آبائهم ، والزوجات عن أزواجهن » (١٥) .

وطوال النصف الثانى من القرن ، أقام الأسبان مستوطنات صغيرة على ساحل القارة الجنوبى الشرقى ، وارتبطوا بتجارة بسيطة مع هنود المنطقة ، وبنوا أبرشيات مزودة بالآباء الفرنسيسكان ، وطردوا الفرنسيين بأحكام قضائية سنة ١٥٦٥ بعد أن تجرءوا ، وبنوا مستوطنة فى الضاحية القريبة من بورت روبال . وقد جرت عدة محاولات لوضع منطقة الخليج بكاملها تحت السيطرة الاسبانية . وفيما بين عامى ١٥٣٥ ، ١٥٤٢ قاد هرناندز دى سوتو Hernandez de Soto حملة فى عمق أراضى قبائل الكريك ، على بعد عدة مئات من الأميال من الساحل . وفى سنة ١٥٥٩ انتقل

الاسبان شمالا من المكسيك فى محاولة مرسومة ، ليوطدوا سلطتهم فى منطقة الخليج الجنوبية • وكان الاسبان يستعبدون الهنود ، أينما ذهبوا ، ويستخدمونهم فى حمل المؤن والامدادات • وبين الحين والحين ، كما حدث سنة ١٥٩٧ ، كانت القبائل الساحلية المختلفة تخطط لازالة البعثات الأسبانية والمراكز التجارية من ساحل الأطلنطى وطرد الأسبان ثانية نحو فلوريدا • الا أن الفرنسسكان حافظوا على العودة ، كما لو كان الله قد وعدهم بأن يضع كل هنود المنطقة فى مدى صوت جرس الأبرشية • وعندما وصل أول المستوطنين الانجليز الى مصب نهر آشلى Ashley فى أبريل ١٦٧٠ ، وجدوا أنفسهم على بعد خمسين ميلا فقط من الأبرشية الأسبانية بأقصى شمال الشرق ، جنوب نهر سافانا مباشرة •

وبالنسبة للقبائل المتناثرة وغير المتحدة سياسيا ، فى منطقة كاليفورنيا أمثال الجوالى Guales ، والياماسى ، والأبلاش ، والتوسكيجى Tuskegees ، والهيتشيتى Hitchitis ، والويستو Westos ، والكريك، والكوسابو Cusabos ، وكثيرين غيرهم ، فقد أمدهم مجىء الانجليز بالفرص ، وعرضهم للأخطار حسب وضعهم السابق • فبالنسبة لهنود فلوريدا الشمالية الذين جرى تبشيرهم ، من المحتمل أنهم رأوا فى الانجليز تهديدا لهم ، حيث تعرضوا لهجماتهم وانقضاض القبائل الأخرى التى تسير فى فلكهم • أما هنود المنطقة الساحلية مصب نهر آشلى ، الذى كان موقع المركز الاستعمارى الانجليزى لشارلستون ، فلعلهم اعتبروا الانجليز منقذين ، لأن هذه القبائل كانت واقعة ، سنين عديدا ، تحت وطأة الهجمات الشديدة من جيرانهم فى الغرب ، لذلك صرح أحد المستعمرين الانجليز الأوائل ، فى خطاب له الى لندن بقوله : « انهم محبوسون بيننا ، لأنهم لن يتجهوا جنوبا خوفا من الياماسى ، أكلة الأسبان ، كما يسميهم الهنود ، كما أن الويستو من ورائهم ، أعداؤهم الألبان ، الذين يقولون عنهم انهم آكلة البشر ، فهم يخافونهم كخوف الأطفال فى انجلترا من الثور الهائج ، ولن يذهبوا شمالا لأنهم يقولون عنهم هناك انهم مرضى ضعاف ، ولذلك يعتبرون أنفسهم فى أمان عندما يكونون بيننا » (١٦) • وبالنسبة للكريك ، الى الغرب من الويستو ، فلعلهم رأوا أن الانجليز يمكن أن يحلوا مشاكلهم مع جيرانهم الأعداء ، لأنهم اذا ضمنوا التحالف مع الانجليز ، فلابد أن يهيمنوا على داخل كارولينا ، بلا منازع •

وهكذا ، وصل الانجليز الى كاليفورنيا فى وقت ساعد فيه الصراع القبلى المهلك ، المستوطنين على تشكيل تحالف عاجل مع القبائل الساحلية يرقى الى درجة معاهدة الأمن المشترك • وقبل مجىء الانجليز ، كان للويستو المضاء فى الحرب بين الهنود وبعضها البعض ، لأنهم استطاعوا

اقامة صلة تجارية مع التجار الهنود في فرجينيا الذين أمدوهم بالسلاح ، ولكنهم أصبح عليهم الآن استعمال الأسلحة الانجليزية ضد الانجليز الوافدين ، الذين تحالفوا مع أعدائهم ، والذين اطمأنوا الى الصداقة الوطيدة مع قبائل الساحل المحلية ، بعد أشهر من وصولهم • ولم يطل الوقت بعد ذلك ، حتى كان الكريك وهم على بعد أميال عديدة جهة الغرب، يبعثون برسلهم الى الساحل ، يعلنون عن صداقتهم ، ويقترحون عقد حلف عسكرى •

وبالنسبة لسكان المستعمرات الانجليز ، الأوائل وقد جاءوا من باربادوس ، جزيرة السكر الانجليزية ، فكانوا يتوقعون استخدام العبيد الأفارقة للعمل الشاق فى مزارع القصب ، تماما كما فعلوا فى جزر الكاريبى • الا أن الاسراع الى طريق الثروة ، قد أغراهم الى حد بعيد ، بمجرد وصولهم • وكان من الواضح أن الجزء الجنوبى الشرقى من القارة أكثر كثافة فى السكان من الشمال الشرقى • فاذا أمكن جر القبائل الكبرى مثل الشيروكى ، والكريك ، والشوكتاو الى التجارة ، يمكن تحقيق ثروة واسعة من هذا الاتصال بالشعوب الوطنية • وكان الأسبان مقلين فى استغلال هذه الامكانية ، حيث كان هدفهم الأساسى تثبيت ادعاءاتهم فى ملكية الأرض وحمايتها ، باقامة بعثات تبشيرية تجمع الهنود المحليين فى حياة زراعية ثابتة ، مستقرة •

لقد أدرك هنرى وودوارد H. Woodward أحد الانجليز الأوائل فى كارولينا ، بثاقب بصره ، الامكانات التجارية المحتملة فى المنطقة ، حيث جاء اليها فى بعثة كشفية سنة ١٦٦٦ ، وبقى سنتين مع قبيلة الكوسابو الساحلية بعد رحيل بقية البعثة ، وأصبح أول انجليزى يتغلغل فى داخل كارولينا ، التى كانت على حد تقريره « بلادا بهيجة ، فاتنة ، ذات ثمر ، ولو كانت مزروعة لكانت جنة ثانية ، بلا شك » (١٧) • كما أدرك وودوارد ، وغيره من القادة أن الفرجينيين قد افتتحوا لهم تجارة رائجة فعلا مع الكتاوبا والويستو ، ناحية غرب وشمال غرب كارولينا فى بورت رويال •

لم يكن السمور هو الشئ المغرى فى التجارة الهندية بكارولينا ، لأن هذا الحيوان الثمين الذى أثرى الكثير جدا من التجار مع الشمال ، كان يتوافر بأعداد صغيرة فقط فى مناخ كارولينا الدافئ • وبدلا منه ، كان جلد الغزال واسع التسويق فى قارة أوروبا ، ويتوافر فى كارولينا فى وفرة ، اذ يقول أحد قادة كارولينا سنة ١٦٨٢ : « كانت قطعان الغزلان لا نهاية لها ، حتى ليبدو الاقليم كله وكأنه حديقة عامة متصلة للحيوانات » (١٨) • وقد صدرت كارولينا ، فيما بين عامى ١٦٩٩-١٧١٥

حوالى ٥٤٬٠٠٠ قطعة من جلد الغزال فى المتوسط كل عام . ومنذ ذلك الحين ، ازدادت التجارة حتى وصلت فى بعض السنين الى أكثر من ١٥٠ ألف قطعة من جلد الغزال .

التجارة فى العبيد الهنود :

ما لبثت تجارة جلد الغزال ، أن تحولت ، فى العقدين الأولين ، بسرعة الى تجارة فى العبيد الهنود . ولم يكن هناك ما يدل على توقع مستوطنى كارولينا الأوائل حدوث ذلك . وقد سبب النمو السريع فى تجارة العبيد الهنود ، فى الواقع ، صدمة وذعرا فى لندن . وقد كان استرقاق الأفارقة فى ذلك الحين جزءا مألوفا فى استعمار العالم الجديد ، كما كان الهنود يسترقون فى مستعمرات أخرى عند هزيمتهم فى الحرب . الا أن تجارة العبيد الهنود ، عن طريق الاغارة عليهم واختطافهم ، لم تكن معروفة فى أى مكان من المستعمرات الانجليزية بأمريكا الشمالية . ومع ذلك ، أصبحت هى حجر الزاوية لدى تجار شارلستون منذ السنين الأولى للاستيطان ، وحتى العقود الثلاثة التالية . ولقد كان الكارولينيون الأوائل متمرسين على استخدام العمال الأرقاء فى باربادوس ، حيث كان الرق منظما وشرعيا ، منذ وقت مبكر أكثر منه فى مستعمرات القارة ، مما يساعد على تفسير عدم اعتراضهم على قبول استرقاق الهنود .

لقد تشابهت تجارة العبيد الأفارقة مع التجارة فى الرقيق الهندى ، من نواح كثيرة . فسكان كارولينا أنفسهم ، لم يتوغلوا فى الداخل ، وانما كونوا أحلافا مع الجماعات الوطنية الساحلية ، وزودوهم بالسلاح ، وكافئوهم بسخاء بالبضائع الأوروبية ، وشجعوهم على محاربة الجماعات الهندية الأضعف منهم والتى كانت تعاديهم من قبل . وفى السبعينات من القرن السابع عشر اخترقت قوافل العبيد الأراضى الخلفية من كارولينا الى الساحل ، مثلما كانوا يسيرون تماما فى طوابير طويلة عبر المناطق الداخلية من أفريقية الى القلاع التجارية على ساحل غرب أفريقية ، وما أن يصلوا الى شارلستون حتى يشحنوا على السفن ليكملوا ترحيلهم الى مستعمرات أخرى ، كما كان الأفارقة يعبرون الأطلنطى أثناء ترحيلهم واعادة توطينهم الاجبارى . وكانت غالبية العبيد الهنود ، ينقلون الى جزر الهند الغربية ، بالرغم من أن عددا ضخما منهم بقى فى كارولينا ، وشحن مئات منهم فى سفن تجاه الشمال ، الى مستعمرتى نيويورك ونيوانجلند ، كما يتضح ذلك لمن يقرأ الصحف الاستعمارية فى المدن الشمالية التى كانت تعلن باستمرار عن هروب العبيد الهنود . وكان سكان المستوطنات من البيض فى كارولينا ، سنة ١٧٠٨ حوالى ٥٣٠٠ أبيض ، ٢٩٠٠ عبد

افريقي ،، ١٤٠٠ عبد هندي ــ منهم حوالى ٥٠٠ هندى ، ٦٠٠ هندية ، ٣٠٠ طفل • وعلى كل حال ، كان الرجال من العبيد الهنود فى ذلك الحين يتم ابعادهم عن المستعمرة ، حيث كان يصعب منعهم من الهروب ، وفرضوا مسألة العصيان المسلح ، كما حدث سنة ١٧٠٠ ، عندما أجهضت ثورة للعبيد الهنود فى كارولينا الجنوبية • ومع ذلك ، فان عددا ضخما من النساء والأطفال قد أجبروا على حياة الرق ، وتمرسوا عليها كارهين فى مستوطنات البيض •

وأصبح من الشائع أن ترى العبيد الهنود الحرفيين وخدم المنازل فى تشارلستون كما كان الحال فى مدن المستعمرات الشمالية ، منذ سنوات عديدة ، مثال ذلك ، أن مستوطنة كنجستون الصغيرة فى رود أيلاند ، قد ضمت ٩٣٥ فردا أبيض سنة ١٧٣٠ ، ٢٢٣ عبدا هنديا ، ٣٣٣ عبدا زنجيا (٢٠) • وفى سنة ١٧١٥ كانت ضراوة هؤلاء الرجال الهنود المأسورين فى بلادهم قد ازدادت ، بحيث اضطرت ثلاث مستعمرات فى نيوانجلند الى اصدار قوانين تمنع استيراد المزيد منهم من كارولينا الجنوبية • وتتحدث ديباجة القوانين الثلاثة عن السلوك « الخبيث الفظ ، الحقود لهؤلاء الهنود الجنوبيين ، وبررت حظر التجاوة فيهم ، ليس على أسس انسانية بل بسبب « مؤامرات المتهورين ، والعصيان المسلح ، والاغتصاب ، والسرقات وغير ذلك من الجرائم المروعة (التى) ارتكبت مؤخرا فى هذه المستعمرات ، وفيما جاورها على يد العبيد الهنود » (٢١) • ومع ذلك ، استمر استرقاق الهنود أمرا شائعا فى حياة المستعمر ، كما كشفت عن ذلك رغبات الطبقات العليا والوسطى حتى قيام الثورة •

الأساليب والمناورات السياسية :

ارتبط نمو التجارة الهندية فى الجلود والعبيد ، ارتباطا وثيقا بالخاصية المميزة للسياسة الأولى فى كارولينا • وقد تأسست كارولينا الجنوبية فى فترة بناء المستعمرات بعد عودة الملكية فى انجلترا ، باقامة المستعمرات عقب فترة طويلة من الحرب الأهلية الانجليزية • وقد أملت الاعتبارات الاستراتيجية على انجلترا أن تعزز ادعاءها بملكية ساحل أمريكا الشمالية بازاحة الهولنديين من منطقة الأطلنطى الوسطى ، وتقوية دعاواها ضد الأسبان باقامة مستعمرات بجنوب تشيزابيك • وبعودة تشارلز الثانى الى العرش سنة ١٦٦٠ ، واضعا ذلك فى اعتباره ، أصدر التراخيص لسلسلة من المستعمرات فى منطقة وسط الأطلنطى ــ فى نيويورك ، ونيوجرسى ، وبنسلفانيا ، وديلاوير ــ ولمستعمرة كارولينا فى ساحل الأطلنطى الجنوبى • وفى كل حالة ، كانت هذه التراخيص التى

تعطي سند الملكية لمساحات واسعة ، تصدر لمحاسيب الملك ودائنيه ٠ وهكذا لم يكن بناء مستعمرة في فترة عودة الملكية يدعم فقط الادعاءات الانجليزية ضد الأسبان والهولنديين ، بل يكافيء أيضا المخلصين الذين وقفوا بجانب تشارلز الثاني في المنفى ، أثناء النظام الجمهوري ، لأوليفر كرومويل Oliver Cromwell في الخمسينات من القرن السابع عشر ٠ وكان أشد المؤيدين للملك في كارولينا الذين نالوا المنح منه ، أمثال دوق ألبيمارل Duke of Albemarle ، الذي كان قائدا في الجيش الملكي ، وايرل كلارنيدون Earl of Craven الوزير الأول للملك ، وايرل كرافن Earl of Clarendon أحد الملكيين البارزين أثناء الحرب الأهلية في انجلترا ، وسير وليام بيركلي حاكم فرجينيا ، وسير جون كوللتون J. Colleton أحد أصحاب مزارع باربادوس ومدعم الملكية في سنوات انهيارها ٠ كل أولئك كانت لهم حقوق على الملك ، وكانت لهم قوة سياسية متسلطة ، لو أبقاهم بجانبه بعد استعادته العرش ، ووجد الجميع الفرصة مناسبة لبسط قوتهم وثروتهم بانشاء المستعمرات أو الاقامة فيها بأمريكا ٠

وعندما منح تشارلز الثاني صك الملكية لهؤلاء الرجال ، سنة ١٦٦٣ ، بدءوا في الحال ، في ابتكار اطار عام للحكومة ، واعتقدوا أنه يمكن أن يجنبهم عدم الاستقرار الذي اكتنف المحاولات الاستعمارية الأولى للانجليز ٠ وفي نفس الوقت ، أغرى عددا كبيرا من المستوطنين بالمجيء الى كارولينا ، فبوصفهم ملاكا ، تكون لهم حقوق الملاك الاقطاعيين ، تقريبا ٠ فكل أرض تقع في حدود امتيازهم يجب شراؤها منهم ، وهم أحرار في فرض رسم سنوي على كل فدان يبيعونه ، يعرف « بأجر النزوح » (*) ، ولهم كذلك ، صلاحيات ادارية وتشريعية وتنفيذية واسعة ٠ لقد كان نفوذهم ، في الواقع ، أعظم ، نوعا ما ، من سلطات الملك نفسه في انجلترا ٠

وقع التخطيط الأساسي لعمل مستوطني كارولينا ، على أنتوني آشلي كوبر Anthony Ashley Cooper ، الخبير في شئون المستعمرات ، الذي خدم في المجلس الحكومي لمزارع المستعمرات التابع لكرومويل ، بينما كان محافظا ، في نفس الوقت على صلاته الحميمة مع الملك المنفي ٠ وفي سنة ١٦٦٩ ، وضع آشلي مشروع دستور لكارولينا ، بمساعدة صديقه ومحميه (**) جون لوك J. Locke ، الذي كان المدرس الخصوصي لأطفاله ، وسكرتير مجلس التجارة والمزارع ٠ ولم يكن لكل من آشلي

(*) تشبه تماما هذه الأيام في مصر « خلو الرجل » ــ (المترجم) ٠

(**) المحمي : شخص تحت حماية أو رعاية ذي للسلطان ــ (المترجم)

ولوك أى اهتمام بمشروعات يوتوبيا العالم الجديد ، التى سيطرت على عقول البيوريتان .

كان ما ابتكره آشلى ولوك ، تركيبة عجيبة مما هو حديث ومما هو اقطاعى . فاجتذابا للمستثمرين ، لم تكن تمنح الأرض بأسعار مرتفعة ، بل دون مقابل ، وكانت ، فى بادىء الأمر ، تمنح مساحة ٨٠ فدانا لكل بالغ يود الهجرة ، ثم ازدادت بعد ذلك الى ١٥٠ فدانا . كان هذا الشكل من نظام الأرض ، السخى ، المتسامح ، يشبه نظام الاقطاع . اذ منحت القوانين الأساسية لكارولينا ملاك كارولينا الثمانية وتوابهم وعددا محدودا من أشباه النبلاء احتكار السلطة التشريعية والتنفيذية والقضـــائية فى المستعمرة . ويتولون زمام السلطة بلا منازع ، من خلال نظام محكم من اللجان والمجالس والمحاكم التى ترتبط جميعها بحكمة ونفوذ الملاك الثمانية فى لنـــدن .

ان واقع الاستيطان فى كارولينا ، لم يحمل الا القليل مما يتفق مع ما خطط له مؤسسوها ، لأن الملاك الثمانية البعيدين فى لندن ، لم ينظر اليهم أحد ممن أتوا الى المســتعمرة ، بجدية ، وخاصـــة من المزارعين المشاركين ، الذين تدفقوا من مزارع باربادوس وفرجينيا ، حيث جعلت الأحوال الاقتصادية الكاسدة القيام ببداية جديدة فى قفار كارولينا أمرا جذابا ، فحضروا لامتلاك ١٥٠ فدانا مجانا ، وسرعان ما ادعوا ملكية أجود الأراضى أينما وجدوها ، دون احترام للخطط المحكمة ، المدروسة التى تصورها الملاك لاقامة مستوطنة نموذجية ، متضامة المساكن ، بصورة متعامدة ، فاحتلوا بذلك ، أولا ، الأراضى التى على امتداد الأنهار وطرق المواصلات الرئيسية لنقل محصولاتهم الى الأسواق .

وكما فعلوا فى موضوع الأرض ، ساروا على هواهم فى أمور الحكم . فقد عين الملاك اللندنيون حاكما يتولى زمام الأمر ، الا أنه سريعا ما اكتشف أنه عاجز عن أداء أى شىء ، ما لم يتعاون معه المزارعون المحليون . فهؤلاء الأجلاف الميالون للتحرر من كل قيد ، وقد تعهدوا بتحمل مشقات العمل فى المنخفضات المليئة بالمستنقعات فى شرق كارولينا ، لم يكونوا صالحين للعمل فى ظل النظام الصارم لامتلاك الأرض ، والاقامة بها ، وتحمل نظام هيئة السلطة التى تصدر قراراتها على بعد ٣٠٠٠ ميل .

ولما رأى هؤلاء المزارعون الملاك اللندنيين ، يتسمون بالأرستقراطية ، ويحبون مصالحهم الشخصية ، دون مراعاة الآخرين ، ولا يعرفون شيئا عن ضراوة الحياة ومشكلاتها فى المناطق التى لم يسبق ارتيادها ، بدءوا فى تكييف نظمهم ومؤسساتهم الخاصة بالحكم لديهم .

العلاقات بين مستوطني كارولينا والهنود :

أصبح تأسيس تجارة هندية في جلود الحيوان غير المدبوغة ، وفي العبيد ، هو القضـــية التي تلاقت عندها خطط الملاك ، ورغبات الأفراد المزارعين في العقود الأولى للاستيطان ، فأرســل الملاك تعليمات صــارمة بألا يرتبط المستوطنون بالتجارة مع الهنود ، وعينوا وكلاء عنهم بقيادة هنري وودوارد للاشراف على احتكار التجارة وعقد الصفقات مع المواطنين ، كما أدانوا التجارة في العبيد الهنود بحجة أنها لابد وأن تغرق المستعمرة في سلسلة من الحروب الهندية التي لا نهاية لها ، مما يقضي على سمعة كارولينا كمكان آمن للمستوطنين المتطلعين الى المستقبل •

كانت هذه السياسة الحذرة مع الهنود غير مقبولة من المستوطنين الأوائل ، ذوى الطموح الشديد ، والقلوب التي لا تعرف الرحمة • فهم يدركون أن الزراعة تأتي في المرتبة الثانية ، والأهمية القليلة بعد التجارة الهندية ، كوسيلة لتكوين ثروة سريعة في كارولينا ، ولم يجـدوا مبررا يسمح للملاك باحتكار التجارة ، خاصة وأنهم ليس لديهم ما ينفذون به سياستهم بالقوة • لذلك اتخذت خطوات لاعاقة السياسة الهندية للملاك الذين أقاموا في مستهل الاستيطان نوعا من المشاركة التجارية مع قبيلة الويستو المقيمة على بعد خمسين ميلا من الســاحل ، والمعروفة بروحها العدوانية وسابق مهاجمتها للقبائل الساحلية ، لسنوات عديدة ، يساعدها في ذلك التفوق التقني الذى اكتسبوه من تجارة السلاح مع فرجينيا • وباستخدام هنرى وودوارد تمكن الملاك من جر الويستو الى اتفاق تجارى وجعـلوهم حجـر الزاوية لســياستهم الهنـــدية في ســنواتهم الأولى • فلا يستطيع الويستو أن يمدوهم بجلود الحيوانات الخام فقط ، بل ويمثلون حاجزا بين مســـتوطنات كارولينا ، وشبكة البعثات التجارية الأسبانية في الجنوب •

وفي محاولة المزارعين المستقلين في تصرفاتهم لاحباط احتكار الملاك للتجارة ، تأكدوا من أنه لا خيار لهم الا بابعاد الويستو عن الملاك أو بالقضاء عليهم • وتجاهلا من بعض التجـار في البداية لاحتكار الملاك للتجـارة ، والأوامر بعدم المتاجرة في العبيد الهنود ، قاموا بالتحريض على بعض الحوادث مع القبائل المحلية خاصة الكوسو Kussos ، ثم بعثوا بحملات تأديبية للعودة بالأسرى الهنود لبيعهم في سوق النخاسة • ومع أن الملاك اعترضوا بشدة على أن المستوطنين حرضوا على محاربة القبائل المحلية كي يستعبدوها ، لم يستطيعوا عمل شيء لايقاف هذا النشاط • وفي ســنة ١٦٧٧ ، واعترافا منهم بالواقع ، سمح الملاك لتجار تشارلستون بالتعامل مع القبائل الهندية بالمنطقة ، ولكنهم عادوا يصرون على حقهم في احتكار

أغلب التجارة الداخلية الرابحة مع الويستو والكريك • فكان رد الفعل المحلي هو الاحتيال لشن حرب ضد الويستو أنفسهم • ولم يكن لدى مزارعي كارولينا الرغبة في المخاطرة بحياتهم ضد الويستو • وكانت تنقصهم ، في الحقيقة ، القوة الكافية لهزيمة هذه القبيلة القوية ، ولكنهم وجدوا حل مشكلتهم في تسليح مجموعة من الشاوني تسللت عبر جبال الأبلاش ، وقدموا لهم الهدايا بسخاء ليهزموا الويستو المرتبطين بالملاك ويسترقوهم • وبدأت الحرب المتعاقد عليها من الباطن ضد الويستو سنة ١٦٨٠ ، وبعد ذلك بسنوات ثلاث اكتشف ملاك كارولينا في لندن أن ما لا يزيد عن خمسين فقط من حلفائهم وشركائهم الأوائل في التجـارة ، مايزالوان أحياء في كارولينا • أما الباقون فقد قتلوا أو بيعوا عبيدا • وهكذا قضى على احتكار الملاك للتجـارة الهندية بالقضـاء على الويستو ، حيث كتب أحد المؤرخين لسياسة الملكية الأولى قائلا : « كان فشلهم التام في القضاء على التجارة غير المشروعة في الهنود الأرقاء ، والذى حركته حرب الويستو بقوة ، دليلا على ضعف سلطانهم » (٢٢) •

وطوال عشرات السنين القليلة التالية ، قام التجار المتعزلون ، الذين قبضوا على زمام السلطة في حكومة المقاطعة ، بتسليح الشاولى أو السافانا بعد أن أصبحوا مشهورين « بانغماسهم الشديد في تجارة العبيد » (٢٣) • بل ان الحاكم وأعضاء مجلسه وهم الأدوات الاسمية لتنفيذ سياسة الملاك قد انغمسوا بأنفسهم في عملية بيع وشراء العبيد الرابحة المربحة ، والتى قام بها حلفاؤها السافانا في سلسلة من الغارات على القبائل الداخلية ، والتى تعمقوا فيها مع ازدياد الطلب المستمر على العبيـد ، حتى وصلوا أيضا الى سواحل فلوريدا الأسبانية • وقد بلغت هذه المغامرات التجارية ذروتها في العقد الأول من القرن الثامن عشر • ففى سنة ١٧٠٤ ، قاد توماس مور Thomas Mooreأحد الكاروليننيين المشتغلين بالتجارة الهندية ، حوالى ١٠٠٠ محارب من الكريك ، وخمسين من أبناء بلده الى منطقة الأبلاش ، وفى السنوات الست التالية ، تركت غارات أخرى شـبكة الارساليات الأسبانية التى بدأت سنة ١٥٧٣ خرابا يبابا • ووقع في شـبكة الرق الانجليزية ما بين ١٠٫٠٠٠ الى ١٢٫٠٠٠ من التيمـوكا Timucas ، والجـوالى ، والأبـلاشي Apalachees ، وسـيقوا الى تشارلستون ، وبيعوا للنخاسين ، ونقلوا بالسفن الى كافة أنحاء امبراطورية انجلترا الاستعمارية النامية •

كان الملاك اللندنيون عاجزين عن ايقاف هذه الانحرافات في سياستهم الهندية ، وعندما شجبوا تجارة العبيد الهنود بوصفها تجارة لا أخلاقية ، كلها تهور وطيش ، رد عليهم سكان المستعمرات بأن الأمن العام يحتاج ازالة بعض القبائل القليلة في عدد أفرادها ، ويؤكدون بالحجج أن نقلهم

بيعها عن المستعمرات أو استخدامهم عبيدا يحفظهم من « القتل الوحشي » على يد السافانا . الا أن الملاك لم يخدعهم هذا المنطق الملتوي ، فقد أدركوا تماما ، كما أخبروا الحكومة المحلية بذلك ، أن المستعمرين يستغلون السافانا :

فاشتهاؤهم لبارودكم ، ورصاص بنادقكم والبضائع الأوروبية .... ليغتصبوا الزوجة من زوجها ، ويقتلوا الأب ، ويستحيوا الطفل ثم يدمروا ويحرقوا مساكن هؤلاء المساكين ، الذين رحبوا بنا في بلدهم ، وعززونا . واشبعوا رغباتنا حين كنا ضعافا ، أو على الأقل لم يمسونا بضر ابدا ، ثم بعد ان هاجمناهم ، وطاردناهم ، نرتكب كل هذه الفعال البشعة ، الكريهة لنحصل على العبيد ، ونبيعهم لتجار الرقيق الهندي [و] نسمي شراءهم انسانية ، وحفظا لهم من القتل (٢٤) .

أخذ تجار كارولينا ، بعد حرب الويستو ، بعدة عقود ، يمارسون تجارة العبيد مع حلفائهم السافانا ، ويقيمون في نفس الوقت تجارة رابحة في جلد الغزال مع الكريك في الداخل . وكانت الشكوى المطردة بأن التجارة الهندية مليئة بالمفاسد والمعاملة السيئة ، وأن غش الهنود وخداعهم لابد أن يثير في النهاية سخط القبائل المتاجرة ويحرضها على الحرب . ولكن نظام التجارة ، رغم مناقشته في البرلمان والصحف ، عدة سنوات قد « وقع بشكل ميئوس منه في النزاع الحزبي المرير بين ساسة كارولينا » ومجموعة الملاك ومعارضيهم المتنافسين للسيطرة على التجارة (٢٥) . وكما كان متوقعا ، أدى استغلال التجارة والاعتداء التدريجي على حرمة أرض الهنود في النهاية ، الى أن يستنتجوا أن حلفهم مع الكارولينيين كان انتحارا بكل ما يتضمنه من تورط . وادراكا منهم بأن فرصتهم ضئيلة للحصول على معاملة طيبة ، وأن محاربة هؤلاء المستغلين لهم ستكلفهم الكثير ، لذلك قرر أغلب السافانا الهجرة شمالا الى الريف الداخلي لميريلاند وبنسلفانيا . وقدم الكارولينيون المنح السخية لقبيلة الكتاوبا الهندية وعددها نحو ٤٥٠ فردا لمهاجمة السافانا ، واستئصالهم . وقد شارك الكتاوبا عدد قليلا من سكان كارولينا بقيادة ابن حاكم سابق في الهجوم على السافانا مرتين سنتي ١٧٠٧ ، ١٧٠٨ . ويبرر الحاكم جون أرشدال J. Archdale هذه السياسة ، كتابة فيقول : « يبدو أن اضعاف الأهالي الهنود الوطنيين كان ضروريا » . واعترف بأن القبيلتين الرئيسيتين في المنطقة الساحلية ، وهم الويستو والسافانا ، قد انقرضتا فعلا ، بنهاية العقد الأول من القرن الثامن عشر (٢٦) .

لقد كان لوصول الانجليز الى منطقة كارولينا آثار مدمرة بالنسبة للقبائل الهتدية بها . فمن قبل ، كانت القبائل الساحلية مندمجة في

نظام التجارة الاسبانى الذى لم يدمرهم ، ولو أنه أخضعهم لهم ، وغير من أساليب حياتهم • وتعرضت مستعمرة كارولينا الجنوبية ، من ناحية أخرى لآثار مفجعة لأنها أدخلت تجارة الملابس والأسلحة ، وغيرها من السلع الأوروبية ، التى أدت الى زيادة كبيرة فى العداء بين الهنود ، وأغرت القبيلة منهم بأختها ، وأنقصت أعداد السكان كثيرا ، بل ان أقوى القبائل التى تحالف معها الانجليز بالمنطقة ، تجاريا ، اكتشفت إنه بعد أن استعملت البنادق الانجليزية فى استرقاق القبـــائل الأصغر منها والأضعف جاء عليها الدور فى برنامج الابادة •

فرغم نتائج التجارة المهلكة مع الانجليز ، كانت رغبة الهنود فى السلع قوية جدا لدرجة لا يمكن معها لشىء أيا كان ، أن يمنع قبائل جديدة من الوقوع فى هذه الأحلاف التجارية ، بينما يجرى تدميرها لقبائل أخرى • فقد تخلى الكريك ، وهم أقوى القبائل الداخلية وأكبرها عددا ، عن قراهم القديمة على نهر تشاتاهوتشى Chattahoochee فى أواخر القرن السابع عشر ، ونزحوا شرقا الى ألتاماها Altamaha ، ليكونوا قريبين جدا من الانجليز ، حتى ان وباء الجدرى المخيف الذى انتشر بين القرى الهندية الداخلية سنة ١٦٩٧ ، لم يقنعهم بأن من الأفضل لهم قطع الصلة الأوروبية وازدراءها ، وتحركت كميات ضخمة من جلد الغزال الخام ، محمولة على ظهور الحمالين الوطنيين ، شرقا على طول القوافل الهندية التى تبدأ من أكثر من خمسمائة ميل فى الداخـل حتى مركز السافانا التجارى على الساحل • كما خدم الكريك الانجليز بأسلحتهم الانجليزية ، بشن الحرب على الأسبان والقبائل الحليفة لهـا ، وعلى الشـوكتاو فى اقليم ألباما والمسيسبى ، حيث يقول أحد المؤرخين من الكريك : « لقد أصبح الكريك يشابهون (الانجليز) نسبيا ، كمجتمع هندى ، غنى ، مولع بالكسب بصورة رهيبة » ، ومع ذلك ، « يعتمدون فى مذلة على شـبكة التجارة الانجليزية » (٢٧) •

وسواء أكانت منطقة التفاعل هى وادى نهر سانت لورنس ، أو وادى نهر هدسن ، أو الجزر السـاحلية ومنطقة المستنقعات الجنوبيـة الشرقية ، أو وادى المسيسبى الأدنى ، وسواء أكان الأوروبيون المتورطون فرنسيين أو هولنديين أو انجليز ، وسواء أكان أيضا ، الهنود هم الهورون أو الموهوك أو الناراجانسيت أو الويستو أو الكريك أو الناشيز فقد دارت العلاقات الأوروبية ـ الهندية حـول محور أســاسى واحـد : فبالنسبة للأوروبيين ، كانت العناصر الأساسية للاستعمار هى الأرض والتجارة والأمن المادى • وهذه العناصر ذاتها هى الأهداف الأساسية للهنود ، ولكن لابد أن نضيف اليها صيانة الاستقلال السياسى والحضارى • ففى مناطق التفاعل التى أتى اليها الأوروبيون فى أعداد صغيرة للتجارة ، ولم يهددوا

قواعد الهنود ، اتسمت العلاقات بالمودة ، بصفة عامة ، فاتخذ الأوروبيون والهنود فى ألبانى الهولندية وكندا الفرنسية حرفا للربح المشترك • ولم يهدد الأوروبيون ، استقلال المجتمعات الوطنيــة ، أو أرضهـــا أو حضارتها ، وبالتالى ، لم يرغم الهنود فى مهاجمة أولئك الذين يمدونهم بالسلع التجارية التي يتوقون اليها•

ولكن ، حيثما كانت الأرض أو الاستقلال السياسى الهندى يتعرض للمغامرات التجارية ، أو حيث تكون الرغبة فى الاتجار بالعبيد ، كان الصراع ينشب على نطاق واسع ، بصرف النظر عن الأوطان الأصلية التى جاء منها الأوروبيون ، الذين كانوا هم الغالبين عادة فى هذه المصادمات ، الا أن الجماعات الوطنية جاريت بعزم يفوق قوتهم العددية كثيرا • ان الانقســامات الداخلية بين القبــائل الســاحلية وعدم قابليتهم للتوحيد السياسى لتأمين بقائهم ، كان التفسير الشائع لهزيمتهم النهائية • ولكن التلميح بأن الهنود كانوا عاجزين عن التوحد سياسيا بسبب حضاراتهم « المتخلفة » ، لا ينسينا أن الأوروبيين كانوا أيضا ، منقسمين الى أبعد حد • فقد ظلت جماعات المستوطنين الأوروبيين المختلفة ، فى أمريكا الشمالية ، لأكثر من قرنين من الاستعمار ، دون أن تنهي خصوماتها لتتحد ضــد أعدائها الهنود ، فكان المستعمرون الانجليز منقسمين على أنفسهم بدرجة مخزية ، فى الواقع فى حرب ميتاكوم Metacom سنة ١٦٧٥ ، مما جعل من الصعب عليهم التغلب على عدو يفوقونه عددا وعدة•ان الصورة التى انطبعت عن مشاكل ميتاكوم فى الحصول على المساعدة من القبائل المجاورة أمر حقيقى ، ولكن يجب النظر اليها بجانب صورة أندروز Andros حاكم نيويورك ، وهو يغزو كونيكتيكت ، والحرب دائرة وسكان بوسطن ، يطردون من مدنهم ، أولئــك الانجليز اللاجئين من قراهم المحترقــة على الحدود •

هكذا ، أصبحنا ، آخر الأمر ، قادرين تماما على فهم نموذج التفاعل والصراع بين مختلف المجتمعات الهندية – الأوروبية المتنوعة ، بعد أن أدركنا أن كل مجموعة اقتفت مصالحها الخاصة بصورة ثابتة بقدر ما أمكنها ، وتحدها فى بادىء الأمر مواردها المتاحة ، وتقيدها جزئيا الظروف والاتجاهات السائدة قبل مجيء الأوروبيين • وقد أخذ الأوروبيون من كافة الجنسيات كل ما أمكنهم الحصول عليه فى أمريكا الشمالية ، وكيفوا نظمهم تبعا للظروف التى تناسب كل منطقة • وقد عمل الهنود حسابات مشابهة فيما يتعلق بمصالحهم الشخصية ، وتبنوا سلسلة واسعة من الاستراتيجية المشابهة للوصـــول اليها ، وكان بقاؤهما أحياء (الأوروبيون والهنود) وتعزيز كل منهما لحضارته الخاصة ، وتجميلها هو الهدف الأسمى لكل منهما •

المراجـــع

1. Quoted in Mason Wade, « The French and the Indians », in « Attitudes of Colonial Powers Towards the American Indian », ed. Howard Peckham and Charles Gibson (Salt Lake City : University of Utah Press, 1969), p. 61.
2. William J. Eccles, « The Canadian Frontier, 1534-1760 » (New York : Holt, Rinehard and Winston, Inc., 1969), p. 59.
3. Quoted in Allen W. Trelease, « Indian Affairs in Colonial New York : The Seventeenth Century » (Ithaca, New York : Cornell University Press, 1960), p. 66.
4. Quoted in ibid., pp. 72-73.
5. Ibid., p. 74.
6. Ibid., p. 115.
7. Daniel Denton, « A Brief Description of New York (1670) », quoted in Ibid., p. 179.
8. « Journal of Jaspar Danckaerts, 1679-1680 », ed. Bartlett B. James and J. Franklin Jameson (New York : Charles Scribner's Sons, 1913), p. 79.
9. Alfred G. Bailey, « The Conflict of European and Eastern Algonkian Cultures, 1504-1700 ; A Study in Canadian Civilization » (Sackville, N. B. : The Tribune Press, 1937), p. 112.
10. Quoted in ibid., p. 107.
11. William K. Boyd, ed., « william Byrd's Histories of the Dividing Line betwixt Virginia and North Carolina » (Raleigh : North Carolina Historical Commission, 1929), pp. 3-4 ; Robert Beverley, « The History and Present State of Virginia ..., » ed. Louis B. Wright (Chapel Hill : University of North Carolina Press, 1947), pp. 38-39.

12. Quoted in Eccles, « Canadian Frontier », p. 48.

13. Ibid., p. 77.

14. Ibid., pp. 78-79.

15. Quoted in John R. Swanton, « Early History of the Creek Indians and their Neighbors », Smithsonian Institution, Bureau of American Ethnology, Bulletin 73 (Washington D.C. : Government Printing Office, 1922), p. 32.

16. Quoted in ibid., p. 32.

17. Vener W. Crane, « The Southern Frontier, 1670-1732). (Ann Arbor ; University of Michigan Press. 1956), p. 13.

18. Quoted in Ibid., p. 111.

19. Ibid., p. 113.

20. Almon W. Lauber, « Indian Slavery in Colonial Times within the Present Limits of the United States (New York : Columbia University Press, 1913), p. 110.

21. Ibid., p. 292.

22. Crane, « Southern Frontier», p. 20.

23. Ibid., p. 139.

24. Quited in Ibid., pp. 139-40.

25. Ibid., p. 145.

26. John Archdale, « A New Description of ... Carolina » (1707), in Alexander A. Salley, « Narratives of Early Carolina, 1650-1708 » (New York : Charles Scribner's Sons, 1911), p. 285.

27. David H. Corkran, « The Creek Frontier, 1540-1783 ». (Norman : University of Oklahoma Press, 1967), p. 53.

الفصل السادس

الحضارات الساحلية : المقاومة والتكيف

نادرا ما كان الهندى عاملا سلبيـــا فى القرن الأول من احتكاكه بالحضارة الأوروبية • وظهر ذلك فى ماساشوستس ، بشكل مفاجيء فى الثلث الأخير من القرن السابع عشر ، وفى كارولينا الجنوبية فى الربع الأول من القرن الثامن عشر • فى هذه الفترة برزت القبائل الهندية فى كل من نيوانجلند والجنوب ، عاقدة العزم على ألا تصير شعبا مستعمرا ؛ وفى مناطق أخرى ، مثل فرجينيا وبنسلفانيـا قاومت القبـائل الصغيرة انتهاك الأجانب لحقوقها وممتلكاتها ، ولكنها ، نظرا لحرمانها من الحلفاء الأقوياء من الهنود ، وتعرضها للضعف بنقص أفرادها ، ابتعدت عن طريق الانتشار الأوروبى ، أو استسلمت لحبسها فى أراضى العزل المخصصة لها (المحميـات) • وعلى كل حال ، اختـارت القبـائل الهندية ، فى حالات كثيرة ، أن تبدأ الحرب ضـد غزاة حضارتهـا وأراضيها أو تتراجع عن الاحتكاك بدلا من أن تقبل دور الشعب المحكوم • وبدلا من اعتبار هذه المجتمعات الوطنية الساحلية مجتمعات خامدة ، سريعة الزوال ، وبالتالى غير قابلة للتكيف مع وصـــول الحضـارة الأوروبية المتميزة بالفاعلية والنشاط ، يحسن بنا أن ننظر اليهم على أنهم مجتمعات طيعة ، لم يرغب المستعمرون فى التثاقف (التبادل الثقافى) معها • وازاء هذه العنصرية الأوروبية ارتجلت المجتمعات الهندية اســـتجابات متباينـة نحو هؤلاء المستعمرين ، تتراوح بين التعاون ، والمقاومة ، والانســـحاب • ويمكن اعتبـــار ذلك محاولة منهم للحفـاظ على وحدتهم المشتركة ، وتكاملهم الحضارى ، وكانت تلك فترة عصيبة على القبائل الساحلية ، ولكن الذين يجادلون بأنها فترة تتضمن عدم التكامل الثقافى ، لم يقدموا الدليل الكافى لاثبات هذا الادعاء • والجدير بالملاحظة حقا ، هو أن أغلب الحضارات الساحلية التى جربت عظم وطأة النمو السكانى الأوروبى ، قد احتفظت بقيمها الأساسية لم تمس • و « ظلت تنظر الى العالم المتغير فى اطار منطق حضاراتها الخاصة » (١) •

حاول الناراجانسيت الذين انضموا الى الانجليز ضد البيكوت ، سنة ١٦٣٧ في نيوانجلند ، أن يحتفظوا باستقلالهم بالابتعاد عن المستعمرات الانجليزية • ولكنهم احتلوا بالضبط الأرض التى كان مقدرا للبيوريتان أن يتجهوا اليها في توسعهم في وادى نهر كونيكتيكت • وفي سنة ١٦٤٣ ، تكون اتحاد نيوانجلند من مستعمرات ماساتشوستس ، وكونيكتيكت ، وبلايموث ، التواقة الى عقد حلف عدوانى ضد الناراجانسيت الأقوياء ، وضد مستعمرة رود أيلاند المزعجة ، المنحرفة • وكان هدف الحلف هو الاستعداد الجيد للحرب ، بواسطة لجنة من عضوين ممثلين لكل مستعمرة للبيوريتان • وازدادت جبهة البيوريتان قوة ، بتحالفهما مع الموهيجان Mohegans ، أعداء الناراجانسيت • وفي سنة ١٦٤٣ ، عندما تورط بعض الموهيجان في معركة مع الناراجانسيت ، جهز حلف نيوانجلند حملة لتأديبهم • وانتهت المعركة بعد أن فكر الناراجانسيت في عواقبها بالتسليم ، وعقدهم معاهدة دفعوا بموجبها تكاليف الحملة التى سددوها بالتنازل عن الأرض • وبهذا التكتيك ، استطاع البيوريتان ، تدريجيا ازالة العقبة الرئيسية أمام التوسع الاقليمى •

وبينما كان البيوريتان يتوسعون جنوبا وغربا ، ويزداد عددهم الى نحو ٢٥٫٠٠٠ سنة ١٦٥٠ ، ثم يتضاعفون الى ٥٠٫٠٠٠ سنة ١٦٧٥ ، كانت قلة من الرجال تحاول تجربة تنصير الشراذم المتبقية من القبائل شرق نيوانجلند • وتركزت هذه الجهود بقيادة جون اليوت ، وتوماس مايهو Thomas Mayhew ، ودانيال جوكن Danniel Gookin ، وسط الهنود الذين تآكلت أعدادهم بدرجة خطيرة ، ولم تسلم حضارتهم بسبب الأوبئة والحروب واعتمادهم على السلع الأوروبية • وتكونت عدة آلاف من « الهنود المؤمنين » في أربع عشرة قرية ، الذين حاولوا أن يحاكوا الرجل الأبيض فاختاروا الأساليب الانجليزية في الزراعة ، والصلاة للرب الانجليزى ، وأشكال الشعر والزى ، والعادات الانجليزية • فكان رفضهم لحضارتهم ثمن دخولهم في « المدنية » • ومع ذلك يشير أحد الدارسين المحدثين لهذه القرى المؤمنة الى أنه « بينما ظهرت المدن ، وكأنها تمثل فترة انتقالية ، تسبق الاستيعاب الكامل في المجتمع الأبيض ، لم يكن لهذا أثر كبير • ان هنود المحميات في نيوانجلند القرن السابع عشر ، مثلهم مثل العديد منهم في الولايات المتحدة اليوم ، يتدنون الى مرتبة معلقة بين حضارتين ، فلا هم جزء من هذه أو جزء من تلك » (٢) •

أما القبائل الأخرى في نيوانجلند ، التى يغلب بها وجود زعماء أقوياء ، وأعدادها أكبر ، فانها قاومت أعمال المبشرين ، أمثال اليوت وجوكن • وكما كتب نيل سالزبورى Neal Salisbury : « كانت عملية

التحويل الى المسيحية ناجحة ، فقط ، مع الهنود الذين تشتتت هويتهم من قبل بسبب الغزو الانجليزى » ، أو حيث لم يجر غزو كما في حالة الاوساليات التبشيرية فى مارتا فنيارد (٣) · حتى ان القبـائل الأشـد التصاقا ، والتى حافظت على درجة من الاستقلال عن المجتمع البيوريتانى المنتشر ، وعت فى أول السبعينات من القرن السابع عشر أن مركزهـا محفوف بالمخاطر ، ويسوء باطراد · وكان الخيار أمامهم محدودا ، فهم اما أن يخضعوا للمستعمرات الانجليزية فيبيعوا لهـا الأرض ، ويضعوا أنفسهم تحت حكم البيوريتان ، ويشتغلوا عمالا باليومية فى مستوطنات الرجل الأبيض ، أو يبيعوا أراضيهم لقاء أى شىء يحصلون عليه ، ويهاجروا جهة الغرب فى محاولة لوضع أنفسهم تحت حماية قبائل الايروكوا القوية ، الموجودة خلفهم · أو يحاولون ما لم ينجح فيه أحد قبلهم أبدا فى أى مكان من القارة ـ وهو اتخاذ موقف هجومى هندى عام ضـد أناس يفوقونهم عددا ، ولديهم ترسانة غاية فى الضخامة ، تحت تصرفهم ·

حرب ميتاكوم :

هى البديل الثالث الذى اختارته قبيلة الوامبانوج ، وتعرف باسم قائدهـا ميتاكوم ، أو الملك فيليب كمـا أسـماه الانجليز · وهو ابن ماساسويت Massasoit ، زعيم قبيلة وامبانوج الذى ارتبط بمستوطنى بلايموث عند وصولهم لأول مرة سنة ١٦٢٠ ، وحارب معهم ضد القبائل الأخرى طوال حياته ، ثم توفى سنة ١٦٦١ · وقد انتبه ميتاكوم الى أخيه وامسوتا Wamsutta ، وهو يشرف على تدهور وضع الوامبانوج · وتوفى وامسوتا بشكل غامض سنة ١٦٦٢ ، بعد أن استجوبه المسئولون فى بلايموث عن اشاعات عن مؤامرة هندية · وفى العقد الثانى ، فكر ميتاكوم طويلا بوصفه زعيم القبيلة فى وضع شعبه ، واضطر لقبول الضربة المهينة تلو الأخرى ، والتى كان أسوأها سنة ١٦٧١ عندما أجبر على تسليم كمية ضخمة من الأسلحة ، وقبول معاهدة استسلام وافق بمقتضاها على اتباع نصائح اتحاد نيوانجلند فى الأمور المتصـــلة ببيع الأرض للمستعمرين البيض ، ومنذ ذلك الحين ، بدأ يقيم حلفا غير رسمى للمقاومة الهندية ، اقتناعا منه بأن الخسارة المطردة فى الأرض والسلاح ، مع الآثار المهلكة لكحوليات البيوريتان ، وتعصب حكومة الرجل الأبيض ، كل ذلك لن يتغير الا بمبادرة هندية ·

وبالاضافة الى العقلية الهندية التى كانت تتطور ، كان هناك تناقص فى تجارة الفراء ، حيث توقفت تقريبا الامدادات من جلود السمور من المناطق الشرقية سنة ١٦٧٠ · لأن القبائل الساحلية ، مثل الناراجانسيت

والوامبانوج كانت فرصتها قليلة فى تجارة الفراء من الداخل ، ومنذ أن وقعت سوقها فى قبضة الايروكوا • واعتمدت على تجارة السبلع الأجري ، ولكنها لم تعد قادرة على مد التاجر الأبيض بما يريده منها ، لذلك أصبحت حالة الهنود ميئسة ، وأصبح شرب الكحوليات وسيلة لتخفيف الآلام ، ولكنه ساهم ، على المدى الطويل ، على الاحساس باليأس الذى يدفع الى التهور •

وتدل قدرة ميتاكوم على تجديد المساندة لحركة مقاومته ، على أن الوامبانوج كانوا شعبا بعيدا عن الفوضى والارتباك رغم نكساته خـــلال عشرات السنين • فلم تكن تنقصهم الموارد ولا روح التمرد والعصيان ، ولا يزالون يقدرون تقاليدهم الحضارية القديمة ، ولذلك بحثوا عن أحلاف جديدة مع القبائل المحيطة بهم ، وقاموا بالحرب التى تعتبر فى حد ذاتها دليلا على الأمل ، وعلى الالتزام باقامة حياة جديدة •

كان الحادث الذى فجر حرب ميتاكوم ، محاكمة ثلاثة من الوامبانوج الذين سيقوا الى القضاء البيوريتانى فى عملية انتقام قبلى قتل فيها هندى متنصر ، تعـــلم فى هارفارد ، ويدعى جـــون سسامون J. Sassamon الذى خدم فترة كسكرتير ومستشار لميتاكوم • وكان سسامون واقعا بين حضارتين ، فبالرغم من هجره للمدنية البيضاء ، بعض الوقت ، بعد تجربته فى هارفارد ، أخبر حكومة بلايموث فى ربيع ١٦٧٥ أن الوامبانوج يعدون لهجوم شامل على المستوطنات الانجليزية • وعندما عثر عليه مقتولا بعد ذلك بقليل ، تمكن المسئولون فى بلايموث من تقديم أحد الهنود الذى ادعى أنه شاهد الجريمة ، وأنه يمكنه التعرف على مرتكبيها ، وبذلك علق ثلاثة من الوامبانوج على المشانق الانجليزية فى يونية ١٦٧٥ ، وتضمنت هذه الادانة الادعاء بأن المؤامرة التى نظمها ميتاكوم كانت حقيقة واقعة •

لم تشـــتعل الحـــرب فى الحال ، لأن حالات الحـــرائق والســـلب العشوائية ، المتفرقة التى حدثت خلال الأسابيع القليلة التالية ، تحمل من أول وهلة الانطباع بأن ميتاكوم كان يحاول كبح شباب قبيلته الملتهب غضبا ، والذى كان يدفع بشدة الى حرب قد تجدد احســـاسهم بكمال وجدتهم ، وتعيد شرف حضـــارتهم الذى تعرض للمهانة والخطر على يد آبائهم على مر السنين • ونشبت الحرب على أشدها فى نهاية الصيف • وكان اعدام الوامبانوج الثلاثة هو العـــامل المثير لهـــا ، الا أن السبب الأســـاسى هو غضب شـــباب القبيلة الذين رفضوا قبول ارث آبائهم والخضوع للحياة مع حضارة غريبة عنهم ، وتعتمل صدورهم بالضغينة لاعتقادهم بأنهم ضحوا بالكثير من أجل التكيف مع الغزاة البيض ، فجهزوا أنفسهم للمعركة • ولعل احياء حضارتهم عن طريق الحرب ، كان هدفا

له نفس أهمية هزيمة المعتدى الأبيض الذى كثيرا ما أذل ، فى الماضى ، قبائل نيوانجلند باحتلال أراضيهم قطعة قطعة ٠

قام أنصار ميتاكوم ، فى الشهور القليلة الأولى من الحرب بهجمات جسورة ما بين كر ، وفر على مستعمرة بلايموث ، لم تسـاعدهم فيها القبـائل الأخرى الكبيرة فى نيوانجلند مثل الناراجانسيت ، والنيبمك Nipmucs ، والموهيجان ٠ وكان فشل المستعمرين الانجليز فى الاتحاد عسكريا للانقضاض الفورى على الوامبانوج سببا فى مجىء حلفـاء جدد لجانب ميتاكوم ٠ ولما وجد كثير من الهنود أن ميتاكوم ورجاله المحاربين يفلتون بسهولة من مطارديهم وهم يهاجمون أجنحته ، ويمارس معهم ما يشبه حرب العصابات ، قرروا أن هذه هى الفرصة التى طالما انتظروها ، وانضموا اليه قبيلة تلو الأخرى حتى كانت الهجمات الهندية فى أواخر الصيف ممتدة على طول جبهة نيوانجلند ، وبالرغم من اسـتبقاء الانجليز لحلف النيانتيـك والموهيجـان والبوكومتـك Pocomtucks والبوكاسيت Pocassets ، انضمت الأخيرة الى جانب القضية الهندية ، تحفزها الى ذلك الزعيمة ويتامو Weetamoo ٠ والأهم من ذلك أن الناراجانسيت الذين حاولوا الوقوف على الحياد رسميا ، مع أنه من الواضح أنهم يقدمون مسـاعدة سرية للوامبانوج ، قد اضطروا الى الدخـول فى الحرب بسبب هجمات البيوريتان عليهم ٠ وحتى النيبمك ، تلك القبيلة الهندية المحلية قرب سبرنجفيلد ، والتى كانت تشكو فى صمت ، منذ عدة سنوات ، رغم اعتقاد المستعمرين بأنها حليف مخلص انضمت هى الأخرى الى الهجوم فى نهاية الصيف ٠ وبعد شهور قليلة كان هنود النهر فى أعالى الهدسون يعبئون لهجوم على سكان نيوانجلند ، ولكن خطتهم أجهضت ، عندما حرض حاكم نيويورك قبلة الموهوك على مهاجمتهم ٠ وبحلول أول نوفمبر أدى تساقط الثلج على طـول وادى كونيكتيكت الأعلى الى اضـطرابه تحت الغزوات الهندية ، وكذلك جبهة نيوانجلند تحت هجمات المحاربين الهنود سريعى الحركـة ٠ وفى مـارس ١٦٧٦ كانت قوات ميتاكـوم تهاجم ميدفيلد Medfield ، وويموث Weymouth ، التى تبعد عن بوسطن بأقل من عشرين ميلا ، وكذلك بروفيدنس ، وروداَيلاند ٠ ويقول أحدث مؤرخى الحرب المعاصرين : « لقـد تراجع خط الاستيطان الانجليزى فى مواضـع مختلفة نحو الساحل ٠ وكان الناس فى أكبر الموانى وأقواها دفاعا تقريبا ، فى خوف وترقب دائمين » (٤) ٠

وبدأت الأفكار الخاصة بالتفوق الانجليزى ، تضمحل بعد الضرر الذى أصاب القوات الاستعمارية من كمين وراء كمين ٠ ونعلم أن « الجنود الانجليز ذوى الأسلحة الثقيلة قد بدءوا يشكون فى قدرتهم الخاصة على

الوقوف في وجه الهنود رجلا لرجل » (٥) • وشاعت المقاومة التمهيدية في ربيع ١٦٧٦ ، وتذمرت المجتمعات الشرقية من تدفق اللاجئين من المدن الواقعة على الحدود ، وأدت ندرة الطعام في المدن الى زيادة فرص المستغلين المتحكمين في التموين ، وحتى في أوقات الأزمات العسكرية ، ظهر أن القوات المركزية التي حافظت على المفهوم البيوريتاني للمجتمع مدة جيل كامل ، كان من الصعب عليها أن تنتصر •

وفي ربيع ١٦٧٦ بدأ الهجوم الهندي ينحسر ، ليس نتيجة انتصارات حربية للمستعمرين ، بل لنقص الأغذية وانتشار المرض بين الهنود • لقد وجدوا في ظل حرب الانهاك أنه يصعب عليهم الحصول على الطعام والسلاح الذي يسد النقص في مخازنهم باطراد • وجرت محاولات ناجحة ، الى حد ما ، لسد هذا العجز من الموهوك ، قرب ألباني • الا أنها عندما نجحت سلطات نيويورك في قطعها ، ساء موقف قوات ميتاكوم جدا ، وبدأت مجموعات تستسلم شيئا فشيئا في صيف ١٦٧٦ ، بينما اتجهت غيرها الى الغرب لتحتمي بالقبائل هناك • كما تم اعـدام معظم الزعماء الذين استسلموا أو وقعوا في الأسر • ولكي يدفعوا ثمن تصرفاتهم ، بيـــع الكثيرون بما فيهم زوجة ميتاكوم وابنه الى أسواق العبيد في جزر الهند الغربية والبحر المتوسط ، وقتل ميتاكوم في معركة قرب قرية الوامبانوج التي بدأت عندها الحرب • ولما كان البيوريتان يعتبرونه عونا للشيطان ، على حد قول أحد القادة انه « شرير ، خبيث جدا ، وثعبان ، وعاهر ، وكلب » لذلك أعيدت رأسه محمولة ــ في زهو الانتصار ــ الى المستوطنات الانجليزية (٦) • انتهت الحرب بنهاية الصيف بالرغم من أن « اصطياد ذوي البشرة الحمراء أصـــبح في ذلك الوقت رياضة شائعة بين عامة الناس ، في نيوانجلند ، خاصة بعد أن زادت القيمة المالية للأسرى ، وخف الخطر جدا على الصيادين الآن » (٧) •

وبانتهاء الحرب ، بلغ قتلى الانجليز عدة آلاف ، وربما ضعف قتلى الهنود • وقد هوجمت اثنتان وخمسون قرية ، ودمرت اثنتا عشرة من بين تسعين قرية للبيوريتان على يد « الأفاعي ذوي البشرة البرونزية » كما يسميهم كوتون ماثر • أما القرى الهندية فقد تم تدميرها تماما • ولم تكن أربعون سنة لتكفي جبهة البيض كي تعود ثانية الى النقطة التي كانت عليها عشية الحرب • وتلك فرصة أخيرة ، كان يتوق اليها هنود الساحل في نيوانجلند ، فلو أنهم استطاعوا أن يضمنوا مساعدة الأبناكي لهم ، تلك القبيلة القوية على الحدود الشمالية ، والتي كانت على علاقة متينة بالفرنسيين ، أو مع الموهوك ، أبعد عشيرة للايروكوا جهة الشرق لكانت النتيجة مختلفة تماما • ولكنهم لم ينسوا العداوات القبلية القديمة

بينهم ، وربما كان الأهم من ذلك أن القبائل الداخلية الأقوى قد قدرت أهمية المشاركة التجارية مع الانجليز أكثر من الحفاظ على حياة هنود الساحل • فبالنسبة لمن بقى من الهنود ، ظلت لديهم تلك الحقيقة المرة بأن الانجليز قد انتشروا ، وسادوا ، ويجب النظر اليهم الآن باعتبارهم « حماة » لهم • وعقب كارثة الحرب ، كانت القبائل التى ظلت على الحياد أو قدمت المساعدة الحربية للمستعمرات هدفا لقوانين صارمة للغاية • اذ صـدر قانون سنة ١٦٧٧ بحبس الهنود المتبقين ، بصرف النظر عن اختيارهم الدينى ، فى واحدة من القرى المبتهلة الأربع الباقية حتى الآن • فى حين أصبح مئات قليلة غيرهم « مزارعين مستأجرين فقراء ، أو خدما بالأجر » لدى الجماعات الانجليزية • وأصيبت الحركة التبشيرية بين الهنود بضربة قاصمة ، حيث لم يبق بعد الحرب سوى القليل لتنصيرهم ، ومن تبقى منهم فقد احتبسوا لاجراءات الأمن ، داخل مدن هندية قليلة حيث أصبحوا تحت وصاية مستعمرة بيوريتانية لا يهمها وضعهم الدينى فى قليل أو كثير ، طالما انكسرت سيطرتهم على المنطقة •

وبالرغم من الصورة الختامية لانتصـار الانجليز الذى تم بسبب استنفاد الجهد الهندى ، أكثر منه نتيجة لتفوقهم العسكرى ، أظهرت حرب ميتاكوم أن بعض القبائل الساحلية كانت مستعدة أن تخاطر بانقراضها ، بدلا من أن تصبح شعبا مستعمرا فى ثقافتـه وأرضـه • ولم يحاول البيوريتان ، مطلقا ، أن يتبنوا سياسة استيعاب حقيقية لعدم استعدادهم لقبول الهنود الا كرعايا مسالمين يحكمهم المجتمع الانجليزى ، دون أن يحتويهم ضمنه • وخضعت أضعف القبائل الساحلية لهذه السياسة • أما القوية منها فقد اختارت المقاومة ولو لدرجة الابادة ضد مجتمع يفوقها فى الرجال والمصادر المادية • لكننـا ، فى نهـاية الحرب ، نجد هنود نيوانجلند فيما عدا التخوم الشمالية ، يتضـاءلون بشكل مفجع ، فى السكان ، والأرض ، ومصادر الثروة ، والاستقلال السياسى ، والاقتصادى•

تمرد بيكون :

بينما كان سكان نيوانجلند ، يحاربون من أجل البقاء سنتى ١٦٧٥ ، ١٦٧٦ كان مستعمرو تشيزابيك محصورين أيضا فى صراع البقاء الذى لم يشمل الحرب بين مجتمعات الحمر والبيض فقط ، بل أيضا الحرب داخل الجماعة البيضاء • وعندما انتهت حرب ميتاكوم فى نيوانجلند ، كانت مئات عديدة من البيض ، وعدد أكبر منهم من الهنود صرعى فى فرجينيا ، وميريلاند ، ويلف العاصمة جيمستاون الخراب والدمار • كما كانت قوة انجليزية من ألف رجل فى طريقها لعبور الأطلنطى لوضع حد

لما ارتآه الملك رفضا غير شرعي لسيادته على فرجينيا • وقد سمى هذا النزاع البالغ التعقيد بثورة أو (تمرد) بيكون ، نسبة الى ناتانيال بيكون Nathaniel Bacon ، صاحب المزرعة ، وعمره تسعة وعشرون عاما والذى جاء الى تشيزابيك منذ سنتين فقط •

يبدو أن تمرد بيكون جاء تقريبا ، دون سابق انذار • فقد ازدادت فرجينيا بسرعة منذ منتصف القرن ليبلغ سكانها حوالى ٤٠ر٠٠٠ سنة ١٦٧٠ ، وتصدر الى انجلترا ، سنويا ، نحو ١٥ مليون رطل من التبغ • وكان سير وليام بيركلى يشرف على ثروات المستعمرة بوصفه الحاكم الملكى ، وهى وظيفة تولاها بصورة متقطعة لأكثر من عشرين سنة • وقد وقع بيكون فى شرك التمرد ضد كل من الهنود والحاكم الملكى ، وهو الذى تعلم فى كمبردج بانجلترا ، وكان بمنزلة ابن عم للحاكم من الدرجة الثانية ، وعضوا فى مجلسه وحضر الى فرجينيا ومعه ثروة تكفيه لشراء مزرعة تبغ قائمة ، ومكتملة بعدد من العبيد •

ولكنه ، وكثيرا غيره ، ممن كانوا يبحثون عن الكسب المادى فى فرجينيا ، وقد انزعجوا بشدة ، لانحسار الفرص الاجتماعية وللسياسة الهندية التى رسمها الحاكم بيركلى على مر السنين • وفى سنة ١٦٤٦ ، عقدت معاهدة ، فى نهاية الانتفاضة الهندية الثانية ضد الفرجينيين ، منحت قبائل تشيزابيك الأراضى الواقعة شمال نهر يورك ، والتى تمتد شمال غربى خليج تشيزابيك الى داخل فرجينيا ، واتفق زعماء الهنود والبيض على أن يكون ثمن السلام منح كل جانب من الحضارتين حقوقا مقصورة عليه فى ملكية الأرض فى مناطق معينة ، وبذلك تجنبوا الصدام مدة ثلاثة عقود تقريبا ، بعد سنة ١٦٤٦ • وتقدمت ، فى الواقع تجارة الفراء المربحة مع عديد من القبائل ، بالرغم من تذمر البعض من احتكارها على يد الحاكم وبعض من دائرة محاسيبه • وازدادت الكراهية لهذا الاستقرار فى العلاقات الهندية على يد موجة المستوطنين الجدد الذين وصلوا فرجينيا فى الخمسينات والستينات من القرن السابع عشر ، وعلى وجه الخصوص من جمهور الخدم البيض العاملين بعقود زمنية ، والذين وجدوا بعد خدمتهم أن من الصعب عليهم منافسة المزارعين المستعمرين فى فترة كساد أسعار التبغ ، ومع ازدياد أعدادهم ضغطوا على حكومة فرجينيا باطراد لفتح أراضى شمال نهر يورك للاستيطان ، وهم يتساءلون عن علة حجز هذه المساحة من الأرض لحفنة من الهنود ، الى الأبد ، بينما يسرى امتياز فرجينيا على كل الطريق الى « البحر الجنوبى » تاركا عددا وافرا من قطع الأراضى ناحية الغرب للقبائل المحلية ؟ وقد كتب بيركلى الى المقر الرئيسى فى عدة مناسبات بأن واحدا من كل ثلاثة أو أربعة رجال لا يملكون

أرضا ، أو أصبحوا فقراء ، وأننا يجب أن « نتوقع بلا مبالغة » أن جميع هؤلاء الأعداء « سيتمردون علينا عندما يحققون أقل ميزة ···· بأمل أن نجعل ظروفهم صعبة بمشاركتنا لهم فى خيرات البلد » (٨) ·

هذا التشوق الى الأرض مع تقلص الفرص ، قد تحول الى عنف فى يولية ١٦٧٥ عندما شعرت جماعة من الهنود « الدوج » Doeg بالاهانة لتخلف أحد أصحاب المزارع عن سداد ثمن بضاعتهم ، فحاولوا سرقة خنازيره · وقد أحبطت خططهم فلما انتقم الدوج بقتل البيض المعتدين ، وقتل الانجليز لعدد كبير منهم ، شن ثلاثون من المزارعين المجاورين لهم مذبحة انتقامية ، انتهت بقتل عشرة من الدوج وأربعة عشر من السسكيهانوك حلفاء الفرجينيين لعدة سنين · ولما لم تفعل حكومة فرجينيا شيئا لتعويض أصدقائها السسكيهانوك عن قتلاهم ، حاول الهنود الانتقام بهجمات على المستوطنات النائية على طول حدود ميريلاند وفرجينيا ·

لقد جاء الحادث ، كما اعترف الفرجينيون البيض مؤخرا نتيجة حتمية لحمى امتلاك الأرض وكراهية الهنود التى أدت الى « الشروع فى احتلال وانتزاع أية مدينة خاصة أو أرض تتسع لهم [للهنود] ونرك قطعانهم من الماشية والخنازير سائبة فى أرضهم ، فاذا حدث أن نفق واحد منها نتيجة الهوام والحشرات الضارة أو ما شابه ذلك فانهم يستمطرون اللعنات على الهنود ، ويدوسونهم ، ويسيئون معاملتهم (رغم أن الحكام كانوا يحاولون العكس) ··· » (٩) · ونجد كذلك أن من أساس الهجمات العشوائية للانجليز هو أن هنود فرجينيا كانوا يتناقصون فى العدد والقوة بدرجة خطيرة فى عشرات السنين الأولى ، بحيث لم يشكلوا سوى مقاومة ضعيفة « للمنقضين على الأرض » كما لقبوا بعد ذلك ، والذين وجدوا الفرصة لفتح كل الأراضى التى لا تزال باقية فى أيدى الهنود ، وذلك بالابادة الصريحة مائة بالمائة لبقايا قبائل تشيزابيك ، حيث بقى ، فى منطقة فرجينيا ، فى ذلك الوقت أقل من ألف هندى من الذكور ، وهؤلاء كتب عنهم الحاكم بيركلى سنة ١٦٧١ أنهم « أخضعوا بالكامل فلا خوف منهم مطلقا » (١٠) · فكان هذا الضعف دعوة للبيض باتباع العنف · اذ استطاع سكان ميريلاند وفرجينيا ، فى سبتمبر ١٦٧٥ أن يضعوا فى الميدان ألف رجل مسلح تسليحا جيدا ، وسار نحو ألف من مزارعى تشيزابيك ورجال الميليشيا الى أرض مسيجة على نهر بوتوماك Potomac R. كانت مستعمرة ميريلاند قد خصصتها للسسكيهانوك ، وبمحاصرتهم لقرية بها نحو مائة من الرجال الشجعان وعائلاتهم طلبوا خروج الزعماء للتفاوض فى شروط استسلامهم ، وعندما نفى السسكيهانوك أية مسئولية لهم عن الهجمات على الحدود ، سيق هؤلاء الزعماء الى خارج القرية وأعدموا ·

وبالرغم من محاكمة ضباط الميليشيا المتورطين فى هذه الجريمة ، كانت العقوبة بغرامة خفيفة ، أو عدم ادانتهم نهائيا على يد القضاء المحلى ٠ ولما روعت هذه « الوحشية » الانجليزية ، الحاكم بيركلى ، شجب الهجوم واجراءات القضية ، ولما لم يلق سوى تأييد ضئيل فى المستعمرة لم يسعه سوى التعبير عن قلقه فقط ٠ ولما كان الهنود خاضعين بالقوة وينظر اليهم كعقبة أمام المزيد من التوسع ، أصبح الفرجينيون لا يمكنهم التحدث لمصلحتهم ، أو يتصرفون ضد أولئك الذين سارعوا بمعاداتهم ومع تعهد السسكيهانوك بالحرب بالرغم من تفوق الجانب المضاد ، استعدت فرجينيا لصرفهم عما سمعوا بحدوثه فى الشمال تحت قيادة ميتاكوم ، اذ سرت الشائعات كالنار فى الهشيم ، فى المستعمرة ، بأن السسكيهانوك يقدمون أموالا كثيرة للعشائر الهندية الغربية ليهاجموا معهم الأوروبيين ، وأنه قد تم فى نفس الوقت تعزيز التحالف بين أنصار ميتاكوم والهنود الجنوبيين ٠

صمم السسكيهانوك على الانتقام ، فشنوا الهجوم فى ربيع ٧٥/١٦٧٦ ، وحصدوا فيه أرواح ستة وثلاثين من سكان المستعمرات ، مما جعل سكان الحدود ينقلبون ـ لغضبهم وخوفهم ـ على أقرب الهنود الى أيديهم وهم الأبوماتوكس Appomattoxs ، والبامونكى ، المستقرين ، الذين يعيشون فى المناطق المخصصة لهم داخل مساحة المستوطنة ، والذين اعترف أحد الكتاب بعد الحرب « أنهم كانوا دائما عرضة لأطماع جيرانهم الفرجينيين » (١١) ٠ وفيما أسماه أحد مؤرخى الحرب المحدثين « التضحية بالدم » أخذ ناتانيال بيكون على عاتقه قيادة الحركة العسكرية ، وبدأ فى ابادة الهنود المسالمين فى المنطقة (١٢) ٠ واقتناعا منه بأن الهنود المتسببين « كانوا قد اختلطوا ، فى مكر ، وسط كثير من عشائر وعائلات الهنود حتى كان من الصعب علينا أن نميز كيف ، ومن أى الأقوام المذكورة هذه نبعت الأخطاء المذكورة آنفا » ، وطلب بيكون من بيركلى تفويضا ليقود المتطوعين ضد أى هندى يمكن تواجده (١٣) ٠ وعندما رفض بيركلى اجازة الهجمات غير الشرعية ، أعلن بيكون ، وهو مشتعل غضبا ، اصراره على مواصلة العمل ، بموافقة الحاكم أو بدون موافقته ٠ وهنا أعلن بيركلى أن بيكون متمرد ، وجرده من عضويته كمستشار ، وقام بحملة من حوالى ثلاثمائة مزارع فرجينى للقبض عليه ٠ وبالتالى ، جمع بيكون قواته من حوله ، واتجه رأسا الى الصحراء و « الى قدر يناسبنى أكثر مما يسرك أن ترسمه لى » على حد ما أخبر الحاكم ، تحديا له (١٤) ٠

وكان حل الموقف المتدهور لدى بيركلى ، أن يشن حملة تأديبية لمعاقبة أى هندى يهاجم المستوطنين البيض ، ولكن مع محاولة المفاوضات

السلمية • وفى نفس الوقت ، اتجه الى بناء حصون على امتداد الحدود ، يزودهـا بخمسمائة رجل يتجولون بينهـا ويحافظون على السـلام بين الشعبين • وكانت تلك سياسة دفاعية مكلفة ، فأموال بناء الحصـــون وتزويدهـــا بالرجال ، لا يمكن أن تأتى الا من دخل المزارعين ، بزيادة الضرائب لسنوات قليلة تالية •

لقد أخطأ بيركلي فى الحكم على كل من المستوطنين البيض والهنود • فزعماء السسكيهانوك لم يستطيعوا السيطرة على رجالهم المحاربين الذين شنوا هجماتهم ، مرة ثانية ، حتى أثناء تفاوضـه مع زعمائهم • كما لم يرغب الفرجينيون البيض فى شيء من سياســـة الاحتـواء المكلفـة التى ابتدعها • اذ هبطت السوق بحدة ، فى تلك السنوات ، وذهب وباء بنصف ماشية المستعمرة فى الصيف السابق ، وحل الجفاف الشديد بمحصول سنة ١٦٧٥ ، وهم يناقشون الحاكم الآن فى ذلك الحـل الضعيف المكلف لأكبر نكبة هندية حلت فى الثلاثين سنة الأخيرة • والمسألة من وجهة نظرهم أسهل من ذلك بكثير ، وحلها يكلف القليل •

وفى مايو ١٦٧٦ ، أعلن بيكون نفسه قائدا لرجال الحدود المتمردين ، والذين عزموا على اتباع سياستهم الخاصة بشأن الهنود • وكان هدفهم الأول المستوطنة الحصينة للهنود الأوكانيتشى Occaneechees ، الذين كانوا بمثابة أصدقائهم ، والذين دمروا حديثا ، قبيلة من السسكيهانوك المعسكرين قريبا منهم اظهارا لولائهم للفرجينيين ، حيث أبادوها فى هجوم مباغت فى منتصف الليل • ويدعى النقاد المتأخرون بأن شـهية رجال بيكون ، قد حركها ما قيمته ١٠٠٠ جنيه من جلد السمور ، داخل الحصن • ومع ازدياد أنصاره ، بعد كل هجوم على الهنود ، سار بيكون الى جيمستاون لمجابهة الحاكم الذى اتهمه من قبل بخيانة الحكومة ، وطلب بيكون تكليفا رسميا يعطيه الشرعية فى هجومه على الهنود ، فوافق له الحاكم فى النهاية تحت ضغط شديد ، الا أنه ، بعد تحرك بيكون ومحاربيه من الهنود ، عاد بيركلي واعتبره متمردا ، وجمع أكبر عدد مستطاع من مؤيديه وحاول مطاردته • ثم قضى بيركلي وبيكون بقية الصيف ، ومع كل منهما عدة مئات من الأنصار ، يناور الواحد منهما الآخر ، ويبحث عن مؤيدين جدد ، ويضرب مؤخرة قوات الآخر فى معارك شبه حربية ، كما يقدح فكره كيف يوقف هذه السلسلة من الأحداث التى بدأت بعدم الاتفاق على السياسة الهندية • وكان الوقت فى جانب بيركلي ، لأنه بمجرد سحق الهنود فى احـــدى المرات ، تملك القلق متمردى فرجينيا من العودة الى مقـــارهم الرئيسية ، فضلا عن أن تقارير بيركلي عن التمرد ، الى انجلترا ، جاءت ببرقية تفيد بأن ألفا من القوات الملكية فى طريقها الى فرجينيا ، ومعها

لجنة تحقيق ملكية فى يناير ١٦٧٧ ، الا أن ناتانيال بيكون توفى فى ذلك الوقت بحمى المستنقعات ، وذاب أنصاره فى منطقة الحدود ٠

ومع أن الفرجينيين ، الذين اتبعوا بيكون كانوا مستائين من الضرائب العالية ، والمحسوبية فى الحكومة ، وتمتع بيركلي وأصحابه بقبضة قوية على السلطة والمنافع ، كانت سياسة الحاكم الهندية ، الوقائية ، قبل أول اراقة للدماء ، وسياسته المسالمة بعد ذلك ، هى الدافع لأقوى عصيان مسلح ٠ وكانت الحاجة الى حرب ابادة على يد الرجال الذين لم يعودوا يخشون فى سبعينات القرن السابع عشر من السكان الهنود ، الذين تقلص عددهم بالمرض والحروب المتقطعة فى عشرات السنين السابقة ٠ كان السلام مفيدا ، مدة ثلاثة عقود ، لأن فرجينيا كان بها أكثر قليلا من ٨٠٠٠ مستوطن ، بينما كانت الاتفاقية التى تم بموجبها اقصاء كل الهنود من الأرض الواقعة جنوب نهر يورك ، تسمح بمجال كبير للتوسع ٠ لكن سكان فرجينيا ، قد تضاعفوا أربع مرات ، فى الثلاثين سنة التى جاءت فى الوسط ، بينما ازداد الهنود ضعفا ، اذ لم يكن الفرجينيون على الحدود يطلبون السلام وانما الحرب فقط ٠

أدرك المحققون فى اللجنة الملكية ، هذه العقلية الميالة الى الابادة الجماعية للشعوب ، بعد وصولها الى فرجينيا بقليل ٠ وفى رسالة الى مجلس نواب المدن الانجليزية ، الذى كان يناقش معاهدة سلام مع الهنود المتبقين ، استنكر المحققون « ذلك النوع من الرجال المتهورين ، الذين لا يراعون حقوق الغير ومشاعرهم ، ويطرون صيحة الحرب بشدة وطيش ، وبلا سبب ، ويبدون وكأنهم يرغبون ويهدفون الى اقتلاع شامل للهنود من جذورهم » ، واعتبرت اللجنة أن نقض بيكون وأتباعه للعهد ، ومجاهرتهم بتدمير واستئصال أولئك الهنود المسالمين ، الذين هم أبعد ما يكونون عن ايذاء أنفسهم أو ايذائنا ، لدرجة أننا يجب أن نعترف بأنهم أفضل حراس لتأميننا على الحدود من غزوات الهنود البرابرة الآخرين ، ومذابحهم المفاجئة٠٠٠» (١٥) ٠ انما ذلك (النقض من بيكون) جمود دنىء للمعروف ، وخبل مذهل ، وقبيح بدرجة لا توصف ، بل هو الجنون المطبق » ، وحينما وقعت اتفاقية للسلام فى مايو ١٦٧٧ ، أعطى أحد بنودها دليلا اضافيا على أن الفرجينيين على الحدود ، قد اعتبروا الهنود مجرد عقبات غير مؤثرة ، تقف فى طريقهم ، كما أشارت المادة الرابعة ، بشكل خاص الى التعديات الصارخة من الخطافين الانجليز لأراضيهم [أى الهنود] ، ودفعهم الهنود الى القضاء على قطعان ماشية الانجليز وخنازيرهم ، من باب الانتقام » (١٦) ٠ وهكذا أدرك الفرجينيون أن

السبب الأكبر للتمرد هو ضربات الهنود الموجعة ، فى هجمات انتقامية أمكن اتخاذها عندئذ سببا لشن حرب الابادة لهم ٠

ولكن القول بأن بيكون وأتباعه « أطروا صيحة الحرب اطراء شديدا بدون سبب » فيسيء فهم حقيقة أساسية فى توجهات البيض نحو القبائل الساحلية فى الربع الأخير من القرن السابع عشر ٠ ان البيكونيين قد قدروا بدقة ، أهمية محاربة الهنود ولم يخفوا اقتناعهم بأنهم سيكسبون كل شيء فى أى نزاع متوقع مع القبائل الصديقة وغير الصديقة على السواء ، فلابد أن يموت بعض رجال الحدود وهم يهاجمون الهنود ، ويقتل البعض الآخر فى قتالهم مع قوات بيركلى ، كما أسر ثلاثة وعشرون وأعدموا للخيانة العظمى ٠ الا أن المزايا التى جنوها من الحرب كانت مهمة بالنسبة لمن بقى منهم أحياء ، حيث كتب أحد المؤرخين يقول : « كانت للتمرد آثاره المدمرة ، وبعد تاريخهم الطويل فى الحرب والهزيمة ، وجد هنود أراضى المد وسفوح الجبال صعوبة متزايدة فى الحفاظ على عاداتهم المعيشية » (١٧)٠ ففى الواقع ، تناقصت الآلات القليلة المتبقية من هنود فرجينيا بدرجة تدعو للرثاء ، فى شرائح صغيرة من الأرض التى خصصت لهم ، حماية من خطر المستوطنين البيض الجياع الى الأرض ، والذين لم يسمح لهم بالاستيطان على مقربة منهم بمسافة تقل عن ثلاثة أميال ٠ الا أنه لم يسمح لبقايا اتحاد بوهاتان ، أن تحيا بطريقة تساعد على نموها ، حيث انتشر التوسع فى نيوانجلند ، بدون منازع ، فى الواقع ، حتى بلغ الحدود الاقليمية للقبائل الداخلية الأقوى ٠

ان المغزى وراء تمرد بيكون ، وأهميته بالنسبة للعلاقة بين الأجناس أنها أثبتت أنه حتى أعلى مستويات السلطة فى أية مستعمرة انجليزية ، لم تستطع أن تمنع هجمات المستوطنين البيض لاستئصال شأفة الهنود ، رغم أنها مخصصة لحفظ السلام بين المجتمعين (الأوروبى والهندى) ٠ وكان بيركلى يمثل سلطة الملك فى فرجينيا ، ولكنه لم يستطع أن يفعل شيئا يذكر للسيطرة على من اعتبروا الهنود عائقا أمام التوسع فى الأرض على حدود فرجينيا ٠ وبعد سنة ١٦٧٥ قام مجلس نواب المدن ــ وهو يعكس مصالح المزارعين المحليين ، بسحب سلطة الحاكم فى عدم السماح بصكوك ملكية الأراضى للأفراد ، تلك السلطة التى مارسها الحاكم منذ سنة ١٦٦٦ كى يمنع المستوطنين من الاستيلاء على الأراضى الملاصقة للمستوطنات الهندية ، وبعد ذلك أصبح من السهل اكراه الهنود بالتهديد ، ليبيعوا أراضيهم الموجودة فى مستوطنة البيض ٠ وكما كتب وزير فرجينيا سنة ١٦٧٨ : « كان الانجليز ، فى العادة ، اما أن يخوفهم أو يخدعهم فى المساومة ، وفى نظير التافه من المال يسحب الأرض منهم ٠٠٠ ثم يأتى

هو ، ويوطن نفسه فيها ، ويدمر بقطعان ماشيته وخنازيره كل محاصيل هنود المدينة الآخرين ... وكان ذلك أحد الأسباب المهمة لهذه الحرب الأخيرة ، وهؤلاء الذين دخلوا عنوة ، وكانوا بالتالى السبب الرئيسى لها وكانوا رغم ذلك ، ضمن السباقين ، فى مقدمة التمرد والعصيان ، والشاكين كثيرا من الضيم » (١٨) . ولم يستطع أى حاكم ملكى أن يفعل شيئا ازاء هذه الأساليب والترتيبات . فقد انتقلت القوة فى المستعمرات الى المستوى المحلى ، مما جعل من الممكن حتى بالنسبة لأشد الحكام الاستعماريين عدالة أن يحفظ توازن العلاقة بين الحضارات المختلفة . ولربما ، لم يحاول أحد ممن تقلدوا السلطة الاصرار أكثر من وليام بيركلى ليكبح جماح الاتجاهات العدائية الميالة الى الابادة الشعبية التى عمت الانجليز المتعطشين الى الأرض على حدود تشيزابيك فى القرن السابع عشر ، لكن بيركلى شاهد مستعمرته تندفع دون توقع منه لذلك الى حرب أهلية ، احترقت فيها عاصمته وسويت بالأرض ، وتلاشت ضيعة خاصة تقدر بثمانية آلاف جنيه ، تحت هجمات أولئك الذين كانوا مستعدين لمحاربة كل من رفاقهم الانجليز ، والهنود .

ولابد أن السسكيهانوك وغيرهم من قبائل المنطقة الساحلية ، قد وعوا الدرس دون أن يخطئوه ، وحتى عندما أقروا بسلطة الأوروبيين ، واعتبروا أنفسهم تحت رعاية القانون الانجليزى ، وتحملوه ، وحتى عندما حاربوا الهنود المعادين لحكومة البيض ، لم يتوقعوا العيش فى سلام . فقد كانت السلطة ذاتها التى ربطتهم بمستعمرة فرجينيا ، فى معاهدات صداقة ودفاع مشترك ، كانت هى نفسها السلطة العاجزة عن فرض سيطرتها على رعايا البيض ، حيث قوبلت محاولاتهم للتعاون مع المجتمع الانجليزى بانكار الانجليز عليهم الحق فى الحياة الهادئة الا كسياسة مؤقته ، كما تعلموا أيضا ، أنه حتى فى حالة انقسام المجتمع الأوروبى على نفسه كما حدث فى فرجينيا سنة ١٦٧٦ ، يمكن لشراذم المجتمع الأبيض الكثيرة العدد ، والأحسن منهم تسليحا ، والتى خاضت عمليات عسكرية على جبهتين أن تتفوق عليهم وتهزمهم . كما أن هؤلاء ، وهم مبعثرون فى مدن صغيرة تمثل كل منها أجزاء صغيرة من قبيلة ، كانت ذات يوم أكبر منها الآن وأقوى ، رغم ذلك كان محكوما على قبائل الساحل بالاخفاق ، سواء اختاروا الحرب أو السلام . لقد كان ثمن البقاء أحياء فى فرجينيا أو نيوانجلند هو التضحية بالهوية القبلية المستقلة والخضوع لمدنية البيض ، كمزارعين أجراء أو عمال باليومية أو خدم بالمنازل .

وصول الكويكرز :

احتفظ هنود الحضارات الساحلية بأرضهم ، وطرق معيشتهم لأطول

فترة فيما بين نيوانجلند وتشيزابيك ، فى عشرات السنين التى أعقبت حرب ميتاكوم وبيكون ، وذلك من ناحية ، لأن عددا قليلا من الأوروبيين استوطنوا فى المنطقة خلال نصف القرن ، بينما كان سكان ماساتشوستس ، وكونيكتيكت ، وميرلاند ، وفرجينيا يزدادن بسرعة • ويساوى ذلك فى الأهمية أن الأوروبيين ، عندما وصلوا فى أعداد كبيرة جاءوا وهم مؤمنون ايمانا راسخا بفلسفة دينية تسمى « الصاحبية » ، التى تؤمن بمبدأ اللاعنف ، والعلاقات العادلة بين البشر من كافة الأجناس والأديان • وطالما كانت فلسفة مجتمع الصحاب هذه قوية ومسيطرة ، كانت العلاقة بين الأجناس فى وادى نهر ديلاوير قوية اذا قورنت بمناطق أخرى فى أمريكا الشمالية • ولكن حين ضعف التزام الكويكرز بمبدأ اللاعنف أو تلاشى ، وفقدوا السيطرة السياسية على المنطقة ، اختفت فى هدوء آخر فرصة للحكم الذاتى الهندى على امتداد السهل الساحل لأمريكا الشمالية •

بدأ الكويكرز يهاجرون الى منطقة الأطلنطى الوسطى فى منتصف السبعينات من القرن السابع عشر ، أولا الى جرسى الغربية والشرقية ، التى كانت فيما سبق جزءا من نيونيزرلاند ، ثم الى بنسلفانيا فى الثمانينات من القرن السابع عشر والتى أصبحت مركز آمال الكويكرز فى اقامة المدينة الفاضلة فى العالم الجديد • وكان الكويكرز ، مثل أبناء عمومتهم البيوريتان ، يتقدون حماسا رائعا بعقيدتهم الراسخة • وهم يشاركونهم كثيرا فى فكرهم الدينى ، لأنهم يعتبرون ، أيضا ، الكنيسة البروتستانتية الانجليزية منحرفة ، وأعلنوا ارتدادهم عن مبادئها الشكلية • ولكنهم رفعوا راية الثورة البيوريتانية باجراءات متطرفة ضد الكنيسة الانجليكانية ، وانتقدوا بشدة كل أشكال الوساطة بين العبد المؤمن وربه • وبهذا المفهوم ، كان الكويكر صوفيا باطنيا ، بشكل أساسى ، ومقتنعا بأن صلاح المؤمن لابد أن يوصله لعفو ربه ورحمته مباشرة ، دون مساعدة من قسيس أو كاهن أو طقوس دينية أو أية وسائل أخرى •

تعرض الكويكرز للاضطهاد الشديد ، فى انجلترا بعد ظهور حركتهم فى الخمسينات من القرن السابع عشر ، ولذلك بدءوا يرسمون خططهم لتأسيس مستعمرات خاصة بهم فى العالم الجديد • فأرسلوا ممثليهم الأوائل الى ماساتشوستس حيث تعرضوا للشتم والنفى والتمثيل بهم ، بل وللشنق أيضا ، لممارستهم العملية لمعتقداتهم ، ثم الى جزر الهند الغربية ، وورود أيلاند ، وتشيزابيك • ثم فى سبعينات وثمانينات القرن السابع عشر الى نيوجرسى وبنسلفانيا • وفى فترة بناء المستعمرات بعد عودة الملكية الى انجلترا سنة ١٦٦٠ أعطى صك امتياز أحدث مستعمرة الى أهم مواطن انجليزى من الكويكرز ، وهو وليام بن ، الذى عقد العزم

على جعلها مركز حركة الكويكرز فى العالم الجديد • وهو يرى أن الناس من كافة الأجناس والأديان ، وبصرف النظر عن خلفياتهم الاجتماعية القومية يمكنهم العيش معا فى سلام فى بنسلفانيا • وعلى كل حال ، فرغم عدم الترحيب بالكويكرز فى أى مكان آخر فى العالم الجديد ، وانتشار الاعتقاد بأن الحرب والعنف هى مواقف لا يمكن تجنبها لكسب المستعمرات الانجليزية فى وجود الهنود والفرنسيين والأسبان والهولنديين ، ومع ذلك ساد السلام والتآلف بين القبائل فى بنسلفانيا :

وهكذا ، عندما وصل الكويكرز الى وادى نهر ديلاوير ، لم يهددوا الهنود بأى أذى • ومع ذلك ، فان أهالى المنطقة ، وهم مجموعة غير ثابتة نسبيا ، تتكون من قبائل صغيرة كانت الديلاوير أكبرها ، لم يكن لديهم سبب قوى يجعلهم يعتقدون فى اختلاف هؤلاء الأوروبيين عن غيرهم ممن عرفوهم طوال ثلاثة أرباع قرن • فقد عاصروا ، على مر السنين ، مجىء الهولنديين والسويديين ثم الهولنديين مرة ثانية ، والانجليز فى آخر الأمر • ومن هذا التعرض لثلاث حضارات أوروبية متباينة ، تتكلم كل منها لغة مختلفة وتؤمن بصورة مختلفة من العقيدة البروتستانتية ، من ذلك كله ، تعلم الهنود التقنية الأوروبية ، وقيم الحضارة المادية • فلما وصل الكويكرز كان لدى الديلاوير خبرة واسعة بالأسلحة النارية الأوروبية والمشروبات الروحية ، أى السلعتين الرئيسيتين فى تجارة جلود السمور والقضاعة (ثعلب الماء) وجلود الغزال • وتعرضوا ــ كغيرهم من القبائل التى احتكت بالأوروبيين ــ لتناقص شديد فى عدد السكان • وقد قدرت قوة الديلاوير بألف فرد قبيل وصول الكويكرز • لعل هذا العدد يقل عن نصف ما كانوا عليه قبل وباء الجدرى الذى أصاب القبيلة ثلاث مرات ما بين سنتى ١٦٢٠ ، ١٦٧٠ •

وطبقا لأحدث تأريخ للديلاوير ، كانت الغلبة الانجليزية على وادى نهر ديلاوير فى ستينات القرن السابع عشر أشد تهديدا للديلاوير من الوجود السابق للهنولديين والسويديين (١٩) • ولعل السبب فى ذلك ، أن مجىء الانجليز قد جلب معه تحت الأنظار ، مستوطنين جددا ، ممن لا أرض لهم ، والذين بدءوا يضغطون بشكل غير مقبول لامتلاك الأرض • الا أن أعمال العنف والطرد من الأرض بالجملة كالذى حدث فى شمال وجنوب وادى نهر ديلاوير لم يكن أحد مظاهر الاحتكاك بين الأوروبيين والديلاوير • فهم الآن على شفا تجربة نوع جديد تماما للوجود الأوروبى ، حيث بدأ عهد جديد بوصول وليام بن وجمعية الصحاب سنة ١٦٨١ •

كان الكويكرز الذين هاجروا الى مستعمرة بن Penn الجديدة من المزارعين أساسا ، بمعنى أنهم اهتموا كغيرهم من المستعمرين بحيازة

المساحة الملائمة لأغراضهم من الأرض ٠ كما أنهم لم يختلفوا عن رفاقهم المواطنين فى التماس النجاح المادى ٠ وكان الكويكرز مثل البيوريتان ، قد تم تجنيدهم فى انجلترا من طبقة المجتمع المتوسطة الناشئة ، ونظرا لما شاع عنهم من نجاح مشهود فى بنسلفانيا على مدى الأجيال القليلة التى تلت ، كان الحافز الاقتصادى يجرى فى عروقهم بنفس القوة لدى غيرهم فى القارة ٠ الا أنه كانت لهم رؤيتهم الفكرية أيضا ٠ فهم يعتقدون أنه بالرغم مما سـجله التاريـخ عكس ما يرونه ، فان الناس من مختلف الحضارات والمعتقدات يمكنهم أن يتعايشوا فيما بينهم فى مودة وسلام ٠ ولم يكن هذا التفاؤل عن جهالة منهم ، لأنهم كانوا يعون تماما ما حدث عند لقاء الأوروبيين مع الهنود فى أنحاء أخرى من أمريكا الشمالية ، وما تضمنه من صراعات دموية قضت تقريبا على الهنود فى أكثر منطقتين ازدحاما فى أمريكا الشمالية البريطانية ، قبل خمس سنوات فقط من استلام بن لصك ملكية بنسلفانيا ، ومع ذلك تعهدوا بمبدأ اللاعنف ، وهم راغبـون فى تجنب الصراع الذى أحـدق بالمسـتعمرات الأخرى ، ومقتنعون بامكان انجاز ما لم يسـتطعه الآخرون من خـلال « التجربة المقدسة » للكويكرز ٠

أرسى بن أساس العلاقات السلمية ، حتى قبل أن يضع قدمه فى بنسلفانيا ، حيث كتب الى الديلاوير خطابا بعث به مع مندوبيه الذين سبقوه اليها ، يقول فيه : « ان ملك القطر الذى أعيش فيه وأنعم بخيراته ، قد عهد الى بمقاطعة عظيمة فى ذلك المكان ، ولكنى أرغب فى أن أنعم بها بحبكم وموافقتكم ، لأننا يجب أن نعيش معا جيرانا وأصدقاء ٠٠٠ » (٢٠)٠ بهذا البيـان الفريد ، اعترف بن بالهنود كملاك ، لهم الحـق فى أرض الدولة ، وأشار الى أنه ، بموافقتهم فقط سيسمح للمستوطنين باقامة مزارعهم ومدنهم ، وقد كان له حق ملكية كافة الأراضى بموجب عقد الامتياز الممنوح له ٠ فيجب اذن على المستعمرين أن يبتاعوا الأرض منه ٠ ولكنه بعث بدوره بملحوظة سابقة وهى أنه لن يبيع أى أرض قبل أن يشتريها بنفسه أولا من الزعماء المحليين ٠ وعزز بن تعهده بالتزامه بكلمته بأنه لن يتسامح بعد ذلك فى المظالم التى عانى منهـا الهنود سابقا ، ووعـد بتنظيم دقيق للتجارة الهندية مع تحريم بيع الكحوليات ٠ وقد اضطر فولتير Voltaire أن يكتب مؤخرا ، رغم عدم الدقة الواضحة ، أن ذلك « كان الميثاق الوحيد بين هؤلاء الوطنيين (الهنود) والمسيحيين الذى لم يتعرض لاساءة أو نقض » (٢١) ٠

وحينما وصل المستوطنون الكويكرز ، بقيـادة ابن عم بن بدءوا مفاوضات الأرض فى الحال ، مع الديلاوير أو اللينى ليناب Lenni Lenapes

كما كانوا يسمون أنفسهم . وكان لابد أن يشك الهنود في وعود بن التي بدأت كغيرها بالتعبيرات الأوروبية عن النوايا الحسنة ، التي لم تتعد مخارج ألفاظها . الا أن الديلاوير كانوا متأثرين بلا شك بذلك المدد الوافر من السلع التجارية التي عرضت نظير الأرض على طول نهر ديلاوير شمال الموقع الذي أصبح عاصمة لفيلادلفيا.ومن هذه السلع : العقود من الصدف (الوامبم Wampum) ، والبطاطين ، وأقمشة الخيام الصوفية ، وغلايات الشاي ، والمعازق ، والفئوس ، والسكاكين ، والمرايا ، والمناشير ، والمقصات ، والمثاقب ، والملابس ، كما ضمت شراب الروم المسكر ، والبارد ، وطلقات الرصاص ، وعشرين بندقية ، مما يشير الى أنه حتى أولئك الذين أقروا اللاعنف ورغبوا في تحريم المسكرات كوسيلة لاقامة علاقات مستقرة ، لم يتحملوا الامتناع عن بيع السلع التي يرغبها الهنود بشدة .

ان مجيء بن الى مستعمرته سنة ١٦٨٢ ، أوقفه أمام الديلاوير وجها لوجه . وكان مبدأ المسالمة وليس العنف هو الذي يشغل ذهنه ، ولابد أن الديلاوير قد تبينوا ذلك من شغفه بدراسة حضارتهم ولغتهم . فقد توسع بن في تنقله في بنسلفانيا الشرقية ، يزور مستوطنات الديلاوير ، ويتعلم لغتهم مثلما فعلته تماما حفنة قليلة فقط من الانجليز في قرن ونصف قرن من الاستعمار ، ويقول فيما كتبه : « لقد جعلت مهمتي أن أفهمهم ، ويجب ألا احتاج مترجما في أية مناسبة ، ويجب أن أقول اني لا أعرف لغة في أوروبا لها كلمات أكثر من لغتهم عذوبة في النبرة والتشديد على المقاطع » (٢٢) .

ويتبقى عامل آخر ، أدى الى العلاقات السلمية ، وهو غياب التجارة الهندية الواسعة . فقد تركزت تجارة الفراء شمال بنسلفانيا ، وبالرغم من الجهود التي بذلها بن لتحويل التجارة الداخلية لتمر عبر فيلادلفيا بدلا من ألباني ونيويورك ، نجده يفشل في ذلك للغاية ، وخيب ذلك آمال بن ، والتجار الكويكرز ، ولو أن ذلك قد حد ، على المدى الطويل من الاتصالات بين البنسلفانيين والهنود ، وبالتالي قلل فرص سوء التفاهم والأعمال العدائية . كما أن توقيت وصول الكويكرز جعل التجارة مع الهنود الأبعدين غربا مستحيلة ، حتى انتهى أول جيل في المستوطنة تماما . وازدهرت تجارة الفراء في وادي ديلاوير بين السسكيهانوك الذين يصطادون في المناطق الداخلية من خليج ديلاوير والتجار الهولنديين والسويديين الذين أقاموا بالمنطقة منذ العشرينات من القرن السابع عشر . ولكن ضعف السسكيهانوك ، نتيجة التنافس والتقاتل مع الايروكوا جهة الشمال ، ثم قبيل مجيء الكويكرز بالحروب مع الميريلانديين والفرجينيين

خلال تمرد بيكون • وبعد ذلك هاجرت بقايا القبيلة جهة الشمال حيث وضعوا أنفسهم تحت حماية أعدائهم السابقين من الايروكوا • مما أدى الى ترك بنسلفانيا الشرقية تسكنها قبائل محلية صغيرة فقط ، حتى ان موظفا حكوميا بارزا ، لاحظ سنة ١٧٠٢ أن مستعمرة بن كانت تبدو « خالية من الهنود تماما » (٢٣) •

وطالما كان نفوذ بن وتأثيره قويا فى مستعمرته ، ساد الوئام العلاقات الهندية بصفة عامة ، يساعد على ذلك ، من جهة ، غياب المنافسة على الأرض ، وضآلة تجارة الفراء • وأقام فى مستعمرته ما بين سنتى ١٦٨٢ ، ١٦٨٣ ، وما بين ١٦٩٩ ، ١٧٠٠ ، ولكنه لم يرجع اليها بعد زيارته الثانية أبدا • فقد مرت عليه اثنتا عشرة سنة أصابته خلالها عدة ضربات ، أعجزته ، كما لم يمارس أى دور تقريبا فى مستعمرته خلال السنوات الست الأخيرة من حياته • وتزامن مع أفول نجمه تطوران ، دفعا بالعلاقات الهندية فى بنسلفانيا فى نفس الاتجاه الذى سلكه الهنود فى المستعمرات الأخرى ، وهما : ظهور التجارة الهندية ، ومجىء موجات المستوطنين الأوروبيين المتعطشين الى الأرض •

ومما يثير السخرية ، أن سياسة الكويكرز فى التسامح مع جميع الجماعات الدينية والعرقية ، قد جذبت الى بنسلفانيا فى أوائل القرن الثامن عشر نفس الجماعات الأوروبية التى قوض تعطشها الى الأرض وازدراؤها للهنود تجاه الكويكرز الى الثقة فى الأهالى الوطنيين ومحبتهم • فقد جاءت أول مجموعة من هؤلاء ، سنتى ١٧١٠ ، ١٧١١ وهم المينونايت السويسريون Swiss Mennonites الذين استقروا عند أحد روافد نهر السسكيهانوك على بعد ستين ميلا الى الداخل من فيلادلفيا • وفى سنة ١٧١٧ ، وصلت مجموعة أكبر منها من البروتستانت الألمان فى أول تدفق للمهاجرين البلاتينيين (*) ، الذين بلغت نسبتهم ٤٠٪ من سكان المستعمرة فى منتصف القرن الثامن عشر • وفى السنة التالية بدأت موجة أخرى تدفق معها عدد كبير من الايرلنديين من أصل اسكتلندى ، الذين بدءوا يستقرون قرب بتسبرج الحالية • ولم تشارك جماعة من هذه الجماعات فى فكرة الكويكرز المثالية حول التعايش المنسجم بين الجنسيات المختلفة • فقد ساقهم من أوطانهم الكساد الاقتصادى المزمن ، ولم يكن يهمهم سوى اقامة حياة جديدة تتركز حول فلح الأرض فى المناطق النائية من مستعمرة بن ، والحصول على أرض بشكل معقول ، والعيش فى مستعمرة يكونون

(*) البلاتينيون هم أبناء البلاتينايت (Palatinate) ، وهما مقاطعتان ألمانيتان ، كان يحكم كلا منهما ، فى عهد الامبراطورية الرومانية المقدسة ، أمير اقطاعى ذو امتيازات ملكية فى مقاطعته ـ (المترجم) •

فيها أحرارا في ممارسة دينهم ، ولكنهم لم يكونوا مستعدين لمواءمة أنفسهم للعيش مع القبائل المحلية ، خاصة اذا ما رغب سماسرة الأراضي وموظفو الحكومة في التعاون معهم لطرد الهنود من أراضيهم ٠

ومن سخرية الأقدار أيضا ، أن كثيرا من الهولنديين الذين هاجروا هربا من الظلم الأوروبى ، كان عليهم أن يواجهوا ، كذلك ، لاجئين جددا هاربين من الظلم ٠ ففى أواخر القرن السابع عشر ، والنصف الأول من الثامن عشر ، أصبحت وديان بنسلفانيا التى تشرب من نهر سسكيهانا ملاذا لعدد من القبائل التى هاجرت داخليا من الجنوب والغرب ، بعدما سمعت عن السياسة الكريمة للكويكرز مع الهنود ، والتى اعتقدوا أنها ستقدم لهم فرصة بعيدا عن المواقف الميئسة التى وجدوا أنفسهم فيها نتيجة الاحتكاك بالمجتمع الأوروبى ، فجاء النانتيكوك ، والكونوى Conoys من ميريلاند ، هاربين من الحرب والاسترقاق الذى هبط بأفراد قبائلهم الى العشر ، عدة عقود من السنين ، وهو ما أخبر به أحد المتحدثين الهنود ، حكومة بنسلفانيا بقوله : « ان سكان ميريلاند لايعاملون الهنود كما تفعلون أنتم مع الآخرين ، لأنهم يستعبدونهم ، ويبيعون أطفالهم جريا وراء المال » (٢٤) ٠ كما أتى التوسكارورا ، والتوتيلو Totelos من فرجينيا وكارولينا الشمالية ، لأسباب مشابهة ٠ وجاء من الجنوب الغربى ، الميامى Miamis ، والشاونى Shawness الذين عاشوا من قبل ، فى وادى أوهايو ، وتاجروا مع الفرنسيين ٠ وهكذا ، تقدم عدد ضخم من الهنود باطراد تدريجى الى منطقة بنسلفانيا الوسطى فى الثلث الأخير من القرن السابع عشر ٠ وكان الأمر بالنسبة للأوروبيين الذين وصلوا فى أوائل القرن الثامن عشر ضربة حظ غير متوقعة ، حيث سهل الهنود الاستيطان الأوروبى المتأخر بتنظيف الأرض لزراعة المحاصيل ، واقامة مواقع القرى بالقرب من وسائل نقل المياه ، وتمهيد ممرات ومسالك فى الأماكن الوعرة أو غير الآهلة لاستخدامها للصيد ٠ فلما وصل البنسلفانيون الجدد ، جنوا ثمار هذا العمل التمهيدى ، باستخدامهم الطرق الهندية للتقدم نحو الغرب ، واحتلالهم مواقع المدن الهندية ، واستيلائهم على الحقول النظيفة المعدة للزراعة ٠

تدهور الوئام فى بنسلفانيا :

انتبه شعب الديلاوير ، وغيرهم من اللاجئين الهنود الى تدهور وضعهم مباشرة ، بعد موت وليام بن فى انجلترا ٠ وبعثوا بشكاوى مريرة الى حكومة فيلادلفيا بأن المستوطنين الجدد يبنون سدودا للطواحين فى اتجاه مجرى النهر ، وبالتالى ، يصدون السمك عن الصعود الى أعلى النهر

لوضع البيض وتفريخه . وكان المستوطنون يتدفقون ، ويضعون أيديهم بدون وجه حق على الأرض التى لم تكن قد اشترتها الحكومة بعد . وأخذوا يوزعون المشروبات الروحية ، بحرية تامة ، وبأساليب الخداع والمكر للهنود أثناء مساومتهم ، وأصبح الارهاب الصريح هو الأداة المستعملة فى سياسة البيض الخاصة بالأرض ، حيث كان يسود انصاف الكويكرز وعدلهم ذات يوم . الا أن القبائل فضلت الجلاء عن أراضيها بدلا من الحرب ، وهى تعلم ما حدث عند اللجوء الى العنف فى فرجينيا ونيوانجلند ، فهاجر الفرع الرئيسى من الديلاوير سنة ١٧٢٤ الى الغرب ، فاستقر جزء منهم قرب حدود مستعمرة البيض ، ولكن البعض الآخر ابتعدوا الى نهر أوهايو ، كل ذلك وهم مشحونون بالسخط والامتعاض . وبعد ذلك بجيل ، عندما تحالفوا مع الفرنسيين وهاجموا الانجليز ، حلفاءهم السابقين ، كان لابد أن يجنى البنسلفانيون ثمرة غرسهم السابق . وقد كتب أحد أشخاصهم البارزين عن عملية طردهم قائلا : « هذا الشعب المسكين ، قد تعرض للازعاج والتشتت ... ولما وجدوا أنهم لن يتمكنوا من جنى محصول الحبوب اللازمة لخبزهم ، انتقلوا بهدوء الى نهر سسكيهانا ، رغم تذمرهم من سوء المعاملة ... ، وقد كانت لديهم بالتأكيد ، نفس أسباب التذمر ، مثل كافة الهنود الآخرين فى هذه القارة كأساس لحروبهم التى شنوها بصورة فظيعة فى بعض الأماكن ، ليدمروا السكان الأوروبيين » (٢٥) .

ثم أتى التطور فى تجارة الفراء فى بنسلفانيا بالتغير الثانى الذى دمر سياسة بن الهندية ، فقد كان يأمل فى تجارة الفراء منذ البداية ، وذاق حلاوة احتكارها . لكن تجارة الفراء التى سيطر عليها الايروكوا كانت فى القبضة القوية لتجار نيويورك . وفى السنوات الأولى من القرن الثامن عشر ، على كل حال ، خاب أمل الايروكوا على يد شركائهم التجار من الهولنديين والانجليز فى ألبانى ونيوريوك . ولما اشتكوا من ارتفاع أسعار البضائع وسوء معاملة التجار ، اقترحوا على حكومة بنسلفانيا امكانية تحويل تجارتهم من فراء الغرب الى نهر سسكيهانا الذى له منابعه فى قلب أراضى الايروكوا ، ومن هناك تنتشر على طول نهر شويلكيل Schuylkill الى فلادلفيا . وجرت اتصالات تجارية أخرى مع قبيلة الشاونى الذين هاجروا شرقا من أقاصى الغرب ، ولكنهم أبقوا على علاقاتهم التجارية مع صائدى الحيوانات من الهنود فى وادى أوهايو ، وحصل تجار بنسلفانيا أخيرا على وسيلة لربط أسواق الأوروبيين والوطنيين معا .

جيمس لوجان :

ارتبطت تجارة الفـــراء بالمنافسة على الأرض ارتبـــاطا معقدا فى بنسلفانيا كما فى غيرها من المستعمرات • ويسهل ادراك ذلك جيدا اذا نظـرنا الى تلك الشخصية التى انهمكت للغـــاية ، فى كل من مســائل الأرض والتجارة الهندية فى مستعمرة الكويكرز ــ ألا وهو جيمس لوجان، وهو ايرلنـــدى ــ اسكتلندى المولد ، استسلم فى ضعف للكويكرز ، وبعث به بن الى بنسلفانيا سنة ١٦٩٩ عندما رأى فى هذا الشاب تألقـا فى الذكاء ، وحماسا فى العمل ، يرشـــحانه ليكون أمين سره الخاص ، ولم يكن مخطئا فى رؤيته لما وراء لوجان من امكانات • فقد كان لوجان تواقا طوال حياته لدراسة الكلاسيكيات (أدب الاغـريق والرومان) ، واللغات الأوروبية والفلسفة ، والتاريخ والعلوم • فكان لابد أن يصبح مشهورا ، ان عاجلا أو آجلا فى المستعمرات ، كواحد من عمالقة الثقافة والفكر ــ ومثالا براقا للأوروبى الغربى ، المتعدد الجوانب ، والموجـه الرئيسى لتقـــدم المدنية فى منطقـة الحدود ، وكانت مكتبته الخاصـة لاتضاهيها مكتبة فى أمريكا فى فترة ما قبل الثورة ، وتعادل اسهاماته فى الثقافة الاستعمارية قبل سنة ١٧٥٠ اسـهامات أى أوروبى آخر فى القارة ، ومع ذلك كان لوجان ميالا الى الثروة والنفوذ • وقد حقق كليهما بالفعل • وبوصوله كسكرتير لبن ، جمع لوجـــان سلسلة مذهلة من الوظائف ، منها وكيل الأملاك الخاصة ، وعضو مجلس الشورى ، ورئيس المحكمة العليا ، ووزير المقاطعة ، وأمين صندوق ريع الأملاك ، والوصى على ضيعة بن بعد وفاته ، ونتيجة لشغله كل هذه الوظائف أصبح ذا خطر فى سياسة بنسلفانيـا فى العقود الثلاثة الأولى من القرن الثامن عشر ، كما أصبح ، تلقائيا ، واحدا من أغنى أغنيـاء المستعمرة بوصفه تاجـرا ومضاربا فى عمليات صائدى حيوانات الفراء الفرنسيين الذين أعطتهـم خبرتهم مدى الحياة فى تجارتهم الهندية أهمية لا غنى عنها ، فكان يستورد كميات من السلع من انجلترا ثم يوظف نفوذه الســـياسى ، والتنفيذى المتعدد الجوانب ، مع الرشوة لتسهيل ربحه ، وقد كتب فى ذلك أحد المؤرخين للتجارة الهندية فى بنسلفانيا فقال :

> **فى التجارة الهندية ، لقى لوجان ، التاجر ، مساعدة عظيمة فى أسواقه ونظامه فى التسويق بواسطة لوجان وكيل الأملاك الخاصة ، ولوجان وزير المقاطعة ، ولوجان وكيل عائلة «بن» • فعندما لايرغب لوجان التاجر فى المخاطرة بماله الخاص فى أعماله الخاصـــة ، كان لابد ان يقوم لوجان وكيل الأملاك باقراض التاجر ، من مال المقاطعـــة ••• وعنـــدما اثبت**

التاجر عدم استفادته ، استطاع لوجان وكيل الأملاك والزعيم السياسى أن يرتب فى هدوء مع حليفة الوثوق فيه ، كبير المساحين ليخصص قطعة أرض للتاجر ليتخذها قاعدة لعملياته (٢٦) ٠

هذا فضلا عن أنه قد باشر ، بصفته وزير المقاطعة ، المفاوضات الدبلوماسية مع الهنود ، وكان بامكانه استخدام تجاره رسلا عنه ومترجمين ، وهى سياسة عززت هيبة التجار مع الهنود مما أعطاهم سببا آخر لاحترام نفوذ لوجان التاجر ، وظلت تتراكم مزايا أخرى كثيرة نتيجة قدرته على أن يكون شبكة معلوماته التجارية عن أفضل الأماكن خصوبة وأفضلها موقعا فى الريف الداخلى ٠ وكان الهنود خبراء مهرة بالزراعة ، ومؤتلفين مع المناطق الخلفية التى تمد المدن بالمؤن وغيرها ٠ ولذلك كانوا ينتقون بحكمة ، ما يزرعونه فى قراهم ٠ وقد خصص لوجان أراضى المقاطعة للتجار فى أقرب المواقع الممكنة من هؤلاء الهنود ، وعقد صفقات كبيرة بنفسه ، ثم بدأ يوجه الوافدين من السويسريين ، والألمان ، والاسكتلنديين / الايرلنديين الى هذه المناطق ٠ وبازدياد عدد المستوطنين البيض ، ازدادت قيمة ممتلكات لوجان من الأراضى ٠ وفى نفس الوقت ، فان اتلاف محاصيل الهنود غير المحمية بالأسوار بواسطة ماشية وخنازير الأوروبيين خلق المشاكل أمام الزراعة الهندية مرارا وتكرارا ، « وكان جوهر (هذه) الأنشطة ضد الهنود هو جرهم ناحية منطقة السسكيهانا وراء التجارة ، ثم دفعهم الى أبعد من ذلك جهة الغرب ، مع افساد اتجاههم الاقتصادى وصرفهم عن الزراعة المستقرة ، والمبالغة فى أهمية الصيد وحياة البداوة والترحل » (٢٧) ٠

فى الربع الثانى من القرن الثامن عشر ، تم تفريغ بنسلفانيا الشرقية من سكانها الهنود ، كما أن أراضى الديلاوير التى امتنع الحصول عليها عن طريق تجارة الفراء أو التنازل للملاك البيض خاصة الدائنين المجاورين لقرى الديلاوير أمكن الحصول عليها بالتواطؤ مع غيرهم من الهنود ، وهم فى هذه الحال ، الايروكوا الذين اتجه اليهم البنسلفانيون ليساعدوهم فى طرد آخر القبائل المحلية ، حيث كان جيمس لوجان أول من طلب من حكومة المقاطعة عقد حلف مع الايروكوا الذين يفرض اتحادهم الشمالى القوى سلطانه على كل القبائل الهندية الصغيرة التى تقطن بنسلفانيا ٠ وكان هدف التحالف ، طبقا لحسابات البيض هو تحقيق السلام بين الأجناس المختلفة وهو ما لا يمكن الحصول عليه الا اذا تولت الشعوب الهندية الأقوى مسئولية ادارة شئون الجماعات الهندية الأصغر منها ٠ ولكن الغرض الحقيقى من الحلف هو طرد الديلاوير من مواطنهم دون

اللجوء الى القوة • وهكذا اضطرت عشيرة من الديلاوير سنة ١٧٣٢ الى التخلي عن أرضها في تولبهوكين Tulpehocken على بعد حوالى ٦ أميال من فيلادلفيا ، والهجرة أعالى نهر سسكيهانا الى شاموكن Shamokin ، حيث عاشوا تحت مراقبة واشراف زعيم ضعيف للايروكوا •

وبعد عشر سنين ، تمت عملية طرد الديلاوير في مؤتمر بفيلادلفيا ، وكان موضوع القضية هو الأرض الواقعة بين نهرى ليهاى Lehigh وديلاوير والمعروفة « بمقرن أو ملتقى الديلاوير » • وفى سنة ١٧٣٥ ، أبرز لوجان صك نقل ملكية قديم ادعى بأنه موقع سنة ١٦٨٦ ، وأن أسلاف زعماء الديلاوير الحاليين قد تخلوا بموجبه عن هذه الأرض الى وليام بن • ولكن نظرا لعجز لوجان عن اظهار النسخة الأصلية ، ولنقص مراجع نقل الملكية في سجلات الأراضى فى فيلادلفيا ، والنقل الشفوى لتقاليد الهنود وانتقال ملكية الأرض بينهم من جيل الى جيل ، بدقة يندر أن يصيبها الخطأ ، كل ذلك يشير الى ما انتهى اليه البنسلفانيون وهو اقتناعهم التام بأن لديهم سندهم فى اجبار الديلاوير على ما لم يستطيعوا الحصول عليه بالاتفاق ، واحتج زعيما الديلاوير نوتيموس Nutimus , وتيشيكونك Tishecunk بأنه لو كان أسلافهم باعوا الأرض فلابد أن يكون لديهم علم أكيد بذلك ، وجادلهم لوجان فى ذلك بأنهم كانوا فى ذلك الوقت « عيالا صغارا» • وتهمنا هنا ، رؤية نوتيموس لنظامين من القيم واجه كل منهما الآخر ، كما يكشف عن الأسلوب الهندى فى تسجيل التاريخ • فقد رد نوتيموس « بأنه أخذه عن والده » :

> ومع ذلك ، كان يمكنه أن يعرف ، من الأسلوب الهندى المعروف فى بيع الأرض ، لأن الهنود يملكون أرضا تحدها المرتفعات ونهر كريك وروافده • وكان الزعيم ، ومعه دائما تفويض من الآخرين بالبيع يجمع رؤوس العائلات التى لها حق ، أيا كان ، فى الأرض ، فيبيع ، ويقسم بينهم ما حصل عليه نظير الأرض مع اخبارهم عن سبب تسلمه لهذه السلع ، وبعد ذلك يوزع رؤساء العائلات حصتهم بين شباب الأسرة ، ويخبرونهم بعملية البيع ، وهكذا ، لابد أن يعلم بالأمر ، تماما ، كل فرد له أى حق كان•وفضلا عن ذلك،كلما حدث بيع،يدعو الزعيم الذى باع ، زعماء القبائل المجاورة بصفتهم أصدقاء ، ليس لهم حق ، وذلك ليشهدوا على البيع ، ويعطيهم نصيبا من السلع ليتذكروا به واقعة البيع • وهذا ما نظنه افضل طريقة ليعرف الكل بما حدث • لأنك عندما تأخذ عقدا منا فانك تغلق عليه

خزانتك ، فلا يعرف احد ماذا اشتريت ، وكم دفعت فيه ، وعندما تبيع بعد ذلك أرضنا قطعا صغيرة مقابل مبالغ طائلة تستطيع أن تبنى ... منازل ترتفع الى عنان السماء بينما نتسول منك القليل لأنفسنا ، وبتوزيعه بيننا وبين أصدقائنا نضطر أن نسكن فى الأوغام ، ومع ذلك ، لم ندع بأى حق على أرض بعناها صراحة ، ونحن نعلم ألا حق لنا فى ذلك (٢٨)

وبالرغم من اعتراض زعماء الديلاوير على شرعيـة هذه الصـكوك ، لاقوا معارضة موحدة من البنسلفانيين والايروكوا • وفى النهاية وقعوا على تصديق لوثيقة سنة ١٦٨٦ المدعاة ، وذلك انحنـاء منهم للتهديدات المستترة بأن المقاومة لن تؤدى الا الى صراعات يتلوها عنف تتسبب فى تآكلهم وانقراضهم • وبعد ذلك بعامين ، فى سنة ١٧٣٧ كانت أهداف الوثيقة الهندية أن « يتم نهبهم » بغير حق ، بناء على الصك المزعوم الذى يمنح بن كل الأراضى الممتدة من نقطـة محددة فى مقاطعـة بكس Bucks County غربا الى أقصى ما يستطيع رجل أن يصل اليه فى مسيرة يوم ونصف • وكانت هذه المسيرة نفسها فرصة أخرى للاحتيال على الهنود وسلب حقوقهم • فقد وصل حديثا اثنان من أبناء وليام بن الى بنسلفانيا لتعزيز ملكياتهما بسبب تدهور أسعارها أثناء بيع الأراضى ، وشاركا شخصيا فى التخطيط لارسال فرق كشفية سرية داخل الغابات لتمهيد الممرات الوعرة وذلك بحرق الأشجار أو وضع علامات عليها بقطع أجزاء من لحائها ، لتسهيل عبور الجوالين فى هذه الأرض بأسرع ما يمكن• وباستخدام ثلاثة من الجوالة المدربين تدريبا خاصا لتتبع هذه الممرات المعلمة ، استطاع ابنا « بن » أن يمدا ادعاءهما فى أراضى الديلاوير الى ٦٠ ميلا تقريبا أبعد من الحدود التى عناها زعماء الديلاوير •

وفى ظل هذه الظروف ، أصبح ١٢٠٠ ميل مربع ، تقريبا فى أيدى آل بن ، بينما تم تجنيب عشرة أميـال مربعة عن طيـب نفس كأراضى المحميات تخصص لاستعمال الهنود • ولكن نوتيموس وغيره من زعماء الديلاوير رفضوا الرحيل عن أراضيهم بعد أن ملأهم مرارة هذا الدليل الأخير على خداع البيض وخستهم • وبدأ مئات من المستوطنين يتدفقون الى القطع الصغيرة من الأرض ، التى باعها آل بن ولوجان ، الذين دفعتهم بصيرتهم النافذة الى عقد صفقات كبيرة فى المنطقة • وكان حل الصراع المتوقع هو دفع الايروكوا لطرد الديلاوير ، حيث أشار حاكم بنسلفانيا سنة ١٧٤١ بقوله : « نحن نتوقع منكم الآن ، أن تضطروا هؤلاء الهنود الى الرحيـل عن أرض ملتقى الديلاوير ، وألا تسمحوا بـأى ازعـاج لمن يملكونها الآن » (٢٩) •

تجمع ممثلو الايروكوا ، بعد ذلك بعام ، فى فيلادلفيـا ، للوفاء بتعهدهم ، وفى مجلس كبير حضره زعماء الديلاوير وزعمـاء الايروكوا والمسئولون فى حكومة بنسلفانيا ، أومأ المتحدث الايروكوى الى حقيقة أساســية فى علاقات الهندى والأبيض وهى : أنه بينما يملك بعض المستعمرين الانجليز القدرة على خـداع الشعوب الوطنية وسلبهـا ، أو قهرهم ، بدون مساعدة ، فانهم يعتمدون على العداوة بين القبائل ونهم الهنود الى البضائع الأوروبية ، وذلك للحصـول على مساندة القبائل القوية فى الصراع ضـد القبائل الضعيفة • وفى هذا يعترض الخطيب الايروكوى قائلا بعنف :

أبناء العم ، انكم تستحقون أن تعلقوا من شعركم حتى تفيقوا وتعودوا الى الصواب • أنتم لاتعرفون أى أرض تقفون عليها ولا ماذا تفعلون ••• لقد رأينا بأعيننا عقد ملكية هذه الأرض ، موقعا عليه من تسعة من أسلافكم منذ أكثر من خمسين عاما ، وعقدا بالتخلى عن الملكية موقعا منذ سنوات ، ليست طويلة من بعضكم ومن زعماء يعيشون الآن بينكم ، يصل عددهم الى خمســة عشر أو يزيد ، ولكن ، كيف جرؤتم أن تأخذوا على عاتقكم بيع الأرض نهائيا ؟ لقد هزمناكم وجعلناكم نسوة • وأنتم تعــرفون أنكم نسـوة ، ولا يمكنكم بيع الأرض أبدا بأكثر مما تستطيعه النساء • ولا يناسبكم أن يكون لكم حق بيع الأرض طالما أنكم تسيئون استعمالها • وهذه الأرض التى تدعون بحقكم فيها ضيعتها شجاعتكم • لقد تزودتم بالملابس واللحم والشراب من هذه السلع التى أخذتموها فى مقابلها ، ثم تريدونها الآن مرة ثانية ، كالأطفال ، وانكم لكذلك ••• لهذه الأسباب جميعا نأمركم بالنزوح فورا ولا نسمح لكم بالتفكير فى ذلك ، انتم نسوة ، فخذوا نصيحة رجل عاقل وارحــلوا فـى الحـــال ••• قومـــوا مـــن المجلس وفكروا فيما قيل لكم (٣٠) •

بعد هذه الهبة المدمرة أو الصرخة العاصفة ، من الايروكوا ، تجرد الديلاوير من حق البيع والشراء أو تنفيذ العقود ، وظلوا عدة أجيـال يعتبرون أنفسهم تابعين للايروكوا ، ولكن الرابطة كانت تبادلية ، لأنه اذا اعترف الديلاوير بسلطة الايروكوا فى أمور الحرب والسياسة ، فان الايروكوا أيضا قد اعتبروا الديلاوير احدى « الدعامات » الجنوبيـة فى تحالفهم ، واحترموا أسلوبهم فى ادارة أراضيهم الخاصـة • والآن ، ترك الديلاوير فيلادلفيا ، وهم أذلاء ، على يد حماتهم السابقين ، وفقدوا الأمل فى الاستقلال بأمورهم الداخلية ، بينما ترك الايروكوا فيلادلفيا فى

سعادة غامرة فى قافلة من الخيول المسروقة ، والصربات المحملة بالأحذية والجوارب والقبعات والبطاطين والفئوس قصيرة اليد ، والمجارف ، وغيرها من البضائع • ورحل جيمس لوجان وملاك بنسلفانيا ومعهم عدد واف من صكوك الأرض ، يدر عليهم دخلا كبيرا لسنوات عديدة قادمة ، ولم ينس الديلاوير المنسحبون اهانات الايروكوا الساخرة منهم ، ووصفهم بأنهم نسوة وأطفال ، وظلت ترن فى آذانهم اثنتى عشرة سنة ، حيث أصبحوا ضمن أول قبائل الغرب التى تحالفت مع الفرنسيين ، ليسددوا سلسلة من الضربات المدمرة على طول حدود بنسلفانيا عند بدء الحرب بين الفرنسيين والهنود •

العلاقات بين كارولينا الجنوبية والهنود :

الى الجنوب من تشيزابيك ، تخلصت ، مجموعة أخرى من القوى العسكرية من بقايا القبائل الساحلية فى بداية القرن الثامن عشر ، ففى فترة الاستيطان الأولى فى كارولينا الجنوبية ، تم تدمير الويستو ، والسافانا ، أو بيعهم عبيدا فى خضم الصراع بين ملاك كارولينا والتجار المستقلين للسيطرة على التجارة الهندية • لقد وجه الملاك اتهاما سنة ١٦٩٥ بأن تجار الرقيق قد بسطوا نفوذهم على مجلس الحاكم « وأثاروا الحروب وأقاموا السلام مع الهنود بما يتلاءم مع مصالحهم التجارية » (٣١) • اذ أن هؤلاء الذين اعتمد عليهم الملاك كثيرا ، قد استغلوا نفوذهم لافساد السياسة الهندية لملاك الأراضى لصالحهم الشخصى • الا أنه فى أوائل القرن الثامن عشر ، وفى حركة تذكرنا بتحدى بيكون لجماعة الحاكم بيركلى التى احتكرت التجارة الهندية فى فرجينيا ، تحدت جماعة من التجار الأقل شأنا سيطرة الحاكم ومستشاريه على هذه التجارة ، مستغلين مجلس النواب كمحور ارتكاز فى محاولة تحطيم سيطرة من هم أعلى منهم على التجارة المربحة ، حتى شكا الحاكم سنة ١٧٠٧ من « الحشد الهائل من التجار الذين يعرقلون التجارة الآن بشكل مطرد ، بأساليبهم الروتينية المعروفة لمصلحتهم الخاصة » (٣٢) • ولكن ايقاف هذا الحشد الوافر لم يكن ممكنا ، اذ لم يكتفوا بارسال المزيد والمزيد من وكلائهم الهنود الى الداخل ، بل وانتزعوا السيطرة على السياسة الهندية من مجلس الحاكم ووضعوها فى أيدى مجلس النواب •

لقد كشف التجار الجدد ، عن خطط لتنظيم دقيق للتجارة ، وكان لابد أن تنتهى المعاملات المشينة كاستخدام المشروبات الروحية لتخدير الهنود لعقد اتفاقات جائرة ، وحثهم على مهاجمة القبائل الصديقة للمستعمرة ، واسترقاقهم ، ولفتوا النظر الى أن جيمس تشايلد

J. Child ، زوج ابنـــة الحاكم وشريكه فى التجارة قد حرض أخـــيرا الشيروكى على بعض أصدقائه الهنـود ، وكافأهم بسخاء عنـــدما أحضروا ١٦٠ عبدا الى سوق تشارلستون للنخاسة ، وعندما بدأت سنة ١٧٠٧ خطة الاصلاح الداعية الى « تنظيم التجارة الهندية وتأمينها للكافة » كان لابد من استخراج رخصة لكل تاجر ، واخضاع أنشطته لاشراف هيئة المندوبين الهندية ، كما لابد من توقف جميع الأساليب التى يلجأ اليها التجار لاسترقاق الهنود المسالمين ، وبيع شراب الروم ، وزيادة قيمــة الديون الهندية التى يمكن استغلالها فى جعل الهنود شبه أرقاء ٠

الى أى حد قصدت الهيئة التشريعية اصلاح التجارة الهندية ، التى كانت تدر أرباحا طائلة على من يسيطرون عليها ؟ هذا ما لم يكن معروفا بالضبط ٠ وأيا ما كانت هذه المقاصد ، لم تكن هذه الاصلاحات المقترحة ذات جدوى ٠ اذ أن نقل تنظيم التجارة الهندية من يد أعضــاء المجلس الاقليمى الى أعضاء المجلس الشعبى قد كثف من المفاسد والمظالم بدلا من تقليلها ، وزادت الغطرسة ، والخداع ، واساءة المعاملة ، فى الواقع ، فى السنوات التى أعقبت قانون الاصــلاح ســنة ١٧٠٧ ، مما فجر حــرب التوسكارورا سنة ١٧١١ ٠

حرب التوسكارورا :

كان التوسكارورا شعبا وافر العدد ، يعيش فى كارولينا الشمالية ، فى قـرى كبيرة محصنــة يجمعون فيها القنب ، ويزرعون المحاصــيل ، ويعتنون ببساتين الفاكهة ، التى زرعوها على شاطىء البحر ، جيـــلا بعد جيل ٠ وقد كانت القبائل المجاورة لهم ، والمتحالفة مع تجار فرجينيا وكارولينا الجنوبيـــة ، تغير عليهم منذ ســنوات ٠ فيسرقون أولادهم ويبيعونهم للنخاسين البيض ٠ وفى ســنة ١٧٠٩ ، شاهدوا سربا من الألمان والسويسريين بقيادة البارون جرافينريد Baron de Graffenried يغزون أراضيهم بموافقة ضمنية من الحـــكومة الاقليمية ٠ واكتشــفوا أيضا فى تجـــارتهم المحلية أنه لا يمكنهم الوثوق بعــــدالة الأوروبيين ٠ الا أنهم أدركوا الصعوبات أمام تشكيل حلف لجميع الهنود ، ولم ينسوا ما حدث لمن لجأوا الى القوة ضد المستوطنين الاستعماريين ٠ فقرروا أن الأفضل من ذلك هو النزوح شمالا الى بنسلفانيا حيث لابد أن يجدوا لهم ملاذا لدى الكويكرز فى مستعمرة بن ٠ وفى يونيـــة ١٧١٠ تقابلوا فى كونيستوجا Conestoga مع ممثلين لمجلس بنسلفانيا وحلف الايروكوا الذين كانوا يرغبون فى وضـــع أنفســـهم تحت حمايتهم ٠ وقد تبعثرت آمالهم ، على كل حال ، لأن حـــكومة بنسلفـــانيا تحايلت على التأجيـل ولم تقدم أى وعود عاجلة بتوفير مأوى لهم ٠

ولما كان يستحيل عليهم الانسحاب ، جمع التوسكاروروا أكبر عدد ممكن من القبائل المحلية التي تشكو من نفس المظالم مثل : الكورى Correes ، والبامليكو Pamlicos ، والماتاموسكيت Matamuskeets ، وغيرهم ، وهاجموا الأوروبيين المعتدين على ممتلكاتهم وحقوقهم ، وقتل في هذا الهجوم الابتدائي حوالى ١٣٠ انجليزيا وألمانيا ، وأهاج هذا الشقاق الداخلي كارولينا الشمالية ، ونظرا لقلة الكثافة السكانية بها ، نشطت في طلب المساعدة من جيرانهما من المستعمرات ، ما دامت لاتملك سوى ميليشيا مهلهلة تواجه بها المهاجمين الهنود • وقد وعدت حكومة فرجينيا بتقديم الملابس والأموال دون الرجال ، حيث لم يكن أهالى فرجينيا مستعدين للتضحية بأرواحهم دفاعا عن أهالى كارولينا الشمالية الذين كانوا ينازعونهم بعنف الحق في أراضى الحدود • لكنهم وجدوا المساعدة التي ينشدونها في كارولينا الجنوبية ، المستعدة للمعركة • ان رجال التاريخ ، عادة ما يتغنون بالثناء على حكومة كارولينا الجنوبية لمجيئها لانقاذ جيرانها الشماليين ، ولأخذها « أعباء الحرب المالية والعسكرية » على عاتقها ، على حد قول أحد المؤرخين (٣٣) • وحقيقة الأمر ، أن تجار الرقيق الهندى من كارولينا الجنوبية دخلوا النزاع ، لأنهم اشتموا في الجو ، رائحة الربح ، فقام الكولونيل جون بارنويل J. Barnwell ، وهو أحد التجار المهمين في التجارة الهندية بكارولينا الجنوبية بقيادة جيش من ٥٠٠ رجل تقريبا الى أرض التوسكاروروا ، ولم يضم هذا الجيش من البيض أكثر من ثلاثين رجلا حيث قصد الكاروليينيون الجنوبيون أن يحارب حلفاؤهم الهنود معظم المعركة عنهم وخاصة الياماسى • وكان وراء عرض المساعدة في آخر الأمر للكاروليينيين الشماليين المحاصرين فرصة هزيمة التوسكاروروا واسترقاق أعداد كبيرة منهم لبيعهم في سوق الهند الغربية • وقبل أن يصل بارنويل الى حصون التوسكاروروا ، في يناير ١٧١٢ كان العديد من الهنود في جيشه قد هربوا من الخدمة ، الا أن بقية القوة هزمت مجموعة من التوسكاروروا وأسرت منهم ثلاثين عبدا • ومما أفزع بارنويل أن حلفاءه الياماسى هربوا بغنيمتهم وعقب على ذلك بقوله : « بينما كنا ننحر بالسيوف في رقاب الرجال (التوسكاروروا) استولى جنودنا على كل العبيد بالسرقة والاحتيال ، ولم نحصل الا على فتاة واحدة » (٣٤) •

أمر بارنويل بالانتقال الى مكان آخر لتدمير المئات من منازل التوسكاروروا ، وأخذ العديد منهم أسرى ، وقد سجل في يومياته أن « الأوامر صدرت في الحال بحرقهم أحياء » (٣٥) • وحاول بارنويل بعد ذلك أن ينقض على قلعة أخرى للتوسكاروروا لولا أنه وجد قواته منهكة ، وامداداتها سيئة فاتخذت الترتيبات لعقد هدنة • ولما واجه عودته الى

كارولينا الجنوبية وليس معه سوى حفنـــة من العبيد خـــرق الهدنة ، وألم بالريف بسرعة لمزيد من الأسرى فى طريق عودته • وردا على خرقه الهدنة جدد التوسكاروورا هجماتهم وكانت دعوة للكارولينيين الجنوبيين مرة ثانية لزيادة ثرائهم بمساعدة جيرانهم • وأعلن ممثل خاص لحكومة كارولينا الشمالية وهو يستحث ارسال حملة ثانية أن « كثيرا منا يعتقدون أن المكسب العظيم (الذى) يمكن تحقيقه من العبيد هنـــاك ، الذين سيكونون بالمئات من النسوة والأطفال ، كانوا ٣ أو ٤ آلاف » (٣٦) • ولما لم يفرغ الكارولينيون الجنوبيون من الصراعات المدمرة داخل حكومة كارولينا الشمالية ، أصغوا الى نصيحة حاكمهم الذى أكد أن « ما أنجزناه فعلا (فى الحملة الأولى) ورد الفعل الذى قاموا به لايشجعنا على اعطائهم أية مساعدة أخرى ولكننا نتصرف وفقا لمبادىء أسمى من أن نأخذ البرىء بالمذنب •• » (٣٧) •

كانت الحملة الثانية ، بقيادة تاجر رقيق هنـــدى آخـــر ، يدعى جيمس مور James Moore ، وهو بحار محنك فى حملات الرق فى فلوريدا الأسبانية • فجند جيشا من ٣٣ مستعمرا أبيض ، وما يقرب من التسعمائة شيروكى وياماسى ، وكريكى وكتاوبى • بهجومهم العاصف على حصن التوسكاروورا فى نوهيروكا Nooherooka فى مارس ١٧١٣ هزموا قبيلة كارولينا الشمالية تماما ، وأحرقوا فى الحصن عدة مئات من العدو أحياء ، وأسروا ١٦٦ رجلا اعتبروهم لايصلحون عبيدا فقتلوهم ، وسيق ٣٩٢ توسكاروورى ومعظمهم من النساء والأطفـــال الى ســـوق تشارلستون للعبيد • أما خسائر المهاجمين من كارولينا الجنوبية فكانت ٥٧ بين قتيل وجريح ومفقود منهم ٢٢ من البيض و ٣٥ من الهنـــود ، وقدرت خسائر التوسكاروورا أثناء الحرب بنحو ألف تقريبا ، كما أخذ أكثر من ٧٠٠ فرد عبيدا (٣٨) • وقد هامت البقايا المبعثرة من القبيلة على غير هدى ، نحو الشمال ، فى أعقاب الحرب ، تبحث لها عن ملجأ فى حماية الايروكوا •

حرب الياماسى :

بعد سنتين من مساهمة الياماسى فى هزيمة واسترقاق أعداء الرجل الأبيض فى كارولينا الشمالية ، كانوا هم أنفسهم على رأس أكبر حركة مقاومة ضد الأوروبيين ، وأكثرها نجاحا فى تاريخ المستعمرات الجنوبية فى القرن الثامن عشر ، وذلك أن مقدرتهـــم على أن يكونوا رأس حـــربة للانتفاضة التى عمت كل الهنود ، التى لم تشـــمل الكثير من البقايـــا المتناثرة للحضارات الساحلية فقط ، بل وكذلك أقوى القبائل الداخلية وأكثرها عددا مثل الكريك ، والشوكتاو ، والشيروكى ، جعلتهم أقرب

الى محو المستعمرين البيض من أى وطنيين أمريكيين فى فترات المستعمرات · ولولا نجاح الكاروليني في آخر لحظة في كسب الشيروكي الى جانبهم ، لما نجت المستعمرة من حركة مقاومة هندية قدرها مجلس كارولينا الجنوبية بأنها ضمت خمس عشرة قبيلة وعشـيرة ، مجموع أفرادها أكثر من ۳۰٫۰۰۰ · ولقد شغف الياماسى مثل غيرهم من قبـائل الجنوب تقريبا بالارتباطات التجارية مع الانجليز ، ثم ندموا على ما سببته هذه التجارة من تبعية · وقد وصل الياماسى الى حد اليأس فى علاقتهم مع المستوطنين الانجليز ، حتى وهم يهاجمون القبائل الأضعف منهم لتزويد تجار العبيد في تشارلستون ومساعدة الكاروليني فى اخضاع التوسكارورا · لأنه عندما سارع مربو الماشية باقتحام المنطقة الساحلية جنوب تشارلستون ، فى العقد الأول من القرن الثامن عشر اضطرت حكومة كارولينا الى اصدار قانون ۱۷۰۷ « لتعيين نطاق استيطان الياماسى لمنع الأشـــخاص من مضايقتهم بقطعانهم » ، وبالرغم من سهولة اثبات أن القانون قد رسم لمساعدة الياماسى الا أن المقصد الحقيقي ، كما يتضح من عنوانه كان لعزل الهنود فى محميات ، وذلك لفتح بقية الأراضى أمام المستوطنين البيض · وبعد ذلك بسنوات ثلاث ، كانت سلطات كارولينا تقاوم أولئك المقتحمين الذين شرعوا فى احتلال الأرض فى المنطقة المحجوزة للياماسى ·

بل ان التجار الهنود أنفسهم ، الذين اعتمد عليهم الياماسى كانوا أكثر استبدادا وظلما ، لقد أصغى مندوبو الحكومة الهنود الى تقرير وراء تقرير عن « الوحشية القاسية لبعض التجـار ، والسرقات الحقيرة ، والاسترقاق غير القانونى للهنود الأحرار ، وسوء استخدام « الروم » لتسهيل الصفقات الجائرة ، والموازين المغشوشة » ، وكما أبلغ أحد التجار الهنود من فرجينيا وكيله في لندن ، سنة ۱۷۱٥ عن اغـواء النسـاء الهنديات ، اللاتى يخرج أزواجهن فى حملات لصيدة الغزال والاغارة على العبيد (۳۹) · وكان الياماسى يجبرون على صـورة من صور السخرة ابتداء من سنة ۱۷۱۱ فيما أوضحه تقرير الى أعضاء اللجنة الهندية فى تلك السنة بأنهم كانوا مدينين بكمية من الجلود تقدر بمائة ألف قطعة ، أى ما يساوى صيد أربع أو خمس سنوات · ولما بدأ تجار تشارلستون يقبضون على نساء الياماسى وأطفالهن ، لبيعهم عبيدا ، سدادا لجزء من الديون ، هنا ثار الياماسى ·

هجم الياماسى يوم الجمعة الحزينة (السابقة لعيد الفصح) الموافق ١٥ من أبريل ۱۷۱٥ ، بالتنسيق الجيد مع قبيلة الكريك الداخلية التى أسىء استغلالها فى التجارة مثلهم تماما · هذه القبيلة ، التى كانت احدى القبائل الكبرى الثلاث فى الداخل ، استحثها الفرنسيون الذين بنـوا الحصـون والمحطات التجـارية فى وادى المسيسبى الأدنى منـذ ۱۷۰۱ ،

وحاولوا التودد اليهم بعيدا عن الانجليز ، ولعله الزعيم الكريكى النارح برينز Brims of Coweta هو الذى خطط للهجوم الاستراتيجى بشكل عام ، شامل لطرد الأوروبيين من الجنوب الشرقى · وعلى امتداد مستوطنات الحدود ، وأينما أقام التجار ، كان الكريك ، والياماسى يهاجمون بمساعدة القبـــائل الصـــغيرة فى الســـهل الســـاحلى أمثـــال الســـاراو Saraws والكتاوبا ، والكونجارى ، والككاماو Caccamaws ، والأبلاشى ، والسانتى Santees ، وتدفق اللاجئون الى تشارلستون خـــلال صيف ١٧١٥ ، عندما حاولت حكومة كارولينا ، يائسة ، أن تلملم قوة عسكرية من المزارعين والخدم العاملين بعقود ، والعبيد ، ومن المتطوعين من فرجينيا وكارولينا الشمالية ، وجاء المدد حتى من أقاصى نيوانجلند ، خاصة وأن المسئولين فى تشارلستون أطلقوا نبوءات متشائمة بأنه اذا انهزم الكاروليينيون ، فان القبائل الهندية فى جميع أنحاء القارة ستحدوها الرغبة فى الاندفاع الى المستوطنات الساحلية وتثبيت أقدامهـا فيها · وفى يونية ١٧١٥ ، كتبت صحيفة بوسطن نيوزليتر أن حوالى ٩٠ تاجرا هنديا من بين مائة تاجر فى كارولينا الجنوبية قد استسلموا ، أو قتلهم الهنود ·

سدد الكارولينيون هجمات فعالة مضادة ضد الياماسى فى خريف ١٧١٥ ، الا أن الكريك ذوى الأعـــداد الوفيرة ، كانوا لايزالون يحملون المشاعل المحرقة الى كل مستوطنة يمكنهم الوصول اليها · والأكثر من ذلك خطورة ، أنه كان معلوما أنهم يتفاوضون مع الشيروكى أكبر شعب هندى يجاور المستعمرات الجنوبية · ويسكن منطقة الآباش الجنوبيـــة الجبلية ، وطبقا لأحد التقديرات فى ١٧١٥ كان يمكنهم حشد ما يقرب من ٤٠٠٠ محارب هم ربع عدد السكان · وخلال النصف الأول من سنة الحرب ظل الشيروكى على الحياد ، الا أنه كانت هنـــاك فرصـــة فى أن يحصلوا على مساندتهم أو أن يمنعوا على الأقل التحالف بينهم وبين الكريك· وهكذا كان للشيروكى فى كفاح لا نظير له ، وضع بالغ الأهمية ، كما بدا ذلك من المحاورات المسعورة من كلا الجانبين لضمان وفاء حليفه ·

لقد أدرك الشيروكى ، أنفسهم ، الأهمية البالغة لقرارهم ، وتأرجحوا بسببه اذ وافقوا أول الأمر على حلف مع الانجليز فى أغسطس ١٧١٥ ، ولكنهم تقاعسوا عن الاشتراك فى الهجوم المقرر فى شهر نوفمبر ضـــد الكريك · ولما كان الأمر يستلزم عملا جادا ، أرسلت حكومة كارولينـــا حملة عسكرية من ٣٠٠ رجل تضم مجموعة من العبيـــد السود ، الى عمق مواطن الشيروكى الجبلية ، ليحدثوا صدمة كهربية تنبه هذا الشعب الهندى المتردد · وبينما يضغط قادة الحملة على الشيروكى ليحصلوا منهم على التزام محدد ، كانت مجموعة كبيرة من رؤوس الكريك يخطبون أمام

زعماء الشيروكي لحثهم على هجوم مشترك على جيش البيض المعسكر في الغابات ، وانقسم الشيروكي الى صقور وحمائم • ولما تغلب الصقور هاجموا الرسل وقتلوهم • وان اعتماد الشيروكي على السلع الانجليزية هو الذى جعلهم في النهاية ينقبلون على الكريك فقد أخبروا الكارولينيين بأنهم اذا لم يحاربوا الكريك « فانهم لن يجدوا وسيلة للحصول على العبيد ، ليتمكنوا من شراء الذخيرة والملابس » من التجار البيض (٤٠) •

ولما رأى الكريك أن الشيروكي ينظمون أنفسهم لقتالهم ، قرروا اخلاء المدن التى استوطنوها في شرق كارولينا وعادوا الى مدنهم القديمة على نهر شاتاهوتشى ، ولكي يستبدلوا ارتباطاتهم التجارية والحربية مع الانجليز ، بحثوا عن ارتباطات جديدة مع الفرنسيين على نهر ألباما ، وعند الأسبان في فلوريدا ، وهرب بقايا الياماسى ، مثلهم ، الى الجنوب ليرتبطوا بالأسبان في فلوريدا •

ترك هروب الكريك والياماسى للكارولينيين البيض أراضي جديدة مفتوحة للاستيلاء عليها ، الا أن تعطشهم الى الانتقام في حرب كلفتهم أكثر من ٤٠٠ شخص ، و ٤٠٠ر٠٠٠ جنيه كان يصعب اشباعه تماما • وقد كتب كاهن انجليكاني في المستعمرة أنه « كان كثير من الهنود اليمانسيين Yammonses والكريك ضد الحرب على طول الخط ، الا أن رجال العسكريين كانوا مصممين تماما على الانتقام مدفوعين بالرغبة في الاثراء باسترقاق كل من يقع في أيديهم من الهنود ، كما كانوا يقتلون (دون تمييز بين متهم وبرىء ، ودون مراعاة للمعاملة الوحشية التي يلقاها هؤلاء البدائيون من تجارنا الأنذال) بحيث كان من العبث أن نشرح لهم ما يتضمنه مثل هذا التصرف من قسوة وظلم » (٤١) •

أظهرت حرب الياماسى بوضوح ، مدى الاستغلال الاقتصادي للبيض ، وقصور المقاومة الهندية على السواء ، فلا نجد مكانا في المستعمرات أكثر من كارولينا الجنوبية ، كان الاستغلال فيه مكشوفا وصريحا للأهالى الوطنيين البدائيين ، لاتقيدهم كنيسة أو حكومة أو مواقف شعبية • ففى سنة ١٧١٧ ، نجح عدد ضئيل من السكان ، حوالى ١٥٠٠ رجل في استخدام القبائل الكبيرة في تحطيم ما يقرب من ١٢ قبيلة ساحلية صغيرة ، وتحويلهم الى عبيد ، ودقوا اسفينا بين الكريك والشيروكي ، في وقت كان التحالف بينهم لا بد وأن ينهى الوجود الانجليزى بالمنطقة • وكان السلاح الانجليزى الأساسى خلال هذه العملية التى غطت نصف قرن تقريبا هو السلع التجارية ، لأنه بالرغم من التعسفات الشاذة في التجارة الهندية والضريبة المدمرة التى فرضتها الاغارة على العبيد على القبائل حتى المسيسبى غربا ، لم تنقلب قبائل منطقة كارولينا على الذين أمدوهم

بالبضائع الأوروبية الا عن كره ومعارضة ، يصحبها في العادة ، انقسام داخلي ٠

وكما هو الحال في كل أجزاء القارة ، كان مفتاح النجاح الانجليزي ، في أية منطقة يقل فيها عددهم ، أن يشجعوا العداء بين القبائل (*) ، ولم يكن ذلك يساعدهم فقط في الحصول على العبيد الذين يمكن بيعهم بشكل مربح في نيوانجلندا وجزر الهند الغربية ، بل كان عاملا أساسيا أيضا في تفريغ القبائل من أراضيها فيسهل على المستوطنين امتلاكها ٠ وأصبح الأثر المدمر المضاعف ، نتيجة الارتباط بالانجليز هو أساس المحاولات الفرنسية لكسب الكريك الى جانبهم ٠ فقد كان الفرنسيون يبنون القلاع منذ السنوات الختامية للقرن السابع عشر ، ويقيمون علاقات مع القبائل الداخلية ٠ ففي بداية سنة ١٧٠٢ تنافس بير لو موين ايبرفيل Pierre le Moyne Iberville مهندس الامبراطورية الفرنسية المعماري في لويزيانا مع زعماء شعبي الشوكتاو ، والشيكاساو Chickasaw المحاربين ، وحاول أن يوضح لهم الطبيعة المدمرة للارتباط بالانجليز ، وظل عشر سنوات تقريبا يبين أن الشيكاساو قد ارتبطوا بتجار تشارلستون مستعملين البنادق الانجليزية للاغارة على الشوكتاو ويبيعون أسراهم للحصول على مزيد من السلاح والذخيرة ، ففي سبيل الحصول على حوالي خمسمائة عبد ، قتل الشيكاساو أكثر من ١٨٠٠ من الشوكتاو ، وخسروا هم نحو ٨٠٠ من مقاتليهم ، وشرح لهم ابتهاج الانجليز بهذه الترتيبات ، حيث بنوا ثرواتهم على التجارة في العبيد والسلاح ، بينما يراقبون قبائل الشوكتاو والتشيكاساو كل منهما تدمر الأخرى ، حتى اذا ما وهنت القبيلتان بما فيه الكفاية ، صارتا عاجزتين تماما عن حماية أرضهما من المستوطنين الانجليز الذين كانت تزداد قوتهم بوفاة كل هندي ، صديقا كان أو عدوا ٠ أما ايبرفيل ، فقد عرض تجارة سلمية على كلا الشعبين ، تجارة خالية من المشاكل في مقابل جلود الأيائل وليس العبيد ٠

وبالنسبة لمربي الماشية الانجليز الجياع الى الأرض ، وكذلك زارعي الأرز في شرق كارولينا الذين استوردوا العبيد من افريقية بأعداد متزايدة في بداية القرن الثامن عشر ، أصبحت التجارة في العبيد الهنود غير مربحة بشكل مباشر منذ أن تراكمت الأرباح في أيدي تجار تشارلستون ، كما أن الفوائد الضمنية ، كانت عديمة القيمة لأن السكان الهنود في أقصى الجنوب استمروا في التناقص ، نتيجة تجارة العبيد ،

(*) أي سياسة « فرق تسد » — (المترجم) ٠

وبذلك سهلوا التوسع جنوبا وغـــربا على المستوطنـات الأولى المجاورة لتشارلستون • وكان الغموض يكتنف التوسع فى تجارة العبيد الهنود • ولكن المؤكد أنه بينما تناقص هذا التوسع فى القرن الثامن عشر ، عندما ازداد استيراد الأفارقة تدريجيا حتى تحول الى طوفان من العبيد ، ووصل عددهم الى عشرات الآلاف فى منتصف القرن التالى لاستيطان الأوروبيين فى كارولينا • وكان الاحصاء الوحيد لعبيد كارولينا الجنوبية فى فترة انشاء المستعمرات قد تم سنة ١٧٠٨ وقدرهم بحوالى ١٤٠٠ هندى أحمر وسط حوالى ألف عائلة بيضاء • ولو أن سجلات المستعمرات تشير بدون أرقام دقيقة الى شحن عدد أكبر من ذلك بكثير ، بطريق البحـــــر ، الى المستعمرات الأخرى ، خاصة جزر الهند الغربية • وبالرغم من استحالة ضبط هذه الأمور ، ينسب أحد الاحصاءات المعتدلة ، الفاقد فى السكان الهنود الى الموت والاسترقاق خلال النصف الأول من القرن للاستيطان الانجليزى بنسبة حوالى ٥٠ فى المائة •

عندما ثار الكريك والياماسى وغيرهم ضد تجار تشارلستون ووكلائهم فى الداخل ، وصلوا الى أقرب ما يمكن أن تبلغه قبائل هندية فى فترة المستعمرات فى تفوقها على الأوروبيين الذين وقعوا فى شرك الاعتماد على الأسلحة الأوروبية وغيرها من السلع التجارية ، اذ انقلب العبيد الهنود بما معهم من أسلحة انجليزية على من أمدوهم بها • وقد استطاعوا أن يلحقوا خسائر فى مجموعة سكانية بيضاء عددها حوالى ٦ آلاف بنسـبة ٧٪ فى حرب الياماسى ، بما يعادل مرتين تقريبا الخسائر فى نيوانجلند أثنـــاء حـرب الميتاكوم ، ولكن لم تكن أية قبيلة من الكريك أو الياماسى أو غيرهما ترغب فى أن تعصف بالأوروبيين فى تشارلستون بعد تدمير المستوطنات النائية ، اذ أن هذا كان يتطلب الحصار أو الهجوم الشامل ، وهى أشكال الحرب الأوروبيـة التى لم يألفها الهنود أبدا • ولما رفض الشيروكى الارتباط بالكريك ، سادت سياسة « فرق تسد » الانجليزية التى شاعت بصورة مكثفة فى العـالم الجديد • وعندما وعد الانجليز الشيروكى بسيل من السلع التجارية نظير مساعدتهم ، اختار الشيروكى أن يساعدوا المستعمرين البيض بدلا من أن ينقضوا عليهم • ولكن عقب الحرب ، وكنتيجة لها ، وتمشيا مع حساب الأرباح ، نكصوا عن التجارة مع كارولينا ، وفتحوا باب التجارة مع فرجينيا (٤٢) •

وهكذا تمت عمليات القضاء على غالبية الهنود وطردهم واضـعاف حضارتهم فى الأراضى الساحلية بوسائل مختلفة ، خلال القرن الأول من الاستعمار الانجليزى • وقد اكتمل هذا فى نيوانجلند ومنطقة تشيزابيك فى الوقت الذى بدأ فيه الاستيطان الانجليزى فى بنسلفانيا وكارولينا الجنوبية • وحدث ذلك فى الشمال عقب مقاومة مطردة من القبائل القوية

التي استسلمت في النهاية ، في معركة ضارية ، لعدو لم يحاول التكيف الصادق معهم ، وكان قادرا على ابقاء عدد كاف من القبائل بعيدا عن الحرب والنزاع ليفوز هو في حرب الابادة · كما جرت أحداث أخرى ، هزمت فيها الحضارة الساحلية في فرجينيا وميريلاند · فهنا ، جاهد الهنود حقيقة من أجل العيش في راحة واستقرار ، الا أن عجزهم عن أداء أي عمل لخدمة المجتمع الأوروبي كما حدث في نيوانجلند ، أدى الى الصدام الذي بدأه البيض ·

وفي بنسلفانيا ، اختلفت عملية اتلاف الحضارة ، في شكلها · ذلك أن الانجليز قد وظفوا هنـا ، حلفاءهم الهنود في ذلك ، بدلا من استخدام العنف لطرد الديلاوير من بنسلفانيا الشرقيـة · فقد أصبحت قوة الدبلوماسية ، وليست القوة الحربية هي السـلاح الرئيسي في ترسانة الرجل الأبيض ، ولكن لنتذكر أن الايروكوا وجـدوا في هذه السياسة مكاسب لهم كالبنسلفانيين تماما · وتأخـرت هذه العمليـة نصف قرن عنها في نيوانجلند وفرجينيا ، لأن استيطان منطقة الأطلنطي الأوسط جاء متأخرا · وكانت تحكم علاقات الكويكرز مع الديلاوير في العقود الأولى للاستيطان سياسة « بن المسالمة » ، فضلا عن أنه لم يكن هناك نشاط أو تنافس على الأرض مما قلل من فرص الخلاف والاحتكاك · لكن عندما اندفع اللاجئون الأوروبيون الى بنسلفانيا في موجات ، هربا من التعصب والقهر ، أصبح الهنود ، مرة ثانية ، هم العقبة الوحيدة أمام الاستعمار الأبيض · كمـا أصبحوا مصدر قلق مزعج لكل من سماسرة فيلادلفيا والمزارعين الألمان والايرلنديين الاسكتلنديين ، وفي كاروليـنـا الجنوبية لم يكن من أثار البيض هم الهنود الموتى ، وانما الهنود الأحياء في سجنهم · وكان نمو السكان البيض بطيئا للغاية ، ورغبة الهنود في السلع التجارية عظيمة بحيث كان يمكن للكاروليـنيين أن يراقبـوا القبـائل الساحلية وهي تقضي على بعضها البعض ، في حروب ، للحصـــول على العبيد ، وعندما فرغوا من ذلك ، حاولوا استخدام نفس الاستراتيجية ، مع القبائل الداخلية القوية جدا ·

تلك كانت هي نفس النتيجة تقريبا في كل المستعمرات على طول الساحل · وبحلول ثمانينات القـرن السـابع عشر ، في المستعمرات القديمة ، والعشرينات من القرن الثامن عشر في المستعمرات الجديدة منها كانت القبائل الساحلية قد تحطمت وتبعثرت · وبعد أن قضت الأمراض والحروب على معظمهم ، نجد بقايا هذه القبائل التي ظلت على قيد الحياة تدمج نفسها في المجموعات الداخلية الأقوى كرعايا لها ، أو تدخل عالم الرجل الأبيض كأرقاء أذلاء · ولم يكن فشل الهندي في البقاء عن عدم

رغبة أو عدم قدرة على الاختلاط بالوافدين الأوروبيين ـ فيتعلم لغاتهم ويمتزج بهم ، ويتكيف مع أساليبهم فى التجارة والتفاوض ، كما يؤكد بعض المؤرخين على ذلك ، بل كان فشله ، فى الواقع ، فى أن يتكيف جيدا مع الحضارة المادية للمستعمرين • ان الانجذاب نحو البضائع الأوروبية والاصرار على استمرار العداوات القديمة بين القبائل الأخرى ، أتاحا الفرصة لبقاء المدن البيضاء الساحلية ، فى الوقت الذى ظهر فيه أن قيمتهم كشركاء فى التجارة شيء عرضى ثانوى بالمقارنة بقيمة الأرض التى تؤول ملكيتها الى الأوروبى بعد القضاء عليهم •

ومع هذا ، كان هنود السواحل يؤدون خدمة عظمى للقبائل التى فى أقصى الداخل • اذ وفرت مقاومتهم لمدة طويلة ، الوقت للحضارات الداخلية لتوائم نفسها وتكيفها مع الوجود الأوروبى ولتبتكر استراتيجيات من أجل البقاء عندما اقتربت منهم الجبهة المتجهة نحو الغرب (٤٣) •

المراجـــع

1. T.J.C. Brasser, « The Coastal Algonkians ; People of the First Frontiers », in « North American Indians in Historical Perspective, eds » Eleanor Burke Leacock and Nancy Lurie (New York : Random House, Inc., 1971), p. 76.

2. Neal H. Salisbury, « Conquest of the « Savage » : Puritans, Puritan Missionaries, and Indians, 1620-1680 » (Ph. D. diss-University of California, Los Angeles, 1972), p. 212.

3. Ibid., p. 242.

4. Douglas E. Leach, « Flintlock and Tomahawk : New England in King Philip's War (New York W. W. Norton & Company, Inc., 1966), p. 170.

5. Ibid., p. 183.

6. Quoted in Alvin M. Josephy, Jr., « The Patriot Chiefs : A Chronicle of American Indian Resistance » (New York : The Viking Press, Inc., 1958), p. 35.

7. Leach, « Flintlock and Tomahawk'», p. 237.

8. Edmund S. Morgan, « Slavery and Freedom : The American Paradox, » « Journal of American History », 59 (1972-73) : pp. 21-22.

9. Virginia's Deploured Condition » (1676), Massachusetts Historical Society « Collections », 4th Ser., 9 (Boston, 1869) : 164.

10. Quoted in Wilcomb E. Washburn, « The Governor and the Rebel: A History of Bacon's Rebellion in Virginia » (Chapel Hill : University of North Carolina Press, 1957), p. 20.

11. « Virgina's Deploured Condition », p. 166.

12. Washburn, « The Governor and the Revel », p. 35.

13. Quoted in ibid., p. 37.

14. Ibid,.., p. 41.

15. Quoted in ibid., p. 117.

16. Ibid., p. 161.

17. Nancy Lurie, « Indian Cultural Adjustment to European Civilization in Seventeenth-Century America : Essays in Colonial History, ed. James M. Smith (Chapel Hill : University of North Carolina Press, 1959), p. 55.

18. Quoted in Washburn, « The Governor and the Revel », p. 161.

19. C. A. Weslager, « The Delaware Indians : A History (New Brunswick, N. J. : Rutgers University Press, 1972), p. 140.

20. Quoted in Ibid., p. 156.

21. Quoted in Thomas E. Drake, « William Penn's Experiment in Race Relations », « Pennsylvania Magazine of History and Biography, 68 (1944) : 372.

22. Weslager, « Delaware Indians », p. 166.

23. Francis Jennings, « The Indian Trade of the Susquehanna Valley, » « Proceedings of the American Philosophical Society, » 110 (1966) : 410.

24. Quoted in Weslager, « Delaware Indians », p. 182.

25. Quoted in Francis Jennings, « The Delaware Interregnum, » « Pennsylvania Magazine of History and Biography, 89 » (1965) : 178.

26. Jennings, « Indian Trade of the Susquehanna Valley », p. 416.

27. Ibid., p. 420.

28. Quoted in Anthony F. C. Wallace, « King of the Delawares : Teedyuscung, 1700-1763 » (Philadelphia : University of Pennsylvania Press, 1949), pp. 21-22.

29. Weslager, « Delaware Indians », p. 190.

30. « Minutes of the Provincial Council of Pennsylvania (16 vols. ; Philadelphia and Harrisburg, 1815-53) .4 : 578-80.

31. Quoted in Verner W. Crane, « Southern Frontier, 1670-1730 ». (Ann Arbor : University of Michigan Press, 1956), p. 120.

32. Ibid.

33. M. Eugene Sirmans, « Colonial South Carolina ; A Political History » (Chapel Hill : University of North Carolina Press, 1966), p. 111.

34. Quoted in Chapman J. Milling, « Red Carolinians » (Chapel Hill : University of North Carolina Press, 1940), p. 119.

35. Ibid., p. 120.

36. Ibid., p. 128.

37. Ibid.

38. Crane, « Southern Frontier, p. 161 ».

39. Ibid., pp. 165-66.

40. Ibid., p. 182.

41. Ibid., p. 179 n.

42. Quoted in W. Stitt Robinson, « Virginia and the Cherokees : Indian Policy from Spotswood to Dinwiddie », in « The Old Dominion : Essays for Thomas Perkins Aberntthy, ed. » Darrett B. Rutman (Charlottesville : University Press of Virginia, 1964), p. 30.

43. Brasser, « The Coastal Algonkians », p. 73.

الفصـل السـابع

أوروبا ، وأفريقية ، والعالم الجـديد

ان تجارة العبيد الأفارقة ، فى رأى معظم المؤرخين ، والتى بدأت فى أواخر القرن الخامس عشر ، واستمرت طوال الأربعمائة سنة التالية لهى واحدة من أندر الظاهرات المهمة فى تاريخ العالم المعاصر • فهى تمثل أكبر هجرة اجبارية فى التاريخ ، وفضـلا عن هذا كان لتجارة العبيد ، واسترقاقهم الأهميـــة الحاسمة فى بنـــاء امبراطوريات الدول الأوربية الاستعمارية ، وانتاج الثروات التى فجرت الثورة الصناعية فيما بعد • وغالبا ما يغيب عن البـال عند الالتفات الى الأهمية الاقتصادية لتجارة العبيد والاسترقاق ، ذلك الانتشار الحضـــارى الذى احتل مكانه بعـــد وصول عشرة ملايين أفريقى الى نصف الكرة الغربى • فقد خضـــع العبيد الأفارقة للنظام الأوروبى وتمثلوا بأساليب الأوروبيين ، ولكنهم ، فى ذلك الوقت أفرقوا (جعلوها أفريقية) حضارة الأوروبيين فى الأمريكتين ، الأمر الذى كان من المتعذر اجتنابه اذا ما لاحظنا دور التقارب بين هاتين المجموعتين العريضتين من الناس الذين التقى كل منهما بالآخر على بعـــد شاسع من أوطانهم الأصلية •

ونظرا لتأخر الانجليز فى استعمار العالم الجديد ، كانوا أبطأ بكثير من منافسيهم الأســبان والبرتغاليين ، فى الاتصـــال بالساحل الغــربى لأفريقية ، وفى دخــول تجارة الأطلنطى فى العبيد ، وفى انشـــاء الرق الأفريقى ليكون العمود الفقرى للقوى العاملة فى مزارعهم وراء البحار • ولقد تخلفت المستعمرات الانجليزية فى العالم الجديد ، الموجودة على أرض قارة أمريــكا الشمالية نحو نصف قرن أو يزيد عن مســتعمرات البحر الكاريبى ، فى تحول اقتصاديـات مزارعها الى استخدام العبيد • فعلى سبيل المثال ، كان لدى البرازيل البرتغالية سنة ١٦٧٠ ، ٢٠٠ ألف عبد على الأقل ، وباربادوس الانجليزية حوالى ٢٠ ألفـا ، بينما لم يكن لدى فرجينيا سوى نحو الألفين • ولم يبدأ التفاعل الحضارى بين الأوروبيين والأفريقيين ، فى أمريكا الشمالية ، على نطاق واسع الا بعد أكثر من قرن

من بـدايته فى الأجـزاء الجنوبية من العـالم • وقد تكرر ، عند تفـاعل الحضارتين الانجليزية والأفريقية ، كثير مما حدث عند التقاء الحضارتين فى المستعمرات الأيبيرية ، وان اختلفت نماذج التبادل الحضارى بشكل ملحوظ ، فى أمريكا الشـمالية عنها فى أمريكا الجنوبية ، فى القرنين السابع عشر والثامن عشر •

تجارة العبيد قديما :

قبل عبور كولومبس للأطلنطى ، بنصف قرن ، رسا قبطان بحرى برتغالى ، يدعى أنتـام جونكالفيز Antam Goncalvez على ساحل أفريقية الغربى جنوب الصحراء الكبرى • ولو استطاع التجول فى أفريقيـة طولا وعرضا ، لرأى قارة مليئة بالتنوع الرائع جغرافيا وحضاريا • ولابد أن القليل مما رآه قد جعله يعتقد أن الحضارات الأفريقية ، هى حضارات متدنية بطبيعتها ، أو أن شعوب أفريقية قد عجزت عن تطوير نفسها على مر الزمن،مثلما فعلت شعوب أوروبا • هذا الانطباع الشخصى « بالتخلف » والفقر الحضـارى كان هو الخرافة التى استمرت ، بعد أن نقلت تجارة العبيد ملايين الأفارقة الى نصف الكرة الغربى • تلك الخرافة التى ساعدت على تبرير وحشـية تجارة العبيـد ، والتخفيف من جرم الأمم الأوروبية المتورطة فىأكبر عملية فى التاريخ ، لانتزاع شعب من موطنه بالقوة •

لقد زادت شعوب أفريقية عن المائة مليون فى أواخر القرن الخامس عشر عندما بدأ الاتصال الأوروبى المكثف بالقارة • وكانوا يعيشون فى بيئات متنوعة للغاية — صحراوات شاسعة ، وأراضى السافانا ، وغابات عظيمة وأحراش — ويعتمد أغلبهم على الزراعة ، كما فى أوروبا ، ويجاهدون لاخضاع الطبيعة لتمدهم بأسباب البقاء • كما أن ازديادهم السريع جدا فى الألفى سنة السابقة لمجىء الأوروبيين ، يوحى بمدى درايتهم بالأساليب الزراعية الأفريقية ، التى استمدت جانبا منها من مهارة الأفارقة فى انتاج الحديد الذى بدأ فى نيجيريا الحالية ، حوالى ٥٠٠ ق٠م• تلك البراعة فى تشكيل الآلات الحديدية التى فجرت تقنية الزراعة الجديدة اللازمة لمد السكان الأكبر عددا بأسباب الحياة • ومع ازدياد السكان زاد التخصص فى الأعمال والواجبات ، وبالتالى زاد التطور ، حيث كانت مجموعات صغيرة من الأسر تتصـل ببعضها ، وبمرور الزمن تطـورت الى مجتمعات أكبر ، وأكثر تعقيدا ، ويشبه ذلك ما حدث فى «الثورة الزراعية » فى أنحاء العالم الأخرى ، مثل أمريكا الشمالية ، وأوروبا ، والشرق الأوسط ، وغيرها من الأماكن •

من الدراسات الحديثة للتاريخ الأفريقى «قبل الاتصال (الأوروبى)» يتضح أن « الفجوة الحضارية » بين المجتمعات الأوروبية والأفريقية ، لم تكن كبيرة جدا عند التقاء الشعبين • ففى الوقت الذى وصل فيه الأوروبيون الى ساحل أفريقية الغربية ، كان عدد من الامبراطوريات الرائعة قد تكونت بالمنطقة ، مثل مملكة غانا التى ضمت الأرض الشاسعة بين الصحراء الكبرى وخليج غينيا ، وما بين نهر النيجر والمحيط الأطلنطى فيما بين القرنين السادس والعاشر • ونشأ خلال ذلك ، استقرار حضرى واسع ، ومعمار متقدم ، وفنون جميلة متقنة ، وتنظيم سياسى معقد • وكان السودان الغربى هو الذى أمد العالم الغربى بمعظم الذهب فيما بين القرنين الثامن والسادس عشر • وأضعفت غزوات البربر فى الشمال امبراطورية غانا ، التى أفسحت المجال حينذاك لامبراطورية مالى التى كانت تتوسطها مدينة تمبوكتو Timbuktu المشهورة بثرائها الواسع وجامعتها الاسلامية التى جمعت بها هيئة تدريس ممتازة مثل غيرها من الجامعات فى أوروبا • كما كانت ممالك أخرى أصغر منها مثل مملكة الكونغو ، ومملكة بنين فى طريق النمو والتغير الحضارى ، قبل وصول الأوروبى لأفريقية ، بمئات السنين • وقد مهر سكانها فى أعمال المعادن والنسيج والصناعات الخزفية وفن البناء والمشغولات الفنية الدقيقة وضارع كثير من مدنها المدن الأوروبية فى حجمها • وكان لبعض مجتمعات غرب أفريقية شعائر دينية معقدة للغاية ، وتجارة اقليمية جيدة التنظيم ، وقوانين تشريعية ، وتنظيم سياسى معقد •

كان التطور الحضارى فى أفريقية ، يسير بطبيعة الحال ، بمعدلات مختلفة ، كما فى أى مكان آخر فى العالم • وقد أثرت الظروف البيئة فى ذلك كثيرا • من حيث التربة الجيدة وكمية المطر المناسبة ، والمعادن الوفيرة، كما فى ساحل أفريقية الغربى كان النمو السكانى ، والتوسع الحضارى يجريان بسرعة نسبيا ، أما حيث كانت تظهر الظروف الصحراوية ، أو الغابة التى يصعب اختراقها ، فهنا تظل النظم الاجتماعية على بساطتها، وتتغير ببطء شديد • كما أن الاحتكاك بالحضارات الأخرى يؤدى الى تغير سريع فى حين يعوق الانعزال تطور الحضارة • فازدهرت امبراطورية غانا فى السودان الغربى ، من ناحية ، بسبب صلاتها التجارية مع العرب الذين فتحوا المنطقة حوال القرن التاسع الميلادى • وازداد هذا التغيير الحضارى بسرعة فى المجتمعات السواحلية Swahili ، المطلة على المحيط الهندى بعد أن بدأت الاتصالات التجارية مع العالم الشرقى فى القرن التاسع • وهكذا نجد ، على حد تعبير أحد المؤرخين الأفارقة البارزين ، « أن تاريخ أفريقية الحضارى هو ••• أحد أشكال التطور الشديد التفاوت بين شعوب دخلت فى مراحل تطور مماثلة فى المؤسسات الاجتماعية ،

وأنماط السلوك فى أزمنة مختلفة ، بشكل يمكن تمييزه ، ولأسباب مشابهة يمكن تحديدها بوضوح » (١) ٠

بدأت تجارة العبيد ، فيما يبدو سنة ١٤٧٢ ، عندما وصل قبطان برتغالى يدعى روى دو سيكيرا Ruy do Sequeira ساحل بنين ، وتوصل الى بلاط الملك ، حيث تسلم اذنا ملكيا بالمتاجرة فى الذهب والعاج والعبيد ٠ ولم تكن التجارة تمثل نشاطا اقتصاديا جديدا فقد مارسها الأفارقة من قبل ، فى مناطق نائية عبر قارتهم ٠ ولكنها فى تلك المرة كانت بداية الاتصال مع شركاء جدد فى التجارة من مناطق نائية عن قارتهم ٠ ومن المهم ملاحظة ذلك ، حيث كان المفهوم الخاطىء دائما بأن القوى الأوروبية قد أغارت على السواحل الأفريقية للحصول على العبيد ، وخطفت مئات الآلاف من الضحايا ذوى الحظ السيىء ، البائسين . الذين لا عون لهم ٠ ففى الواقع كانت التجارة المبكرة فى العبيد متبادلة بين المشترين الأوروبيين والباعة الأفارقة ٠ فضلا عن أن التجارة نفسها كانت مقصورة على المراكز التجارية الساحلية حيث كان يؤتى بالعديد من العبيد الأسرى من الداخل بواسطة الوكلاء الأفارقة ، ويباعون بالشروط التى يحددها البائعون الأفارقة ويتسلمون الأسلحة الأوروبية وأسياخ الحديد والنحاس وأوعية القصدير والأباريق وعقود الخرز ، وشراب الروم المسكر ، والمنسوجات ، نظير الذهب والعاج والعبيد ٠

ولم يكن الرق ظاهرة اجتماعية جديدة على الأوروبيين أو الأفارقة ٠ فقد اشتغلت المجتمعات الأفريقية منذ قرون مضت بتجارة العبيد السود عبر الصحراء الكبرى من غرب أفريقية الى أوروبا الرومانية والشرق الأوسط ٠ لكنها كانت نشاطا عارضا وليس منظما ، وكان الهدف منها تزويد أمم البحر المتوسط التجارية بالجنود وخدم البيوت والحرفيين فضلا عن العمال الزراعيين ٠ وفى داخل أفريقية ذاتها ، وجد الرق ، منذ زمن بعيد ، على نطاق ضيق ، للخدمة الشخصية ولفترة محدودة من الوقت غالبا ، أكثر منه للعمل الزراعى مدى الحياة ٠ ويشبه هذا النوع من الرق ما قام فى أوروبا منذ قرون ، ونتج عنه استرقاق المسيحيين للمسلمين ، والمسلمين للمسيحيين ، خلال قرون الحرب الدينية ٠ وكان المرء يصير عبدا اما لكونه شخصا « غريبا » أو « كافرا » أو « أسير حرب » أو اذا باع نفسه فى سوق العبيد ليحصل على مال لأسرته أو لارتكابه جريمة شنعاء ٠ وكانت حقوق العبيد محدودة ، وفرصهم فى التغيير الى الأحسن مقيدة بصورة قاسية ، ولكن ، بصرف النظر عن ذلك كله ، كان ينظر اليهم كأعضاء فى المجتمع يتمتعون بحماية القانون ، ولهم حقوق خاصة ، معينة، منها التعليم ، والزواج ، وحق الأبوة ٠ وأهم من ذلك كله ، أن حالة الرق لم تكن وضعا نهائيا غير قابل للالغاء ، أو ينتقل آليا الى أبناء العبد أو الأمة٠

وهكذا ، ازدهر الرق فى كل من اليونان وروما القديمة ، وفى امبراطوريات الآزتيك والانكا Inca ، والمجتمعات الأفريقية ، وروسيا الحديثة ، وأوروبا الشرقية ، والشرق الأوسط • وتلاشى بالتدريج ، فى أوروبا الغربية ، بحلول القرن الرابع عشر ، بالرغم من أن وضع عبيد الأرض لدى الاقطاعيين لم يختلف كثيرا فى الواقع الاجتماعى عن الرق • ومن الملاحظ أن الرق ، وعبودية الأرض فى كل هذه المناطق لم تكن لها صلة بالصفات الجنسية •

كانت تجارة العبيد ، حين بدأت فى القرن الخامس عشر ، بغرض سد العجز البسيط فى الأيدى العاملة فى اقتصاد أول من ابتدأ ذلك فى أوروبا وهما أسبانيا والبرتغال • ولم يكن من السهل استيعاب سوى قدر ضئيل من العبيد على فترات ، فى الاقتصاد المحلى لدول جنوب أوروبا ، حيث هيمن الذهب والعاج والفلفل الأفريقى على الاهتمام الأوروبى ، لذلك فمن المحتمل جدا ، أنه لولا استعمار العالم الجديد لتوقفت التجارة القديمة فى العبيد بعد قرن أو يزيد ، ولأصبحنا نتذكرها مجرد حادثة عابرة ، نبعت من اتصالات قديمة للأوروبيين مع أفريقية فى مرحلة معينة من مراحل التاريخ •

فلما اكتشف الأوروبيون العالم الجديد ، تغير مجرى التاريخ بشكل فجائى خطير • وحين عثر الأوروبيون على مناجم الذهب والفضة فى المكسيك وبيرو ، وعندما اكتشفوا بعد ذلك كنزا جديدا فى انتاج السكر والتبغ ، ظهر الطلب الجديد على الأيدى العاملة بشكل واسع • وبدا فى أول الأمر ، أن الهنود هم المصدر الواضح للقوى البشرية ، واستطاع الأسبان والبرتغاليون اجبار الأهالى فى بعض المناطق على العمل فى الزراعة والمناجم • الا أن الأمراض الأوروبية أتلفت صحتهم ، وتبين فى بعض المناطق أن الهندى الأحمر فى بيئته شخص يصعب اخضاعه أكثر من اخضاع المستعمر الأبيض فى وطنه • وكان التعاقد مع العمال من الوطن الأم للعمل لأجل معين وسيلة أخرى لمواجهة الطلب على العمال ، ثم تبين أنه مصدر محدود جدا • لذلك كانت أفريقية هى الملجأ الذى اتجه اليه الأوروبيون المستعمرون فى النهاية ، وتحولت القارة فى تصور الأوروبى الى مخزن طبيعى لمدد واسع من القوى العاملة ، أو « الذهب الأسود » •

ومن أواخر القرن الخامس عشر حتى منتصف القرن التاسع عشر – أى مدة ٤٠٠ سنة تقريبا – كان يؤتى بالأفارقة من أوطان أجدادهم ، ليسدوا احتياجات العمالة فى المستعمرات الأوروبية فى أمريكا الشمالية، والجنوبية ، ومنطقة الكاريبى • وتحددهم أحدث التقديرات بحوالى عشرة

ملايين فرد بخلاف العديد منهم الذين فقدوا حياتهم خلال رحلة نقلهم من داخل أفريقية الى الحصون الساحلية التجارية أو فى منطقة « العروض الوسطى » عبر الأطلنطى ، بل كانت عدة مئات من آلاف العبيد قد نقلوا ، قبل وصول الانجليز الى خليج تشيزابيك سنة ١٦٠٧ ، الى جزر الهند الغربية والمستعمرات الأسبانية والبرتغالية فى أمريكا الجنوبية • وهكذا عبرت المحيط الأطلنطى أعداد من الأفارقة أكثر بكثير من أعداد الأوروبيين، وشرعوا فى حياة جديدة فى العالم الجديد قبل تحريم وابطال تجارة العبيد فى القرن التاسع عشر •

ان تجارة الأطلنطى فى العبيد ، وقد قصد بها تزويد المزارع الأوروبية فى العالم الجديد بقوى عاملة ضخمة ، قد غيرت تماما من شكلها القديم ، مثلما تغيرت طبيعة الاسترقاق ذاته • فبعد أن عاد جونكالفيز بأول فوج من الأسرى الأفارقة الى البرتغال سنة ١٤٤١ ، استمرت تجارة العبيد بدرجة ضعيفة نسبيا لحوالى قرن من الزمن • وكان العبيد الذين باعهم اخوانهم الأفارقة الى الأوروبيين من الأقليات الصغيرة من السكان ، وكانوا فى الأغلب أسرى حرب أو مجرمين محرومين بسبب جرائمهم من حقوق المواطنة • وقد أمكن لتجارة العبيد الأفارقة أن تسد احتياجات الأوروبيين الى العمال ، بنسبة قليلة ، مثلما حدث تماما فى منطقة البحر الأسود قبل الغائها بعد سقوط القسطنطينية فى يد الأتراك سنة ١٤٥٣ • وكذلك الحال فى مزارع العالم الجديد ، لم يكن الطلب كبيرا على العبيد ، مدة قرن تقريبا بعد « الكشف » • ولم يبدأ الطلب فى الازدياد الا بعد نجاح البرتغال فى تنمية المزارع الكبيرة للسكر على السهول الساحلية الشمالية الشرقية فى أواخر القرن السادس عشر ، حيث انتشرت منها زراعة القصب بسرعة الى البقع الصغيرة جدا ، التى تمتد فى الكاريبى الى أن تحولت معظم ممتلكات انجلترا ، وفرنسا ، وهولندا ، وأسبانيا فى الكاريبى ما بين سنتى ١٦٣٠ ، ١٦٨٠ الى مستعمرات للسكر ، يسيطر فيها أعداد صغيرة من المستوطنين البيض على جماهير ضخمة من العبيد الأفارقة •

تغيرت مشكلة الحصول على العبيد ، بازدياد الطلب الجديد على العمالة فى العالم الجديد ، فى مقابل زيادة الطلب على السلع الأوروبية فى أفريقية • وعلى الرغم من سرعة ازدياد الطلب فى القرن السابع عشر ، لم يتيسر العدد الكافي من المجرمين و «الغرباء» ، لذلك اضطر الملوك الأفارقة الى تجارة « الذهب الأسود » عن طريق الاغارة والحرب • وحرضتهم الأسلحة الأوروبية على ارتكاب الشرور، وهكذا ، ارتبط الاختطاف والعدوان باقامة العلاقات التجارية مع القوى الأوروبية ، بصورة معقدة •

صارت تجارة العبيد ، ذاتها ، عمـلا تجاريـا مربحا للأوروبيين ، رمما دفع الدول الأوروبية الى الحروب الدائمة للحصول على مزايا تجارية على الساحل الغربى لأفريقية ، خلال القرون العديدة من المتاجرة المكثفة فى العبيد ، التى أعقبت انشاء مزارع السكر فى العالم الجديد • وأصبحت المراكز التجارية الساحلية الحصينة هى الهدف الرئيسى للحرب المتتابعة من أجل السيطرة ، فنجد أن الحصن البرتغالى العظيم الذى تأسس لهذا الغرض فى الينا Elmina على ساحل الذهب سنة ١٤٨٠ ، يقع فى أيدى الهولنديين أكثر من قرن ونصف • كما عانى الحصن الرئيسى ، الذى أقامه السويديون على ساحل غينيا ، من الدانمركيين ، والانجليز ، والهولنديين، ما بين سنتى ١٦٥٢ ، ١٦٦٤ ، وأصبحت القضـية الكبرى للدبلوماسية الأوروبية فى القرنين السابع عشر والثامن عشر هى الحصول على حق ممارسة تجارة العبيد على الساحل الأفريقى والوصول الى احتكار تزويد المزارع الأوروبية فى العالم الجديد بحصصها السنوية من العبيد • وكان الهولنديون هم أول الفائزين فى معركة القرن السابع عشر بتجارة العبيد على ساحـل غرب أفريقية ، حيث ان العبيد الذين تجرى اعاشتهم فى الأسواق الممتدة بالعالم الجديد ، قد وجدوا أنفسهم يعبرون الأطلنطى على السفن الهولندية •

لم يكن للانجليز أية أهمية ، فى تجارة العبيد أو الحاجة اليهم فى مستعمراتهم بأمريكا الشمالية ، حتى الثلث الأخير من القرن السابـع عشر • ولم تبدأ محاولاتهم الجادة لاقتحام هذه التجارة المربحة الا سنة ١٦٦٣ ، حين قام شارل الثانى بعد استعادته التاج الانجليزى بقليل ، بمنح عقد امتياز لشركة المغـــامرين الملكيـــة فى أفريقيـــة The Royal Adventurers to Africa ، وهى شركة مساهمة برأسمال مشـترك يرأسها أخوه دوق يورك• وبعد أن حلت محلها الشركة الأفريقية الملكية سنة ١٧٦٢، اقتصرت عليها وحدها حق نقل العبيد الى مزارع انجلترا فيما وراء البحار• وبعد سنة ١٦٦٣ ، ولمدة ٣٤ عاما كان كل عبد ينقل عبر الأطلنطى يحمل علامة الوسم « دى•واى DY » وهما الحرفان الأولان من اسم دوق يورك، الذى تولى الملك سنة ١٦٨٥ • وتم كسر هذا الاحتكار ، سنة ١٦٩٨ نتيجة الضغط على البرلمان من الأفـراد التجار الذين طالبوا بحقوقهـم بصفتهم انجليز ، فى المشاركة فى هذه العملية المربحة ، والتى نمت بشكل هائل على يد هؤلاء المقاولين • وفى ثمانينات القرن السابع عشر كانت الشركة الأفريقية الملكية قد صدرت حوالى من خمسة الى ستة آلاف عبد سنويا • وارتفع المتوسط السنوى ، فى العقد الأول من فترة التجارة الحرة الى أكثر من عشرين ألفا • وفى بقية القرن الثامن عشر زاد اشتغال انجلترا

بهذه التجارة حتى أصبحت فى تسعينات القرن هى الدولة الرئيسية فى تجارة العبيد فى أوروبا (٢) .

كيف تقبل الأوروبيون ، بمختلف أصولهم القومية ، الأفارقة ، وكيف تعاملوا معهم ، خاصة وقد أصبح الرق وتجارة الرقيق جزءا أساسيا وجوهريا فى التجربة الاستعمارية فى العالم الجديد ؟ لعل ردود الفعل الانجليزية ، تجاه الأفارقة كانت أكثر تطرفا وسلبية منهـا لدى الأسبان والبرتغاليين . فبالرغم من أن جميع الدول الأوروبية تعتبر مدنيتها أكثر تفوقا وسموا بالنسبة للمجتمعات الأفريقية ، كان الأسبان والبرتغـاليون أكثر اعتيادا على الأفراد ذوى البشرة السوداء ، خـلال قرون من التجارة والحروب مع شعوب الشرق الأوسط ، وشمال أفريقية المطلة على البحر المتوسط . ولكن الانجليز ذوى البشرة الشقراء ، عندما وجدوا أنفسهم وجها لوجه أمام الأفارقة ذوى البشرة السوداء الخالصة ، كان رد الفعل لديهم سلبيا بشكل خاص . ولعـل المصادفة المشئومة فى التـاريخ أن يصبح السـواد ، حتى قبل السماع عن قارة أفريقية وسيلة للتعبير عن بعض القيم المتأصلة جدا فى المجتمع الانجليزى، حيث ان كلمتى « أسود »، وعكسها « أبيض » ذواتا مضمون ثقيل على النفس . فكلمة أسود كانت تعنى الغبى والشرير ، والحقود ، كما تعنى الليل ، وساعة الخوف ، وهكذا ارتبـطت بأشد المواقـف اثـارة للقلق فى الطبيعة البشرية . وأصـبح الاستخدام الانجليزى لكلمة أسود يشايع هذا المعنى ، فكان يعتبر الشاة السوداء (وهو الشخص التافه) فى الأسرة ، والنقطة السوداء أمام اسم الشخص (علامة التقصـير أو سـوء السلوك) واليوم الأسود ، والنظرة السوداء (المعادية) ، والكذبة السوداء ، والكرة السوداء الصغيرة (التى كانت تلقى فى صندوق لاقتراع كناية عن صوت سلبى) وأصبحت تعنى التصـويت السـلبى لقبول العضـوية فى مؤسسة ، فـكانت كل هذه المصطلحات ، تعبيرات قائمة فى ضميرهم الحضارى . وعلى عكس ذلك ، كان اللون الأبيض يمثل النقاء والعذوبة ، والجمال ، والفضيلة ، والسلام . فالملائكة تتشح بالبياض ، وتتزوج البنات فى الثوب الأبيض رمزا للعفة والطهارة ، كما أن حمامة السلام بيضـاء . وبذلك كان الانجليز مؤهلين ثقافيـا لرؤية الشر والقبح فى السواد . وبهذا المعنى كان لقاؤهـم غير المتوقع مع شعوب أفريقية الغربية محكوما عليه بالتحيز مقدما بهذه الرموز اللونية الموجودة فى اللغة والثقـافة الانجليزية . لقد كان نفس التعبير الرمزى باللون موجودا فى الحضارة الأيبيرية (أسبانيا) ، الا أن آثارها على الشعور العرقى كان يلطف منها تلك الارتباطات والاتصالات البعيدة للأسبان والبرتغاليين مع الشعوب الملونة .

وتضاعفت الصورة السلبية بوصف الأفارقة «بالهمجية» و «الوثنية» كمـا كان يراهم الانجليز • وكان رد فعل الانجليز من هذه الناحية يساوى تماما نظرتهم الى هنود أمريـكا الشمالية الحمر • وان جهل الأفـارقة بالمسيحية وعبادتهم « لآلهة زائفة » واختلاف طريقتهم فى الحياة ، قد أبعدتهم عن الأوروبيين « المتمدينين » مثلما ميزتهم عن الأهالى الوطنيين فى العالم الجديد تماما •

الرق القديم فى المستعمرات البريطانية :

بالرغم من تعود المستعمرين الانجليز ، على رؤية الأسبان والهولنديين والبرتغـاليين يستخدمون العمال العبيد الأفـارقة ، الا أنهم لم يتجهوا بسرعة الى أفريقية ليحلوا مشـكلة زراعة المحـاصيل التى تتطلب عمالة كثيفة • وفى الواقع ، كان رد الفعل الانجليزى ازاء تجارة الرق سلبيا ، ولو أن ذلك كان يحدث من لحظة لأخرى • وعندما رجع جون هوكنز الى انجلترا سنة ١٥٢٦ بعدة مئات من العبيد الذين أسرهم فى غارة قرصانية من الأسبان ، أعلنت الملكة اليزابث أن هذا التصرف « كريه جدا » وتنبأت بأنه « سيجلب انتقام السماء من هـؤلاء النخاسين » • الا أنه بعد أن اتضحت لها الفوائد التى يمكن أن تعود من مثل هذه المغامرات تراجعت الى الجانب المضاد • ورغم ذلك ، لم يكن للانجليز أهمية تذكر فى تجارة الرقيق فى الأطلنطى لمدة قرن آخر تقريبا • فلما انغمسوا فيها فعلا ، لم تثر دهشـة كبيرة لأنهم كانـوا يحـاولون سد الفجـوة فى العمالة فى المستعمرات مثل الأسبان • ولاشك أن شيوع الأفكار الثابتة والخاطئة عن الأفارقة بأنهم مخلوقات « متوحشة » وغير متمدينة ، قد سهل على الانجليز أن يحكموا تقييدهم بالسلاسل • وتظل الحقيقة الأساسية أن الانجليز قد أتوا الى العـالم الجديد مثلما جاء الأسبان والبرتغاليون والهولنديون والفرنسيون ليكونوا ثروات ، ويقيموا لهم ملجأ دينيا وسياسيا • وقد أدت الروح العدائية التى حملها الانجليز للهنود ، فترة طويلة ، وخبرتهم فى استرقاقهم الى سرعة زوال أى شك أو تردد قد يخطر حول استرقاق الأفـارقة •

وكانت السابقة التى وضـعها أصحاب المزارع الانجليز فى جـزر قصب السكر فى البحر الكاريبى هى التى جعلت تشغيل الأفارقة كقوة عاملة من العبيد فى مستعمراتهم على أرض القارة ، أمرا طبيعيا للغاية • فقد تعلموا فى جزر باربـادوس وجامبكا وليوورد Leeward أن يقـلدوا منافسيهم الأوروبيين فى تشغيل الأفارقة فى استزراع قصب السكر ، ثم حولوهم بالضغط والاكراه الى قوى عاملة من العبيد فى الربع الثانى

والثالث من القرن السابع عشر • وفي سنة ١٦٧٥ ، عندما لم يكن يوجد أكثر من ٤ آلاف عبد على أرض أمريكا ، ولم تكن أعراف الرق وقوانينه قد ثبتت ، كان هناك ما يزيد على مائة ألف أفريقي مستعبدين فعلا في جزر الهند الغربية الانجليزية • وكانت التجارة والمواصلات على أشدها بين المستعمرين في الكاريبي ، وعلى أرض القارة ذاتها • وهكذا كان لدى المستوطنين في أمريكا معرفة مفصلة عن امكانية التجارة في العبيد وتشغيلهم •

ويمكن القول ان الأفارقة كانوا موردا مهما أمام الباحثين عن قوى عاملة • ومما يثير الدهشة أن سكان المستعمرات الأمريكيين لم يتجهوا الى الرق بشكل أسرع مما فعلوا ، فقد اعتمدوا على البيض العاملين بعقود ذات آجال ، وليس العبيد الأفارقة لأكثر من نصف قرن في حقول التبغ بفرجينيا ، وميريلاند • أما السود المستوردون قبل سنة ١٦٦٠ تقريبا فكانوا أرقاء ولكن بدرجات مختلفة ، بعضهم لأجل معين ، والقليل منهم مدى الحياة •

لقد حدث في الثلث الأخير من القرن السابع عشر ، في فرجينيا وميريلاند ، وفي الثلث الأول من القرن الثامن عشر في كارولينا الشمالية والجنوبية ، أن تحولت القوى العاملة في المستعمرات الجنوبية من وضع عمل فيه العبيد البيض والسود معا بالأجل الى وضع خدم فيه العبيد السود لمدى الحياة ، وشكلوا معظم العمال غير الأحرار • ولم تكن أسباب هذا التغير واضحة تماما في الاتجاه الى اقتصاد زراعي يقوم على الرق في ميريلاند وفرجينيا وكارولينا الشمالية والجنوبية • الا أن أكثر التفاسير قبولا هو أن دخول الانجليز في تجارة العبيد الأفارقة قد أعطى الفرصة لمزارع الجنوب أن يشتري العبيد بدرجة أسرع وأرخص من ذي قبل ، لأن العامل الرخيص هو ما كان يبحث عنه كل مزارع للأرز أو التبغ ، ومن ثم ازداد الطلب على العبيد السود عندما انخفض ثمنهم كثيرا عن العمال ذوي العقود ذات الأجل • وهكذا بدأ عدد الأفارقة المستوردين الى المستعمرات ، في أواخر القرن السابع عشر يزداد ، بينما تناقص ذلك السيل من العمال البيض المتعاقدين بالأجل ، الى أدنى درجة ، وكان العبيد قد وصلوا ، سنة ١٦٧١ الى ٥٪ من عدد سكان فرجينيا طبقا لتقرير الحكومة الملكية هناك ، وفاقهم البيض العاملون بأجل بنسبة ٣ : ١ على الأقل ، وكان الوضع يشبه ذلك كثيرا في ميريلاند • ولكن بعد جيل تقريبا ، حوالي سنة ١٧٠٠ أصبحوا يمثلون خمس السكان ، وربما غالبية القوى العاملة • وقد قدرهم احصاء لميريلاند سنة ١٧٠٧ ، مثلا بعدد ٣٠٠٣ عمال بيض بعقود ، ٤٦٥٧ عبدا أسود • ثم تضاعف عدد العبيد بعد خمس

سنوات تقريبا (٣) • وخلال جيل آخر تناقص البيض المستعبدون ذوو العقود ، بدرجة ملحوظة جدا ، وأصبح العبيد الأفارقة فى المستعمرات الجنوبية هم العمود الفقرى لقوى العمل الزراعى •

والى الشمال ، فى « المستعمرات الوسطى » فى بنسلفانيا ، ونيوجرسى وديلاوير حيث كان المستعمرون الانجليز قد استوطنوا فى الثلث الأخير فقط من القرن السابع عشر ظهر الرق بصورة عرضية ، نظرا لأن المحاصيل التي تتطلب الأيدى العاملة الكثيفة لم تكن تنمو بشكل واسع فى هذه الأراضى ، حيث يتسبب برد الشتاء فى تعطل الزراعة لفترة طويلة من العام • وكانت نيويورك استثناء من ذلك • وفى غضون ما قبل سنة ١٦٦٤ عندما كانت المستعمرة هولندية كان الرق مباحا ، وتشجعه شركة الهند الغربية الهولندية ، الى حد ما ، وهى واحدة من أكبر الموردين الدوليين للعبيد • وقد ظل سكان نيويورك هولنديين الى حد كبير ، حتى نهاية القرن السابع عشر ، ولم ير الانجليز الذين تسربوا اليها ببطء ، سببا يمنعهم من تقليد الملاك الهولنديين للعبيد ، وهكذا أضحت نيويورك أكبر مستورد للعبيد ، شمال ميريلاند • وفى منتصف القرن الثامن عشر ظلت مناطق الاستيطان الأصلى حول نيويورك وألبانى عبارة عن مجتمعات العبيد بنسبة حوالى ٢٠ ٪ من السكان ، ومن ٣٠ ٪ ـ ٤٠ ٪ من أرباب البيوت وأصحاب الأسر يمتلكون بشرا خصوصيين •

وبازدياد عدد العبيد ، ظهرت مجموعة مبادىء وقوانين تشريعية وانتشرت فى كل من المستعمرات الجنوبية ثم فى المستعمرات الشمالية بعد ذلك بقليل • وقد اقتبست هذه « القوانين السوداء » أو (قوانين السود) الى حد كبير ، من المستعمرات الانجليزية فى جزر الهند الغربية • وقد حرمت المهاجرين الأفارقة شيئا فشيئا من الحقوق التى يتمتع بها الآخرون فى المجتمع ، بما فيهم الخدم العاملون بعقود ذات آجال ، ثم قللت نظرة المجتمع والقانون الى العبيد ، تدريجيا ، من كائنات بشرية الى قطعة من الممتلكات المنقولة • وكان أهم ما فى هذه العملية ، التى تجرد الانسان من آدميته أن يمارس العبد الخدمة الموروثة طول حياته ، حين أصبحت العبودية ثابتة ومطردة ، لا فكاك منها الا بالموت ، وحرمانه من كافة الحقوق الأخرى أمرا متوقعا ، لابد منه • وعندما صارت عبودية أحد الأبوين تنسحب على الطفل بمعنى امتدادها الى الرحم ، ترسخ نظامها الاجتماعى تماما طالما ظل الاهتمام بالرق باقيا •

هكذا ، وبمرور الوقت ، كان على الأمريكيين الأفارقة أن يتواءموا أكثر فأكثر مع عالم مرسوم بقيود محددة بعد أن كانوا يعاملون فى القرن السابع عشر كخدم متعاقدين ، مرتبطين بالعمل لفترة من السنين ثم

يصبحون بعدها أحرارا ، يشتغلون لحسابهم الشخصى ، ويؤجرون على جهدهم وخدماتهم ، ويشترون الأراضى ، ويتحركون حيث شاءوا ، ويمتلكون العبيد اذا أرادوا • الا أن السود فى الأربعينات من القرن السابع عشر أصبحوا ممنوعين فى فرجينيا من استخدام الأسلحة النارية • وفى الستينات أصبح الزواج بين النساء البيض والعبيد السود يعتبر « زواجا مخجلا » ، و « عارا لأمتنا » ، ثم أصبح الزنا المختلط بين الأجناس المختلفة يعرض مرتكبيه لعقوبة قاسية ، غير عادية خلال العقود القليلة التى تلت الستينات ، كما حرم الزواج المختلط تماما •

وتعتبر هذه الخطوات العنصرية بسيطة ، بالمقارنة بالحرمان السريع من الحقوق ، الذى بدأ قرب نهاية القرن • اذ فقد الأمريكيون الأفارقة ، فى تتابع سريع حقهم فى الشهادة أمام المحاكم ، أو الارتباط بأى نوع من النشاط التجارى سواء بالبيع أو الشراء ، أو الملكية الخاصة ، أو المشاركة فى الأمور السياسية ، أو الاجتماع فى الأماكن العـــامة لأكثر من اثنين أو ثلاثة ، أو السفر بدون تصريح ، أو الارتباط بزواج شرعى • بل انهم قد حرموا ، فى بعض المستعمرات من حق التعليم وحرية العبادة للاعتقاد بأن ذلك ينمى فى العبيد جرثوم الحرية ، وهبطت مرتبتهم الانسانية الى حد اعتبارهم جزءا من الممتلكات الخاصة • فلم يعد النظام القانونى لهم بأى تقدم فى التعلم أو الخدمات الاجتماعية ، أو تحسين أوضاعهم فى المستقبل بصفة عامة • وصدرت فى أوائل القرن الثامن عشر قوانين فى مستعمرات كثيرة ، تمنع ملاك العبيد من تحرير أرقائهم • وكان هذا خطوة مرسومة لمنع احتمال رؤية العبيد لغيرهم من الأمريكيين الأفارقة أحرارا ، فيجاهدون من أجل حريتهم •

ان حركة تجريد العبيد من كل حقوقهم ، التى استمرت نصف قرن كان لها أساسها العلمى والنفسى • اذ أنه كلما كبرت شريحة العبيد فى المجتمع ، عظـــم خطـرهم على البيض ، لأن الأبيض مالك العبيـــد كان يدرك أنه عندما يشترى عبدا أو أمة مكبلة فى السلاسل ، فمعنى ذلك أنه جلب معها امكانية العصيان المسلح • وبناء عليه ، فكلما زاد شبح تمرد العبد ، زادت جهـود المجتمع لتفريغ شـحنته بالمزيد من تقييـد حقوقه ونشاطه • ولذلك فبعد عصيان سنة ١٧١٢ ، الذى أودى بحياة تسعة من البيض ، وجرح عدد آخر منهم ، أصدرت السلطة التشريعية فى نيويورك قانونا للعبيد يضارع قوانين المستعمرات الجنوبية • ومن خلال المستعمرات الجنوبية ، أدى الخوف المفرط من عصيان العبيد الى تقنين العنف لتأمين الاستقرار الاجتماعى • وترتبط هذه الحاجة المتزايدة للتحكم ، بالحاجة النفسية الى تجريد العبيد من آدميتهم ، وبالتالى يمكن تبرير الاستغلال الذى لا يعرف الرحمة لأولئك الذين اعتبرهم القانون شيئا أقل من البشر •

هكذا حدثت احدى المتناقضات الكبرى فى التاريخ ، وهى اقامة ما ظنه البعض أن يكون المدينة الفاضلة فى قفار البرارى على كواهل الرجال والنساء السود بعد انتزاعهم بالقوة من وطنهم الأفريقى ، وادخالهم قسرا فى نظام الرق الدنىء • لقد كانت النظرة الى أمريكا ، كما أوضحها دافيد ب• دافيس David B. Davis ، قوة تحرير للحياة وتجديدها الى الأفضل ، ولكنها أصبحت صورة « للتناقض الذاتى البشع » • فعلى الأرض التى بشرت بالحرية ، ووفرة الفرص الشخصية ، بدأت ممارسة الرق الذى لم يكن معروفا منذ قرون ، فى الوطن الأم • وصارت أمريكا كغيرها من أنحاء العالم الجديد صورة « تراجع مزعج عن مجرى الارتقاء التاريخى للجنس البشرى » (٤) • وقد قرر أحد الانجليز فى القرن الثامن عشر ، أن العبيد الأفارقة أصبحوا « قوة هذا العالم الغربى وعصبه » (٥) •

حالة العبيد فى أمريكا الشمالية والجنوبية :

نعرف من الدراسات الحديثة ، أن حوالى ٥ ٪ فقط من العبيد ، الذين جىء بهم الى المستعمرات فى العالم الجديد ، قد أتوا الى أمريكا الشمالية ، ولذا فان الثلاثمائة والخمسين ألفا أو نحوها من الأفارقة الذين كافحوا للبقاء أحياء فى أوطانهم الجديدة فى أمريكا الشمالية ، فيما بين سنتى ١٦٠٠ ، ١٧٨٠ ، يعتبرون قلة صغيرة بالنسبة للمليونين الذين نقلوا الى البرازيل البرتغالية ، والملايين الثلاثة الذين أخذوا الى المزارع البريطانية ، والفرنسية ، والهولندية فى جزر الهند الغربية ، والسبعمائة ألف الذين صدروا الى أمريكا الأسبانية • ولكن ، كيف عاش العبيد فى الأنحاء المختلفة للعالم الجديد ، والى أى مدى يمكننا شرح الاختلافات فى معاملتهم ، وفرص تحريرهم ، وما هى فرصتهم اذا تحرروا لاكتساب موضع يليق بهم ، وتتوفر فيه عوامل بقائهم كأشخاص أحرار ؟

أثبت أول من قاموا بالمقارنة فى دراسة الرق فى الأمريكتين ، وجود فروق حادة بين حالة العبيد فى كل من المستعمرات الأسبانية والبرتغالية ، وحالتهم فى المستعمرات البريطانية • ويرجعون هذه الفروق التى يؤكدونها ، الى حد كبير ، الى حقيقة أن الاختلاط الجنسى كبير جدا اليوم فى أمريكا اللاتينية عنه فى أمريكا الشمالية ، وأن سياسة الفصل والتمييز العنصرى الرسمية لم تجسدها قوانين أمريكا اللاتينية أبدا ، وأن التوتر والصراع العنصرى الذى ميز الحياة الأمريكية فى القرن العشرين ، يختفى كثيرا فى مستعمرات أمريكا اللاتينية كالبرازيل مثلا • ويمكننا أن نأخذ التزاوج بين الأجناس ، خاصة بين البيض وغير البيض مثالا صارخا لهذه الاختلافات • فالزواج بين الأجناس المختلفة لم يكن ممنوعا أبدا فى

البرازيل ، أما فى المستعمرات الأمريكية فقد بدأ حظر الزواج بين الأجناس حظرا قانونيا ، فى منتصف القرن السابع عشر حيث منعته كل مستعمرة بصورة فعلية فى بداية القرن الثامن عشر ، وتعدلت هذه القوانين وتحورت من وقت لآخر، واستمرت خلال فترة الرق ، وبعد الغائه فى بعض الحالات• وظل الزواج المختلط محظورا قانونا ، حتى سنة ١٩٤٩ فى تسع وعشرين ولاية ، منها سبع عشرة ولاية ليست من ولايات الجنوب •

ثبت أن هذه الاختلافات ، كانت تدل على أن الرق فى أمريكا الأسبانية والبرتغالية لم يكن فى قسوة الرق بأمريكا الانجليزية ، كما لم توصد الأبواب تماما أمام التحرر النهائى - ويقال ان الأفريقى فى أمريكا اللاتينية قد اختلط جنسيا مع السكان البيض منذ البداية ، فلم تسلب منه حقوقه السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية قط • وعندما فتح باب الحرية ، وجد أنه يستطيع أن يجد له مكانا كريما فى المجتمع • وعلى العكس من ذلك ، فقد العبد ، فى مستعمرات أمريكا الشمالية كل حقوقه حتى بداية القرن الثامن عشر ، وكان يعامل ، لذلك ، بوصفه مجرد متاع منقول • وكان العتق نادرا ، بل ومحظورا ، فى الواقع ، فى كثير من المستعمرات ، فى القرن الثامن عشر • وهؤلاء الأمريكيون الأفارقة الذين نالوا حريتهم بالفعل ، خاصة بعد الثورة الأمريكية ، وجدوا أنفسهم دائما فى أحقر مراكز المجتمع ، حيث سحبت منهم بالتدريج حقوقهم السياسية والاجتماعية التى منحت لهم فى البداية كمواطنين • وقد عبر فرانك تاننباوم Frank Tannenbaum ، وهو رائد فى الدراسة المقارنة للرق ، عن رأيه فى اختلاف مصائر المهاجر الأفريقى فى كل من قارتى العالم الجديد بتسمية كتابه « العبد والمواطن » (٦) •

ما هى سلسلة الحوادث أو الأحداث ، التى وضعت الأفريقى فى المستعمرات أمريكا اللاتينية على طريق الحرية ، بينما كان الطريق الذى سلكه السود فى أمريكا الشمالية الانجليزية مسدودا دائما ، حتى بعد نيل الحرية ؟ يرى تاننباوم ومن نهج نهجه أن الاجابة تكمن وراء الأجواء الفكرية والثقافية المختلفة التى كافح الأفريقى خلالها فى العالم الجديد • فقد انضم المستعبدون فى المستعمرات البرتغالية والأسبانية الى ثقافة كاثوليكية العقيدة ، استبدادية ، وتشبه القرون الوسطى فى مؤسساتها السياسية ، وسلطة أبوية محافظة فى العلاقات الاجتماعية ، تخضع للكنيسة الكاثوليكية فى نظم قوانينها ، أما الأفارقة الذين جىء بهم الى أمريكا ، فقد واجهوا ، على خلاف ذلك تماما ، ثقافة بروتستانتية المذهب ، تحررية ، و « حديثة » فى مؤسساتها السياسية ، تهتم بشخصية الفرد فى علاقاته الاجتماعية ، وانجليزية سكسونية فى نظم قوانينها • ومما يثير

السخرية أن « الحضارة الأسبانية والبرتغالية غير المعاصرة » هي التى حمت العبد وأعدته فى النهاية لما هو أفضل من الرق . فالكنيسة الكاثوليكية لم ترسل قط ، ممثليها الى العالم الجديد بأعداد أكبر بكثير مما أرسلتهم الكنائس البروتستانتية ، بل انها كرست كذلك نفسها بصدق لصيانة حقوق الانسان للسود . وتأكيدا منها على أن عناية الله يستحقها كل فرد ، مهما كان مركزه ضئيلا أو معتقداته فاسدة ، جاهد رجل الدين الكاثوليكى لهداية الناس من كل لون وصنف حيثما وجدوا وأينما كانوا . لذلك كان الهنود والأفارقة فى المستعمرات بأمريكا اللاتينية أهدافا مناسبة تنصرف اليها حماسة القساوسة الجزويت والدومينكان ، والفرنسسكان . وكان لنظرة الكنيسة الى الجماهير الضخمة من الهنود والأفارقة المستعبدين على أنهم مسيحيو المستقبل ، الأثر الملطف على ما يجب أن يفعله السادة بعبيدهم ، أو ما يسنه المشرعون من قوانين .

وبنفس الطريقة، ساعد نقل قانون الكنيسة الرومانية الى المستعمرات الأسبانية والبرتغالية على حماية العبد من أن يصبح مجرد متاع منقول ، لأنه يعترف بحقوق العبيد والتزامات أسيادهم تجاههم . فالعبيد والاماء ، وان كانوا يحتلون ، بلا جدال ، أدنى درجة فى السلم الاجتماعى ، الا أنهم يظلون أعضاء فى المجتمع ، يحميهم القانون من السيد الجشع أو السيد السادى .

ويتبقى وسيط ثالث بين العبد وسيده — وهو الحكومة نفسها . فالنظم السياسية الأسبانية والبرتغالية بسلطتها المركزية الشديدة كانت تدور حول قوة الملكية والأرستقراطية ، وأصبح من المتوقع أن يشع نفوذها خارج عاصمتها فى أوروبا الى مستعمرات العالم الجديد التى قامت تحت حكم ملكى صارم ، ولما كان التاج شديد الارتباط بالكنيسة الكاثوليكية المكرسة لحماية حقوق العبيد ، كان ملاك العبيد فى المستعمرات مسئولين عن تنفيذ السياسة الاجتماعية المرسومة فى الوطن الأم . والخلاصة ، أن قامت بعض الهيئات المتضامنة مع السلطة ، بالعمل لصالح العبد الأفريقى فوقفت بينه وبين سيده الذى حظرت عليه أن يطلق لنفسه العنان فى معاملة عبيده ، وأكدت أن العبد — رغم استخدامه واستغلاله — الا أن له الحماية ، وهو فى آخر الأمر مهيأ لعضوية المجتمع الكاملة . أما فى المستعمرات بأمريكا الشمالية والبحر الكاريبى ، فمن الثابت غياب مثل هذه المؤسسات الوسيطة الملطفة ، غيابا كاملا . فكان سادة العبيد أحرارا الى أقصى درجة فى اتباع نزواتهم وأهوائهم فى معاملة العبيد ، وتشكيل السياسة الاجتماعية والقانونية التى تثبت الرق . وكانت الحكومة فى أمريكا الشمالية أكثر إتجاها للديمقراطية والاقليمية ، والانفصال كبير

بين الكنيسة والدولة ، والأفراد أقل تقيدا بالسلطة والتقاليد ، ولذلك كان العبيد تحت رحمة أسيادهم بدرجة غير عادية • كما أن الكنيسة البروتستانتية لم تهتم كثيرا بهداية العبيد ، وعندما كانت تؤدى ذلك كان نفوذها قائما على أساس محلى ، بخلاف المستعمرات الأسبانية والبرتغالية ، ولذلك كانت هدفا لنفوذ ملاك العبيد البارزين فى المنطقة •

وكانت الحكومة أقل اتجاها للمركزية ، اذ سمحت انجلترا للمستعمرات أن تصوغ الكثير من قوانينها ، واكتفت باشراف ضعيف على مزارعها • وقد خلا القانون الانجليزى السكسونى المنقول الى العالم الجديد من ذكر شىء عن الرق ، حيث ظل الرق غير ظاهر فى انجلترا ، عدة قرون• وهذا ما ترك رجال المستعمرات أحرارا فى رسم قانون جديد ، يقسو ويستغل حسبما يتفق مع رغبتهم فى نظام العمل الذى كانوا ينشئونه • وقد ثبت بالبراهين فى أمريكا ، أن ملاك العبيد صاغوا حضارة تهتم لدرجة عالية بارادة الفرد وحرية الفكر والعمل والكسب ، ولا تطبق أدنى مراجعة أو كبح لحقوق ملاك العبيد فى استخدام ملكيتهم البشرية واستثمارها بأية طريقة يرونها مناسبة • فقد كانت حقوق الملكية هى الأجدر بالاهتمام فى الحضارة الأنجلو أمريكية • ومع قليل من القيود النسبية فى بعض المؤسسات العلمية ، والاجتماعية لكبح جماح ملاك العبيد ، لم يقف شىء بين المهاجرين الأفارقة الجدد وقيام نظام لاستعبادهم بالكامل — وهكذا ، أثبت تاننباوم وآخرون ، بالدليل، وجود نظام مغلق جدا ، ومهدر لانسانية العبيد فى بيئة المستعمرات الانجليزية الأكثر « تنورا » و « تطورا » عنه فى محيط أشد المستعمرات الأسبانية والبرتغالية اقطاعا وتسلطا •

ولكن علماء التاريخ والاجتماع والأنثروبولوجيا ، أثاروا اعتراضات على هذا التحليل للرق والعلاقة بين الأجناس فى العالم الجديد ، حيث يشيرون الى الفجوة التى تفصل بين النص القانونى والواقع الاجتماعى • كلنا نعلم ، بلاريب أن القوانين لا تعكس دائما الظروف الاجتماعية الفعلية• ومثال ذلك ، أننا اذا استرشدنا بالتشريعات القانونية ، بعد الحرب الأهلية عن حالة الزنوج الأمريكيين فى القرنين التاسع عشر والعشرين ، ربما انتهينا الى أن الأمريكيين الأفارقة يتمتعون بالمساواة مع الأمريكيين البيض فى العصر الحديث ، اذ تكفل لهم القوانين كل شىء على الاطلاق ، ولكن الفرق كبير بين نص القانون وبين ما يحدث فعلا •

وعندما أمعن المؤرخون النظر فى الظروف المحلية ، فى مختلف المستعمرات بالعالم الجديد ، وجدوا أنه فى المناطق الريفية من المستعمرات الأسبانية والبرتغالية ، حيث كان استخدام العبيد على أشده ، لم يكن نفوذ

الكنيسة قويا بنفس الدرجة ، كما كانت سلطة المسئولين الاستعماريين الأسبان أشد ضعفا ، ففي هذه المناطق كان سادة العبيد أحرارا في معاملة عبيدهم بما يرونه مناسبا تماما ، مثلما الحال في المستعمرات الانجليزية.

زد على ذلك ، أن الدراسات الحديثة قد بينت أن الاختلافات الواسعة في معاملة العبيد كانت تحدث داخل مستعمرات كل دولة أوروبية . ففي نيوانجلند البيوريتانية وبنسلفانيا الكويكرز ، لم تكن الأحوال في وحشية ولايات الجنوب الأنجلو أمريكية ، وذلك لأن كنائس البيوريتان والكويكرز كانت تمثل قيودا على سلوك ملاك العبيد من جهة ، ولأن العبيد ، من جهة أخرى ، وهم نسبة مئوية بسيطة دائما بين السكان كان أكثر استخدامهم كحرفيين ، وخدم في البيوت بالمقارنة بالجنوب ، حيث كان العمل الزراعي الكثيف هو ما يهم سادة العبيد في الأساس . وكذلك الحال ، في منطقة رسيف Recife البرازيلية الحضرية ، حيث كانت ظروف العبيـــد أفضل بكثير عنها في مزارع الحدود ، في مقاطعة ريوجراند دوسول Rio Grande do Sul الجنوبية النائية .

وهناك عامل آخر ، بعيد تماما عن المناخ الفكري والحضاري ، وهو اهتمام المؤرخين الشديد بالمحاولات الحديثة لتصوير الاختلافات بين نظم الرق بدقة،وعزل الأوجه الفريدة في الرق الانجليزي في أمريكا الشمالية. ومنها النسبة البسيطة بين السود الى البيض . فحيث يمثل العبيد شريحة صغيرة من اجمالي السكان، كما في نيوانجلند ومستعمرات وسط الأطلنطي الانجليزية ، كانت قوانين الرق تسمح ببعض الحقوق ، فكان الاعتقاد العام بـأن الدين والتعليم مفيدان للعبيد ولم تسمح احتجاجـات عندما أقـام الكويـكرز والانجليـكانيون مدارس للزنـوج في أمـاكن مثل بوسـطن وفيلادلفيا . ولم يكن الزواج نادرا ، وكان يسمح للآباء العبيد أن يعمدوا أطفالهم في الكنيسة الانجليـكانية ، ولو أن الدفـن كان يتم في مقـابر « الغرباء » ، وكانوا أحرارا في عقد الاجتماعات في الأماكن العامة، وتعترف بهم المحاكم بهذه المناطق .

وفي المنطقة من ميريلاند الى جورجيا، اختلفت الأحوال بشكل واضح. ففي مستعمرات تشيزابيك كان العبيـد يمثلون نحو ٤٠ ٪ من مجموع السكان ، في منتصف القرن الثـامن عشر ، وفاق عددهم في كارولينـا الجنوبية أعداد البيض ، بنهاية فترة المستعمرات . وكانت قوانين العبيد في هذه المناطق عبارة عن تشريعات قمعية ، ويصدق الأمر نفسه في جزر الكاريبي الانجليزية حيث فاق السود البيض في العدد بنسبة ٣ : ١ ، وكثيرا ما كانت تصل الى ١٠ : ١ في القرن الثامن عشر . وفي هذا الوسط المحاطين فيه بمن استرقوهم أصبح التحكم والسيطرة عاملا حاسما لملاك

العبيد الذين عاشوا فى خوف دائم ومطرد من العصيان المسلح للسود ٠ ولما تفوق العبيد فى العدد ، احتاط البيض لعمل شىء يضمنون به ألا يجد العبيد فرصة لتنظيم أنفسهم والتآمر ضدهم ٠ وهكذا عاشوا فيما يشبه الموقع العسكرى ، وسط اشاعات مستمرة عن تمرد السود مما جعل أصحاب المزارع البيض يضاعفون العقوبات على مثيرى الشغب منهم ويردون على عدوانهم بعنف ووحشية ، على أمل أن يروعوا بقية العبيد فيخضعوا خانعين ٠ من ذلك عقوبة اخصاء العبد الذى يعتدى على امرأة بيضاء ، والاعدام حرقا على خازوق لمن يتآمر على الاشتراك فى عصيان مسلح ، وكلها كانت عقوبات شائعة فى المستعمرات ذات النسبة العالية من العبيد السود ، أما حيث كان العبيد شريحة صغيرة من السكان فلم تكن مثل هذه المحاولات تجرى لابراز مدى وضاعة شأنهم أو لتركهم بالكامل تحت رحمة سادتهم ٠

والعامل الثانى الذى يؤثر فى خصائص مجتمعات العبيد ، ذلك النظام الاقتصادى الذى وقعوا فى شراكه ٠ فحيث كان السود يعملون فى نظام المزارع القائمة على انتاج المحاصيل النقدية ، مثل القطن والقصب والبن والأرز كانوا يقاسون أسوأ حالات العبودية وحشية ٠ وكانت تكاليف الحياة البشرية مروعة فى هذه المناطق مثل مزارع القطن الأمريكية فى أواخر القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، ومزارع القصب فى الكاريبى فى القرن السابع عشر حتى التاسع عشر ، ومزارع البن البرازيلية فى القرن التاسع عشر ٠ وكان بلوغ أقصى حد من الربح هدفا طاغيا فى هذه المزارع ، تحقق بتشغيل العبيد حتى الموت ثم استبدالهم بعبيد آخرين يستوردون للعمل بدون أجر ٠

وكانت الظروف أفضل من ذلك فى المناطق التى يقل فيها العبيد ، حيث يستخدمون للعمل الموسمى أو الخدمة فى المنازل أو كحرفيين ٠ ولم تكن هذه الأعمال أقل اجهادا فحسب ، بل كانت الفرصة أيضا أمام الأفكار الدينية والخيرة للتلطيف من قسوة العلاقة المتأصلة بين السادة والعبيد ٠ ففى نيويورك الانجلو ــ هولندية ، ورسيف البرتغالية ، كان العبيد يعاملون أسوأ معاملة ، الا أن فرصهم فى الحياة والبقاء كانت أكبر بكثير منها فى المزارع الواسعة ٠ وعندما كانت الأراضى الزراعية فى ازدهار وتوسع سريع ، كما هو الحال فى كارولينا الجنوبية فى القرن الثامن عشر ، وكوبا القرن التاسع عشر كان العبيد يتعرضون لأسوأ استغلال ، عادة ، نظرا للحوافز الخاصة التى دفعتهم الى أقصى حدود التحمل البشرى٠ ولعل تكاليف المعيشة لم تكن فى أى مكان بنفس القسوة التى كانت عليها فى جزر السكر بالهند الغربية ٠ وكما كتب أحد الانجليز عن ذلك سنة

١٧٨٨ (٧) بأن العبيد كانوا يعتبرون « قطعانا كثيرة من الماشية » يمكنها « الاستمرار فى مزاولة مهامها الشاقة ، المخيفة ، ثم يلفظون أنفاسهم الأخيرة » بعد سبع سنين أو ثمان ٠

أما العاملان الآخران اللذان أثرا فى حياة العبيد ، فقد نبعا مستقلين عن بعضهما من المؤسسات والاتجاه الفكرى العام ٠ ويتصل أولهما بما اذا كانت تجارة العبيد لا تزال مفتوحة فى مناطق معينة أم لا ٠ فاذا كانت كذلك ، كان المدد الجديد من الأفريقيين متيسرا باستمرار ، ومعاملة العبد قاسية فى العادة ٠ ولم يكن تشغيل العبد حتى الموت يمثل مشكلة ، حيث يسهل استبداله ٠ أما اذا كانت التجارة فيهم مقيدة ، كانت تتخذ احتياطات كبيرة لتأمين رأس المال المستثمر فى هذه الممتلكات البشرية ، لأن استبدالها لا يمكن أن يتم الا عن طريق التناسل ، وهى عملية طويلة غير موثوق فيها ٠ مثال ذلك ، أن جزر باربادوس كانت تمثل مصيدة الموت للأفارقة فى القرن الثامن عشر ٠ ومع سيل الامدادات من العبيد الأفارقة ، المتيسر الحصول عليهم ، ومع الغياب الفعلى للمؤسسات الوسيطة التى يمكن أن تقيد ملاك المزارع الخاصة بالقصب فى معاملة العمال العبيد ، لا يقيدهم فى ذلك الا حسابات التكلفة — أى المكسب والخسارة لم يبال السادة بهلاك عبيدهم ٠ ووجدت ظروف مماثلة لذلك فى المناطق البرتغالية المنتجة للبن بشمال شرق البرازيل فى القرن التاسع عشر ٠ ويذكرنا أحد المؤرخين المحدثين ، بصرف النظر عن الخلفية القومية والظروف الثقافية للعالم الجديد ، « لم ينبع العامل الأساسى فى تقييد الرجل الأبيض على طول تاريخ الرق الأفريقى ، من وخز الضمير الانسانى ، بل من المصلحة الشخصية ٠ فالرجل الأبيض لم يأت بغية الابادة الجماعية ، بل جاء لأسر الأفراد أحياء حتى يستطيع وضعهم تحت سيادته الكاملة ، من أجل مصلحته أو راحته الشخصية » (٨) ٠

والعامل الآخر المؤثر فى حياة العبيد ، هو انتشار الأمراض الاستوائية ٠ ففى المناطق الحارة بما فيها أغلب أمريكا الشمالية ، كان العبيد أقل تعرضا بكثير لأنواع الحمى المهلكة ، التى تحصد كلا من الأوروبيين والأفارقة فى المنطقة الاستوائية ، ولعل لذلك أهميته القصوى فى تفسير انخفاض نسبة الوفيات وارتفاع نسبة المواليد فى المستعمرات الانجليزية عنها فى مستعمرات القوى الأوروبية الأخرى فى الجنوب الأمريكى والكاريبى ٠ فالحقيقة المروعة أن حوالى ٥ ٪ فقط من عبيد العالم الجديد قد جاءوا الى أمريكا الشمالية البريطانية ، ومع ذلك أصبح السود الأمريكيون يمثلون ، فى منتصف القرن العشرين ، أكثر من ٣٠٪ من كل الأفراد ذوى الأصل الأفريقى فى نصف الكرة الأرضية ٠ وبالمقارنة ، نجد

أن البرازيل التى استوردت حوالى ٣٨٪ من كل العبيد الذين جىء بهم الى الأمريكتين كان لديها منهم ٣٦٪ فقط من الأصول الأفريقية التى تعيش فى نصف الكرة (الغربى) فى منتصف القرن العشرين • وقد استوردت جزر الهند الغربية البريطانية حوالى ٨٥٠ر٠٠٠ عبد فيما بين سنتى ١٧٠٠ ، ١٧٨٠ ، الا أن السود من سكان الجزر فى السنة الأخيرة كان عددهم حوالى ٣٥٠ ألفا فقط • وفى المقابل ، استوردت المستعمرات الأمريكية أقل من ٢٥٠ ألفا فى نفس الفترة ، لكن عددهم وصل الى حوالى ٥٧٥ ألف زنجى من السكان سنة ١٧٨٠ – وتعكس هذه النسب المختلفة لنمو السكان عدة متغيرات منها الاختلاف بين نسبة الذكور والاناث أثناء فترة الرق ، ومعاملة الرقيق ، ونسبة الخصوبة بين الزنوج الأحرار الى جانب مجموعة عوامل أخرى ، ولكن مهما أمكن تصنيف هذه العوامل يتضح فى النهاية أن الأفارقة الذين جىء بهم الى مستعمرات أمريكا الشمالية كانت لهم فرصة للحياة أفضل من نظرائهم فى المستعمرات الاستوائية ، حيث كانت الظروف المرضية لا تناسب الحفاظ على حياة البشر الا نادرا ، أحرارا أو عبيدا ، بيضا كانوا أو سودا •

ورغم الأهمية البالغة لاختلاف المعاملة النسبية للعبيد فى مختلف مزارع المستعمرين الأوروبيين ، الا أن هناك اعتبارا آخر ، ألقى عليها ظلالا قاتمة ، ذلك هو الرغبة العارمة لنيل الحرية التى وصل اليها العبيد فى مستعمرة دون الأخرى ، بينما نجد المعاملة النسبية ، لا تزال موضوعا ينشط المؤرخون فى بحثه ، يبدو أن العبيد فى المستعمرات الأسبانية والبرتغالية كانت لديهم فرص واسعة جدا للعمل متحررين من قيود الرق عنها فى المستعمرات البريطانية • ونجد التعددات السكانية الخاصة بالقرن الثامن عشر قليلة وناقصة ، ولكننا نعلم أن نسبة الزنوج الأحرار الى العبيد سنة ١٨٢٠ كانت حوالى واحد الى ستة فى الولايات المتحدة ، وواحد الى ثلاثة فى البرازيل ، وواحد الى أربعة فى المكسيك ، وواحد الى اثنين فى كوبا • وقد فاق السود الأحرار فى كوبا الأسبانية فقط عدد العبيد المحررين فى كل الولايات الجنوبية سنة ١٨٠٠ بثلاثين ألف فرد ، بالرغم من أن السكان السود فى الجنوب الأمريكى قد فاقوا نظراءهم فى كوبا بنسبة ٣ : ١ تقريبا •

ان المؤرخين الذين أكدوا على الجانب الأسبانى العظيم والعنصرية الأقل قسوة لدى المستعمرين الأسبان والبرتغاليين ، قد فسروا هذه الفرصة العظيمة للتحرر فى مستعمراتهم على أنها دليل على المرونة النسبية، والطبيعة الخيرة لأنظمتهم هناك وأنها شاهد على الالتزام باعداد العبيد للمواطنة • الا أن هؤلاء الذين يؤكدون على اثبات الأهمية الفائقة للعوامل

السكانية والاقتصادية هم الأكثر اقناعا من غيرهم . فهم ينبهون الى أن « حاجة » البيض الى السود الأحرار ، وليس الاهتمام الانسانى بحريتهم هى التى حركت الكثير من الملاك الأسبان والبرتغاليين لتحرير أملاكهم من البشر . ونظرا لهجرة الانجليز الى المستعمرات الامريكية بأعداد أكبر بكثير من الأسبان والبرتغاليين لذلك توفر العدد الكافى منهم لشغل أغلب وظائف الصناع المهرة ، والمشرفين ، وتجار الماشية وجنود الميليشيا ــ وهم « الجزء العامل ، المتحرك فى الاقتصاد » (٩) . ولكن الهجرة الأوروبية الخفيفة نسبيا الى المستعمرات الأسبانية والبرتغالية تركتهم يعانون النقص الشديد فيمن يمكنهم الاشتغال بالأعمال الأرقى من العمل اليدوى . لذلك كان من الضرورى خلق طبقة من السود الأحرار الذين يعملون للبيض بالأجر، حتى يمكن أن يسير الاقتصاد فى يسر لصالح ملاك الأراضى والتجار والمستثمرين البيض . هذا وبالرغم من أن ملاك المزارع وسادة العبيد فى المناطق الحضرية الشمالية قد دربوا بعض العبيد ليصبحوا عمالا مهرة ، الا أن الأعمال الدنيا كانت من نصيب معظم الأفارقة فى المستعمرات الانجليزية ، وحيثما كان الأمريكيون الأفارقة يشتغلون كأحرار فى مجتمع الرجل الأبيض كانوا يتمتعون بحقوقهم المدنية والسياسية ، وفيما عدا ذلك ، ظلوا عبيدا . وان عدم تقيد أصحاب العبيد ، من الناحية القانونية بتحرير العبيد فى المستعمرات الأسبانية مثلما كانوا فى المستعمرات الانجليزية ، يعتبر شاهدا كبيرا على أن القانون كان يتبع حاجة المجتمع الاقتصادية والاجتماعية أكثر من أى اهتمام فكرى بالعبيد مستمد من سوابق قديمة ، وهناك أدلة تبين أن ملاك العبيد البرازيليين ، غالبا ما كانوا يعتقون عبيدهم العجزة والمسنين ليتحرروا من تكاليف الاحتفاظ بعمال غير منتجين ، وهو ما كانت تعرفه المستعمرات الانجليزيةأيضا ، وتمارسه .

والوضع الثانى ، الذى كان السود الأحرار فيه ، عنصرا حيويا لصالح المستعمرين البيض فى أمريكا اللاتينية هو اعتبارهم جزءا من نظام الدفاع العسكرى ، فعلى سبيل المثال ، يتضح أن النظم الانجليزية والبرتغالية للرق ، كانت تختلف عن بعضها البعض بدرجة كبيرة فى موقفها من تسليح العبيد، لأنه بينما كان يندر السماح بذلك فى المستعمرات الانجليزية ، كان يستخدم فى البرازيل على نطاق واسع . ولشرح هذه المفارقة ، تلزمنا الاشارة فقط الى أن المستعمرات البرازيلية لم تكن تستطيع أن تأمل فى صد الهجمات الفرنسية فى أواخر القرن السادس عشر ، والغزو الهولندى فى الربع الثانى من القرن السابع عشر ، والمذابح الفرنسية فى أوائل القرن الثامن عشر ، دون أن تسلح عبيدها الزنوج . وقد كتب كارل دجلر Corl Degler فى مقارنة شاملة للرق فى البرازيل والولايات المتحدة أنه « نظرا لأن الوطن الأم ... كان

ضعيفا جدا ، أو غير مهتم بتقديم مساعدات كثيرة ، لذا كان من الواجب تعبئة كل موارد المستعمرة ، الضئيلة ، المتناثرة ، للدفاع الذى شمل كل فرد من القوى البشرية ، مهما قلت أهميته ، بما فى ذلك العبيد السود » (١٠) • أما فى المستعمرات الأمريكية ، فكانت الحاجة الى تسليح العبيد طفيفة بعض الشىء • فبالرغم من أن السفن الاستعمارية كانت مهددة من آن لآخر بالغارات البحرية من القوى الأوروبية الأخرى ، كانت المستعمرات الساحلية نادرا ما تتعرض للهجوم من منافسين أوروبيين ، باستثناء نيوانجلند ، حيث كان عدد الكبير بها قليلا •

وحين اقتضت الضرورة العسكرية ذلك ، سلح الملاك الأمريكان عبيدهم متجاهلين ، أو مجنبين مؤقتا تلك القوانين التى كانت تحظر ذلك بشدة • وعندما فترت ثورة دانيال بيكون ضد حكومة فرجينيا سنة ١٦٧٦ ، أسرع باعلانه من جانب واحد تحرر كل خادم أو عبد ينضم الى حركته • ومن الواضح ، استجابة كثير من العبيد لأنه من بين مجموعة واحدة من حوالى أربعمائة ثائر متمرد ، كان ثمانون على الأقل عبيدا هاربين • وفى كارولينا الجنوبية حيث جعل التهديد الأسبانى مشكلة الدفاع العسكرى قضية أكبر منها فى أى مكان آخر فى المستعمرات الانجليزية ، كان مطلوبا من كل قائد ميليشيا ، بحكم القانون ، سنة ١٧٠٨ « أن يسجل ، ويدرب ، ويحضر الى الميدان عبدا قويا مسلحا ببندقية أو رمح ، لكل فرد أبيض » (١١) • وفى حرب الياماسى ، بعد ذلك بسبع سنين ، كان سكان كارولينا الجنوبية سعداء فقط ، لاستخدام العبيد فى محاولة لدرء هجمات أعدائهم من الهنود الحمر • وعندما غزا الحاكم تشارلز كرافن Charles Craven بلاد الياماسى ، فى يولية ١٧١٥ ، كانت قوته المكونة من عدة مئات يكاد يتساوى فيها المستوطنون البيض مع العبيد السود •

وهناك وسيلة ثالثة ، ذات أهمية حاسمة ، جعلت الأفارقة أكثر قيمة وهم أحرار عنهم وهم عبيد ، فى مستعمرات أمريكا اللاتينية ، تلك هى الاتصال الجنسى بالزواج أو غيره ، خاصة بالنساء السوداوات فى المقام الأول • ولكن الظاهرة التى شهدت الانتباه بشكل قوى هى انتشار المعاشرة بين جنسين مختلفين ، كالذى حدث فى أقطار أمريكا اللاتينية بين الأوروبيين والهنود الحمر ، والهنود والأفارقة ، وبين الأفارقة والأوربيين • وقد أشار الى ذلك ، المؤرخ الأمريكى اللاتينى ماجنوس مورنر Magnus Mörner بقوله : « لم يشهد مكان فى العالم ، مثل هذا الاختلاط الجنسى الهائل الذى كان يجرى فى أمريكا اللاتينية والكاريبى منذ سنة ١٤٩٢ » (١٢) • وقارن بعض المؤرخين بين الخلفية الحضارية للشعبين

الأوروبيين ، وبرهن على أن الأسبان والبرتغاليين ، قد تفاعلوا عبر قرون من الحروب والعلاقات الاقتصادية مع بربر شمال أفريقية ، وبذلك نما بينهم الاختلاط الجنسى ، بشكل مرن • أما الانجليز ، فقد ظلوا معزولين نسبيا فى جزيرتهم الحصينة ، قبل أواخر القرن السادس عشر ، يختلطون بالحضارات الأخرى فى نطاق ضيق •

الا أن هذه الاتجاهات السابقة ، المنقولة الى العالم الجديد ، كان من الممكن أن تضمحل أو تتلاشى ، لولا الظروف القاهرة التى كانت تشجع الامتزاج الجنسى هناك • فقد حدث أن هاجر الذكور من الأسبان والبرتغاليين بدون نساء ، بدرجة أكبر من الانجليز الذين غلب مجيئهم مع عائلاتهم • وقد حمل الأسبان والبرتغاليون معهم فكرا عنصريا ، يبرر بدرجة كافية الاختلاط بالنسوة الهنديات والأفريقيات ، بالرغم من تفضيلهم البشرة البيضاء والدم الأوروبى• لذلك شاعت العلاقات الجنسية، آنذاك فى المستعمرات الأمريكية اللاتينية ، حيث اتخذ المستعمرون من النساء الهنديات والأفريقيات ربات للبيوت ، ومحظيات ، وزوجات • وكانت هذه المشاركة مقبولة دون عوائق تذكر أو قيود اجتماعية ، اذ أنه من الطبيعى ، فى غياب المرأة الأوروبية أن تقوم العلاقات الجنسية مع امرأة سوداء البشرة ، أو حتى الزواج منها •

لم يكن الأمر كذلك فى أغلب المستعمرات الانجليزية • حيث جاءت الانجليزيات مع الرجال الى نيوانجلند البيوريتانية بأعداد متقاربة نسبيا بين الجنسين ، مما جنبهم الحاجة الى الأفريقيات والهنديات • وفى المستعمرات الجنوبية ، حيث كان النقص فى أعداد السيدات البيضاوات فى النصف الأول من القرن أو نحو ذلك ، كانت المرأة الأفريقية أيضا غائبة ، نظرا لضآلة استيراد العبيد ، حتى العقد الأخير من القرن السابع عشر • وعندما تيسر الحصول على المرأة السوداء بأعداد كبيرة ، أصبحت النسبة العددية بين البيض من الرجال والنساء فى سبيلها للعلاج • ولم يكن مبدأ التفوق العرقى مبدأ صارما ، نظرا لأن وجود النسوة البيضاوات هو الذى جعل الاختلاط بين الأجناس ضارا بالسمعة رسميا ، ومخالفا للقانون ، دائما ، بالرغم من ممارسة الأفراد له بصفة شخصية ، الى حد بعيد • ولو كان الرجال البيض استمروا بدون الانجليزيات فى الوقت الذى بدأت الأفريقيات تتدفقن على المستعمرات الجنوبية ، لكان قد تعطل تماما ، ذلك النفور الانجليزى المزعوم ، بلا شك ، من الشريك ذى البشرة السوداء • فقد ساد اقتناع الانجليز ، نتيجة خبرتهم فى جزر الهند الغربية ، بصعوبة أو استحالة أن تقيد المبادىء الرجال الانجليز المحرومين

من النساء ، من اشباع رغباتهم الجنسية • ولم تكن الانجليزيات فى جزر باربادوس ، وجامايكا ، وليوارد متوفرات كوفرتهن فى مستعمرات القارة• ونظرا لاحاطتهن ببحر من النساء السوداوات تابع الرجال الانجليز فى لهفة تجربة الأسبان والبرتغاليين فى معـــاشرة امائهم ، والزواج منهن أحيانا • لقد رأى وينتروب جوردان Winthrop Jordan أن تجريم العلاقات الجنسية مع الزنجيات ، كما حدث فى المستعمرات الأمريكية فى القرن الثامن عشر ، كان أصعب بكثير من محاولة الغاء قصب السكر (١٣) • وهكذا ، فحيث كانت تفتقد المرأة البيضاء ، كانت تظهر الحاجة الى المرأة السوداء ، وحيث تشتد الحاجة اليهن ، تشتد الحماسة لقبولهن ، ويتوقف تماما تنفيذ قوانين حظر الاختلاط أو الزواج بين الأجناس •

اذن ، اختلف الرق فى الأمريكتين ، بدرجة كبيرة ، سواء فى معاملة العبيد أو فى مدى تفتح النظام ، أو فى رغبة المجتمع السائد فى التبادل الحضارى مع الأفارقة الموجودين بينهم • فكل ما نقلته مختلف مجموعات المقيمين الأوروبية معها الى العالم الجديد من ميراث حضارى مغاير ، قد لعب دورا فى تشكيل اتجاهاتهم العامة وسياساتهم ، وقوانينهم • الا أن ضرورات الحيــاة فى العــالم الجديد ، بما فيها من احتياجات اقتصــادية وجنسية وعسكرية قد عمل أكثر من ذلك فى تشكيل المواقف العنصرية ونظام الرق • فكان لابد أن نتوقــع أن تلعب صور الاســتيطان والتطور الاقتصادى المختلفة هذه ، أهم الأدوار الفعالة ، النشطة ، والتغير المستمر فى اعطاء نظم العبيد صورتها الفعلية • فقد كان من بيدهــم القدرة على صياغة الآراء وتشــكيل المؤســســات مقيدين فى ذلك ، بالطــريقة التى تساعدهم على تحقيق أهدافهم •

المراجـــع

1. Basil Davidson, « The African Genius » (Boston : Little, Brown and Company, 1969), p. 187.
2. These statistics on the slave trade, and others that follow are taken from Philip D. Curtin, « The Atlantic Slave Trade : A Census » (Madison : University of Wisconsin Press, 1969).
3. Evarts B. Greene and Virginia D. Harrington, « American Population Before the Federal Census of 1790 » (New York : Columbia University Press 1932), p. 124.
4. David Brion Davis, « The Problem of Slavery in Western Culture » (Ithaca, N.Y. : Cornell University Press, 1966), p. 25.
5. Eric Williams, « Capitalism and Slavery » (Chapel Hill : University of North Carolina Press, 1966), p. 30.
6. Frank Tannenbaum, « Slave and Citizen : The Negro in the Americas » (New York : Alfred. K. Knopf, 1946).
7. Quoted in C. Vann Woodward, « American Counterpoint : Slavery and Racism in the North-South Dialogue ». (Boston : Little, Brown and Company, 1971), p. 101.
8. Richard Hofstadter, « America at 1750 : A Social Portrait » (New York : Alfred A. Knopf, Inc., 1972), p. 107.
9. Carl N. Degler, « Neither Black Nor White : Slavery and Race Relations in Brazil and the United States » (New York : The Macmillan Company, 1971), p. 44.
10. Ibid., p. 79.
11. Verner W. Crane, « The Southern Frontier, 1670-1732 » (Ann Arbor : University of Michigan Press, 1956), p. 187 n.
12. Magnus Mörner, «Race Mixture in the History of Latin America» (Boston : Little, Brown and Company, 1967), p. 1.
13. Winthrop D. Jordan, « White over Black : American Attitudes Towards the Negro, 1550-1812 » (Chapel Hill : University of North Carolina Press, 1968), p. 140.

الفصل الثـامن

رد الفعل الأفريقى تجاه الرق

من السهل أن نفترض أن الأفارقة ، حال بيعهم غداة وصولهم الى العالم الجديد ، كانوا مؤهلين للعمل فى ظل نظام صارم غير مألوف يفرض عليهم الذلة ويجردهم من أفريقيتهم • وهناك عناية بالغة واهتمام مسرف بنوع نظام العبيد الذى صاغه ملاكهم من حيث دساتير السود التى شرعوها، ومعاملتهم للعبيد ، والتطور الاقتصادى الذى خططوه ، بحيث أصبح العبيد أنفسهم منسيين دائما كشركاء مؤثرين فى العملية الحضارية ، كيف عاشوا حياتهم اليومية فى مرحلة مختلفة للغاية من مراحل الحضارة ؟ ، والى أية درجة تعدلت حضارتهم البدائية فى مجتمع الأوروبيين البيض ؟ كيف عانوا من فقد حريتهم ، واستجابوا لانفصـالهم عن كل ما اعتادوه فى حضارتهم الوطنية ؟ والى أية درجة صاغوا حضارة أفرو ــ أمريكية جديدة مميزة عن الحضارة الأوروبية المحيطة بهم ؟ ، ونحن نتساءل عن « ماذا فعل العبيد لأنفسهم ، وكيف فعلوا ذلك ؟ » بدلا من أن نسـأل عن « ماذا حـدث للعبيد ؟ » على رأى يوجين جينوفيز Eugen Genovese سنظل ننظر اليهم بصفتهم هدفا للدراسة ، وليس مجرد سبب لاستفساراتنا التاريخية (١) •

الاستيلاء على العبيد وترحيلهم :

لا يمكن لأية رواية أو تفسير لعمليات استعباد الأفارقة ، مهما كانت أن تنقل الينا مدى الألم والانحطاط المعنوى الذى صاحب التدفق الأوربى للساحل الغربي لأفريقية ، وما نتج عنه من شحن السفن الأوروبية بأولئك الذين وقعوا أسرى فى أيدى الموردين الأفارقة لتجار العبيد الأوروبيين • ولما تضاعف الطلب على العبيد الأفارقة مرارا فى القرن الثامن عشر ، تعرضت المناطق الخلفية ، الداخلية للسودان الغربى والأوسـط للغزو المتكرر على يد جيوش ووكلاء كل من ملوك الساحل والداخل • ولعل ٧٥٪ من العبيد المنقولين الى أمريكا الشمالية الانجليزية قد أتوا من أفريقية الغربية ، فيما بين نهرى السـنغال والنيجر وخليج بنين Benin ، وتم



المصدر : Philip D. Curtin, « The Atlantic Slave Trade : A Census, pp. 157-160.

أشهر القبائل :

(١) الفولانى (٢) البربر (٣) الولوف (٤) المانديينجو
(٥) الفن (٦) الهاوسا (٧) اليوروبا (٨) الأشانتى
(٩) الفانتى (١٠) السوسو (١١) الإيبو (١٢) الأفيك
(١٣) السيكى (١٤) التيكي (١٥) النسوندى (١٦) الباكونجو
(١٧) الموبوندو .

النسب المئوية للعبيد المستوردين ، والمناطق الساحلية للمصدر الأصلي الى المستعمرات الانجليزية الثلاث

المنطقة الساحلية للمصدر الأصلي	فرجينيا ١٧١٠ـ١٧٦٩	كارولينا الجنوبية ١٧٦٣ـ١٨٠٧	جامايكا ١٦٥٥ـ١٨٠٧
١ ـ السنغال وغامبيا	١٤ر٩	١٩ر٥	٣ر٧
٢ ـ سيراليون	٥ر٣	٦ر٨	ـر٥
٣ ـ ساحل مهب الريح (وندوورد)	٦ر٣	١٦ر٣	٥ر٩
٤ ـ ساحل الذهب	١٦ر ـ	١٣ر٣	٢٥ر٥
٥ ـ خليج بنين	—	١ر٦	١٣ر٨
٦ ـ خليج بيافرا	٣٧ر٧	٢ر١	٢٨ر٤
٧ ـ أنجولا	١٥ر٧	٣٩ر٦	١٧ر٥
٨ ـ موزمبيق ومدغشقر	٤ر١	٠ر٧	٠ر٣

استرقاق معظم الجزء الباقى ، من أنجولا على الساحل الغربى لأفريقية الوسطى ، وقد كانت أنشطة الرق فى هذه المناطق مسئولة عن حرمانها من سكانها بدرجة ملحوظة فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ٠

كان العبيد يسيرون ، بمجرد أسرهم ، الى البحر ، فى « قوافل « coffles » أو مواكب٠وقد وصفالاسكتلندى، منجو بارك Mungo Park قافلة العبيد التى مشى معها مسافة ٥٥٠ ميلا عبر جامبيا ، فى نهاية القرن الثامن عشر بقوله : انها تكونت من ٧٣ رجلا وامرأة وطفلا ، مربوطين معا من رقابهم بسيور من الجلد ٠ وحاول كثير من الأسرى الانتحار بأكل الطين ، وانقطع الأمل فى آخرين بعد لسع النحل لهم بدرجة خطيرة ، كما مات آخرون من الارهاق والجوع ، ثم وصلت قافلتهم ، بعد شهرين ، الى الساحل ، وقد أنهكهم العطش ، والجوع ، والتعرض لسوء الأحوال الجوية والأخطار (٢) ٠

ان الغضب ، والانذهال ، والأسى ، الذى صاحب المسيرة الاجبارية التى كانت رحلة أول قائمة منها لمسافة خمسة آلاف ميل ، الى العالم الجديد ، زاد منه نقل العبيد فعلا الى سفن القباطنة الأوروبيين الذين كانوا يحملون شحنتهم البشرية فى سفن خشبية صغيرة الى الأمريكتين ٠ لقد كتب أحد التجار الأوروبيين فى أواخر القرن السابع عشر : « عندما يصل العبيد الى فيدا Fida ، من داخل القطر ، يوضعون فى سقيفة أو قفص يبنى لهذا الغرض قرب الشاطىء ٠٠٠٠ وحين يأتى الأوروبيون لاستلامهم ، يتم اخراجهم فى سهل فسيح ، حيث يفحص أطباء السفن الجراحون كل جزء من بدن كل واحد منهم الى أصغر عضو فيه وهم عراة تماما ، رجالا ونساء ، ثم يجرى فرزهم ، ويستبعد الضعفاء منهم ٠ ويطلق على العبيد المرفوضين لفظ « مكرونيين » Mackrons لكونهم أكبر من ٣٥ سنة من العمر ، أو بهم عيوب فى الشفاه أو العيون أو الأسنان ، أو وخطهم الشيب ، أو بهم مرض تناسلى أو أية شائبة أخرى » (٣) ٠ ومن الطبيعى أن مثل هذه المعاملة المهينة للانسانية كانت جزءا من عملية انتقاء السلعة والمساومة عليها ٠ ولكنها كانت أيضا ، جزءا من العملية النفسية فى محاولة لسلب الأفارقة احترامهم الذاتى ، وتجريدهم من كرامتهم ٠

ان القسوة تولد القسوة ، فبعد شراء العبيد كان كل عبد منهم ، يوسم بسيخ من الحديد المحمى لتمييز الشركة التى اشترته ، هل هى أسبانية أم برتغالية ، انجليزية أم فرنسية أم هولندية ٠ وهكذا وصل عبيد شركة أفريقية الملكية الانجليزية الى أمريكا فى القرن السابع عشر ، وعلى صدورهم حرق للحرفين «دى٠واى Dy » اختصار « دوق يورك » ٠ وهكذا أطلعت الحضارات المتقدمة ، أعضاء المجتمعات الأمية « التى ليست

لها لغة مكتوبة » على رموزها الأبجدية لأول مرة ! وتستمر احدى الروايات قائلة : « كان العبيد الموسومون ، يعادون الى حظائرهم السابقة التى بنيت لحجزهم فيها » حتى يتم تجميع شحنة كاملة (٤) . ثم جاء التغير النفسانى المفاجىء الثانى ، مع نقل العبيد فى قوارب كبيرة وطويلة الى السفن المنتظرة عند الميناء . ويصف قبطان انجليزى حالة اليأس التي امتلأ بها العبيد ، وهم على وشك أن يفقدوا كل أثر لأرض أجدادهم ، ويبحروا فى محيط شاسع ، لم يسبق لأحد منهم أن رآه من قبل . « ملأ الزنوج العناد والاشمئزاز لترك أوطانهم ، فكانوا يقفزون من القوارب ، عادة ، أو الزوارق الطويلة الضيقة أو السفن ، ويظلون تحت الماء حتى يغرقوا تفاديا لانقاذهم بقواربنا التى كانت تقتفى أثرهم ، فقد كانوا يتوقعون مخاوف في باربادوس أخطر مما يمكن أن نتوقعها فى جهنم » (٥) .

ذلك الفزع الذى أدى الى الانتحار ، وهم ما زالوا على أبواب أفريقية ، انتشر تماما فى المرحلة الثانية ـ منطقة عروض الخيل (العروض الوسطى) من ساحل أفريقية الغربى الى العالم الجديد . فكانت أحوالهم على ظهور السفن مخزية ، ميئسة ، رغم أنه كان من الواضح أن من مصلحة قباطنة السفن تسليم أكبر عدد ممكن من العبيد الى الشاطىء الآخر من الأطلنطى . وبالرغم من أن المحافظة على حياة العبيد ، بدلا من القضاء عليهم كانت هى الهدف الأساسى ، الا أن القسوة الوحشية كانت تمارس سواء بقذف أى عبد يسقط صريع المرض ، من فوق السفينة خلال الرحلة ، أو بمعاقبة المشاغبين منهم بقسوة سادية ، وذلك لخلق جو من الخوف يجعل أى تفكير فى العصيان المسلح لا يخطر ببال العبيد الآخرين (٦) . ويصف تاجر العبيد الانجليزى ، جون أتكينز Atkins سنة ١٧٢١ ، كيف كان القبطان وهم على متن السفينة ، « يضرب بالسياط ويشق جلود » الكثير من المتآمرين على التمرد ، وكيف كان يحكم على آخرين « بالموت بطرق وحشية ، باجبارهم ، أول الأمر على أكل قلب أحدهم وكبده بعد قتله . أما المرأة التى يشير اليها فكانت تشد الى قائم ، وتجلد بالسياط ، ويخدش جسدها بجراح طولية بالسكين ، أمام العبيد الآخرين حتى تموت » (٧) . وهذا وصف كان يمكن تكراره بلا نهاية ، الا أن كل وصف كان يقودنا الى النقطة الآتية وهى : أنه بالرغم من أن المهندسين البحريين الأوروبيين قد تنافسوا على انتاج أكثر السفن كفاءة لحمل أكبر الشحنات البشرية الى العالم الجديد ، الا أن الموت على متن السفن ، سواء للعبيد السود فى أسفل المركب أو البحارة البيض فوقه ، كان مرتفعا بدرجة لا تصدق ، وبنسبة ربما تتراوح بين ١٠ ـ ٢٠٪ فى كل رحلة .

وتدلنا محاولات انتحار الأفارقة وتمردهم الذى كان يحدث غالبا أثناء عبور المحيط ، على أن القسوة المستخدمة فى أسر الأفارقة ، ووسمهم

بالحديد المحمى ، وبيعهم ، ونقلهم من قارة أخرى ، لم يكن ذلك كله كافيا لخضوع الأسرى في هدوء لمصيرهم • ويحاول مؤرخ للرق في القرن الثامن عشر ، تبرير الوسائل الرهيبة في معاملة العبيد بقوله : « ان حالات العنف الكثيرة التي ارتكبها (العبيد) بقتل أطقم البحارة بالكامل ، وتدمير السفن التي تصبح تحت سيطرتهم ، كل ذلك جعل هؤلاء القساة مسئولين كلية عن نزعتهم الدموية الخبيثة التي تستلزم معاملتهم كما لو كانوا ذئابا أو خنازير برية » (٨) • لكن القـارىء المعاصر يمكنه أن يكشف في هـذا التصوير للأفارقة المستعبدين برهانا واضحا على أن الخضوع لم يكن من سمات هؤلاء المنقولين قسرا الى العالم الجديد • وما أعظم هذه المقاومة التي أدت الى ابتكار وسائل تقنية للتعذيب لتتلاءم مع آلاف العبيد الذين صمموا على الكفاح حتى الموت في منطقة العروض الوسطى ، بدلا من الوصول الى العالم الجديد ، مقيدين في السلاسل ! • وعادة ما كان الضرب الوحشي بالسياط ، وكي الشفاه بالفحم الساخن ، يستخدم باستمرار لاجبار العبيد المتمردين ، المحروثين على فتح أفواههم ، فاذا لم تكف هذه الوسائل ، استخدمت آلة فتح الفم « Speculum Oris » لابعاد فكي العبد المقاوم عن بعضهما •

واذا أخذنا في الاعتبار ، الوفيات التي حدثت أثناء الأسر ، والمسيرة الجبرية الى الساحل ، ومنطقة العروض الوسطى ، نجد أن واحدا فقط من كل أسيرين أفريقيين قد عاش ليرى العالم الجديد • ولابد أن التجربة قد أفقدتهم الحس والمبالاة ، واستنفدت قواهم الجسـدية • وتبقى بعد ذلك ، خطوة أخرى في عملية الاسترقاق ، وهي البيع بالمزاد العلني الى السيد في العالم الجديد ، والنقل الى محل اقامته • ان اعادة توطين أي واحد من نحو ثمانية ملايين أفريقي ، جيء بهم الى الغرب عبر الأطلنطي ، فيما بين القرنين السادس عشر ، والثامن عشر قد تستغرق حوالى ستة أشهر ، من وقت الأسر حتى وصوله الى مزارع السيد الأوروبي • وخلال هذه المصيبة الشخصية الطويلة الأمد ، كان العبد ينقطع بالكلية عن كل ما تعوده من لغة وأسرة وعلاقات واسعة مع أقرانه ، وعقيدة القبيلة ، وغير ذلك من أشـــكال الأمن الاجتماعي والنفسي • ثم يبقى أمام هؤلاء الضحايا لحاجة الأوروبي الى عامل رخيص ، أن يتكيفوا مع بيئة جديدة ، ولغة جديدة ، وموقع عمل جديد •

التكيف مع حياة الرق :

ان أول ما يفكر فيه العبد بغريزته ، وقد وجد نفسه في مزارع التبغ بفرجينيا أو مزارع القصب بجامايكا ، هو البقاء على قيد الحياة ، ولكى

يحقق ذلك اضطر كثيره من المتهورين أن يدرس بعناية وحرص أساليب ظالميه • وفى حالات كثيرة ، كان هناك عبيد سبق المجىء بهم فعلا الى المزرعة التى تم نقله اليها ، فيتعلم منهم فنون الكفاح للبقاء حيا • فاذا كثر العبيد الآخرون كما فى كثير من المزارع الجنوبية فى منتصف القرن الثامن عشر ، واذا كان العبيد الجدد مستمرين فى الوصول من أفريقية ، اذن يكون من الأسهل والأنسب المحافظة على عناصر الحضارة الأفريقية حية ونشطة • وعلى كل حال ، لم يكن القضاء على الحضارة الأفريقية من السهل الممكن ، لأن الحضارات الجديدة دائما ما تنشأ وتتطور من الحضارات السابقة فى تغير تدريجى ، يوفق بين المعتقدات المتعارضة • وقد كتب جورج راويك G. Rawick أنه بالرغم من الحقيقة المؤكدة بأن الأفريقى قد تغير تحت سيطرة الأمريكى ، الا أنه فعل ذلك بوسائل أفريقية ملحوظة » (٩) • فالموسيقى ، والرقص ، والألعاب ، والقصص والأساطير الشعبية ، كانت ضمن أكثر الوسائل الحضارية بقاء ، كما بقيت الى حد ما ، أساليب الحديث ، والدين ، والمحظورات والمحرمات ، والمعتقدات الخرافية • ولابد أن مـلاك العبيد كانوا على وعى بمحاولات عبيدهم للمحافظة على تراثهم الحضارى ، وأنهم سمحوا بذلك ، بلا شك ، طالما لم يتعارض ذلك مع « أقلمة » المهاجرين الجدد • فاذا عاق ذلك ، تكيفهم مع نظام الحياة والعمل الجديدين ، حاول هؤلاء الملاك محو هذه الاتجاهات الأفريقية • الا أنه على مدى التاريخ الطويل للرق لم يكن من الممكن محو ذاكرة العبد أو عادته أو معتقده محوا كاملا • فالقديم يتغير ليلائم متطلبـات موقف جديد ، ومحيط بيئة جديدة ، فكان ما ظهر هو توليفة من عناصر الحضارة الأفريقية والأوروبية •

ان الصدمة التى لازمت الاستيلاء على العبيد وبيعهم ونقلهم ، أحدثت جروحا خاصة للجيل الأول ، أولئك الذين جىء بهم مباشرة من أفريقية الى المستعمرات الأمريكية عن طريق جزر الهند الغربية • لأن نسلهم الذى ولد فى ظل الرق بأمريكا ، كان تكيفهم أسهل بكثير • ولكن ، بصرف النظر عما اذا كان الأمريكيون الأفارقة قد جىء بهم الى أمريكا أو ولدوا فى ظل العبودية فانهم كانوا مقيدين بالاحتكاك اللصيق ، العميق بالحضارة الانجليزية • وبالنسبة للأفارقة « الغرباء الهمج » أو « العائشين فى الملح » على حد تسمية أصحاب المزارع لعبيدهم الواصلين حديثا ، فكانت فترة الاقتحام أو « الأقلمة » تستغل فى تعريفهم بالحياة فى حقول التبغ والأرز فى ميريلاند وفرجينيا وكارولينا الشمالية والجنوبية • ونظرا لأن معظمهم أتوا من قبائل زراعية ، كانوا مستعدين تماما للعمل فى الزراعة • ولعل مهارة أهالى غرب أفريقية ، فى الواقع ، فى زراعة الأرز تفسر الى حد كبير أنه بينما كانت الجهود الانجليزية المبكرة مع هذا المحصول لم تكن ناجحة

فى كارولينا الجنوبية ، أصبح محصولا ناجحا للغاية بعد احضار العبيد مباشرة من أفريقية فى بداية القرن الثامن عشر ، وربما كانت مرحلة تكيفهم أسهل لهم من كثيرين غيرهم • فقد فضل المزارعون أن يستوردوا العبيد الجدد أثناء أشهر الصيف حتى يتمكنوا من العمل فى محصول واحد على الأقل قبل حلول جو الشتاء الذى يودى بحياة كثير منهم • وكان من المعتاد أن يستغرق العبد سنوات عديدة لالتقاط مبادىء اللغة الجديدة ، بالرغم من أن بعضهم كانوا يتكلمون الانجليزية بشكل غير سليم فى أقل من سنة • لقد سهل على العبيد ، بلا شك ، الذين كانوا مزارعين أو خدما فى أوطانهم أن يتكيفوا مع حالة الرق بالعالم الجديد بدرجة أسهل منها لدى الأقلية التى كانت تشغل مواقع اجتماعية أعلى فى البناء القبلى • وكان المزارعون دائمى الشكوى من « عجرفة » العبيد وتراخيهم ، الذين لم يرتفعوا الى مستوى العمل فى وطنهم ، وكان مشترو العبيد بالمزاد يبحثون عن طراز العبد الذى كان يألف حياة الحقول •

فى دراسة تكيف الأفارقة مع حياة العبيد والحضارة الانجليزية ، توصل المؤرخون الى نتائج مختلفة بشكل مدهش • فمنذ سنوات عديدة كان مقبولا ، على نطاق واسع ، القول بأن الأفارقة قد اجتازوا بسهولة انتقالهم الجغرافى من أوطانهم الى أمريكا ، وانتقالهم الاجتماعى من رجال أحرار الى عبيد • وكان يعتقد ، عامة ، أنهم طيعون ، قانعون فى أسلوب حياتهم الجديدة • ولا يزال هذا الرأى يتجسد فى كثير من الكتب المقررة بالمدارس الثانوية والمعاهد والكليات ، وفى الأساطير المحيطة بماضى الزنوج • كما نرى ستيبن فتشيت Step'n Fetchit فى أفلام هوليوود واحدا من السلالة الحديثة لهذا العبد المتواكل ، الكسول ، الذى تكيف مع أسلوب الحياة الجديدة ، ويجد الدفء والأمن والسكن فى مزارع الجنوب • هكذا يقول أحد كتب التاريخ المقررة باحدى الكليات الواسعة الانتشار :

> **بصفة عامة ، عندما كان السيد والعبد يبدآن فى علاقة وثيقة ، ينشأ بينهما احساس متبادل بالعطف والود والتعلق ، مما يمنع الأول من القسوة غير المناسبة تجاه الآخر • ونرى أن هناك دائما بعض السادة القساة الذين عاملوا خدمهم السود معاملة لا انسانية ، الا أنهم كانوا قلة ، بلا شك • وكان يعزز المشاعر الطيبة بين السيد وعبده ، بدرجة كبيرة ، التصرف اللبق ، والميل الى الانقياد لدى الزنجى • ونادرا ما يكون مكفهرا أو غير راض ، ونادرا ما يضمر الحقد لسيده لحرمانه من حريته • بل كان ، على العكس ، يمضى فى أداء واجباته**

اليومية مبتهجا ، يغنى ، عادة ، أثناء العمل ••• ولكونه لم يعرف الراحة أبدا ، ولا رفاهية المدنية فى وطنـه ، سهل عليه الخضوع للمتاعب الشاقة ، والاستسلام لظروف وضعه المهين (١٠) •

يستند هذا التفسير ، على افتراض أن الأفارقة كانوا فى الواقع ، بلا حضارة قبل مجيئهم الى أمريكا ، وأن لديهم خصائص متأصلة مكنتهم من تكييف أنفسهم دون شكوى مع وضعهم كعبيد • وتتبع هذه الخرافات نفسها بنفسها • فهى تبريرات ذاتية ، منتقاة لأكثر من قرنين من الوحشية الموجهــة من شعب نحــو شعب آخر • ولكن ظهرت صياغة حديثة جدا لرد الفعل الأفريقى للاستعباد يجب أخذها بجدية أكثر ، وهى تمثلهم أيضا طيعين ، يسهل انقيادهم • ولا يكمن مصدر هذا النوع من السلوك فى لطف السيد ، والطبيعة الخيرة للاستعباد الأمريكى ، عامة ، بل يرجع ، على العكس تماما الى طبيعة نظام المزارع الجائر تماما ، والمغلق على جماعته • وقد افترض ســـتانلى الكينز Stanley Elkins فى كتابه عن الرق « Slavery : An American Institution » بأن المهاجرين الأفارقة المستعبدين قد وقعوا فى شبكة السلطة والوحشية ، باحكام وبشكل مستمر ، بحيث لم يستطيعوا سوى المحافظة على بقائهم جسديا ونفسيا بتنمية ميكانيكيات الدفاع المتعمق فى داخلهم • ان الشخصية الأفريقية السليمة ، كما يؤكد الكينز قد تعرضــت للتحول ، اذ عــدل العبــد ســلوكه ، ليوائم مطالب الشخصية البيضاء المهيمنة والتى تقف على رأسه ، وبيدها سلطة منحه الحياة أو الموت • لقد كان نظام الرق بهذه القسوة والوحشية ، وكانت المؤسسات والهيئات الملطفة كالكنيسة والحكومة من الضعف بحيث ان العبيد كانوا اذا عرفوا لحياتهم قيمة ، يضطرون الى أن يصبحوا كالأطفال المطيعين ، الخاضعين بالكامل من أجل البقاء •

ان ابتداع شــخصية « سامبو » ذلك الذى ينكمش ، ويتذلل ، ويتكلم ، ويتصرف كطفل ، وفى النهاية ، يصبح صورة مشابهة للشخصية الوحيدة المهمة فى حياته ـ صــورة السيد ـ يمكن فهمها ، حسب رأى الكينز برسم الشبه الجزئى لليهودى فى معسكرات الاعتقال النازى ، الذى انتزع من بيئته المألوفة له ، ومن عائلته ، وأصـــدقائه ، وقيم مجتمعه • وجرى استعباد اليهود فى وحشية ونقلوا الى مسافات بعيدة فى سفن العبيد ذات السياج ثم دفعوا بالقوة الى مواقع العمل بالسخرة ، حيث يسيطر الحراس على كل صغيرة فى حيــاتهم • وقد تعلم اليهــود التفاعل مع هؤلاء الحراس ، واعتمدت فرصهم للبقاء على تكيفهم الفورى مع النظام الجديد ، وانهمك السجناء تماما فى هــذا الكفاح للابقاء على

جسدهم وتوازنهم النفسى ، بحيث اذا أعوزهم الرجوع فى الوقت المناسب الى احترام ذاتهم مع المستبدين بهم ، بدءوا فى التشبيه بأولئك الذين لهم عليهم سلطة مطلقة ٠

وبنفس الصورة ، يؤكد الكينز صحة رأيه ، بأن العبد الأفريقى قد وقع فى شرك نظام يمارس سلطته بوحشية مطلقة ٠ وباحضار العبيد وهم مكبلون فى الأصفاد الى هذا النظام ، كانوا يعاملون معاملة الأطفال ، ويرتدون الى ســـذاجة الطفــولة وتذللها ٠ ولمــا ولد أطفـــال العبيد فى هذا الجو ، لم يجدوا أمامهم أية فرصة لتنمية الشخصية السوية ٠ وفى جميع الحالات ، صار الأفارقة الأمريكيون عبيدا متذمرين ، يكتمون غضبهم دائما ، ولا يتصرفون أبدا تصرفا واضحا متفقا مع الذوق السليم أو مستقلا ، ونادرا ما يبـالون بالعواطف الانسانية ٠ ويقول الكينز : « كان عبد المزارع النموذجى ، سهل الانقياد ، ولكنه يتحمل المسئولية ويتخلص فيها ، ولكنه كسول ، ومتواضع ولكنه يميل الى الكذب والسرقة بشــكل يثير السخط ، وتملأ السخافات الصـبيانية سـلوكه ، وحديثه تضخمه مبالغات الطفولة ، يعتمد على سيده اعتمادا كليا ، ويرتبط به ارتباطا طفليا » (١١) ٠

لقد وجهت انتقادات عديدة الى « فرضية الكينز » فيما يتعلق بتكيف الأفريقيين مع الرق منذ نشر كتابه سنة ١٩٥٩ ٠ ويبرهن بعض هذا النقد على أن الاختلاف كان بالغا بين معسكرات الاعتقــال ، والمزارع الجنوبية للعبيد بحيث لا يجدى معه التشابه الجزئى كأداة للتحليل ، فيسجل أحد نقاد الكينز أنه « بالمقارنة بنزلاء المعسكر النازى نجد أن العبد كان أكثر تحررا من التهديد بالموت ، وكان الأمر يتطلب منه قليلا من الاستسلام الذليل كى يتفاداه ٠ علاوة على أن حياة العبد كانت تستحق أكثر من رصاصة ، بعكس الحال فى المعسكر » (١٢) ٠ ويؤكد ناقدون آخرون ، بالدليل على أن شخصية « سامبو » ما هى الا صورة مشــوهة ابتدعها الجنوبيون فى القرن التاسع عشر ، الذين حاولوا الدفاع عن الرق أمام هجوم من يطالبون بالغائه ، وذلك باختلاق صورة الطفل العبد ، الضائع ، الخاسر اذا فقد سيده ٠ فقد كان مجتمع الجنوب يحتاج الى « سامبو » للدفاع عن قانون الرق ، ولذلك ابتدعوه ٠

ومع ذلك ، يجادل آخرون بأن العبيد كانوا يتصرفون مثل « سامبو » ليتفادوا حنق سادتهم ، ولكن فى صورة لعبة « الشخصية المفتعلة » التى يمثلون فيها دور السيد ، عن قصد أو غير قصد ٠ وأنهم عندما يدعون الطفولة ، ويتظاهرون بالخنوع والاضتسلام ، انما يفعلون ذلك وهم يعلمون تماما أن أسيادهم يريدون منهم تمثيل ذلك ، وبذلك ، يفوقون ظالميهم ،

دهاء ، فى ألعابهم • وقد قرر أحد العبيد قائلا : « كنت أضطر الى مراقبة تغيرات أسارير وجه سيدى ، ومن يرتبط بهم ، لأرسم سلوكى طبقا لما أعتقد أنه المزاج السائد لديهم فى أى وقت » (١٣) • وأخيرا ، من المقنع أنه حتى لو كان نموذج شخصية سامبو موجودا ، فهى صورة متطرفة لسلوك العبد ، فى جانب من السلسلة التى كانت تجرى طول الوقت بين « سامبو » تجاه الطرف الآخر ـ وهى صورة العاصى ، المنفر ، الثورى ، مثل جابريل بروصر Gabriel Prosser أو نات تيرنر Nat Turner . (١٤) •

تقف دراسات الرق التاريخية ، الآن ، عند مفهوم أن أية محاولة مرضية تبحث عن الشخصية الأفريقية تحت ظروف الرق ، يجب أن تبدأ بتحليل لمزارع الرق التى عاش فيها العبيد ، وعملوا بها • ويذكرنا جون بلاسنجيم Blassingame بأن « سلوك العبد الأسود ، كان مرتبطا ارتباطا لصيقا بطبيعة المزارع قبل الحرب ، وسلوك السيد ، وفهم الرجل الأبيض وادراكه الحسى ، أو سوء ادراكه ، مع مجموعة عوامل أخرى أثرت على العلاقات الشخصية » (١٥) كان الرق ، اذن ، عادة اجتماعية ، لكنه لم يكن منظما أو استبداديا فى أدائه بحيث يمكنه التحكم الكامل فى حياة العبيد وأشكال حضارتهم • فبالرغم من أنه كان يمثل مجموعة مبادىء صارمة للعبيد ، لم تكن المزارع تدار أبدا بفعالية كبيرة أو بعقلانية بحيث تترك العبد دون « مسافة اجتماعية » ملحوظة يتحرك فيها ويتصرف بلباقته • هذه المسافة للتصرف والمناورة ، قد سمحت للعبد بدرجة من الاستقلال المادى والنفسى • واذن ، اختلف السادة ، أيضا ، والمشرفون فى ميولهم وسلوكهم بدرجة كبيرة • ان قدرة العبيد ، فى الحقيقة ، على ابطاء سرعة العمل ، وعلى الانتقام من بربرية سادتهم الساديين ، وفق ذلك كله ، اقناع السادة والمشرفين أن انتاجيتهم (كعبيد) ترتبط بحصولهم على درجة من المكانة الاجتماعية ، ذلك كله ، كان يمثل جوانب مهمة فى العملية التى كيف بها « مجتمع العبيد » حضارته الخاصة • ورغم أنه كان على العبيد أن يعملوا من شروق الشمس الى غروبها تحت سياط المشرف عليهم ، وتحت شبح السيد من الغروب الى الشروق ، وفى فترات الراحة ، والعطلات ، الا أنهم كانوا بعيدين عن بصر ملاكهم وسمعهم بشكل عام • لقد نمت حضارة السود فى فترات فاصلة غير مقصودة ، ولكنها محتومة فى نظام اجتماعى ، رسم أساسا ليعتصر العمل من ضحاياه • ولم يكن من السهل القضاء على عناصر حضارة السود ، الا بقتل العبيد أو تشويههم اذا خرجوا عن الأدوار الاجتماعية المرسومة لهم بكل دقة وصرامة ، وكان ذلك ، فى حد ذاته ما لابد أن يحكم على نظام الرق بالاخفاق •

ان استجابة الأفريقي للرق يجب لذلك ، أن تأخذ فى الاعتبار التنظيمات المتنوعة والمرنة الى حد ما ، التى بنيت عليها حياة العبيد · ويجب التمييز أيضا بين استجابة الأفارقة القادمين حديثا ، والعبيد « المولودين بالداخل » ، وكذلك بين العبيد العاملين فى الحقول ، والخدم المحليين فى منازل أصحاب المزارع ، والحرفيين فى الورش · فقد كانت روح المقاومة وسط الأفارقة « الغرباء الهمج » القادمين من أوطانهم حديثا ، سريعة وصريحة فى الغالب ، ونادرا ما كان يسهل كسرها اذا صدقنا الروايات المعاصرة فى القرن الثامن عشر ، حيث كتب أحد المندوبين المرافقين من الانجليز يقول : « اذا كان من الواجب سحقه ، سواء لعناده واستعصائه على العلاج أو حسب الفرض الذى أميل اليه « لعظمة الروح » فيحتاج الأمر الى ···· سوط صارم · وانك لتدهش فعلا من مثابرتهم ···· وهم يموتون فى العادة قبل أن تلحق بهم الهزيمة » (١٦) · وتوضح دراسة جيرالد مولين Gearld Mullin عن العبيد الهاربين فى القرن الثامن عشر ، فى فرجينيا وكارولينا الجنوبية ، أن الأفارقة المستوردين حديثا ، كانوا غالبا ما يهربون بوسائل تعكس روح الشعب السائدة التى تشربوها فى الجانب الآخر من المحيط الأطلنطى · فهم عندما يهربون ، يفعلون ذلك فى جماعات ، خاصة فى صحبة العبيد من أبناء بلدته ، وقد هربت سنة ١٧٧٣ مجموعة من أربعة عشر عبدا من القادمين حديثا ، من أحد نخاسى فرجينيا واندفعوا بسرعة فى احدى بلاد الريف غير المعروفة ، بحثا عن ملجأ وملاذ لهم (١٧) · وتكشف اعلانات القرن الثامن عشر فى صحف كارولينا الجنوبية عن ذلك الجهد التعاونى المشترك الذى يضم عبيد المنطقة الواحدة من أفريقية فى محاولات الهروب · فكانت الصحف تعلن باستمرار عن مجموعات هاربة من « رجال جامبيا » أو عبيد من « بلاد الفولا » · وكانت الأراضى الخلفية لكارولينا ، وكذلك حدود فلوريدا الهندية الأسبانية هى الجذابة لكل من يميل الى الهروب ، وخاصة بعد سنة ١٧٣٣ عندما صدر مرسوم أسبانى يدعو العبيد الانجليز للهرب الى فلوريدا · وقد تأكد أحد الكارولينيين الشماليين من أن العبيد المستوردين حديثا فى مستعمرته وأغلبهم من غينيا ، كانوا أقل اجتهادا ، وأكثر نشاطا فى مقاومة الرق أكثر من العبيد « المولودين بالداخل » (١٨) ·

تغير هذا الضرب من العصيان العلنى ، عندما بدأ امتصاص الأفارقة فى حضارة المزارع المتحدثة بالانجليزية · وبالعيش فى المزارع من أى مكان ، وبالعديد من العبيد الى الكثيرين غيرهم ممن « ولدوا بالداخل » ، تعلم القادمون حديثا الطرق الروتينية فى الزراعة ، ونقل الشتلات ، وازالة الأعشاب الضارة ، وتنقية الديدان ، والحصاد ، ونقل المحاصيل · لكنهم تعلموا أيضا طرق التقليل من ملل واجباتهم المرهقة ، والتقليل

منه الى أقصى حد · فكان الابطاء فى العمل ، والتخلف عنه ، وادعاء المرض ، وكسر الأدوات ، وغير ذلك من صور التهرب ووسائل تجنب الارهاق البدنى ، كما كانت صورا ماكرة للتمرد على حالة الرق ذاتها · لذلك كان أصحاب المزارع أمثال لاندون كارتر Landon Carter من فرجينيا لا يكفون عن الشكوى بقولهم : « يبدو أن عبيدنا ذوو قلوب ميتة ، فهم ما بين عاجز عن العمل أو غير مؤد له» (١٩) · وقد قال أحد المراقبين للرق الأمريكى : « يبدو أن العبد لا ينجز أكثر من نصف ما ينجزه العامل فى انجلترا » ، مع « الاهمال الذى يشوب عمله » (٢٠) · ومن بين صور العصيان الأخرى الكثيرة ، كان الهروب الذى يتم عادة بالاختباء فى الغابات ، والخروج على القانون بهجوم العبد الهارب على حقول ملاك العبيد ليلا وعلى مخازن الحبوب وحظائر الماشية والمنازل ، واتلاف المحصول ، واحراق المخازن والحظائر ، وتنظيم السرقات الصغيرة فى ضوء القمر ، حيث يقوم العبيد فى مجموعات بسلب الدجاج والمحاصيل ، والمشروبات الكحولية ، والآلات ، ومحتويات المنزل ثم يبيعونها فى سلسلة السوق السوداء التى تنتشر غالبا ، على مسافات بعيدة ·

هذا وعندما ينتقل العبيد المتفاهمون نسبيا ، من الحقل الى المنزل ، ويغيرون وظيفتهم من عمال زراعيين ، الى خدم فى المنازل ، كانوا يتعرضون لمزيد من التغيرات التى تؤثر فى سلوكهم · فالعبيد ، فى نظر المالك ، يستطيعون أن يهنئوا أنفسهم لما بلغوه من تقدم قربهم من الحياة « المتمدينة » ، ومنحهم وضعا أعلى فى السلطة الهرمية فى المزارع ، مما يخفف عنهم عبء العمل · وبالرغم من أن القليل منهم قد قاوموا هذه الفرصة « للتقدم » المصحوبة بفرص أخرى أفضل ، فى الملبس والمأوى ، كان الكثيرون يدركون أن دور الخادم المنزلى له ثمنه الباهظ لأنه يجعلهم أقرب ما يكونون ارتباطا بآسريهم ، وملازمة لهم ، وهكذا تتقيد قدرتهم على الاحتفاظ ببعض الوسائل القديمة التى كانوا يستطيعون ممارستها ، فى عزلة مناسبة فى أحياء العبيد ، كما يفقدون عضويتهم ـ الى حد ما ، فى مجتمع السود ، كما يفقدون فرصة ابتعادهم عن بصر سكان المزارع البيض ومراقبتهم · وتراكمت على هؤلاء العبيد متطلبات جديدة ، بعد أن أصبح كل اتجاه أو تصرف من العبد تحت الفحص والتدقيق الكاملين من سيده وسيدته ·وبانغماسهم فى العلاقة اليومية بمن يهيمنون على حياتهم ، نشأت لدى كثير منهم مشكلات الكلام ، مثل التأتأة والفأفأة ، وهى علامة ظاهرية تشير الى صعوبة داخلية فى محاولة التصرف بأسلوب يرضى سيده وسيدته ، ولكنه يتضارب مع مشاعره ورغباته الحقيقية · ولم يستطع التمرد أن يأخذ نفس صورته فى الحقل ، ولذلك صارت

وسائل تمرد العبد ، هى السكر والتمارض ، والتوسع فى مخالفة الرأى شفويا ، وعاطفيا ، مع أولئك الذين لهم سلطة التحكم فى رقابهم ٠

ونظرا لأن المزرعة كانت عالما صغيرا بذاته ، مكتفيا اكتفاء ذاتيا نسبيا ، ويضم مجموعة متنوعة من الواجبات لذلك احتاج الى حرفيين مهرة فى النجارة والحدادة ، والطحن ، وصنع الطوب ، والنسيج ، وصنع البراميل واصلاحها ، والتجصيص والنقاشة ، وما شابه ذلك ٠ ونظرا لمهارة العبيد فى ذلك ، أصبحوا أكثر تشربا لحضارة البيض ، يتحركون بحرية أكثر بين المنزل والحقل ، والورشة ، وبين المزرعة والمدينة ، وبين المستودع ورصيف الشحن ٠ وهناك أعمال أخرى ، تتطلب مهارة خاصة ، مثل تجفيف التبغ ، وصنع الأطواف العائمة لنقل حزم الأرز ، والمعديات عبر متاهات الجزر فى مجارى المياه الداخلية فى الجنوب ٠ ولذلك يسجل موللين أن « الحرفيين كانوا أيضا ، مزدوجى الثقافة ، يبلغون الحد الأدنى من الجدارة ، ويظهرون أحيانا علامات الضيق العميق فى مناوشاتهم مع أسيادهم » (٢١) ٠ كما أصبحوا مهرة ، واسعى الخيال فى أسلوب المقاومة ، وكثيرا جدا ما كانوا يهربون أحيانا الى الزنوج الأحرار فى المستعمرات الأخرى ، أو يؤجرون أنفسهم كبحارة ، ويتسوقون من العربات ، ويعيشون فى المدن مع الزنوج الأحرار الآخرين والبيض الفقراء ٠ وتعلموا كيف ينجحون فى التغلب على صعوبات ومشكلات عالم البيض ٠ ولم يكن هروبهم فى مجموعات ، بل بصفة فردية ، وتعودوا استغلال مهاراتهم ودهائهم الجديد ، وذلك دليل على مدى تشربهم الحضارة الجديدة ليجتازوا ببراعة تلك المواقف التى لابد أن يحسنوا فيها أوضاعهم ٠ وقد أعطاهم وضعهم فى قمة سلم العبيد ، المهارات والمميزات التى كانوا دائما قادرين على تحويلها الى مهارات فردية أو عامة لكسر نظام الرق ٠ وقد سجلت دراسة للرق فى عاصمة فرجينيا فى القرن الثامن عشر نسبة الحوادث والهروب العالية بين العبيد الحرفيين ، وهم أكثر الأفارقة الأمريكيين امتزاج حضارة — أو تثاقفا — فى المستعمرة (٢٢) ٠

اذا تمعنا فى استعباد الأفارقة فى أمريكا ، بصفته صداما أو تفاعلا بين حضارتين ، يمكننا أن نرى أن اكتساب العبيد لحضارة جديدة لم يتضمن فقط تكيفهم مع الكدح اليومى المميت فى المزارع ، بل يشمل أيضا التربية على استراتيجية الكفاح للحفاظ على الحياة ، والمقاومة ، والعصيان ٠ لقد أراد ملاك المزارع أن يهيئوا عبيدهم بأسرع ما يمكن فى مجتمع المزرعة الصغير ، الا أنهم ، ويا للسخرية ، كما يقول موللين : « لم ينجح امتصاص العبيد فى المجتمع الاستعمارى الا مع قلة من الأفارقة ٠ أما الكثير من نسلهم فقد أظهروا العصيان والتمرد ، ولذلك كان من

الصعب السيطرة عليهم » (٢٣) • وفى مقارنة مدهشة مع فرضية الكينز الذى صور عملية التثاقف والجمع بين حضارتين أو أكثر من حضارتين بأنها دهاء ، واصرار على فرض احترامه على الآخرين ، نجد الأفريقى ، فى مجتمع العبيد ، فى القرن الثامن عشر ، يبدو أنه قد تواءم مع هذه البيئة الجديدة بطريقة المقاومة الدائمة المليئة بالابتكار • ولقد انتزع سادة العبيد الجهد والعمل والطاعة من عبيدهم بكل معنى الكلمة ــ ولو لم يفعلوا لانهار الرق بالضرورة كنظام اقتصادى واجتماعى ــ الا أنهم فعلوه بصعوبة ، أبعد ما تكون عن النجاح الذى كانوا يرغبونه •

العصيان :

كان العصيان ، بطبيعة الحال ، هو أخطر تعبير عن التمرد • وقد قارنت مجموعة من المؤرخين بين الثورات القليلة نسبيا للعبيد الأمريكيين ، بالثورات المتكررة للعبيد فى البرازيل وجزر الهند الغربية ، وخرجوا بنتيجة أن الأفارقة فى أمريكا كانوا أقل العبيد اتجاها للثورة عنهم فى أى مكان آخر فى نصف الكرة الأرضية ، ولا يوجد فى الواقع تشابه أمريكى لانتفاضات العبيد المكثفة التى حدثت فى جامايكا فى القرن الثامن عشر ، أو موجات العصيان المسلح التى أبقت على مدينة باهيا Bahia فى شمال البرازيل ، فى حالة تمزق بعشرات السنين الأولى من القرن التاسع عشر • وقد حدثت أكبر انتفاضة فى أمريكا المستعمرات ، فى كارولينا الجنوبية سنة ١٧٣٩ عندما حصل حوالى مائة من العبيد على مخزن للأسلحة ، فقتلوا كثيرا من البيض ، وفروا تجاه حدود فلوريدا حيث كانوا يأملون فى اللجوء عند الأسبان ، كما سبق أن فعل نفر قليلون من العبيد منذ عشرات السنين • الا أن الخطة أخمدت بواسطة الميليشيا البيض اعترضوا مجموعة العبيد بمساعدة من الهنود الحمر وهزموهم فى معركة ضارية • وبينما قضى على ثورات قليلة أخرى فى مهدها ، مثل مؤامرة الاستيلاء على أنابوليس Annapolis وميريلاند سنة ١٧٤٠ كانت الثورات الكبيرة من هذا النوع نادرة فى تاريخ الرق الأمريكى ، كما لا نجد نظيرا أمريكيا لأشباه الحكومات التى كونها العبيد الفارين فى سورينام الهولندية ، وجيانا الفرنسية ، وكوبا الأسبانية ، والبرازيل البرتغالية • ففى هذه المنعزلات ، شكل آلاف من العبيد الهاربين مجتمعاتهم الخاصة ، وصمدوا عشرات السنين للمذابح المتكررة على فترات منتظمة على يد جماعات المستعمرين • وتعطينا فلوريدا الأسبانية فقط ، والتى هرب اليها مئات وليس آلاف من العبيد فى القرن الثامن عشر مثالا أمريكيا لأشباه الحكومات هذه •

مثل هذه الأمثلة لا تثبت ، فى الحقيقة العصيان الأكبر لعبيد أمريكا اللاتينية ، وانما تشير الى فرص العبيد للترتيب لثورة ناجحة تزداد بنسبة عكسية مع قوة المجتمع الأبيض • فقد حذر أحد المراقبين سنة ١٧٤١ من أنه « كلما كبر عدد السود فى منطقة من مناطق الحدود ، وكلما عظم التفاوت بينهم وبين عامة الشعب من البيض ، زاد تعرضها للخطر • لأن كل هؤلاء (السود) أعداء يكتمون عداءهم ، ومستعدون للاتحاد مع أعداء هذه التخوم المكشوفة فى أول فرصة تسنح لهم » (٢٤) • وهكذا ، عندما تفوق العبيد على البيض فى العدد بنسبة ستة أو ثمانية الى واحد استطاعوا أن يخططوا للعصيان بصورة متكررة ومنتظمة أكثر مما كانوا أقلية من السكان • وكذلك الحال ، كانت فرص النجاح فى الهرب تؤدى الى الافلات من الرق • ففى البرازيل ، حيث اختلط الأفارقة بالهنود الحمر عدة أجيال ، كانت هناك فرص للاختباء أو الالتحاق بجماعة هندية ، وراء الحدود أكبر بكثير منها فى أمريكا المستعمرات ، حيث نادرا ما تكون مزارع العبيد على بعد يقل عن مائة ميل من ساحل الأطلنطى ، وحيث كان الاختلاط الأفريقى/الهندى خفيفا ، بالمقارنة • ان قلة العصيان الصريح فى المستعمرات الانجليزية الرئيسية لا يدل على زيادة استسلام العبد الأمريكى وخنوعه ، ولكن تفيد فقط فى الاشارة الى المشكلات الأكبر التى يواجهها أى متمرد يكون من المتوقع ثورته ضد مالكيه فى المستعمرات الرئيسية بالقارة • وقد انحصر العصيان فى أحوال مختلفة ، فى أشكال أخرى ، تمتاز بزيادة الحذق والمكر ، وقلة التعرض للخطر ، وزيادة الفعالية •

أصدرت كل المستعمرات ، تقريبا ، قوانين خاصة لمواجهة الحرق العمد للمبانى والممتلكات ، ودس السم ، طوال عشرات السنين الأولى من القرن الثامن عشر ، ثم أعادت تنظيم هذه القوانين ، بعد جيل آخر بزيادة تشديد العقوبة ، ويعتبر كل ذلك اشارة واحدة الى مثابرة المقاومة للاستعباد ، ودليلا على العداء الثابت الذى أظهره العبيد ضد سادتهم • ليس التسجيل التاريخى للثورات المسلحة فى الواقع ، « دليلا قاطعا يفسر مقاومة العبيد » ••• بقدر ما كانت كثرة مجموعات القوانين التى تجيز وسم المجرمين ، والضرب بالسياط ، والحرق ، وبتر الأطراف ، والتعجيز بقطع أوتار الأرجل ، والقتل ، لكى يبقى العبيد مسالمين ، لا يميلون للعنف » (٢٥) • وهناك دليل مشابه ، على أن السود كانوا بعيدين عن الانكفاء على التبعية الناشئة منذ مراحل الرق الأولى وخضوعهم الذليل يمكن أن نجده فى الخوف الدائم من تمرد السود ، الذى وجد طريقه فى المجتمع الأبيض • ونجد المثال الحى على ذلك ، فى رد فعل المستعمرات الجنوبية فى مستهل حرب السنوات السبع سنة ١٧٥٥ •

فقد اشتكى قائد القوات البريطانية فى أمريكا الشمالية وليام شيرلى W. Shirley من أنه لا يمكن توقع شيء من ميليشيا الجنوب ، لأنهم اذا ما تركوا مخيماتهم الحالية ، فلابد أن يهرب العبيد فى جماعات كبيرة الى الفرنسيين الذين كانوا يعدونهم « بالحرية والأرض للاستيطان » • كما سلم لويس ايفانز Luis Evans ، أحد البارعين فى الاستراتيجية فى بنسلفانيا بأن ميليشيا الجنوب لا يستطيعون اتخاذ أية خطوة فيقول : « ان الأحوال العامة لا تطاق ، فمنهم •••• بيض قليلون ، لا يكفون لمنع ارتداد عبيدهم عنهم ، واذا حدث لأى طرف بارز أن انهزم خارج بلده ، فمن النادر أن يتمكن من منع ثورتهم العامة (٢٦) • وأمل حاكم فرجينيا فى أن يوفر قليلا من وحدات الاحتياطى لمجهود الحرب بين المستعمرات ، ولكنه خاف بدرجة كبيرة من « اتحاد العبيد السود ، الذين تجرأوا جدا عند هزيمة نهر أوهايو [لجيش برادوك] » • وتضرع لله أن « نكون قادرين على هزيمة مخططات أعدائنا ، والابقاء على الخضوع التام عند هؤلاء العبيد » (٢٨) •

الرق فى الشمال :

اذا كان العبيد أبعد ما يكونون عن الخضوع والطاعة فى مجتمعات المزارع حيث كانوا يمثلون نصف السكان غالبا • فكيف استجابوا للرق فى المستعمرات الشمالية ، حيث كونوا ٣٪ فقط من مجموع السكان فى معظم نيوانجلند ، وربما ١٠٪ فى رود أيلاند ، ونيوجرسى ، ونيويورك ، وبنسلفانيا ؟ وقبل أن نبدأ أيةاجابة على هذا السؤال ، يجب أن نعرف أن استجابة العبيد فى الشمال كانت لنوع يختلف عن الرق فى مزارع الجنوب • فبجانب تمثيلهم لأقلية صغيرة من السكان ، اختلفت طبيعة عملهم فى المناطق الشمالية ، اذ كانوا يستخدمون فى جماعات للعمل غير المنتظم بالحقول ، ويعملون ، بدرجة نموذجية كحرفيين ، وعمال مزارع بالأجر أو كخدم خصوصيين • وبينما كانت أغلبية عبيد الجنوب يشتغلون بالمزارع مع كثير من غيرهم من العبيد ، كان الرقيق الشمالى النموذجى ، عبدا كان أو أمة ، يعمل بمفرده أو مع واحد أو اثنين فقط من أهل الريف• زيادة على ذلك ، لم يكن العبد الشمالى يحيا فى مثل أحياء عبيد المزارع ، حيث كان يمكن للسود أن يحافظوا بدرجة معقولة على استقلالهم ، وعزلتهم الحضارية ، بعيدا عن أعين المالك • اذ أن كل عبد شمالى ، كان ، فى الواقع ، يأكل ويشرب ويسكن فى منزل سيده • كل هذه العوامل ، أى انخفاض نسبتهم السكانية ،وتفرقهم الواسع ، واحتكاكهم غير المريح بالبيض ، جعلت من الصعب جدا أن يحاولوا الحفاظ على ارتباطهم بالماضى الافريقى ، بينما ضمنت لهم عملية التثاقف بخطى سريعة نسبيا •

لقد كان الرق في المدن الشمالية أكثر ترسخا وعمقا عنه في مناطق الريف • ففي مدينة نيويورك ، حيث بدأ الهولنديون ، في العـادة ، الاعتماد على العبد العامل خلال نصف القرن الذى سيطروا فيه على المدينة كان ٢٠٪ من السكان تقريبا ، أفارقة أمريكيين سنة ١٧٥٠ ، وكان اثنان من كل خمسـة من أرباب الأسر يملكون عبدا واحدا على الأقل • وفي فيلادلفيا وبوسطن في منتصف القرن الثامن عشر ، شكل العبيد نحو عشر السكان ، وتستطيع أن تجدهم لدى أسرة من بين كل خمس أسرات • وفي السنوات العشر السابقة للثورة ، كان أكثر من ألف عبد أسود يعملون لحساب أسيادهم في المدن الثلاث جميعا •

ونظرا لأن عملهم كان أقل مشقة ، بصورة نموذجية ، ومعاملتهم أفضل من مزارع الجنوب ، في العادة • لذلك يتوقع المرء أن يكون العبد الشمالي أقل مقاومة للعبودية من زملائه في الجنوب • الا أن الأمر لم يكن بهذه الصورة • فمثلا ، بالرغم من استيعاب العبيد السود للحضارة الانجليزية/الهولندية في مدينة نيويورك لما يقرب من القرن تقريبا ، الا أنهم لم يكونوا حتى بداية القرن الثامن عشر قد روضوا أنفسهم على الرق ، ولم يتطوروا بشكل يبشر بالنجاح الى عمال لا يحتدون في تذمرهم • فقد قامت مجموعة من أكثر من عشرين عبدا ، في ليل يوم ٦ أبريل ١٧١٢ ، طبقا لتخطيط سابق ، بحرق أحد المباني ، ثم انتظروا الرجال البيض القـادمين للاطفـاء ، وبمهارتهم في استعمال السـكاكين ، والفئوس ، والمسدسات ، قتلوا منهم تسعة ، وجرحوا غيرهم قبل أن يفروا هاربين • وقد ذكرت التقارير فيما بعد أنه « لولا وجود الحامية [من الجنود الانجليز] هناك لأصبحت المدينة كلها رمادا وقتل الجزء الأكبر من السكان » (٢٨) • وعندما أخمدت المؤامرة وجرى التحقيق فيها ، ألقى حوالى سبعين عبدا في السجن ، وحوكم ثلاثة وأربعون ، وأدين خمسة وعشرون وفيهم كثير من النساء والعبيد من الهنود الحمر • ومن الأحكام التى تم تنفيذها ، يتضح لنا مدى الفزع من تمرد السود ، الذى كان يسرى كالحمى في مجتمع البيض ، وهي : اعدام ثلاثة عشر عبدا شنقا ، وموت واحد وهو مصفد في الأغـلال ، وحرق ثلاثة وهم مشدودون على الخازوق ، وتكسير عظام واحد على عجلة التعذيب ، كما فضل ستة آخرون الانتحار على أن يقاسوا العقوبة على يد مجتمع البيض • ثم أصدرت الجمعية التشريعية بنيوريورك قانونا جديدا للعبيد ، على وجه السرعة ، ينظم بدقة حريتهم في التحرك ، ويسلبهم معظم الحقوق التى كانوا يتميزون بهـا حتى ذلك الوقت عن نظرائهم الجنوبيين • كما أسرع المشرعون في المستعمرات المجاورة الى فرض قيود جديدة على السود ، أو فرض ضرائب عالية ، كما حدث في بنسلفانيا ، بدرجة تجعل استيراد الأفارقة عملية غير مربحة •

هذا التعذيب الخاص بالقرون الوسطى ، الذى وقع على المتآمرين سنة ١٧١٢ ، لم يحقق النتائج المرجوة ، من اخضاع الزنوج الشماليين بالارهاب • بعد جيل ، يحمل ذكريات حية لدى كثير من العبيد ، اكتسحت الساحل الشمالى موجة من اضطراب العبيد ، بدأت فى نيوجرسى سنة ١٧٤٠ ببعض حوادث حرق حظائر الماشية أو مخازن الغلال ، وهى حوادث لم تكن شائعة فى الشمال • وقد دفع اثنان من العبيد حياتهم ثمنا لهذا التمرد • • وبعد شهور قليلة اكتسحت سلسلة من السرقات والحرائق مدينة نيويورك ، وكان من بين المبانى المحروقة ، فورت جورج وهو حصن الحامية الانجليزية • وكان من بين المتهمين فى هذه الحوادث حارس حانة للبيض وزوجته ، وعاملة تعمل مومس فى الحانة بعقد • وقد اعترفت بعد قليل من التعذيب بتورط سيدها مع عدد من العبيد فى مؤامرة لحرق المدينة تماما ، وقتل جميع سكانها البيض • ولشدة الخوف من هذه الشائعات أحيلت القضية الى دار القضاء العالى ، ويظل البيان الذى أصدره رئيسه من المحاكمة مصدرا قيما لفهم كل من سلوك العبيد فى مدينة نيويورك ، ومخاوف سكان المدينة البيض •

حوكم اثنان من العبيد بتهمتى السرقة واحتمال التآمر، ولما استحالت اقامة الدليل على تآمرهما ماتا « بصورة بشعة » على المشنقة دون أن يعترفا بشىء • وبعد شهر ، تم شنق الحارس وزوجته بتهمة الخيانة العظمى ، رغم امتناعهما الكامل عن أى اعتراف بخصوص مؤامرة العبيد • وقبل موت الخادمة شنقا بتهمة التآمر أنكرت ما قالته بخصوص المتمردين السود ، الا أن الخوف والرغبة فى ضمان خنوع السود ، كانا يعمان المدينة كلها ، وبدأ تصيد العبيد وتهديدهم بالتعذيب والطرد اذا لم يكشفوا عن شخصيات المتآمرين • وبذلك تم انتزاع اعتراف فى الشهور التالية ، وقبل انتهاء المحاكمة بسنة تقريبا كان قد تم سجن ١٥٠ عبدا ، ٢٥ أبيض، وتعذيب واعدام ثمانية عشر عبدا ، وأربعة من البيض ، وحرق ١٣ عبدا على الخازوق ، مع نقل ٧٠ آخرين خارج المستعمرة الى جزر الهند الغربية •

من المحتمل أن يكون كثير من هؤلاء المقبوض عليهم ، والمعذبين ، والمبعدين ، والمقتولين أبرياء وضحايا الخوف والغضب اللذين سادا نيويورك سنتى ١٧٤٠ ، ١٧٤١ • ولكن رد فعل البيض العنيف ، والذى اذا قورن بمحاكمات العراف سالم Salem فى التسعينات من القرن السابع عشر تعكس الخوف السائد فى المدينة من أن العبيد لابد أنهم يميلون حقا فى صميم نفوسهم للعصيان المسلح ، وأنهم مستعدون لتكرار سلوكهم العدوانى والثورى ضد مجتمع البيض ، ما لم تتخذ أشد الاجراءات قسوة ضدهم • ولو اعتبر سكان نيويورك عبيدهم « سامبو » أو « مولدين »

(من التزاوج بين الزنوج والهنود الحمر) ، وأن فيهم طفولة وانقيادا ، لما أمكن تصديق مؤامرة كهذه ، ولا العقوبة الوحشية التى قابلوهم بها • اذ أن النيويوركيين لم يكونوا راغبين فى تدمير ممتلكاتهم البشرية التى يستثمرونها،ولكنهم يعيشون فى خوف مزعج من أن عبيدهم لابد سيثورون عليهم ، لأنهم تعلموا من سلوك العبيد اليومى أن الأسير الأفريقى مشاكس بطبعه ، مستعد للنزاع ، وعامل دائم المقاومة ، يندر أن يغير تشوقه الى الحرية • وقد بينت أحداث كتلك التى جرت فى نيويورك أنه حتى عبيد المستعمرات الشمالية كانوا يترقبون أية فرصة لكسر قيودهم ، أو اذاقة مجتمع البيض بعض الآلام التى وزعها البيض عليهم من قبل •

بل ان بوسطن وفيلادلفيا ، اللتين كانتا مركز نشاط الدعوة لابطال الرق فى المستعمرات ، كان فيهما بعض المفاهيم الخطأ عن ميل العبيد الى الرضا أو الخنوع • وقد واجه الحكام فى فترة المستعمرات ، استمرار ، حالات مقاومة السود لاسترقاقهم فى بوسطن ، وكان القساوسة البيوريتان أمثال كوتون ماثر يشعرون أنهم مضطرون الى القاء محاضرات على العبيد ، حول المجد الذين يناله فى عيون الرب أولئك الذين يخضعون لسادتهم عن طواعية • الا أن « الولع بالحرية » الذى دفع العبيد الى تحدى أسيادهم ، والفرار منهم ، وتدمير الممتلكات ، والتعبير عن سخطهم بالسكر والمشاكسة والخصام ، لم يقض على صبر البوسطنيين • وحاول رجال الدين القضاء أن يقنعوا العبيد بقولهم : « ان عبوديتكم لطيفة وسهلة•••فأنتم تلقون ما يفوق الانسانية فى المعاملة ، وتنالون الطعام والملبس ، وتنعمون بالمأوى كأحسن ما تتمنون » • وحذروهم : « أنكم اذا أعطيناكم الحرية فلن يحيا الكثير منكم بالقرب منا كما تفعلون الآن » • ورغم ذلك ، يسجل أحد قضاة بوسطن أن العبيد قد انشغلوا « بالطموح المتواصل الى الحرية الممنوعة » (٢٩) •

وفى فيلادلفيا ، حيث أتت جهود الكويكرز لابطال الرق بأسوأ أنواع العبودية فى أمريكا الشمالية ، كان العبيد ، أيضا، يتمارضون ، ويتوقفون فجأة عن العمل ، ويكافحون من أجل حريتهم • وقد كتب بنيامين فرانكلين Benjamin Franklin بنفسه سنة ١٧٧٠ ، وكان له عبد ، الى صديق أوروبى يقول له : « لعلك تتصور أن الزنوج صنف لطيف من الناس أو قابل للتشكيل • البعض منهم كذلك ، فى الحقيقة • الا أن الغالبية منهم نزاعون للتآمر ، وأشرار ، عمى ، عنيدون ، حاقدون ، ميالون للانتقام ، وقساة الى أقصى درجة » (٣٠) • وقد نبعت فكرة جوزيف جالوواى Joseph Galloway ، صديق فرانكلين وأحد ملاك العبيد بأن عبيد فيلادلفيا كانوا مصممين على نيل حريتهم منذ سنة ١٧٧٠ ، عندما دخل

الجيش البريطانى فيلادلفيا ، حيث أعلنت نسبة كبيرة من عبيد المدينة استقلالهم بالانضمام الى القوات البريطانية ، مع أنه بعضهم كان معروفا بحسن معاملة سادتهم لهم ٠

حضارة السود فى المستعمرات الأمريكية :

كانت المقاومة والثورة هما صور الهجوم على نظام الرق ، ومحاولة ايجاد نهاية لهذا النظام الاجتماعى شيئا فشيئا ٠ وكان ميزان القوى ، يتدعم دائما بقوة ضد العبيد ٠ ولذلك لا نندهش من قلة تكون جماعات منظمة للمقاومة ويهمنا جدا أن نحاول فهم كيف كافح العبيد ، وهم يحيون داخل حدود نظام الرق المقيدة لهم فى المحافظة على أكبر ما يستطيعون الابقاء عليه من الاستقلال الشخصى والحضارى ، ليقاوموا عملية تطبيعهم فى قوالب وأنماط عامة شائهة من المواقف التى يحاول مالكوهم التركيز عليها ، والصاقها بهم ٠ واذا نظرنا الى المزرعة أو المدينة على أنها كانت ساحة قتال ، « حارب فيها العبيد سادتهم من أجل البقاء المادى والنفسى » (٣١) ، فان ذلك يساعدنا على أن نمعن النظر بدقة فى جانب حياة السود وحضارتهم فى أمريكا المستعمرات ٠ وهنا يمكننا التركيز بوجه خاص على ثلاثة أوجه من حياتهم وهى : الدين ، والعمل ، والأسرة ٠

الدين :

أتى العبيد الى العالم الجديد ، ومعهم ميراث دينى معقد ، لم يستطع أى قدر من التدمير النفسى أو اساءة معاملتهم بدنيا أن يمحو هذه المعتقدات العميقة الجذور لديهم ٠ وكان الناس لديهم ، فى الواقع ، وهم يتحملون أنواع الضغط اليومى الموروث فى علاقة العبد بالسيد ، يهرعون الى أعمق مصادرهم العاطفية ترويحا عن أنفسهم ٠ ونظرا لمجيئهم من حضارات يضيق فيها جدا تقسيم الحياة بين أنشطة دينية وأخرى مدنية دنيوية بصورة أكبر منها فى المجتمع الأوروبى ، وحيث يضيق الفاصل بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة ، لذلك جعل العبيد الأفارقة الأنشطة الدينية « مجالا للابداع الكامن ، والقوة الاجتماعية الجديرين بالاعتبار » (٣٢) ٠

ولا شك أن العادات الدينية والشعائر الجنازية ، والهياكل المقدسة والتعاويذ الحامية من الأرواح الشريرة ، كانت تستعمل بشكل مخفف فى مزارع العالم الجديد أو دخلت عناصر مسيحية فى تشكيلها ٠ ولا نعرف مدى السرعة التى حدث بها ذلك ، ولكن الواضح أنها اختلفت من مكان الى مكان ٠ ففى نيوانجلند ، كان العبيد قلة فى العدد ، ومحاولات تشريبهم المسيحية كانت نشطة نسبيا ٠ فقد شاع بين العبيد تلقينهم الدروس

الدينية الخاصة والذهاب الجماعى الى الكنيسة ، وأصبح كثير من أطفال السود ، مع منتصف القرن الثامن عشر يلتحقون بالمدارس التى افتتحها الأنجليكانيون والكويكرز • ودأب القساوسة البروتستانت ، فى المدن الشمالية ، على الزواج من الاماء ، وتنصير أبنائهم منهن • كذلك ، طمست الاتجاهات الأفريقية هناك بدرجة أسرع بكثير منها فى الجنوب ، نظرا لسكنى العبيد عادة فى منازل البيض بأعداد صغيرة أكثر من اقامتهم وسط مجتمع أسود فى أحياء العبيد •

لم يكن سادة العبيد ، فى مزارع الجنوب يتلهفون الى رؤية عبيدهم يتعلمون المسيحية ، الا أن الجناح التبشيرى للكنيسة الأنجليكانية ، عملا منه بالخطة العريضة لمورجان جودوين Morgan Godwyn لسنة ١٦٨٠، لتنصير أفارقة المستعمرات الانجليزية وهنودها ، بعث الجناح بمندوبية الى مناطق عديدة فى القرن الثامن عشر ، كما اهتمت كنائس أخرى بإعطاء دروس للعبيد • ومع ذلك من المحتمل أن العقائد والطقوس الأفريقية قد حافظت على بقائها لفترة أطول منها فى الشمال ، نظرا لقدرة العبد على المحافظة على احســاس عميق بالخبرة الجماعية ، وكان على صــلة دائمة بأفريقيا الأم عن طريق العبيد الوافدين عليه حديثا • وبعد أن تحقق سادة العبيد من ذلك ، وجدوا أنفسهم فى ورطة ، اذ أن استمرار الديانة الأفريقية يقوى من الهوية الجماعية ، ويغذى روح المقاومة ، اذن ، لامحالة من ابدالهــا بالعقيدة المســيحية • ولكن مالك العبيد ، لم يكن فى نفس الوقت ، يرغب فى أن يجد ملكيته من البشر يخضعون لفكر جديد يقلل من رغبة العبد منهم فى العمل • لذلك ، عندما سمحوا لعبيدهم بحضور اجتماعات الكنيسة ، كانوا يأملون فى أن يتعلموا مثاليات الخضوع والخنوع والطاعة ، حسبما وعدهــم المبشرون ، لا أن يتعلموا مثاليات الأخوة بين البشر ، وقصة فرار اليهود من الاضطهاد •

لقد كانت المشكلة فى دروس المسيحية ، صعوبة الاقتنــاع بها ، وهى تكشف للعبد عن عناصر الفكر الدينى التى تجعله مطيعا فقط ، بينما تعزله بالقوة عن العناصر التى تغذى فيه الرغبة فى التحرر • وقد حرص القساوسة البروتستانت على أن يطبعوا فى أذهان العبيد بأن قبول المسيحية يجب ألا يفسد بالحصول على الحرية ، واعتمدت معظم المستعمرات القوانين التى توضح ، بلا لبس ، أن التنصير لا يلزم السيد ، أدنى التزام بتحرير عبده • ولكن مع اضطرار العبيد لكبت فــكرة التحرر ، انتشر بينهم فى الجنوب فى القرن الثامن عشر أن التحول الى النصرانية ، وان كان لا يهدف الى فك قيودهم ، الا أنه خطوة أولى فى هذا الاتجاه • فهل يعكس ذلك تعود العبيد على التعاليم الغربية التى تقول بأن المسيحى لا يمكنه أن يستعبد

أخـاه المسيحى ، أم أنه من مصـدر آخـر ؟ ذلك أمر غير مؤكد · ولكن التوازن بين التحول الى النصرانية والحرية النهائية قد ساد وانتشر فى بداية القـرن الثـامن عشر · ففى سنة ١٧٣٠ ، بعد فترة من النشـاط التبشيرى غير العادى ، فى فرجينيا ، بدأ عدد من العبيد المتنصرين يروجون للقول بأن قبولهم للمسيح يخول لهم حريتهم · واجتمع عدة مئات من العبيـد فى مقاطعتى نورفولك وبرنسس آن Princess Anne بفرجينيـا يعدون للثورة · الا أن الخطة اكتشفت وتم شنق أربعة من قادتها · ومنذ ذلك الحين ، ازدادت مقاومة العبيد لعملية الاستجواب المنظم ·

وكان العائق الآخر ، أمام الدعوة للمسيحية ، ذلك الرأى السائد لدى كثير من ملاك العبيد بأن عرض عقيدة نجار الناصرة ، قد جعلت العبيد « مغرورين ، وقحين » كما أمرهم توماس بيكون ، أحد قساوسة تشيزابيك الذى حذرهم بقوله : « يجب ألا تكونوا خدما تحت المراقبة بمعنى ألا تنهمكوا فى عملكم (فقط) الا فى حضور سيدكم » (٣٣) · وقد لاحظ بيتر كالم Peter Kalm ، أحد المسافرين السويديين الى أمريكا ، الاعتقاد السائد بأنه اذا ما تحول العبيد الى النصرانية ، فان أسيادهم « سيعجزون عن المحافظة على تبعيتهم وخضـوعهم بعد ذلك » بسبب الاعتزاز الذى سيشعر به الأفارقة « عندما يرون أنفسهم على نفس المستوى مع سادتهم فى الأمور الدينية » (٣٤) ·

ان مجىء اليقظة الكبرى فى أربعينات القرن الثامن عشر ، قد بشر باقتراب عهد جديد من النشاط وسط أولئك المتلهفين الى تنصير العبيد ، وعهد جديد أيضـا من تقبل العبيـد للتعاليم الخلقية المسيحية · ففى أبرشيه وليامزبورج Williamsburg ، عاصمة فرجينيا ، تم تنصير ما يقرب من ألف عبد خلال جيل واحد فيما بين سنتى ١٧٤٦ ، ١٧٦٨ · كما نشـط البرسبتاريون (المشيخيون) (*) فى المسـتعمرات الجنوبية ابتـداء من حوالى ١٧٤٠ ، حيث نجـد صمويل ديفيز Samuel Davies مثلا ، يفتخر ، فى سنة ١٧٥٠ بأن لديه مائة عبد ضمن أبرشيته فى مقاطعة هانوفر بفرجينيا ، ويدعى بعدها ببضع سنين أن نحو ثلاثمائة من السود تلقوا تعاليم المسيحية على يديه · وقد دون الأنجليكانى جوناثان بوتشر Jonathan Boucher أنه نصر ٣١٥ عبدا فى يوم واحد سنة ١٧٦٧ ، وأنه منذ ذلك اليوم كانت شريحة ضخمة من عبيد فرجينيا ، خاصة أولئك الذين يعيشون فى ضواحى المدن الصغيرة ، مثل وليامزبورج ونورفولك ،

(*) المشيخية : صفة لكنيسة بروتستانتية ، يدير شئونها شيوخ منتخبون ، يتمتعون كلهم بمنزلة متساوية — (المترجم) ·

قد تشربت تعاليم المسيحية على يد الأنجليكانيين والبرسبتاريين ، والميثوديين (المنهجيين) (*) .

ومما أعطى هذه الجهود قوة خاصة هو اغراء وحلاوة التزام أسلوب « الموقظين » ورسالتهم بالعبيد . كان اغراء البروتستانتية محدودا دائما بالنسبة لشعب تقوم ديانة أسلافه في المقام الأول على فهم الطبيعة كقوة كامنة فيهم ومحركة لهم ، ولا تسمح رؤيتهم للبعث والحساب بوجود فروق حادة بين ما هو مدنى وما هو دينى ، فالدين والحياة اليومية لديهم شيء واحد . ولم تكن للصلاة البروتستانتية قوة تذكر على معالجة العالم الغريب الملئ بالقمع والكبت ، والذى وجد العبيد أنفسهم فيه ، رغم تميز هذه العقيدة بالبراعة والتعقل ، وخلوها من العناصر الباطنة الغامضة ، والعناية بها من القساوسة المحترفين الذين يضغطون على السلبية عند المتعبدين . ولكن نظرا لأن النزعة الى احياء كل ما له صلة بالماضى ، وخاصة ايقاظ الشعور الدينى كانت تبشر بميلاد الشخص من جديد ، وتستعمل الحركات الموسيقية والجسدية وتتطلب مشاركة فعالة من كل فرد فى تجربة عاطفية حادة يبدو أنه كان لها سحرها الهائل لدى الأفارقة .وكانت هذه وجهة نظر دينية ساهمت بدرجة كافية مع أساليب السلف ومعتقداتهم مثل التحكم فى الأرواح أو الأشباح ، ولها معنى فى تجارب الحياة اليومية لتسمح باستمرار النزعات الأفريقية ، وأن يأخذ التكيف مكانه فى نفس الوقت مع أشكال الحضارة الجديدة .

لقد كان أمل سادة العبيد فى العقيدة المسيحية ، سواء من حيث الزهد والتقشف أو جانبها العقلانى أو احياء الروح الدينية وعادات السلف أن تقوم مقام الأفيون المخدر للعبيد ، وحتى وان لم يشاركوا عبيدهم فى شيء مما أنتجه عمالهم ، أو تخلوا عن كل حقوقهم عليهم فى حياة عبودية دائمة ، فقد أمكنهم على الأقل أن يواسوا أنفسهم بمعرفتهم أن المسيحية تقر الضعف والفقر والذلة من الوجهة الدينية . هذه الصيغة الجديدة فى الأذهان قد جعلت الذين درسوا عقيدة العبيد السود يفسرون بصورة تقليدية ان أهم تأثير للبروتستانتية على مجتمع العبيد هو الانحراف بعقولهم « عن الآلام والحرمان فى هذا العالم الى عالم ما بعد الموت حيث لابد أن يجد المرهق راحته ، وضحايا الظلم تعويضهم » (٣٥) الا أن العبيد لم يستسلموا لما اختاره القساوسة الأنجيلكانيون أو البرسبتاريون لغرسه

(*) الميثودى او المنهجى : احد أتباع الحركة الدينية الاصلاحية ، التى قادها فى اكسفورد تشارلز وجون ويزلى ، عام ١٧٢٩ ، فى محاولة منهما لاحياء كنيسة انجلترا — (المترجم) .

فى نفوسهم وأذهانهم ، وانما أخذوا ينتقون ما يناسبهم من ديانة البيض ويشكلون خبرتهم الدينية الخاصة بهم بأسلوب لم يعطهم مجالا للحياة شبه المستقلة عن سيطرة السيد فقط ، بل وأمدتهم أيضا بوسائل نفسية مهمة ، تنقل غضبهم وتسلط عدوانهم بطرق لا تجلب عليهم العقاب البدنى من المجتمع الأبيض .

وتكشف الأناشيد الدينية الزنجية ، الكثير عن طبيعة هذه الديانة ذات الحدين . فكثير من أناشيد العبد هذه والتى كانت تعديلا وتكييفا لأناشيد البيض أو توليفة فريدة من نماذج الأنغـام الأفريقية والألحان الأنجلو ـ أمريكية مع كلمات معدلة تعكس كلها ألم تجربة الرق . وكانت بعض هذه الأغانى الزنجية تسمى « أغانى المحنة » أو « أغانى الحزن » ، ويسهل التعبير الموسيقى عن هذا الألم ، بلا شك ، أداء من يغنونها جماعيا . كما كانت الأغانى الدالة على الكفاءة والقوة موضوعا آخر لهذه الأغانى الروحية الزنجية .

ولا يمكننـا معـرفة ما اذا كانت أغان مثـل « نحن شـعب الله » أو « أنا أومن حقا بأنى ابن الله » أو « أنـا مولود من الرب وأعرف أنى كذلك » هل كان العبيد يغنونها فى القرن الثامن عشر أم لا ، طالما أنه من الصعوبة بمكان أن نؤرخ لأصولها . ولكن هناك مبررا بسيطا للاعتقاد بأنه لو كان العبيد وجدوها تعززهم فى القرن التاسع عشر ، لما ابتدعوا أغانى وأناشيد دينية زنجية بموضوعات مشابهة فى فترة ما قبل الثورة . وان المثير للدهشة والاعجاب فى هذه الأغانى أنها تصور مشاعر الجدارة والاستحقاق ، بل والاعتقاد بأن العبيد سينتصرون فى آخر الأمر ، ويسودون، لأنهم أسمى من سادتهم . وفى وسط مجتمع يعمل على اقناع العبد بافتقاره الى الجدارة ، وبفقر حضارته الأفريقية وهمجيته ، تبين الأغانى الاعتزاز الشديد للأسود بسواده ، وشعورا ثابتا وقويا برفقائه من أبناء طائفته ، واحساسا بالهدف من الحياة . وتظهر الموسيقى الدينية الزنجية كم كان صعبا على المجتمع الأبيض أن يلاحظ مدى وعى السود ، وأن يجبروهم على الالتزام بقيم البيض والاهتداء بها ! (٣٦) .

وتشتمل كثير من أغانى العبيد أيضا على موضوع المقاومة والثورة . فالنشيد الذى يمجد شمشون الذى يزأر قائلا : « اذا عرفت طريقى ، فلابد أن أهدم هذا المبنى » قد يكون له معنى توراتى فقط لدى البيض الذين كان يغنونها صبح كل يوم أحد فى كنائس دائرتهم بالجنوب . ولكن المبنى بالنسبة للسود العـاملين فى الحقـل هو صرح العبودية ، وهدمه لا يعنى سوى تدمير نظام الرق كله . ويشبه ذلك نشيد « ألم يحرر الهى

دانيال » الذى يشير الى تحرير اليهود من أعدائهم فـإن له معنى آخر ، حديثا ، لدى العبيد الذين اتخذوه احدى أغانيهم الخاصة ٠

لقد كانت كل الشخصـيات الرمزية تقريبا فى الأناشيد الدينيـة الزنجيـة ، أمثـال دانيال ، وداود ، ويشوع ، ويونان وموسى أبنـاء (اليهود) شخصيات العهد القديم الذين تحرروا من مضطهديهم فى هذه الحياة الدنيا وليس فى الآخرة ٠ كما أنهم تحرروا بطرق ذات معنى خاص لدى العبيد٠فقد شق البحر الأحمر ليترك العبيد اليهود يعبرونه ثم ينطبق على فرعون وجنوده ٠ كما أن شمشون المتهور ، عند تعرضه للخطر هدم قصر الذين هزموه ٠ وكان العبيد فى هذه الأغانى يغنون لما هو أبعد من التحـرر فى الآخـرة ، حيث أشـار لورانس ليفين **Lawrence Levine** أن موسيقاهم الدينية لم تكن مقدسة بالمعنى الضيق لارتباطها بشعيرة دينية معينة أو صلاة الأحد ٠ لقد كانت مقدسة بأسلوب أفريقى واضح بالمفهوم الأكبر لربط حاضر المرء بشـعائره القديمة المتصلة بالأسـاطير والخرافات مع ربطها أيضا بامكانية ميلاد جديد فى المستقبل ٠ فقد خلق العبيـد الذين وقعوا فى قبضة العبودية المؤبدة ، استقلالهم الحضـارى الخاص بهم « يتجاوز حدود العالم الضيق الذى اضطروا للعيش فيه ٠ ومد حدود عالمهم الى الماضى حتى اندمج مع عالم (العهد القديم) ، كما اتجهوا به الى أعلى حتى أصبح هو والعالم الآخر شيئا واحدا ٠ وتعتبر الأغانى والأناشيد الدينية سجلا لشعب اكتشف المنزلة وانسجام المشاعر والمصالح والقيم ، والجماعة التى يحتاجها ليحفظ بقاءه ، مع ابتداعه لعالم متسع ، فى داخله ٠٠٠ » (٣٧) ونرى فى الموسيقى الدينية ، واستمرار المشعوذين فى المزارع ، ورجال الودونية (*) ، والعرافين ، مجـاهدة من الأمريكيين الأفارقة للتكيف مع حضارة البيض مع محافظتهم على بقاء فاصل بينهم وبين عالم سادتهم ٠

العمـــل :

نجـح العبيد الأمريكيون أيضا فى اسـتخدام العمل اليومى أداة للحفاظ على نفسيتهم ، وكيفوا عاداتهم الأفريقية فى العمل مع ظـروف العالم الجديد بما يساعدهم على تحمل حياتهم ٠ وكانوا يدركون تماما أن العمل الذى يؤدونه انما هو لمصلحة سيدهم فقط٠الا أنهم كانوا يتصرفون، أثناء عملهم اليومى بعدة وسائل منها : كسر الفأس أو المجرفة ، واقتلاع

(*) الودونية **Voodoo** دين زنجى ، افريقى الأصل ، منتشر بين زنوج هاييتى ، يقوم بالدرجة الأولى على أساس من السحر والعرافة ٠

الشتلات المزروعة حديثا ، والاهمال في جمع المحصول ، اشارة منهم الى تحديهم لأسلوب سادتهم في زجرهم وحثهم على العمل ، وضربهم على يد المشرفين عليهم بالسياط . وقد تعلم أسيادهم من ردود أفعالهم هذه أن هناك حدودا لا يمكنهم تخطيها . فلم تكن القسوة في دفعهم الى العمل سوى تأكيد لقانون العائد المتناقص . ولم يكن لحرمان العبيد من عطلة يوم الأحد التقليدية أو راحة الكريسماس ، من معنى سوى الحصول على عمل أقل في المستقبل . ويشبه ذلك محاولة فرض مستويات عالية جدا مما يشجع العبيد على انجاز أقل أو الانتقام من سادتهم — وقد أوضحت جريدة كارولينا الجنوبية « الجازيت » هذا الدرس ، سنة ١٧٣٢ ، حيث قررت أن أحد السادة الذى ساق عبيده في هجيع الليل لينظفوا محصول الأرز ويعبئوه في البراميل ، وجد مخزنه قد تحول الى رماد في الصباح « بكل ما كان فيه من قبل » (٣٨) .

وكان للعبيد طرق أخرى ثابتة وأكيدة للمقاومة يعبرون بها عن تفضيلهم « للتوفيق بين العمل ووقت الفراغ بما يظهر ثقافة كل من أفريقية ومزارع العبيد في فترة ما قبل الصناعة » (٣٩) . فمن عادتهم أن يعملوا بجهد ولفترة طويلة في المهام التى تتطلب عملا جماعيا ، ولكنهم يبدون استعدادهم للمقاومة عندما يعملون وحدهم . وهم بتفضيلهم العمل الجماعي ، يظهرون اتجاها نحو العمل ، يغاير تماما مبدأ الفرد الأوروبي في اتباعه « لدافعه الباطني لأداء عمل ما » وتنفيذه بشكل مستقل . فقد عودتهم خلفيتهم الأفريقية على ممارسة العمل الزراعي الجماعي وجاهدوا للابقاء على هذا النموذج من العمل في حياتهم وهم عبيد .

الأسرة :

وقد كشف العبيد عن أهم معقل للدفاع ضد متاعب الرق ، على مستوى الأسرة ، بتلك الروابط الطبيعية الحميمة بين الرجل وزوجة ، والوالد وولده ، والأخ وأخيه . فلم تكن معظم قوانين المستعمرات تعترف بشرعية زواج العبيد أو أسرهم . وقد أشار المؤرخون الى المستعمرات الأسبانية والبرتغالية ، حيث كانت الكنيسة الكاثوليكية تؤيد ، في حذر ، زواج العبد وحياة العبد في أسرة . واعتبروا ذلك أحد الأدلة الدافعة على شدة قسوة النظام الأمريكي ، الذى يتهمونه في أسوأ أشكاله بانكار حق العبد حتى من أبسط الحقوق الانسانية ، وهو الارتباط الأسرى .

ولقد أوضح الباحثون اليوم أن هذه النظرة تنقصها الدقة التاريخية . فهي لا تقوم فقط على أساس الافتراض الخاطىء بأن ملاك العبيد وجدوا أن الغاء الحياة الأسرية يوصلهم الى الادارة الفعالة المربحة للمزارع ، ولكنها

لم تعمل حساب قدرة العبيد على القيام بدور فعال فى تشكيل علاقاتهم الشخصية والاجتماعية الخاصة فى اطار قيود « قانونهم الخاص الفريد ». ولا ريب أن يضع سادة العبيد العقبات فى طريق عبيدهم اذا حاولوا من جديد خلق نماذج الأسرة الأفريقية فى العالم الجديد · ونظرا لاعتبارهم من الممتلكات الخاصة فلا يمكنهم اجراء العقود ، وبالتالى يستحيل زواجهم قانونا · ومن أشد مظاهر الرق وحشية وأهمها ، أن يباع أحد الزوجين فى أسرة لا تقوم الا على زوج واحد فى وقت واحد مما ينهى الزيجة بصورة عنيفة مفاجئة ·

يعتبر النقص العام فى أعداد النساء عائقا آخر أمام الحياة الأسرية المستقرة وذلك بالرغم من عدم الاعلان عن الزيادة العددية فى الذكور فى مستعمرات القارة كما فى جزر الكاريبى وأجزاء كثيرة من أمريكا الأسبانية والبرتغالية · وعلى قدر ما يمكننا التحقق منه من البيانات الضئيلة المتوفرة أن استيراد العبيد كان يتم بنسبة حوالى ثلاثة رجال الى امرأتين ، وكانت هذه الزيادة فى الذكور خاصة فى الجنوب ، تعنى أن اقامة روابط أسرية دائمة أو شبه دائمة لا تتوفر للعدد الكلى للعبيد الذكور · وفى نيويورك، أكبر منطقة يسكنها العبيد فى أقصى الشمال فاق عدد الذكور فوق سن السادسة عشرة عدد الاناث بنسبة ٤ : ٣ فى سنة ١٧٥٦ · وقبل ذلك بسنة وصل التكافؤ فى عدد الأولاد فى رود أيلاند الى ٢٥٠٠ عبد بالغ بينما زاد عدد الذكور فى ميريلاند فى نفس السنة عن الانـاث فى سن البلوغ بنسبة ١١ : ٩ · أما فى دائرة سانت جورج ، بجنوب كاليفورنيا فقد زاد عدد العبيد عن عدد الاماء بنسبة ٥ : ٣ ، سنة ١٧٢٦ (٤٠) · ومع انجاب الأطفال اختفى هذا التفاوت بين الجنسين تدريجيا ، ولكنه لم يصل الى حد التساوى الا بعد انهاء تجارة الرقيق بجيل أو نحو ذلك ، سنة ١٨٠٨ · وفى الشمال ، حيث تقل ملكية العبيد كانت هذه المشكلة أكثر حدة ، لأنه بالرغـم من أن النسبة بين الجنسين كانت على مسـتوى متوازن أكبر منها فى الجنوب ، الا أن معظم ملاك العبيد كان لدى الواحد منهم عبد واحد أو اثنان فقط ، وبذلك كان لا يحدث اجتماع فى المعيشة بين الذكور والاناث من العبيد تحت سقف واحد ، الا بين الحين والآخر ·

ومن المعوقات الأخرى أمام الحياة الأسرية السليمة ، ذلك الدور الذى لعبه اغتصاب الرجل الأبيض للنساء السود ، فكم منهن من اغتصبت أو أغويت بالوصال فى علاقات جنسية مع سيدها الأبيض ! · ولو أننا اذا احتكمنا الى القدر الكبير من السكان الخلاسيين (المولدين) حتى سنة ١٨٠٠ لابد أن يكون عددهم كبيرا · ولعل أقصى أسلحة المالك الأبيض تدميرا للنفس وازعاجا لحالة العبد الاجتماعية أن يرى العبد — أو يعرف — أن

سيده يغتصب زوجته أو يغويها على ذلك • وقد كتبت أنجيلا ديفيز Angela Davis « ان اغتصاب المرأة السوداء ، لم يكن من الناحية السياسية ، قاصرا على مجرد الاعتداء عليها ، ولكن كان مجتمع العبيد ككل هو الهدف غير المباشر • اذ كان السيد ، وهو يشن الحرب الجنسية على المرأة ، لا يؤكد سلطته على أحد الأشكال المهمة الخطيرة فى مجتمع العبيد ، بل كان يهدف أيضا الى تسديد ضربة الى الرجل الأسود » (٤١) •

ذلك الألم المبرح الذى نتج بهذه الصورة كانت له آثاره الجارحة حتما ، على محاولات بناء زواج مستقر ، حيث لم يكن لرب الأسرة حول ولا قوة فى حماية أقرب الناس اليه من أشد أشكال التهجم عليه عمقا وايلاما • ويشير رجوع الكثير جدا من الكتاب والروائيين السود فى العقود التى تلت انتهاء الرق الى هذا الموضوع السابق الى مدى عنف الألم الذى استمر يتردد فى وعى السود وضميرهم • ومثال ذلك ، ما كتبه ديبوا W.E.B. Dubois بعد ثلاثة أرباع قرن من التحرر :

> **« سوف أسامح الجنوب الأبيض كثيرا يوم الحساب : أغفر له رقه ، لأن الرق كان عادة قديمة قدم العالم ، وسأغفر له مقاومته لقضية كانت خاسرة تماما ، ولتذكرى هذا الصراع بدموع حارة ، غزيرة ، سأغفر له مايسمى «بالتفاخر بالجنس» وهيامه بدمه المتاز ، وحتى خيلاءه وتكلفه القديم المثير للضحك • ولكن لن أغفر له شيئا واحدا ، لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ، ذلك هو اهانته الوحشية المستمرة المتعمدة ، التى لا مبرر لها ، للأنوثة السوداء التى كان يبحث عنها بشبق لاشباع شهوانيته بصورة داعرة » (٤٢) •**

على هذا المستوى من العقبات الهائلة ، كان العبيد قادرين على اقامة روابط جوهرية حميمة بين الرجل والمرأة والوالد والابن • فقد أقاموا باستمرار زيجات بين العبد وأمة واحدة ، فاذا لم تكن هذه الزيجات قد استمرت طويلا كما فى مجتمع البيض ، فيكمن تفسير كثير من ذلك بمواقف النظام نفسه واتجاهاته التى كانت فوق سيطرة العبد مثل فترة الحياة القصيرة للأمريكيين الأفارقة ، وانقطاع الزواج بسبب بيع أحد الزوجين أو كليهما ، والدعوة الى الحرية التى دفعت الكثير من العبيد الى الهرب • وقد شجع كثير من المزارعين عبيدهم على الحياة مع بعضهم البعض والقيام بدور الأبوة لأنهم اكتشفوا أن العبيد يكونون أكثر أداء للواجب وأكثر انتاجا عندما يرتبطون بزوجة وذرية • ولم يكن اهتمامهم بأخلاقيات عبيدهم هو الدافع الى تشجيع الزواج والحياة الأسرية قدر اهتمامهم بزيادة ناتج عملهم الى الحد الأقصى ، وتقليل تمردهم الى أدنى درجة •

ما وظيفة الرجل ، ووظيفة المرأة داخل الأسرة السوداء ؟ اكتسب هذا السؤال المتداول كثيرا ، أهمية جديدة ، لأن الفكرة السائدة أن أسرة الرفاهة برئاسة المرأة هي امتداد وصدى طبيعي لمجتمع الأمومة لدى العبيد. وعلى هذا الرأى كتب عالم الاجتماع فرانكلين فريزيار Franklin Frazier أن « كانت الأم هى الرأس المميز فى مجموعة الأسرة ، بصفة عامة · فقد كانت هى ربة الكوخ الذى يحضر اليه (الزوج) أو الأب فى زياراته الأسبوعية عادة · وفى مثل هذه الأحوال ، تأخذ المجموعة الأموية شكلها ، وتمتد جذور مسئولية المرأة الزنجية عن أسرتها » (٤٣) · ومن المفروض ، طبعا ، وتبعا لهذه الصيغة أن ينشأ العبد بعد التحرر فى حياة أسرية عادية، باهتة التقاليد ، بعد أن صدمته المشاكل عند محاولته التكيف كرجل حر مع عالم مدنى وصناعى متزايد ، فلم يستطع العتقاء أن يكونوا مع بعضهم نفس الخلية الأسرية ذات الأب والأم والتى كانت نموذجا فى المجتمع الأبيض ·

بالرغم من وجود تكوين الأسرة الأموية السوداء ، بلا شك ، الى حد ما فى المستعمرات الجنوبية فى القرن الثامن عشر ، يظل الشك قائما فى أن هذه كانت خاصية مميزة لأسرة العبيد · ولا شك أن الرجال من العبيد كانوا مخصيين أو عاجزين على الأقل بوسائل سلطوية ، ما داموا لم يستطيعوا الهيمنة على علاقاتهم مع أسرهم ومجتمعهم ، كما كانوا يفعلون من قبل فى قراهم القبلية فى أفريقيا · الا أن الرجل الأسود كان يؤكد سلطته بتكملة مؤونة الأسرة من الغذاء عن طريق صيد الحيوان بالشراك ، وتنظيم رقعة الحديقة الصغيرة وراء كوخه ، وتدريب أولاده ، وأهم من ذلك كله ، أنه كان الشخص الأساسى فى المقاومة النشطة للرق · فتزوج العبيد فعلا من الاماء ، وأقاموا بنجاح ملحوظ حياة أسرية مستقرة نسبيا ، متسلحين بالموروثات الرادعة الفطرية الأصيلة فى وضعهم الاجتماعى · واستطاع العبيد فى بعض الحالات الحفاظ على علاقاتهم الأسرية بالتهديد بالثورة أو العصيان ، ومثال ذلك ، عندما ترنحت حكومة كارولينا الجنوبية تحت ضربات اليماسى سنة ١٧١٥ ، تفاوضت على تعهد بتبادل ١٣٠ من رجال الميليشيا فى فرجينيا نظير عدد مماثل من الاماء ، الا أنهم اضطروا الى الرجوع عن هذه الصفقة تحت التهديد بالعصيان المسلح الشامل من العبيد ، اذا ما أرسلت الاماء الى الشمال (٤٤) ·

وبينما كافح الرجال العبيد للحفاظ على دورهم فى الأسرة السوداء ، احتلت نساؤهم مكانا فى الأسرة والمجتمع الأسود يختلف تماما عن مركز النسوة فى مجتمع البيض فى القرن الثامن عشر · ففى هذا القرن ، وخاصة

فى المزارع الجنوبية قيدت فكرة بقاء المرأة فى البيت النساء البيض ، حيث ينتظر منهن القيام بدور الحارس على فضيلة البيض وحضارتهم ، ثم فقدت البيضـاوات درجـة استقلالهن التى كانت من مميزات المرأة فى الريف الأوروبى • وبالمقارنة ظل للنساء السوداوات شأنهن ، الذى لا غنى عنه لكل من العمل بالمزرعة واستقرار مجتمع العبيد • فكن يعملن فى الحقول ، كما يعملن فى أكواخهن • وقد كتبت أنجيلا ديفيز ، ساخرة « كان على الأمة أن تتحرر من قيود أسطورة الجنس اللطيف ••• فلكى تؤدى دورها كأمة ، كان عليها أن تلغى دورهـا كامرأة » أى امرأة فى وضعها التـاريخى تحت الوصاية الكاملة للرجل • فقد وضعتها القوة المطلقة للأمور على قدر المساواة مع رجلها •••• فلم تستطع تركيبة التفوق لدى الذكور أن تنسج تماما فى التركيبات الذاتية لنظام الرق (٤٥) •

لم تكن سلبية المرأة وانسحابها الى موقعها فى الحياة المنزلية الذى بدأ يميز حياة المرأة البيضاء فى القرن الثامن عشر ، فى المزارع الكبيرة ، وفى الطبقة العليا فى الأوساط المدنية الشمالية ، كل ذلك لم يكن جزءا من حياة المرأة السوداء التى احتفظت بشكل متناقض ظاهريا ، وبسبب وقوعها فى ربقة الرق ، بمركز قوة واستقلال ذاتى داخل مجتمع السود ، مما جعلها أكثر مساواة للرجل منها فى حالة النسوة فى مجتمع البيض • فقد كانت الأسرة السوداء شركة متساوية فى أداء المهام وتحمل المسئوليات ، فكانت تشبه كثيرا من هذه الناحية أسرة الألجونكي والسيؤو فى تركيبها أكثر منه فى نظام الأسرة الأوروبية ، حيث كانت للنساء الهنديات أهمية كبيرة فى العمل الزراعى والمشاركة فى مسئوليات تربية الأبناء ، واحتفظت بصفة عامة ، بدرجة من القوة والاستقلال الذاتى لم يكن يسمح بمثلها فى مجتمع البيض •

ولما كان الرق ، فوق كل شىء ، نظاما يعتصر أكبر كمية من العمل من ضحاياه ، لذلك اشتمل فى الغالب على ضروب من القسوة والوحشية جعلت من الصعب ، تقريبا ، الحفاظ على الحياة الأسرية • الا أن العبيد الأمريكيين ، كانوا يحظون ، عامة ، بالكساء ، والغذاء ، والمعاملة الطيبة أكثر من عبيد جزر الهند الغربية ، والبرازيل ، والأجزاء الأخرى من العالم الجديد ، حيث لم يكن للمجتمع الأبيض جذور راسخة ، وحيث وجد ملاك المزارع أن تشغيل عبيدهم حتى الموت ، ثم شراء بدلاء عنهم ، أقويـاء ، نشطين من أفريقيا أمر يزيد من ربحهم • ولما كان للعبيد أثرهم فى تكوين حضارة خاصة بهم • كما كتب أحد العلماء السود حديثا قائلا : « استطاع العبيد بذلك أن يصوغوا أسلوب حياة ومجموعة قيم — تعبر عن روح الجماعة

وعبقريتها ــ حفظتهم من أن يكونوا جميعا سجناء التعريفات المحددة التى حاول المجتمع الأكبر فرضها عليهم • وكانت روح الجماعة وعبقريتها هذه مزيجا من الخصائص الأفريقية وعناصر العالم الجديد التى ساعدت العبيد ... (أن يتحسسوا طريقهم على طول مسيرة الرق الأمريكى ، ومكنتهم من أن يتحملوا) .... » (٤٦) •

هذا ولا يمكننا من ناحية الكم أن نحدد ، أبدا ، مقدار الحضارة التى استطاعت أن تبقى تحت ظروف الرق فى القرن الثامن عشر • وليس هذا بالأمر المهم جدا وأهم من ذلك أن تفهم أن الأفارقة فى المزارع الانجليزية قد كيفوا عناصر من الحضارة الأفريقية مع متطلبات الحيـاة الجديدة فى بيئة جديد • ولا شك كثيرا فى فى أن سادة العبيد كانوا مصممين على ازالة كل سمة أفريقية تقلل من فاعلية العبيد فى العمل ، وحققوا فى ذلك بعض النجاح •ويصدق القول أيضـا بأن الرق قد أزال كثيرا من الاختلافـات الثقافية بين العبيد الذين جاءوا من تشكيلة واسعة من جماعات حضارية أفريقية مثل ، الفولانى ، والايبو ، واليوروبا ، والملاجاسى ، والأشانتى ، والماندينجو ، وغيرهم • ولكن يجب ، أن نتذكر فى نفس الوقت ، أنه خلال القرن الثامن عشر ، وعلى خلاف القرن التاسع عشر ، كانت أعداد كبيرة من الأفارقة الجدد تصل كل عام ، وزادت مرات استيراد العبيد بسرعة فى القرن الثامن عشر ، لدرجة أن أصبح من المحتمل ألا يزيد العبيد الأمريكيون بالمولد عن أكثر من النصف أبدا ، وربما الثلث من البالغين • وقد حفظ هذا التدفق المستمر للحضارة الأفريقية كثيرا من عناصرها التى تحولت فيما بعد بدرجة يصعب معها تمييزها • ومن خلال تعديل حضارتهم الخاصة المتميزة داخل القيود الصارمة لنظام الرق ، اسـتطاع السود أن يحافظوا على صورهـم الدينية شـبه المختلفة ، وموسيقاهم ورقصـهم الخاص ، وحياتهم العائلية ومعتقداتهم وقيمهم الخاصة بهم • وقد أثبتت جميعا أنها كانت وسائل للبقـاء يصعب انكارهـا فى نظام العمل الاجبارى • وقد كان على العبيد التظاهر بالاحترام ، وادعاء الخضوع وهم مكرهون بشدة فى وجوه كثيرة • ورغم ذلك احتفظـوا بعنـاصر مهمة من حضـارتهم التقليدية ، وتعلموا أن يكسبوا بجهدهم مجالات من النشاط بعيدا عن الاحتكاك بالسادة أو المشرفين مما أعطى الحياة معنى وأهمية لديهم •

المراجــع

1. Eugene D. Genovese, « In Red and Black : Marxian Explorations in Southern and Afro-American History » (New York : Random House, Inc., 1971), p. 106.

2. Daniel P. Mannix and Malcolm Cowley, « Black Cargoes : A History of the Atlantic Slave Trade, 1518-1865 » (New York : The Viking Press, Inc., 1962), pp. 101-2.

3. Quoted in Basil Davidson, « The African Slave Trade : Precolonial History, 1450-1850 » (Boston : Little, Brown and Company, 1961), p. 92 .

4. Ibid.

5. Quoted in Mannix and Cowley, « Black Cargoes », p. 48.

6. Equiano, « The Interesting Narrative of the Life of Olaudah Equiano, or Gustarvus Vassa, the African » (London, 1789), rpr. in « Africa Remembered : Narratives by West Africans from the Era of the Slave Trade », ed. Philip Curtin (Madison : University of Wisconsin Press, 1967), p. 92.

7. Davidson, « African Slave Trade », pp. 94-95.

8. Edward Long, « The History of Jamaica » (London, 1774), quoted in Mannix and Cowley, « Black Cargoes », p. 111.

9. George Rawick, « From Sundown to Sunup : The Making of the Black Community » (Westport, Conn. : Greenwood Publishing Co., 1972), p. 6.

10. Oliver P. Chitwood « A History of Colonial America, 3d ed. » (New York : Harper & Row, Publishers, 1961), pp. 351-52.

11. Stanley M. Elkins, « Slavery : A Problem in America Institutional and Intellectual Life » (New York : Grosset & Dunlap, Inc., 1963), p. 82.

12. John W. Blassingame, « The Slave Community Plantation Life in the Antebellum South » (New York : Oxford University Press, Inc., 1972), p. 93.

13. Ibid., p. 200.

14. See especially Ann J. Lane, ed., « The Debate Over Slavery : Stanley Elkins and His Critics » (Urbana : University of Illinois Press, 1971).

15. Blassingame, « The Slave Community », p. 154.

16. Quoted in Donald D. Wax, « Negro Resistance to the Earth American Slave Trade », Journal of Negro History, 51 (1966) : 11.

17. Gerald W. Mullin, « Flight and Rebellion ; Slave Resistance in Eighteenth-Century Virginia » (New York : Oxford University Press, Inc., 1972), pp. 39-47.

18. John Brickell, « The Natural History of North-Carolina » (Dublin, 1737 ; repub. Raleigh, N.C. : [n.p.] 1911), 272-73.

19. Quoted in Mullin, « Flight and Rebellion », p. 53.

20. Quoted in Ibid., p. 54.

21. Ibid., p. 83.

22. Thad W. Tate, « The Negro in Eighteenth-Century williamsbury » (Williamsbury, Va. : Colonial williamsbury, 1965), pp. 198-99.

23. Mullin, « Flight and Rebellion », p. 38.

24. [Benjamin Martyn], « An Imperial Inquiry into the State and Utility of the Colony of Georgia (London, 1741), quoted in Peter Hutchins Wood, « Black Majority : Negroes in Colonial South Carolina from 1670 through the Stono Rebellion » (Ph. D. diss, Harvard University, 1972), p. 290.

25. Sidney Mintz, « Toward and Afro-American History », Journal of World History, 13 (1871) : 321 .

26. Quoted in Lawrence H. Gipson, « The Great War for Impire : The Years of Defeat, 1754-1757 (New York : Alfred K. Knopf, Inc., 1946), pp. 14-15.

27. Ibid., p. 15.

28. Quoted in Kenneth Scott, « The Slave Insurrection in New York in 1712 », New York Historical Society Quarterly, 45 (1961), : 51.

29. Lawrence W. Towner, « 'A Fondness for Freedom' : Servant Protest in Puritan Society », William and Mary Quarterly, 3d Ser., 19 (1962) : 202.

30. « A Conversation between an Englishman, a Scotchman, and an American », in Verner W. Crane, « Benjamin Franklin on Slavery and American Liberties », Pennsylvania Magazine of History and Biography, 62 (1938) : 8.

31. Blassingame, « Slave Community, p. 184.

32. Rawick, « From Sundown to Sunup, » p. 32.

33. Bacon, « Sermons Addressed to Masters and Servants ... » (Williamsburg, Va., 1743), in « Bases of the Plantation Society, » ed. Aubrey C. Land (New York : Harper & Row, Publishers, 1969), p. 232.

34. Peter Kalm's Travels in North America, ed. Adolph B. Benson (New York : Dover Publications, Inc., 1966), 1 : 209.

35. E. Franklin Frazier, « The Negro Church in America » (New York : Schocken Books, 1964), p. 45.

36. Lawrence W. Levine, « Slave Songs and Slave Consciousness : An Exploration in Neglected Sources », in « Anonymous Americans : Explorations in Nineteenth-Century Social History », ed. Tamara K. Hareven (Englewood Cliffs, N.J. : Prentice Hall, Inc. 1971), pp. 99-130.

37. Ibid., p. 115.

38. South Carolina « Gazette », Oct. 14, 1732, cited in Wood, « Black Majority, » p. 446.

39. Eugene D. Genovese, « The History of Slaves », New York Review of Books (Sept. 21, 1972), p. 17.

40. Evarts B. Greene and Virginia D. Harrington, « American Population Before the Federal Census of 1790 ».
(New York : Columbia University Press, 1932), pp. 67, 101, 126 ; Frank J. Klingberg, « An Appraisal of the Negro in Colo-

nial South Carolina : A Study in Americanization » (Washington, D. C. : The Associated Publishers, 1941), pp. 58-60.

41. Angela Davis, « Reflections on the Black Woman's Role in the Community of Slaves », Black Scholar, 3 (1971-72) : 13.

42. W.E.B. Dubois, « Darkwater : Voices From Within the Veil (New York : AMS Press, 1969), p. 172.

43. « The Negro Family in America », quoted in « Black Matriarchy : Myth or Reality ? » ed. John H. Bracey, Auguts Meier, and Elliott Rudwick (Belmont, Cal. : Wadsworth Puplishing Co., 1971), p. 8.

44. David D. Wallace, « South Carolina : A Short History, 1520-1948 » (Chapel Hill : University of North Carolina Press, 1951), p. 91.

45. Davis, « The Black Woman's Role », p. 7.

46. Sterling Stuckey, « Through the Prism of Folklore : The Black Ethos in Slavery », The Massachusetts Review, 9 (1968) : 418.

الفصل التاسع

تحول الحضارة الأوروبيـة

بلغ عدد سكان المستعمرات الأوروبية الملاصـقة للساحل الشرقى للقارة ، سنة ١٦٥٠ ، حوالى خمسين ألفـا • وتضاعف هذا العدد ، بعد نصف قرن ، خمس مرات ، ليصل الى ربع مليون نسـمة • وفى سنة ١٧٥٠ ، ازداد العدد الى الخمسة أمثال ، وفيهم حوالى ٢٠٠ ألف أفريقى • وهذه نسبة فى الزيادة السكانية لم تكن معروفة فى أى مكان آخر فى العالم • وقد بلغ سكان المستعمرات الانجليزية فى أمريكا فى منتصف القرن الثامن عشر ثلث عدد الانجليز أنفسهم ، مما دفع علماء الاحصاء السكانى القدامى ، أمثال بنيامين فرانكلين الى تقدير أنه بعد أربعة أجيال أخرى سيفوق عدد سكان المستعمرات سكان البـلاد التى جاءوا منها •

المهاجرون من أوروبا :

بطبيعة الحال ، لم يكن هؤلاء الأمريكيون الأوائل ، الذين تضاعفت أعدادهم بسرعة ، من الانجليز فقط ، فقد جاء مهاجرو القرن السابع عشر أساسا من انجلترا ، واختلطوا بأعداد صغيرة من الهولنديين والفنلنديين ، الذين كانوا مقيمين فعلا على امتداد الساحل ومع عـدد ضئيل نسبيا من الألمان والايرلنديين من أصل اسكتلندى ، والفرنسيين ، والأفارقة الذين وصلوا أخيرا خلال القرن السابع عشر • والقرن الثامن عشر هو قرن هجرة غير الانجليز • فقد تدفق فى بداية العقد الثانى من القرن آلاف من الألمان والسويسريين والايرلنديين من منطقة ألستر بشمال ايرلنده ذوى الأصل الاسكتلندى والأفارقة • وقد جاء بعضهم طواعية والبعض الآخر كرها ، ومع ذلك ، فسواء وصـلوا كعبيـد أو كخدم بعقود ذات أجل ، أو أحرارا ، نجدهم قد عدلوا بدرجة بالغة فى جينات السكان الموجودين ، بحيث لم يبق أى دم انجليزى يجرى فى عروق نصف السكان تقريبا فى المستعمرات الثلاث عشرة بنهاية العصر الاستعمارى ، عندما أخذت بوادر الثورة تلوح فى الأفق ، وكانت هذه أكبر نسبة من المواليد غير الانجليز

فى التاريخ الأمريكى ، حتى بعد تدفق الأوروبيين الهائل فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ٠ ولم يحدثنا التاريخ ، أساسا ، عن حياة شريحة صغيرة فقط من هؤلاء السكان ، فنحن نعرف الكثير عن القادة السياسيين والعسكريين والرجال الذين جمعوا الثروات ، وأولئك الذين تركوا ، بحكم مراكزهم العليا فى المجتمع ، أسماءهم وآراءهم في السجلات الرسمية والشخصية فى ذلك الوقت ٠ ولكن التغير الحضارى الذى ما كان ليحدث خلال القرن قبل الثورة قد حمل الكثير من الأعمال لآلاف الأفراد « الصامتين تاريخيا » والتى تفوق بكثير أعمال القادة الذين شكلت أقوالهم وأفعالهم معظم تاريخنا المكتوب ٠ وقد كتب جون آدامز بعد الثورة أن « من الواضح التزام الرجل الفقير بما يمليه الضمير ، ورغم ذلك فهو خجول ٠٠ يشعر بأنه غائب عن نظر الآخرين ، وهو يتلمس طريقه فى الظلام ، فلا تنتبه البشرية اليه ٠ يهيم أو يضل الطريق دون أن يلفت الأنظار ٠ وهو فى وسط الزحام ، وفى الكنيسة ، فى السوق ٠٠٠ ضئيل ، مغمور ، كما لو كان (شيئا) فى علية البيت أو قبو الخزين ، ليس ذلك عن لوم له أو استهجان ، أو عيب فيه ، فهو غير مرئى ، ليس الا » (١) ٠ ويشبه ذلك أن المؤرخين « لم يروا » الجزء الأكبر فى مجتمع المستعمرات الذين نتبين آثار أقدامهم الآن على رمال الزمن ٠

لقد كانت طريقة الأداء ، والانحراف عن السبيل المألوف ، واتجاهات ، وآمال ، ومخاوف جمهور الأفراد العاجزين ، غير ذوى الأهلية هى التى أدت الى التغير الحضارى الواضح فى أمريكا فى القرن الثامن عشر بدرجة جعلت الطبقة الأرستقراطية الأوروبية لا تمل من التجوال فى المستعمرات وتسجيل الخصائص المميزة للناس الذين يرونهم مختلفين تماما عمن عرفوهم فى أوروبا ٠ وكان كل ما وصفوه ـ بالرغم من أدائه بطريقة عملية كاملة ـ هو مجموعة من الأنشطة الاقتصادية وأشكالا من التنظيم الاجتماعى والسياسى ومجموعة مؤلفة من القيم والمبادىء التى انصهرت معا فيما نسميه حضارة ٠ وخلال ثلاثة الأرباع الأولى من القرن الثامن عشر ، تغيرت هذه الحضارة بشكل واسع بحيث لو رآها جون سميث أو جون وينتروب ـ فيما لو عادا الى الحياة اليوم ـ لأصابهما الذعر ٠

الطبقات الاجتماعية :

لعبت الأصول الاجتماعية لأولئك الذين اندفعوا أفواجا الى المستعمرات فى القرن الثامن عشر ، دورا فى عملية التحول الحضارى ٠ فمن الطبقات العليا للمجتمع الأوروبى ، لم يأت أحد تقريبا ، ونجد أن

عددا من الانجليز فى قمة الهرم الاجتماعى ، فى القرن السابع عشر ، قد قاموا بدور ايجابى فى استعمار العالم الجديد ، أمثال : والتر رالى ، وريتشارد جرينفيل فى فرجينيا ، وآل كالفيرت the Calverts الذين أسسوا ميريلاند ، وملاك كارولينا ونيوجرسى أصحاب المراكز والسلطة فى بلاط تشارلز الثانى ، وحفنة قليلة غيرهم • ولكنهم أسهموا فى كثير من ذلك بأموالهم وقدرتهم التنظيمية أكثر منه بأرواحهم • ولم ينطلق من قيودهم بانجلترا سوى القليلين الذين هاجروا بشكل دائم الى أمريكا ، وكان المهاجرون من أمثال هذه الطبقة العليا قليلين جدا ، فى القرن الثامن عشر ، حيث اعتاد بارون دى جرافينريد de Graffenried ، وكونت فون زينزيندورف Zinzendorf فقط أن يقودا من آن لآخر مجموعات من الألمان والسويسريين والايرلنديين من أصل اسكتلندى الى عمق القارة فى بنسلفانيا وفرجينيا وكارولينا الشمالية والجنوبية ـ وهما يمثلان الطبقة العليا فى المجتمع الأوروبى •

ويلى النبلاء ، على المستوى الاجتماعى ، أبناء البلد ، ومعهم مجموعة موظفى الحكومة ، وأعضاء المهن ، والتجار الأغنياء وهؤلاء الرجال الذين قاموا جميعا بشركات المحاصة (*) التى اكتسبت أهمية كبيرة فى الأخذ بيد المستوطنات فى أوائل القرن السابع عشر ، واستمروا فى تقديم جزء كبير من رأس المال المستثمر اللازم لتنمية اقتصاد أراضى ما وراء البحار • وساهموا فى القرن السابع عشر ، بشكل جوهرى فى الهجرة الى الأطلنطى سواء بحضورهم بأنفسهم أو بارسال أبنائهم الشباب • ويدخل فى هذه الفئة ، القساوسة البيوريتان من خريجى أكسفورد وكامبردج ، وكثير من التجار الأوائل فى بوسطن وفيلادلفيا ، وبعض أصحاب المزارع الكبار فى فرجينيا وميريلاند وكارولينا الشمالية والجنوبية • ومع ذلك ، من المحتمل أنهم جاءوا فى القرن الثامن عشر بأعداد أقل من ذلك •

ويأتى فى الدرجة التالية ، صغار ملاك الأراضى الزراعية فى الريف وأصحاب المتاجر الحرفيين فى المدن ، وكان لهم احترامهم فى السلطة الهرمية فى المجتمعات الأوروبية ، ولهم حق المشاركة فى الحياة السياسية، ووزنهم كبير فى عضوية الكنيسة •

(*) شركات المحاصة : شركات مستترة ليس لها وجود قانونى ازاء الغير ، حيث لا يعلم الغير شيئا عن وجودها ، ولا يعرف الشركاء فيها ، ويتم تعامل الشركاء مع الغير بصفتهم الشخصية ولحساب الشركة • وتنحصر علاقة الشركاء ببعضهم فى مجرد اقتسام الأرباح والخسائر طبقا للشروط المتفق عليها ـ (المترجم) •



١ ـ ماين (جزء من ماساشوستس)	٢ ـ نيوهامبشير	٣ ـ ماساشوستس
٤ ـ كونيكتيكت	٥ ـ نيويورك	٦ ـ بنسلفانيا
٧ ـ نيوجرسى	٨ ـ ديلاوير	٩ ـ فرجينيا
١٠ـ كارولينا الشمالية	١١ـ كارولينا الجنوبية	١٢ـ جورجيا
١٣ـ ميريلاند		

وعادة ما يدفعون بأنفسهم ، من خلال العمل الشباق ، والحظ السعيد ، أو الزواج المميز ، للرقى درجة أو درجتين فى السلم الاجتماعى ، أو يعيشون على الأقل ليروا ابنا لهم يدخل احدى المهن أو يباشر عمله فى التجارة • ولعلهم يمثلون ثلث المهاجرين الى المستعمرات ، وهناك شكلوا العمود الفقرى للطبقة المتوسطة ، ثم ارتقوا وبسرعة الى درجة أعلى فى مجتمع به ثروات وفيرة ، فهم مجموعة من الكادحين ، الطموحين ، المهرة الذين استطاعوا الارتفاع بحظوظهم وثرواتهم بطريقة كانت مستحيلة تقريبا لو ظلوا قابعين فى وطنهم •

واذا أخذنا هذه الجماعات الجدد ككل ، من النبلاء والطبقة الحاكمة ، والطبقة المتوسطة من المجتمع الأوروبى نجدهم يمثلون نحو نصف الأوروبيين الذين سافروا بحرا الى الجانب الغربى من الأطلنطى فى القرن السابع عشر ، وربما كانوا يمثلون أقل من ثلث المهاجرين فى القرن الثامن عشر • ويتكون باقى سكان المستعمرات من الخدم المتعاقدين، رجالا ونساء وأطفالا ، والذين لم يكن لديهم ما يكفى لسداد قيمة السفر الى العالم الجديد ، ولذلك كانوا يتعاقدون على العمل لعدد من السنين ، فى مقابل سفرهم بالبحر • وكانوا من طبقات مختلفة ، فبعضهم أصحاب متاجر ، والبعض الآخر حرفيون أو مدرسون ، ومزارعون مغمورون ممن قل حظهم ، أو أضيرت أحوالهم الاقتصادية بالكساد التجارى • والأهم من ذلك كله ، أنهم لم يرتفعوا أبدا فوق خط الفقر ، ولا يتوقعون أية فرصة لتحقيق ذلك • وكان هؤلاء هم أحسنهم • أما أسوأهم فكانوا مجرمين صغارا ، أناسا تركوا انجلترا أو اسكتلندا أو ايرلندا أو ألمانيا طواعية أحيانا ، وأحيانا أخرى بناء على طلب السلطات • فالموظفون المحليون كان يمكنهم أن يتخلصوا من غير المرغوبين ، ويقللوا عبء الضريبة على أصحاب الملكيات الذين يعولون أشخاصا متقاعدين ، ونزلاء الملاجىء ، وذلك بابعاد هؤلاء المحرومين من حقوقهم الانسانية ، الى حياة جديدة يبشرونهم بها — أو الى موت عاجل — فى العالم الجديد ، فعلى سبيل المثال ، فى محاولة من مجلس شورى الملك ، لتنظيم حملة استعمارية الى نيويورك سنة ١٦٦٩ أرسل الى السلطات المحلية يحثهم على تجنيد « الشحاذين والعاطلين الأصحاء ، والرعاع ، والغجر ، وسيئى السمعة ، والمشهورين بالفجور ، واللصوص وغيرهم من الأشخاص الفسقة الأقذار » (٢) •

الخدم المتعاقدون بأجل :

مادام الخادم المتعاقد بأجل ، قد أصبح يمثل نسبة مرتفعة بين المهاجرين فى القرن الثامن عشر ، فمن المهم اذن ، أن نفهم الجوانب الفنية

والتطبيقية لهذا المشروع التجارى المربح ، الخاص بنقل العمال الموثقين الى المستعمرات ، حيث كان الخدم البيض المتعاقدون يمثلون مثل العبيد الأفارقة والهنود الحمر قيمة لاتقدر بثمن فى مجتمع غنى بالأرض ، فقير فى العمال : وقد كتب بنيامين فرانكلين سنة ١٧٥٩ : « يقوم العمل فى المستعمرات ، فى الأساس ، على الخدم المتعاقدين لأجل والمبعوثين من بريطانيا وايرلندا وألمانيا ، لأن انتاجهم العالى فى عملهم لا يمكن انجازه بأية وسيلة أخرى » (٣) • ونسى فرانكلين أن العبيد السود كانوا فى كثرة الخدم البيض سنة ١٧٥٩ حتى فى مقره الرئيسى فى فيلادلفيا ، وأنهم يؤلفون الجزء الأكبر من قوة العمل فى المستعمرات الجنوبية • الا أن النقطة العامة الأساسية صحيحة : فقد كانت أمريكا فترة المستعمرات الثلاث عشرة الأصلية ، تنمو على يد عمال خاضعين لرقابة الحكومة والضرائب ، وبصرف النظر عما اذا كان كل عضو مؤسس فى مجتمع المستعمرات صاحب مزرعة صغيرة للتبغ فى فرجينيا ، أو تاجرا فى نيويورك ، أو مزارعا فى كونيكتيكت ، أو نجارا للسفن فى بوسطن ، فانه يريد بجانبه عاملا موثقا بمجرد أن يتجمع معه ما بين ٢٠ ــ ٤٠ جنيها لشرائه ، فقد كان العامل الاضافى يعنى القدرة على انتاج المزيد من السلع والخدمات ، والتى تعنى بدورها المزيد من الأرباح • ففى عصر سبق وجود الآلة ، أصبح الطلب على جهد الآخرين أمرا مهما للغاية ، كما أصبح العامل البشرى سلعة أوروبية للتصدير ، تبحث عنها المستعمرات ، بلهف شديد •

كانت شروط الخدمة بعقود ذات أجل ، فى غاية البساطة • اذ يربط الخادم نفسه أو نفسها ، بعقد قانونى مع قبطان سفينة لمدة محددة من الزمن ، عادة ما تكون بين أربع أو سبع سنوات • وفى مقابل ذلك ، يوافق القبطان على نقل الخادم لمسافة ثلاثة آلاف ميل ، وانزاله عند احدى مجموعات المزاد العلنى فى موانى المستعمرات • ثم يقوم القبطان بتوقيع العقد لمن يرسو عليه المزاد • وبموجب شروط العقد ، يوافق الخادم على الاخلاص فى الخدمة ، نظير الغذاء والكساء والمأوى ، وفى نهاية عقد الخدمة يحصل على مبلغ صغير من المال ، وأحيانا على بعض الآلات ، وفى أحيان أخرى يحصل على ملكية فدان من الأرض •

وهكذا ، أصبحت صناعة نقل العمال الموثقين جزءا منتظما من التجارة بين أوروبا وأمريكا ، وحافظت مجموعة التجار وقباطنة وسماسرة التهجير ومقاولى الأنفار على الآلاف من الأوروبيين على طريق المستعمرات ، خلال فترة ما قبل الثورة • وكان الخدم يشحنون على المراكب كأية بضاعة شحن أخرى عبر المحيط ، ثم يباعون على الجانب الآخر • وذلك هو النظام الذى أمد الأعضاء المؤسسين لمجتمع المستعمرات بالعمال ، ثم بالحرية فى

فى النهاية ، والحلم بحياة أفضل لمن وقعوا فى شباك الفقر ، كما أتت بالأرباح المجزية لكافة السماسرة ، وقد حدثت تعسفات مستمرة فى هذا النظام بالطبع ٠٠ فكما أهدرت تجارة العبيد الأفارقة والهنود الحمر حياتهم الانسانية ، كذلك كانت التجارة فى عمال العقود مشروعا تجاريا قذرا فى العادة ، وكان الخطف والنقل ، كرها أو خداعا لأولئك المتنقلين بحثا عن عمل ، وحمل السكارى ، قسرا على السفن ، كان مرضا ممستوطنا فى ذلك الوقت ٠ فكان كثير من سكان أى ميناء سيئى الحظ ، يستيقظون ذات صباح ورءوسهم مصدعة ليجدوا أنفسهم ، فى قبضة سفينة متجهة بهم الى الغرب عبر الأطلنطى ، وحالما يجدون أنفسهم على السفينة ، ترتفــع نسبة الوفيات بينهم ، بسبب أحوالهم الجديدة ٠ وينقل وصف جوتليب ميتلبرجر Gottlieb Mittlberger ، الذى رافق قاربا محملا بخدم ألمان مبحرا من روتردام الى فيلادلفيا سنة ١٧٥٠ ، بعض مشاعر هؤلاء الباحثين عن حياة أفضل فى المستعمرات الأمريكية ، وما تحملوه انتظارا لفرصة يبيعون فيها أنفسهم بعقد عمل لبعض السنوات الأولى من عمرهم :

كانت السفينة ، خلال رحلتها ، مليئة بعلامات الأسى المثيرة للشفقة ، من روائح ، وهياج ، ورعب ، وتقيؤ ، وصور مختلفة من دوار البحر ، والحمى ، والدوسنتاريا ، والاســقربوط (تورم اللثة ونزف الدم منها) ، والسرطان ، وعفن الفم ، وما شاكل ذلك من أمراض كلها ناتجة عن كبر السن ، والطعام المملح بنسبة عالية خاصة اللحم ، وكذلك المياه الشديدة القذارة التى تؤدى الى تلف الكثيرين وموتهم ٠ أضف الى ذلك كله ، النقص فى الطعام ، والجوع ، والعطش ، والصقيع ، والحر والرطوبة ، والخوف ، والبؤس ، والحنق والنواح ، وغير ذلك من مصادر الازعاج ٠ وهكذا انتشر القمل ، خاصة على المرضى مما يضطرهم الى حك أجسادهم وهرشها ٠ وتبلغ هذه البلوى ذروتها عندما نضيف اليها ضرورة معاناة المرء يومين أو ثلاثة أيام وليال عاصفة ، يتأكد خلالها كل فرد بأن السفينة غارقة لا محالة بكل ما على ســـطحها من بشر ٠٠٠ ونادرا ما يستطيع الأطفال ما بين سن سنة وسبع سنين مقاومة الرحلة البحرية ليظلوا أحيــاء ، وعلى الوالدين دائما أن يلاحظوا نشأهم هذا وهو يعـانى فى ألم ، ويموتون ثم يلقى بهم فى المحيط نتيجة الفاقة والضعف والجوع والعطش ، وما شابه ذلك ٠ وقد رأيت أنا ، بنفسى ـ واحسرتاه ـ هذا المصــير الحزن لاثنين وثلاثين طفلا على ظهر مركبنا ، انتهى الأمر بهم جميعا الى القائهم فى مياه البحر ! (٤) ٠

لقد وصف ميتلبرجر حدود أقصى ما وصل اليه الحال فى عرض البحر وانقلاب النزلاء حينذاك بعضهم على بعض • ولكنهم يتذكرون فى المقام الأول القرى التى أتوا منها قائلين : « آه ! لو رجعت الى بيتى ، ولو أرقد فى زريبة خنازير ! » • ويحتمل أن ربع أولئك الذين أبحروا من الموانىء الأوروبية لم يحيوا ليروا غابات العالم الجديد ، أو ماتـــوا فى ظروفهم المتدنية بعد وصولهم بقليل • أما من قاوموا المحنة وأخطار « الطعام المتبل » فى أمريكا الشمالية ـ والتأقلم مع الظروف الجديدة ـ فقد ساروا قدما • فضلا عن التكيف الطبيعى والنفسى مع بيئة وأسياد لايعرفون عنهم شيئا بالمرة ، وفى مستعمرات الجنوب خاصة ، تحمل العامل الزراعى ضريبة باهظة وسط أولئك الذين صمم السـادة على الحصول منهم على أكبر قدر ممكن من العمل والجهد فى السنين الخمس أو الست أو السبع المحددة فى عقد العمل • واضافة الى صعوبات الحياة بالنسبة للخادم ، كان هناك حق السيد فى منعه من الزواج ، وبالتالى ضـياع وقت الخادمة • فكان معظم السادة يحرمون على خدمهم الحيـاة الأسرية •

اذا سلمنا بقسوة نظام العمل بالعقود ذات الأجل ، فلا ندهش عندما نجد صحف المستعمرات مليئة باعلانات عن هروب بعض الخدم ، أو توشيها بلاغات عن هروب بعض العبيد • وكان الخدم يعرفون العقوبات المقررة لذلك وهى : الضرب بالسياط ، والخدمة الاضافية التى تقدر عادة بضعف الوقت الضائع على السيد ، وأحيانا بنسبة خمسة أمثال ، كما فى فيلادلفيا ، أو عشرة أمثال كما فى ميريلاند • ورغم ذلك هـــرب الخدم بالمئات ، وقاموا بين الفينة والفينة بعصيان مسلح محدود • وعندما جاءت الحرب اندفعوا أفواجا لتسجيل أنفسهم فى الجيش البريطانى ، وكان كثير من السادة يرغبون فى أخذ التعويض الذى يدفعه الجيش ، ويدعون الخادم الحرون يذهب لحال سبيله •

لقد كان الهدف الكبير لكل خادم ، أن يحرز مكانا على سلم الفرص ـ أو ما كان يتراءى له كذلك فى قرى اسكتلندا وايرلندا وألمانيا ، الا أن أحد المؤرخين ينبهنا الى أنه « لن يكون من السهل أن نفترض أن الخدم الطلقاء ، المعتمدين على أنفسهم خاصة المتحررين من مزارع التبغ كانوا فى حالة ذهنية أو بدنية تسمح للواحد منهم أن يبدأ حياة جديدة نشطة قوية ، أو أن تلك السنوات الطويلة اليانعة تنتظرهم » (٥) • وبالرغم من الصـعوبة البالغة فى تتبع حيـاة الخـدم المتحررين تشـير لنا أكثر الدراسات عن عبودية البيض الى أن واحدا فقط من كل عشرة من الخدم المتحررين وصل الى وضعه كمزارع فى ظروف مريحة ، وأن واحدا آخر حقق وضعه كصانع ماهر • أما الثمانية الباقون فقد ماتوا قبل أن يحصلوا

على حريتهم ، أو أصبحوا بعد اطلاق سراحهم عمالا باليومية لايملكون شيئا ، أو متشردين أو باعة جائلين بدون رخصة أو نزلاء بالملجأ المحلى (٦)٠ ولعل فرص الحياة للخادم كانت أفضل منها فى القرن السابع عشر ٠ ولكن من المحتمل أن تكون قد ساءت فى القرن الثامن عشر باختفاء بعض مرونة المجتمع وسهولته ٠ وبالرغم من أن حفنة من الخدم الذين نجحوا فى تحقيق شهرة لهم أمثال القادة الثوريين دانيال دولانى Daniel Dulany وتشارلز تومسون ، وجون لامب John Lamb هم الذين أثاروا اهتمامنا ، الا أن الاحتمالات الاحصائية لارتقائهم الى الوضع الكامل للطبقة الوسطى كانت طفيفة للغاية ٠ ومن ذلك الجم الغفير من الباحثين عن الفرص فى المستعمرات الأمريكية ، تبرز أمامنا قصة العمل الشاق الذى لايرحم وقمة الفشل الذريع ٠ فلم يكن المستفيدون الأساسيون من هذا النظام هم العمال البيض المرتبطين بعقود ، بل ان المستفيدين هم من كانوا يشغلونهم ٠

المجتمعات الزراعية : الشمال والجنوب :

اذا ضممنا الأرض الخصبة الى الامداد بالعمال الموثقين بعقود ذات آجال من البيض ، والسود ، والهنود الحمر ، الملتزمين بمدد معينة ، وطموح الآلاف من صغار المزارعين والحرفيين المستقلين فى عملهم ٠ يظهر أمامنا مجتمعان زراعيان مختلفان عن بعضهما فى أمريكا القرن الثامن عشر٠ ففى الشمال ، نجد مجموعات زراعية صغيرة مكونة من بضع مئات من الاسر التى زرعت الحقول النائية أو قدموا خدمات حرفية فى المدينة كانت تتناثر خلال المنظر الريفى الطبيعى ٠ ويندر وجود العبيد نسبيا ، فلا يمثلون أكثر من ٢ أو ٣ فى المائة من السكان فى أغلب المناطق الريفية، مع أنهم يكونون نحو ٨ فى المائة من سكان بوسطن ، وفيلادلفيا ، وأكثر من نسبة الضعف فى نيويورك والمنطقة المحيطة بها ٠ وامتلكت الأرض نسبة عالية من الرجال ، وبالرغم من التفاوت فى القدرة والاستعداد والظروف التى أدت بالتدريج الى تكوين طبقات اقتصادية واجتماعية أكبر ، كان الغنى الحق والفقير المدقع هم القلة فى العدد ،والفجوة بينهما صغيرة اذا قارناها بالمجتمع الأوروبى ٠ وعاش أغلب الرجال ليكتسب الواحد منهم مزرعة من خمسين فدانا على الأقل ٠ واستخرجوا من التربة والأرض دخلا معتدلا ، وان كان لايمثل ثروة مدهشة على مدى الحياة العملية ، ولكنه وفر لهم الأمن من العوز ووفر لهم ميراثا صغيرا لذريتهم ٠

وفى المستعمرات الجنوبية ، كافح كثير من المزارعين من صغار الملاك مستقلين عن غيرهم بالرغم من أنهم كانوا مستمرين فى تشتتهم فى الأرض أكثر من تجمعهم فى قرى ٠ لم يلفت هؤلاء الرجال نظر المؤرخين

كثيرا بالنسبة للآلاف من ملاك الأراضى الذين عاشوا مع عبيدهم وعمال العقود لديهم فى مزارع منفصلة شديدة التباعد ، على امتـداد الأنهـار والجـداول التى تجـرى من منطقـة بيدمونت عبر السـهل الساحلى حتى المحيط • ولكن الصورة المعتادة لمجتمع المزارع الجنوبية المكونة من رجال واسعى الثراء يستغلون جهد الجماعات الضخمة من العبيد السـود هى صورة مبالغ فيها الى أبعد حد • فربما كان نحو ٤٠٪ من الذكور الجنوبيين البيض يعملون مزارعين مستأجرين أو عمالا زراعيين ، أما الرجال الباقون من مـلاك الأرض ، فان اثنين من كل ثلاثة فى منطقـة تشيزابيك كانوا يديرون مزارع من مائتى فدان أو أقل • وفى كارولينا الشمالية كانت المزارع أصغر من ذلك مساحة ، وأندر فى الرجال ذوى الثراء الحقيقى • والعكس صحيح فى كارولينا الجنوبية ، فقد كان امتلاك العبيد على نطاق أوسع ، وتميل المزارع الى أن تكون أكبر ، والمزارعون ذوو الثراء الجوهرى يمثلون نسبة من السكان أعلى•وفى بداية سنة ١٧٢٦ ، كانت ٨٧ أسرة من بين ١٠٨ أسرات من سكان دائرة سانت جورج لها ملكية من العبيد ، وبعد جيل ، فى دائرة سانت بارتلوميو St. Bartholomew امتلكت نحو ٢٥٠ أسرة بيضاء أكثر من خمسة آلاف عبد (٧) •

وعلى الجملة ، ربما لم يكن هنـاك أكثر من خمسة بالمائة من ملاك أثرياء فى منتصف القرن الثامن عشر بحيث يمتلكون مزرعـة تسـاوى ألف جنيه ـ أى أنهم لايختلفون كثيرا عن الشمال ، وشبيه بذلك أن الذين يملكون عددا كبيرا من العبيد لم يكونوا من الكثرة كالاعتقـاد الشائع بيننا • وبالرغم من ازدياد عدد العبيد فى المجتمع الجنوبى بسرعة فى القرن الثامن عشر من حوالى ٢٠ ألفا سنة ١٧٠٠ الى ٢٠٠ ألف سـنة ١٧٥٠ ، لم يمتلك غالبية الذكور البالغين البيض عبيدا على الاطلاق فى منتصف القرن ، ولعل العدد الذى كان يدير مزارع بهـا أكثر من عشرين عبدا لم يزد عن ١٠٪ من البيض الخاضعين للضرائب • وعلى الرغم من أن كارولينا الجنوبية هى استثناء واضح ، كان الجنوب فيما قبـل الثورة يسيطر عليه ، بصفة عامة من الناحية العددية ، صغار الملاك الذين ربما كانت مزارعهم فى متوسط حجم مزرعة نيوانجلند مرتين • ومع ذلك، لم تكن تزيد عن نصف حجم مزرعة نموذجية فى بنسلفانيا أو نيوجرسى أو نيويورك •

ومع ذلك ، كان الهدف فى الجنـوب ان لم يكن الواقع هو فى المزارع الكبيرة ، حيث يجب على العبيد السود أن يجعلوا الأرض تدر عائدا يكفى الحياة المترفة ، ولكن اذا تحدثنـا احصائيا ، لم يحقق كثير من المستعمرين البيض حلمهم فى الجنوب • ولو أن ذلك هو ما عمل الناس من أجله ، وأتوا ليحققوا راحتهم المادية باستغلال جهد العبد الأفريقى

وقت أن كان سكان المستعمرات الشمالية يستعملون السود والبيض فى العمل الموثق بأجل ، ويتحــولون الى ســوق اقتصادية تتوفر فيهــا السلع والعمل على أساس التبادل الحر •

لعل أخلاقيات البروتستانت في العمل ، والتى طبعت فى أذهان الرجال روح الكدح والاقتصاد فى الصرف والمبالغة فى تبرير النشاط الاقتصادى ، لم تؤثر فى نفسية المستعمرين الجنوبيين كقوة تأثيرها فى نظرائهم الشماليين ، ولكن وفرة الأرض الخصبة فى الجنوب والامكانات الواسعة للحصول على العبيد بعد سنة ١٦٩٠ كانت الباعث الضرورى لظهور مجتمع عدوانى شديد التنافس • ولقد أوردت كتب التاريخ قصصا شعبية كثيرة عن فرسان الجنوب وهم يستريحون تحت أشجار الماجنوليا ، الجميل ورقها وزهرها ، ولكن المستعمرين الأوروبيين فى الجنوب فى القرن الثامن عشر كانوا شرهين فى الجرى وراء الثروة والراحة المادية مثلما يفعل قرناؤهم فى الشمال • واذا قيل ان المناخ الحار فى المناطق الجنوبية كان يولد التراخى والكسل ، فالحقيقة أيضــا أن المزارعين فى الجنوب لم يكن لديهم شتاء طويل مجمد ، لايجدون لهم عملا فيه ، سوى اصلاح أدواتهم وقطع الخشب • كان الحقــل النموذجى فى نيوانجلندا ينتج محصولا واحدا فى السنة ، أما كارولينا الجنوبية فكانت تنتج محصولين من الأرز أو أشجار النيلة ، فضلا عن أن معوقات التكيف وفق أوضاع المجتمع الجديد فى نيوانجلند ، وتحامل البيوريتان ضــد تجميع الثروة التى لم تكن تصرف بطرق تفيد المجتمع ، لم تعق نشــاط المقاولين أبدا فى الجنوب • ولم يكن للديانة الحديثــة النشأة فى معظــم المستعمرات الجنوبية سوى جذور ضعيفة ، كما لم يترســخ تكيف الجماعات وفق الظروف والأوضاع الجديدة نظرا لقلتها ، وتباعد مواقعها •

الأرض والثروة والطموح :

مما يثير السخرية ، أن احدى نتائج التطور والنجاح العام لمستعمرات أمريكا البريطانية ، فى القرن الثامن عشر ، هى تحطيم حلم الجيل الأول بالمدينة الفاضلة • وقد شجعت أخلاقيات العمل البيوريتانى وجود الفرص التى بدت وكأنها بلا حدود ، شجعت الرجال على العمل الشاق فى مهنهم التى كان النجاح حليفها بصفة عامة فى العالم الجديد • وتضاءل الدافع الدينى تدريجيا ، وبدأ الرجال ينظرون الى الأرض والجهد الذى يبذلونه فيها على أنها ليست مجرد مصدر رزق ، بل طريقا الى الثروة أيضــا ، وبعد أن كان ينظر الى الأرض من قبل كوسيلة لاستمرار الوجود أصبحت الآن بضاعة يستطيع العاقل المتدبر أن يضــارب برأسماله فيها • وقد شم القسس البيوريتان ، من قبل ، رائحة ما يجرى فى الجو ، فأصدروا

تحذيرات لم تردع أحـــدا تقريبـا • فنجد (القس) اينكريس ماثـــر Increase Mather يصرخ سنة ١٦٧٦ قائلا : « الأرض ! الأرض ! لقد أصبحت هي الوثن المعبود لدى الكثيرين فى نيوانجلنـــد » (٨) • وكما كتب جيمس هنريتا James Henretta حديثا أن مفهوم « الخير المحدود ، وصعوبة التكيف فى المجتمعات الريفية نتيجة غياب الأراضى غير المزروعة وندرة موارد الثروة وأدواتها » قد حل محله « مفهوم جديد عن الامكانات التي تقدمها البيئة الجديدة » (٩) •

ولـمـا كانت نســبة الأهالى الى الأرض تبشر بالنجاح اذا قورنت بالمجتمعات التى جاءوا منها كشف المستعمرون الطامحون بشدة ، عن نظرة عدوان بالغة ، أصبحت نموذجا لسلوكهم ، ومنذا الذى كان يمكنه كبح جماح انسان فى هذه الأرض المجهولة المترامية الأطراف ، فى هذه الوديان النهرية التى لا يدعى أحد ملكيتها بمجرد أن يتركها الهنود الحمر ؟ كان ذلك هو المفهـوم الجـديد فى مجتمع كل ما فيه ممكن • وبذلك كانت « الغلبة لسلوك المقاولين المتنافسين » (١٠) •

لم تفتر الديانة ولا مفهوم المكسب المحدود ، فقد اسـتمر الناس يذهبون الى الكنيسة عن ايمان ، بل وجرف المستعمرات التنافس الدينى فى أربعينات القرن الثامن عشر • الا أن الالتزام الدينى عامة ، بمعنى الاستعداد للحياة الآخرة كان فى انحدار • فقد استنكر أحد رجال الدين الذى اعتاد أن يرثى لمقاصد من يعظهم بقوله : « قليل من السماء ، وكثير من الأرض » • كما كان كتاب فرانكلين « الطريق الى الثروة » هو الذى شتد من الروح العدائية لمقاولى القرن الثامن عشر ، بدليل أنه كان أكثر الكتب رواجا لبضع سنين • لقد أزيحت كوابح الطموح الاقتصادى فجأة ، ومع ضعف حماس البيوريتانية فى القرن الثامن عشر ، لم يكن هنـاك الكثير مما يكبح الغرائز الحيوانية المفترسة فى أولئك المتشوقين الى مصارعة زملائهم جريا وراء المكسب المادى • وقد نفجع أحد الفيلادلفيين البـارزين سنة ١٧٠٦ بقوله : « كل رجل يعمل لمصلحته » بعد مرور جيـل واحد على بذر « بن » بذور « تجربته المقدسة » (١١) • وقد عبر عنها بشكل أوضح ، بعد ذلك بجيلين ، كادوولادر كولدن Cadwallader Colden حاكم نيويورك الذى نشأ وتربى فى المستعمرة : « ان المبدأ الوحيد الذى ذاع وانتشر فى حياة الشباب هو الحصول على المال ، وأصبح تقييم الرجال على قدر ما يملكون من نقود » (١٢) • وكرر نفس الفكرة ، أحد المعاصرين فى رود أيلاند حين كتب « ان الرجل الذى يملك « المال » هنـا ، بصرف النظر عن كيف اكتسبه ، يصبح الكل فى الكل ، أما المعوز الذى هو مجرد شخص تافه ، فليكن « سلوكه » عرضة للتقريع دائما أبدا » (١٣) •

ولما استحوذت هذه القيم المكتسبة على الناس ، حل مفهوم الفرد محل المجتمع فى التفكير ، فنجد نصيحة لسلف مثل الكاهن البيوريتانى ، جون كوتون ، التى تقول « انطلق ، كل رجل ينطلق ، تحدوه روح الخدمة للمصلحة العامة ، دون أن ينظر الى شـئونه فقط » ، أو مبدأ وينتروب الأساسى القائل : « يجب أن تفوق الرعاية العامة كل الاعتبارات الخاصة » .
وأخذت هذه النصائح والمبادىء تفقد وزنها بالتدريج فى مجتمع القـرن الثامن عشر ، حيث تتابع فتح البرارى بدرجة كبيرة والاسـتيلاء عليها وعلى سكانها ، وأثبت الرجال تكيفا كاملا وتحملا مدة مائة عام ، وبدت احتمالات المستقبل واسعة لدرجة أن نما اتجاه فكرى دفع بالأمريكيين فى المستعمرات الى التشوق الى اثبات خطأ الشاعر جون دون John Donne ، من عصر اليزابث ، الذى نصح بأنه لا يستطيع أى رجل أن يعيش بنفسه فى جزيرة منعزلة . وقد ثبت امكانية الاكتفاء الذاتى النسبى ، ومع فوز المستعمر النموذجى بممتلكاته ، الا أنه كان يرغب فى المزيد . ويصف هذا التحول فى الاتجاه ، زائر فرنسى ، اشترى له سكنا فى نيويورك فيقول :

« يبدو الأوروبى الذى يجىء لأول مرة ، محـدودا فى أهدافه وأفكاره ، ولكنه يغير فجأة ميزانه ... وسريعا ما يتنفس هواءنا فيخطط لمشـاريعه ، ويبـاشر الأعمال الشريرة التى لم يكن يفكر فيها أبدا فى بلده .. يبدأ يشعر بتأثير نوع من البعث الجديد ، وبأنه لم يكن يحيـا قبل اليـوم ، بل كانت حياته مجرد حياة بلادة وخمول ، وهو يشعر الآن بنفسه كرجل لأنه يعامل كذلك .. يبدأ ينسى صراعه للبقاء ، واعتماده على الغـير ... » (١٤) .

لقد أغفل المتغطرس الفرنسى ، سان جون كريفكير Crèvecoeur من مبدئه العام ثلث المجتمع الاستعمارى الذين كبلتهم أغلال العمـل الاجبارى ، ولكنه أدرك جوهر اعادة التوجيه والتكييف النفسى العميق الذى عم كثيرا من سكان المستعمرات فى القرن الثامن عشر ان لم يكن أغلبهم . وقد كانت المفارقة أن الثروة الاستثنائية الضخمة ، وتحرير الطاقات الاقتصادية ، وظهور مذهب الحرية الفردية فى مجتمع القـــرن الثامن عشر ، كانت تفضى الى ظروف جديدة ، أقل تشجيعا عن ذى قبل . وان ضغط النمو السكانى السريع على مساحة الأرض الثابتة شرق حاجز جبال أبلاش اتجه نحو الذروة فى منتصف القرن الثامن عشر ، وتعتبر الأراضى غير الممنوحة ملكيتها لأحد خاصـة فى المنطقة الساحليـــة فى نيوانجلندا ، أمرا من الماضى — أو فى خبر كان — واستمرت اعادة تقسيم الأراضى الأصلية الممنوحة بين الأبناء والأحفاد الى أبعد حد ممكن ، مع

تجزئة المزارع الى وحدات اقتصادية صغيرة غير قابلة للنمو • وكان الحل الواضح لمشكلة ازدحام السكان هو الاتجاه الى الأرض الجديدة على حدود ولاية ماين Main ، غرب ماساشوستس ، وكونيكتيكت ، عبر الأبلاش في بنسلفانيا ، وفرجينيا ، وميريلاند ، وكارولينا الشمالية والجنوبية • لكن ، كان من الضرورى التغلب على الهنود المعادين ، والفرنسيين والأسبان قبل أن تبدأ حركة الانتقال نحو الغرب • وهكذا ، أدى تشبع السهل الساحلى الشرقى الى ازدياد جاذبية أراضى القبائل الداخلية مرة وراء مرة ، وبدأت تتكون شركات الأراضى فى منتصف القرن الثامن عشر ، لتدعى حق الملكية ، ولو ادعاء كاذبا لهذه الأراضى الغربية القيمة ، التى لابد أن ارتفعت قيمتها للغاية عندما بلغ الجيل التالى سن الرشد ، وبحث عن مجال حيوى له فى الغرب •

تغير التركيب الاجتماعى :

استمرت الزيادة السكانية ، والنمو الاقتصادى مدة قرن ونصف ، على يد أفراد مغامرين عدوانيين ، يزداد حبهم للماديات • وقد غير ذلك كلا من تركيبة مجتمع المستعمرات ، واتجاهات السكان تجاه هذا التركيب ، ولكنه غيرهم فى اتجاهات متعارضة • فقد تقبل المجتمع الأوروبى للقرن السابع عشر على كلا جانبى الأطلنطى طبيعة السلطة الهرمية فى الشئون العامة ، وتعذر اجتناب الفقر المحتوم ، وحق الطبقة العليا فى المجتمع فى حكم من هم أدنى منها • ولم تكن الدرجات الاجتماعية والتبعية الذاتية مباركة من الرب فقط بل كان يعتقد بضرورتها لصيانة استقرار المجتمع وتماسكه • لذلك تركز الاهتمام بالتفريق بين الأفراد عن طريق الزى والألقاب وآداب المعاشرة الاجتماعية ، بل وفى العقوبات المفروضة فى الاجراءات الجنائية • فعلى سبيل المثال ، لم يكن البيوريتان يقفون فى الكنيسة فى الصف فى صباح أيام الأحد فيشغلون المقاعد الخشبية الثابتة كيفما اتفق ، بل كان كل مقعد مخصصا للشخص حسب رتبته الاجتماعية • وكان « تقرير المقاعد » ـ كما كانت تسمى عملية التخصيص بذكاء ، مسئولية لجنة كنسية استخدمت كل معيار يستفاد به من حيث الاحترام الاجتماعى ـ من سن ، ونسب ، ومركز اجتماعى ، وخدمة المجتمع ، وثروة ـ فى رسم خطة جلوس جماعة المصلين ، ولم يدخل البيوريتان الكنيسة أبدا دون التنبيه عليهم وتذكيرهم بالمكان الذى يشغلونه فى سلسلة المجتمع • ويشبه ذلك ، تذكير جون وينتروب لركاب أربيلا Arbella وهم فى طريقهم الى خليج ماساشوستس ، سنة ١٦٣٠ بالحكمة المألوفة المتعلقة بطبيعة الأمر الالهى بالتسلسل الاجتماعى الهرمى ، حيث يقول : « ان الله تعالى ، بعنايته الالهية البالغة حكمة وقداسة قد فرض ••• الوضع الاجتماعى للبشر ، بحيث انه فى كل الأوقات ، يكون

البعض أغنياء ، والآخرون فقراء ، والبعض نبلاء بارزين فى القوة والكرامة، والآخرون وضعاء ، خاضعين للغير » (١٥) ٠

لم يختلف المهاجرون الأوروبيون الى أمريكا عن بعضهم البعض ، بدرجة ملحوظة ، فى تركيبتهم الاجتماعية ، بالرغم من الالتزام الفلسفى بالسلطة الهرمية ٠ وكان مجتمع المهاجرين يتركز فى الطبقتين الدنيا والوسطى مع التوافر الهائل للحصول على الأرض ، مع أن فرص جمع الثروات الكبيرة كانت ضيقة نسبيا ، خلال معظم القرن السابع عشر اذا لم يكن مدى الفرد سوى عمله الخاص وزوجته وأولاده وخادم أو خادمين ٠ وحتى فى المدن التى شرعت فى اعادة توزيع الثروة ، وأدت الى أن يظهر الأذكى ثراءه الحقيقى ، وأن يبقى الفقير على فقره ، شهد فجر القرن الثامن عشر مجتمعا استعماريا سادت فيه الطبقة الوسطى بدرجة مناسبة ٠ وتركت حفنة من كبار ملاك المزارع بصمتها فى وادى نهر هدسون والمستعمرات الجنوبية ، الا أن أكبر ملاك للعبيد فى فرجينيا ، فى بداية القرن الثامن عشر ظلوا يملكون أقل من مائة عبد ، ولم يزد عدد الرجال الذين يملكون ألفى جنيه — يتركونها لورثتهم — عن أكثر من خمسة رجال ، وفى سنة ١٧٢٢ ، توفى أحد أغنياء تجار فيلادلفيا وهو لايملك أكثر من ١٠٠٠ جنيه الا قليلا ، وهو مبلغ ضخم ، لكنه غير مؤثر بالمعيار الأوروبى ٠

المساواة بين البشر :

فى القرن الثامن عشر ، وخاصة فى نصفه السابق للثورة ، تضاءل الالتزام القديم بالسلطة الهرمية والاذعان لها ، وفى نفس الوقت ازدادت طبقات المجتمع ٠ وكانت المواقف الاجتماعية تتحرك فى اتجاه متعارض مع التركيبة الاجتماعية ، فقد أصبحت المساواة بين البشر هى المثل الأعلى بالنسبة للبيض الأحرار (دون غيرهم) ، كما يتضح من ملاحظات احدى صحف فيلادلفيا التى ذكرت قراءها فى سنة ١٧٥٦ بأن الطبقة المتوسطة من الناس « يستمتعون بالحرية ويغرمون بها ، وأن أحقر شخص فيهم يرى أن من حقه المعاملة اللطيفة الكيسة مثل أرفع الناس شأنا » (١٦) ٠ وقد شاعت هذه التعليقات بينهم ، ولقد اندهش كريفكير الفرنسى لرؤيته العمال المستأجرين الذين « يجب أن يجلسوا على مائدتك ، ويطعموا ٠٠٠ من أحسن ما لديك » ، كما كتب المدرس فيليب فيثيان **Philip Fithian** عن « عمال يجلسون على الموائد ، وفى قاعات الاستقبال ، لدى أسيادهم ومن هم أفضل منهم ، يستمتعون بهذه الميزة ، وباحترام مجتمعهم ، والحديث معهم » (١٧) ٠

كان الأوروبيون يحكمون على مايرونه ، قياسا على ما كانوا يعرفونه فى وطنهم ، وبالتالى يبالغون ، أحيانا ، فى درجة المساواة التى يظنون أنهم يرونها ، ولكننا نشك قليلا ، فى أن الأمريكيين فى منتصف القرن الثامن عشر ، بتجاهلهم للقهر العنصرى الذى كانوا يمارسونه ، كانوا يفتخرون بمفهومهم الجديد عن مجتمع لايسيطر فيه الأرستقراطى الثرى. وليس فيه جمهور من البيض الفقراء ، يتمرغون فى الوحل . فالهدف المثالى هو تحقيق مساواة اقتصادية تقريبية ، يلقى فيها كل انسان مساواة اجتماعيــة مقبولة ، « ولابــد أن تلغى فيهــا التفرقة المثيرة للبغض والاستياء » (١٨) . فعندما طـاف بنيامين فرانكلين بالريف الانجليزى سنة ١٧٧٢ ، ارتاع مما رآه ، وشكر الله أن الأمريكيين يختلفون عنهم . « فملاك الأراضى والنبلاء العظام ، والسادة الأماجد ، ذوو الثراء الفاحش، الذين يعيشون فى أعلى درجات البحبوحة والعظمة » يمكن أن نراهم جنبا الى جنب مع « السواد الأعظم من الجمهور ، ومستأجرى الأراضى والمنازل، شديدى الفقر ، الذين يعيشون فى أشد درجات التعاسة الدنيئة ، فى أكواخ قذرة من الطين والقش ، ولايرتدون سوى أسـمال باليــة » ، ان كل ما استطاع أن يفعله فرانكلين هو هز رأسه ، وتعزية نفســه بمعرفته أن الأمريكيين كانوا على خلاف ذلك . وفى تجاهل منــه للهنود الحمر والأفارقة ، كتب « كنت أفكر دائما فى سعادة نيوانجلند ، حيث يكون كل انسان حرا فى ملكية الأرض ، وله صوت فى المسائل العامة ، يعيش فى منزل دافىء ، ولديه كمية وافرة من الطعام الجيد والوقود ، تغطيه الملابس من قمة الرأس الى أخمص القدم ، والسلع المصنعة قد تكون كلها من صنع عائلته » (١٩) . وقد صدرت تصريحات مماثلة ممن احتفوا مثله بهذه الحالة الفريدة للمجتمع الأمريكى ، حيث يؤكد تاجر فيلادلفى لقرائه « لابد أن تثق فى أن هذه واحدة من أفضل البلاد للانسان الفقير فى العــالم » . وفيما يتعــلق بالطبقــات الدنيــا فى نيوانجلند ، يعتز مؤلف كتاب « الزراعــة الأمريكيــة » American Husbandry فيقول : « لايكاد يوجد جزء فى العالم فيه من هم أفضل حالا .. ذلك اليسر العظيم فى الحصول على مزرعة ، يجعل الطبقة الدنيا من الناس تكد وتكدح ، حيث يختفى ، مع ارتفاع أجر العامل ، كل ما يحمل أقل مظهر للاستجداء أو حالة الفقر المعوز ، المنتشرة ، التى نراها شائعة فى انجلترا » (٢٠) . وقد لخص الألمانى ميتلبرجر الفكرتين المثاليتين عن المساواة الاقتصادية ، والاحتقــار الديمقراطى للحكومة ، والمؤسســات الاجتمــاعية المستبدة ، بقوله : « كانت بنسلفانيا هى « النعيم للمزارعين ، وجنة عدن للحرفيين ، والجحيم للموظفين والمبشرين » (٢١) .

لابد أننا لاحظنا أن كل هؤلاء المعلقين ، كانــوا يشغلون وظائف

لا بأس بها في المجتمع ، جعلتهم لا يصفون الواقع ، بل يصفون حلم الحياة الاستعمارية · فالحقيقة ، أن مجتمع القرن الثامن عشر ، حتى بالنسبة لسكان المستعمرات البيض ، كان يبتعد ، في الواقع ، عن الحلم · فقد أفسحت الاتجاهات الجديدة المراعية للغير مكانا لأساليب الفكر والسلوك الفردى ، الوقح ، المتشبث برأيه ، لذلك ، أصبح المجتمع أكثر طبقية ، وتوزيع الثروة أقل عدلا ، ونشأت الطبقات الفاحشة الثراء ، والطبقات الأخرى السليبة · كما أن التدفق الهائل للمهاجرين في منتصف القرن بعد سنة ١٧١٥ ، جعل الأغنياء ذوى رأس المال الكافى ، يضاربون فى الأراضى ، ويشترون العبيد ، والخدم ، أو يشاركون فى التجارة · وأصبح تعظيم الثروة وتبجيلها ظاهرة ظاهرة فى القرن الثامن عشر ، فى كل قطاع بالقطر ، شماله وجنوبه ، ريفه وحضره · وظهرت بيوت أثرياء الريف فى مدن بوسطن ، ونيوبورت ، ونيويورك ، وفيلادلفيا ، وشارلستون، كشاهد على ثرواتهم من التجارة ، وبناء السفن ، والمضاربة فى الأراضى · ولعل هذه المضاربات كانت أكثرها ادرارا للربح · وقد كتب أحد سكان فيلادلفيا سنة ١٧٦٧ « من الأقوال السائرة تقريبا أن كل ثروة عظيمة تجمعت هنا فى هذه السنوات الخمسين ، قد جاءت من الأرض » (٢٢) · وفى الفترة الاستعمارية المتأخرة ، لم يكن مستغربا أن نجد لدى المضاربين فى الأراضى عزبة تساوى ما بين ١٠٫٠٠٠ الى ٢٠٫٠٠٠ جنيه ، فقد كانت ممتلكات الكويكر الفيلادلفى ، اسرائيل بيمبرتون Pemberton تقدر بستين ألف جنيه قبل الثورة مباشرة · كما جمع أغنياء المزارعين فى مناطق الشمال الريفية ضياعا تقدر بما بين ٤٠٠٠ الى ٥٠٠٠ جنيه · وتكونت ثروات أكبر من ذلك فى الجنوب ، لأن الاستيراد السريع للعبيد الأفارقة بعد سنة ١٦٩٠ ، وخاصة بين سنتى ١٧٢٠ ، ١٧٧٥ قد ساعد على سرعة تزايد الأرباح من زراعة التبغ والأرز · وحقق المزارعون الكبار فى منطقة تشيزابيك ، أمثال تشارلز كارول Charles Carroll روبرت « كنج » كارتر Robert « King » Carter ، ووليام بيرد ، ثراء مذهلا قبيل الثورة مباشرة ، وكانت ضياعهم التى تساوى الواحدة منها ١٠٠٫٠٠٠ جنيه أو أكثر تضارع فى قوتها الشرائية ممتلكات تساوى مليونى دولار سنة ١٩٧٠ · ولم يكن غريبا أن نرى فى المزارع الكبيرة فى الجنوب بين ٣٠٠ ــ ٤٠٠ عبد ، بينما كان أكبر مالك للعبيد فى القارة فى أواخر القرن السابع عشر لا يملك أكثر من ٥٠ عاملا موثقا ·

تضاؤل الديمقراطية الاقتصادية :

ساعدت الزيادة السريعة فى السكان واستثمار رأس المال على نطاق واسع فى شراء الأراضى ، والرقيق ، عددا قليلا من الرجال ، بتجميع ثروة رائعة بلا شك ، حتى فى المجتمع الانجليزى · كما أدى نمو المجتمع

الاستعمارى أيضا الى خلق ظروف ، كان من الصعب على كثير من الأشخاص أن يحتفظ فيها بالخبز على مائدته ، والخشب فى مدفأته • وتأكدت هذه الحقيقة فى المدن على وجه الخصوص ، حيث زادت الفروق فى الثروات بسرعة كبيرة • وبنيت الملاجىء واصلاحيات الأحداث فى الربع الثانى من القرن ، فى كل المدن الكبرى لاعالة من يعجزون عن العناية بأنفسهم من : المسنين ، والمعوزين ، والمرضى ، والمجانين ، واليتامى ، ومع ذلك ففيما بين سنتى ١٧٢٥ ، ١٧٧٥ ازداد الفقراء فى المدن بدرجة أسرع بكثير منها لدى سكان الحضر ككل ، وبعد حوالى سنة ١٧٥٠ لم يعد الفقر يقتصر على المسنين والمنهوكين •

كانت بوسطن ، وهى أول مستوطنة يوتوبية فى أمريكا الانجليزية ، أول من أحس بشدة الضائقة الاقتصـــادية • فقد بلغ سكان المدينـة حوالى ١٢ ألف نسمة ، سنة ١٧٢٠ ، وازدادوا الى حوالى ١٦ ألف فى العقدين التاليين • ولكنهم استقروا ابتـــداء من ١٧٤٠ حتى ما بعد الثورة ، كمـــا فى المدن الساحلية الأخـرى مثـــل سالم ، وماربلهيد Marblehead ، ونيـــوبرى بـورت Newbury Port ، حيث كانت تتمتع بصناعة السفن ، وكان اقتصاد نيوانجلند بعيدا عن الاســتقرار بصفة عامة • وزاد الانفاق على الفقراء ، الذى استقر دون الألف جنيـه سنويا ، فى عشرينات القرن الثامن عشر ، فارتفع تدريجيـا فى العقد التالى ، وكانت زيادتها أسرع من الزيادة السكانية فى أربعينات القـرن الثـــامن عشر • كان المشرفون الموكلون بالفقراء سـنة ١٧٥٣ يرفعـــون تقارير الى الهيئة التشريعية بماساشوستس أن نفقـــات اعالة الفقير فى بوسطن قد بلغت ضعفها فى أية مدينة فى حجمها « على وجه الأرض كلها » حسب تقدير المطلعين • وسواء أكان ذلك صحيحا أم لا ، فان الأمر المؤكد أن عددا كبيرا من النـــاس فى المدينة كانوا فى كرب حقيقى • وكتب المشرفون سنة ١٧٥٧ أنه « سيبلغ عدد الفقراء الذين يتلقون الاعانات كليا أو جزئيـا فى ملجأ المدينة وخارجهـا حوالى الألف ••• » • وأن الذين يتلقون صدقة خاصة ، من الكنائس والمؤسسات الخيرية قد تكاثروا فى مجموعهم الكلى (٢٣) • وأصبحت بوسطن ، تنوء ، فى الستينـــات من القرن الثامن عشر بعبء الفقراء الى حد بعيد ، وقد اجتذبت اليها عددا كبيرا من المحاربين القدماء المعوقين من حرب السنوات السبع ، وكان لها ، نصيبها الدائم من البحارة المصابين المتوقفين عن العمـــل ، والمحطمين نفسيا ، لقد اتخذ المشرفون أشد الاجراءات صرامة لتخليص المدينة من « الغرباء » الذين يتجولون فيها بحثا عن الراحة أو الاعانة ، ولكن بالرغم

من « التنبيه بالطرد » على ١١٢٥ شخصا ما بين ١٧٦٩ ، ١٧٧١ ، ظلت ملاجىء المدينة وجمعياتها الخيرية في السنة الأخيرة تزدحم بثلاثمائة نزيل تقريبا ، بينما يتلقى أكثر من خمسمائة راشد آخرين اعانات خارجية ٠ ومع ذلك ، كان هناك ثمانمائة آخـــرون مسجلون فى قائمـة الضرائب سنة ١٧٧١ بوصفهم لا يملكون شيئا ، مما يدل على أن أكثـر من نصف سكان المدينة من الراشدين البيض كانوا فقراء أو معدمين ٠ لقد أصبحت بوسطن ، وهى المركز الحيوى لحلم المدينة الفاضلة للبيوريتان ، احيـاء جديدا للصفات التى ابتعد عنها المجتمع الأوروبى ٠

يتضح من النظر الى مدينتى نيويورك وفيلادلفيا اللتين ازداد نموهما بسرعة خلال فترة واحدة ، أن ازدياد الفقر وانعدام الملكية فى بوسطن لم يكن راجعـا الى ركود اقتصـادى ، ففى نيويورك لا تبين القائمة الأولى للاعالة ، سنة ١٧١٣ سوى رجلين وثلاث عشرة امرأة ، كلهم من المسنين أو العجزة ٠ ثم ارتفع الرقم الى ٥٨ سنة ١٧٣٥ ، الا أن هذه الزيادة كانت تتناسب تقريبا مع نمو سكان المدينة ، ومع ذلك كانت المدينـة بحلول سنة ١٧٧٢ تعول ٤٢٥ فقيرا فى الملجأ والجمعية الخيرية ٠ كمـا يظهر نفس المنحنى الصاعد فى نفقات المجلس المحلى لاعانة الفقراء ، حيث بلغ متوسطها ٥٢٣ جنيها فى السنة ، في السنوات العشر من ١٧٢٥ ، ١٧٣٥ ، وارتفع الى ١٢٠٠ جنيه فى السنة سنة ١٧٥٩ ، ثم أصبح المتوسط حوالى ٥٠٠٠ جنيه فى السنوات السابقة للثورة مباشرة (٢٤) ٠

وفى فيلادلفيا ، ظهرت نماذج اجتماعيـة مشابهـة ، باعتبارها الميناء الرئيسى لدخول الآلاف من المهاجرين الألمان والايرلنديين من أصل اسكتلندى ، الذين عبروا الأطلنطى بحثا عن فرص أكبـر فى القـرن الثامن عشر ، ولذلك كان لها دور لا تحسد عليه فى استيعاب كثير من المرضى والمكروبين الذين هبطوا الى الشاطىء فى غاية المرض والانهيـار المعنوى ليشقوا طريقهم غربا نحو الأراضى المتاحة بوفرة ، لكن مشكلة فقراء فيـلادلفيا كانت أكثر من مجرد انعكاس لعدد كبير من السـكان العابرين ، اذ تقول تقارير المشرفين على الفقراء سنة ١٧٥٥ ان الملجأ كان يضم في العقد السابق حوالى من ٤٠ ــ ٦٠ فردا فى السنة ، وكان ذلك فى فترة هجرة كبيرة ، وبعد ذلك ، بدأت قوائم الفقراء تقفز بسرعة ٠ وفى سنة ١٧٦٨ كان يسمح لأكثر من أربعمائة فرد سنويا بالدخول الى الملجأ والجمعية الخيرية ، ثم قفز الرقم بحدة الى ما فوق السبعمائة سنة ١٧٧٥ ٠ واعتبر مئات غيرهم « فقــراء » وأدخلوا مستشفى بنسلفانيـا للمرضى الفقراء ، كما قدمت الاعانة الخارجية الى غيرهم على يد المشرفين ٠ وبينما تضاعف عدد السكان تقريبا فيما بين سـنتى ١٧٤٠ ، ١٧٧٥ ، ازداد عدد الفقراء بالمدينة الى العشرين مثلا ، وتحكى لنا نفس القصة ،

أرقام الانفاق العام والأموال الخاصة الموجهة للمتحاجين والعجزة · وقد زاد الانفاق العام من أقل من ٥٠٠ جنيه فى السنة فى الربع الأول من القرن ، وأقل من ألف جنيه فى السنة فى الربع الثانى الى نحو ١٠٫٠٠٠ من الجنيهات فيما قبل الثورة مباشرة · كما وزعت الكنائس وجمعيات البر اعانات اضافية ، وبالرغم من أن حالة السجلات لا تسمح لنا بحسابات دقيقة ، فان تقديرا متحفظا يضع ١٠٪ على الأقل من أعضاء المجتمع الراشدين فى هذه المدن الاستعمارية على قائمة اعانات الفقر فى نهاية العهد الاستعمارى ، وهكذا ، كانت الديمقراطية الاقتصادية تتضاءل وتذبل بازدياد الديمقراطية السياسية ·

لقد كان من المحتم أن يميل التوسع الاقتصادى والقيم الديمقراطية المتجسدة فى المجتمع الى اطراء المعتدين والقادرين فى اندفاعهم غربا نحو التوسع الذاتى المادى · فكلما عظمت الفرص ـ والفرصة هى احدى السمات الأساسية اللازمة فى المجتمع الديمقراطى ـ كلما اتسعت الفجوة بين الغنى والفقير ، فيحدث التغاضى غير المباشر عن أفول المساواة الاقتصادية كلما نمت المساواة الثقافية والسياسية · فالمجتمع المفتوح ذو الفرص الوافرة فى القرن الثامن عشر ، أمام المقاولين ، مع قلة القيود الحكومية نسبيا قد أدى بدرجة متناقضة الى توسيع الفجوة بين الغنى والفقير ، والى تركيز القوة الاقتصادية فى أيدى طبقة عالية ضئيلة العدد فى المجتمع ، الذى أصبح الفرد فيه ، وليس المجموع هو محور الاهتمام ، وكان السكان البيض فى أمريكا المستعمرات يحولون ما يعتقدون أنه أمريكى فريد الى ما كان يشبه باطراد تلك الظروف الأوروبية التى هربوا منها ·

ان اختلاف مواهب الرجال فى التعامل مع بيئتهم الاقتصادية ، والاستفادة من الحرية باستغلال العامل الأسود والأبيض ، والحصول على سندات ملكية أرض الهندى الأحمر ، كانت تسجل فى النهاية فى قوائم الضرائب حيث تقدر ثروة كل رجل بجانب ثروة جيرانه · وقد انتهت جهودهم فى مجملها الى نقطة لا تقبل الجدل ، وهى أن نمو السكان والتطور الاقتصادى قد تسببا فى قلة العدالة فى توزيع الثروة ، والى زيادة عدد المعدمين فعلا فى كل مجتمع ، وحدث التغير ببطء فى المناطق الريفية ، ولكن سرعته ازدادت فى المراكز التجارية الساحلية ·

ففى قرية نورثامبتون ، فى ماساشوستس ، مثلا ، سيطر نحو ١٠٪ من كبار ملاك الأراضى على ٢٥٪ من الثروة الخاضعة للضريبة سنة ١٦٧٦ ، وازدادت سيطرتهم ببطء على مصادر القوة الى نسبة ٣٤٪ سنة ١٧٥٩ · وفى نفس الوقت ، ظلت نسبة الممتلكات الخاضعة للضريبة والتى يملكها الثلث الأدنى فى المجتمع ثابتة عند حوالى ١٠ ٪ · وفى

مقاطعة تشستر Chester ببنسلفانيا كان أغنى ١٠٪ من المزارعين فى تلك المنطقة الخصبة والغنية بانتاج القمح جنوب غرب فيلادلفيا يهيمنون على حوالى ٢٤ ٪ من الثروة سنة ١٦٩٣ ، و ٣٠ ٪ تقريبا سنة ١٧٦٠ ، بينما تناقصت القوة الاقتصادية خلال هذه الفترة لأدنى ٣٠٪ من ملاك الأرض من ١٧ر٤٪ الى ٦ر٣٪ من جملة الممتلكات الخاضعة للضرائب بالمقاطعة (٢٥) ٠

كانت نسبة التغير فى المدن أكبر من ذلك بكثير ، حيث استولى أعلى ١٠٪ من الملاك فى بوسطن سنة ١٦٨٧ على ٤٦ ٪ من الممتلكات الخاضعة للضرائب ، بينما كان نصيب ٣٠٪ من صغار الملاك حوالى ٣٠٪ نسبة هزيلة قيمتها ٢ر٦ ٪ من الثروة ، وبعد ذلك بأربعة أجيال ، فى سنة ١٧٧١ امتلك العشر الذى على القمة ٦٣٪ من الثروة بينما لم يمتلك أدنى ٣٠٪ شيئا البتة ، أو امتلكوا مجرد واحد فى الألف من الموارد الخاضعة للضريبة ٠ وفى بوسطن ، حيث كان عدد السكان فى ثبات معظم القرن الثامن عشر ، والركود الاقتصادى مخيما بشدة على مجالات كثيرة ، تضاعف الاستقطاب الاقتصادى فى فيلادلفيا المنفتحة بقوة ونشاط ٠ ففى سنة ١٦٩٣ أى بعد عقد من الاستيطان بقليل ، ادعى الثلث الأعلى من السكان ملكية ٤٦٪ من ثروة المدينة ، وبعد مرور ثلاثة أرباع القرن ، امتلكوا ٧١٪ من الثروة الخاضعة للضريبة سنة ١٧٧٢ ٠ ولم تكن هذه المكاسب ، كما فى بوسطن ، على حساب الثلث الأدنى فى المجتمع والذى كان يملك ٢ر٢٪ فقط سنة ١٦٩٣ ، وانما كان على حساب العناصر المتوسطة (٢٦) ٠

اذا كان الفقر قد ضرب فى حياة الجزء الأكبر من سكان الحضر ، فهو وضع عادى على الحدود ، حيث لم تكن الفجوة بين الغنى والفقير موجودة تقريبا لعدم وجود أغنياء فى أى مكان هناك ٠ فقد كانت التركيبة الاجتماعية فى منطقة الحدود فى منتصف القرن الثامن عشر ، تمثل المجتمع الريفى على حافة القارة قبل ذلك بقرن ٠ وتميز مجتمع الحدود بقلة عدد المزارعين الذين عاشوا فى شظف على نفس السهل ، سواء أكانوا فى مدن غرب ماساشوستس وكونيكتيكت التى اكتشفها أبناء اليانكى المزارعون فى الربع الثانى والثالث من القرن الثامن عشر . أو الأراضى الواقعة على طول نهر موهوك فى نيويورك ، ونهر سسكيهانا فى بنسلفانيا التى كانت تمثل أمل المهاجرين الألمان والاسكتلنديين والايرلنديين ، أو الأرض الخلفية لميريلاند وفرجينيا وكارولينا الشمالية والجنوبية والتى امتصت نحو ٢٥٠ ألف نسمة فى فترة المستعمرات

الأخـــيرة ، واشتروا الأراضى بثمن بخس ، وصـــل فى العادة الى أربعة شلنات للآكر (*) (ومع ذلك فقد كان يكفى لاتاحة ربح ملائم للمضاربين من الجهة الشرقية فى تجارة الأراضى) ، وكافحوا لتحويل حياة العيش البسيط الى حياة الربح • وأمل الكثيرون فى الحصول على أراضى زراعية تكفيهم فى سنوات قليلة لانتاج فائض محاصيل السوق • الا أن هذا الأمر كان يستغرق عادة ، معظم حياة الواحد منهم لاقتصاره على المساعدة من أبنائه ، وبعض حيوانات الحقل القليلة ، وكافح آخرون لادخـــال تحسينات كثيرة على قطعة الأرض التى يملكها الواحد منهم ، بما يكفى لجذب المستوطنين المندفعين نحو الغرب فى موجـة الاستيطان التاليـة فيدفعون فيها ثمنا يكافىء جهود صاحبها •

تكررت مؤسسات المجتمع الشرقى بسرعة ، على جبهة نيوانجلند ، حيث اندفع الناس غربا فى مجموعات ، فيجدون أمامهم قرى وكنائس جديدة حيثما ذهبوا • وقد عاش هؤلاء الفلاحون والمزارعون البسطاء ، رغم فقرهم ، حياة لم تتفسخ فيها الروابط تماما داخل مؤسساتها هذه • ولكن الى الجنوب من نيويورك على المنحـــدرات الشرقية للأبلاش عـــاش مجتمع هامشى شبه همجى ، حيث نجد الكاهن الانجيلى ، تشـــــارلز وودماسون الذى قضى ثلاث سنوات ، يتجول على قدميه من مستوطنة الى أخرى فى المنطقة الخلفية لكارولينا فى الستينات من القرن الثامن عشر ، نجده يفزع مما رآه ، فيقول : « نظرا لرغبة القسيس فى الزواج ، وفسق الناس وتحررهم ، يعيش المئات حياة التسرى واتخاذ المحظيات ــ يتبادلون زوجاتهم كالماشية ، ويحيون حياة الطبيعة ، تعوزهم العفة ، ويسودهم الشذوذ بدرجة أكثر من الهنود الحمر ••• » ، كما وجد فى بيفركريك Beaver Creek أكواخهم مفتوحة تماما ، لا يســترها حجاب ، يكادون يفترشون الغبراء ، ويلتحفون السماء ، بلا أدنى غطاء ، ليس لديهم جرعة شراب ســـوى المـــاء القراح ، كل كســـائهم ، قميص وبنطلون ، أو قميص وتنورة نسائيتان • وربما كان بعضـــه قماشا خشنا من الكتان والصوف وبلا أحذية أو جوارب ، والأطفال نصف عراة ، الهنـــود الحمر احسن منهم ، ملبسا ومسكنا » (٢٧) • وقد حمل وود ماسون معه بصفته انجليكانيا انجليزيا ، كل ما يحمـــل من تحيز دفين ضـــــد الايرلنديين الاسكتلنديين البرسبتاريين (**) ، وهم الجزء الرئيسى من سكان المنطقة ، لكنا لانجد سببا للشك فى أنهم عاشوا تلك المعيشة الخشنة • ويقول انه بعد قيامه بالوعظ فى فلات كريك Flat Creek « لمجموعة ضخمة

(* الآكر : أقل من الفدان بقليل ، أو نحو ٤ آلاف متر مربع •

(**) البرسبتارية أو المشيخة : صفة لكنيسة بروتستانتية ، يدير شئونها شيوخ منتخبون ، متساوون فى المنزلة ــ (المترجم) •

من الناس ... خليط هائل ! وحشد مختلط من كافة الطبقات ، امتقع وجهه لما فعلوه بعد الصلاة من « عربدة ، ورقص ، وغناء ، ودعارة » . ويزيد الأمر توضيحا باشارات من يديه ، فيقول : « كانت غالبية الجماعة مخمورين تماما قبل أن أغادر المكان ــ وكانوا أفظاظا ، فى حالة تشبه عامة الهمج ، لا يقلون عنهم درجة » . لقد أغمض عينيه ، فزعا من بعض ما رآه ، ولكنه أبقاهما مفتوحتين بما يسمح له أن يلاحظ الفتيات « ذوات الرءوس المكشوفة ، والسيقان العارية ، والأقدام الحافية ، لايستورهن سوى قميص وتنورة ــ ومع ذلك لا أستطيع أن أمنعهم من ذلك ــ فحرارة الجو لا تسمح بارتداء شىء (سوى) ثوب رقيق » . ويستطرد قائلا : « تتصرف الفتيات تصرفا شاذا جدا .. اذ يضيقن قمصانهن بحيث تلتصق بأجسادهن أشد التصاق ، ويشددنها بالدبوس لتبرز استدارة صدورهن .. ويشددن تنوراتهن على أردافهن ليبرزن جمال السيقان ــ صحيح أن العرى هنا ليس أمرا مستهجنا أو مبتذلا ، وهن يكشفن أجسادهن تماما ، فى سلوك منهن غير مهذب ــ فيدلكن أنفسهن وشعورهن بزيت الدببة ، ثم يعقصنه الى أعلى كذيل الحصان ، مثل الهنديات ، لايختلفن عنهن فى شىء » (٢٨) .

مذهب الفردانية السياسى :

انتشر نفس النشاط الفردانى ، المتواصل ، وسط المستعمرين الأوروبيين فى أمريكا القرن الثامن عشر ، سواء أكان ذلك فى المنطقة الخلفية لكارولينا ، الخالية فعلا ، من المؤسسات والطبقات الاجتماعية ، أو فى الموانىء الساحلية حيث يجرى الاستقطاب الاقتصادى ، جنبا الى جنب مع نمو المدارس والكنائس والمحاكم ، والنوادى . وساد الاعتقاد أن البيئة تقدم فرصا لا حدود لها ، حتى بالرغم من أن فرص الحياة كانت تضيق ، وتقل أمام فقراء المهاجرين أو أولئك الذين ولدوا فى أدنى طبقات المجتمع . وفى هذا الجو ، على حد قول أحد المؤرخين (٢٩) انتشر على نطاق واسع « اغراء استغلال الحكم فى أغراض شخصية » ، فوجد المسئولون الحكوميون ، سواء فى المجلس المحلى أو الاقليمى أنفسهم محاطين بالمطالب التى لا تتفق مع المهام التقليدية للحكومه ، حيث ان المستوطنين وسماسرة الأراضى الذين وقعوا فى منازعات حول الحقوق الشرعية فى الأراضى الهندية ،جاءوا بدعاواهم أمام المجلس التشريعى للمستوطنة ، ودافعوا عن قضاياهم بالتلاعب بكل وسائل الاستغلال والرشوة والتى غيرنا اسمها الآن الى جماعات الضغط (اللوبى) . وتنافس التجار للحصول على حق تجهيز البعثات العسكرية ، ورشوة أعضاء الهيئة التشريعية بأمل الحصول على العقود . وتكتل السماسرة فى مجموعات ،

واستغلوا تأثيرهم فى المجالس التشريعيـــة للمستعمرات لكسب بنود لتأسيس نقابة أو شركة ، وبمجرد تأسيسها يسعون الى مزيد من الفوائد التشريعية فى شكل صكوك امتياز لانشاء بنوك للأراضى ـ وهى مؤسسات تصدر الأوراق المالية بضمان الأراضى ـ لكى توسع دائرة العملة ، وبذلك تسهل على من لديهم حمى النشاط الحدودى أن يشتروا الأراضى التى تحت أيديهم ·

وباقتراب عهد الثورة ، حلت فلسفة الفردانيـــة ، محل فلسفة الجماعة ، كما انهار التكامل الاجتماعى تحت ضغط الطموح الفردى بعد أن كان أمرا حتميا ، لا غنى عنه ، كما انتصر الالتزام بمصلحة الفرد على مصلحة الجماعة · ورغم اصرار القادة السياسيين فى بياناتهم العامة على التأكيد بأنهم يمثلون المصلحة العامة ، أصبح معروفا أنهم كانوا يعينون فقط حسب مصالح مجموع من سيستفيدون من حولهم ، ففى بداية العشرينـات من القرن الثامن عشر ، ارتفعت أصـوات كثيرة جدا بأن المجتمع يتكون من مجموعات ذات مصالح مشتركة ، وأن جوهر السياسة أن تجعل مصلحة مجموعة الفرد ذاتها تغلب على مصالح مجموع الآخرين ، الا أنه لم ينقض نصف القرن حتى هوجم ، فى الحال ، مذهب « المصلحة العامة » القديم · ولـما أكد أحــد الكتاب فى صحيفة « نيويورك جازيت سنة ١٧٦٥ بأن « (مصلحة الفرد) هى المبدأ الأكبر لكل سلوك انسانى ، أصبح من غير المعقول أو من العبث أن نتوقع خدمة أو معروفا من شخص عليه أن يتصرف بما يخالف مصلحته الخاصة » · وقد اعترف بجلاء بما كان يدور طويلا فى أذهان الأوروبيين فى أمريكا ، بالرغم من النفور من ذلك الاعتراف ومعارضته (٣٠) ·

هذا ، ولابد أن يستمر الجدال حــول المصلحة الشخصية مقابل المصلحة العامة لعشرات السنين · فمن رأى البعض أن انتصار الفردية هو انحراف عن الرؤية النبيلة التى جاء بهـــا البيوريتان الى الشواطىء الأمريكية لأنهم اعتبروا تفوق المصـلحة الشخصية شـكلا من أشـكال السماح بأشد غرائز السلب والنهب ، وتشجيعها واضفاء الشرعية عليها ـ فى حين يرى آخرون بأنها كانت خطوة عظيمة للأمام ، فى تاريخ البشرية ، حيث سمحت للانســان أن يتصرف بحــرية ، وكبحث القوى اللازمة للتسلط فى مفهوم « المصلحة العامة » ·

كانت الطرق المتعددة للتخلص من القيود الحكوميـــة والفكرية ، وتمجيد مفهوم المصلحة الشخصية ، هى الصيغة المضبوطة للتطور السريع لمساحة واسعة من الأرض قد حباها الله بمصادر وافرة للثروة ، وبسكان طموحين من المجددين الأوروبيين ، ذوى التفكير الواقعى ، ولا جدال فى

أنه بالرغم من تناقص الفرص ، وتزايد مشكلة فقر المناطق الحضرية فى القرن الثامن عشر ، كان أواسط الأوروبيين فى أمريكا ، يعيشون أفضل بكثير مما لو كانوا قد لزموا أوطانهم الأم • وصدق الزائرون الأمريكيون لأوروبا ، أمثال فرانكلين ، عندما أثبتوا أن أشد الأشخاص بؤسا فى المستعمرات ، لم يبلغ به السوء نصف ما كان يبلغه واحد من كل خمسة فى انجلترا •

لكن فرانكلين ومعظم المؤرخين ، الذين كتبوا خلال قرن ونصف بعد وفاته ، قد أغفلوا من اعتبارهم بقصد أو عن غير قصـــد ، ربع المجتمع الأمريكى الذى كان مكبلا فى الأصـــفاد ، أو المطرودين أفراده بعيدا عن أرضهم ، وهم أسوأ فقرا من أشد الأشخاص بؤسا فى المجتمع الأوروبى • لقد كان ما يقرب من ٢٢٪ من السكان الأمريكيين ، عند فجر الثورة من السود ، وكانت غالبيتهم العظمى من الرقيق • ويعيش عدد لا حصر له من الهنود ، اما أشباه عبيد فى مستوطنـــات البيض ، أو فى مجمعات مخصصة لهم ، أو يكافحون للاحتفاظ بأرضهم الأساسية ، واستقلالهم السياسى • ولم يكن هؤلاء مجرد أعضاء فى المجتمع ، الذين يقفون عند أدنى درجات السلم فيه فقط ، بل كانوا سكان « البدروم » فى بيت أزيل عنه السلم المؤدى الى الدور الأرضى • ومع ذلك ، فهم جزء من المنزل ، وبدونهم لم يكن البناء ليقوم أو يمكن أن يرتفع عاليا •

ان أية مقارنة بين المجتمع الأوروبى ومجتمع الأوروبيين فى أمريكا يجب ، أن تضع فى الحسبان أن تفوق الأوربيين فى أمريكا كان راجعا الى حد كبير الى أنهم كانوا يحتلون أرض الهنود الحمر ، ويستغلون جهد الأفارقة • فلو أننا أخذنا « كل » شعب أمريـكا فى منتصف القـــرن الثامن عشر ، وقارناه « بكل » شعب انجلترا لاختفت الفروق فى الثروة ، ومســتوى المعيشـــة ، وفرص التقـــدم فى أغلب الأحوال • فقد كان ربع السكان الأدنى الى القاع فى أمريكا مستعبدا أو يناضل من أجل البقاء ، ولذلك كانوا أشد بؤسا من نظرائهم فى المجتمع الأوروبى • أما الربعان الثانى والثالث من المجتمع الأمريكى ، واللذان يتكونان من الخدم بالعقود ذات الآجال ، وسكان الحدود الفقراء ، والعمال الزراعيين ، ومستأجرى الأراضى ، والعمال المعدمين فى المناطق الحضرية ، والبحارة ، ربما لم يكن هؤلاء جميعا أحسن حـــالا من قرنائهـــم فى الشرائح المماثلة فى المجتمع الانجليزى • وكانت ميزتهم الأساســـية أنهم يستطيعون أن يأملوا فى الارتقاء فى المجتمع ، حيث كان الحصـــول على الأرض مازال متيسرا ، ويحصل العامل على أجر أعلى من نظيره فى وطنه الأم • ولا أن بعضهم قد حققوا فرصتهم فى حياتهم ، ولكن البعض الآخر ، ولعلهم الأكثرية قد فشلوا فى ذلك ، ومع ذلك نقلوا الأمل الواعد الى أبنائهـــم • وفى ربع

المجتمع الأمريكي المتربع على القمة ، ظل الرجال يكافحون لبلوغ السلطة والثراء المادى الذى كانت تتميز به الطبقة العليا فى سلم المجتمع الأوروبى ، ويمكن أن ينسب نجاحهم ، الى حد كبير ، الى قدرتهم على السيطرة على جهد عدد ضخم من العبيد ، أو الى المضاربة فى الأراضى التى اغتصبوها بصورة أو بأخرى من سكانها الأصليين • فقد كان تحرر الرجل من السلطة معناه وقوع رجل آخر فى العبودية ، وهروب رجل من قيود الكنيسة والحكومة معناه هلاك لرجل آخر ، والجنة لشعب هى هاوية الجحيم لشعب آخر •

بهذا المعنى ، كانت ملامح نجاح مجتمع المستعمرات الأمريكي شديدة الخصوصية ، امتزجت فيها قطرات عرق الأفريقى بتراب أرض الهندى السليبة • وكان تغير القرن الثامن عشر ، خاصة فى الجنوب ، من استخدام العامل الأبيض بعقود محددة الأجل الى استخدام الرقيق الأسود قد عزز امكانات تحقيق الأرباح لملاك الأراضى ، الى حد كبير ، وفى نفس الوقت ، على حد قول ادموند مورجان « قد عوق نمو الحرية ، وأوقع الكآبة بالطبقة الدنيا » • ولابد أنه أصبح من ناحية أخرى ، مصدر سخط اجتماعى وصراع طبقى واسع الانتشار (٣١) ، فالحرية والعبودية ، والبيض والسود ، والنجاح المادى واستغلال البشر ، كانت كلها مرتبطة ببعضها بميثاق غير مقدس •

المراجـــــع

1. Quoted in James A. Henretta, « The Evolution of American Society, 1700-1815 » (Lexington, Mass. : D.C. Heath and Company, 1973), pp. 3-4.

2. Quoted in Peter Gouldesbrough, « An Attempted Scottish Voyage to NeN York in 1669 », Scottish Historical Review, 40. (1961) : 58.

3. Quoted in Marcus W. Jernegan, « Laboring and Dependent Classes in Colonial America, 1607-1783 » (New York : Frederick Ungar Publishing Co., 1965), p. 55.

4. Gottlieb Mittelberger, « Journey to Pennsylvania, ed. and trans. Oscar Handlin and John Clive » (Cambridge : Harvard University Press, 1960), pp. 12-15.

5. Richard Hofstatder, « America at 1750 : A Social Portrait » (New York : Alfred A. Knopf, Inc., 1972), p. 61.

6. Abbot E. Smith, « Colonists in Bondage : White Servitude and Convict Labor in America, 1607-1776 » (Chapel Hill : University of North Carolina Press, 1947), pp. 297-300.

7. Frank J. Klingberg, « An Appraisal of the Negro in Colonial South Carolina : A Study in Americanization » (Washington, D.C The Associated Publishers, 1941), pp. 58-60 ; William Langhorne, « An Account of The Spiritual State of St. Bartholomew's Parish, » (1752), South Carolina Magazine of History, 50 (1949) : 200.

8. Quoted in Perry Miller, « The New England Mind From Colony to Province » (Boston : Beacon Press, 1961), p. 37.

9. Henretta, « Evolution of American Society », p. 8.

10. Ibid., p. 9.

11. Quoted in Gray B. Nash, « Quakers and Politics ; Pennsylvania, 1681-1726 » (Princeton : Princeton Univ. Press, 1968), p. 303.

12. Quoted in Henretta, « Evolution of American Society », p. 99.

13. Quoted in Carl Bridenbaugh, « Cities in Revolt : Urban Life in America, 1743-1776 » (New York : Capricorn Books, 1964), p. 140.

14. J. Hector St. John Crèvecoeur, « Letters from an American Farmer » (New York : E.P. Dutton & Co., Inc., 1957), pp. 54-56.

15. « A Modell of Christian Charity » quoted in Darrett B. Rutman, « Winthrop's Boston ; A Portrait of a Puritan Town, 1630-1649 » (Chapel Hill : University of North Carolina Press, 1965), pp. 7-8.

16. Quoted in Hofstadter, « America at 1750 », p. 131.

17. Ibid., p. 141.

18. Jackson T. Main, « The Social Structure of Revolutionary America » (Princeton : Princeton University Press 1965), p. 236.

19. « The Writings of Benjamin Franklin », 10 vols., ed. Albert H. Smyth (New York : The Macmillan Co., 1907), 5 : 362-63.

20. Quoted in James T. Lemon, « The Best Poor Man's Country : A Geographical Study of Early Southeastern Pennsylvania » (Baltimore: : Johns Hopkins University Press, 1972), xiii ; American Husbandry (London, 1775), ed. Harry J. Carman (New York ; Columbia Univ. 1939), pp. 52-53.

21. Mittelberger, « Journey to Pennsylvania », p. 48.

22. Pennsylvania Magazine of History and Biography, I (1977) : 277.

23. Records Relating to the Early History of Boston, 39 Vols. (Boston : Rockwell and Churchill, 1881-1909), 14 : 240, 302.

24. Raymond Mohl, « Poverty in Early America, A Reappraisal », New York History, 50 (1969) : 9, 13-15.

25. William R. Tillman, Unpublished analysis of wealth distribution in Northhampton Mass. : James T. Lemon and Gary B. Nash, « The Distribution of Wealth in Eighteenth-Century America : A Century of Change in Chester Country, Pennsylvania, 1693-1802 », Journal of Social History, 2 (1968) ; 11-14.

26. Gray B. Nash, « Wealth, Poverty, and Mobility in Pre-Revolutionary American Cities », unpublished ms.

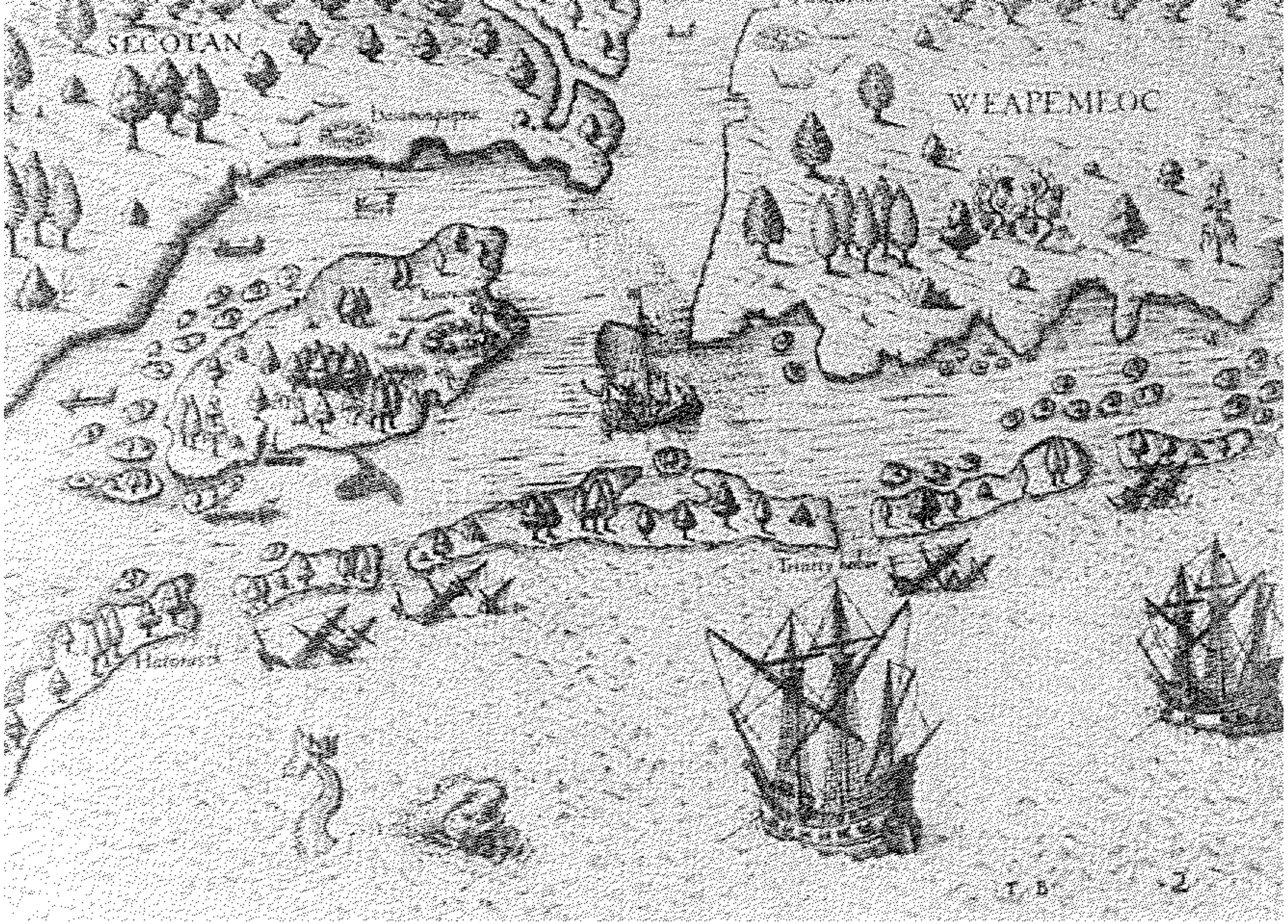
27. Charles Woodmason, « The Carolina Backcountry on the Eve of the Revolution, ed. » Richard J. Hooker (Chapel Hill : University of North Carolina Press, 1953), pp. 15, 33.

28. Ibid., pp. 56, 61.

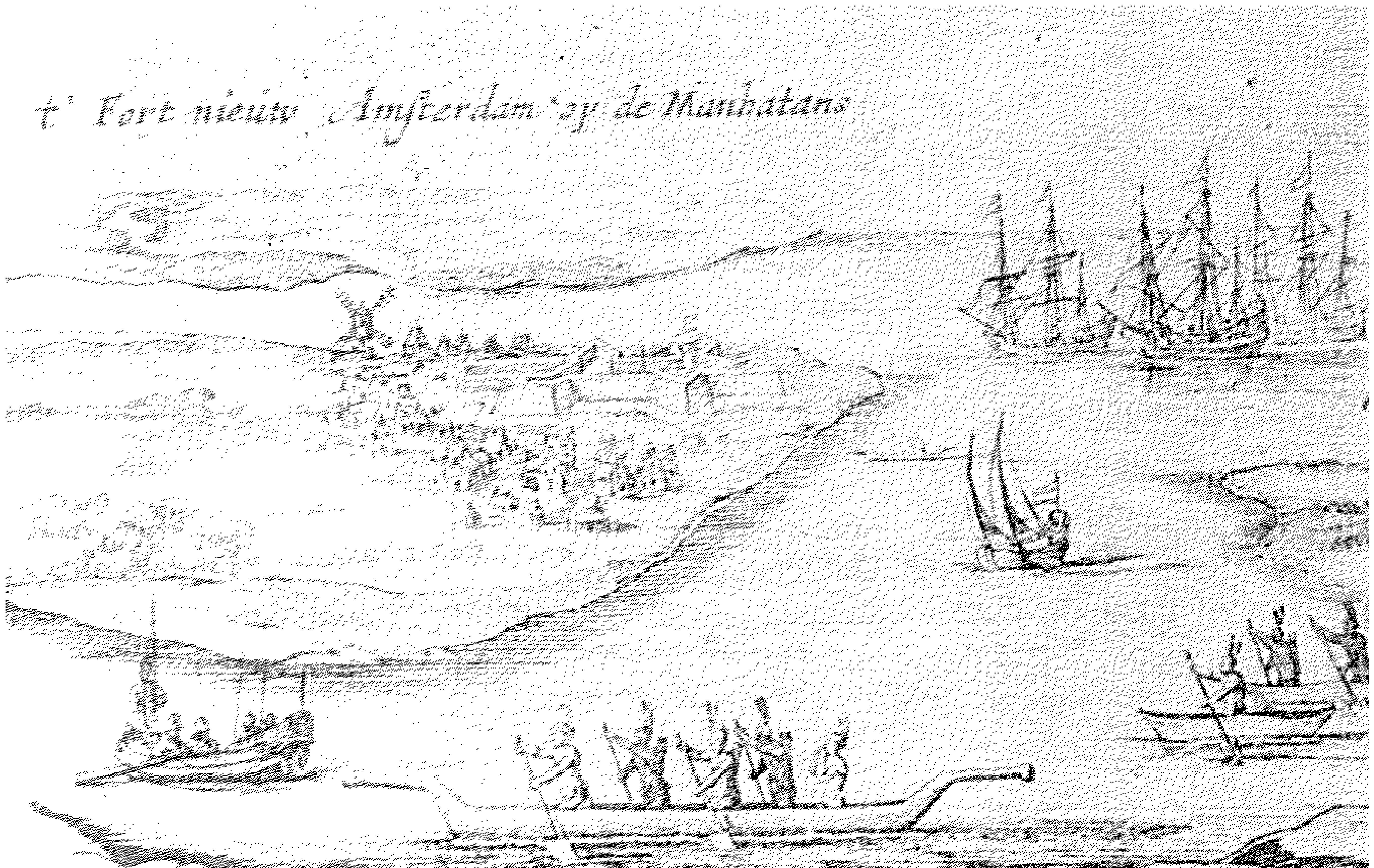
29. Richard L. Bushman, « From Puritan to Yankee : Character and the Social Order in Connecticut, 1690-1765 » (Cambridge : Harvard University Press, 1967), pp. 267-88.

30. Bernard Friedman, « The Shaping of the Radical Consciousness in Provincial New York », Journal of American History, 56, (1969-70) : 789.

31. Morgan, « Slavery and Freedom : The American Paradox », Journal of American History, 59 (1972-73) : 25.



حفر يتخيل فيه الفنان اللقاء الأول فى أمريكا الشمالية بين أهالى أمريكا الأصليين والمستعمرين الانجليز عند جزيرة رونوك سنة ١٨٥٨.



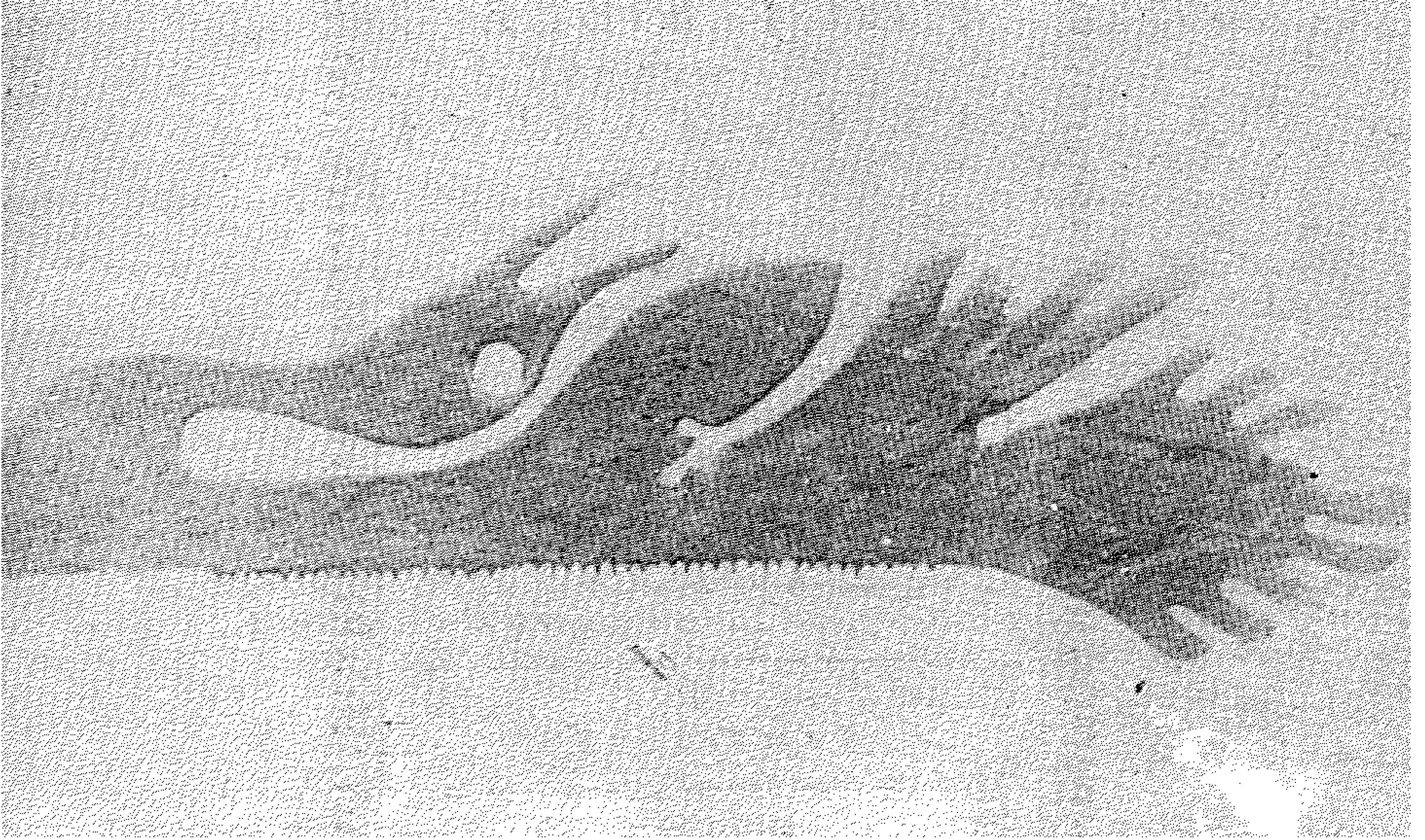
نيو أمستردام الهولندية عام ١٦٢٦، التى أصبحت انجليزية عام ١٦٦٤، ولكنها حافظت على جوها وشكلها المعمارى خلال عصر المستعمرات.

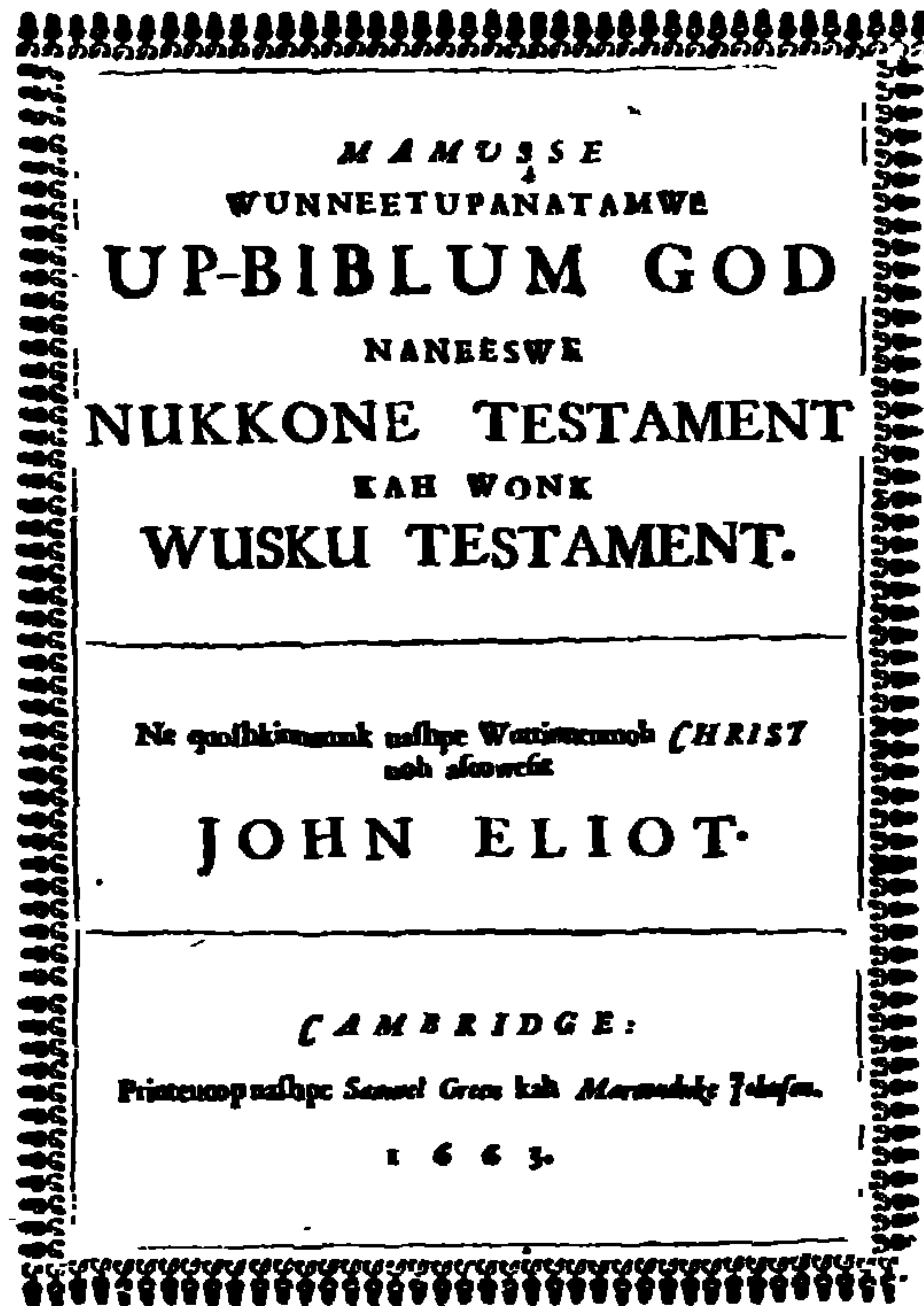


اتسمت شخصية چون وينثروب، قائد هجرة البيوريتان إلى نيو انجلند بالقوة والعزيمة



أمشاط على شكل عرف الديك، وأشياء زخرفية أخرى، دقيقة الصنع، أكتشفت فى مواقع بناء الاستحكامات فى هوبويل *Hopewell*، كانت تصنع قبل مجئ الأوربيين ببضعة قرون.





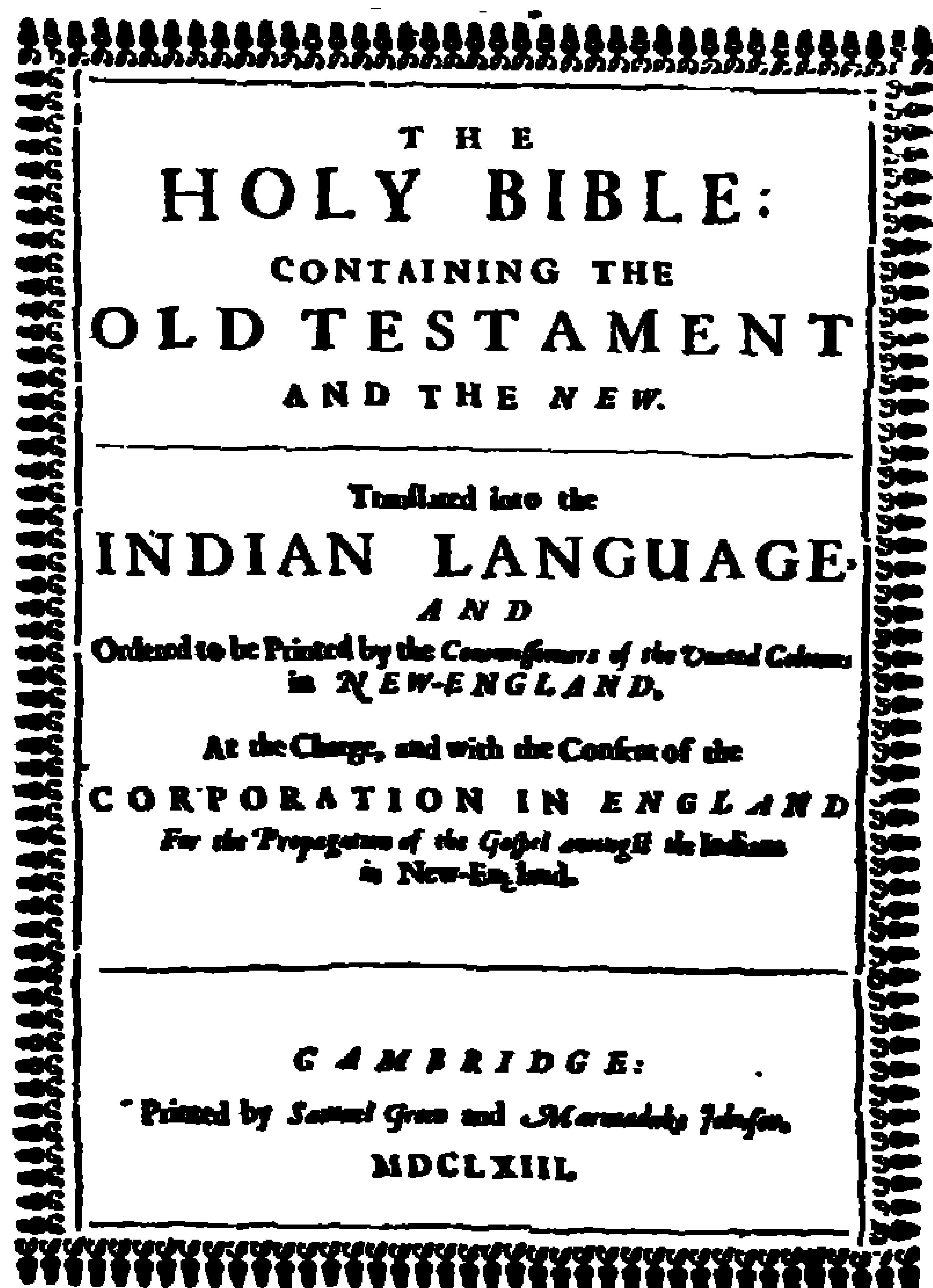
MAMUSSE
WUNNEETUPANATAMWE
UP-BIBLUM GOD
NANEESWE
NUKKONE TESTAMENT
KAH WONK
WUSKU TESTAMENT.

Ne quoshkinnumuk nashpe Wuttinneumoh CHRIST
noh asoowesit

JOHN ELIOT.

CAMBRIDGE:
Printeuoop nashpe Samuel Green kah Marmaduke Johnson.
1663.

الترجمة الألجونكية للأنجيل، جزء من محاولات جون إليوت لتنصير هنود انجلند الجنوبية، ولم يكن أداة دينية فقط، بل أيضاً، جزءاً من تحقيق السيادة السياسية للبيوريتان.



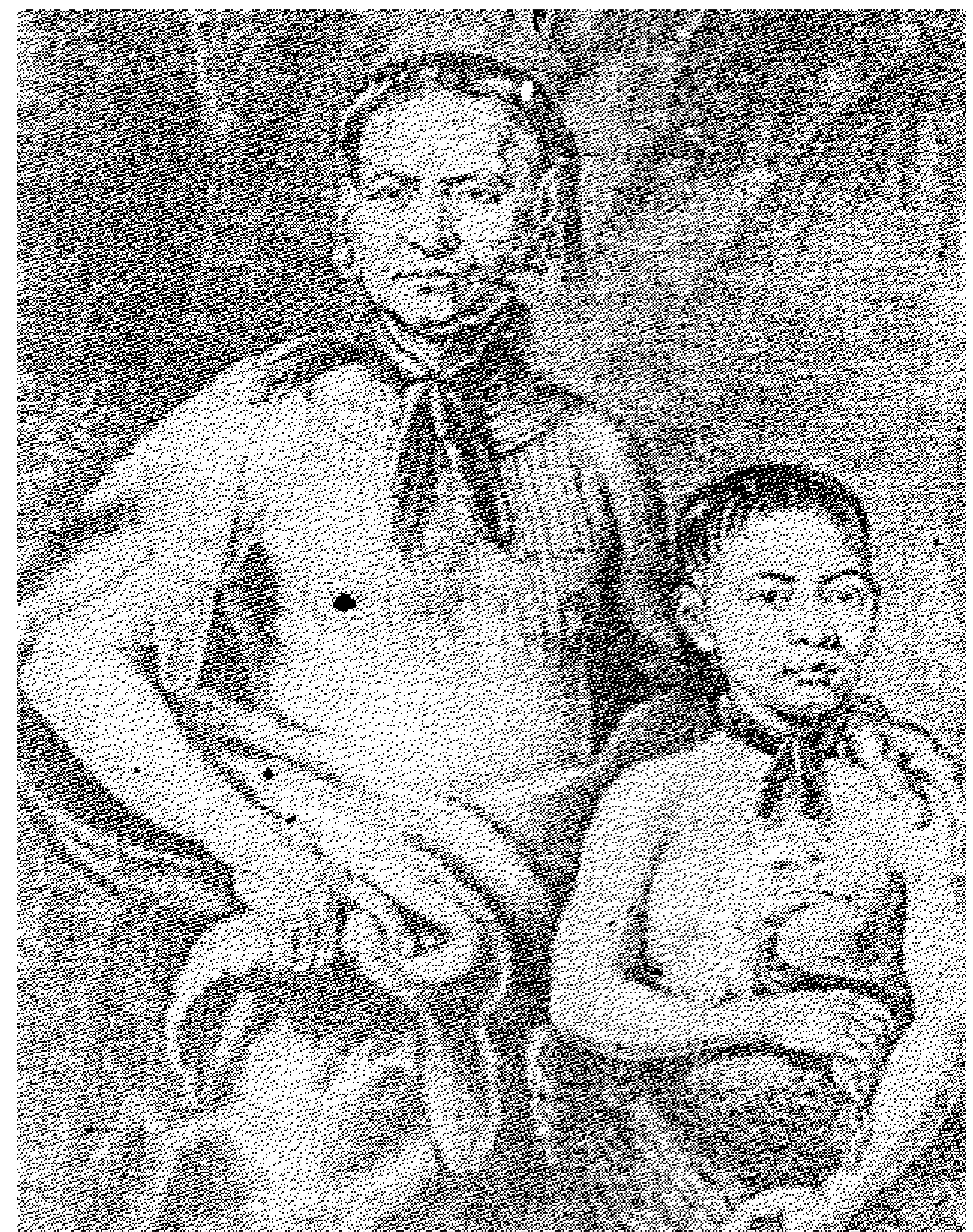
THE
HOLY BIBLE:
CONTAINING THE
OLD TESTAMENT
AND THE NEW.

Translated into the
INDIAN LANGUAGE,
AND
Ordered to be Printed by the Commissioners of the United Colonies
in NEW-ENGLAND,
At the Charge, and with the Consent of the
CORPORATION IN ENGLAND
For the Propagation of the Gospel amongst the Indians
in New-England.

CAMBRIDGE:
Printed by Samuel Green and Marmaduke Johnson.
MDCLXIII.



لابوينزا Lapowind، زعيم من الديلاوير. جلس لهذه الصــورة سنة ١٧٣٥، وبعدهــا بسنتين تنازل عــن قطعة أرض شاسعــة لأبناء وليام بن William Penn .



تومونشيتشى tomochichi، الذى ولد قبل أن يضع أول انجليزى قدمه فى كارولنيا. وهو يجلس لرسمه مع ابن أخيه عام ١٧٣٤ .



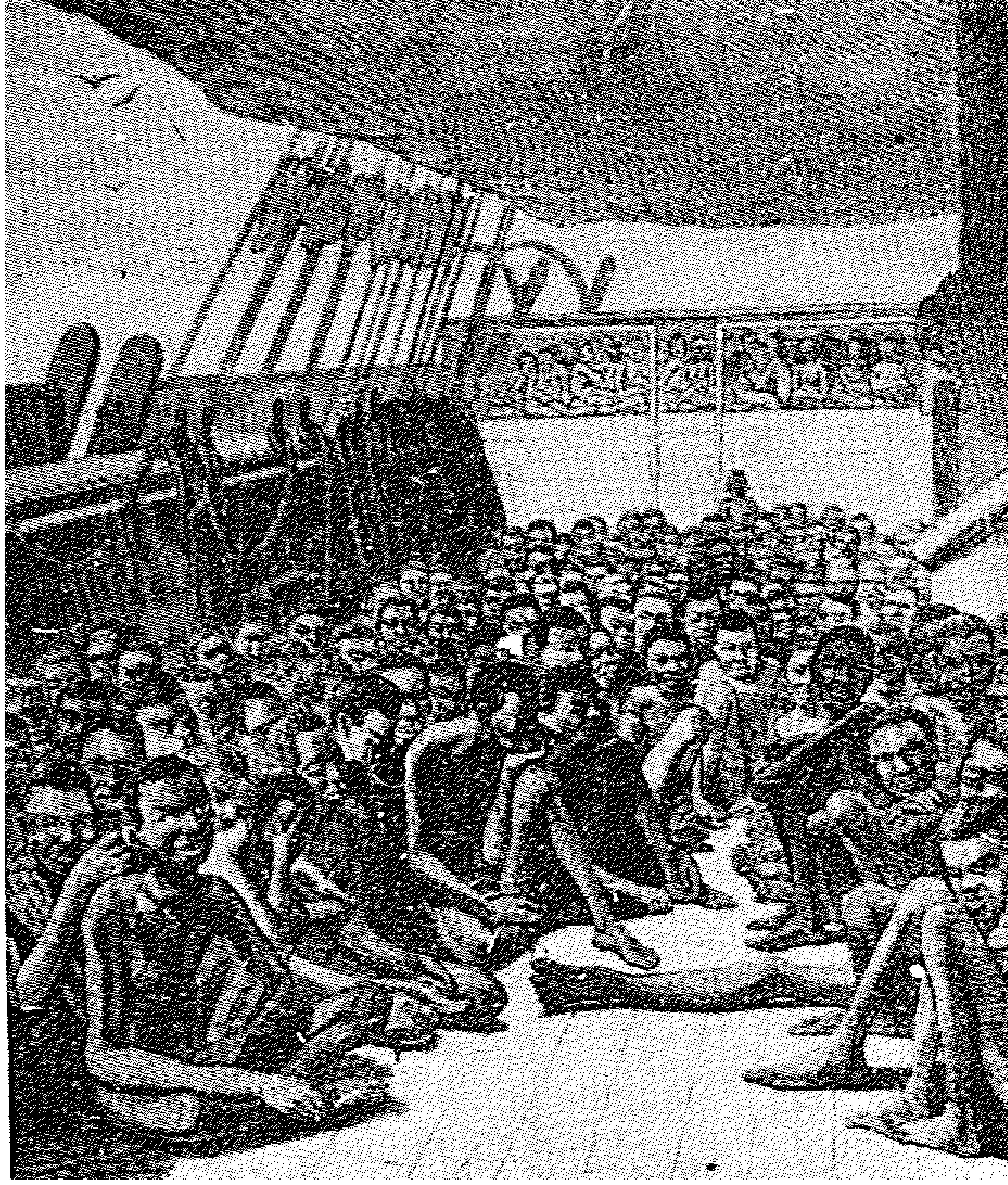
زار هؤلاء الزعماء من الشيروكى لندن بصحبة ضابط إنجليزى بعد حرب الشيروكى ١٧٦٠ – ١٧٦١/ (مؤسسة وليامزبيرج الاستعمارية، قسم المجموعات التذكارية) .



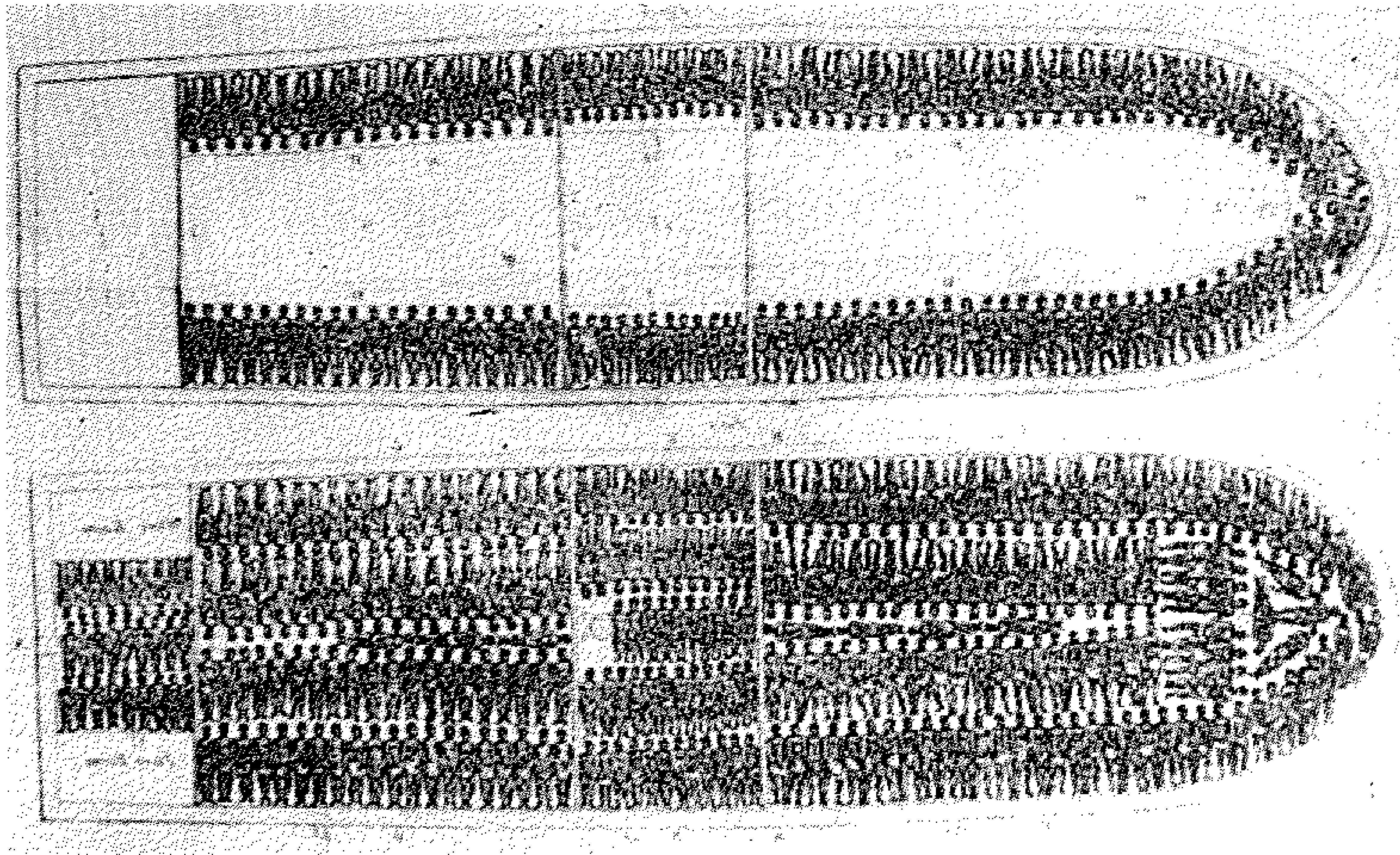
الهنود أكلة لحوم البشر، (فكرة) وجدت أساساً فى أذهان الأوروبيون، إلا أن مثل هذه الصورة التى رسمها تيودور دى براى *Theodor De Bry* قد لعبت دوراً فى تصوير الهنود على أنهم «متوحشون».



قام هذا الزعيم من الموهوك برحلة إلى انجلترا سنة ١٧١٠ ليتفاوض مع الحكومة الإنجليزية، كما قام حفيده جوزيف برانت *Joseph Brant* بنفس الرحلة بعد ٦٥ عاماً، واشترك مع الانجليز فى الثورة الأمريكية.



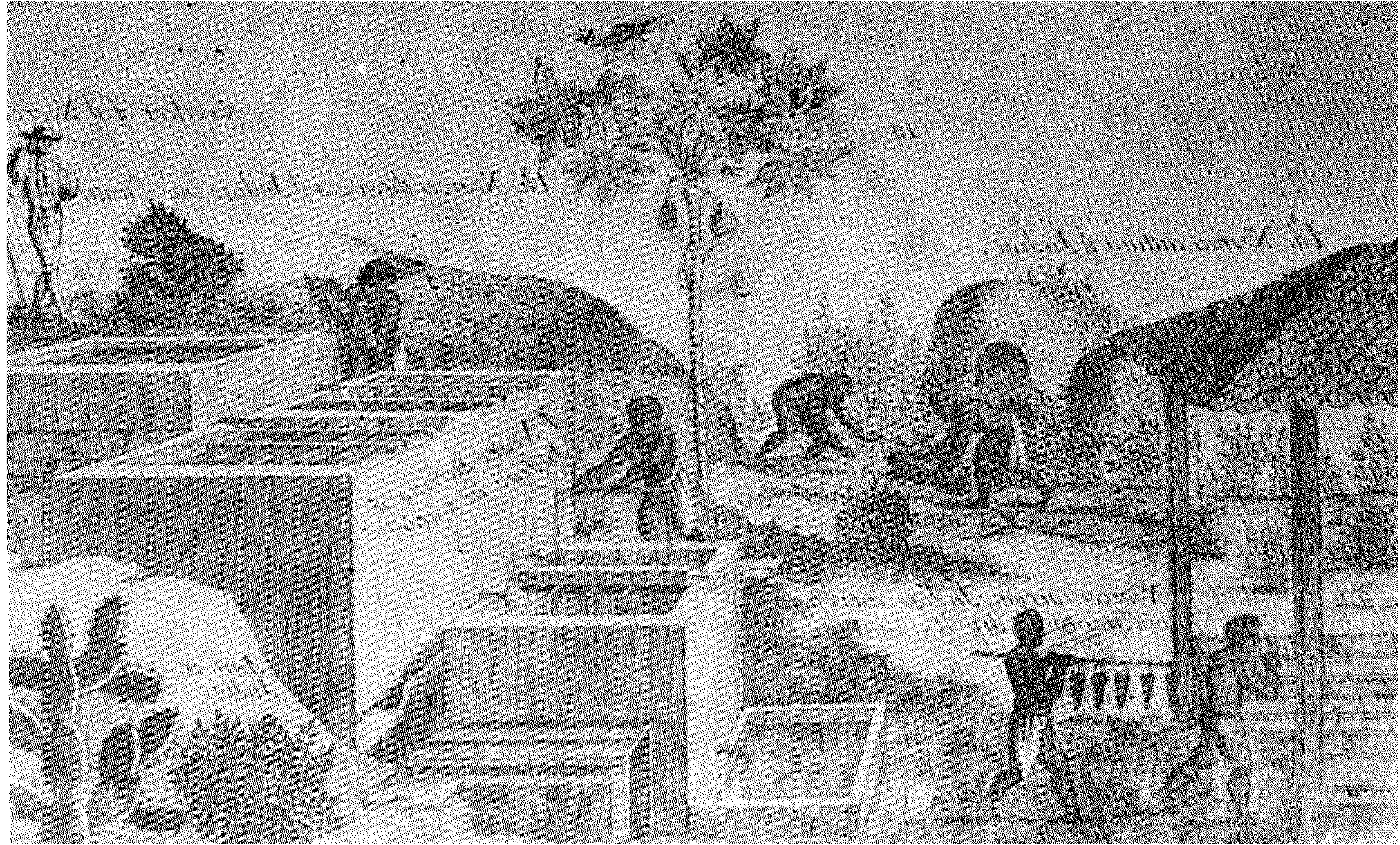
كان أكبر جزء من صدمة العبيد، فى عملية التكيف الحضارى مع الحياة الاستعمارية الأوروبية هو ذلك الجزء من الرحلة الذى يمرون فيه «بعروض الخيل».



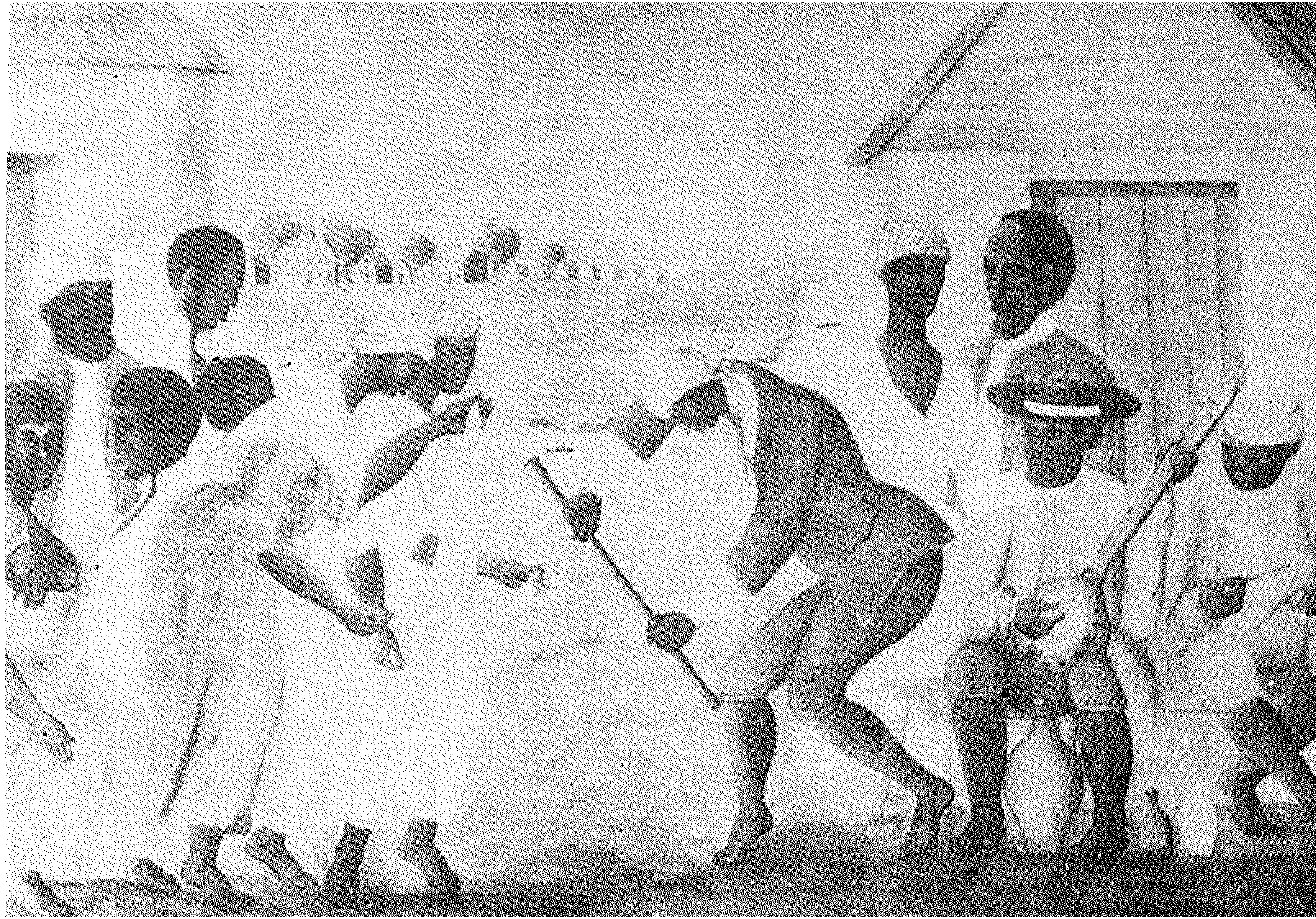
تنافس مهندسو العمارة البحرية الأوروبيون فى تصميم سفن تستوعب أكبر ما يمكن من شحناتهم البشرية، إلى العالم الجديد، وأكثرها ربحاً.



وضعت زراعة التبغ على يد الأمريكيين الأفارقة، الأساس للاقتصاد الواعد، المبشر فى منطقة تشيزابيك فى القرن الثامن عشر



انتاج النيلة الذى كان عمل العبيد فى المقام الأول، كانت له الأهمية العظمى فى تكوين الثروة فى كارولينا الجنوبية فى القرن الثامن عشر.

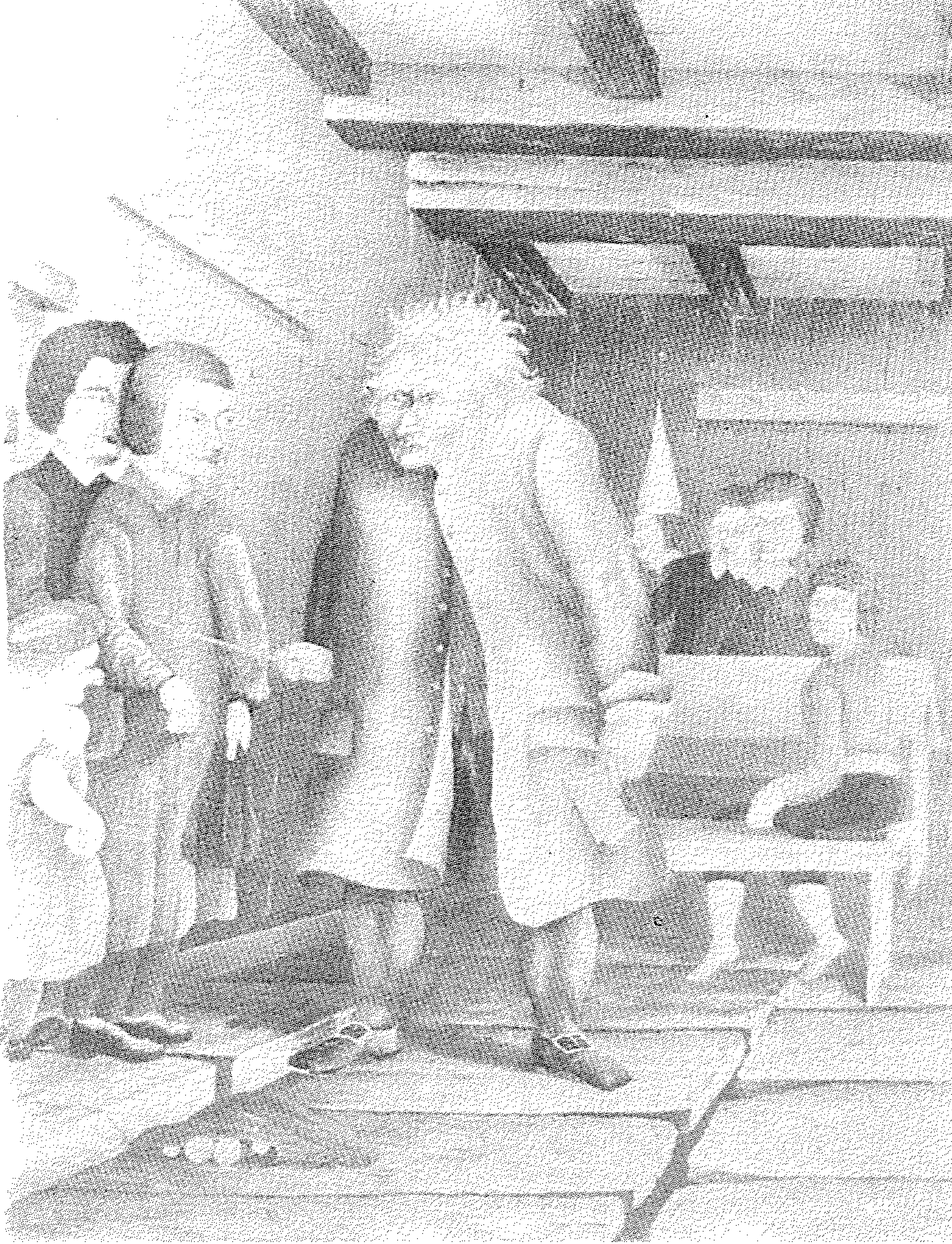


صورة زيتية من كارولينا الجنوبية، تبين الاحتفاظ بأشكال الحضارة الأفريقية فى أمريكا الشمالية. ويعتقد أن الرقص الدينى (غير المدنى) مصدر اليوربا، كما يتضح من الآلة الوترية والطبلة.

الكويكرز فى المصلى، يعبرون فى حرية ودون خوف ضد الرق واستغلال الهنود. وعلى خلاف غيرهم من البروتستانت يسمحون للنساء بدور مساو، تقريباً فى المسائل الدينية.



مدينة بوسطن سنة ١٧٦٤ تبدو مزدهرة، ولو أنها تعرضت بعدها بقليل لحريق مدمر، وتعانى تدهورا اقتصاديا. (بإذن من جمعية بوسطن مبنى المجلس التشريعى القديم).



هذه الصورة لناظر مدرسة من القرن الثامن عشر، خير شاهد على أن التخويف والعنف كانا عنصرين رئيسيين فى المفاهيم الأوروبية عن تنشئة الأطفال وتربيتهم.

الفصل العاشر

حروب تكوين الامبراطورية ، والاستراتيجيات الهندية للبقاء

فيما بين سنتى ١٦٧٥ ، ١٧٦٣[١] ، قامت ثلاث قوى أوربية : فرنسا ، وأسبانيا ، وانجلترا ، بتوظيف الحرب والدبلوماسية فى صراع متطور من أجل التجارة والأرض ، فى تلك المساحة الشاسعة بين نهر المسيسبى والمحيط الأطلنطى ، وفى مياه الكاريبى • ولما كانت كل من التجارة والأرض التى يتشوقون اليها فى أمريكا الشمالية ، تقع فى يد القبائل الهندية ، لذا كانت هذه القوى الثلاث على اتصال دائم ووثيق بزعماء المجتمع الهندى • ولقد نسيت كتب التاريخ عندنا ، الى حد بعيد ، بل ما كان واضحا بشكل جلى خلال هذه الفترة ، أن السلطات الأوروبية قد بذلت وقتا طويلا ، وجهدا جهيدا ، سواء فى أسبانيا الجديدة ، أو فرنسا الجديدة ، أو انجلترا الجديدة ، أو فى أى مكان آخر فى المستعمرات الأوروبية ، فى المفاوضات والتجارة والحرب مع أو ضد الهنود من مختلف الثقافات أو الحضارات ، وفى ارسال التقارير ، والالتماسات ، والشكاوى الى الحكومات فى الوطن الأم بخصوص الشئون الهندية • وأصبح المسئولون عن شئون المستعمرات فى مدريد ، وباريس ، ولندن يعرفون عن السكان الهنود فى الأقاليم التى يطالبون بها تماما مثلما يعرفون عن سكان مستعمراتهم •

وفى هذا الصراع الثلاثى على القارة ، يسهل أن نتصور أن الهنود الحمر كانوا مجرد البيادق الضعيفة فى لعبة الشطرنج التى يرغب الأوروبيون اللعب بها على لوحة القارة ، ثم ينتهى الأمر بها الى ازاحتها جميعا خارج اللوحة • وهذا المنظر هو جزء من أسطورة القوة الحضارية والعسكرية الساحقة للمستعمرين ، واذعان الهنود عند التقائهم بها • الا أنه بولغ كثيرا فى قوة الأوروبيين ، وأبخست قوة المجتمعات الهندية المحلية • ولزيادة الدقة ، يجب القول بأن الحضارات الهندية بالداخل لم تتبادل فى التورط فى المحاولات المعقدة بين القوى الأوروبية المتنافسة ، فقط ، بل ولعبت أيضا دورا نشطا وفعالا فى نمو الأحداث وتطورها •

فقد عجز الهنود عن ارجاع الساعة الى الوراء ، أو ازاحة الأوروبيين والقائهم فى البحر ، لكن القبائل الداخلية كانت على العكس ، أقوى بكثير من قبائل الساحل الأضعف منهم والأقل سكانا ، الذين لم يجدوا وسيلة لمقاومة الغزاة أو التشبه بهم ، لذلك استطاعت القبائل الداخلية أن تتفاعل مع الأوروبيين بصورة مختلفة تماما • وساعد الهنود ، خلال القرن الثامن عشر على تشكيل تاريخهم الخاص • ونظرا لاثارة القوى الأوروبية ضد بعضها وانقسامها فيما بينها ، لم يجدوا من الوسائل للتغلب على القبائل الداخلية الا قليلا ، واضطروا الى الاعتماد على التحالف مع الهنود ، حفاظا على أنفسهم ، ولو فى المناطق المحدودة التى احتلوها • ولما أدركت الشعوب الهندية ضعف الأوروبيين أخذوا المبادرة ، وجنوا الكثير نظير تأييدهم ومساندتهم • ورغم كونهم الخاسرين فى النهاية كان التفاعل معهم سلاحا ذا حدين فعلا • اذ استغل الأوروبيون الهنود لتعزيز قوتهم ، وكذلك فعل الهنود بالأوروبيين بنفس الدرجة •

وفى النهاية ، اذا نظرنا الى المنافسة الأوروبية الاستعمارية من وجهة النظر الهندية يمكننا أن نفهم حقيقة طبيعة الاحتكاك بين الحضارات فى أمريكا الشمالية • فعلى سبيل المثال ، بينما كان الحكام الأوروبيون والبيروقراطيون الاستعماريون يدبجون ملايين الكلمات على الورق ، ويحركون الجيوش والأساطيل عبر ثلاثة آلاف ميل ويشغلون آلاف الأشخاص فى صناعة السلع الهندية وشحنها ، كان الايروكوا ، سكان الغابات غير المتعلمين ، والذين لا يزيد عددهم عن ٢٥٠٠ محارب ، ١٢٫٠٠٠ فرد يسعون بدهاء وراء مصلحتهم الشخصية ، ويشكلون الأحداث فى أمريكا الشمالية • وقد كتب المؤرخ الفرنسى لا بوتارى La Potharie سنة ١٧٢٢ : « انه لمن المستغرب أن يتمكن ثلاثة أو أربعة آلاف نفس من جعل عالم جديد يرتعد بالكامل • ان نيوانجلند محظوظة جدا لاستطاعتها البقاء فى حظوتهم • أما نيو فرانس فهى فى كآبة دائمة بسبب حروبهم ، ويشعرون بالخطر عبر مسافة تزيد عن ١٥٠٠ فرسخ (*) من بلاد حلفائنا » (١) • وقد حذر « خبير » من الجيل التالى ، حاكم نيويورك ، « من أن أى جانب يقف الهنود (الايروكوا) به ، لابد أن يميل الميزان فيه لصالحهم » (٢) •

كانت استراتيجية فرنسا ، بعد تولى لويس الرابع عشر العرش ، سنة ١٦٦١ ، أن يقيم امبراطورية داخلية فى أمريكا الشمالية ، تطوق الانجليز وتشبثهم على الساحل • ووضعت نيوفرانس (فرنسا الجديدة)

(*) الفرسخ : مقياس للطول يتراوح بين ٢٫٤ ، ٤٫٦ من الميل ـ (المترجم) •

التنافس الأوربى فى العالم الجديد سنة ١٧٥٠

تحت الاشراف الملكى سنة ١٦٦٣ ، وأرسل ألف جندى الى المستعمرة بعد ذلك بعامين ، وبدأت حركة سياسية عدوانية للتوسع فى الأرض وببداية ثمانينات القرن السابع عشر ، لم تكن فرنسا قد أحكمت قبضتها فى وادى نهر سانت لورانس فقط ، بل وأقامت سلسلة من القلاع والمحطات التجارية على قوس يحيط بشمال وغرب المستوطنات الانجليزية احاطة شبه كاملة . وقام الفرنسيون برحلات استكشافية سريعة على طول الطريق مع نهرى الينوى والمسيسبى ، وخلال عشرين سنة أخرى ، كانت الحصون والمحطات التجارية قد ظهرت فى موبيل Mobile ، وبيلوكسى Biloxi على خليج المكسيك وعند ذلك وجد تجار العبيد والجلود أنفسهم يواجهون منافسين جددا فى تلك المنطقة الشاسعة من المسيسبى الأدنى ، التى سبق أن ادعوا ملكيتها من قبل .

ان أحلام السيطرة الأوروبية التى تسلطت على فكر لويس الرابع عشر وأقلقته ، جرت كل القوى الكبرى فى سلسلة من الحروب الشاملة التى شغلت معظم الخمسين سنة ، فترة حكمه . وقد اصطنع الملك الفرنسى حربا أوروبية مرتين فيما بين سنتى ١٦٦٥،١٦٧٥ لكى يهاجم آل هابسبرج المنافسين له فى أوروبا . ونجح فى أولى هذه الحروب فى قهر الأراضى المنخفضة (هولندة) الأسبانية . ولكن فى أخراها ، اتحدت قوى البروتستانت فى أوروبا ضده ، ادراكا منها للخطر الداهم على ميزان القوة فى أوربا ، والذى يعتمد عليه كل فرد فى حفظ السلام . وبعد عقد آخر ، ابتداء من سنة ١٦٨٨ ، تحرك لويس مرة ثانية ، ودار أولا على أقرب جيرانه وأضعفهم ، أرض الراين الألمانى ، وفى نفس الوقت رمز الى تصميمه على سحق أوروبا البروتستانتية بطرده جميع البروتستانت من بلاده ، فهاجر معظم هؤلاء الهوجونوت Huguenots (*) الى انجلترا ومستعمراتها فى أمريكا . وقد جلبت حروب أوروبا الحرب الى أمريكا ، وكان لابد أن تتصادم جيوش وأساطيل فرنسا وانجلترا فى كل مكان فى العالم ، بعد اصطدامها معا فى كل من انجلترا وفرنسا نفسيهما طوال الخمس والعشرين سنة التالية .

لقد اكتشف الانجليز والفرنسيون فى أمريكا فى الحربين اللتين وقعتا بين سنتى ١٦٧٩ الى ١٦٨٩ ، وسنتى ١٧٠١ الى ١٧١٣ ، الصعوبات الهائلة لمجرد جعل قواتهم العسكرية تصطدم ببعضها فى قفار شاسعة لا تصلح لحرب العصابات بسبب ظروف الطقس والأمراض والنقل والتموين . وقد قام الانجليز بمحاولات ثلاث لضرب مراكز القوة الفرنسية

(*) الهوجونوت هم البروتستانت الفرنسيون ـ (المترجم) .

ـ فى بورت رويال ، ونوفاسكوشيا اللتين تتحكمان فى مصب نهر سانت لورانس ، وكويبك فى وسط نيوفرانس • وخلال حرب تحالف أوجسبرج، سنة ١٦٩٠ ، استولوا على بورت رويال ، الا أن انقضاضهم على كويبك كان كارثة عليهم بمعنى الكلمة • وقد شـنت ماساشوستس فى الحرب الثانية حملة لاقتحام بورت رويال ، لكنها تعثرت وفشلت سنة ١٧٠٧ • بل انه ، عندما بعثت انجلترا بأسطول صغير من ستين سفينة وجيش من خمسة آلاف رجل سنة ١٧٠٩ تعثروا قبـل الوصول الى أهدافهم ، ولم يستفد من هـذه المحـاولة الشائنة سـوى تجار بوسطن المتعـاقدين على الامداد والتموين •

بهذا الفشل المطبق للحرب على الطريقة الأوروبية ، حاولت كل من انجلترا وفرنسا أن تعهد الى حلفائها الهنود بالمهام العسكرية ، من الباطن، وقد نجحوا فى ذلك من حين لآخر ، خاصة مع الفرنسيين الذين لم يمانعوا فى الزج بقواتهم الخـاصة بهم مع حلفائهم الهنود فى النزاع ، فـأبيدت شـينيكتادى Schenectady ونيويـورك فى فبراير سنة ١٦٩٠ ، كما سويت بالأرض كل من ويلز ، وماين ، وديرفيلد Deerfield سنة ١٧٠٤، وآمنت مدن أخرى على طول حـدود نيوانجلند بقوة الهجمات الفرنسية الهندية ، ولم يستفد الانجليز من ضغوطهم المتكررة على الايروكوا ليهاجموا أعداءهم ، فقد كان الايروكوا يدركون تماما الانقسامات الداخلية التى تمزق نسيج المجتمع الاستعمارى الانجليزى والتى بدت واضحة جدا سنة ١٦٨٩/٨٨ فى مستهل حرب حلف أوجسبرج ، عندما وقف الانجليزى فى وجه الانجليزى فى حركات عصيان داخل فى ماساشوستس ، ونيويورك، وميريلاند • وحتى عندما هدأت الخلافات داخل المستعمرات ، لم تسمح العداوات بينها الا بتعاون هـزيل ، وهو ما كان لابد أن تفضى اليه تركة الحكام الملكيين واداريي المستعمرات الذين أرسلوا من لندن • كل ذلك لم يكن سرا على الايروكوا ، فلما كانوا يستشارون لمحاربة الفرنسيين فى سنة ١٦٩٢ كان ردهم السريع :

> **انكم تستحثوننـا يوميـا كى نحـارب أعداءكم وندمرهـم ، وتأمروننـا ان نستمر فى شجاعة ، ولكننا نراكم لا تفعلون شيئا من جانبـكم ، ولا نرى لكم اية قوة تواجهون بها العدو اذا اقتحم عليكم ، ولا نسمع عن عمل جليل يمكن أن تؤدوه فى البحـر ، فلم نسمع بشىء من ذلك • ان الحـرب يجب أن تكون ساخنة ومتواصلة ايضا من جانبكم ، وكل ما نجده هو ان جيراننا من نيوانجلند ، وبقية الانجليز المتعاهدين على العمل معنا يلزمون جميعهم البيوت ، ويحثوننا لأداء المهمة (٣) •**

دبلوماسية الايروكوا :

لم ينجح الانجليز ــ على حد سواء ــ فى محاولاتهم للفوز بالاعتراف بالسيادة الانجليزية بعيدا عن حلفائهم المزعومين · وقد حاولت سلسلة الحكام الملكيين فى نيويورك أن يستعملوا تعبير « الأب » و « الأبناء » فى مفاوضاتهم مع الايروكوا·وهذا الأسلوب اللغوى ، الذى دل دلالة مؤكدة على مركز الأمة الهندية الضعيف ، قد قبلته قبائل نهر هدسن ، بعد ما عانته من خراب فى حروبها مع الهولنديين والانجليز فيما بين سنتى ١٦٤٠ ، ١٦٨٠ · الا أن الايروكوا لم يكونوا بحاجة الى قبول هذا اللفظ الدال على الخضوع · فهم « لم يكونوا رعايا » كما يقول مؤرخ حديث « بالرغم من تحالفهم مع نيويورك سياسيا ، وعدم استقلالهم اقتصاديا الى حد ما ، كانوا يصرون باستمرار على أنهم (أحرار) ، ويطالبون حكام نيويورك بمناداتهم (بالاخوة) » (٤) · ومع براعة الأوروبيين فى لعبة تحريف الكلمات وليها كى يختلط المظهر بالمخبر ، اضطر الايروكوا الى الاعلان باستمرار مثلما صرحوا سنة ١٦٨٤ « اننا وضعنا أنفسنا تحت الساشم العظيم تشارلز الذى يعيش على البحيرة العظمى » ثم يكملون حديثهم بالتذكير « بأننا شعب حر ، نوحد أنفسنا مع الزعيم الذى نرتضيه » · بعد هذا الاعلان بقليل ، والذى وجهوه الى الانجليز ، أوضحوا للفرنسيين فى جلاء « أننا ولدنا أحرارا ، لا نعتمد على يونونديو Yonnondio حاكم نيوفرانس ، ولا على كورلاير Corlaer حاكم نيويورك · نحن نستطيع أن نذهب حيث نشاء ، ونرافق من يعجبنا ، ونبيع ونشترى ما يحلو لنا » (٥) · وكان التحالف مع الانجليز ، بالنسبة للايروكوا فى الثمانينات من القرن السابع عشر جزءا من لعبة الدبلوماسية فقط ، وليس أكثر من وعد مؤقت بالتأييد يمكن نقضه فى أى وقت ·

ولا يوحى ذلك بأن الايروكوا لم يتورطوا أو ينهمكوا فى الصراع الأنجلو ــ فرنسى من أجل تكوين امبراطورية · فقد كانوا كذلك حقا · الا أن وقوعهم فى هذه الشباك لم يكن بتوجيه من الانجليز أو الفرنسيين أو بوضعهم أيا من أهداف القوى الأوروبية فى الاعتبار · فقد أجرى الايروكوا حساباتهم ، واتخذوا قراراتهم الخاصة داخل مجالس العشائر الخمس المتركزة فى أونونداجا · فهنا ، صارع ممثلو العشائر الخمس مشكلة تطلبت منهم كل مهارة دبلوماسية وقوة عسكرية فى النصف الأخير من القرن السابع عشر ، وهى كيف يحافظون على وضع الايروكوا كوسيط فى تجارة الفراء بين المنطقة الشمالية من البحيرات العظمى وأسواق الفراء فى ألبانى ومونتريال · فلم يكن كافيا تدمير هورونيا Huronia فى المنطقة الشرقية للبحيرات العظمى ، لأن الايروكوا كانوا لا يزالون مضطرين لمنع

القبائل الأبعد ، وهى الأوتاوا ، والنيبيسينج Nippissings ، والسيوكس Sioux من المتاجرة مباشرة مع الفرنسيين الذين أقاموا محطات تجارية فى مساحة شاسعة يحدها تقريبا خليج هدسون شمالا ، ووادى أوهايو جنوبا ، لذلك ، سد الايروكوا ، بعد انتهاء حروب الهورون سنة ١٩٥٦ فى الأنهار التى تؤدى الى مونتريال ، وأقاموا كمائن للقوارب المستطيلة الخفيفة التى جاءت فى أساطيل صغيرة عند صيدهم السنوى لحيوانى القندس والقضاعة • وفى نفس الوقت الذى مارس فيه أعداء أسبانيا الأوروبيون قرصنتهم فى البحر ليعيدوا توجيه الذهب والفضة المستخرجين من المكسيك وبيرو الى لندن وباريس ، انهمك الايروكوا فى القرصنة عند الطرق المائية فى الجزء الشمالى من القارة وذلك لتحويل الفراء من مونتريال الى البانى ، وبالتالى من باريس الى لندن فى آخر الأمر •

كانت المشكلة بالنسبة لفرنسا هى كيف تحمى روابطها التجارية مع القبائل الغربية ، وقد ثبت استحالة الأخذ بأى من الخيارين اللذين جربتهما كحل للمشكلة وهما : ابادة الايروكوا ، أو التحالف معهم • أما بالنسبة للايروكوا ، فكانت المشكلة هى الحفاظ على قوة بشرية كافية لاستمرار اعتراض طريق الفراء الغربى ، بينما يبعدون أعداء لهم أمثال السسكيهانوك الى الجنوب ، أو الشاونى الى الجنوب الغربى• وفى النهاية، كان التحالف طبيعيا بين مموِّلى أوتاوا ، وسماسرة الايروكوا ، والمشترين من ألبانى • وقد أدت الأسعار المرتفعة التى قدمها الانجليز ثمنا للفراء والبضائع الجيدة من الصوف الانجليزى ، وارتفاع نسبة الكحول فى مشروب الروم الانجليزى الى زيادة الرغبة فى تجارة ألبانى أكثر من تجارة مونتريال •

أدرك الفرنسيون مدى النكبة التى يجرها التحالف بين أوتاوا والايروكوا على نيوفرانس ، لذلك قضوا الثلث الأخير من القرن السابع عشر فى محاولات لتمزيق هذه المشاركة التجارية • فشن الفرنسيون الموجودون فى بلاد الايروكوا هجمات متقطعة من حين لآخر ، كانت تنتهى بحرق قرى العدو الهندى ومؤنه ، عندما يفشلون فى قتاله • وكانت هذه الغزوات تنجح أحيانا ، كما حدث سنة ١٦٦٦ ، عندما التمس الايروكوا السلام ، ودعوا المبشرين الفرنسيين الى مدنهم ليرشدوهم الى « الطريق الصحيح » — الأمر الذى حافظوا عليه بمهارة • ولكن حينما أثبتت لهم حساباتهم أن الوقت قد حان، خاصة بعد هزيمة السسكيهانوك سنة١٦٧٥ واندماجهم فى قواتهم المحاربة ، كان لابد للايروكوا أن يقتلعوا المبشرين الجزويت ، ويسددوا ضربات مدمرة لمراكز القوة الفرنسية • فغزت العشائر الخمس سنة ١٦٨٠ اقليم الينوى ، ودمروا القرى والحصون

الفرنسية ، واستولوا على القوارب الفرنسية الطويلة الخفيفة والفراء في الطرق النهرية المؤدية الى الشرق • وكرروا الهجوم سنتي ١٦٨٤ ، ١٦٨٩ • ولم يكن الهجوم في السنة الأخيرة اشباعا لرغبة الانجليز العائدين حديثا لمحاربة فرنسا ، بل لأسباب داخلية تتعلق بالايروكوا ، خاصة للرد على الاعتداءات الفرنسية في بلاد السينيكا سنة ١٦٨٧ •

لقد استطاع الفرنسيون ، من وقت لآخر ، أن يستفيدوا من المساندة المحدودة من الأوتاوا وبقايا الهورون في هجماتهم على الايروكوا • ولكن هذه القبائل الغربية كانت تدرك تماما أن حليفها الطبيعي هو من يدفع في سلعهم أفضل الأسعار • وعلى ذلك ، أيدوا الفرنسيين ، بما يكفي للمحافظة على رضائهم ، ولكنهم لم يلزموا أنفسهم مطلقا بمحاربة الايروكوا، ولم يظهروا لهم ، في الحقيقة ، في الأعم الأغلب ، سوى مظهر العداء • وهم بذلك يعملون وفق سياسة « نحن جميعا اخوة ، ويجب أن نكون جسدا واحدا ، ولا نملك سوى روح واحدة » • ويبررون ذلك بأن « الفرنسيين يدعوننا للحرب ضد الايروكوا ، وهم يرغبون في استخدامنا ليتخذونا عبيدا لهم • فبعد أن نساعدهم في تدمير العدو ، سيفعلون معنا ما يفعلونه بماشيتهم التي يربطونها في المحراث لتفلح لهم في الأرض • فلنتركهم يقومون بالمهمة وحدهم • ولن ينجحوا في هزيمة الايروكوا • وبذلك نكون سادة أنفسنا دائما » (٦) •

أصبح من الواضح ، لكل الأطراف ، بنهاية القرن السابع عشر ، أنه برغم التفوق العددي الكبير للانجليز على الفرنسيين ، لم يتمكنوا من هزيمة الكنديين لافتقاد الوحدة بين المستعمرات ، وعدم رغبة الحكومة في الوطن الأم في مدهم بالقوات العسكرية • واتضح أيضا أن الفرنسيين كانوا عاجزين سواء عن تدمير الايروكوا لافتقارهم الى القوة العسكرية أو تشكيل أي حلف معهم لمعاناتهم من المنافسة في تجارة الفراء التي تمنعهم من ذلك ، كما تبين أن الايروكوا يحتفظون بوضع جغرافي استراتيجي في الجزء الشمالي من القارة • ولكن بالرغم من نجاح الايروكوا ، والتأثير الواسع الانتشار على القبائل الجنوبية والغربية منهم ، الا أنهم عانوا بشدة في تحقيق دور الوسيط في تجارة الفراء ، اذ أنهم ، بعد أن تلقوا ضربات موجعة من هجمات الفرنسيين في نهاية القرن السابع عشر ، أخذوا يبحثون عن وسيلة جديدة يتجنبون بها الحروب من أجل فراء القندس النفيس • وقد اتضح لهم ، ساعتها ، أنه لا يمكنهم تقريبا أن يتوقعوا شيئا من العون الحربي من حلفائهم الأنجلو أمريكا منذ أن أخلت حكومة نيويورك بوعودها المتكررة لهم •

جاء حل مشكلتهم سريعا وجزئيا ، ففي صيف ١٧٠١ دخلوا في مفاوضات مع كل من الانجليز والفرنسيين ، انتهت بتوقيع معاهدتين في وقت واحد تقريبا في مونتريال وألباني • وقد وعدوا فرنسا ، في احداهما بالحياد في أية حرب تنشب بينها وبين انجلترا مستقبلا • وذلك مكسب عظيم للفرنسيين الذين كان الايروكوا يزعجونهم ، وأصبح بامكانهم الاعتماد على حيادهم • وبالنسبة للانجليز الذين فقدوا بذلك حليفا عسكريا ، تخلى الايروكوا عن أراضيهم الغربية الخاصة بالصيد ، والتى انتزعوها من الهورون قبل ذلك بنصف قرن • هذا النموذج البارع من الدبلوماسية يتضمن أن ولاء الايروكوا الأساسى كان لا يزال للانجليز • ولكن الأمر لم يخرج عن كونه تخليا صوريا عن الأرض ، لأنه لم يكن فى وسع الانجليز أدنى قدرة على احتلال هذا الاقليم أو التحكم فيه ، خاصة وأن هذه الأراضى التى نحن بصددها قد أعاد الفرنسيون ، فى الواقع فتحها مؤخرا مع حلفائهم الوايانډوت Wyandots • ولكى يكمل الايروكوا مفاوضاتهم للتسوية ، سالموا القبائل المجاورة لهم جهة الغرب •

سارت سياسة الايروكوا ، على نحو حسن لمدة نصف قرن تقريبا • وتحررت العشائر الخمس (التى أصبحت عشائر ستا ، بعد اضافة التوسكارورا) من الحروب من أجل فراء القندس النفيس ، وانهمكوا فى دورهم كمتعهدين لتوريد الفراء ، وزادوا عددهم باستيعاب بقايا القبائل الساحلية التى أهلك الأوروبيون القسم الأعظم منها ، وعناصر القبائل الغربية التى هزمها الايروكوا أنفسهم ، من قبل • فمنذ أوائل القرن السابع عشر ، حينما كان الايروكوا يناضلون لفرض نفوذهم على قبائل منطقة البحيرات العظمى ، أصبحوا هم القوة السائدة فى الغابات الشمالية الشرقية ، وقوة يحسب كل من الفرنسيين والانجليز لها حسابا • وبالرغم من أنهم لم يزيدوا كثيرا عن سكان مقاطعة نيويورك وحدها فى بداية القرن الثامن عشر ، الا أن رغبتهم فى الحرب ومهارتهم الدبلوماسية ووضعهم المهم ، الذى لا غنى عنه عبر طريق تجارة الفراء قد أعطاهم مركزا بالغ الأهمية • ذلك المركز القوى الذى أشار اليه حاكم كويبك باحترام عندما كتب الى وطنه سنة ١٧١١ بوجوب تجنب الحرب مع الايروكوا بأى ثمن « لأن قرى [عشائر] الايروكوا الخمس يجب أن نخشاهم أكثر من المستعمرات الانجليزية » (٧) •

لم تمر سنة كاملة على عقد الايروكوا معاهدتيهم فى آلبانى ومونتريال ، حتى نشبت حرب أخرى بين الانجليز والفرنسيين • ولكن ، بينما كان الفرنسيون وحلفاؤهم المحليون من الهنود الحمر يشعلون المدن على طول حدود نيوانجلند ، اكتفى الايروكوا على الخطوط الجانبية ، برؤية

التجارة الانجليزية والفرنسية يعصف بهـا • فقد كانوا يؤكدون رأيهم أن الانجليز غير جديرين بالثقة أو الاعتماد عليهم كحلفاء عسكريين بسبب رفض نيويورك المجيء لمساعدة نيوانجلند • فالنيويوركيون ، خوفا منهم أن تتعرض للخطر أرباحهم من تجارة الفراء ، وتجارتهم في السوق السوداء التى كانوا يمارسونها مع عدو الفرنسيين الكندى ، وضعوا التجارة فى بالهم ، ويرى بعض المسئولين فى ماساشوستس ، أنهم كانوا يتاجرون فيما ينهبونه من المدن الخربة على حدود نيوانجلند • وكانت مساعدة الايروكوا الوحيدة هى ارسالهم لثلاثة من الموهوك وواحد من الماهيكان الى لندن مع شخصيتين بارزتين من نيويورك ، ليستعجلوا العون الانجليزى فى الحرب ضد كندا • وعندما وصلوا الى لندن سنة ١٧١٠ ، قاموا بزيارة رسمية للملكة آن فى القصر ، وتوقفوا عن برنامجهم بعد وصولهم ، وحضروا حفلة راقصة قاصرة على الرجال فقط فى الحديقة الملكية ، يتـابعهم حشد من المهتمين بهم أينما ذهبوا •

وفى ختـام حرب الملكة آن سنة ١٧١٣ ، منحت معاهدة صلـح أوترشت Utrecht ، فيما يبدو ، مكاسب جوهرية للانجليز فى أمريكا الشمالية نزولا على طلبهم • فتخلت فرنسا لانجلترا عن نوفاسكوشيا ، ونيوفوندلاند ، وخليج هدسن ، واعترفت بسيادة الانجليز على الايروكوا • (لم يحدث هذا التنـازل من الايروكوا) وسمحوا للتجار الانجليز بفتح تجارة مع القبائل الغربية التى كانت مقصورة على الفرنسيين من قبل • الا أن التنازلات المكتوبة على الورق لم تكن تعنى شيئا يذكر ما لم يستطع الانجليز الاستفادة من مزاياها باحتلال الأراضى التى اكتسبوها أو اقامة مراكز تجارية فى العمق الداخلى • ولم يسـتطع الانجليز ، لمدة الجيل التالى ، أن يجدوا القدرة على شغل أنفسهم بهذه المناطق النائية • وركزوا انتباههم الآن على أن ينشئوا بالتدريج وبشكل متصل قطاعات من السكان بين الساحل ومرتفعات أبلاش • ولم يستفيدوا من مزايا حقوقهم الجديدة فقط ، الا حينما قاموا ببناء قلعة ومحطة تجارية فى أوسويجو Oswego على بحيرة أونتاريو • وتأجل الفصـل الأخـير فى الدراما الاستعمارية ، ومصير الايروكوا والقبائل الغربية لمدة أربعين سنة •

دبلوماسية الكريك :

استطاع الايروكوا حمـاية مصالحهم التجارية ، وتجنبوا الحرب ، باثارة القوى الأوروبية ضد بعضها لمصلحتهم الشخصية ، وفهم اتحاد الكريك الكونفـدرالى فى الجنوب الشرقى فهما كامـلا قـواعد السياسة الواقعية – المبنية على عوامل عملية ومادية دون نظر الى العوامل النظرية

او الأخلاقية ــ التى تلت حرب الياماسى ما بين سنتى ١٧١٥ ــ ١٧١٧ · فقد كان للكريك ، مثــل الايروكوا ، تحالف دفاعى غير متكامل قبل بدء الاستيطان الأوروبى· لكنهم وجدوا أيضا ، أن من الممكن الافادة من التجارة الأوروبية ليصبحوا مجتمعا مرهوب الجانب فى تلك المنطقة الشاسعة التى تتشوق اليها انجلترا وفرنسا وأسبانيا · وكما حدث مع الايروكوا ، لم يعزز الكريك قوتهم فقط ، بل عانوا خلال ذلك من تكثيف الحرب والنضال الذى اشتعل بادخال التجارة الأوروبية لأول مرة · ولم تنقض عشرون سنة بعد اتقان الايروكوا « لنظام الترجيح » بين الانجليز والفرنسيين ، حتى كان الكريك يدفعون أنفسهم الى وضع وكأنهم فيه « حراس ميزان القوى فى البرية بالجنوب » (٨) · وخلال ربع قرن من المحاولات البارعة كانوا يقدمون الوعود للانجليز والفرنسيين والأسبان ، ويسحبونها ، لانتزاع تنازلات تجارية وعسكرية منهم · وحافظوا فى نفس الوقت على استقلالهم الى حد كبير· وكما حاول الانجليز ، من قبل ، تحريض الكريك والشيروكى ضد بعضهما البعض ــ حيث عبر واحــد من كارولينــا عن ذلك بقوله : « باننا نحتفظ بكليهما أصدقاء لنا ، لفترة من الوقت ، ثم نساعدهم على أن يقطع الواحــد منهم رقبة الآخر دون أن نغضب أحــدا منهم » · عمل الكريك على بقاء الفرنسيين والانجليز والأسبان ، يصارع بعضهم بعضا بحيث لا تتمكن أية قوة أوروبية من السيطرة على الاثنتين الأخريين · وقد برع زعيمهم ، بريمز فى ذلك لدرجة أن عبر أحد الانجليز فى كارولينا عن رأيه فيه بأنه كان « سياسيا عظيما كأى حاكم فى أمريكا » (٩) ·

كان اتباع الكريك سياسة الحياد العدائى الجديدة ، سلوكا منطقيا، بعد أن أدى التحالف التجارى المقتصر على الانجليز فى أوائل القرن الى تعسفات أثيمة على يد التجار الانجليز · وقد أعلن الكريك الحرب ضــد مستغليهم ، ضمن استراتيجيتهم من أجل البقاء ، الا أن حركة المقاومة هذه قد فشلت ، نظرا لعدم قدرتهم على اغراء الشيروكى للارتباط معهم فى شن هجوم شامل ضد الانجليز · والآن بدأت فى التحرك ، سياسة من التعاون المحدود الحذر التى كانت أبعد ما تكون عن الاستراتيجية السلبية رغم هزيمتهم فى الحرب · وبدلا من ذلك ، كانت عبارة عن رد فعل ايجابى من الزعماء الهنود الذين يحاولون بناء قوة شعبهم ، وهم مدركون جيدا مزايا التفاعل مع الغرباء فى بلدهم ·

كان من الضرورى أن يبتكر الكريك أساليبهم السياسية فى سياق التنافس الداخــلى بين جماعات الهنود ، وكذلك التنــافس بين الانجليز والفرنسيين والأسبان · ومنذ وصول الانجليز الى كارولينا ، وازعاجهم للحدود الشمالية لفلوريدا الأسبانية بغاراتهم المتكررة ، كان حلم الأسبان

أن يجهزوا حملة بالبر والبحر تمحو ادعاءات الانجليز وطموحاتهم فى المنطقة · وقد جرت هذه المحاولة سنة ١٧٠٢ ، وانتهت بفشل ذريع ، على كل حال ، ولم ينتج عنها سوى هجوم انجليزى مضاد بعد ذلك بسنتين ، ألقى بمعظم الجبهة التبشيرية الأسبانية فى فلوريدا الى الضياع · وخطط الانجليز لهجماتهم على المحطات التجارية الفرنسية فى المسيسبى الأدنى وخليج المكسيك فى سنة ١٧٠٨ · ولكننا نجد فى سنة ١٧١١ وسيلة أكثر فائدة لضرب القوة الفرنسية الوليدة ، حيث استخدم الانجليز حملة عسكرية تتكون أساسا من حلفائها الهنود فى الهجوم على الشوكتاو ، الحلفاء الأساسيين للفرنسيين · ومع ذلك ، لم تنجح واحدة من هذه الهجمات على مراكز الحدود الأمامية للدول الأوروبية المتنافسة ، وأدت معاهدة أوترخت التى أنهت الأعمال العدوانية بين انجلترا وفرنسا وأسبانيا ، الى احباط الانجليز بفشل حلمهم فى السيطرة على الجنوب الأدنى من الأطلنطى الى المسيسبى · وقد كان الكريك يأملون فى منع هذا التخطيط للسيطرة الانجليزية بينما يحافظون على صلاتهم التجارية معهم ·

اتخذ الكريك ، عقب حرب الياماسى ، الاجراءات الضرورية لاستعادة ميزان القوى بتقديم عروض للأسبان ، الذين حرضهم الانجليز على محاربتهم لسنوات عديدة · فأرسل الزعيم بريمز ابنه الى سانت أوجستين St. Augustine ، ومعه تعليمات بالسماح للأسبان أن يبنوا حصنا فى كاويتا Coweta المدينة الرئيسية للكريك الجنوبيين · كما تم ارسال مبعوثين آخرين من الكريك الى مكسيكوسيتى ، ليعقدوا معها حلفا · وفى خلال السنة التالية ، اجتمع زعماء الكريك مع السينيكا ، على بعد أكثر من ألف ميل جهة الشمال ، كما اجتمعوا مع الانجليز فى شارلستون · وفى سنة ١٧١٧ ، عمل الكريك تسوية معقدة ، تظل بعض قراهم بموجبها فى فلك أسبانيا ، والبعض الآخر فى فلك انجلترا · ووقعت معاهدة رسمية مع الانجليز ، تركت الكريك أحرارا فى تجارتهم مع من يرغبون ، أيا كان، ولكنها حددت أسعارا ثابتة فى تجارتهم مع الانجليز ، وكفلت السلاح والذخيرة لاستخدامها ضد القبائل غير المحبة للانجليز ، واتفقوا على أن يشترك الكريك والانجليز فى مسئوليتهم عمن يرتكب جريمة أو يسبب ضررا للآخر ·

لقد رمز بريمز الى استراتيجية فى ميزان القوى بارسال ابن له كمبعوث رئيسى الى الانجليز ، وابن آخر كمبعوث رئيسى الى الأسبان · ونظرا لنضال كل من الكاروليننيين الانجليز ، وأسبان فلوريدا لتكون لهم اليد العليا مع الكريك ، كان لابد أن يحاول كل منهم اقناع بريمز بتعيين « ابنهم » son « Their » خليفة له فى السنين القادمة · وحاول الانجليز فى

سنة ١٧٢٢ التسلل الى سياسة الكريك باعطاء تفويض لأوليتا ، Ouletta ابن بريمز ومبعوثه اليهم بوصفه زعيما لشعب الكريك تحت والده · وقد تحطمت محاولة كسب الاعتراف بالسيادة الانجليزية بعد ذلك بسنتين ، عندما اغتيل أوليتا على يد اليماماسى وهم العدو العنيد للانجليز الذين لا يزالون متحالفين مع الأسبان · وأصبح الآن ، سيبيكوفى Seepeycoffey التابع للأسبان هو المرشح الوحيد لخلافة بريمز ، فلما مات سيبيكوفى سنة ١٧٢٦ ، ورث عمه الحق المباشر فى زعامة الكريك ·

حافظ بريمز على سياسة تحريض الأسبان والانجليز كل منهما على الآخر الى أن توفى فى بداية الثلاثينيات من القرن الثامن عشر · فقد استمر الكريك فى مساعدة اليماماسى الذين كانوا فى حرب متقطعة مع الانجليز · كما استمروا فى مهاجمة الشيروكى حلفاء الانجليز الحميمين ، واتبع الانجليز استراتيجيات متنوعة لاجبار الكريك على الارتباط التام معهم — كالتدخل فى شئون الكريك السياسية ، وأوامر منع أو تحديد شحن البضائع ، والتهديد بحرب مشتركة بين الشيروكى والانجليز ضدهم — ولكنه ، بينما نجحت هذه الوسائل فى جعل الكريك أقرب التصاقا بالانجليز ، وفى اقناعهم بالتخلى عن مساندتهم التقليدية لليماماسى ، حافظ الكريك على استقلالهم الذاتى ، وظلوا قوة بالغة الأهمية فى المنطقة · وقد كتبوا الى الجمعية التشريعية لكارولينا الجنوبية فى سنة ١٧٣٧ « أنهم عوملوا كحلفاء ، لا كرعايا للتاج ··· فقد احتفظوا بممتلكاتهم وحافظوا على استقلالهم » (١٠) · وبقوتهم العددية ، وبراعتهم الدبلوماسية ، استطاع الكريك أن يحتفظوا بوضعهم البارز خلال عشرات السنين التى أعقبت حرب اليماماسى · وطوف مبعوثوهم آلاف الأميال ، وتفاوضوا بين سنتى ١٧١٥ ، ١٧٣٣ ، مع الأسبان فى سانت أوجستين ، وفيرا كروز Vera Cruz ، ومكسيكوسيتى ، ومع الانجليز فى تشارلستون ولندن ، ومع الفرنسيين فى فورت تولوز على نهر ألباما ، ومع زعماء الشعوب الهندية الأخرى من حدود فلوريدا حتى البحيرات العظمى · وكانوا ، فى بعض الأحيان ، يجرون مفاوضات متزامنة مع قوتين أوروبيتين على أشد الخصام معهما · كما أجرى الايروكوا مفاوضات مزدوجة فى مونتريال وألبانى سنة ١٧٠١ ·

نجح الكريك ، بعد عشرات السنين من وفاة بريمز ، فى الحفاظ مرتين على حيادهم فى أوقات عصيبة · ففى سنة ١٧٣٩ ، عندما أعلن الانجليز الحرب على الأسبان ، ضغطت حكومة كارولينا بشدة على الكريك ليشاركوا ، فى هجوم على سانت أوجستين مع الجنرال جيمس أوجليثورب Oglethorpe ، الذى أسس مستعمرة جورجيا بين كارولينا الجنوبية

وفلوريدا قبل ذلك بسبع سنين • وبالرغم من اشتراك قليـل من قرى الكريك مع الحملة الانجليزية التى انتهت بكارثة ، ظل معظم الكريك بعيدا عن الصراع ، وهم مقتنعون بأن سياسة التجارة مع من يقدم أفضل الأسعار، أيا كان ، دون التحالف العسكرى مع أية قوة أوروبية ، هى حجر الزاوية لبقاء الكريك ونموهم • ولابد أنهم هنأوا أنفسهم لالتزامهم بسياستهم ، لأن الشيروكى الذين انضموا الى الانجليز قد عادوا ومعهم الجدرى الذى انتشر بشكل وبائى فى مدن الشيروكى ، فى سنتى ١٧٤٠ ، ١٧٤١ • وفى السنة التالية ، عبر أحد زعماء الكريك تعبيرا جديدا عن الاستراتيجية السـابقة ، حين أكد أن « أرض الكريك التى تخص الانجليز كمـا تخص الفرنسيين هى فى الحقيقة ليست لأى منهما ، ولكن لكل منهما الحرية فى أن يأتى هناك للتجارة » (١١) •

تعرضت سياسة الحياد الكريكى ، للاختبار مرة ثانية فى أربعينات القرن الثامن عشر ، عندما اشتركت فرنسا مع أسبانيا فى حرب ضـد الانجليز • فقد دعـا جيمس جلين James Glen ، الحـاكم الملكى الجديد لكارولينا الجنوبية ، عددا من الزعماء من مدن الكريك الأعلى سنة ١٧٤٦ الى اجتماع سرى ، صرح فيه بما يجول فى خاطره من مكافآت للكريك اذا ما انضموا الى هجوم انجليزى على فورت تولوز ، المعقل الفرنسى الرئيسى عند نهر ألباما الأدنى ، وتم التصويت على المشروع فى اجتماع آخر فى بلدهم وانتهى بخذلان الانجليز مرة ثانية فى جهودهم للحصول على المساندة الهندية التى احتاجوا اليها فى طرد الفرنسيين فى الجنوب الأدنى • وقد حاول جلين للمرة الثانية أن يعبىء الكريك والشيروكى ، ليقوموا بهجمات على الفرنسيين سنة ١٧٤٧ ، واتضح فشله فى مهمته عندما حصل مالاتشى Malatchi أصغر أبناء بريمز ، والزعيم الموالى لفرنسا على الاعتراف به امبراطورا للكريك الجنوبية • وقد حضر مالاتشى مؤتمر تشارلستون فى السـنة السابقة ، ورفض أن يعبس الحاكم الانجليزى فى وجهه تهديدا له بسحب التجارة الانجليزية ، وبدلا من ذلك ، عـاد الى مدينة الكريك الجنوبية • الرئيسية ، وهاجم الخطة الانجليزية ، ثم قام بزيارة شخصية الى سانت أوجستين وفورت تولوز ليخبر الأسبان بالعروض الانجليزية • وسـارع باخطـار الانجليز بالترحيب بهم للتجارة فى بلاد الكريك على ألا يبنوا قلاعا ، أو يتوقعوا تأييد الكريك لهم فى الهجوم العسكرى على الأسبان والفرنسيين •

التحولات فى المجتمع الهندى :

فى منتصف القرن الثامن عشر ، أظهرت الشعوب الهندية الداخلية فى أمريكا الشمالية قدرتها على التكيف مع الوجود الأوروبى ، وأن تحول

تفاعلها الاقتصادى والسياسى معه لصالحها الخاص • وقد تكشفت حضارة الأوروبيين للهنود مدة قرن ونصف ومنها انتقوا ما وافقهم ، فاختاروا من وسط تجارة الفراء والجلود والعبيد ، الأصناف الأوروبية من ملابس ، وأسلحة ، وأدوات معدنية ، ومجموعة متنوعة من أدوات الزينة • فتغيرت حضارتهم المادية بهذا القدر • وحدث الكثير جدا فى هذا المجال بحيث أدى التوفيق بين هذه الأشياء المتناقضة الى فقد الهنود لكثير من مهاراتهم الوطنية الأصيلة • فكانت الزراعة ، وصيد البر والبحر هى الدعامة لرزق الهنود قبل مجىء الأوروبيين ، واستمرت بعد ذلك • ولم تفعل الأدوات الأوروبية ـ كالفأس ـ سوى زيادة كفاية وفعالية الزراعة الهندية • واستعان الأهالى بالسكين والشص فى صيد السمك ونصب الفخاخ للحيوانات بصورة مكثفة ، ليحصلوا على السلع اللازمة للمقايضة ، ولكن لم يكن ذلك سوى امتداد لمهاراتهم القديمة • فضلا عن أن كثيرا من القبائل الداخلية، كالايروكوا والكريك قضت معظم وقتها فى نقل الفراء والجلود من القبائل النائية غربا الى الأسواق الانجليزية والفرنسية ، أكثر من صيدهم للسمور والأيائل ذات الفراء والجلود الغالية •

وعلى كل حال ، أتى التفاعل مع الحضارات الأوروبية بتحولات أهم بكثير الى المجتمع الهندى ، اذ لم تتغير أساليب الحرب فقط بدخول البندقية اليهم ، بل زادت أيضا حدة الأعمال العدوانية ذاتها الى حد بعيد • ولم تكن كل حروبهم تعتبر حروبا رمزية محدودة قبل مجىء الأوروبيين ، ومع ذلك لم تكن هناك سابقة لابادة القبائل أو الاغارة بهدف أسر العبيد ، والتى ميزت حرب الكريك فى الجنوب فى أواخر القرن السابع عشر وأوائل الثامن عشر •

الكحول :

هناك حقيقة أخرى غير مفهومة تماما ، حتى الآن • تلك هى استخدام الكحول لأول مرة • ولاشك كثيرا فى أن شراب « الروم » قد صار واحدا من أهم بنود التجارة الهندية • لقد استفاد منه الأوروبيون كثيرا ، وروج له التجارة ، اذ أنه ما أن تذوقه الهنود حتى أضيف الى القائمة الاجمالية للمواد التى يحتاجونها • وزيادة حجم التجارة هى الهدف الرئيسى دائما لدى التجار والباعة الساحليين ، ولذلك اهتم أغلبهم بالتوظيف الاقتصادى لولع الهنود بالروم • فبعد أن دخل الكحول فى حياة الهنود أصبح عاملا مهما فى العلاقات التجارية فيما بينهم • وأصبحت نوعية الروم الانجليزى فى مقابل الروم الفرنسى لها الاعتبار الأول فى تحويل تجارة الشمال فى الفراء من مونتريال الى ألبانى • وفى كارولينا ، بالرغم من أن زعماء

الكريك كانوا يبحثون دائما فى تأجيل تجارة الروم ، الا أن قرار الأوصياء على جورجيا باعفاء الكحول من الرسوم ــ كجزء من محاولتهم اصلاح التجارة الهندية فى الثلاثينات من القرن الثامن عشر ــ لم يتعد احتجاجات زعماء الكريك ، الذين لم يرغبوا فى التخلى عن القوة التى يتمتعون بها كموزعين للروم بالرغم من ادراكهم لآثاره الموهنة لحضارتهم ·

هذا ، وبالرغم من أن تقدير حجم الآثار الاقتصادية للروم على التجارة ليس بالأمر الصعب ، الا أن السؤال الأكثر صعوبة هو ما مدى تأثيره على الحضارة الهندية · ويرى الاتجاه الحديث أن ادمان الهنود للكحول كان وسيلة لازالة آلام شعب وقع أسيرا بين حضارتين ، فنظرا لعجزهم عن الاحتفاظ بأساليبهم التقليدية فى الحياة بعد أن أصبحوا معتمدين على العناصر المادية للحضارة الأوروبية ، وفشلهم بنفس الدرجة فى قبول المجتمع الأبيض لهم ، لذا يقولون دائما ان الهنود قد تحولوا من اليأس الى الكحول · وهكذا نظر المؤرخون ، والأنثروبولوجيون ، وعلماء النفس الى أن شرب الخمر كان وسيلة للهرب من الاحساس الداخلى بالدناءة ، الذى نتج عن الاحتكاك الطويل الأمد بمجتمع الرجل الأبيض الذى أسماهم « بالعبيد » و « الهمج » · فالسكر يمنحهم ، على الأقل ، هروبا مؤقتا الى ماض يصورونه رومانسيا قبل مجىء الرجل الأبيض ، وبالتالى ، يساعدهم مؤقتا فى حل أزمة هوية مؤلمة · والمشكلة فى هذا التفسير أنه مهما كانت قيمته فى الكشف عن أسباب ادمان المسكرات فى المجتمع الحديث ، فانه لن يرضينا فى تفسير السكر وسط الهنود والأوروبيين فى القرن الثامن عشر · فلم يكن يعرف للأوروبيين أزمات هوية فى مجتمع ما قبل الثورة ، علاوة على أن استهلاكهم للكحول كان مذهلا حتى بالمقاييس الأمريكية · وكل ما يمكن تقريره من الاحصاءات الهزيلة المتيسرة أنه كان أكبر بكثير منه بين هنود تلك الفترة · وتكفى تلك الاحصاءات لتأكيد ذلك · ففى فيلادلفيا ، سنة ١٧٧٢ ، مثلا ، كان سكانها العشرون ألفا يستطيعون شرب ما يكفيهم فى أية حانة أو خان من الثلاثمائة بالمدينة · وقد كانت كمية الروم المستهلكة بالنسبة لكل فرد أكبر بكثير من تلك التى استهلكها الهنود وراء جبال الأبلاش ، الذين لم يمكنهم الحصول على الروم بمثل هذه الكمية أو يقدرون على شرائها ·

وعندما أصبح مفهوما أن استهلاك الكحول يختلف معناه باختلاف الثقافات ، وأن سلوك السكير يتشكل وفقا للمبادىء الحضارية المتنوعة ، أصبح من الممكن أن نستبصر دور الكحول فى المجتمعات الهندية فى الداخل · ويرى علماء الأنثروبولوجيا ، حديثا ، أن شرب الهنود للخمر فى العهود الأولى من اتصالهم بالأوروبيين كان فى أساسه « فترة

« تعطيل) لنمط اجتماعى منظم من قواعد آداب السلوك والمعاشرة المعتادة» ثم أصبح فى القرنين التاسع عشر ، والعشرين صورة من صور الاحتجاج الاجتماعى وشكلا من أشكال التحرر من اليأس • ففى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، شرب الهنود الروم لأسباب حضارية ، فهموها على أنها الصخب والسكر البين ، والتخلى عن اللياقة المعتادة ، وكذلك الادمان الخطير ، فى بعض الأحيان لدرجة فقد الوعى » (١٢) • وتجسد ادمان الكحول فى سلسلة من القيم التى أقرت التبغ من قبل كعادة حضارية ، لا ترتبط فقط بالمخالطة الاجتماعية والكرم ـ كتبادل البيبة (البايب) ـ بل أيضا كعادة تستثمر فى المناسبات الاجتماعية والمعانى الدينية •

وهناك علامة مميزة أخرى لطبيعة العلاقات الأوروبية الهندية المتبادلة • ذلك أنه ، كما أصبح شرب الكحول الأوروبى عادة اجتماعية لها مناسباتها الاجتماعية داخل المجتمعات الهندية تماما ، فان تدخين التبغ ، أصبح عادة اجتماعية لها معانيها الحضارية وسط الأوروبيين • فقد اختار الأوروبيون التدخين الهندى ، فورا ، بعد أن جردوه من معناه الدينى • واستخدموه كملطف اجتماعى ، ومسكن بارد أو معتدل • وما أن انتشر فى أوروبا ، لم يستطع أى تحذير طبى من أكثر الأطباء احتراما ، أو حتى هجوم الملوك عليه ، أن يوقف هذا الجنون • وبنهاية القرن السابع عشر ، كانت انجلترا تستورد سنويا أكثر من ثلاثين مليون رطل من تبغ العالم الجديد ، وربما كان الأوروبيون على جانبى المحيط الأطلنطى أكثر ادمانا للتبغ الهندى بدرجة أشد من ادمان الهنود للكحول الأوروبى • هذا التبادل فى العادات الاجتماعية ، والذى اتخذوه لأسباب تناسب حضارة كل منهما ، كان مصدر أرباح طائلة للتجار أصحاب السفن التى حملت التبغ من أمريكا الى أوروبا ، والروم من الكاريبى الى أمريكا الشمالية •

أصبح الكحول ، بشكل آخر ، شيئا مهما فى الاتصالات بين الهنود الحمر والبيض ، اذ كان يوزع ، عادة ، قبل أن تبدأ المفاوضات بشأن الأرض أو السلع التجارية • وقد لاحظ كثير من المعلقين فى القرن الثامن عشر أن الأوروبيين كانوا يحثون الهنود على السكر الشديد ، حتى يسهل حينئذ خداعهم وسلب بضائعهم • وبالرغم من أن هذه الطريقة قد تكون حقيقية واقعة بين هنود الساحل الذين كانوا يذهبون الى مستوطنات البيض للمقايضة ، يقيمون فى العادة أياما عديدة هناك يشربون خلالها فى حرية عند دعوة التجار البيض لهم ، كان من المحتمل ألا تكون هذه هى التجارة النموذجية • اذ أن الهنود لم يستسيغوا أن يكثر الأوروبيون من الاحتيال عليهم ، وكانوا طبقا لشهادة كثير من التجار على نفس الدرجة من البراعة فى المساومة مثل شركائهم البيض • ولقد كان توزيع الكحول عند

بدء المفاوضات ، فى الحقيقة ، أسلوبا شعائريا لاستهلال عقد يفيد كلا الطرفين • ولما كان لدى الهنود أكثر من مكان يتاجرون فيه ، لم يكن من مصلحة التجار أن يعدوهم بجعلهم يسكرون ، ثم يسرقون منهم بضاعتهم• وليس معنى ذلك ، أن نقول انه لم تكثر الممارسات العنيفة على كلا الجانبين• ففى عدد من المناسبات ، أحضر بعض التجار غير المرخصين ، كميــات من الروم الى احدى القرى الهندية ، وراقبوا استهلاكها بشغف ، ثم رحلوا ومعهم صــيد الشتاء من الفراء والجلود • ومع ذلك ، كان الأوروبيــون يشكون من أنهم « قد تعرضوا للاعتراض والنهب » على يد الهنــود ، كما اعتاد الهنود أن يشكوا من خداع الأوروبيين واحتيالهم • وعندما كانت عملية المتاجرة تتم فى مراكز الحدود أو فى القرى الهندية ، تلك الممارسة التى جرت فى كل مكان بمنطقة كارولينا ، وفى المناطق الخلفية لفرجينيا وبنسلفانيا فى القرن الثامن عشر ، كانت سرقة الهندى وهو فاقد الوعى لافراطه فى الشراب هى الاستثناء وليست القاعدة• لقد كان الهنود يحملون تجارتهم الى حيث يمكنهم الحصول على أفضل الأسعار ، وأوفر كمية من البضائع التى يرغبون فيها • وكانت قدرتهم الفائقة على الحركة والانتقال على الطرق البرية والمجارى المائية الداخلية ، مع امكانيــة مقايضتهم مع أكثر من ممول أوروبى ، قد جعلت من الأمور اللازمة أن يحافظ تجــار المستعمرات على علاقاتهم التى كانت فى صالح الهنود • وحين تقاعسوا عن ذلك ، كما حدث مع تجار كارولينا ، كان الهنود يأخذون بضائعهم الى الفرنسيين والأسبان ، أو الى تجار منافسين فى جورجيا وفرجينيا • فاذا لم يتيسر لهم أحد هؤلاء البــدلاء ، كان آخــر ما يلجأون اليه هو الثورة والتمرد ضد أولئك الذين أساؤوا معاملتهم •

لقد كان من الممكن ، حين كانت القبائل تفقد أرضها ، واستقلالها الذاتى وسلامة حضارتها ، كان من الممكن أن يتحول السكر من شــكل استرخاء اجتماعى وتسلية الى حل لمعضلة الثورة الداخلية العدائية ضد البيض ، والتى لا يمكن التعبير عنها ظاهريا • ويبدو أن هذه هى الحال بين بعض القبائل الساحلية التى فقدت أرضها ونفوذها فى القرن الثامن عشر • فقد حافظوا على بقائهم فقط ، تحت المتع الحسية (ملذات المجتمع الأبيض) • وقد يكون ادمانهم الشراب الفاسد الذى ينسبه اليهم كثير من المراقبين ، دلالة على حالتهم الداخلية القلقة التى يعانونها• ونظرا لضعفهم، وعجزهم عن التعبير العدوانى تجاه البيض ، تراكمت احباطاتهم،وانعكست عليهم داخليا • ولم يكن أمامهم للتخفف من هذا الوضع سوى شرب الخمور، أو الانتحار فى الحالات الشديدة • ولكن حيث كانت القوة متوازنة بين الهنود والبيض ، تلك الحالة التى كانت لا تزال سائدة فى معظم أجزاء أمريكا القرن الثامن عشر ، لا تتفق صورة الهندى المخمور ، فى تصورنا

التاريخى ، كثيرا ، مع واقع النموذج المجسم « للهمجى » العدوانى العنيف، الذى أصبح من صنع الحضارة البيضاء ٠

التنظيم السياسى :

كان النظام السياسى ، بجانب ادخال الأشياء المادية ، واستعمال الكحول ، هو التغير الحضارى الرئيسى الذى نتج عن الاحتكاك الهندى بالمجتمعات الأوروبية ٠ ويختلف هذا التغير من مجتمع لآخر ، وخير مثال يهدينا فى ذلك هم الكريك والشيروكى٠ فبالرغم من انتمائهم الى مجموعات لغوية مختلفة ، واستمرار محاربة كل منهم للآخر ، تشابهت بنيتهم السياسية السابقة لهذا الاحتكاك ، ولاقوا نفس القوى التاريخية فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، ألا وهى التجارة ، والحرب ، وانتهاك حرمة الأرض ٠ ورغم تحالفهم المهلهل مع بعضهم ، كان الاستقلال الذاتى المحلى للمدن والعشائر هو الملمح الأساسى لبنائهم السياسى ٠ فالولاء الأساسى لجمهور الكريك والشيروكى كان موجها الى المدينة ، لا الى « الحلف » ٠ اذ يحتاج أى اتفاق أو تصرف سياسى كبير الى الرأى الجماعى للمدينة ٠ وقد جرت محاولات لتنسيق سياسة المدن المحلية ، دون أن يجبر رأى الأغلبية أى طرف على التصرف ضد رغبته ٠ وهكذا ، كانت المدن أو مجموعات منها تتداول مع الأوروبيين بصفة فردية ، وتعقد الاتفاقات مع التجار ، وتتصرف فى المسائل الحربية بصورة شبه مستقلة ٠ وكان يزيد الشقاق بين الأطراف ، ما ينشأ من توتر ، وشد بين الزعماء المدنيين والعسكريين فى نحو ستين مدينة للشيروكى ، وعدة عشرات من مدن الكريك ٠ وكانت غالبية الانشقاق الملائم فى القرن الثامن عشر ، تقع بين مدن الكريك الجنوبيين والكريك الشماليين ، وهو ما يشبه تقريبا ، الانشقاق بين مدن الشيروكى أعلى التلال ، وشيروكى الوسط ، وشيروكى السفوح ٠ مثل هذه الانقسامات كانت تدور ، فى الغالب ، حول الاقتراب الجغرافى من التجار الفرنسيين أو الانجليز ٠

ونتجت عدة تغيرات مهمة فى البناء السياسى للكريك ، نتيجة التجارة والحرب ، والاحتكاك الدبلوماسى مع الأوروبيين فى القرن الثامن عشر ٠ وقد دفعت الحاجة الى التعامل مع التجار والحكومات الانجليزية والأسبانية، الكريك الى التحرك نحو عقد « حلف » فضفاض ، ولو أن العمل المنسق كان من الممكن أن يعطيهم قوة أكبر فى تعاملهم مع الدخلاء ٠ وكان التغير السياسى الثانى هو الانتقال التدريجى نحو وراثة الأب بين الزعماء أو « الميكوس » ٠ وقد غير ذلك من الزعامة التقليدية التى كانت العضوية فيها فى عشيرة الأم قبل الاحتكاك بالأوروبيين ، ثم مال الاتجاه فى القرن

الثامن عشر نحو تمليك السلطة لابن الزعيم بدلا من ابن أخيه ، مما أوجد نظامي الوراثة الأبوية والوراثة الأموية في وقت واحد • ولعل أحد أسباب هذا التحول نحو الخط الأبوى هو ميل السلطات الانجليزية والفرنسية والأسبانية الى تعزيز ترشيح ابن الزعيم مما يتفق مع النظرة الأوروبية للنظام السياسي ، وذلك جزء من المحاولة الأوروبية للتدخل عنوة في السياسة الداخلية للمجتمعات الهندية لكي تؤثر على زعماء قبائل الحلفاء الهنود وشركاء التجارة في نضالهم الثلاثي الأركان ، أي في الصيد والتجارة والحرب التي رفعت شأن كثير من الرجال في المجتمع الهندى ، وبذلك أسهمت بالتالي في خلق مناخ حضاري ، يستحسن تنمية خط الوراثة الأبوية •

ومن المحاولات الأخرى للسيطرة على القوى المحركة للسياسة في مجتمعات الكريك والشيروكي ، مساندة ترشيح ابن معين للزعيم ، أو تفويض أشخاص معينين لتسهيل الاتصال والتعاون • وقد حاول الانجليز اقامة أولينا ابن الزعيم بريمز وكيلا لهم ، وبعد موته نقلوا اعترافهم الخاص الى أخيه سيبيكوفي ، المرشح الأسباني • وكانت الهدايا السنوية ، وهي جانب أساسي في حسن العلاقات ، توزع عن طريق هؤلاء الرؤساء المفوضين ، وبالتالي ، يعززون مكانتهم ، وهيبتهم داخل مجتمعهم الخاص • هذه الممارسة الانجليزية في اصطفاء رؤساء معينين للتفاوض معهم قد منحت القوة لأولئك الذين لم يكتسبوا سلطتهم بشرف الانتساب التقليدي الى الأم ، ولكن من خلال التدخل الحقيقي من سلطة خارجية • وقد صار التوكيل من الموظفين الاستعماريين ، ان عاجلا أو آجلا ، عاملا مهما في درجة النفوذ الذى يستخدمه زعيم معين •

كان الزواج من امرأة هندية وسيلة أخرى لاكتساب النفوذ في القبيلة ، خاصة اذا كانت المرأة من عشيرة ذات سلطة ونفوذ • فقد تزوجت ماري موسجروف بوزوموريث Mary Musgrove Bosomworth وهي ابنة أخ أو (لعلها) أخت للزعيم بريمز من ثلاثة رجال انجليز على التوالي ، وبالرغم من معارضتها العنيفة للانجليز ، بين حين وآخر ، شغل أزواجها مراكز مهمة جدا داخل اتحاد الكريك • وهكذا ، فمن خلال الزعماء المفوضين بالوكالة ، والزواج من الهنديات ، عمل الكارولينيون على تقوية المجموعة المؤيدة للانجليز في اتحاد الكريك ، واستخدام نفوذهم في القرارات السياسية •

وبالرغم من أن هذا التدخل ، يمكن النظر اليه كوسيلة لقلب وافساد الخطوط التقليدية للعادات والسلطة السياسية من أجل تجنيد زعيم ما بصورة تفيد الانجليز ، يمكن اعتبار ذلك أيضا تكييفا مقصودا للأساليب

السياسية التقليدية لدى الشعوب الهندية ، التى واجهت غزاة جددا أقوياء ، وترغب فى التدفق المستمر للبضائع ٠

وبتعديل معيار القرابة المعتاد ، اختار الكريك زعماء مستعدين للعمل لصالحهم تماما ٠ وكان تقرب المرء الى الانجليز أو الأسبان يتحقق بتزويج أخته لأحد الأوروبيين ، أو قبوله تفويضا ، أو أن يكون له أب أوروبى ٠ ولكن الكريك لم يكونوا سلبيين تماما فى أى من هذه الحالات ، أو عاجزين فى الرد على مبادرة البيض ٠ ففى فترات تبادل السلطة بين المجموعات الأوروبية الموجودة بالمنطقة ،كان الكريك « يتغلبون على المصاعب والمشكلات بشكل مبدع وبعدة طرق متنوعة فى المواقف المختلفة التى وجدوا أنفسهم يواجهونها » (١٣) ٠

غير الشيروكى ممارساتهم السياسية ، كما فعل الكريك ، فى القرن الثامن عشر ، استجابة للمتطلبات الجديدة المتعلقة بالحرب والتجارة مع الأوروبيين ٠ فقبل سنة ١٧٣٠ تقريبا ، كانت الوحدة الأساسية فى سلطة الشيروكى هى القرية المستقلة ذاتيا ، وكانت الحاجة قليلة الى توحيد سياسى أكبر ٠ ولكن التوتر مع جيرانهم الكريك ، بتشجيع من الانجليز الذين اتبعوا سياسة (فرق تسد) مع حلفائهم حفاظا على بقائهم ، وكذلك خلقت عداواتهم المتقطعة مع الانجليز ، الحاجة الى مركزية سياسية ٠ ومع منتصف القرن ، شكل الشيروكى نوعا من التنظيم السياسى الذى يتخطى القرية ٠ لقد جمع الزعماء المدنيون أو « الكهان » تحت زعامة أولد هوب Old Hop نفوذهم المشتت من قبل ، وكونوا نوعا من « حكومة الكاهن » القبلية ، التى تصدر القرار بالتنسيق مع المدن ٠

وحين أثبت ذلك عدم كفايته فى المهام التى واجهته فى السنوات الشداد بعد منتصف القرن ، بدأ المحاربون يهيمنون على المجالس القبلية ، حيث ان الشيروكى قد تهيؤوا فى الستينات من القرن الثامن عشر لعصر جديد من النضال ، يجعل « الالتجاء الى الحرب والمحاربين جزءا من الحياة الواقعية لا لبس فيه ، وذلك قبل أن يبلغ المحارب أقصى درجات الاحترام والمنزلة السامية من الزعماء المدنيين ، وكذلك باعطاء زعماء الحرب سلطة سياسية نافذة ، جديدة على الشعب » (١٤) ٠ وبهذه العملية التى استهلها المجتمع الشيروكى ، حدثت التغيرات السياسية التى مكنت عشرات القرى من الاندماج فى وحدة قوية ٠

وبينما أدخلت قبائل الداخل تشكيلة واسعة من السلع الأوروبية فى حضارتها المادية ، ووقفت تركيباتها السياسية لتلائم الأوضاع الجديدة، تميزت مظاهر أخرى من حياتها بدرجة عالية من الهوية الاجتماعية

والاستمرار الحضارى · وكان الايروكوا ، والكريك ، والشيروكى ، وقبائل أخرى لم تتأثر ، بصورة فريدة بمعظم قوانين وأنماط السلوك الأوروبى ، ولم يجدوا مبررا لاستبدال ما هو محل اجلال وتقدير من حضاراتهم الخاصة، بما يزدرونه فى حضـــارة الغير · وقد انطبق ذلك على النظم السياسية للوافدين الجدد ، وعاداتهم ، ونظمهم في القانون ، والعـــدل ، والدين ، والتعليم ، ونظام الأسرة والخبرة فى تربية الطفل · وراقب الهنود العادات الأوروبية فى كل هذه المجالات في حذر ، ولكنهم لم يروا فيها الا القليل الذى يستحق المحاكاة · وثقة منهم فى معتقداتهم الخاصة واستقلالهم السياسى، رفضوا دمج أفكار ، ونظم اجتماعية ، وقيم غريبة عنهم فى أسلوب حياتهم· وفى الحقيقة ، بقدر ما أمكن للهنود اثبات ذلك وتأكيده ، بقدر ما فشلت هذه المؤسســات الاجتماعية فى الغـــالب ، فى اثبات نجاحها فى النظام الحضارى الأوروبى ·

لقد كان المبشرون الأنجليكان العاملون على نشر الانجيـــل مزعجين دائما ، بهذا التناقض فى جهودهم لتحويل الهنود الى المسيحية · اذ تساءل الهنود ، لماذا يجب عليهم أن يتحولوا الى نظام يدعى التفوق ، ورغم ذلك تسوده الجريمة ، والفوضى الاجتماعية ، والشقاق الحزبى ؟ وقد كتب المبشر الانجليكانى فى كارولينا ، سنة ١٧٠٩ ، روبرت مول **Robert Maule** أنهم [الهنود] فى الأعم الأغلب ، محبون للعدل والمساواة فى معاملاتهم · وقد سألت بعضهم عما اذا كان يود أن يكون أو أن عنده أية رغبة فى أن يدخل فى دين الرجـــل الأبيض ، فأجـــابونى صراحة بلا ، فقلت : فيم الخـــلاف ، ولم ذلك ؟ فأجابونى : لأن باكارارا [الرجل الأبيض] غير صالح ، باكارارا يغش ، باكارارا يكذب ، باكارارا يشرب البراندى ، ونحن لا نحب ذلك (١٥) ·وقد كرر القسس الطوافون فى كارولينا الشمالية والجنوبية ، نفس الرسالة ، مرارا وتكرارا فى تقاريرهم الى رؤسائهم فى لندن · وكتب تشارلز وودماسون ، الحزين ، فى نهاية فترة المستعمرات أن « معظم المستوطنين عاشوا فى حال من الفسق والتحرر ··· وكانت أحوال الكارولينيين الشماليين ، عامة ، فـــاسدة ومنحلة ــ أى أن البلد كان مسرحا للتحرر والفساد والانحلال··وتعدد الزوجات شائع جدا ·· بصورة غير شرعية ، والتسرى باتخاذ المحظيات أمر عام ، لا يفقد المرء به سمعته الحسنة » (١٦) · هل هناك أى عجب ، اذا عجز الرجل الأبيض عن اقناع الهنود بتفوق أسلوبه فى الحياة ؟

كان الكارولينيون لا يزالون فى مرحلة الكشف والريادة ، بطبيعة الحال ، الا أنهم كانوا يشـــتكون من نفس المشـــكلة عن طـــريق مبشرى المستعمرات الانجليكان ــ وهى محاولة تلقين « الهمج » الأفكار والأساليب

المسيحية ، بينما كان أغلب المسيحيين الذين احتكوا بهم أكثر « همجية » من الهنود أنفسهم · فكان السكر ، والخداع ، وعدم التعاون من بين أهم الخصائص الغالبة الواضحة المميزة للمجتمع الأبيض · وهكذا ينقلونها بشكل غير منطقي ، الى عقول الهنود باعتبار حضارة البيض المسيحيين حضارة متفوقة،يجرى حثهم بشكل متصل ليرتقوا اليها·وان جون لوسون John Lawson الموظف ، صاحب الاقطاع في كارولينا الشمالية والجنوبية، الذى ملكته له الحكومة البريطانية في أوائل القرن الثامن عشر قد ضرب كبد الحقيقة في تفسيره قلة الاقتباس الحضارى خارج مجال الماديات · فيقول في سنة ١٧٠٨ : « لقد كانوا لنا ، في الحقيقة ، أحسن مما كنا نحن لهم ، فهم يمدوننا دائما بالمؤن في مساكنهم ، ويراعون تسليحنا ضد الجوع والعطش : ولكننا لم نفعل مثل ذلك معهم (على وجه العموم) بل نتركهم يمرون جوعى على أبوابنا ، فلا نمد لهم يد العون ، عادة · وكنا ننظر اليهم باحتقار وازدراء ، ونراهم أحسن قليلا من البهائم في شكلهم البشرى ، مع أننا اذا درسناهم جيدا ، فسنجد أن لدينا ، بالرغم من ديننا وتربيتنا ، فسادا وانحرافات أخلاقية أكثر مما لدى هؤلاء الهمج ، أو مما يعرفون به » (١٧) · ولم يكن الهنود يتكتمون ازدراءهم لحضارة البيض · فعندما اقترح على الايروكوا سنة ١٧٤٤ أن يبعثوا ببعض شبابهم الى فرجينيا ليتعلموا كالبيض ، كان اقتراحهم المضاد أنه « اذا بعث السادة الأماجد الانجليز بمجموعة من أطفالهم الى أونونداجا فان المجلس الأعلى سيعتنى بتعليمهم ، وتنشئتهم في أحسن صورة ، حقا ، ويخلق منهم رجالا » · (١٨) ·

ويصدق الأمر نفسه في الزواج والعلاقات الاجتماعية · فبالرغم من أن الأوروبيين كانوا يحتقرون عادات الهنود في الزواج الرفاقى (*) أو تكرار الزواج بواحدة ، ويتهمونهم « بالتحرر » و « الفسق » و «الخيانة» في عاداتهم الجنسية ، كانت العلاقات العائلية بين الهنود ، مرضية لهم تماما ، كما اعترف بذلك قليل من المراقبين الأوروبيين · لقد كتب توماس بين Thomas Paine عقب وصوله الى المستعمرات عن رأى « همجى أمريكى » فيما يتعلق بالزيجات المسيحية ، حيث أعلن الهندى مجاهرة رفضه لأسلوب الزواج المسيحى الذى يرفض الطلاق :

بينما في زيجاتنا الهندية ، التى ليس بها أية طقوس سوى الميل المشترك ، والذى ينقضى بمجرد منح السرور المتبادل ،

(*) الزواج الرفاقى : شكل من اشكال الزواج ، مجرد من حقوق الازواج والتزاماتهم التقليدية ، يتميز بطلاق ميسر ، يقطع العلاقة نهائيا بين الزوجين اذا لم ينجبا – (المترجم) ·

نجعل مهمتنا أن نرضي عواطفنا التي نخاف أن نفقدها ، ونكون أحرارا في الانفصال ، ونادرا ما نحس انحرافا في ذلك أو لا نشعر به أبدا • ولكن اذا وجد بيننا ما يستحق الازدراء فاننا نفك الارتباط فورا • ان الله خلقنا أزواجا ، وكل منا يبحث عن الله في مكان أو آخر ، وواجبنا أن يجد كل منا الآخر ، حيث لا يهدف مخلوق أبدا الى أن يكون تعيسا(١٩)•

والخلاصة ، أنه بينما تغيرت المظاهر المادية للحضارة الهندية بدرجة مهمة ، كما تغيرت البناءات السياسية الى أدنى درجة ، تميزت معظم مظاهر الحياة الهندية باستمرار حضاري ، لم يلحقه تغير مدى الفترة الطويلة من التفاعل مع الأوروبيين • فقد كانت المجتمعات الهندية ، انتقائية تماما ، كالمجتمعات الأوروبية ، فيما تقتبسه من الحضارات التى احتكوا بها ، ووفقوا بين ما يخدمهم مما يتعارض مع أفكارهم ومبادئهم ، ورفضوا ما لم يبشرهم بأى تحسن فى اطار قيمهم الخاصة وأسلوب حياتهم • لقد رغبوا فى التفاعل مع الأوروبيين ، دون الاندماج معهم •

فى النصف الأول من القرن الثامن عشر ، حافظت القبائل الداخلية ، أمثال الكريك ، والشيروكي ، والايروكوا على درجة من التوازن مع المجتمعات الاستعمارية الانجليزية بالاستخدام الماهر لقوة أوروبية ضد أخرى ، والعمل من حين لآخر على تذكير الأوروبيين بأن التجارة والمساعدة العسكرية الهندية لها قيمتها وأهميتها لهم مثل أهمية السلع الأوروبية للمجتمعات الوطنية • وقد كتب سكرتير هندى من نيويورك « ان حفظ التوازن بيننا وبين الفرنسيين ، هو المبدأ السائد فى السياسة الهندية الحديثة » (٢٠) • فقد نفع الهنود الأوروبيين ، كما كان الأوروبيون نافعين للهنود ، كما كانت القوة موزعة بينهم تقريبا • الا أنه فى أوائل النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، حدث تغيران كبيران على كلا جانبى الأطلنطى ، أنهيا وجود التوازن بين الشعوب الهندية والأوروبية تقريبا •

ازدياد السكان :

كان التعاظم السكانى الهائل ، على الجانب الأمريكى من المحيط ، خاصة فى المستعمرات الانجليزية ، الذى خلق نقصا فى الأراضى على السهل الساحلى ، فى الخمسينات من القرن الثامن عشر ، وبعث بآلاف المستوطنين المتعطشين الى الأرض ، يتدفقون خلال شعاب جبال الأبلاش ، بحثا عن أقاليم جديدة • فقد ازداد سكان المستعمرات الانجليزية من ربع مليون نسمة سنة ١٧٠٠ الى ١ر٢ مليون سنة ١٧٥٠ ، ثم ازدادوا أربعمائة ألف أخرى فى السنوات العشر التالية • وحدثت ثلاثة أرباع هذه الزيادة فى

مستعمرات جنوب نيويورك · وكان الوكلاء الأوائل لهذه الاندفاعة الهائلة نحو الغرب هم المضاربين في الأراضي الشرقيين · فما كان عليهم الا أن يراقبوا المهاجرين الألمان والايرلنديين من أصل اسكتلندى ، الذين يرسون يوميا في بالتيمور ، وفيلادلفيا ، ونيويورك ، حتى يدركوا أن الثروات ستكون لمن يستطيعون ادعاء ملكيتهم للأرض الواقعة غرب المستوطنات ·

وبرأسمال قدمه المستثمرون اللندنيون ، وأصحاب مزارع التبغ في فرجينيا ، والتجار الشماليون ، تكونت شركات للأراضي في الأربعينات والخمسينات من القرن الثامن عشر لتستفيد من هذا الانفجار السكاني (الديموجرافى) · فحصلت شركة أراضى أوهايو ، التى تكونت سنة ١٧٤٧ ، على نصف مليون فدان في وادى أوهايو · ونالت شركة أراضى سسكيهانا ، التى تكونت بعد ذلك ، بخمس سنوات ، حق ملكية مئات الآلاف من الأفدنة في بنسلفانيا ، ثم تسابقت ، في العقد التالى شركة ديلاوير ، وشركة ميامى ، وشركة انديانا ، وغيرها من المؤسسات الخاصة لاثبات حقوقها المزعومة · وبالرغم من أن البعض منها ، مثل شركة سسكيهانا أعلنوا أنهم يقصدون الى « فتح أكثر الأبواب فعالية لنقل نور انجيل المسيح المجيد بين قبائل الهنود العديدة التى تسكن هذه الأجزاء الداخلية » ، لم يكن هناك شك في الهدف الأساسى الذى يدور في ذهنهم (٢١) · فقد بدأ وكلاء المجتمع الانجليزى يبذلون جهدهم في غير رحمة للضغط على الزعماء الهنود للتخلى عن أراضيهم وبيعها ، ليمهدوا الطريق لمستوطنات جديدة للبيض · زد على ذلك ، أنه كلما أوغلت المستوطنة في تحركها غربا ، ازدادت قربا من امبراطورية التجارة الغربية للفرنسيين والعشائر الهندية المتحالفة معها ·

الاستراتيجية الهندية فى حرب السنوات السبع :

على الجانب المقابل من الأطلنطى ، عجلت المنافسات الدولية بحسم هذه القضية ، غرب مرتفعات أللجنى · ففى سنة ١٧٤٨ ، أنهت فرنسا وانجلترا خلافاتهما التى أدت الى قيام الحرب بينهما سنة ١٧٤٣ ، ولكن الطريق كان يعد لتجديد العداوات ، حتى قبل أن يجف مداد بنود المصالحة، حيث ان عنصر التجار القوى في انجلترا ، يساندهم الوكلاء الأمريكيون كانوا ينادون بتدمير تجارة فرنسا فيما وراء البحار · بل بدأ القتال في برارى أمريكا الشمالية ، حتى قبل أن تؤدى الأحداث في أوروبا الى اعلان الحرب رسميا · وفي الوقت الذى انتهت فيه ، في منتصف الستينات من القرن الثامن عشر ، كان على فرنسا أن تتخلى عن ادعاءاتها في شمال الأطلنطى ، وتحطم نظام توازن القوى الأوروبية ، الذى كان مفتاح الاستقلال السياسى الهندى ·

وأثناء الأربعينات من القرن الثامن عشر ، توغل تجار الفراء الانجليز من فرجينيا وبنسلفانيا في عمق وادى أوهايو ، وأقاموا مراكز أمامية على النهر وروافده • وفى سنة ١٧٤٩ ، كتب قائد فورت ميامى ، الفرنسى ، جنوب ديترويت تقريرا بأن نحو ثلاثمائة تاجر انجليزى يعملون فى أراضى الأوهايو ، وينجحون فى ايقاع الهنود فى فلك تجارتهم • رجال بهذا الحس بعلم السياسة الطبيعية – أى بأثر العوامل الجغرافية والاقتصادية والسكانية فى سياسة الدولة الخارجية – تأكدوا ، لعشرات السنين أن النضال على القارة لابد أن يتوقف على السيطرة على ما وراء اللجنى غربا • وقد اكتفى الانجليز ، لأكثر من قرن ، بسكنى السهل الساحلى الضيق ، تاركين قلب القارة لمنافسيهم ، مع حصولهم على نصيبهم من التجارة الهندية عن طريق الاتصالات التجارية التى تمركزت فى ألبانى وتشارلستون • وهم يهددون الفرنسيين ، الآن ، حيث المصالح الفرنسية الحيوية • بالاضافة الى ذلك ، كان من الواضح أن سماسرة الأراضى ، المقتفين أثر تجار الفراء ، هم أنفسهم الحارس الأمامى لنمو السكان بنسب هندسية •

وكان أمام فرنسا خياران ، فاما أن تقاوم ، أو أن تسلم القارة للانجليز والأسبان • وقد اختارت الأول منهما ، بمحاولة صد واحباط أية زيادة فى التوسع الانجليزى باقامتها الحصون على طول وادى أوهايو ، والامعان فى جعل الهنود يتحللون من صلاتهم الانجليزية • وجرت محاولات لاقناع الايروكوا ، والشاونى ، والديلاوير فى اقليم أوهايو بألا بقاء لهم الا بالتحالف مع الفرنسيين • ولقد حذر مبعوث فرنسى ، فى أوائل الخمسينات من القرن الثامن عشر من أن « الانجليز لا يتوقون الى سلب فرائكم وجلودكم غير المدبوغة ، بقدر ما يهمهم أن يصبحوا ملاكا لأراضيكم ••• وانكم عمى لدرجة أنكم لا ترون أن اليد التى تلاطفكم هى ذاتها التى ستذيقكم سوط عذاب ، مثل الزنوج والعبيد ، بمجرد أن تمتلك تلك الأراضى » (٢٢) •

لم يرغب الهنود ، على المدى القريب ، بالرغم من وعيهم التام بالتدفق انسكانى نحو الغرب ، فى أن يقطعوا صلاتهم بالتجار الانجليز ، الذين جلبوا اليهم البضائع الأوروبية ، التى لم يستطع الفرنسيون مجاراتها فى السعر أو النوع ، فضلا عن أن قوة الانجليز فى المنطقة كانت حقيقة واقعة • وكان الكلام الفرنسى عن التجارة جنوب البحيرات العظمى مجرد وعود • وقد بدأت فرنسا ، سنة ١٧٥٢ ، حملات لمدة أربع سنين ، لتغيير هذا الوضع ، فهاجمت المراكز التجارية الانجليزية ، وأقامت الحصون لتجارتها الخاصة • وقبل سنة ١٧٥٥ ، كانوا قد طردوا التجار الانجليز من وادى أوهايو ، ووطدوا أنفسهم فى أقصى ما وصلت اليه فروع النهر قرب

بتسبرج ، وبنسلفانيا الحاليتين • وصدوا ببراعة ، ذلك الشاب الطموح ، جورج واشنطن الذى حاول طردهم من فورت ديكين Fort Duquesne .

وقد أصاب الشلل المميت ، المحاولات الانجليزية للرد على هذه الحملة الفرنسية الجريئة ، بسبب الانقسام الداخلى ، الذى كشفه تماما مؤتمر ألبانى ، سنة ١٧٥٤ • وكانت هذه هى المحاولة الأولى من المستعمرات للتوحد لأغراض عسكرية ، ومن خلال عمل موحد لاقناع الايروكوا الذين يهتم الجميع بخروجهم عن موقفهم الحيادى • وكان من الأغراض الأساسية للمؤتمر أن يثبتوا للايروكوا أن فكرة الالتحام والحل القتالى تنتشران فى المستعمرات الانجليزية • ولكن ، بينما كان ممثلو المستعمرات يحاولون صياغة خطة للاتحاد ، كان وكلاء الأراضى فى كونيكتيكت وبنسلفانيا ، مستغرقين فى التآمر لشراء أراضى الايروكوا غرب نهر سسكيهانا • وفى النهاية تحطمت محاولة التعاون بين المستعمرات ، وغادر الايروكوا المؤتمر ، مقتنعين ، على حد قولهم ، بأن الانجليز « مثل النساء ضعاف وجبناء ، يسهل الاعتداء عليهن » (٢٣) •

كان المقرر فى عواصم أوروبا ، وليس فى أمريكا ، أن يتم حسم الأمر بالقوة • وفى لندن ، تم تكوين تشكيلين بسرعة ، تحت امرة الجنرال جيمس برادوك Braddock ، وصدر الأمر فى فرنسا لأربعة آلاف جندى نظامى بالتوجه الى الحصون الفرنسية فى لويزبورج بجزيرة كيب بريتون ، لحراسة طريق سانت لورانس البحرى وكويبك • وقد قضى جيمس برادوك السنة الأخيرة من حياته فى شق طريقه عبر الأطلنطى ، وقيادة جيشه ، يعززه المتطوعون والمؤيدون الأمريكيون عبر بنسلفانيا ، وفى القفار الغربية • وعلى بعد أقل من عشرين ميلا من فورت ديكين كمن الفرنسيون وحلفاؤهم الهنود للأمريكيين الانجليز ، وأنزلوا هزيمة منكرة بجيش برادوك الذى كان يظن أنه لا يقهر ، وقوامه ٢٢٠٠ جندى ، وذلك بمهاجمته بقوة فى حجم ثلث قوته • وقد قتل وجرح ثلثا القوة الانجليزية ، وهرب الباقون تاركين وراءهم المدفعية والخيول ، وقطعان الماشية والمؤن •

عم الفزع الأراضى الخلفية لفرجينيا وبنسلفانيا ، بقية صيف سنة ١٧٥٥ ، بسبب اغارة الهنود الذين كانوا يغذون بالحقد فى صمت ضد المعتدين على حرمة الأراضى من البيض ، والتجار الحقراء • وجاءت الآن فرصتهم ليلازموا القوة العسكرية الفرنسية ، والحزازات المستمرة منذ عشرات السنين • ومن بين أول من أصاب المجتمعات الانجليزية والايرلندية / الاسكتلندية ، والألمانية بالذعر هم الديلاوير ، الذين سبق اخراجهم بالغش والخداع من أراضى القبيلة شرق بنسلفانيا منذ جيل مضى ، وكما تدفقوا بأعداد كبيرة نحو الغرب كلاجئين ، هربا من الظلم والاضطهاد

الإستعماري ، فانهم يرسلون الآن آلافا من اللاجئين الأوروبيين الهاربين الى الشرق ، بعد أن أعملوا فيهم الحرق والقتل ، والسلب على طول جبهة بنسلفانيا ، كما صرخ أحد سكان المستعمرات قائلا وهو يبكي : « لقد تركت جميع السيدات والأطفال تقريبا مساكنها ، في طول سسكيهانا وعرضها ، وامتلأت الطرقات بأعداد غفيرة من الجوعى ، العزل ، المعوزين » (٢٤) ٠

وفي سنتي ١٧٥٦ ، ١٧٥٧ ، أدى تكرار انتصار الفرنسيين الى ذعر المســـتعمرات الانجليزية ، والى الهروب الجماعي منها ٠ وسقطت محطة أوزويجو التجارية الانجليزية ، على بحيرة ايرى في أغسطس سنة ١٧٥٦ ، واستسلم ألفان من الجنود في فورت وليام هنرى قرب بحيرة جورج في أغسطس ١٧٥٧ ٠ وكان الوضع الانجليزى ميئسا الى هذا الحد ٠ لدرجة أن أشيع في كويبك أن حاكم بنسلفانيا وقد أفزعته الهجمات الهندية داخل فيلادلفيا لمسافة ثلاثين ميلا ، كان يرغب في منح الهنود المعادين ، حق المرور الحر ، داخل المستعمرة اذا ركزوا هجماتهم على جبهة فرجينيا ٠ وقد أدت غارات أخرى على حدود نيوانجلند ، في وادى موهوك عند نيويورك ، وعلى كامل امتداد الجبهة من نيويورك حتى جورجيا ، الى توقعات مشئومة في المستوطنات الانجليزية بأن القارة ستسقط في قبضة الفرنسيين وحلفائهم الهنـــود ٠

لم يحدث هذا التفكك بين المستعمرات الانجليزية ، من قبل ، ولا ساد تغليب المصالح الشخصية المؤلم على مصلحة الجماعة ٠ وقد تحدى سبعة آلاف كندى فرنسى وحلفاؤهم الهنود مليونا ونصف المليون انجليزى ، مع مساندة الجيش البريطاني لهم ، وهزموهم تماما ٠

وفي هذه الظروف ، استمرت آمال الانجليز في الحصـــول على المساندة أو على الأقل التعهد بالحياد من الأحلاف الهندية الرئيســـية الأربعة في الداخل ، وهم الايروكوا ، والشيروكى ، والكريك ، والشوكتاو ، لأنه لو اكتسبهم المعسكر الفرنسى الى جانبه ، فلن تستطيع حتى التعزيزات المكثفة الضخمة من القوات البريطانية والمؤن ، والتي تم تعبئتها بتوجيه من وليام بت ، الذى تولى عبء رئاسة الوزارة الانجليزية ، في الأيام الحالكة لسنة ١٧٥٦ ، أن توقف هذا المد الفرنسى ٠ ولعله منذ أن اضطرت أول جماعة من المستوطنين الى الاعتماد على هنود الساحل ليمدوهم بالغذاء ، ويعلموهم فنون الزراعة أثناء « فترة المجاعة » لم يحدث أبدا أن اعتمدت المستعمرات الانجليزية هذا الاعتماد على رضا الهنود ٠

ولم يكن من الممكن ، قبل ذلك ، التأكد من مدى ما يبعثه التأييد أو الحياد الهندى من اطمئنان ٠ وقد ثبت أن من الصعب الحصول على ولاء

القبائل الداخلية المزدحمة ، بعد قرن من العداء المتقطع ، والجوع المسعور الى الأراضي الغربية الهندية ، والذى جرى خلال العقد السابق • وقد بدت نبوءة تلك الكلمات التى كتبها سنة ١٧٥٤ ، ادمون أتكن Edmon Atken تاجر تشارلستون الهندى ، الذى أصبح بسرعة الحاكم الانجليزى للهنود الجنوبيين حيث يقول : « أصبحت أهمية الهنود اليوم أمرا معروفا ، ومفهوما، بصفة عامة ، وليس لدينا أى شك فى أن ازدهار مستعمراتنا فى القارة يتوقف نجاحه أو فشله على مدى أهميتنا وحظوتنا بينهم • وعلى الرغم من أنهم أصـــدقاؤنا ، الا أننا نجدهم أرخص وأقوى ما يكونون لحماية مستعمراتنا ، فعندما يعادوننا ، يســـتطيعون بما لديهم من قدرة على التخريب ، حسب أسلوبهم فى الحرب أن يفقدوا تلك الممتلكات قيمتها ، رغم كل ما يمكننا عمله » (٢٥) •

الايروكـــوا :

يمكن توضيح وضع الايروكوا ، بتصورنا لقابلية الانجليز للوقوع فى يد الأعداء ، والتى أشار اليها أتكين • ففى مفاوضاتهم مع الفرنسيين ، ادعى الانجليز أن تأييد الايروكوا حقيقة لا ريب فيها ، وأخبروا حاكم كندا، بصورة غير قاطعة أن كل أعضاء قبائل الايروكوا هم رعايا ملك انجلترا ، بلا نزاع (٢٦) • ولكن الانجليز كانوا يعرفون أن تحالفهم مع الايروكوا ، وتابعيهم الديلاوير ، الشرقيين ، لا يمكن ضمانه الا بوسيلتين فقط هما : استمالتهم بالرشوة ، أو باظهار القوة لهم بدرجة تقنع الديلاوير بأن الانجليز سينتصرون بمساندتهم أو بدونها ، وبذلك يرون أن الحكمة تقتضى أن يختاروا الجانب الرابح منذ البداية • لقد أثبتت أول حيلة عسكرية فشلها سنة ١٧٥٤ ، عندما غادر ممثلو العشائر الست مؤتمر ألباني ومعهم ثلاثون عربة بضائع محملة بالهدايا دون أن يعطوا مقابلها سوى التلويح الدائم بأنصاف الوعود ، بالمساندة ضد الفرنسيين الذين استمروا يحرزون انتصارات كبيرة فى السنوات الثلاث التالية • ولم يســـاند الايروكوا الانجليز الأمريكيين الا عندما دفعوا لهم أجورا كجنود مرتزقة ، وذلك كما حدث سنة ١٧٥٧ حينما جمع نحو خمسمائة من الموهوك ٣٣٦٠٢ جنيه لصالح القوات الانجليزية فى نيويورك (٢٧) •

وقد بذلت محاولات أخرى خلال السنتين التاليتين لجعل الايروكوا يخضعون الديلاوير المهاجمين والذين دفعوا خط المستعمرات فى بنسلفانيا الى الوراء ناحية المقاطعات الشرقية • وكانت بنسلفانيا ذاتها ، منقسمة بين الكويكرز المعارضين للحرب ، الذين يعتقدون أن سكان الحدود الاسكتلنديين والايرلنديين يجنون ثمار ما بذروه سنين طويلة ، من استغلال للهنود ، وسوء معاملتهم لهم ، وسلبهم بالخداع والغش ، وبين المناضـــلين من

البرسبتاريين ـ أتباع الكنيسة المشيخية ـ والانجليكان الذين كانوا يريدون استخدام الضرائب في هجوم مضاد قوى ضد المهاجمين • فقد كتب المترجم الرسمى للمستعمرة ، سنة ١٧٥٧ ، عقب المؤتمر الذى عقد من أجل التخلص من غضب الديلاوير ، فقال : « لقد عرف الهنود ضعفنا عندما أبلغناهم بانقساماتنا » (٢٨) •

وعلى كل حال ، مرت سنة ، حتى أكتوبر ١٧٥٨ ، قبل أن يستطيع الانجليز الحصول على وعد من الايروكوا بالسيطرة على الديلاوير وايقاف هجماتهم على بنسلفانيا • وقد غادر الهنود المؤتمر بعربة قطار ملأى « بالهدايا » • ومن السهل أن نفترض أن هذه التنازلات من الهنود كانت ببساطة رد فعل للحوافز التى قدمها البيض • ومن وجهة نظر الهندى ، من ناحية ثانية ، كان لمعاهدة ايستون Easton Treaty معنى مختلف • فلم يكن هناك التزام عسكرى للانجليز ، وقد استعاد الايروكوا قطعة الأرض الشاسعة غرب نهر سسكيهانا ، التى كانوا قد تخلوا عنها لبنسلفانيا منذ أربع سنوات فى مؤتمر ألبانى ، فى مقابل تعهدهم بالحياد ، وتأكيدهم على طمأنة الانجليز من جهة عداوة الديلاوير • وهكذا ، تدعم تأمين الأمن الاقليمى ، غرب مرتفعات اللجنى •

باستثناء التأييد الفاتر من الموهوك ، فان الايروكوا ـ وهم أبعد العشائر الست شرقا ـ اما حافظوا على حيادهم أو حاربوا ، كما فى حالة السينيكا مع الفرنسيين فى حملاتهم سنتى ١٧٥٧ ، ١٧٥٨ • أما عن الموهوك ، فلا يمكن تفسير تحالفهم مع الانجليز بقربهم من مركز التجارة الانجليزية فقط فى ألبانى ، ولكن أيضا ، بالمبالغ الضخمة التى كانت تدفع نظير خدماتهم ، وواقع زواج وليام جونسون الذى عين مراقبا بريطانيا للهنود الشماليين ، من امرأة من الموهوك ، ومعيشته بينهم لعدة سنوات ، بعد وصوله الى أمريكا سنة ١٧٣٩ • وكما اكتشف كل الانجليز ، الذين حاولوا التودد الى الايروكوا فى السنوات الكئيبة من ١٧٥٤ ـ ١٧٥٨ ، عقدت العشائر الست العزم على متابعة سياستهم التقليدية للتحرر من الحروب الأوروبية ، وحماية أوطان قبائلهم • ولهذه الأسباب ، تصدوا لكل حملة حربية حاولت المرور عبر أراضيهم • وفى مايو ١٧٥٨ ، طلبت العشائر الست ، بوجه خاص ، من وليم جونسون أكثر الانجليز نفوذا وتأثيرا أن يبتعد عن المؤتمر الكبير للايروكوا فى أونونداجا ، حيث كان يأمل فى أن يجندهم لمساندة الحملة الصيفية ضد الفرنسيين فى فورت تيكوندروجا Fort Ticonderoga • وبالرغم من أن الموهوك قد أعطوا بعض الوعود ، كانوا حريصين على ألا يشتركوا مع الجيش الانجليزى الا بعد أن حارب معركته الرئيسية •

وفي سنة ١٧٥٩ ، عكس الايروكوا موقفهم · وأدت الملاحظات التى بعث بها جونسون لاستطلاع رأى الملك الى أن يقرر فى تفاول ، آنه اذا جهز الانجليز حملة ضد معقل الفرنسيين فى فورت نياجارا « أو أى مكان آخر فى بلاد العشائر الست ، فانى أستطيع بذلك ، أن أقنع الجزء الأعظم منهم ، ان لم يكن جميعهم ، بالانضمام الى قوات جلالته » (٢٩) · ومع ذلك ، لم يكن جونسون هو القادر على أن « يقنع » بل ان الايروكوا هم الذين قيموا حجم الوضع العسكرى الانجليزى / الفرنسى وأهميته فى مجالسهم الخاصة ، ثم أعادوا تشكيل نظامهم الخاص فى الحكم ، وبعد هزيمة أربع سنوات ، عاد المد لصالح الانجليز فى يولية ١٧٥٨ عندما سقطت لويزبورج ، وفورت فرانتيناك Fort Frontenac ، وهما المركزان الاستراتيجيان للقوة الفرنسية فى الأطراف المقابلة من نهر سانت لورنس ، قبل هجوم الانجليز الأمريكيين · وفى نوفمبر ١٧٥٨ ، تخلى الفرنسيون ، بواسطة الديلاوير الذين قبلوا وعود معاهدة ايستون ، عن فورت ديكين ، عند تفرعات نهر أوهايو · وبنهاية العام ، كان أوهايو الأعلى فى أيدى الانجليز ، لأول مرة ، منذ أربع سنوات · وقد عبأ وليام بت قوة الشعب الانجليزى المحاربة ـ فكان الرجال فى الميدان أكثر مما وجدوا فى نيوفرانس كلها ـ وكفوا عن الشجار ، لفترة طويلة حتى يوقفوا المد الفرنسى ·

ساعدت هذه الانتصارات الانجليزية على ابعاد الايروكوا عن موقف الحياد الذى تمســـكوا به طويلا · ومما حفزهم على الارتباط بالقضية الانجليزية ، أسر السفن الفرنسية التى تجلب السلع التجارية طوال السنة الى مونتريال ـ وهو تحول غير متوقع للثروة التى حسنت من موقف الانجليز ، الى حد بعيد فى اقناع العشائر الست واستمالتهم · وفى أبريل ١٧٥٩ جاء زعماء الايروكوا الى كاناجوهارى Canajoharie مدينة الموهوك ، تنفيذا للسياسة الجديدة فى معاهدة ايستون ، ووعدوا ثمانمائة محارب بهجوم على فورت نياجارا ، المحطة الفرنسية لتجارة الفراء على بحيرة أونتاريو · فقد قدر الايروكوا حساباتهم جيدا ، بأن الفرنسيين ينحدرون الى الهزيمة فى أمريكا الشمالية ·

استلزم هذا التحول فى الأحداث من النقيض الى النقيض ، بالنسبة للايروكوا أن ينظموا قواهم بسرعة · وتم ذلك فى يولية ١٧٥٩ عندما طردوا الفرنسيين من فورت نياجارا ، وبذلك فتحوا للانجليز المدخل الاستراتيجى الى القبائل الغربية · فقد كتب ضابط انجليزى أن « الاستيلاء على نياجارا ، كان أعظم نتيجة بالنسبة للانجليز ، لأنها تعطينا المناسبة السعيدة لبدء الصداقة وتعزيزها مع هذه القبائل الكبيرة العدد من الهنود التى تسكن على حواف بحيرات ايرى ، وهورن ، ومتشيجان ، وكذلك بحيرة سوبيريور ·

وكانت تجارة الفراء التي تحملها هذه القبائل المتمركزة كلها عند نياجارا ، من الأهمية بمكـــان ، حتى ان بعض الخبراء المهرة ، قد أخبروني بأن الفرنسيين لا يرون قيمة لكندا بدون امتلاك هذا الممر » (٣٠) · لقد تحطمت الامبراطورية الفرنسية الآن ، تماما ، في أمريكا الشمالية ·

من المهم أن نشير الى أن القبائل الست استطاعوا ، طوال الحرب أن يقيموا بدقة الميزان العسكري المتقلب بين القوى الأوروبية المتنافســـة ، وشكلوا سياستهم وفقا لذلك · وبالرغم من أنهم لم يكتبوا مذكرات تفسر تصرفاتهم العسكرية ، ولم يحركوا قوات أو امدادات في الميدان ، الا أن وسائل اتصالهم وشبكة معلوماتهم قد امتدت عبر كافة أنحاء المنطقة التي كان يتحارب فيها الانجليز والفرنسيون · وقد أدركت مجالسهم بذكاء ووعى متى يكون الميزان الاستراتيجي في الاتجاه البريطاني · لقد أطرى معظم مؤرخي « الحرب العظمى من أجل الامبراطورية » براعة وليام بت في « استمالة » الايروكوا و « حثهم » على الوقوف في جانب الانجليز · الا أن الدليل المؤكد هو أن الايروكوا ، كانوا يعيدون تقييم موقفهم الشخصي باستمرار ، خدمة لمصالحهم الشخصية · وبالرغم من مداهنة الانجليز لهم ، والهدايا ، واعادة المناطق التي سبق أن استولوا عليها ، رفض الايروكوا الوقوف بجانب الانجليز طوال السنوات الأربع الأولى للحرب ، أو حتى السماح بمرورهم عبر أرضهم · ولكن عندما بدأ تفوق الانجليز العسكري يعلن عن نفسه عام ١٧٥٩ ، عدل الايروكوا عن حيادهم بسرعة ، وشاركوا في جني ثمار النصر · واذا كانت « سياستهم الواقعية » قد فشلت ، على كل حال ، فقد كان ذلك لعدم ادراكهم أن الحفاظ على القوة الفرنسية في أمريكا الشمالية كان ضروريا للحفاظ على مصالحهم ، على المدى البعيد ·

الشـــيروكي :

كان الكريك ، والشيروكي ، في الجنوب ، منهمكين في اجراء حسابات مماثلة لتحقيق مصالحهم الشخصية · وكان الشيروكي أكبر عددا من الايروكوا والكريك ، ولربما بلغ مجموعهم نحو ١٢ ألف نسمة ، في منتصف القرن الثامن عشر · وقد اعتبر الانجليز تحالفهم أو حيادهم أمرا لا غنى عنه للوجود الاستعماري في المنطقة من فرجينيا حتى جورجيا · ونظرا لسكناهم في مرتفعات الأبلاش الى غرب مستوطنات كارولينا وجورجيا ، ولبسالة محاربيهم المشهورة ، تحالف الانجليز معهم في التجارة والحرب منذ أواخر القرن السابع عشر · ولما واجه الكارولينيون أعداء آخرين من الهنود ، اعتبروا مساندة الشيروكي لهم هي حجر الزاوية في سياستهم الهندية ، ولم يغفل الشيروكي عن ذلك · فهم يدركون أنهم لعبوا الدور الحاسم في حرب الياماسي سنة ١٧١٥ ، كما ناوروا كأحسن ما تعارف

عليه الساسة الأوروبيون ، على حد ما اعترف به الكارولينيون • وفى سنة ١٧١٧ ، اشتكى زعماء كارولينا بقولهم : « انهم أهانونا للغاية ، فى آخر مرة كانوا هنا [فى تشارلستون] ، وأنهم جعلونا فى الواقع توابع لهم بمطالبهم التى كنا مجبرين على تنفيذها » (٣١) •

تذبذب تأييد الشيروكى فى مواضع مختلفة ، بعد حرب الياماسى ، خاصة فى الثلاثينات من القرن الثامن عشر • فقد أثارت مساوىء الاستغلال التجارى خلال هذا العقد حنقهم ، وعندما جاءهم الألمانى الغامض ، جوتليب بريبر Gottlieb Priber فى سنة ١٧٣٦ ، وجدهم مســتعدين لتقبل رسالته • فرحبت به مدن الشيروكى نظرا لاحترامه الحقيقى للحضارة الهندية ، وسخطه على المجتمع الأوروبى ، الذى اعتبره فاسدا فســادا لا شفاء منه • وكان المؤرخون مفتونين بمجتمع المدينة الفاضلة فى جمهورية أفلاطون الذى كان بريبر يبشر به فى كل مكان يذهب اليه ، مما جعل مستوطنات البيض تعتبره مخرجا جديدا • ولكن أهمية بريبر لدى الشيروكى كانت تكمن فى جهوده لتعليمهم استعمال الموازين والمكاييل حتى يستطيعوا حماية أنفسهم من التجار غير الشرفاء ، المضللين • كما نبههم بريبر ، أيضا ، الى الحفاظ على حريتهم بعدم الثقة فى أى أوروبى ، وشجعهم على رعاية صــــلاتهم التجارية مع الفرنسيين فى نيوأورليانز كوسيلة لتقليل النفوذ الانجليزى أو القضاء عليه •

وتضمنت خطة لاستمرار البقاء الهندى فى الجنوب عقد تحالف بين كل القبائل الكبرى فى المنطقة ، واقامة مدينة يلجأ اليها العبيد والمدنيون الهاربون داخل اقليم الشيروكى ، وأن يجعل الهنود يصممون تصميما لا يلين ألا يسلموا أية أرض تابعة لهم ، وألا يقدموا أى تنازلات لأى قوة أوروبية ، وأن يستمروا فى لعبة توازن القوى فى علاقاتهم مع الفرنسيين والانجليز والأسبان • وتدل نظرة الشيروكى له على أنه « رجل عزيز جدا عليهم » على مدى تأرجح الأفكار المعادية للأوروبى ، خاصة الانجليزى ، والتى تردد صداها فى ذهن الشيروكى حتى عندما كانت العلاقات وثيقة مع الكارولينيين •

حينما أصدر حاكم كارولينا الجنوبية أمرا بالقبض على بريبر ، سنة ١٧٣٩ ، رفض الشيروكى تسليمه الى السلطات الاستعمارية ، ولكن الكريك قبضوا عليه سنة ١٧٤٣ ، وهو فى طريقه الى الفرنســيين فى نيوأورليانز ، وسلموه الى الانجليز فى جورجيا ، حيث مات هناك فى فريدريكا Frederica ، بعد سنوات قليلة من سجنه • وفى سنة ١٧٤٨ ، قامت حكومة كارولينا بمعاداة الشيروكى ، برفضها تنفيذ معاهدة المساعدة المتبادلة عندما هوجم الشيروكى من قبائل الكريك الشماليين ، وردا على

ذلك ، هاجم الشيروكى تجار كارولينا البيض ليثبتوا أنهم لا يعتبرون أنفسهم رعايا انجليز ، وانما لديهم القوة الـــكافية للتحكم فى هويتهم الخاصة · وكانوا يعرضون على الفرنسيين اقتراحاتهم من آن لآخر ، للاخلال بتوازن الانجليز ·

اعتمد الانجليز على الشيروكى ، بقدر اعتماد الشــــيروكى على الكاروليني · وهذا أمر معترف به صراحة بانتهاء ثورة الشيروكى سنة ١٧٥٠ ، حينما ذكر حاكم كارولينا الجنوبية المجلس التشريعى بأنه « من الضرورى جدا لنا أن نكون على صداقة مع الشيروكى بوجه خاص » ، « لأنهم يبلغون نحو ثلاثة آلاف مقاتل محترف ، وأكبر شعب نعرفه فى أمريكا باستثناء الشوكتاو ··· » (٣٢) · ولما كان الشوكتاو مرتبطين منذ مدة طويلة بالفرنسيين فى منطقة ما وراء المسيسبى ، فقد هيأ الشيروكى منطقة فاصلة ، لا غنى عنها بين الانجليز وأعدائهم الفرنسيين · كما أن رغبة التاج فى تسليم نحو ٦٠٠٠ جنيه الى الكريك والشيروكى ، تعويضا لهم عن الهدايا سنتى ١٧٤٩ ، ١٧٥٠ ، تعتبر شاهدا قويا على اهتمام الانجليز بالحفاظ على التحالف · وتضاعفت مصاريف كارولينا الجنوبية على الهدايا الهندية بين سنتى ١٧٥٠ ، ١٧٥٨ فبلغت ١٤٨٣٧ جنيها فى السنة الأخير ـ وهى دليل آخر على قدرة الهنود على استغلال اعتماد الكاروليين عليهم (٣٣) ·

ان سياسة الشـــيروكى فى المحافظة على التحالف الظاهرى مع الانجليز ، بينما هم يحاولون فى الواقع الاحتفاظ باستقلالهم فى تصرفاتهم ، كانت أوضح ما تكون فى الفترة من ١٧٥٣ ـ ١٧٥٥ · ففى آخر ١٧٥٣ ، ١٧٥٤ ، واظب حاكم فرجينيا ، بشكل جدى على ملاطفة الشيروكى لكسب تأييدهم لمحاولة واشنطن طرد الفرنسيين من ملتقى روافد نهر أوهايو · فبدون المساندة الهندية فقط ، لا يمكن التغلب على القوات الفرنســـية الأكبر منه · ورد زعماء الشيروكى بوعد للفرجينيين بألف من المحاربين ، بينما كانوا يضغطون فى نفس الوقت على حكومة كارولينا لتحسين أسعار التجارة ، ويتبادلون الرأى مع الفرنسيين فى فورت تولوز على نهر ألباما ، وعبروا لحاكم فرجينيا عن اهتمامهم باحياء التجارة القديمة بين فرجينيا والشيروكى التى كان يخدمها الشـــيروكى فى الماضى ، وذلك ليذكروا الكاروليين بأن تجارتهم مرغوبة ولا يمكن الاستعاضة عنها بغيرها · ولكن ، فى النهاية ، اختفى وعدهم لواشنطن بمشاركته فى غزوته داخل البرارى ، كما يختفى الدخان فى الهواء ·

وفى السنة التالية ، عندما رجع الفرجينيون يبحثون عن دعم لحملة برادوك استخدم الشيروكى بمهارة وعودهم بارسال مئات من المحاربين

الذين لم يلتحقوا أبدا بحملة برادوك ، وذلك ليحصلوا على التجارة مع فرجينيا بشروط مقبولة لهم أكثر مما قدمه الكاروليني‍ون . فقد كانوا على وعي تام بأن كارولينا الجنوبية وفرجينيا كانتا أقرب ما تكونان للانفجار في قتال للسـيطرة على تجارة الشيروكي ، فاستخدموا هذا العداء بين الاستعماريين لمصلحتهم . وحينما لقى برادوك هزيمته النكراء ، لم يكن معه في جيشه سوى ثمانية من الهنود .

في مايو ١٧٥٥ ، قابل الكارولينيون رؤساء الشيروكي بعيدا في داخل بلادهم لعقد معاهدة بينهما وعندما وافق الشيروكي على الاعتراف بملك الانجليز حاكما لهم ، والتنازل عن بعض أراضيهم للحكومة الملكية ظن الكارولينيون أنهم أنجزوا تقدما عظيما ومفاجئا في اغراء الهنود بالخروج عن حيادهم . وفي مقابل ذلك ، تعهدوا بتوفير السلع التجارية بأسعار رخيصة وبناء حصن في بلاد الشيروكي ، لتكفل لهم الحماية ضد الفرنسيين وأعدائهم الكريك .

ولقد اتضح ، في خمس السنوات التالية مدى عـدم فهم الانجليز لدبلوماسية الهنود . فبالرغم من احتفال حاكم كارولينا الجنوبية بمعاهدة ١٧٥٥ ومباهاته « باضافة ما يقرب من ١٠٫٠٠٠ فرد الى رعايا جلالته ، وأكثر من ٤٠ مليون فدان الى أراضيه » ، لم يعتبر الشيروكي أنفسهم رعايا للسلطة البريطانية أو يخضعوا أراضيهم لها ، الا بقدر ما تخدم أهدافهم المشتركة على نحو يرضونه (٣٤) . فقد حارب نحو ٢٥٠ من الشيروكي مع ميليشيا فرجينيا على الحدود الغربية ، سنة ١٧٥٧ ، ولكنهم وافقوا على الخدمة بصفتهم مرتزقة لا رعايا . فاذا لم يدفع لهم حسب الاتفاق ، يقومون فورا بنهب مستوطنات حدود فرجينيا ، ليجمعوا بالقوة ما قصرت الحكومة البيضاء عن اعطائه لهم . وتكررت العملية في السنة التالية ، الا أن سكان الحدود في فرجينيا ، في هذه المرة ، والذين يفترض أن الهنود يحاربون من أجلهم ، هم الذين بدءوا ينصبون الكمائن للشيروكي العائدين من القتال ، والذين أقاموا مساكنهم بعيدا عن المنطقة . وبذلك ، فقد ثلاثون شيروكيا حياتهم على يد حلفائهم في صيف وخريف ١٧٥٨ . أضف الى دافع الكراهية الهندية للفرجينيين تخصيص المستعمرة جائزة وقدرها ٥٠ جنيها عن كل فروة رأس للهنود الأعداء أمثال الشاروني . ففروة الرأس بالنسبة للفرجينيين الجشعين هي فروة الرأس ، سواء أكانت لشيروكي أو لشاروني . فكل جائزة كانت تكسب حاملها ما يعادل دخل مزارع على الحدود لمدة سنة . ولم يتطلب الأمر أكثر من بضع حوادث من هذا النوع حتى تتأجج في كل مكان ، جمرات العداء للانجليز الكامنة في مدن الشيروكي ، على يد الجماعات المؤيدة للفرنسيين . فقد خرج الرسل الى

الكريك ، والتشيكاساو ، وفى شتاء ١٧٥٨ ـ ١٧٥٩ ذاع الحديث عن ثورة كل الهنود ، على طول الحدود الجنوبية ، وعمل وكلاء الانجليز ، فى جدية ، لاقناع القبائل بأن التعرض لشحنات السفن الفرنسية فى أمريكا الشمالية يجعل من المستحيل على الهنود أن يحصلوا من الفرنسيين على السلاح والذخيرة أو حتى السلع العادية ، وكان ذلك أعظم سلاح فى يد الانجليز ٠

وبالرغم من أن قدرة الانجليز على قطع خطوط الامداد والتموين الفرنسية قد أبعدت الكريك عن الثورة ضد الانجليز ، كان على الشيروكى أن يجدوا تفسيرا لحالات الوفاة لكثير من عشرات الرجال من قبيلتهم ٠ وقد اشتعلت حرب الحدود فى كل مكان من الأراضى الخلفية لكارولينا وفرجينيا ٠ وبالرغم من بعض حالات الاسترضاء ذهب رؤساء الشيروكى الى تشارلستون لمحادثات سلام ، فى سبتمبر ١٧٥٩ ، وكان حاكم كارولينا الجنوبية ، وليام هنرى ليتيلتون W. H. Lyttelton ، تواقا للحرب فى ذلك الوقت مثلما كان الشيروكى الغاضبون ، فقام بحملة على أراضى الشيروكى ، قوامها ١٧٠٠ رجل ، لعلها كانت أكبر قوة انجليزية تجمعت حتى الآن فى الجنوب لمحاربة الهنود ٠ وفى المعاهدة التى انتزعها منهم بالقوة ، وبخ ليتيلتون الهنود على كل ما حدث ٠ انها لم تكن معاهدة سلام أبدا ، فى الواقع ، اذ وقعها زعماء الشيروكى تحت الاكراه ، ولم تحقق شيئا سوى زيادة اشتغال غضبهم ٠

اندلعت الحرب مرة ثانية ، فى سنة ١٧٦٠ ، بدرجة أقوى ٠ وكان الشيروكى فى هذا الوقت أكثر اتحادا عن ذى قبل ، فى مقاومتهم للانجليز ٠ وسرعان ما أدرك الحاكم الجديد لكارولينا الجنوبية ، وليام بل W. Bull أن الشيروكى يضارعون أكبر قوة ميليشيا أمكنه أن يضعها فى الميدان ٠ وانحناء منه للظروف ، وافق على معاهدة بها تنازلات للشيروكى ، وعبر عنها بدقة بقوله : « قد لانرى أنها مناسبة حسب قواعد الشرف المرعية وسط الأوروبيين » (٣٥) ٠ ولقد أثبت وصول ١٣٠٠ رجل من القوات الممتازة لسير جيفرى أمهرست Jeffrey Amherrst، فى أبريل ١٧٦٠ وحملتهم التالية ضد الشيروكى ، صعوبة محاربة الهنود على أرضهم ٠ ونظرا لعجزها عن التقدم فى الأرض الكثيرة التلال ، وتعرضها للكمائن دائما « أنجزت الحملة القليل » على حد ما انتهى اليه أحد المؤرخين « ما لم تكن قد عززت معنويات الشيروكى » (٣٦) ٠ وعادت القوة الى تشارلستون بعد أن تلقت ضربات عنيفة ومخزية الى أبعد حد ٠ وبعد ذلك بقليل ، استسلمت الحامية الرئيسية الانجليزية فى بلاد الشيروكى بعد حصار هؤلاء لهم ٠ وفى الصيف التالى ، حاول الكرة ١٨٠٠ جندى بريطانى نظامى باشتراك ٧٠٠ من ميليشيا القرى المحلية ، ولكنهم حققوا نجاحا أكبر ، فى هذه المرة ، بحرقهم قرى الشيروكى ومحاصيلهم ٠ ومع انقطاع الامدادات

الفرنسية فعليا ، خضع الشيروكى لمعاهدة سلام اعترفوا فيها بالسيادة الانجليزية ، وأقامت الحدود الشرقية لاقليمهم ٠

جرت محاولات من الشيروكى ، طوال ثورة ١٧٥٩ ـ ١٧٦١ لحث الكريك على خدمة قضيتهم ٠ وكان رفض الشيروكى طوال جيلين سابقين ، لمشاركة الكريك فى حرب الياماسى ضد الكاروليتيين قد كلف الكريك نصرهم ٠ واليوم فان قرار الكريك ببقائهم على الحياد يكلف الشيروكى الكثير ٠ وبالرغم من أن قلة من الكريك قد قتلت بعض التجار الانجليز ممن لا أخلاق لهم ، سنة ١٧٦٠ ، الا أنهم حافظوا على حيادهم ، بعد أن أدرك أغلبهم أن الفرنسيين لن يستطيعوا مدهم بالسلع والذخيرة ، وهكذا ، تركوا الشيروكى يحاربون الانجليز وحدهم ، ويكافحون نقص الطعام ، وعجز الذخيرة ، ووباء الجدرى٠ومن السخرية ، أن البضائع الوحيدة التى كانت تصل اليهم من الفرنسيين ، كانت بواسطة ربابنة سفن نيوانجلند الذين يهربون التموين الى الحصون الفرنسية على خليج المكسيك ٠ واضطر الشيروكى ، تحت وطأة نقص البضائع الى العودة الى عادات قديمة لهم ، مثل تفصيل الملابس من جلود الأيائل والدببة ، وتزويد رءوس السهام بأسنة من العظام بدلا من النحاس الوارد من السفن التجارية ٠ ولكن ، نظرا لانقطاع السلع التجارية الأخرى عنهم ، وعدم استطاعتهم تنظيم موقف هجومى من كل الهنود ٠ فقد لحقوا بالفرنســيين الخاسرين فى الحرب العظمى من أجل الامبراطورية ٠

الـــكريك :

بينما رأى الايروكوا أنه يمكن قهر الفرنسيين ، فضموا جهودهم الى الانجليز ، وتذبذب الشيروكى بين التحالف مع الانجليز ، والحرب ضدهم أثناء حرب السنوات السبع ، ثابر الكريك على سياسة الحياد التى كانت الســـمة المميزة لدبلوماسيتهم منذ حرب الياماسى ٠ وظلت اهتماماتهم الأساسية فى التجارة والحفاظ على سيادتها السياسية ٠ وطوال الخمسينات وأوائل الستينات من القرن الثامن عشر ، تنقل الكريك من أراضى الشيروكى الى المراكز التجارية الفرنسية فى فورت تولوز ، وموبيل ، يقبلون الهدايا من كل من الفرنسيين والانجليز ، ويعقدون صفقات المغبون بأفضل شروط ممكنة لهم فى تجارة الجلود ٠ وكان الصراع المتهور فى مدن الكريك يدور بين أنصار فرنسا ، ومؤيدى الانجليز ، وأتباع الحياد ٠ ولكن ، فى سنة ١٧٥٧ ، أعاق التفوق البحرى البريطانى ، الشحن البحرى الفرنسى تماما ، مما أصاب زعماء الكريك بضربة حاسمة مباشرة ، وهم الذين كانوا يؤيدون قيام ثورة هندية شـــاملة ضد الانجليز من الشـــاونى ، والكريك ، والتشيكاساو ، والكتاوبا ٠ وقد شدد الانجليز قبضتهم على الكريك فى

سنتى ١٧٥٨ ، ١٧٥٩ باغداق الهدايا عليهم • ونظرا لحساسيتهم من احتمال انتشار تمرد الشيروكى ، قضى هنرى اليز Ellis ، حاكم جورجيا ربيع ١٧٦٠ وهو يحاول أن « يحرض كل ذى نفوذ ، فى محاولة منه لقطع العلاقات بين هذين الشعبين » ـ الكريك والشيروكى (٣٧) •

وبالرغم من رفض الكريك لمشاركة الشيروكى ، الا أنهم استغلوا تمرد جيرانهم لمنفعتهم الخاصة • فحينما كانت تندر السلع الانجليزية أو يرتفع سعرها ، كانوا يخبرون التجار الانجليز ، بصورة عرضيه أن الخلاف مع الشيروكى والفرنسيين الذين هم على صلة دائمة بهم ، قد اتخذ شكلا جديدا جذابا • ولكن حقيقة الأمر ، أن اشتعال ثورة الشيروكى قد قسمت الكريك بشكل سيىء • واستمر أنصار الفرنسيين يثيرون الشيروكى لبذل مزيد من المحاولات ضد الانجليز ، بل وقتلوا أحد عشر مستوطنا انجليزيا فى محاولة منهم لاثارة هجوم انجليزى ، مما يثير شعب الكريك بالضرورة ليقفوا وراء الشيروكى • وقد فشلت ، على كل حال ، حكومتا كارولينا وجورجيا فى أن تلتقطا هذا الطعم • لقد كان قرار عدم الرد على قتل التجار ، أو حتى مطالبة الكريك باعدام القتلة ، دليلا مثيرا على الوضع القلق ، المحفوف بالمخاطر بالنسبة للمستعمرين الجنوبيين ، وعلى حاجتهم الأساسية لابقاء الكريك على الحياد • فلو كان ميزان القوى فى جانب الانجليز ، لكانت قد اتخذت اجراءات عنيفة ، تجعل الكريك فى موضع المساءلة عن أمثال هؤلاء القتلة •

وبالرغم من انتصارات الشيروكى فى سنتى ١٧٦٠ ، ١٧٦١ ، بما فى ذلك الهزيمة التى أنزلوها بحملة مكونة من ١٦٠٠ جندى بريطانى وأمريكى ، فسدت محاولة الكريك لوقف مبدأ التوسع الانجليزى فى النهاية ، بسبب عجز الفرنسيين عن توفير فيض بديل من الأسلحة والسلع الحيوية • وفى لقاء حاسم مع الفرنسيين والشيروكى والكريك فى فورت تولوز فى مارس ١٧٦١ ، اتضح بجلاء أن الفرنسيين لا يملكون أية ذخيرة حربية أو هدايا ، أو سلع تجارية ليعززوا بها محادثاتهم لطرد الانجليز من القارة التى قررت الانتصارات الانجليزية فى الشمال مصير الفرنسيين فيها نهائيا • وانتهت بالنسبة للكريك ، سنوات الانقسامات الداخلية ، والمفاوضات الخارجية ، وحافظوا على حيادهم ، وأبقوا على تجارتهم الرابحة مع كل من الفرنسيين والانجليز لمدة نصف قرن • وان كانوا قد أصبحوا بهذه العملية معتمدين على الارتباط التجارى الأوروبى •

ان الانتصارات الانجليزية ـ الأمريكية فى الشمال ، التى بدأت ، سنة ١٧٥٩ بالاستيلاء على فورت نياجارا ، واستمرت بالانتصار الحاسم لوولف Wolfe فى كويبك ، وبلوغ الذروة فى السنة التالية بسقوط

مونتريال ، كل ذلك أنهى تماما قرنين من الزمان للوجود الفرنسى فى أمريكا الشمالية • لم يقر السلام رسميا حتى سنة ١٧٦٣ ، ولكن الأعمال العدائية انتهت قبل ذلك بعامين •

كان صلح باريس ضربة قاسية ، بالنسبة للشعوب الهندية التى برهنت على هذا الاستقلال فى التصرف ، وعلى هذه القوة المؤثرة خلال حرب السنوات السبع • وعلى خلاف القبائل الساحلية ، التى شاهدت انحسار أعدادها واستقلالها خلال الاحتكاك بالمدينة الأوروبية ، زادت القبائل الداخلية قوة ، وازدادت هيبتها العسكرية ، وتطورت تكنولوجيا نتيجة علاقاتها السياسية والاقتصادية مع الانجليز ، والفرنسيين ، والأسبان • فقد كانوا قادرين على تحويل اعتمادهم على التجارة الأوروبية لصالحهم طالما كان هناك أكثر من مصدر للسلع ، وقادرين على فهم الأسلوب الأوروبى فى المكائد الدبلوماسية ، واستعماله لخدمة مصالحهم الشخصية ، وأثبتوا قدرتهم على تجنب أو هزيمة الجيوش الأوروبية المتفوقة عليهم فى العدد •

ومع ذلك ، بالرغم من أنهم كانوا يلعبون بعض الأدوار الحاكمة على أرض القارة ، لم تملك هذه الشعوب الهندية أدنى قوة للسيطرة على المحيط الفاصل بين أوروبا وأمريكا الشمالية ، أو على التجارة التى تدفقت عبره • وكان هذا ، فى النهاية ، هو العامل الذى أضعف قوتهم من الأساس • ان سيطرة البحرية البريطانية على المحيط الأطلنطى وجهت ضربة قاصمة مباشرة فى المباراة الفاصلة ، لأن الفرنسيين فى أمريكا بدون سلع تجارية كانوا كعدمهم تماما • ذلك لأن عدم قدرتهم على الحصول عليها لم يقلل من مجالهم فى المناورة فقط ، بل جعلت أيضا الحركات الوليدة حديثا والشاملة لجميع الهنود ، ضد الانجليز حركات عقيمة ، وهى التى لابد أنها امتدت من أرض السسكيهانا على سواحل البحيرات العظمى فى الشرق الى أرض الياماسى فى فلوريدا ، وشملت الميامى ، والشاورنى ، والديلاوير ، والشيروكى ، والكتاوبا ، والكريك ، والشوكتاو اذا اقتصرنا على القبائل الكبرى فقط • ولقد استطاع مجرد جزء من هذه الشعوب أن يزحزح الحدود الانجليزية ــ الأمريكية الى نحو مائة ميل فقط من الساحل فى الأدوار الأولى من حرب السنوات السبع • ولو حدث أن اتحدوا تحت امرة الجيوش والامدادات الفرنسية لكانت خطط الفرنسيين لحكم القارة قد أصبحت حقيقة واقعة •

اعترفت معاهدة باريس للسلام ، الموقعة بين انجلترا وفرنسا وأسبانيا سنة ١٧٦٣ ، باعتبار كندا وكل أمريكا الشمالية شرق نهر المسيسبى أراضى انجليزية • وتخلت فرنسا لأسبانيا عن الأرض الواقعة

غرب المسيسبي ، وتنازلت أسبانيا عن فلوريدا لانجلترا · وابتداء من هذه السنة فصاعدا ، لم تتعرض السيطرة الانجليزية فى النصف الشرقى من أمريكا الشمالية للاعتراض من برلمانات أوروبا · ولم يطل أمد استخدام الكريك ، والشيروكى أو الايروكوا للعبة الترجيح فى المعركة الفاصلة لاكتساب مزايا لهم فى التجارة مادام لم يبق سوى مصدر واحد للسلع التجارية · وحتى العداوات بين المستعمرات ، والتى عادة ما كانت تستثمرها الجماعات الهندية ، كانت تتوارى ، لأن الجهد الحربى كان يوحد المقاطعات الانجليزية الثلاث عشرة بدرجة غير مسبوقة · وانتهى قرنان من التنافس الأوروبى لامتلاك شرق أمريكا الشمالية والسيطرة عليها ، نهاية مفاجئة ومثيرة · واضطر الايروكوا ، والشيروكى ، والكريك ، وغيرهم من قبائل وشعوب الداخل ، أمام هذه الحقيقة الواقعة ، أن يتكيفوا معها ، حتى بالرغم من أن معظمهم قد اعتبر الادعاءات السياسية والاقليمية الانجليزية لا أساس لها من القانون ، الى أن غيروها أو اتفقوا عليها فى مفاوضات ثنائية ·

المراجـــع

1. Quoted in Anthony F. C. allace, « The Origins of Iroquois Neutrality : The Grand Settlement of 1701, » Pennsylvania History, 24 (1957) : 235.

2. Archibald Kennedy to George Clinton, 1746, Clinton Papers, vol. 3, Clements Library, University of Michigan.

3. Lawrence H. Leder, ed., « The Livingston Indian Records, 1666-1723 » (Gettysburg, Pa. : Pennsylvania Historical Association, 1956), p. 165.

4. Quoted in Francis Jennings, « The Constitutional Evolution of the Covenant Chain, » Proceedings of the American Philosophical Society, 115 (1971) : 90.

5. Allen W. Trelease, « Indian Affairs in Colonial New York » (Ithacc, N.Y. : Cornell University Press, 1960), pp. 264, 267-68.

6. Wallace, « Origins of Iroquois Neutrality, p. 226.

7. Quoted in William J. Eccles, « The Canadian Frontier, 1534-1760 » (New York : Holt, Rinehart and Winston, Inc., 1969), p. 133.

8. Verner W. Crane, « Southern Frontier, 1670-1732 » (Ann Arbor : University of Michigan Press, 1956), p. 260.

9. Ibid., pp. 263, 260-261.

10. « The Colonial Records of South Carolina, Journal of the Commons House of Assembly, Nov. 10, 1736 — June 7, 1739, ed. J. H. Easterby » (Columbia : Historical Commission of South Carolina, 1951), p. 75.

11. Quoted in M. Eugene Sirmans, « Colonial South Carolina ; A Political History» (Chapel Hill ÷ Univ. of North Carolina Press, 1966), p. 198.

12. Nancy Oestreich Lurie, « The World's Oldest On-Going Protest Demonstration : North American Indian Drinking Patterns »,

Pacific Historical Review, 40 (1971) : 321 ; and Craig MacAndrew and Robert B. Edgerton, « Drunken Comportment, A Social Explanation » (Chicago : Aldine Publishing Co., 1969).

13. Robert F. Berkhofer, Jr., « The Political Context of a New Indian History, » Pafific Historical Review, 40 (1971) : 364.

14. Fred Gearing, « Priests and Warriors ; Social Structurec for Cherokee Politics in the 18th Century », American Anthropological Association « Memoir » 93 (1962) : 102.

15. Robert Maule to Society for the Propagation of the Gospel, (June 3, 1710), SPG Mss, A 5, No. 133 (Microfilm of Library of Congress Transcripts), UCLA Research Library.

16. Charles Woodmason, « Carolina Backcountry on the Eve of the Revolution : The Journal and Other Writings of Charles woodmason, Anglican Itinerant, ed. Richard J. Hooker » (Chapel : Hill : University of North Carolina Press, 1969), pp. 80-81.

17. Lawson. « A New Vauage of Carolina ... ed. Hugh T. Lefler » (Chapel Hill : University of North Carolina Press, 1967), p. 243.

18. Quoted in Irving Hallowell, « The Backwash of the Frontier : The Impact of the Indian in American Culture », in Paul Bohannan and Fred Plog, eds., « Beyond the Frontier : Social Process and Cultural Change » (Garden City, N.Y. : The Natural History Press, 1967), p. 325.

19. « The Complete Writings of Thomas Paine », 2 vols., Philip S. Forner, ed. (New York : Citadel Press, 1945), 2 : 1119-20.

20. Peter Wraxall, « An Abridgment of the Indian Affairs ...., » Charles H. McIlwain, ed. (Cambridge : Harvard University Press, 1915), p. 219.

21. Petition of Subscribers to the Susquehannah Company, 1755, in Julian P. Boyd, ed. « The Susquehannah Company Papers » (Wilkes-Barre, Pa. : Wyoming Historical & Genealogical Society, 1930), I : 255.

22. Quoted in Eccles, « Canadian Frontier », p. 158.

23. E. B. O'Callaghan, ed., « Documents Relative to the Colonial History of the State of New-York » (Albany : Weed, Parsons & Co., 1855), 6 : 870.

24. Quoted in Douglas E. leach, « The Northern Colonial Frontier, 1607-1763 » (New York : Holt, Rinehart and Winston, 1966), p. 200.

25. Wilbur R. Jacobs, ed., « Indians of the Southern Colonial Frontier ; the Edmond Atkin Report and Plan of 1755 » (Columbia : University of South Carolina Press, 1954), pp. 3-4.

26. Governor Clinton to Governor of Canada, Oct. 10, 1748, in O'Callaghan, ed., « Documents Relating to Hist. of New-York, 6 : 492 ».

27. Wilbur R. Jacobs, « Diplomacy and Indian Gifts : Anglo — French Rivalry Along the Ohio and Northwest Frontiers, 1748-1763 » (Stanford : Stanford University Press, 1950), p. 178.

28. Lawrence H. Gipson, « The British Empire Before the American Revolution, 14 vols. » (New York : Alfred A. Knopf, 1936-69), 7 : 58.

29. Ibid., p. 342.

30. Quoted in Leach, « Northern Colonial Frontier », p. 204.

31. Quoted in David D. Wallace, « South Carolina : A Short History, 1520-1948 » (Chapel Hill : University of North Carolina Press. 1951), p. 90.

32. David H. Corkran, « The Cherokee Frontier : Conflict and Survival, 1740-1762 » (Norman : University of Oklahoma Press, 1962), p. 15.

33. Sirmans, « Colonial South Carolina », p. 275 ; Jacobs ed. « Atkin Report and Plan », pp. 27, 31 n.

34. Quoted in Corkran, « Cherokee Frontier », p. 61.

35. Quoted in Sirmans, « Colonial South Carolina », p. 335.

36. Ibid., p. 336.

37. Quoted in W. W. Abbot, « The Royal Governors of Georgia, 1754-1775 » (Chapel Hill : University of North Carolina Press, 1959), p. 80.

الفصل الحادى عشر

امتزاج الشعوب

بينما كان الهنود الحمر ، والأفارقة ، والأوروبيون بما يضمه كل منهم من شعوب متنوعة ، يحققون أقدارهم ومصائرهم فى محيط معقد من التنافس القبلى الضخم ، والنمو الاقتصادى ، والتغير السكانى ، والتحول الاجتماعى والسياسى ، كانت كل مجموعة تتفاعل مع الأخرى ، أيضا ، على أعلى المستويات الشخصية • هذا الاختلاط الجنسى والاجتماعى بين أفراد من مختلف السلالات الوراثية ، والذى نسميه فى العادة بتمازج الأجناس ، لا قيمة له فى حد ذاته ، ما لم يراع المحاولات التى تتمسح بالعلم لتحديد الحجم النسبى لكل مجموعة « عنصرية » عرقية فى المجتمع ، وهى ممارسة لها أهداف دعائية وسياسية ، ومع ذلك فتزاوج الأجناس له أهميته من وجهة أخرى • فبقياس مداه ، يمكننا أن نوسع رؤيتنا لعملية التثاقف أو التبادل الحضارى والامتصاص ــ أى مزج العناصر الثقافية أو الحضارية وامتصاص حضارة ما فى حضارة أخرى ، فتمازج الأجناس عنصر مهم فى كل من هاتين العمليتين فى العادة •

ان معظم التفكير فى موضوع التمازج بين الأجناس فى أمريكا الشمالية، يبدأ بالفكرة العامة اللافتة للنظر بأن الأوروبيين فى هذه القارة لم يمتزجوا حقا بالأفارقة والهنود فى أى مكان ، بنفس درجة تواتره المستمر فى مجتمعات أمريكا اللاتينية • كما لم يمتزج الأفارقة والهنود بنفس الدرجة ، ومن المعروف أن أمريكا اللاتينية هى العالم الذى حدث فيه أكثف امتزاج بين الأجناس فى تاريخ البشرية ، وأن أمريكا الشمالية حيث تجمع الأوروبيون ، والهنود ، والأفارقة خلال نفس الفترة تقريبا ، تتميز بانعدام مثل هذا الاختلاط بين الجينات ، بصفة عامة • ويبدو أن أرقام الاحصاء الرسمى لسكان أمريكا الشمالية والجنوبية المعاصرتين يؤكد هذا الاعتقاد • فهى تبين ، مثلا ، أن ٢٠٪ فقط من الفنزويليين ، ١١٪ فقط من البناميين هم من البيض ، وأن (المولاتو) أى المولدين أو الخلاسيين ــ ذوى اللون البرونزى (الأسمر الضارب الى الصفرة) فى البرازيل يشكلون شريحة من السكان أكبر بكثير مما فى الولايات المتحدة ، وهكذا دواليك ••

وبالرغم من أن معيار العضوية في مجموعة جنسية معينة ، يختلف بدرجة كبيرة من مكان لآخر ، ولن يكون دقيقا ، فليس من الضرورى أن ندقق فى التفاصيل حول التركيب الجنسى لأى من مجتمعات العالم الجديد ، مادامت النقطة الرئيسية ليست محل جدال وهى ـ أن الاتصالات الجنسية التى كانت تمارس على نطاق واسع قد أنتجت شرائح أكبر ، من المستيزو mestizos أو الهجن (الأوروبى ـ الهندى) ، والمولاتو mulattos أو المولدين أو الخلاسيين ـ (الأوروبى ـ الزنجى) ، والماسى mustees (الأفريقى ـ الهندى) فى النصف الجنوبى من العالم الجديد عنه فى نصفه الشمالى ٠

ويشرح ذلك تفسيران ، بصفة عامة ، أولهما : أنه قبل تجربة اعادة اكتشاف أوروبا للعالم الجديد ، كان لدى الأسبان والبرتغاليين تجربة واسعة فى التفاعل مع شعوب مختلفة عنهم حضاريا ، خاصة مع ذوى البشرة السوداء ، أكثر من خبرة الانجليز ٠ فخلال قرون من الحرب والتجارة مع البربر والمغاربة ـ خاصة فى الأندلس ـ وغيرهم من شعوب الشرق الأوسط وشمال أفريقية ، كانت الحضارة الايبيرية قد امتصت فعلا عناصر حضارية ووراثية جديدة ، وأظهرت اتجاهات مرنة نحو اختلاط الشعوب فى علاقات جنسية ٠ وبالمقارنة ، بقى الانجليز مدة طويلة داخل جزيرتهم ـ الحصن المعزول ـ محميين من الحضارات الأخرى ، ولذا كانوا ميالين للشك فى التزاوج العرقى ، بل والانزعاج من رؤيته ٠

ونتيجة طبيعية لهذه المناقشة ، نجد أن المواقف المتساهلة من الكنيسة الكاثوليكية تجاه غير المسيحيين ، ومنظومة القانون الرومانى ، التى أبقت للعبد على درجة من الكرامة وشبه الاستقلال ، والاتجاهات المتسلطة للحكومات الأيبيرية الفاشستية ـ التى تخضع الفرد وحقوقه بالكامل لمصلحة الدولة ـ قد اتحدت كلها لجعل التمازج بين الأجناس مقبولا ، وبالتالى شائعا فى مناطق العالم التى كانت أسبانيا والبرتغال تواجهان فيها الهنود والأفارقة بأعداد كبيرة ٠ وعلى العكس من ذلك ، تثبت الأدلة أن البروتستانتية الانجليزية كانت صارمة فى قبول الناس « الهمج » فى ميثاق الايمان ، ولم يكن لدى القانون الانجليزى ما يقوله فى موضوع الرق، تاركا المستعمرين أحرارا فى التوسع فى المؤسسات والنظم الصارمة جدا لكبح جماح عمالهم المكبلين بالقوانين ، كما أن الحكومة الانجليزية لم تكن مهتمة بممارسة سلطة كبيرة فى مستعمراتها ، خاصة فى موضوع معاملة الجماعات غير الانجلزية الخاضعة لها ٠ فاذا أخذنا هذه الاختلافات فى الخبرة السابقة ، والمؤسسات والنظم الاجتماعية ، والمواقف والاتجاهات ، وفى السياسة الحكومية لذلك لا يدهشنا أن يختلف تاريخ الامتزاج بين

الأجناس كثيرا فى مستعمرات أسبانيا والبرتغال عنه فى مستعمرات انجلترا ٠

فقدت هذه الحجج كثيرا من قوتها التفسيرية فى الوقت الحاضر ، نظرا لأن المؤرخين يفحصون باهتمام وحرص شديدين الأحوال الاجتماعية والسكانية التى تميز التفاعل الحضارى فى مختلف أجزاء العالم الجديد ٠ فبالرغم من تسليم كل المؤرخين تقريبا بالعلاقة المتبادلة بين العوامل المادية والأيديولوجية ، يظهر اليوم أن درجة وطبيعة الاختلاط بين الأجناس ، فى أمريكا الجنوبية والشمالية ترجع أساسا الى الظروف التى قابلتها فى هذا العالم الجديد أكثر من الاتجاهات السائدة فى العالم القديم ٠ فسهولة وجود النسوة الأوروبيات ، ومعدل السكان الأوروبيين ، والأفارقة ، والهنود فى منطقة ما ، ومدى امكانية الضغط على الهنود فى نظم العمل الاجبارى ، والحاجة الى توظيف غير الأوروبيين فى المواقع المهمة ٠ كل ذلك ، كان يبدو أن له دورا فى تشكيل نموذج الامتزاج بين الحضارات ٠ وهكذا ، لا نجد غرابة فى أن نكشف أنه فى هذه المناطق التى كانت النسوة الأوروبيات قليلات العدد فيها ، طرح الرجل الأبيض جانبا كل تعصب جنسى جاء به الى العالم الجديد ، وعاشروا النساء من الأجناس الأخرى ، وكان البديل عن ذلك ، اما التقشف والبعد عن الجنسى ، واما اللواط ، واما العلاقة البهيمية مع الحيوان ٠ وقد جذبت كل هذه البدائل الثلاثة بعض الرجال ، ولكن الأغلبية منهم فضلوا العلاقة الجنسية مع نساء المجموعة المختلفة عنهم حضاريا ٠ ولا ندهش كذلك ، اذا وجدنا أنه حيث كان الهنود والأفارقة كثرة ، كان التخالط أكثر شيوعا عنه فى حالة قلة عددهم ٠ وفى نيوانجلند ، حيث استقر الهنود بأعداد قليلة متناثرة ، ودمرتهم الأوبئة فى السنوات الأولى من الاستيطان الأوروبى حدث قليل من الاختلاط بين الحمر والبيض ٠ وفى المكسيك ، حيث كان الأسبان فى بحر من الهنود المستقرين بكثافة ، حدث اختلاط ضخم ، طوال فترة المستعمرات ٠

ان مثل هذه التفسيرات المعقولة ، مفرطة فى بساطتها أكثر مما ينبغى، بطبيعة الحال ، ويجب أن توجه اليها دراسات أكثر تفصيلا ٠ ولا نجد سوى بحث كاف ، قد أجرى فى مجال العلاقات بين السود والبيض فقط ، يترك أمامنا المجال لتعميمات ثابتة ٠ أما العلاقات بين الهنود والبيض ، وبين الهنود والأفارقة ، فلا تزال بدون دراسة ٠ وطالما أن ذلك هو عمل الجيل التالى من العلماء الباحثين ، فكل ما يمكننا تقديمه هو بعض الاقتراحات غير النهائية فى هذا المجال ٠

الاحتكاك الهندى ـ الأوروبى :

يحس أن نبدأ بهذا النوع من الاتصال ، بين الهنود والأوروبيين ، نظرا لسبقه لكل أنواع الاتصالات ، وربما كان له بعض التأثير على مجرى الأحـــداث بعد ذلك • لقد كان التمازج الجنسى بين الأوروبيين والهنود محدودا للغاية ، فى نيوانجلند ، وبعد ذلك فى مستعمرات نيويورك ، ونيوجرسى ، وبنسلفانيا ، وديلاوير بوسط الأطلنطى • فقد هاجر الرجال الانجليز الى هذه الأجزاء من الامبراطورية الناشئة مع عائلاتهم • فان كان بعضهم عزابا فقد وجدوا عددا كافيا من السيدات غير المتزوجات ليسدوا بهن حاجتهم الى الزواج • وكان التماثل فى أعداد الجنسين ، من الذكور والاناث ، يستقر بسرعة كبيرة ، واستمر ذلك طول الفترة الاستعمارية ، ماعدا فترات ما بعد الحرب حيث فاق عدد النساء ، أحيانا عدد الرجال بفارق بسيط • وكان تعزيز هذا الوضع الاحصائى السكانى عاملا حضاريا قويا • اذ أن الهجرة بالعائلة قد أكدت تأصيل البنية الفوقية لحضارة كاملة كانت مهددة للغاية بالامتزاج الجنسى ، خاصة اذا افترضنا الرأى الشائع تقريبا وسط البيض بأن حضارتهم كانت أبعد فى تفوقها من حضارة الحمر والسود « الهمج » •

كان العامل السكانى الثانى المؤثر ، هو عدد الهنود الصغير نسبيا فى هذه المناطق ، والعجز النسبى عن استعاضة أولئك الهاربين من الأوبئة أو الصراع المتكرر على فترات منتظمة ، والذى أضعف المجتمعات الهندية الساحلية أثناء بداية فترة الاحتكاك • كان الزواج بين حضارتين شيئا نادرا • فقد تزوج عدد من تجار الفراء العاملين على الحدود من زوجات هنديات ، وكان لجميعهم تقريبا علاقات جنسية متواصلة مع الهنديات • الا أن الحالة الجديرة بالذكر فى هذا التزاوج فى المناطق المستوطنة هى حالة وليام جونسون ، المشرف الشمالى على شئون الهنود ، الذى تزوج امرأة من الموهوك • وبعد ترقيته مؤخرا الى رتبة فارس ، لبطولاته العسكرية حقق نفوذا كبيرا لدى الموهوك الذين أسموه «واراجهياجى» Warraghiyagey أى « الرجل الذى أخذ على عاتقه أشياء عظيمة » • وقد منح هذا التقدير السامى ، لأنه انحرف بشكل جوهرى عن مبدأ البيض بقبوله عادات الموهوك ، وتعلمه لغتهم مثلما حاول أن يفعل قليل من البيض • ان جونسون لم يولد أو ينشأ فى المستعمرات ، وقليلون هم الذين حرصوا على اتباع هذا النموذج حتى ولو كان لموظف امبراطورى رفيع الشأن ، حين تعلق الأمر بالزواج ، طالما كان فى المستعمرات الشمالية عدد كبير من النساء الأوروبيات • ويقال ان زواج جونسون ، كسابقة أولى ، شدت انتباه صحف لندن بدرجة كبيرة ، قد أدى الى حدوث ثمانى عشرة زيجة أخرى بين الحمر والبيض ، ومع ذلك يعتبر هذا العدد تافها •

وبعيدا ، الى الجنوب ، فى مستعمرات تشيزابيك ، ساد نموذج سكانى مختلف فى عشرات السنين الأولى • فمع استثناءات قليلة ، لم تكن الأوروبيات متوفرات فى فرجينيا حتى حوالى سنة ١٦٢٠ • فضلا عن أنه يبدو أن الرجال الأوروبيين لم يلجأوا كثيرا الى النسوة الهنديات • ويمكن تعليل ذلك اما بالقرار الواعى من القبائل المنتسبة الى البوهاتان بمنع نسائهم من مخالطة الدخــلاء ، المتطفلين الأوروبيين ، الذين أظهروا العداء منذ البداية ، واما لكراهية الانجليز الشديدة للنساء الهنديات ، بدرجة تجعلهم يتغلبون على الشهوة الى النساء ، وهو ما اعتقده كثير من المحللين بفرجينيا فى أوائل القرن الثامن عشر • فقد كانوا يؤيدون الزواج المختلط بالهنديات حتى فى ذلك الوقت المبكر ، وينصحون بأنه اذا كانت هذه « السياسة الحديثة » قد اتبعت من البداية لأمكن التغلب على عداوات السنين الأولى الباهظة الثمن • فنرى وليام بيرد ، وهو غير غريب على الاستمتاع الجسدى مع النساء من مختلف ألوان البشرة ، يدعى بأن الانجليز كانوا متشربين « برفاهة كاذبة » فى السنوات الأولى ، وبذلك لم يقنعوا أنفسهم بمضاجعة الهنديات ، واعتقد بيرد أن قبائل التشيزابيك كان يضايقها ذلك الرفض • ولم يستطيعوا أبدا « أن يقنعوا أنفسهم بأن الانجليز يحبونهم من قلوبهم طالما أنهم يأنفون من الزواج من بينهم » • وتبنى روبرت بيفولى ، مؤلف رواية « ولاية فرجينيا الحالية وتاريخها » رأيا مشابها بتأسفه على عدم حدوث أى تزاوج واقتناعه بأن الهنود كانوا يتشوفون الى ذلك » (١) •

ان الأدلة المحدودة المتعلقة بهذه المسألة ، لا تساند هذه الآراء ، على كل حال • فقد كان الجزء الأكبر من الذكور الســائدين فى مستعمرة فرجينيا ، يتكون من ممثلى الطبقة الانجليزية الدنيا ، والتى تضم الكثيرين من ذوى الخبرة الحربية فى أيرلنده ، والأراضى المنخفضة الأسبانية ، وأجزاء أخرى من العالم • وكان الاحتشام غير ملحوظ فى تركيبتهم ، وتوحى رغبتهم المبكرة فى المعاشرة الجنسية للأفريقيات بأن السبب الحقيقى لعدم تواصل الاتصال الجنسى بالهنديات ، هو عدم الجاذبية الهندية أكثر منه لدى الرغبة الأوروبية • ولم يوطد الانجليز أنفسهم كفاتحين فى السنوات الأولى ، كما فعل الأســبان والبرتغاليون ، ولذلك ، لم تكن قبائل تشيزابيك مضطرة الى تسليم نسائها • كما أن النساء الهنديات لم يرفضن استقبال الفرجينيين الذين كانوا ينسلون هاربين من ظروفهم الشديدة الوطأة فى جماعتهم الخاصة ، ليعيشوا وسط شعب البوهاتان ، وازدادت أعدادهم بدرجة دعت الى سن قوانين تفرض عقوبات قاسية لهذا السلوك الدال على النكث بالعهد • ولقد أشرنا من قبل ، الى تلك الحالة الوحيدة للزواج المختلط داخل جماعة بيضاء تضمنت عهودا خاصة بين جون رولف وبوكاهونتاس ، ذلك الزواج السياسى ، بصرف النظر عن الحب الذى قد

يكون كل من الاثنين قد أحس به نحو الآخر . وقد ادعى بعض المؤرخين أن مجلس الملك ، بعد أن تشاور بدقة فيما اذا كان رولف قد ارتكب خيانة عظمى بزواجه من أميرة هندية ، لم يشجع أى زواج أكثر من ذلك بين الجنسين . ولكن كان الاتهام الخطير هو الخيانة العظمى للزواج بابنة عدو ، والواقع أن بوكاهونتاس ورولف كان يحتفل بهما فى مهرجان فى لندن أينما حلوا ، بما فى ذلك القصر الملكى . وفى أوائل القرن الثامن عشر ، كان مجلس التجارة يروج رسميا لتبنى سياسة الامتزاج الجنسى فى المستعمرات الأمريكية ، وهو مؤشر صريح على أن فكرة امتزاج الدم الهندى بالدم الأوروبى لم تكن تؤثم سلوك الفرد فى انجلترا .

اعتدل التفاوت العددى بين الذكور والاناث البيض بعد عشرات السنين الأولى من الاستيطان الانجليزى فى تشيزابيك . بالاضافة الى أنه ، بنهاية الحرب الهندية الثانية سنة ١٦٤٤ ، كان السكان الوطنيون فى منطقة الساحل ، مجرد شريحة صغيرة من السكان البيض ، ثم صارت قلة قليلة من الهنود فى ختام ثورة بيكون سنة ١٦٧٥ . واذا نظرنا الى الامتزاج الجنسى ، فى ضوء الحقيقة القائلة بعدم معرفة حالة واحدة منه فى فرجينيا ، فى ذلك الوقت ، يصبح ادعاء الحاكم سبوتزوود **Spotswood** سنة ١٧١٧ بأن « انحرافات شعبنا ليست كانحرافات الفرنسيين » قولا لا يمكن اعتبـــاره دليلا على أن التعصب الجنسى كان يمنع مثل هذه الزيجات (٢) . كما لم تبق هناك حاجة أو فرصة للزواج الأوروبى ـ الهندى ، ولم يكن اختلاف «الانحرافات» فى نيوفرانس انعكاسا لاختلافات فى الشخصية الوطنية بقدر ما هو تفاضل فى الاحتياجات . بل ان من المسلم به أن الأوروبيات كن المفضلات على امتداد سانت لورنس ، مع شيوع اتخاذ الفرنسيين زوجات وخليلات هنديات .

وكان الجنوب الشرقى ، أى كارولينا الشمالية والجنوبية ، وجورجيا ، هو المنطقة الانجليزية الوحيدة التى تطابقت فيها الخصائص الاحصائية السكانية تقريبا مع مناطق الاستعمار الأسبانى والبرتغالى . فمنذ السنوات الأولى ، لم يتوفر ، هنا ، الحصول نسبيا على المرأة البيضاء ، مع سهولة وجود المرأة الهندية ، فكانت النتيجة اتصالات مباشرة واسعة بين الانجليز والهنديات . وتخلو السجلات بشكل واضح من أية اشارات أو دلالات على « الاحتشام » عندما يتعلق الأمر بالعلاقات الجنسية بين أفراد حضارتين مختلفتين . وبالعكس ، تزخر الروايات والسجلات المعاصرة باشارات الى علاقات جنسية غير معقدة بين الشعبين . ويصدق ذلك بوجه خاص على تجار الفراء الذين يتعاملون مع المناطق الداخلية ، الذين لن يتخلوا أبدا عن اشباع حاجتهم الى « الضجيعات » أو « رفيقات الفراش » ، على حد تعبير جون لوسون من أوائل القرن الثامن عشر . وكانت القبائل الهندية

تخصص نساء معينات بوصفهن «فتيات التجارة» أو قل «فتيات تجاريات» ، ويخصص لهن قصات معينة للشعر تدل على أن وظيفتهن هي اشباع رغبة التجار ، بينما يحصلن على النقود « بمواهبهن الطبيعية » • هؤلاء فقط ، هن اللواتي يتيسر للرجل الأبيض العثور عليهن ، « لأن الرجال الهنود » ، حسبما كتب لوسون « كانوا يرغبون (كلما أمكن) فى الاحتفاظ بزوجاتهم لأنفسهم ، كما يفعل غيرهم فى أنحاء العالم الأخرى » (٣) •

وبينما كان التجار يعاشرون النساء الهنديات فى مناطق الداخل ، كان الكاروليينيون يقابلون الهنديات الاماء المشتريات من سوق النخاسة فى المستعمرات الساحلية • وبعد حرب الياماسى ، التى نشبت ، سنة ١٧١٥ ، والتى شكلت الاغارة على العبيد خلالها ، قضية مهمة ، تناقص استرقاق الهنود فى كاروليينا • الا أنه أثناء الخمسين سنة الأولى من تاريخ المستعمرة ، يشهد العدد الكبير من الأطفال من الأمهات الهنديات والآباء البيض ، فى تشارلستون على الامتزاج المكثف الذى كان يجرى هناك • فقد زاد عدد الرجال البيض عن النسوة البيض فى كاروليينا الجنوبية ، بنسبة تزيد عن ١٣ : ٩ حتى أواخر سنة ٧١٠٨ ، ولم يكن الرجال الذين بدون سيدات، يمانعون فى الاستفادة من وجود الهنديات • ولم يكن فى جورجيا ، الا توماس بوزوموورث Bosomworth ، القسيس الملحق على مستعمرة المدينة الفاضلة أوجليثورب الذى رأى أن الزواج من امرأة من الكريك ، فى السنوات الأولى من الاستيطان أمر جدير بالاحترام ، واقتدى به الكثيرون بعد ذلك • وقام كل من جون ماكدونالد ، والكسندر كاميرون ، نائبا مندوب الحكومة للهنود لدى الشيروكى فى الفترة الاستعمارية الأخيرة ،قاما بالزواج من امرأتين من الشيروكى • وكان زعيما الشيروكى، بعد الثورة ، سيكويا ، وجورج لورى من مواليد الزواج المختلط فى هذا العصر •

اذا ، كانت الاعتبارات السكانية ، هى التى تحدد الزواج المختلط بين الهنود والأوروبيين ، أكثر مما تحدده المواقف والاتجاهات المسبقة • وواضح أيضا ، فى قوانين زواج البيض من غير البيض ، فى جميع المستعمرات أثناء فترة الاستعمار أن المواقف والاتجاهات تختلف تجاه الأفارقة ذوى البشرة السوداء عنها تجاه الهنود ذوى البشرة البرونزية • كذلك ، كانت قوانين الزواج المختلط ، يوجه أغلبها تقريبا نحو الزواج بين البيض والسود • وقد منعت كاروليينا الشمالية وفرجينيا ، فقط ، الزواج بين الهنود والبيض (بالرغم من ان ماساشوستس فكرت فى مناقشة مثل هذا القانون) ، ولم تطبق أية مستعمرة عقوبات خاصة لحالات الزنا بين الحمر والبيض ، كما كانوا يفعلون دائما فى حالات السود مع

البيض . والواقع أن الكثيرين قد نقلوا اتجاهاتهم الأوروبية ، فطبقوا مقاييسهم فى الجمال . ووصفوا المرأة الهندية بها ، بينما لا نجد مثل هذه الأوصاف عن المرأة الافريقية . وقد كتب روبرت بيفرلى سنة ١٧٠٥ أن الهنديات « كن جميلات ، بشكل عام ، يمتلكن رقة غير مألوفة فى الشكل والتقاطيع ، ولا يحتجن الى حلى صغيرة للزينة ، بل يكفيهن المظهر العام » (٤) . وقد عبر بهذا المزاج كثير من المعلقين الاستعماريين الآخرين.

ان القصور العام فى الزواج المختلط بين الحمر والبيض ، قد أنذر بعجز الحضارتين عن فهم بعضهما البعض الفهم الجيد . ولم يتطور الانسماج كثيرا بين الهنود والبيض أبدا ، فى أمريكا القرن الثامن عشر ، لأن الهنود نادرا ما يكونون راغبين فى مقايضة حضارتهم بحضارة أخرى يرونها دون حضارتهم شأنا ، ولأن المستعمرين لم يجدوا للهنود فائدة سوى أنهم أصحاب فخاخ لصيد حيوان الفراء ومستهلكون للسلع الأوروبية ، وحلفاء حرب ، بعكس مستعمرات أمريكا اللاتينية تماما ، حيث أدى نقص أعداد النساء البيض ، وقهر العمال الهنود واستعبادهم الى التلاحم الشديد عن قرب بين الشعبين ، وخلق بذلك عددا كبيرا من السكان الهجن (الهندى ــ الأوروبى) . وتبين أكثر التقديرات تحفظا عن السكان الهجن أنهم بلغوا ٢٥٪ من سكان أمريكا الأسبانية فى أوائل القرن التاسع عشر ، وأن كثيرا من هؤلاء قد وصلوا الى مرتبة الحرفى الماهر ، ورئيس العمال فى بعض الدوائر ، والميليشيا ، بل وجامع لعشور الكنيسة ، وجاب للضرائب أيضا . ولكن فى أمريكا المستعمرات، ظل انتاج نسل نصف هندى ونصف أوروبى هو حصيلة العلاقات الجنسية قصيرة الأجل بين تجار الفراء البيض والنسوة الهنديات فى معظم الحالات تقريبا داخل المجتمع الهندى . وأصبح عدد من ذكور هذا النشء أنفسهم تجارا للفراء ، أو وسطاء ومتعهدين بين الانجليز ومجتمع الهنود . كما برز غيرهم ، أمثال جوزيف برانت من الموهوك ، والكسندر جيليفراى McGillivray من الكريك فى زعامة المقاومة الهندية فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر . وبالرغم من أن المؤرخين لم يدرسوا ، حتى الآن ، الأمريكيين الهجن (المستيزو) دراسة منظمة ، والذين يتلذذ من يزدرونهم بتسميتهم « الهجن » هناك دلائل على أن هؤلاء الأشخاص ، الذين يعتبرهم المستعمرون هنودا فقط كانوا أكثر الناس الذين ينفر المجتمع الأبيض منهم ، ويبتعد عنهم . ويصور أحد الفرجينيين ذلك بوضوح ، سنة ١٧٥٧ فيقول : ان التجار الذين « عاشروا أمريكيات من الهنود الحمر « كانوا يتركون نسلهم » كما يفعل الثيران والدببة ، لتربيهم أمهاتهم كيفما أتفق ... كما هو متوقع » ، وأشار الى أن « بعض هؤلاء الهجن ، أولاد الزنا ، كانوا قياديين أو قادة عسكريين بارزين ، من الذين عادوا علينا بهذا الكم من الضرر » (٥) .

الحالة الوحيدة التى حدث فيها تحول ثقافى بين الهنود والأوروبيين، تضمنت تحويلا للبيض الى الثقافة الهندية أكثر من تحويل الهنود الى الثقافة الأوروبية • فبامتداد فترة المستعمرات ـ وهو ما يفزع منه كثيرا حراس الحضارة البيضاء ـ كان بعض المستعمرين يهربون الى القرى الهندية ، أو حينما يؤسرون فى الحرب ، ويعيشون وسط القبيلة بضع سنين ، كانوا ينفرون بشدة من العودة الى مجتمع البيض • هذا « الارتداد الى الهمجية » كما كان يصر دعاة تفوق الحضارة الأوروبية أن يسموه ، قد جذب انتباه كثير من الروائيين الأمريكيين ، منذ أواخر القرن الثامن عشر • فقد كان توقع المستعمرين البيض أن يروا أهاليهم يفضلون أسلوب الحياة الهندية عن أسلوب حياتهم شذوذا يثير الحيرة والانزعاج • وقد كتب بيوريتانى من القرن السابع عشر يقول : « لا يمكن للمرء أن يتخيل وجود ما يسحره أو يأسره لدى هؤلاء الملحدين ، المغرورين ، الطائشين ، القساة ، الهمج المتوحشين ، الحمقى (وباختصار) الأدوات الشيطانية وأسوأ أنواع الوثنيين » (٦) •

ولكن ، رغم هذا التصوير الخيالى الجامح ، كان المستعمرون مضطرين أن يعايشوا فكرة أن كثيرا منهم قد وجدوا المجتمع الهندى محققا لأكثر احتياجاتهم عنه فى الحضارة الأنجلو أمريكية • ويزيد الأمر سوءا أن الهنود يأخذون الطريق العكسى ، فى الواقع ، فيختارون البقاء فى مجتمع البيض بعد أن تكشفت لهم سوآته • وقد كتب الفرنسى المتغطرس،المشهور، سانت جان كريفكير الذى عاش أكثر من عشر سنوات فى أمريكا فى أواخر فترة المستعمرات فى كتابه ، « رسائل من مزارع أمريكى » :

> « اية قوة هذه ، تلك التى تجعل الأطفال المتبنين ، عندما يكبرون بين هؤلاء الناس ، لا يمكن اقناعهم ابدا بعد الحاح ان يختاروا العادات الأوروبية من جديد ؟ ان كثيرا من الآباء القلقين المتلهفين رأيتهم بعد عودة السلام عقب الحرب الأخيرة [حرب السنوات السبع] يذهبون الى القرى الهندية التى عرفوا ان ابناءهم قد نقلوا اليها كاسرى حيث انتابهم اسى يجل عن الوصف عندما اكتشفوا ان ابناءهم قد أصبحوا هنودا بمعنى الكلمة ، وان اكثرهم لم يعرفوها مطلقا ، وأن أولئك الذين كانت سنهم تسمح لهم بالتعرف على آبائهم وأمهاتهم رفضوا رفضا باتا ان يتبعوهم ، وجروا الى آبائهم الذين تبنوهم او اختاروهم ليحموهم من سيل الحب المتدفق الذى ابداه لهم آباؤهم الحقيقيون المحزونون ! وان كان يصعب تصديق ذلك ، لكنى سمعت ايضا آلاف الحالات التى تؤكده

من أشخاص ثقات ... ويتأمل كريفكير قائلا : « لابد أن فى الارتباط بهم اجتماعيا شيئا غريبا آسرا ، على نحو يفوق أى شىء بيننا يمكن أن نفخر به ، لأن هناك الآلاف من الأوروبيين يعتبرون هنودا ، ولكننا لا نجد مثالا واحدا من هؤلاء السكان الأصليين القدماء قد أصبح أوروبيا باختياره » (٧) .

هذه الشهادة من كريفكير ، والتى تعتبر اجتهادا موفقا لظاهرة ، سبق أن لاحظها كادوولادر كولدن Cadwallader Colden ، حاكم نيويورك ، وبنيامين فرانكلين ، وأكدها بحث تاريخى لم يدع مجالا للشك فى أن هذا التحول الحضارى قد جرى أساسا فى اتجاه واحد ، وأنه أصبح من العسير جدا اقناع « الهنود البيض » بالعودة الى حضارتهم القومية الأصلية طالما جربوا الحياة الهندية. ويبصرنا ذلك بالفروق بين الحضارتين. وحتى قبل مجىء الأوروبيين ، كانت الحضارات الهندية ، عادة ما تتقبل فى مجتمعها ، كأعضاء كاملى الأهلية ، أى أشخاص من أسرى الحرب . وفى بعض المناسبات كانوا يضمون الأسير الى أسرة بعينها ، تعويضا لها عن فقد طفل أو أى قريب آخر . ان اندماج هؤلاء الوافدين الجدد فى نظام القرابة ، وفى المجتمع بصورة عامة ، دون أحكام تفضيلية لتفوق حضارة الآسر ، قد جعل من السهل على « الغرباء » الأسرى أن يتكيفوا شخصيا بسرعة . فقد كان الطفل الأبيض الذى يأخذه المجتمع الهندى يعامل معاملة أبنائهم ، ويعدونه لأى دور يجوز اشتراك الآخرين أو الأخريات من سنة فى أدائه. ومن أشد الأدلة اثارة ، على قبول الحضارات الهندية الكامل « للغرباء » وصول عدد من البيض والزنوج الذين هربوا الى المجتمعات أو أسرهم الهنود ، الى الزعامة .

وفى المقابل ، يختلف المجتمع الأبيض ، فى هذه النقطة ، اختلافا صارخا . فبالرغم من تبنى بعض الأطفال الهنود لدى العائلات البيضاء ، الا أن النموذج العام هو العزل الاجتماعى لهذا الوافد ، وعلى حد ما كتبه أحد الدارسين لهذا الموضوع « لم يكن ذلك (العزل) لعجز الهندى عن الارتفاع الى مستوى الشعوب المتحضرة ، بل الأصح هو عدم وجود الرغبة الكافية من جانب البيض للترحيب بالهندى واستيعابه ، وكذلك لغياب أية مؤسسة حضارية يمكن أن تفكر مليا فى الانتقال من حضارة الى أخرى بطريقة سليمة ومقبولة نفسيا » (٨) . حتى ان الهنود المتنصرين الذين كانوا يتدربون فى مدارس البيض،مثل سامسون أوكم Camson Occum الموهيجانى — من جنوب شرق ولاية كونيكتيكيت — كان من المتوقع رجوعهم الى المجتمع الهندى بدلا من أن يحتلوا مكانة مرموقة فى حضارة البيض . وكانت النظرة الى الهنود تعتبرهم غرباء دائما ، ولا يسمح لهم بالعيش

داخل مجتمع البيض ، الا نادرا ، وعلى هامشه الخارجي . ان المستعمرين ، وهم يعملون من داخل مجتمعاتهم الصغيرة ، ومحاطين بحضارة اعتبروها باختيارهم ، حضارة وضيعة ، بل و « بربرية » و « وحشية » ، وبعيدة عن التمدين ، « قد أقاموا حائطا وقائيا من الشعور المتعالى بالتفوق » ، وذلك لكي يبعدوا عنهم هؤلاء الذين يبدون لهم كمصدر تهديد (٩) . هذا العجز عن اظهار العقلية أو الأساليب الفنية الاجتماعية التى تدمج الهنود فى وسطهم ، ينم عن احساس بعدم الأمان الشخصى والحضارة بين أناس لم يملوا أبدا من الادعاء بتفوق أسلوب معيشتهم .

امتزاج البيض والسود :

تعد درجة امتزاج البيض بالسود فى أمريكا المستعمرات ظاهرة شديدة التعقيد ، لأنهم كانوا دائما شديدى القرب من بعضهم البعض ، سواء فى المناطق التى كانت النسوة البيض يكثرن فيها أو يندرن . وقد أدى هذا التقارب الى اتصالات جنسية واسعة ، ولو أنها لم تتضمن زواجا مختلطا الا نادرا . وقد يتصور المرء ، للوهلة الأولى ، أن هذه الندرة فى التزاوج بين الأجناس هى نتيجة كره عميق من البيض للسواد فى ذاته . ولو كان الأمر كذلك ، لاستحال تفسير ما ادعاه غالبية المراقبين الدارسين لمجتمع القرن الثامن عشر ، على حد قول أحد الفرجينيين بأن « البلاد تعج بالمولدين غير الشرعيين » (١٠) . وتساعد احصاءات القرن الثامن عشر السكانية ، على توضيح هذه النقطة ؛ بالرغم من أن مثل هذه التعليقات لا تفيد البتة بشىء فى التحديد الاحصائى الدقيق للتمازج بين الأجناس خاصة بين الأبيض وغير البيض . ففى ميريلاند ، سنة ١٧٥٥ ، أظهر تعداد السكان أن ٨٪ من الزنوج فى المستعمرة كانوا من المولدين (المولاتو) ، ثم كشف تعداد سكانى آخر ، بعد جيل ، فى رود أيلاند ، سنة ١٧٨٣ عن أن ١٦ر٥٪ من المستعمرة البالغ عددهم ٢٨٠٦ زنوج كانوا ذوى دماء مختلطة ، كما أن أحد مسجلى العبيد فى مقاطعة تشستر Chester بينسلفانيا ، سنة ١٧٨٠ ، قد سجل ٢٠٪ من الزنوج بصفتهم مولدين(١١) . وفى هذه الأماكن الثلاثة كلها ؛ كانت النسوة البيض فى كثرة عدد الرجال البيض تقريبا ، مما يشير الى أنه حتى فى حالة توفر الحصول على المرأة البيضاء كان للرجال البيض علاقات جنسية متكررة مع النسوة السوداوات .

واذا لم تكن هذه الاتصالات زائدة فى كثافتها ، فيمكن تفسير ذلك ، أساسا بعدم توفر النسوة السوداوات أيضا فى الفترة التى كان فيها عجز فى عدد النسوة البيض . اذ لم يبدأ دخول العبيد الى المستعمرات الانجليزية

بأعداد ملحوظة حتى نهاية القرن السابع عشر ، وحتى ذلك الوقت ، كان عـدد النساء البيضاوات فى كل مستعمرة كارولينا الجنوبية الناشئة يكاد يساوى عدد الرجال البيض ، فكان عدد السكان العبيد فى المزارع الجنوبية سنة ١٧٢٠ نحو الخمسين ألفا ، لا يزيد عدد السوداوات منهم عن ١٠٫٠٠٠ امرأة • وقد سكن المستعمرات الجنوبية ، فى نفس الوقت ، نحو ٧٠٫٠٠٠ فرد بالغ من المستعمرين ، نصفهم تقريبـا من النساء • ويخالف ذلك تماما ، الوضع فى البرازيل البرتغالية ، وبيرو الأسبانية ، أو حتى جزر الهند الغربية الانجليزية • ففى كل هذه المناطق ، لم يكن الحصول على النساء الأوروبيات متيسرا نسبيا لفترات أطول بكثير •

ويقدم لنا مثال مستعمرات الكاريبى الانجليزية الدليل المؤكد الحاسم لموضوع الاتجاهات المسبقة ، التى تحدد طبيعة ودرجة اختلاط الأجناس • فمع قلة النســاء البيضاوات عن الرجال البيض حتى القرن الثـانى من الاستيطان ، لم يتردد البيض فى استغلال السوداوات فى سد هذه الفجوة، بل ان المتزوجـين من ملاك المزارع البيض ، كانـوا على حد قـول أحد المسافرين ، يحتفظ الواحد منهم بفتاة مولدة أو خادمة سوداء ، فى منزله أو عند مستودعاته واستراحاته لأغراض معينة » • كما يعلن أحد المؤرخين المشهورين للقرن الثامن عشر فى جزر السكر الانجليزية ، مؤكدا بصورة حية « أن كل من يظهر الاستياء من مثل ذلك على أنه نوع من الزنا ، كانوا يعتبرونه فى غاية الحمق ، حيث انه لا يوجد واحد فى العشرين يمكن أن يقتنع بوجود أى اثم أو عار فى مضاجعة أمته » (٢١) •

وعلى كل حال ، كان الامتزاج بين الأجناس ، يشيع لذة جنســية خاصة ، فى مستعمرات القارة ، رغم ادانته وتأثيمه من المجتمع • وكان ذلك تطورا يرجع تاريخه الى القرن الثامن عشر أكثر منه للقرن السابع عشر • ولقد نجح المؤرخون ، باصرار على اثبـات أن الأفارقة فى أمريكا الشمالية كانوا معزولين عن البيض عقب مجيئهم بقليل ، فى العقد الثانى من القرن السابع عشر • الا أنه حتى سنة ١٦٦٢ ، عندما أصدرت فرجينيا قانونا يفرض غرامة على الزنا بين شريكين من البيض والسود ضعف القيمة المعتادة ، لم تصدر أية دعوى صريحة أمام المحاكم تعبر عن النفور الاجتماعى من الاختلاط الجنسى • كما حرم الزواج المختلط فى فرجينيا ، سنة١٦٩١، وفى ماساشوستس سنة ١٧٠٥ ، وفى ميريلاند سنة ١٧١٥ ، وبعد ذلك ، فى ديلاوير ، وبنسلفانيا ، وكارولينا الشمالية والجنوبية ، وجورجيا •

لم يكن التغير الرئيسى فى القرن الثـامن عشر ، ســواء بالزيادة الملحوظة أو النقصان الواضح فى الامتزاج الجنسى ، يعكس تغيرات فى

الدوافع الخاصة بالأفراد ، بل تعكس تبدلا فى المواقف العامة نحوه . فيكتب وينتروب جوردون أنه « بتغير القرن ، كان من الواضح ، فى كثير من مستعمرات القارة أن المستوطنين الانجليز قد شعروا باشمئزاز ، وتحول مفاجيء ازاء الاتصال الجنسى أو التزاوج بين الأجناس ، من حيث المبدأ ، على الأقل » (١٣) . وتندد الهيئة الكبرى للمحلفين فى تشارلستون بكارولينا الجنوبية ، مثلا ، « بالعادة التى شاعت جدا بالمعاشرة الجنسية للزنوج ، وغيرهم من الخادمات الاماء فى هذه المقاطعة » ، سنة ١٧٤٣(١٤). ولك أن تجد تعليقات مماثلة فى كافة المستعمرات . ولكن مع الزيادة السريعة للسكان السود ، وبعد أن أصبح الرق نظاما اجتماعيا أساسيا فى مجتمع المستعمرات اكتشف رجال التشريع أنه ما داموا لا يستطيعون التحكم فى علم الأحياء – أو بيولوجيتهم – فيمكنهم على الأقل – الحفاظ على النسب النقى للنسل الشرعى للمجموعة السائدة ، بوضع قوانين تحظر الزواج المختلط .

فى مجتمع لمس فيه الرق نواحى الحياة ، للشريحة العظمى من السكان ، أصبح من الضرورى احتواء السود منهم فى شبكة محكمة من السيطرة ، والاصرار ، المرة تلو المرة ، على سيادة البيض وهيمنتهم . وكانت من وسائل ذلك ، التأكيد على حالة العبد غير المتمدنة أو « الهمجية » والتى تبرر استعباده من ناحية ، وتجعل الاتصال الجنسى معه محظورا من قبل الحكومة ، من ناحية أخرى ، وفى عدة تصريحات عامة متنوعة ، وفى مجموعات القوانين المتعلقة بذلك ، كان النسل الناتج عن اتصال جنسى بين أبيض وسوداء أو العكس يوصف بأنه « زائف » أو « هجين » . وكون المولد « المولاتو » لم يعتبر فى مرتبة أعلى من الأسود الخالص السواد ، وينظر اليه القانون باعتباره أسود تماما لم يكن يتعارض ذلك بشدة فقط ، مع وضع المولاتو فى كافة أنحاء العالم الجديد تقريبا ، بل كان يوحى بعمق أيضا ، بالحالة الذهنية التى سيطرت على فكر الأمريكيين ، فى القرن الثامن عشر . فرغم عدم حاجة الرجال البيض الى النساء السوداوات من الوجهة الاحصائية ، الا أن العلاقات الجنسية كانت مستمرة بلا انقطاع . ولا يمكن التشريع بخصوص الرغبة الجنسية ، بعيدا عن نفسية البيض ، واذا لم تتوافق القوانين والرأى العام مع المطالب الخاصة الملحة ، فلا ضرر يذكر على كل حال ، طالما كانت هيمنة البيض محفوظة ، بعدم الاعتراف بشرعية الأطفال ، وهم ميراث العلاقات الجنسية المختلطة .

بانقضاء القرن الثامن عشر وثيدا ، تحولت المواقف بحدة تجاه جنس الهنود ، والأمريكيين الأفارقة . وارتبط هذا التحول الشديد بالاختلافات الحادة فى طبيعة ودرجة الاحتكاك الجنسى الذى ميز علاقات البيض والحمر ،

وعلاقات البيض والسود · ولا يمكن فصل المواقف تجاه الرجل الأسود عن الحقيقة القائلة بأن العلاقات الجنسية ، خاصة بين الرجل الأبيض والمرأة السوداء كانت مستمرة ، وبطريق الاكراه فى العادة ، طوال القرن الثامن عشر · وكان لابد للرجل الأبيض أن يحظر الزواج المختلط كوسيلة لاقرار الحقيقة النهائية بأن الزنجي ، حتى وهو حر ، ليس ندا للرجل الأبيض · ولكن الأبيض كان يمارس سلطته باستغلال النساء السوداوات جنسيا بعيدا عن الزواج — وهو تصرف يتلاءم مع مفهوم سيادة الرجل الأبيض · ولكن الأبيض كان يمارس سلطته باستغلال النساء السوداوات الأحرار ، مع النساء السوداوات الاماء فهو وسيلة ، اذن ، لاعلان حق القوى وقوة المجتمع الأبيض ، بشكل صريح ، مؤلم ·

لم يكن الاتصال بالمرأة الهندية بهذه الصورة أبدا ، ومصداق ذلك أن تجار الفراء اذا تيسر لهم الحصول على امرأة هندية ، لا يكون ذلك من موقف الأمة ذات الحظ العاثر ، التى لا حول لها ولا قوة ، تقريبا لمقاومة عروض سيد يمكنه الحكم عليها بالحياة أو الموت ، أما وقد اختارت الاستسلام للرجل الأبيض ـ اذا حدث ذلك ـ فعلى شروط مقبولة من الطرفين فى العادة · فضلا عن أنه كان من الشائع المعروف أن الهنود لم يكونوا يتحرشون بالأسيرات الا نادرا · بهذه الفروق ، يمكننا أن نفسر الخوف الذى كان يشغل بال أمريكا البيضاء لمدة ثلاثمائة سنة ـ الخوف من الرجل الأسود ، المتحرق شوقا الى المرأة البيضاء · ان المشهد الثابت فى الاتجاهات والكتابات المعاصرة عن هذا « المغتصب الأسود » يلقى نظرة سريعة على أسباب ودوافع ثورات العبيد التى حدثت فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر · فيبدو أن هذا الخوف من الرجال السود الذين نراهم يهبون ليس طلبا لحريتهم ، ولكن جريا وراء النساء البيضاوات ، ينبع من مشاعر الذنب، الناشئة عن اغتصاب النسوة السوداوات ، والخوف المرتبط ذهنيا من طالب الثأر الأسود ، والذى نفرض أنه ممتلىء غضبا ، ويحوم للانتقام ، ردا على أولئك الذين استعبدوه أولا ، ثم سلبوه نساءه بعد ذلك · ويندر ان نجد هذا التعبير عن الخوف الجنسى فيما كتب عن الهنود · ولما كانت الاتصالات الجنسية الطارئة ، والتى لا يشوبها اكراه مع الهنديات لا يمكن أن تثير اتهاما كبيرا ، كان من النادر ان يتصور الرجل الأبيض ، أن من يلقاهم من الرجال الهنود المعادين له هم طلاب ثار جنسى · وفى القرن الثامن عشر لم يحدث تشويه للرجل الهندى ، مطلقا ، بتصويره كمغتصب مسعور ، يتربص فى الأدغال ، أو يتصيد النساء البيض · وكان يوصف الهندى فى الواقع ، أحيانا ، بأنه مخلوق ليس له فى الجنس ، بدرجة واضحة ، وقد خلق ذلك ، بدوره ، صورة مشوشة للعداء فى ذهن الأبيض ، وفى النهاية ، « الهمجى » الخامد جنسيا ، الذى لا شك فى

عدائه • ولكن كانت النظرة للعدو الهندى عامة على أنه رجل يمسك بسكين فى يده ، ومصمم على جز فروة الرأس مع شعر الرجل الأبيض ، المعتدى على حقوقه وممتلكاته • أما الرجل الأسود ، فكان التصور أنه يركز فى طلبه للثأر على جانب تشريحى آخر فى الجسم (غير الرأس وفروة الشعر) •

والحقيقة الأشد اثارة ، حول الامتزاج الجنسى فى أمريكا ما قبل الثورة هى أنه لم ينتج عنه تثاقف أو استيعاب وامتصاص على نطاق واسع، على الأقل بالمقارنة بمجتمعات أخرى فى العالم الجديد • ففى المستعمرات الأسبانية والبرتغالية ، كان يقبض على النساء الهنديات كجزء من استعباد السكان الأصليين ، عامة ، وبالتالى عاش الرجال الأسبان محاطين بهن • ومن خلال التسرى بالمحظيات والزواج المختلط اندمجت هؤلاء النسوة فى الحياة الأسبانية والبرتغالية ، وكان الآباء الأسبان يعترفون بالنسل الهجين — المستيزو — الناجم عن هذه الزيجات • وكان أن لعب المستيزو ، فى الواقع ، دورا كبيرا فى المراحل المتأخرة من الفتح والاستعمار الأسبانى • وبالرغم من أن الرجال الأسبان والبرتغاليين كان لابد أن ينبذوا نساءهم الهنديات عندما تيسر الحصول على الأيبيريات ، حيث تقول دراسة حديثة ان الرجل منهم « فضل الزواج من بغى بيضاء بدلا من امرة من الأهالى الوطنيات » • ولكننا لا نشك كثيرا فى أن نطاق الاختلاط الجنسى كان أوسع بكثير منه فى أمريكا الشمالية ، وأنه أدى الى استيعاب جزء ضخم من السكان الهنود •

وتتشابه حالة الأفارقة فى ذلك ، الى حد ما • فقد وصل العبيد فى وقت مبكر فى عملية الاستعمار الأسبانى والبرتغالى ، عنها فى أمريكا الشمالية الانجليزية ، وجاءوا بأعداد كبيرة تناسب أسيادهم الأوروبيين ، وقد أدت خدماتهم كحرفيين مهرة ومشرفين على العبيد الهنود الى اعطاء الكثير منهم منزلة أعلى من زملائهم العاملين معهم • وبانتهاء فترة الفتوحات، ابتدع المستعمرون الأيبيريون الصورة العنصرية الخاصة بهم بتصنيف الأفراد حسب لون البشرة — أى «النظام الصبغى» ، كما كان يسمى من قبل (١٥) • ولكن نظرا لأن كل فئات الطوائف ، كانت تعتبر فى التسلسل الجنسى جزءا طبيعيا من المجتمع المتعدد الأجناس ، لذلك لم يترسخ تحريم الاتصال والتزاوج بين الأجناس • ولما كانت درجة التخالط هذه بين المجموعات الحضارية الثلاث قد أصبحت أكثر دقة وتفصيلا ، صار الانتقال من مجموعة لأخرى سهلا نسبيا بحيث ضعفت فى النهاية ، طريقة التمييز بين المستيزو، والكاستيزو (الأصيل) Castizo والمولاتو ، والموريسكو (المسلم الأندلسى بين النصارى) ، والألبينو albino (الأمهق ذو البشرة البيضاء والشعر الأبيض) ، والتورنا torna ، والأتراس atras ، واللوبو lobo ، والثامبايجو zambaigo المولد من الزنوج والهنود الحمر) ، والكامبوخو

cambujo ، والألباراثادو albarazado ، والباركونو barcone والتشاميزو chamiso ، وهلم جرا ٠

وعلى كل حال ، رفض الانجليز الاستيعاب والامتصاص، فى مستعمرات أمريكا الشمالية حيث كانت لهم اعتراضات قوية ، ليس على العلاقات الجنسية مع ذوات البشرة السوداء ، بل على منح السود وضعا قانونيا ، بقبول مثل هذا الاختلاط الشرعى أو بافساح المجال لنسلهم بين المجتمع الأبيض ٠ وبالرغم من أن لون البشرة أخذ أهمية عبر أجيال من الارتباط بالرق ، لم يخش المستعمرون كثيرا من الاتصال العلنى ، الصريح بالنساء السوداوات ٠ ولكن الارتفاع بالمكانة الاجتماعية لهؤلاء الذين كانوا يرزحون فى قاع المجتمع ، وفى درجة من الدونية يصعب سبر أغوارها ، كان أمرا مثيرا للاهتمام ٠

وكان الحل، هو ضمان عدم احتلال المولاتو لمنزلة وسط بين الأبيض والأسود ٠ فأية سلالة سوداء كانت تضع الشخص ضمن السود ، وكان معنى سوادك أن تظل عبدا دائما ٠ وما قاله كارل ديجلر فى مجتمع أمريكا اللاتينية من أن « المولاتو قد أفلتوا من التضييق عليهم » لم يكن له وجود فى أمريكا الشمالية الانجليزية ٠ ذلك أن قلة الحاجة نسبيا الى استدعاء الزنوج أو المولاتو ، وعدم أهمية الاعتراف بشرعية الأبناء (المخلطين) ، وتأسيس أسرة بيضاء مؤصلة الجذور ، الى أبعد حد ، ونمو نموذج الانسان الأسرى ، ووفرة المدد من النساء البيض ، كل ذلك أعطى مبررات خاصة لاستبعاد الدليل القوى على وجود المعاشرة الجنسية التى هددت نقاء حضارة الرجل الأبيض ٠

كانت المستعمرات الأمريكية ، اذن ، بحاجة الى عامل المزرعة ، وكان الاضطرار الى الطرف الآخر ، الذى يستطيع المرء معه أن ينفذ كل نزواته الجنسية ، من وقت لآخر ، ما داموا يعتبرون النساء السوداوات داعرات بطبيعتهن ٠ ومن تحريم الزواج المختلط ، مع التغاضى عن العلاقة الجنسية بينهما ، وتحديد كل النسل المختلط بأنهم سود ، وجد المجتمع الأبيض الاجابة المثالية على احتياجاته للقوى العاملة ، ورغباته الجنسية غير المقبولة، والخارجة عن الروتين ، واضطراره للحفاظ على حضارته العتيقة النقية ، ومشكلة الابقاء على سيادته المطلقة على المجتمع ، ولو نظريا على الأقل ٠

هذه المنظومة من الآراء فى السياسة الجنسية ، لم تكن مرتبطة كثيرا بالتعصب القومى للرجل الانجليزى بخصوص الظروف التاريخية للاستيطان الانجليزى فى أمريكا الشمالية ٠ ويتضح ذلك أكثر ، بالنظر بعناية الى وضع المولاتو فى جامايكا الانجليزية من الوجهة الشرعية ٠ ففى منتصف

القرن الثامن عشر ، كان أكثر من ٩٠٪ من سكان جامايكا من السود ، وفاق عدد الرجال البيض عدد نسائهم بكثير ، وقد اقتضى ذلك الاختلال في الملامح السكانية نظاما يسهل معه الحصول على النسوة السوداوات دون تردد من الرجل الأبيض ، ويرتفع فيه النسل المولاتو الى مراكز مهمة في مجتمع الجزيرة • وهذا هو ما حدث بالضبط • فاتسع نطاق التمازج الجنسي • وفي سنة ١٧٣٣ ، كانت ممارسة منح المزايا والممتلكات للمولاتو قد دخلت في نص القانون • ويقول ديجلر ان مثال جامايكا « برهان قوى على أنه كان يمكن أن تتغير المواقف الحضارية للرجل الانجليزى ، والمختلفة تماما ، تحت ظروف معينة ، في اتجاه يشبه الى حد كبير النزعة التي اتخذها البرتغالى في البرازيل » (١٦) •

الاحتكاك الأفريقي ـ الهندى :

ان تقارب الحضارتين الأفريقية والهندية هو أقل الفصول دراسة وفهما في تاريخ العلاقة بين الأجناس في أمريكا القديمة • ولا جدوى ، بطبيعة الحال ، أن نبحث عن هذا النوع من التثاقف ، في أماكن لم يلتق فيها الهنود بالأفارقة بأعداد جوهرية ، وبالتالى لم يتيسر سوى القليل من التهجين المتبادل • في نيوانجلند ، حيث أبيدت القبائل الساحلية قبل أن تصل الأعداد القليلة جدا من الأفارقة ، على فترات متباعدة • وتجدر ملاحظة وضوح اختلاط الهنود الحمر بأعداد قليلة من الزنوج ذوى النفوس الخليعة في أماكن قليلة ، مثل كيب كود ، حيث كان الهنود يعيشون في أواخر القرن الثامن عشر • وهذا ما حدث أيضا في عدد من مدن نيوانجلند ، خاصة على امتداد الساحل ، حيث تم تصدير العبيد الهنود من كارولينا الجنوبية بأعداد ضخمة في أوائل القرن الثامن عشر • وقد بين تعداد للسكان في سوث كنجستون South Kingston في رود أيلاند سنة ١٧٣٠ ، ٣٣٣ عبدا زنجيا ، ٢٢٣ عبدا هنديا ، ولم تكن الدماء الناتجة عن الاختلاط الجنسي بينهم تثير الغرابة أو الانتباه • وينص تقرير في ماساشوستس سنة ١٧٩٥ على أن السود بصفة عامة ••• غادروا وطنهم ، والتجأوا الى المدن الساحلية ، واندمج بعضهم ، واختلطت ذريتهم بالهنود في كيب كود ، ومارثا فينيارد (١٧) • وفي نيويورك ، التي ضمت أكبر كمية من السكان العبيد ، شمال تشيزابيك ، يبدو أن الاختلاط الجنسي بين العبيد والهنود ، رغم استحالة تقديره ، كان أكثر من المعتاد بكثير • وقد ارتبط العبيد من الزنوج والهنود برباط الدم سنة ١٧١٢ عندما تعاونوا في عصيان مسلح في نيويورك سيتي • ومنذ ذلك الحين ، عرف موظفو الأقاليم أن أفضل الأماكن للبحث عن العبيد الفارين كان وسط القبائل المحلية الصغيرة التي بقيت في لونج أيلاند ووادى نهر هدسن • وعلى كل حال ، تركز العبيد السود في مدن

الشمال ، وهذه هي بالضبط ، الأماكن التى كان يمكن أن يوجد فيها الهنود من آن لآخر ، فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ٠

وفي مستعمرات تشيزابيك ، قللت الظروف القاهرة أيضا ، من امكانية اندماج الأفارقة والهنود ٠ وكان يؤتى بالعبيد فى أعداد قليلة فقط عندما تكثر نسبة الهنود فى منطقة ميريلاند الساحلية ٠ ففى سنة ١٦٧٠ ، سكن أقل من ألفى عبد منطقة تشيزابيك ، وبانتهاء ثورة بيكون سنة ١٦٧٦، كان السكان الهنود بأعداد ضئيلة فى مناطق استيطان البيض ٠ ومع ذلك، يوجد اليوم فى مجتمعات ثلاثية العرق منعزلة فى ديلاوير ، وميريلاند ، وفرجينيا ، وكارولينا الشمالية ، عدد كبير من العبيد الهاربين الذين وجدوا الملاذ وسط العديد من القبائل الساحلية ، والتى اختلطت سلالتهم بالبيض أيضا ٠

لم يجد الهنود والأفارقة أنفسهم يواجهون الأوروبيين معا بأعداد كبيرة الا فى كارولينا الجنوبية وجورجيا فقط ٠ فهمنا كانت المنطقة الوحيدة فى أمريكا الانجليزية التى انطبق فيها الوضع الذى ساد معظم مناطق الاستعمار الأسباني والبرتغالى ٠ ولم يدرس المؤرخون عملية التثاقف الأفريقى / الهندى فى أى جزء منها ، وأغلب من بحثوا فيها قد سلموا بتقارير خبراء القرن الثامن عشر المهتمين بهذه القضية،الذين ادعوا « بوجود كراهية طبيعية بين الهنود والزنوج ، قد منعت الاثنين من الاتحاد والتآمر لتدمير المستعمرة » أو أعلنوا بصراحة شديدة قولهم : « اننا نقرأ فى أى موضع عن حدوث مصاهرة أو جماع أو حتى تعاطف وانسجام بين السلالتين»(١٨) ٠

وسيكشف المزيد من البحث الدقيق أنه هذه المزاعم كانت محاولات لاخفاء الخوف المزعج من أن الهنود والعبيد لابد أنهم سيوحدون قواهم لطرد المستغلين البيض والقائم فى البحر ٠ وهى مخاوف لها ما يبررها ، نظرا لأن الهنود فى الجنوب الشرقى ظلوا خلال فترة ما قبل الثورة بأعداد وفيرة فى مناطق الاستيطان الأبيض ، واتحدوا مع العبيد السود بما يفوق عدد السكان البيض بدرجة كبيرة ٠ مثال ذلك ، أن البيض فى كارولينا الجنوبية قد فاقهم عدد العبيد من السود والهنود ، ومن الهنود المحيطين بهم بنسبة ٣ : ١ ، ٤ : ١ طوال الفترة الأولى للاستعمار ، بل انه حتى منتصف القرن الثامن عشر نجد نحو ٢٥ ألف أبيض فقط فى المستعمرة مع نحو ٤٠ ألف عبد أسود وربما ٦٠ ألف هندى تجمعوا فى قبائل الكريك ، والشيروكى ، والشوكتاو ، والتشيكاساو ، وقبائل ثانوية أخرى ٠ وبعد عشرين سنة ، قبيل الثورة مباشرة زاد السكان البيض الى نحو خمسين ألفا ، لكن السكان من العبيد قد زادوا بنسبة أسرع ، الى حوالى ٧٥ ألفا ٠

وعاش الكارولينيون الجنوبيون محاطين بأولئك الذين لو استطاعوا أن يجدوا وسائل متفقا عليها لقهروهم في أية لحظة . وان الانتفاضات الهندية التي ميزت الفترة الاستعمارية ، وتتابع ثورات العبيد ومؤامرات العصيان المسلح التي قضى عليها في مهدها ، قد جعلت الكارولينيين الجنوبيين . واعين بصورة مرضية الى أنهم لا يمكنهم أن يأملوا في الحفاظ على سيطرتهم على الوضع الا بأعلى درجات الحذر ، واتباع سياسة « فرق تسد » .

اذا اعتبرو الكارولينيين البيض قادرين على الاحتفاظ بقبضة خطيرة على الموقف ، فتلك شهادة على قدرتهم على اثارة قبيلة ضد أخرى ، وعلى نجاحهم الجزئي في الابقاء على العبيد من الهنود والزنوج منقسمين بعضهم على بعض . وكانت سياسة الكارولينيين ، كما قرر أحدهم « أن نحافظ على استخدام الهنود والزنوج أحدهما ضد الآخر ، خشية أن يسحقنا أحدهما ، بما لهم من تفوق عددي ضخم علينا » (١٩) . وقد جربت طرق مختلفة لتحقيق ذلك . فصدرت القوانين التي تحظر على الأمريكيين من أصل أفريقي سواء أكانوا عبيدا أم أحرارا أن ينتقل الواحد منهم في بلاد الهنود بوصفه تاجرا أو مساعد تاجر . وكان يطلب من القبائل الهندية باصرار أن تعيد العبيد اللاجئين اليها ، ووقعت معاهدات مع الكريك ، والشيروكي ، وقبائل أخرى ، تتضمن دائما فقرة تشترط ضرورة اعادة العبيد الهاربين ، الى حكومة كارولينا . وقدمت الحكومة هبات وجوائز للهنود مقابل العبيد الذين يقبضون عليهم ويعيدونهم . واستخدم خفر الحدود ودورياتها لمنع العبيد من الوصول الى أراضي الهنود . وكان الشك في السود يقوى بين الهنود كوسيلة للابقاء على تبادل المساعدة بينهم في أدنى درجاتها ، حيث يقول الحاكم ليتيلتون سنة ١٧٣٨ : « كانت سياسة هذه الحكومة دائما ، خلق بغض شديد [للهنود] للزنوج » (٢٠) .

لقد كان الهدف مزدوجا من دمج العبيد السود في ميليشيا كارولينا الجنوبية أثناء الحروب الهندية . فبدونهم ، كان يصعب على الكارولينيين شق طريقهم لهزيمة أعدائهم من التوسكارورا ، والياماسي ، والشيروكي ، كما ساعد استخدام الجنود السود على تذكير الهنود بأن الأفارقة ليسوا أصدقاء لهم . فقد كان نصف جيش كارولينا من السود بقيادة الحاكم كرافن ضد الياماسي سنة ١٧١٥ . كما سارت سرية أخرى من السود مع القائد بايت Pight في نفس الحملة . ولما أثبتت هذه القوات عدم قدرتها على هزيمة الياماسي ، طلب مجلس النواب « جيشا دائما » من ١٢٠٠ رجل منهم ٤٠٠ من الزنوج أو غيرهم من العبيد » (٢١) . وذلك تنفيذا ، فحسب ، للسياسة التي بدأت سنة ١٧٠٨ لتكوين ميليشيا من السود والبيض بأعداد متساوية . ونجد ثلاثة وسبعين عبدا ضمن الحملة ضد سانت أوجستين سنة ١٧٤٠ ،

وبحلول ١٧٤٧ تغير القانون بحيث لا يسمح بأكثر من ثلث القوة من الجنود السود ، وتلك دلالة على الخوف المتزايد من تمرد السود · الا أن عددا قليلا من الكارولينيين السود حارب ضد الهنود أعداء الحكومة البيضاء في حملاتها ضد الشيروكي سنة ١٧٦٠ · وقد دلت حرب الشيروكي على مدى حيرة الكارولينيين بين تمرد الحمر ، وعصيان السود · فقد كان كثير من السود مطلوبين لمحاربة العدو الهندي ، الا أن القلق والخوف من ثورة السود كان يعظم أيضا في فترة استيراد العبيد بكميات كبيرة · ولذلك فشلت الدعوة في مجلس النواب في كارولينا ، بصوت واحد ، لتجهيز ٥٠٠ عبد « للخدمة ضد الهمج المتوحشين » ·

هذا ، وكما كان العبيد يستخدمون في قمع الثورات الهندية ، كان الهنود يستخدمون بنفس الدرجة لاخماد ثورات السود · ففي ثورة ستونو سنة ١٧٣٩ ، وهي أعظم حركة عصيان للسود اثارة في كارولينا الجنوبية ، استدعى هنود « المستوطنة » لملاحقة العبيد الذين راوغوا رجال الميليشيا واتخذوا طريقهم نحو فلوريدا الأسبانية · وقد طالب مجلس نواب كارولينا الجنوبية بمنح كل هندى ملابس ، وأسلحة ، وذخيرة ، ووعد بخمسين جنيها لكل من يعيد عبدا حيا ، أو خمسة وعشرين جنيها لمن يعيده ميتا · وقد بلغ ما تم دفعه لخدمات الهنود في النهاية أكثر من ٢٠٠٠ جنيه · واستخدم الهنود لانجاز ما كانت تعجز الميلشيا البيضاء عن أدائه ، واتخذت محاولات أخرى لصد ثورات السود ، باعادة توطين القبائل الهندية في المناطق التي كان بها أعداد كبيرة من العبيد الذين ينشئون مزارع الأرز والنيلة التي أصبحت أساس اقتصاد كارولينا الجنوبية في القرن الثامن عشر · وقد نشأت هذه السياسة أصلا ، في بداية القرن الثامن عشر ، ونفذت بنشاط ، خاصة في الثلاثينات منه ، عندما أدى تكوين السكان العبيد الى ارتجاف كارولينا خوفا من ثورة السود · لقد طلب البيض من المحاربين الشيروكي سنة ١٧٣٧ « أن يأتوا الى المستوطنات ليمثلوا رعبا للزنوج » (٢٢) ، وبالرغم من عدم تسجيل ما اذا كانوا قد استجابوا أم لا ، فان الطلب يعكس سياسة البيض في تحريض الهنود ضد العبيد السود ·

وبالرغم من تلك الجهود النشطة ، المنيفة لاذكاء الكراهية بين الهنود والأفارقة كان عدد منهل من العبيد يأوون الى المجتمعات الهندية طوال الفترة الاستعمارية · ومن المستحيل قياس هذه الظاهرة بدقة احصائية ، ولكن الاصرار على تضمين المعاهدات الهندية فقرة تشترط ارجاع العبيد الفارين يظهر بوضوح أن المنح والجوائز الحكومية المقدمة للهنود نظير القبض على العبيد لم تكن في الغالب تلقى الاستجابة الكافية · فمثلا ، منحت قبيلة التوسكاروزا ، اللجوء لعدد كبير من العبيد في الفترة السابقة لاندلاع

الحرب سنة ١٧١١ • وعند اشتعالها حارب الأفارقة مع التوسكارورا ، وقيل ان واحدا منهم ، يدعى هارى Harry صمم قللعة التوسكارورا على روافد لنهر نيوسى Neuse • وبعد أربع سنوات ، وأثناء ثورة اليـاماسى ، كان العبيد اللاجئون ينشطون أيضا فى الاغارة على مستوطنات البيض • بل ان الياماسى، بعد أن تخلوا عن نضالهم ، رفضوا اعادة حلفائهم السود مما « شجع عددا كبيرا آخر [من العبيد] على الفرار الى هذه المكان » (٢٣) • على حد قول مسئول كارولينى •

كان وضع الياماسى على امتداد الساحل بين المستوطنات الانجليزية والمخافر الأسبانية الأمامية فى فلوريدا سـببا آخـر لهروب العبيـد فى هذا الاتجاه • وأصدر الأسبان فى أوائل سنة ١٦٩٩ مرسوما ملكيا يعد بحماية كل العبيد الانجليز اللاجئين ، وتكرر هذا العرض على فترات منتظمة خلال النصف الأول من القرن الثـامن عشر ، حتى انه بعد انتهاء حـرب الياماسى ، لم يشجع الهنـود عبيـد كارولينا الى الانضمام اليهم فقط ، بل وشاركوا أيضا فى غارات سرقة العبيد من المزارع المتطرفة • وفى سنة ١٧٣٨ هرب ٢٣ عبدا من بورت رويال الى سانت أوجستين ، وانضموا فى الحال الى مستوطنة من الزنوج الأحرار التى تكونت من ٣٨ عبدا أقاموا فيها فعلا مع عائلاتهم • أى أنها كانت ، بصورة ما ، هى المخفر الأمامى المكون من الخمسين الى المائة عبد الذين ثاروا فى ستونو Stono سنة ١٧٣٩ فى محاولة ضخمة لقتل البيض والهرب الى فلوريدا الأسبانية •وعندما شن أوجليثورب، حاكم جورجيـا هجومه على سانت أوجستين سنة ١٧٤٠ كجزء من الحرب الانجليزية / الأسبانية لاقى مقاومة شديدة مشتركة من الأسبان والهنود ، سنة ١٧٣٩ ، وهى أعظم حركة عصيان للسود اثارة فى كارولينا الجنوبية وعبيد كارولينا سابقا = الذين لم يجدوا صعوبة فى صد الحملة التى أنفق فيها الكارولينيون أكثر من ٧٠٠٠ جنيه • وبعد ذلك بسنتين ، رد الأسبان بهجوم على جورجيا ، وكانت ضمن القوات الغازية فرقة كان قادتها الزنوج « يزينون ملابسـهم العسـكرية بشرائـط ، ويحملون نفس رتب الضباط البيض ، ويمشون ويتنـاقشون بنفس الحرية وعدم الكلفة مع رئيسـهم وزملائهم » (٢٤) • ويكشف أحد مؤرخى القرن الثامن عشر من كارولينا الجنوبية عن مدى زعزعة قبضة سادة العبيد ، البيض على عبيدهم ، وذلك عندما ذهب حدسه الى أنه اذا كانت الحملة الأسبانية قد هاجمت كارولينا الجنوبية بدلا من جورجيـا لكان الانجليز قد ضاعوا تماما لأن كارولينا الجنوبية كان بها « مثل هذه الأعداد من الزنوج الذين كانوا سيحرزون قوة تجعل كل مقاومة لهم عقيمة وبلا فاعلية » (٢٥) •

لم يهرب العبيد فى الجنوب الى الياماسى وفلوريدا الأسبانية فقط ، ففى سنة ١٧٢٥ ذكر أحد ملاك العبيد البارزين فى كارولينا الجنوبية فى تقرير يثير القلق أن العبيد قد أصبحوا معروفين بسهولة فى بلاد الشيروكى المرتفعة ، وأصبحوا يجيدون اللغة الانجليزية بل ولغة الشيروكى أيضا بطلاقة • وكذلك آوى الكريك العبيد الهاربين الى مدنهم وفى نفس السنة التى أعلن فيها عن الحاجة الى عبد بارع فى لغة الشيروكى ، حضر وفد الى كويتا ، المدينة الرئيسية فى الكريك الأدنى ، ومعه عبد من كارولينا سابقا، كان يعمل مترجما بين الكريك والأسبان • ويعتبر وجود عبد سابق آخر يعمل مترجما نشطا بين الفرنسيين والكريك خلال هذه الفترة شهادة على القدرة اللغوية لدى بعض العبيد الفارين ، وقابليتهم للاستيعاب فى الحضارة الرائدة للأمم الأوروبية الأخرى ، تماما كما فى مجتمعات الكريك ، والشيروكى ، أو الياماسى • وينتهى أحد دارسى الاتصالات بين الحمر والسود فى الجنوب الشرقى الى أن العبيد الفارين « كان لهم تأثير ضخم ، فى رقعة مترامية الأطراف ، كوكلاء للفرنسيين والأسبان وسط القبائل الهندية الواقعة على حدود المستوطنات الانجليزية » (٢٦)•وكان التهديد كبيرا بفقد العبيد ، وتوجههم الى الكريك سنة ١٧٢٢ ، لدرجة جعلت حاكم كارولينا الجنوبية يصدر اعلانا يمنع الكريك من دخول مستوطنات البيض بالمستعمرة، طالما أن زياراتهم التى كان مفهومها الظاهرى هو التجارة كانت تشجع أعدادا كبيرة من العبيد على العودة فى اثرهم الى الداخل • وفى الستينات من القرن الثامن عشر ، كان الكارولينيون يضغطون مؤخرا على الكريك بشدة لارجاع العبيد الفارين ، وبالرغم من تسليم بعض السود من آن لآخر، بقى المئات منهم فى المنطقة الهندية ، يمزجون بين خصائصهم الحضارية وخصائص هؤلاء الكريك والشيروكى وغيرهم •

استطاع الكارولينيون البيض ، الحد من تدفق العبيد السود الى داخل البلاد باصدار أقسى قانون للعبيد فى المستعمرات ، وبدفع مبالغ طائلة ليساندهم الهنود فى الأوقات الحرجة ، وباعداد مجتمعهم عسكريا • ولم يحدث أن أصبحت بلاد الشيروكى الجبلية أبدا ملجأ للعبيد الفارين ، يضارع المخابىء الجبلية للعبيد الآبقين فى جامايكا ، أو « الكيلومبوس Quilombos » البرازيليين ، مثلما كان يخشى كثير من الكارولينيين • ومع ذلك ، لم يحدث أبدا أن نجحت سياسة بث الكراهية وتعزيزها بين المجموعتين • فعلى امتداد القرن الثامن عشر ، كان العبيد يهربون بأعداد ضخمة الى القرى الهندية ، ويرتبطون بها • وبين الفينة والفينة ، عندما كان يرتفع الثمن كثيرا أو تزداد الحاجة الى استرضاء الكارولينيين كان لابد من ارجاع بعض هؤلاء الفارين الى سادتهم البيض • ولكن ، يبدو أنهم فى أغلب الحالات قد اختفوا فى المجتمع الهندى ، واتخذوا لهم زوجات هنديات ،

وأنجبوا منهن أبناء مختلطى الدماء وساهموا فى التثاقف الأفريقى الهندى، بنفس طريقة أولئك العبيد الذين عاشوا مع الهنود المستوطنين فى المنطقة الساحلية · والى هذا الحد ، شارع التزاوج والاختلاط الأفريقى/الهندى فى المستعمرات الجنوبية حتى أضيف مصطلح « المستى Mustee » الى مفردات اللغة فى الجنوب لكى يصنف النسل الناشىء من أبوين أحدهما أفريقى والآخر هندى ·

وبالرغم من الدليل على الاحتكاك الضخم بين الهنود والأفارقة ، الا أنه من عدم الدقة التاريخية ، والتبسيط السياسى أن نفترض أن علاقاتهم يمكن تفسيرها بأنها انجذاب طبيعى بين الشعوب المقهورة ليتحدوا ضد مضطهديهم · اذ لم يعمل الكريك ، والشيروكى وغيرهم من القبائل الجنوبية بطريقة منظمة أبدا ، فى فترة المستعمرات على الاتحاد مع العبيد · ولابد أن مشاكل وسائل الاتصال والاختلافات الثقافية قد زادت من صعوبة ذلك، ولكن المهم جدا أن الجماعات الهندية ، خاصة بعد حرب الياماسى سنة ١٧١٥ كانت مصممة على استخدام مجتمع البيض لأهدافهم الخاصة أكثر من أن تزيلها نهائيا · وهكذا اختلف تصرفهم مع الأفارقة مع تقيدهم الثابت بمصلحتهم الشخصية · فكانوا يقبضون عليهم أحيانا كعبيد ، وأحيانا أخرى يعطونهم الملاذ ، ويقرونهم فى قراهم ، وفى بعض الأحيان ، عندما يشتد ضغط البيض عليهم كانوا يعيدون عددا منهم يكفى لارضاء مطالب البيض ، وفى أحيان أخرى يصطادونهم لمن يدفع الثمن · ولم يكن يرحب بعبيد المستعمرات الانجليزية دون النظر لأهليتهم الا عندما يكون للقبيلة الهندية ارتباط تجارى قوى خارج فلك الانجليز ، كما عند الأبلاش، فى فلوريدا الأسبانية ·

وتحليلنا النهائى ، أن اختلاط الشعوب فى أمريكا القرن الثامن عشر كان حصيلة مجموع المعدلات السكانية،والظروف التاريخية للاستيطان الانجليزى · ففى سنة ١٧٧٠ كان هناك نحو ٢ر٣ من المليون شخص يعيشون شرقى مرتفعات الللجنى ، منهم ٧ر١ من المليون من البيض ، ونصف المليون من السود ، وواحد من عشرة فقط من المليون أو أقل من الحمر · هذه الأكثرية للبيض تغاير تماما كل الأجزاء الأخرى تقريبا من العالم الجديد ، التى استوطن فيها الأوروبيون ، كما أن كل العوامل الجانبية الأخرى كفلت أدنى حد من الامتزاج الجنسى · أما حيث سكن الناس من مختلف الألوان ، على قرب شديد من بعضهم ، حدث الاختلاط الجنسى بمختلف أنواعه على نطاق واسع ، وملحوظ · أما كون العلاقات الجنسية لم تكن مشروعة اجتماعيا ، كما فى المستعمرات الأوروبية الأخرى ، فلم يكن يعكس ذلك اختلافا فى نماذج الاستيطان فقط ، بل يعكس أيضا الاهتمام

الخاص بالمحافظة على « مجتمع متمدين » فى أمريكا الشمالية الانجليزية ، يتخذ الأسرة محوره • وأيا كانت المواقف والاتجاهات السابقة بين البرتغاليين في البرازيل ، والفرنسيين في كندا ، والانجليز فى جزر الهند الغربية ، كان هؤلاء المستعمرون يمثلون أقلية من السكان فى بيئات عالمهم الجديد ، استطاعوا بصعوبة ، دون أن يتخلوا عن أهدافهم ، أن يختاروا المواقف الاجتماعية العنصرية الصارمة ، والقوانين التى شرعها الانجليز فى مستعمراتهم بأمريكا الشمالية ، حيث صمدوا كجزء غالب على مجموع السكان •

لا ريب أن أكثر ما يثير الدهشة هو درجة امتزاج خطوط الألوان التى حدثت فى مجتمع كانت المجموعة المهيمنة فيه تطالب بقوة باحتفاظ بدمائها نقية • ونرى البون شاسعاً بين القرارات الحكومية كما تعبر عنها قوانين تحريم الامتزاج الجنسى ، وبين الممارسة الاجتماعية الفعلية ، كما نراها فى القطاع الكبير من السكان ذوى الدماء المختلطة • ويمكن تفسير ذلك ، فقط ، برغبة البيض فى الابقاء على سيطرتهم الاجتماعية الصارمة ، بينما هم ينغمسون فى نفس الوقت فى الاشباع الجنسى ، الذى زاده وغذاه شركاء يختلفون عنهم فى لون البشرة بدلا من أن يكونوا مصدر تهديد لهم •

المراجـــع

1. William Byrd, « Histories of the Dividing Line Betwixt Virginia and North Carolina », ed. William K. Boyd (Raleigh : North Carolina Historical Commission, 1929), p. 3 ; Robert Beverley, « History and Present State of Virginia », ed. Louis B. Wirght, (Chapel Hill : University of North Carolina Press, 1960), pp. 38-39.
2. A Brock. ed., « The Official Letters of Alexander Spotwood Virgina Historical Society Collections », N.S., 2 : (Richmond : Virginia Historical Society, 1885), 227.
3. Lawson, « Voyage to Carolina », ed., Lefler, pp. 189-90.
4. Beverley, « History and Present State of Virginia », ed. Wright, p. 159.
5. James Hugo Johnston, « Race Relations in Virginia and Miscegenation in the South, 1776-1860 » (Amherst : University of Massachusetts Press, 1970), p. 169.
6. Quoted in Roy Harvey Pearce, « The 'Ruins of Mankind' : The Indian and the Puritan Mind », Journal of the History of Ideas, 13 » (1952) : 205.
7. J. Hector St. John Crevecoeur, « Letters from an American Farmer » (New York : E.P. Dutton & Co., Inc., 1957), pp. 208-09.
8. A. Irving Hallowell, « American Indians, White and Black : The Phenomenon of Transculturation », Current Anthropology, 4 (1963) : 527.
9. Ibid., p. 528.
10. Quoted in Johnston, « Race Relations in Virginia », p. 170.
11. Edward B. Reuter, « The Mulatto in the United States » (rpr. (New York : Negro Universities Press, 1969), pp. 112-14 ; Evarts B. Greene and Virginia D. Harrington, « American Population before the Federal Census of 1790 » (New York : Columbia Unisity Press, 1932), pp. 69-70.

12. Jordan, « White Over Black : American Attitude Towards the Negro, 1550-1812 » (Chapel Hill : University of North Carolina Press, 1968), p. 140.

13. Ibid., p. 139.

14. Quoted in Ibid., p. 140.

15. Magnus Mörner, « Race Mixture in the History of Latin America » (Boston : Little Brown and Company, 1967), pp. 54-60.

16. Carl N. Degler, « Neither Black Nor White : Slavery and Race Relations in Brazil and United States » (New York : The Macmillan Company, 1971), p. 240.

17. Quoted in Kenneth W. Porter, « Relations between Negroes and Indians within the Present Limits of the United States », Journal of Negro History, 17 (1932) : 311.

18. Quoted in Chapman J. Milling, « Red Carolinians » (Chapel Hill: University of North Carolina Press, 1940), p. 63.

19. Quoted in William S. Wills, Jr., « Divide and Rule : Red, White, and Black in the Southeast, » Journal of Negro History, 48 (1963): 165.

20. Ibid.

21. David D. Wallace, « South Carloina : A Short History, 1520-1948 (Chapel Hill : University of North Carolina Press, 1951), p. 88.

22. Willis, « Divide and Rule», p. 175.

23. Quoted in Milling, « Red Carolinians », p. 153.

24. Kenneth W. Porter, « Negroes on the Southern Frontier, 1670-1763 ») Journal of Negro History, 33 (1948) : 68.

25. Ibid.

26. Ibid., p. 77.

الفصل الثانى عشر

الحمر ، والبيض ، والسود ، عشية الثورة

نص اعلان جورج الثالث ، سنة ١٧٦٣ ، على أنه « من العدل والعقل ، والضرورة لمصالحنا ، ولأمن مستعمراتنا ، ألا تحدث للأمم أو القبائل الهندية العديدة التى نرتبط معها ، والتى تعيش تحت حمايتنا ، أية مضايقة أو ازعاج فى ملكيتهم لهذه الأجزاء من الأراضى والاقطاعات الواسعة الخاضعة لسيادتنا ، ونحتفظ بها لهم أو لأى منهم كأراض للصيد خاصة بهم ، ما داموا لم يتنازلوا عنها أو اشتريناها منهم » (١) . هكذا ، حاولت الحكومة الانجليزية ، فى ختام سبع سنوات من الحرب الدولية ، أن تنسق سياسة هندية للقارة فى أمريكا الشمالية ، حيث كان الأمر متروكا لكل مستعمرة ، طوال قرن ونصف لتصريف شئونها الهندية .

ونظرا للدغة التى أصابتهم من تحالف معظم قبائل أمريكا الشمالية مع الفرنسيين فى حرب السنين السبع ، حاولت الحكومة الانجليزية أن تنتهج سياسة جديدة تباعد بين الحمر والبيض ، وتبقى على هذا الانفصال بينهم . ولم يكن من الممكن اصدار أى اعلان آخر أوضح من ذلك عن فشل الاستيعاب الذى تكلم عنه الكثيرون فى الماضى ، والقليلون هم الذى عملوا ما يعززه ويرعاه .

علاقات الحمر والبيض بعد ١٧٦٣ :

كان يجب ، حسب نصوص اعلان ١٧٦٣ ، رسم خط يتبع بالتقريب قمم جبال أبلاش ، ابتداء من ماين حتى جورجيا . فكان حكام المستعمرات المختلفة مكلفين أن يمنعوا « فى الوقت الحاضر ، والى حين اشعار آخر بمشيئتنا » أى أعمال للمساحة أو منح أراض وراء خط تقسيم مياه الأبلاش . « فكل الأراضى والأقاليم الواقعة غرب منابع الأنهار التى تصب فى البحر من الغرب والشمال الغربى » محفوظة للشعوب الهندية بوجه خاص . وعلى جميع المستوطنين البيض الموجودين حاليا وراء خط تقسيم الأبلاش ، الانسحاب شرق هذا الخط .

ويعتبر اعلان ١٧٦٣ واحدا من أهم الوثائق المؤثرة فى التاريخ الأمريكى وقد أكد المؤرخون المغرمون « بنظرية الحدود » لفردريك جاكسون تيرنر Frederick Jackson Turner أن هذه المحاولة لكبح قوة الأمريكيين الناظرين الى الغرب دوما ، قد أبعدت المستعمرين ، وأعطتهم قوة دافعة أساسية للتخلص من نير الوطن الأم المقيد لحركتهم • ويوافق المؤرخون الأقل فى مثاليتهم على أن الاعلان كان حافز عظيما أدى الى الثورة، ولكنهم أشاروا الى أن أكبر من أثارهم البيان هم سماسرة الأراضى على الساحل الشرقى ، الذين استشاطوا غضبا لرؤية أعظم مصدر للربح فى أمريكا الشمالية يفلت من قبضتهم فى ذات اللحظة التى أزيل فيها « الخطر » الفرنسى من القارة • ولكن ، قلما لوحظ قبل أن يرسم البيروقراطيون الاستعماريون فى لندن حدود سنة ١٧٦٣ بعدة سنوات ، أن كانت قبائل الداخل الهندية ، ابتداء من السينيكا ، والأوتاوا ، والالينوى ، والميامى ، والسيوكس فى الشمال ، الى الشيروكى ، والكريك ، والشوكتاو فى الجنوب ، يحاولون هم أنفسهم تثبيت الخط الاقليمى الذى يحد من توسع البيض • وكانت تلهمهم فى هذه المحاولات ثقتهم المؤكدة ، بأنه على العكس من لغة اعلان ١٧٦٣ ، لا يعيشون تحت «الحماية» الانجليزية ولكنهم يستطيعون ، فى الواقع ، حماية مصالحهم ، ويؤمنون بقاعهم بالتخلص من « الحماية » الانجليزية ، والنضال للحفاظ على أرضهم وصيانتها •

وبالرغم من أنه لم تكن لدى القبائل الهندية طريقة لحساب الزيادة السكانية فى المستعمرات الثلاث عشرة ، كانوا على وعى تام بأن المستوطنين يتحولون بأعداد كبيرة ، غير مسبوقة فى أراضيهم القبلية الخاصة بالصيد ، فى أعقاب الجيوش الأنجلو ــ أمريكية التى كانت تطرد الفرنسيين من وادى أوهايو ، ابتداء من سنة ١٧٥٩ • ان الزيادة السكانية ، فيما بين سنتى ١٧٥٠ ، ١٧٦٥ ، كانت فى الواقع ، تضارع الزيادة التى حدثت أثناء جملة النصف الأول من القرن الثامن عشر ، وتركز أكثر من نصفها فى مستعمرات نيويورك ، وبنسلفانيا ، وفرجينيا • حيث بدأ السماسرة الجوعى الى الأرض ، المهاجرون يتدفقون عبر الأجزاء الغربية من هذه المستعمرات ، بمجرد طرد الفرنسيين منها • وسواء قبل أو بعد تعيين خط الاعلان سنة ١٧٦٣ ، كان المعتدون على الأرض مشغولين بتدعيم ادعاءاتهم ملكية الأراضى التى لم يكن للانجليز حق فيها ، بنص معاهداتهم الخاصة مع القبائل الهندية • فأراضى الكريك ، مثلا ، كانت مضمونة بمعاهدة وقعت سنة١٧٣٣، كما تعينت حدود مستوطنة للبيض فى اقليم الشيروكى بانتهاء حربهم سنة ١٧٦١ بمعاهدة مع حكومة فرجينيا • الا أن هاتين المعاهدتين لم يكن لأى منهما تأثير على سماسرة الأراضى أو المستوطنين

البيض الذين احتشدوا بأعداد غفيرة فى الاقليم الهندى ، مطمئنين الى معرفتهم أن حكوماتهم المحلية ليست لديها الرغبة ، ولا القوة لعمل شىء يذكر حيالهم ٠

كان رد الفعل الهندى ، هو مقابلة القوة بالقوة ، ولو بدون المساعدة الفرنسية ٠ فتميزت الحدود الجنوبية كافة بمصادمات دموية فى بداية الستينات بالقرن الثامن عشر ، حيث تحارب الهنود والمستوطنون ، فوق الأراضى الهندية التى كانت الحكومة المحلية قد ضمنتها للقبائل ٠ وقد جرت محاولات لتكوين حلف دفاعى آخر شامل لكل الهنود ، حتى مع المخاطرة أن يقطع الانجليز امدادهم من السلع التجارية ، بينما بذل الانجليز كل جهدهم فى سلسلة من المؤتمرات للحصول على تنازلات عن الأرض بتملق الكريك والشيروكى ، وبث العداوة بين القبائل الكبرى ٠ وكان واضحا من تصميم القبائل الجنوبية على مقاومة الانتهاكات الانجليزية أن هزيمة الشيروكى ، سنة ١٧٦١ لم تخمد الحماسة الحربية للهنود الجنوبيين » (٢) ٠ وحتى مع زوال الفرنسيين من القارة ، ظلت القوة تتذبذب ، تقريبا ٠ وهنا ما كان يرمز اليه بقوة رفض الكريك سنة١٧٦٣ تسليم رجال من قبيلتهم لقتلهم أربعة عشر من مغتصبى الأراضى البيض ٠ وقرار الانجليز الذين حاولوا عبثا الحصول على تأييد من الشيروكى والشوكتاو لمحاربة الكريك حتى لا يفلت القتلة من الانتقام ٠ وعجز الكريك من الناحية الأخرى ، عن عقد حلف هندى جنوبى سنة ١٧٦٣ عندما كان على هذه الحركة الهندية الموحدة أن ترتبط بثورة هندية كبرى فى الشمال الغربى لاعطاء الشعوب الوطنية أحسن المزايا فى القرن الثامن عشر ٠

ان لم يكن رد الفعل الهندى لانتصار الانجليز على فرنسا نوعا من خضوع الجبناء فى الجنوب ، فهو فى الشمال أكثر عداء ٠ ففى يونية سنة ١٧٦١ ، لبس السينيكه أكثر المؤيدين للفرنسيين دائما بالنسبة للشعوب الهندية الستة حزاما أحمر من الصدف (دلالة على عزمهم على الذهاب للحرب) الى ديترويت حيث كان يعسكر الجيش البريطانى وسط مختلف القبائل التى حاربت من قبل مع الفرنسيين وهم : الديلاوير ، والشاونى ، والأوتاوا ، والهورون ، والتشيبيوا Chippewas والبوتاواتومى Potawatomies ٠ وكانت بعثة السينيكا تمثل محاولة لأخذ المبادرة فى مقاومة السياسة الانجليزية الجديدة نحو الهنود ، التى قلصت التجارة ، وفرضت على الهنود احضار فرائهم الى الحصون البريطانية ، وأنهت نظام « الهدية » السنوية ، وحظرت تجارة الروم ، وأنشأت ، بصفة عامة ، اتفاقات تجارية أقل ارضاء للهنود عن تلك التى كانت قائمة قبل الحرب٠

وكان لدى السينيكا دافع اضافى لسلوكهم طريق الحرب • فقد رأى الجنرال أمهرست Amherst القائد العام للقوات الأنجلو أمريكية خلال حرب السنوات السبع أن يكافىء بعض ضباطه بأراضى السينيكا القريبة من نياجارا ، فى انتهاك منه لمعاهدة موقعة بين الايروكوا وحكومة نيويورك، ولم تنظر المدن الهندية باستخفاف الى هذا الكرم الذى جاء على حساب السينيكا •

وكان ما اقترحه السينيكا على القبائل الشمالية هو التنسيق لهجوم على كافة المراكز الأمامية الانجليزية ، الممتدة على طول البحيرات العظمى حتى بتسبرج جنوبا • فلابد من طرد الانجليز من وادى أوهايو ، وبلاد الايروكوا ، وعبر المرتفعات الى السهل الساحلى • وليس من المؤكد أن هذه « السياسة الوطنية » — القائمة على حماية مصالح الأهالى الأصليين قبل مصالح المهاجرين — كانت تتضمن حلا للكف عن التجارة الانجليزية تماما ، بالرغم من احتماله ، أنه بعد سنوات كثيرة من المشاكل التجارية لم يراعوا أو يحترموا أية تجارة مطلقا سوى التجارة التى تتقيد بأسعار زهيدة • هذا وبالرغم من رفض القبائل الغربية لخطة السينيكا بعد مناقشة طويلة كانوا أبعد عن الرضا بما سمعوه من سير وليام جونسون، المشرف الهندى الشمالى ، حينما وصل الى ديترويت بعد ثلاثة شهور ، حيث أعلن أنه جاء ليزيد « رابطة الصداقة » اشراقا وبهجة ، وتكلم بحرارة عن اهتمام الملك بصالح « جميع رعاياه » ، ولكنه لم يعد بشىء بشأن غلو السعر للسلع التجارية ، وعدم توفر الحصول على شراب الروم ، وتوقف الهدايا السنوية ، أو عدم كفاية التموين بالذخيرة التى كانت مخصصة للقبائل ، فقد قال عن ذلك كله انها أمور تخص السياسة الرسمية ، فوق سلطته •

رغم أن جونسون كتب تقريره متفائلا الى الجنرال أمهرست فى ختام المؤتمر ، مؤكدا أنه غادر ديترويت والأمور « موطدة هناك ، على أساس ثابت جدا ، لدرجة أنهم لن يخرقوا السلم أبدا ما لم يستثاروا بشدة » ، الا أن واقع الأمر الشنيع هو أن الهنود ، على الرغم من اظهارهم الصداقة والتفاهم كانوا مصدر تنغيص خطير (٣) • وقد أدرك الموقف بدقة جورج كروجان G. Croghan أكثر التجار الانجليز خبرة فى وادى أوهايو حيث كتب : « ان الهنود لديهم توقعات عظيمة بأن نسخو فى اشباع رغباتهم ، ومن منطلق فقرهم ونزعتهم الجشعة ، لا يمكنهم تحمل مثل هذا الاحباط • ولا شك أن الجنرال [أمهرست] لديه مبرره الخاص لعدم السماح باعطائهم أية هدية أو ذخيرة ، وأتوق الى أن يكون له أثره المرغوب،

ولكنى أنتهز هذه الفرصة لأعرفك إنى أفزع من النتيجة ، لأنى أعرف أن الهنود لا يقوون على المثابرة الطويلة ... ويعون فى ذاكرتهم نجاحهم الحديث جدا على جبهاتنا فى بداية هذه الحرب ، مما يجعلهم يتأملون مليا فى عجزهم الحالى عن محاربتنا . واذا قطع السينيكا ، والديلاوير ، والشاونى علاقاتهم معنا ، فسينتهى الأمر بحرب شاملة مع كل العشائر الغربية .... » (٤) .

بالاضافة الى الحالة العامة السيئة ، الداعية للمصيبيان ، كانت هناك مواعظ معـــلم الديلاوير ، وســـاحر الجمـــاهير المدعو نيولين Neolin ففى الوقت الذى قطع فيه الانجليز سلعهم التجارية التى اعتاد الهنود عليها ، بدأ نيولين سلسلة من الأسفار فى كل المناطق الهندية ليلح على الهنود اما أن يعودوا الى « حالتهم الأصلية التى كانوا عليها قبل أن يكتشف البيض بلدهم » أو يواجهوا الانقراض البطيء على أيدى المستوطنين المندفعين بأعداد كبيرة عبر الجبال . ووصف عديد من التجار ، بالتفصيل ، الولادة الجـديدة للحضارة الهنـدية ، التى بشر بها معلم الديلاوير الملهم ، وأن رؤيا نيولين التى رواها ، والتى نقلها اليه فى أحلامه رب الحياة قد أوضحت بجلاء أن خلاص الهنود لا يكمن فى قبول المسيحية والحضارة الأوروبية ، بل بالرجوع الى عـاداتهم القديمة ، وأن الروم يجب استنكاره بالايمان المغلظة ، وكذلك يجب الحلف على ترك الماديـات فى حضـارة البيض . ويجب كبح الزيادة السكانية من خلال التقشف والإمتناع عن المسكرات حتى يتم الرجوع الصعب الى الأوضاع القديمة . وبين فى وعظه أن « هذه هى الحالة المحزنة التى أكرهنا عليها » .

ما هو الواجب فعله الآن ، وما العـلاج الصحيح ؟ أنا أدلكم عليه ، أيها الأصدقـاء . اسمعوا ما أمرنى الروح الأعظم أن أخبركم به ! عليكم أن تضحوا ، بالطريقة التى أرشدكم اليها ، بأن تخلصوا أنفسكم تماما من العادات التى اخترتموها منذ جاء هؤلاء البيض بيننا ، عليكم أن ترجعوا الى حالتنـا البهيجـة الأولى ، التى عشنا فيها فى سلام وغنى ، قبـل أن يأتى هؤلاء الغرباء ليقلقوا راحتنا ويزعجونـا . وفوق كل ذلك ، يجب أن تمتنعوا عن شرب كحولهم المهلك الذى أجبرونا عليه من أجل زيادة مكاسبهم وانقاص أعدادنا (٥) .

كان لرسالة نيولين هذه ، دوى هائل ، ليس فقط فى بلاد الديلاوير ، بل أيضا بين القبائل الهندية الغربية الأخرى ، ولم تناد بنهضة حضارية فقط ، بل وبمقاومة ثورية أيضا . وتساءل قائلا : « لماذا تضحون بتحمل

سكنى البيض على أراضيكم ؟ فلتشتتوهم • شنوا عليهم الحرب • فأنا لا أحبهم ، وهم لا يحبوننى • هم أعدائى وأعداء اخوتكم • أعيدوهم الى الأرض التى أعددتها لهم • دعوهم يبقوا هناك » (٦) • هذه الكلمات التى نقلها نيولين ، قد ألهمه بها رب الحياة • وكانت تنتقل شفاهة طوال عام ١٧٦٢، وعلى رق منقوش من جلد الغزال من قرية هندية صغيرة الى أخرى •

ووفقا لما أشار اليه أنتونى والاس ، لم تكن صيغة نيولين لاحياء الحضارة عودة كاملة الى العناصر التقليدية القديمة للحضارة الهندية ، بل كانت تمثل توليفة من العناصر الوطنية والأوروبية معا • فبعض العادات القديمة ، مثل طقوس الحرب ، وتعدد الزوجات ، لم تكن لتنتعش من جديد ، ووجب الابقاء على بعض المفاهيم المسيحية مثل الصلوات المكتوبة • والكتاب المقدس » أو « الكتاب الأعظم » • الا أن المعنى الكبير لدعوة نيولين بالتخلص من مزج الخصائص الأوروبية بالحضارة الهندية هو اظهارها كيف استطاعت القبائل الغربية أن تستجيب بتلقائية وابداع ، الى الوضع الجديد الذى واجههم بعد هزيمة الفرنسيين • وحمل مريدوه رسالته الى كل مكان بالمناطق الغربية ، وتنفيذا لنصائحه بمقاطعة البضائع الأوروبية ، بدأت أعداد كبيرة من الأوروبيين بالصيد فى حدود احتياجاتها فقط • والشىء الأكثر اثارة هو أن زعيما من أوتاوا يدعى بونتياك Pontiac تحول الى مبدأ نيولين ، متخذا روحه الثائرة أساسا لثورته التى بدأها ضد الانجليز فى مايو ١٧٦٣ (٧) •

وطبقا لرواية فرنسية ، ألهب بونتياك حماس محاربيه بخطبة تعكس السياسة الوطنية لنيولين حيث حثهم بقوله : « من المهم لنا يا اخوانى ، أن نبيد من أراضينا هؤلاء القوم الذين سعوا الى تدميرنا »(٨) • وتحت رايته ، قاد بونتياك هجوما على فورت ديترويت ، أقوى الحاميات البريطانية المعسكرة فى منطقة البحيرات العظمى • وبينما حاصر الأوتاوا القلعة ، قامت قبائل أخرى بمحو المراكز البريطانية الأمامية فى المنطقة الغربية من البحيرات العظمى حتى بتسبرج شرقا • وفى تتابع سريع ، سقطت قلاع ميشيليما شيناك ــ Michilima chinac ، وسانت جوزيف، وسانداصكى Sandusky ، وبريسكايل Presqu'Isle ، ولوبيف Le Boeuf وفينانجو Venango ، عندما انضم الى النزاع الشاونى ، والديلاوير ، والشيوا ، والهورون ، والميامى ، والبوتاواتومى ، والسينيكا • ولكن الهنود كانوا عاجزين عن قهر القلاع البريطانية الكبرى الثلاث فى ديترويت، ونياجارا ، وبتسبرج • وقد نشبت الحرب فى الصيف ، وحينما وصلت أنباؤها لندن ، أسرعت الحكومة باصدار مرسوم بالتعبئة ، وأرسلت تعزيزات عسكرية من الشرق ، حتى حدثت فترة توقف بنهاية الصيف •

واستمر بونتيـاك يحارب بصورة متقطعة مدة سنتين أخريين ، وامتلأت المسـتعمرات الانجليزية باشـاعات تقـول بأنه يتآمر مع زعماء الكريك والشوكتاو لتنظيم حلف كبير من ثماني عشرة قبيلة هندية ، لكن هذه القبائل كان ينقصها السلاح والطلقات النارية والبارود ، واضطرت فى النهاية الى التماس السلام • ونظرا لعدم وجود قوة أوروبية أخـرى فى أمريكا الشمالية ، لذا ، لم يستطيعوا التغلب على مشاكل الامداد والتموين •

وعلى الرغم من انهيـار حركة بونتياك للمقاومة ، استمرت القبائل بالداخل فى الاحتفاظ باسـتقلالها السياسى فى العقد السابق لنشـوب الثورة الأمريكية • وكتب وليم جونسون سنة ١٧٦٤ الى لندن : « ان العشائر الست ، والقبـائل الغربية ••• الخ يعتبرون أنفسهم شـعبا حرا (٩) نظرا لعدم هزيمتهم مطلقا ، سواء على يد الانجليز أو الفرنسيين ، ولا هم خاضعون للقوانين [الداخلية] » • الا أن المحافظة على الاستقلال السياسى ، لم تؤد كثيرا الى صد تيار المزارعين وسماسرة الأراضى المتطلعين الى الغرب • وكان ضغط الأحوال السكانية هذا ، كافيا وحده للتغلب على كل جهود الحكومة الانجليزية ، لرسم سياسة لحكم الأجزاء الداخلية من القارة بطريقة تمارس فيها التجارة الهندية بصورة شرعية ، وتؤيد ملكية القبائل لأراضيها •

هناك عاملان أثرا ، بشكل حاسم فى مصير مناطق ما وراء الأبلاش ، بعد سنة ١٧٦٣ • أولهما ، أن الحكومة الانجليزية ، وهى تترنح تحت الدين الضخم المتراكم أثناء حرب السنين السبع ، لم تكن راغبة فى تحويل مواردها للابقـاء على الحاميات المرابطة بالداخل لتنفيـذ مواد اعلان سنة ١٧٦٣ بالقوة • فقد كان الاقتصاد له الأولوية على حماية الأرض الهندية لدى الحكومة الاستعمارية ، وبالتالى ، تم التخلص من حاميات الداخل ، بعد ثورة بونتياك ، كما تم التخلى عن خطة تنسيق التجارة والشـــئون الهندية والسيطرة عليها فى مختلف المستعمرات ، تلك الخطة التى لم يحدث أن نفذت بنجاح أبدا • وحل محلها الاعتماد على رسم الحدود على الخرائط ـ حدود تفصل نظريا بين الهنود والانجليز • وعلى اصدار الأوامر المشددة الى الحكام الملكيين وموظفى المستعمرات بتأييد ما هو مطبوع على الخرائط وتدعيمه •

كان العامل الثانى الحاكم فيما وراء الأبلاش غربا ، هو عجز الموظفين الانجليز تماما عن تنفيذ أى نوع من قانون أو نظام فى الداخل ، خاصة بعد سنة ١٧٤٦ ، عندما أدت مجموعة كاملة من الأوامر التى تهم السلطة الاستعمارية الى جعل المستعمرين فى حالة شبه ثورية • فقد بقى خط

اعلان سنة ١٧٦٣ على الورق فقط ، ولم يأخذه المستعمرون ولا الهنود مأخذ الجد ، وقد اضطر حكام المستعمرات ، الذين ارتبطوا دائما عن قرب بسماسرة الأراضي ، رجال الادارة في لندن بمبررات الاعتراض على اعلان المرسوم ، وقد اشتمل ذلك على انتقادات عنيفة للتأكيدات الكاذبة بأن قبائل الداخل قد تخلت عن دعاواها بملكيـة أجزاء مختلفة من الأراضي غرب الأبلاش . فلما رفضت هذه الانتقادات ، لوى الحكام رؤوسهم ، وسمحوا بصكوك الامتياز ، ومسح الأراضي ، وعقد صفقات خاصة لشراء الأرض من القبائل الهندية كالكريك والشيروكي الذين لم يعترفوا بحق الحكومة الانجليزية في تعيين الحدود ورسمها . ولما انتقل المستوطنون الى بعض الأراضي التي لا يزال الهنود يعلنون ملكيتها ، كانوا يتركون ، في العادة ، ليحسموا الأمر فيما بينهم بالقتال .

لم تنصرف معظم جهود الحكام الاستعماريين وموظفيهم الى تنفيذ اعلان المرسوم ، وانما الى مساعدة المستوطنين والسماسرة ذوى الأفكار التوسعية ، عن طريق سياسـة تشجيع ومداومة العـداوة بين القبائل الهندية . وهكذا ، تآكلت النقاط الأساسية في السياسة الهندية الانجليزية – وهي منع التعدي على حرمة الأراضي الهندية ونظام التجارة الهندية والعدالة فيها – وذلك في العقد السابق للثورة . اذ أننا لا نجد في المستعمرات واحدا يمكنه ايجاد سبب واحـد يمنع من استغلال المجموعة النشيطة من السكان الذين يزدادون بسرعة ، وقطع الأراضي الواسعة في منطقة غربية لا يشغلها سوى الهنود المحرومين من مسـاندة أى حليف أوروبي ، أو امداد بديل من السلع التجارية . كما لا يستطيع أى شخص في انجلترا أن يجد وسيلة يضـطر بها الأمريكيين في الغرب الى اطاعة أوامر التاج ، في الوقت الذي تتعرض فيه سلطة الملك للاتهام في كل مناسبة على امتداد الأطلنطي .

كانت البدائل محدودة بعد ثورة بونتياك ، بالنسبة لقبائل الداخل ، المستفيدة من السياسة الانجليزية غير القابلة للتنفيذ ، والمرسـومة ، كيما تضمن لهـا الأرض فيما بين الأبلاش والمسيسبي . وأمكنهم أن ينشدوا حلفـاء لهم من الهنود ، في محاولة أخرى لتدبير ثورة من كل الهنود ، كما فعلت مجموعة من الكريك ، بقيادة ذا مورتر The Mortar الذي كان العدو القوى للانجليز الصامد عشرات السنين . واستطاعوا أن ينتقموا لأشخاصهم من عمليات السلب والنهب ، واغتصاب الأراضي التي قام بها البيض ، مثلما فعل لوجان ، المشرد ، القاطن على حدود فرجينيا ، والذي طردت عائلته طردا ، بواسطة ساكني الحدود الخارجين على القانون ، والذي قاد فريقـا من المحاربين في غارات ثأرية عادلت الحرب الدموية

القصيرة للورد دانيور Dunmore ، سنة ١٧٧٤ · وأمكن للبعض مثل الشوكتاو الاستمرار فى طلب المساندة الفرنسية فى نيوأورليانز ، آملين فى نهضة فرنسية جديدة فى القارة · وأمكن للبعض أن ينحنوا لموجهة المد الأبيض ، ويصفوا أراضيهم قطعة ، قطعة ، ببيعها بأفضل ثمن ممكن لأفراد مخصوصين وشركات الأراضى ، والذين كانوا واثقين بأمان من قدرتهم على تجاهل اعلان سنة ١٧٦٣ ، والقوانين الاستعمارية التى تمنع مثل هذه الصفقات ·

الغاء الرق :

كان العقد الأخير من الفترة الاستعمارية ، بالنسبة للأمريكيين الأفارقة ، عقد أمل ويأس معا · فقد ارتفع عاليا فى المستعمرات الشمالية، شعار الغاء الرق ، بما جعل موضوع الرقيق قضية عامة ، للمرة الأولى منذ مجىء الأفارقة الى جيمستاون سنة ١٦١٩ · وعلت الصيحة بأن نظام الرق معارض لمبدأ الحرية ، الذى ميز التجربة الأمريكية عن تجربة أوروبا ما بعد الاقطاع · وكانت تلك الصيحة بقيادة الكويكرز المحبين للخير والاصلاح الاجتماعى،أمثال جون وولمان John Woolman وأنتونى بينيزيت Benezet ، وواصلتها مجموعة من القسس البروتستانت من نيوانجلند وبعض الزعماء الثوريين الناشئين ·

لايجاد أساس منطقى للثورة فى العقد التالى لحرب السنوات السبع ، ولهجمات الدعاية المتزايدة ضد انجلترا الأم ، وجد القادة الاستعماريون أنفسهم يثيرون أسئلة ، ليس فقط عن طبيعة السلطة الانجليزية ، ومدى شرعيتها فى المستعمرات ، بل أيضا عن طبيعة مجتمع المستعمرات الذى بنوه · وقد تناولت المجادلات الثورية ، حقوق الانسان الطبيعية ، ورضاء المحكومين ، وطبيعة الاستبداد ، والدرجة الطبيعية للمساواة ، وكلها تشتمل على ديناميت فكرى · هذه العبارات المثيرة ، قادت الى محاولات لم يقصد أن يذهب اليها حتى أشد الزعماء الوطنيين تطرفا · فقد اهتموا أساسا بالتصرفات التى تهددهم من ناحية البرلمان ووزراء الملك · ولكنهم حينما تكلموا عن الحقوق غير القابلة للتنازل عنها أو تحويلها للغير ، أو عن كرامة الانسان ، أو اساءة استعمال السلطة ، كانوا يشيرون الى أنفسهم ، عن غير قصد · فكلما استعملوا الكلمات المتكررة ، الدالة على وجهة نظرهم مثل « الرق » و « الاستبداد » ، فى وصف الاصلاحات الاستعمارية ، أصبح من الصعب تجاهل الرق المحلى الذى اشتمل حتى الستينات من القرن الثامن عشر ، على نحو ٤٠ ٪ من سكان المستعمرات · ولم يستطع من كتبوا عن الحقوق

غير القابلة للتحويل ، وكرامة البشر ، والمساواة الطبيعية للانسان أن يتغاضوا طويلا عن الحالة السيئة للأمريكيين الأفارقة ، حتى بالرغم من أنهم لم يفعلوا شيئا ذا بال ، ازاء المسائل التى توقع الشقاق بين المستعمرات وانجلترا • ويشير الناس على كلا جانبى الأطلنطى ، وكلا طرفى الجدل الأنجلو/أمريكي الى التناقض والتعارض • فيتساءل مسئول انجليزى (١٠) كيف يسوغ للأمريكيين أن يعاملوا الزنوج « بوصفهم نوعا من الماشية أفضل ••• بينما ينادون بصوت عال بحقوق الأنسان الطبيعية ؟ » ويوبخ وطنى أمريكى آخر ، مواطنى بلده بقوله : « لتخجلوا أيها الأنصار المتحمسون للحرية فى الظاهر ! أنتم الوطنيون العابثون ! يا من تقومون باستعراضات فارغة بأنكم المدافعون عن حريات البشر ، يا من ، بذلك ، جعلتم مجاهرتكم برأيكم موضعا للهزء والسخرية ، ولما وطئتم بقسوة مزايا الحقوق الطبيعية المقدسة للأفارقة ، لأنكم بينما تصومون ، وتصلون ، ولا تستوردون ولا تصدرون ، وتعارضون وتحتجون ، وتصممون على استرداد حقوقكم الدستورية ، فانكم فى نفس الوقت مستمرون فى هذه الممارسة غير القانونية ، القاسية ، اللا انسانية ، والبغيضة باستعباد زملائكم من البشر » (١١) •

وهكذا نجد أن نفس القيم والأيديولوجيات المستخدمة فى حماية حرية المستعمر ، قد استعملت لاتهام نظام العمل الذى يطوق الاقتصاد الاستعمارى فى الجنوب ، ويدعم الى حد ما الشركات المربحة فى الشمال • لقد كان نظام الرق اهانة لمبادىء الثوريين ، الذى يستعدون للدفاع عنها • ويصرخ صمويل هوبكنز Samwel Hopkins أحد القساوسة الأبرشيين المستقلين فى رود أيلاند ، عشية الحرب قائلا : « أواه من هذا التضارب المقيت ، غير المحتمل ! ••• هذا التضارب ، الفاضح ، الوقح ، الذى يمارس بالفعل ! » (١٢) •

لم تكن المهانة فقط ، والحط من قدر السود تحت نظام الرق هو ما أهم وأقلق الكثيرين الذين أعلنوا كذلك معارضتهم لهذا النظام فى العقد السابق للثورة ، بل ما صاحبه كذلك من اهانة للبيض والحط من قيمتهم • ان جون وولمان ، من الكويكرز ، والذى تجوهلت ، على نطاق واسع ، جهوده لابطال الرق فى الخمسينات من القرن الثامن عشر ، كان مقتنعا بأن امتلاك العبيد ، ولو بواسطة أكثر أسيادهم رحمة « يفسد ، مع ذلك ، العقل ، ويجمده بطريقة مؤكدة » • كما أن الهيمنة المطلقة من السيد على العبد تنشىء « صورا للأشياء وأساليب للسلوك » تشكل بدرجة لا يمكن التخفيف منها ، الاتجاهات الخاصة بأبناء ، وجيران ، وأصدقاء ملاك العبيد (١٣) ، ومن أسفار وولمان من مستعمرة لأخرى ، كان مقتنعا

بأن الرق يطبع في ذهن الأبيض ، فكرة التفوق ، بصورة يصعب محوها ٠ وتتعارض هذه الفكرة مع كل من المفهوم المسيحى عن الأخوة بين كل البشر وفكر العقلانيين فى القرن الثامن عشر الذى يؤكد على المساواة الطبيعية ٠ ونظرا لتشغيل العبيد دائما فى أعمال ذليلة ، ومعيشتهم فى أحوال دنيئة ، شب معظم الناس منذ الصغر وهم ينظرون اليهم « على أنهم صنف جاهل من البشر ، جدير بالازدراء » (١٤) ٠ وهكذا ، كان تكريس الظروف الخارجية للعبد ، نتيجة استغلال البيض له ، والرغبة فى المكسب المادى ، لتنسجم مع الحالة العقلية الداخلية للأفريقى المرحل من وطنه ٠ ولكن ، عند وولمان ، كان الانحطاط الظاهرى للعبد ، من عمل « الفساد الأخلاقى الداخلى » للرجل الأبيض ٠ ويقول ان البيض قد استعبدوا أنفسهم باستعبادهم للأفريقى ، وكبلوا أنفسهم فى أغلال هذا النظام الاجتماعى ، كما وقع لعبيدهم ٠ لقد كان سجن السود ظاهريا وماديا ، بينما كان بالنسبة للبيض داخليا وروحيا ٠ وفى كلا الحالين ، كان التفكير فى ازدهار المجتمع الأمريكى يثير الفزع ٠

لم تنشأ هذه الأفكار فى الشمال فقط ٠ ففيما كتبه ، عشية الثورة فى فرجينيا ، حذر جيفرسون Jefferson مواطنيه من السجن النفسى والروحى الذى بنوه لأنفسهم ببناء بلدهم على ظهور العبيد السود ، فكتب : « يجب ألا نشك فى الأثر المحزن لأحوال شعبنا ، والناجم عن وجود نظام الرق بيننا » ٠

> **ان جميع العلاقات الاجتماعية بين السيد والعبد تتميز بممارسة دائمة لأشد الانفعالات صخبا وعنفا ، وبأكثر درجات الاستبداد اطرادا من جانب واحد ، وحالات الخضوع المهين من الجانب الآخر ٠ ويرى ابناؤنا ذلك ، ويتعلمون كيف يقلدونه ، لأن الانسان حيوان مقلد ٠٠٠ فهو يتعلم من المهد الى اللحد كيف يفعل ما يرى الآخرين يفعلونه ٠٠٠ يثور أحد الوالدين ، والابن ينظر اليه ، ويفهم قسمات الغضب ، ويتصنع الكبرياء مع العبيد الأصغر منه ، يرخى العنان لأسوأ حالات الانفعال ، هكذا يتربى ويثقف ويمارس الاستبداد والطغيان يوميا ، ولا يمكنه الا ان يتطبع به بشكل متميز غريب وكريه ٠ ولابد ان يحتاج الانسان الى معجزة كى يستطيع ان يحفظ تصرفاته واخلاقياته من ان تفسدها هذه الظروف والأحوال (١٥) ٠**

بهذا الوعى المتزايد للتعصب الجنسى الأبيض وآثاره ، جاءت حركة لانهاء الرق ، ففى أول الأمر ، اكتسبت فكرة عدم قابلية الامتزاج بالأفارقة المستعبدين اعترافا واسعا بتفرد المجتمع الاستعمارى الأبيض بالاهتمام

بعدم المساواة • ولذلك ألغت بعض المستعمرات الشمالية تجارة الرقيق ، أو فرضت عليها ضرائب لا تساعد على بقائها ، وذلك قبل توقيع اعلان الاستقلال • وعلى أية حال ، لم يلغ الرق ، ولذلك ، بينما اضطر عدد قليل من التجار اليانكى Yankee (*) الى ارجاع سفنهم من الطريق ، لم يخسر المستعمرون البيض الآخرون كثيرا ، أو لم يخسروا شيئا بالمرة •

لم تجد الحرب الأيديولوجية ضد الرق طريقا لها فى الجنوب • فقد شهدت الستينات من القرن الثامن عشر ، فى الواقع ، عمليات استيراد للعبيد أكبر من أى عقد آخر فى الفترة الاستعمارية • ومثال ذلك ، تفوق العبيد المستوردين الى كارولينا الجنوبية بين سنتى ١٧٦٠ ، ١٧٧٠ فى العدد على من جىء بهم خلال الربع السابق من القرن ، كما ازداد التدفق ، مرة ثانية فى باكورة السبعينات • وتركز ٨٥٪ من جميع العبيد الأمريكيين بعد حرب السنوات السبع ، فى مزارع مستعمرات ميريلاند ، وفرجينيا ، وكارولينا الشمالية وكارولينا الجنوبية ، مع انفراد فرجينيا بعدد يساوى تقريبا أعداد الموجودين فى باقى الولايات الجنوبية الأخرى • ولم يحدث أبد أن زاد عبيد فرجينيا عن نصف العدد الكبير من عبيد جزيرة جامايكا فيما بين سنتى ١٦٧٠ ، ١٧٣٠ ، ولكنها تخطت مزارع الهند الغربية ، سنة ١٧٦٠ وما بعدها بعشر سنوات بنحو ٢٠٠ ألف عبد تقريبا •

وقد جعل هذا الاستثمار المكثف لرأس المال فى العمالة السوداء ، موضوع ابطال الرق غير عملى تقريبا فى أجزاء القطر التى يعتبر العبيد فيها أكثرية • فمثلا ، فى فرجينيا التى كان بهـا من السـكان البيض ما يوازى سـكان ساكرامينتو Sacramento ، وكاليفورنيـا ، أو جرسى سيتى ، ونيوجرسى اليوم ، كان رأس المال المستثمر فى العبيد حوالى ٥ر٥ مليون جنيه أو ١٤٥ مليون دولار أمريكى بلغة اليوم (سنة ١٩٧٤) • فمن يعوض ملاك العبيد عن هذه الملكية ؟ وهكذا ، بينما سمع الأمريكيون الأفارقة بكتيبات تدعو الى الغاء الرق ، أو سمعوا بمجرد وجود تقارير بأن المجالس التشريعية فى فرجينيا ومستعمرات أخرى كانت تناقش القضية ، قام ملاك العبيد ، ذوو الاستثمارات الكبيرة فى هذا النظام الأساسى فى المجتمع ، يرتبون لقلب الحملة التى تنادى بابطال ما أصبح المصدر الأول للثروة ، والقوة ، والاحترام فى الجنوب الاستعمارى • ان نقد المجتمع الأمريكى على يد أصحاب مبدأ الغاء الرق ، لم يعل صوته الا حيث يسكن واحد من كل عشرة عبيد أمريكيين ، أما التسعة الآخرون ، فكانوا يسمعونه بالكاد ، أو يتسمعونه فى محل كدهم وكدحهم •

(*) اليانكى : أحد ابناء الولايات الشمالية بالولايات المتحدة الامريكية •

وباتجاه الفترة الاستعمارية نحو الأفول ، كانت الحضارة الأمريكية ذات الأصل الأفريقي ، في مزارع الجنوب في حالة من التغير المتواصل • فقد أدى استيراد الأفارقة بأعداد كبيرة في الجنوب في بداية السبعينات من القرن الثامن عشر ، الى نشاط التقاليد الحضارية الأفريقية ، واتقاد شعلة النضال فيها • مثال ذلك في كارولينا الجنوبية ، تلك الموجة من النشاط المتمرد التي أخذت مجراها في الولاية ، حيث زاد عدد السكان العبيد المستوردين عن العبيد الأمريكيين بالمولد•وفي مرة قبل ذلك ، بعد فترة من الاستيراد المكثف للعبيد في الثلاثينات من القرن الثامن عشر ، فزع الكاورلينيون من سلسلة الانتفاضـــات الثورية التي بدأت في ستونو ، حيث هرب عدة مئات من العبيد ، سنة ١٧٣٩ ، وقتلوا عددا من البيض في طريقهم الى فلوريدا ، حتى ان اعدام ٤٤ أسود لم يمنع قيام مؤامرة أخرى في تشارلستون ، واستمرار مؤامرة ثالثة في الداخـل في السنة التالية • الى هذا الحد ، كان فزع البيض لدرجة أن منعوا استيراد العبيد لمدة ثلاث سنوات • ثم تكررت العملية في ستينات القرن الثامن عشر ، وسرت في سنة ١٧٦١ موجة من القتل بالسم في طول المستعمرة وعرضها • وبعد ذلك بأربع سنوات حاول أكثر من مائة عبد الاتفـاق على انشـاء مستعمرة في الداخل • وفي سنة ١٧٦٦ ، اتخذ السود نص اللغة الطنانة للبيض الخاصة بالحرية ، والمساواة ، وذلك بتنظيم مسيرات في شوارع تشارلستون وهم يتغنون بنداء « الحرية ، الحرية ! » ، وقد أفزعت هذه الكلمات المدينة كلها ، مما جعلها تمسك السلاح مدة أسبوع ، عنـدما انتشرت في المستعمرة اشاعات عن عصيان مسلح ، انتشـار النار في الهشيم (١٦) • فاصدر أحد المجالس التشريعية ، الخائف ، القلق ، تعريفة مانعة ، على العبيد لمدة ثلاث سنوات ، وذلك للتقليل من استيرادهم الى درجة لا تكاد تحس • فقد تم استيراد أكثر من سبعة آلاف عبد ، سنة ١٧٦٥ ، الا أنه لم يدخل المستعمرة في السنة التالية سوى ١٠١ عبد فقط •

وحتى في فرجينيا ، حيث السكان العبيد المتزايدون بسرعة ، والذين كانوا يعكسون ، بشكل أساسي ، زيادة طبيعية أكثر من الأعداد المستوردة حديثا ، كان السود أبعد ما يكونون عن أن تستميلهم مزارع العبيد ، فنجدهم يتحركون بسرعة وعزم ، عندما لاحت الفرص أمامهم لكسر قيود العبودية الدائمة • وفي سنة ١٧٧٥ ، عندما كانت الأعمال العدائية قد بدأت فعلا ، دون اعلان رسمي للحرب ، أصدر دانمور ، حاكم فرجينيا اعلانا بمنح الحرية لأى هارب فرجيني من سيده ، عبدا كان أو أمة يصل الى الحاميات البريطانية • وكانت نتيجة الاعلان على المجتمع الأبيض هى اثارة الجنوب ضد انجلترا لأن دانمور لمس وترا حساسا باستحضار صورة

ذهنية لمجموعة كبيرة من الزنوج سلحهم البريطانيون فى الممتلكات الاقليمية بالقارة · وقد كتب أحد الجنوبيين البارزين أن الاعلان « قصد بفعالية تامة أن يحدث انفصالا أبدا بين بريطانيا العظمى والمستعمرات ــ أكثر من أية وسيلة أخرى كان يمكن التفكير فيها » · وعبر عنها آخر ، بصورة أكثر حيوية فقال : « ان جهنم نفسها لم تستطع أن تتقيأ شيئا أكثر سوادا من هذا المخطط لتحرير عبيدنا » (١٧) ·

وكان للآلاف من الفرجينيين السـود ، ربما أكثر من ثلث الذكور البالغين محاولة للوصول الى الحاميات البريطانية · وباعلانهم المتكرر عن استقلالهم الشخصى حصلوا على الحرية بانضمامهم الى أولئك الذين كان يعتبرهم الأمريكيون البيض أعداء للحرية · ويبدو ، بصفة عامة ، أن تقييم جوزيف جالوواى ، أحد الموالين (للحكومة) من فيلادلفيا ، يصور خصائص السكان الأمريكيين ذوى الأصل الأفريقى ، عشية الثورة ، حيث كتب : « من الممكن اعتبار كل الزنوج أعداء داخليين ، كثيرين جدا ، لابد ، اذا ما واتتهم الفرصة ، أن يحملوا السلاح ضد أسيادهم » (١٨) · ولقد كانت التبعية وسهولة الانقيـاد هى الخصـائص المميزة على الاطلاق لشخصية الأمريكى من أصل أفريقى ، فى الربع الثالث من القرن الثامن عشر · لقد استمر سادة العبيد يخافون من عبيدهم السود ، كما داوم العبيد على تحسين أحوالهم ، بينما يبتكرون ويورثون الصور والأساليب الحضارية التى تجعل حياة العبد أمرا محتملا ·

التفاعل الحضارى بين الحمر والبيض والسود :

كان المجتمع الأمريكى ، المؤلف من نحو ٢ر٥ مليون فى نهاية فترة الاستعمار ، أبعد ما يكون عن التمتع بحضارة متجانسة · ذلك أن مائتى سنة تقريبا من الاستعمار الأوروبى ، والتفاعل المستمر بين ثلاث مجموعات حضارية مختلفة ذاتيا قد ترك مزيجا مختلطا من الوجود الحضارى ، لكل منها أهدافها ، والى حد كبير قيمتها الخاصة · وقد احتفظت مجموعتان منها ، وهما الأوروبية والهندية بدرجة من الاستقلال جديرة بالاعتبار ، رغم أن وجود كل منهما كان يقيد الأخرى ، الى حد ما ، فيما يمكنها أن تفعله · وكذلك الروابط السياسية والاقتصـادية التى عقدوها أثنـاء الدور الاستعمارى · أما المجموعة الثالثة ، وهى الأمريكيون الأفارقة فكانت مقيدة ، بالضرورة ، بواقع أن معظم أعضائها كانوا مستعبدين · ولكنهم احتفظوا أيضا بقدر معتدل من الاستقلال الذاتى ، وان كان يظهر بصور أكثر حدة ومكرا ·

كان التفاعل المعقد بين المجموعات الحضارية الثلاث مليئا بالمفارقات والتناقض الظاهري • فقد أعلن الأوروبيون فى أمريكا أنهم يرغبون فى استيعاب الهنود والأفارقة وامتصاصهم ، ولكنهم وجدوا أن أكثر الطرق فعالية لاستغلال أرض الهنود وجهد الأفارقة هو اتباع سياسة مبدأ عدم الاستيعاب • وكان المجيء بالمسيحية الى غير المسيحيين مغامرة مكلفة ومضيعة للوقت فقط الا حيث تساعد الأوروبيين على الاستفادة من موارد أولئك الذين سعوا للسيطرة عليهم • وما دامت لا تقدم الا وعودا قليلة لانجاز ذلك ـ وكانت ، فى الواقع ، تهدد دائما بزيادة المصاعب أمام الاستفادة من أرض الهندى وجهد الأفريقى ـ لذلك تراخت فى الاهتمام بأولويتها وتدنت ، ولم تبذل سوى أقل الجهد لارشاد القبائل الهندية الى تعاليم المسيحية ، وكان الدافع فى معظم المجهودات المبذولة هو الأمل فى أن يسير التحول الدينى يدا بيد مع التهدئة والسيطرة السياسية • وقد تعرض العبيد الجنوبيون لخطر تعاليم المسيحية على نطاق واسع ، فى الجنوب الأقصى ، حيث لم يكن الاحساس قويا بتهديد ثورة العبيد • ولكنهم كانوا محجوبين بعناية وحذر ، فى كارولينا الجنوبية وجورجيا ، عن الرسالة الأساسية الكامنة فى المسيحية • أما العبيد فى الشمال ، فقد طبعت البروتستانتية فى أذهانهم ، على نطاق واسع ، الاعتقاد بأنه ، حيث يتفوق البيض كثيرا على العبيد فى العدد ، فان تدريس التعاليم الأخلاقية للبروتستانتية مع التأكيد على العمل النابع من الاحساس بالواجب ، فى الوضع الحالى للفرد سيكون هو الصمام المتحكم فى حالة المتمرد • وكانت الصورة هى نفسها فى التعليم : فالعبيد يتربون على تلك الأشياء التى تمكنهم من أداء عملهم بشكل فعال ، ولكنهم أبعدوا عن التعليم لأنه يبشر بتشجيع الطموحات التى لا تلائم أولئك الذين كانت عبوديتهم مستمرة مدى الحياة •

حافظت حفنة من المصلحين وأعضاء الكنيسة على بقاء حركة الخير والاصلاح الاجتماعى حية ، على أساس أن الأفارقة والهنود لابد وأن يمتصهم المجتمع الأنجلو ـ أمريكى ويستوعبهم • ولكن مع صعوبة قبول هذا الأمر فى المناقشات العامة ، ينظر معظم سكان المستعمرات الى الأقليتين الحضاريتين فى أوساطهم على أنهما أكثر فائدة لهم بدون امتصاصها أو استيعابها ولو نصف استيعاب • وفى الحقيقة ، نظرت الأغلبية الكبيرة من المستعمرين الى العبيد على أنهم غير قابلين للامتصاص ، كما اتضح ذلك عندما أدى تحرير العبيد فى عهد الثورة الى ظهور صيحات تنادى باعادتهم الى وطنهم أفريقيا • وعلى قدر ما كان استيعاب الهنود أمرا مقلقا ، كان أكبر ما يرغب فيه المستوطنون الأوروبيون المتشوقون الى الأرض ، هو الحصول على أرض الهندى ، ولكن بدون هنود عليها • كما أن الهنود لم

ينشدوا الدخول فى المجتمع الأبيض ، حيث لم يكونوا يريدون من الأوروبيين أكثر مما استطاعوا أن يحصلوا عليه من مقايضتهم بالفراء والجلود · وهكذا ، كانت المشكلة لدى المستعمرين الأوروبيين هى كيفية الحصول على أرض الهندى مع استغلال وجود هذه « العقبات » أمام التوسع الاستعمارى · ولما كانوا منقسمين فيما بينهم تقريبا كانقسام الشعوب الهندية ذاتها ، ونادرا ما كانت لديهم فى الفترة الاستعمارية قوة كافية لاجبار القبائل الداخلية على التخلى من أرضها أو استقلالها الذاتى ، بنى المستعمرون سياستهم الهندية على مبدأ ابقاء القبائل الهندية منقسمة كل منها على الأخرى · حيث كتب حاكم كارولينا الجنوبية ، سنة ١٧١٧ « اذا لم نستطع تدمير قبيلة هندية بواسطة قبيلة أخرى ، فان دولتنا لابد أن تضيع » · وبقى هذا البيان من السمات الدقيقة المميزة للسياسة الاستعمارية بقية القرن (١٩) ·

لقد عاكس الامتصاص أيضا ، ذلك الاحتياج الداخلى للمستعمرين البيض الى تبرير استغلالهم للأفارقة والهنود ، بالاصرار على ايجاد الفجوة الواسعة التى تفصل « المتوحشين البرابرة » عن الأوروبيين « المتمدنين » · والامتصاص يضيق هذه الفجوة ، بالتحديد ، بجعل الأفارقة والأوروبيين، أو الهنود والأوروبيين على قدم المساواة ، بدرجة كبيرة · ولكن عندما يسمح للسيد القوى والعبد الذليل ، أو الأوروبى العاقل ، الحصيف والهمجى الوثنى بالتشابه ، سواء فى العادات والأحوال الخارجية أو فى القدرة العقلية ، اذن ، ينهار تماما الأساس المنطقى للسيطرة والاستغلال · هذه الحاجة الأكيدة الى انكار التشابه ومعارضة أية اجراءات تزيد تشابه الشعوب فى المجتمع الاستعمارى كانت سببا مهما لمقاومة تنصير العبيد ، كما عملت على اقناع سكان المستعمرات البيض بأن الهنود غير قابلين للاستيعاب أيضا · وكان من الأفكار الخاطئة ، الباقية فى انجلترا ، عن الأمريكيين فى المستعمرات ، أن على المستوطنين أن يستقبلوا مبشرى المجتمع الأنجليكانى فى سعادة لنشر الانجيل ـ أولئك المبشرون الذين كانوا يأملون فى هداية كل من العبيد والهنود الى كلمة المسيح · وقد لخص ، أسقف لندن وينثروب جوردان هذا المفهوم الخاطىء للرغبة الاستعمارية فى الاستيعاب عندما « أشار الى الزنوج بصفتهم جزءا من أمتنا ، فى الواقع ـ بينما كان المستعمرون متأكدين تماما من أن الزنوج لم يكونوا كذلك » (٢٠) · ويصدق ذلك أيضا على الهنود ·

والتناقض الثانى أن الحضارة الأمريكية البيضاء نمت الاتجاهات السلبية عامة نحو الأقلية الحضارية الموجودة بينها ، والتى كانت نافعة لها ، لا مفر ـ وهم الأمريكيون من أصل أفريقى ـ وتمسكوا باتجاهات

أكثر ايجابية نحو الأقلية الحضارية التى وقفت فى النهاية عائقا أمام المجتمع الأبيض عندما أصبح بلا حاجة الى معونتها العسكرية ـ وهم الهنود الحمر • وكبر المجتمع الاستعمارى حجما وقوة مع ارتباط مباشر بتزايد فى العبيد ، وتناقص فى الهنود « الذين أبوا التحلى عن أرضهم » • ومع ذلك ، كان الرجل الأسود هو الذى ثبت عليه سكان المستعمرات أشد الصـــور السلبية التى يتعذر محوهـا • وكان مفتاح هذه السخرية أن المستعمر داوم على مواجهة الانسان الأسود بوصفه عبدا ، وبذلك ، اعتقد أنه أدنى وأدنأ من المخلوق البشرى ، ولكن المســتوطن الانجليزى قابل الهندى كخصم أو حليف لا يوثق به كثيرا • وقد حافظ الهندى على حريته وقدرته على أن يأتى ويذهب ، يهاجم ويقتل ، يؤيد ويسحب تأييده ، وأن يحتفظ باستقلاله السياسى • وبالرغم من أنه كان مكروها بسبب الكثير من هذه الأمور ، الا أنها أكسبته احتراما يحسد عليه • فكانت العلاقة الأنجلو ـ هندية فى القرن الثامن عشر علاقة نادرة ، بين السيد والعبد ، تتركز فيها كل الحقوق والسلطة فى جانب واحد فقط • وتعويضا لذلك ، كان الهندى والانجليزى عندما يتقابلان ، ينهمك كل من الطرفين فى ابراز قوته ، فيحاول أن يظهر للآخر أنه هو الأهم والأفضل • لقد كان الهندى هو الخاسر النهائى فى معظم هذه المواجهات المتبادلة ، لكن ذلك لا يمكن أن يخفى حقيقة أن الأنجلو ـ أمريكان قد واجهوا الهندى لعدة مئات من السنين على أنه خصم مرعب أكثر منه عبدا مملوكا • ولكن ، بالرغم من استغلالهم ، وصدهم ، وهلاك الكثيرين منهم أحيانا ، كان الهنود يناورون دائما من مركز القوة •

وأما الأفارقة فى أمريكا ، على عكس ذلك ، نادرا ما كانوا جزءا من أية مساواة سياسية أو اقتصــادية ، لم يكن لديهم ما يقــدمونه سوى جهدهم البشرى ، بل ان ذلك الجهد لم يكن خاضعا لعقد اتفاق • ان العبيد الأفارقة ، لم يكونوا بلا حول ولا قوة فقط فى تعاملاتهم مع المجتمع الأبيض ، بل كانوا أيضا ضعافا نسبيا اذا ما قورنوا بالهنود • هذا التوزيع السيء للقوة فى محيط الســود والبيض لم يكن ليفيد ، بل يؤثر على المواقف والاتجاهات بينهما • وعلى خلاف الهندى ، نادرا ما يقدر الأفريقى على أن يكسب احترام الرجل الأبيض لأن مركزه لم يكن يســـمح حيث يكون الاحترام مطلوبا أو حتى ممكنا • وباحكام مصيدة التسلط الفاشستى فى علاقة كانت فيها القوة كلها فى الجانب الآخر ، نجد الأفارقة بعد أن ازدادت أهميتهم باطراد فى اقتصاد الرجل الأبيض ، لم يسعهم سوى أن يزدادوا انحطاطا فى نظره • وذلك فى الوقت الذى كان يعتبر فيه الهندى ، رغم كراهيته ، مصدر رعب لقدرته القتالية ، وكرامته ، بل ومهارته الخطابية أيضا • ولابد أن يسخر المستعمرون الأمريكيون من محاولات فلاسفة عصر

التنوير (*) لتصوير الأمريكي من أهل البلاد الأصليين بوصفه « بدائي شريف » ، وأنه النموذج الأصلي للجمال والفضيلة ، الذى لم تفسده المدنية الغربية المادية ، ولو أن تصورهم للهندى كان له جانب ايجابى ۰ فقد اختلف علم الاجتماع الخاص بعلاقات الحمر بالبيض ، والسود بالبيض كثيرا ، خلال ستة أجيال ۰ ومن هذه الاختلافات تطورت اتجاهات للبيض واضحة ومحددة ومعادية لكلتا الناحيتين ، ولكنهـا مختلفة فى أساليبها بدرجة خطيرة ۰

والتناقض الثالث فى تقارب الحضارات ، هو أن المجموعة الحضارية التى كانت مستعبدة ، ومهينة ، محتقرة ، بقيت خصائصها السكانية فى أمريكا وازدهرت ، بينما خضعت لعملية التفريغ السكانى والانطفاء التدريجى ، تلك المجموعة التى حافظت على حريتها ، وعلى كثير من قوتها ، وعلى درجة عامة من الاحترام الأوروبى ، ولا يقلل أبدا من ألم الرق ، وخزيه ، ووحشيته ، أن نشير الى أن الأفريقيين فى أمريكا كانوا ناجحين بدرجة ملحوظة بالمعنى السكانى ، خاصة بالمقارنة بأغلب المناطق الأخرى فى العالم الجديد ۰ فمن المحتمل أنه تم استيراد ما لا يزيد عن ٢٥٠ ألف عبد الى مستعمرات أرض القارة فى الفترة الاستعمارية ، ثم توقف عدد السكان السود ، عشية الثورة قريبا من نصف المليون ۰ هذا ، وبالرغم من عدم وجود دراسات دقيقة لنسبة المواليد ونسبة الوفيات للعبيد حتى الآن ، الا أن البيانات المحدودة معنا توحى بأنه بينما كانت نسبة وفيات السود أكبر بكثير منها لدى البيض ، كانت نسبة مواليد السود تقترب الى حد كبير من المعدل الاحصائى للبيض ۰ ويمكن أن نقرر مؤكدين أن نسبة الوفيات عند العبيد فى أمريكا القرن الثامن عشر كانت أقل بكثير من أى مكان آخر فى العالم الجديد ، تقريبـا ۰ ولا يمكن تفسـير ذلك بالضرورة بزيادة المعاملة الانسانية فى المزارع الأمريكية ، بل الأهم من ذلك ، هو جو أمريكا الشمالية السائد ، والملائم بوجه عام ۰ فقد عرفت جزر الكاريبى بأنها جبانة البيض والسود على السواء ، كما عصفت أمراض المناطق الحارة (المدارية) فى أمريكا اللاتينية بالعبيد الأفارقة ، عصف الريح لأوراق الشجر ۰

ويمكن تصوير هذه النقطة بمقارنة استيراد العبيد والسكان العبيد فى كل من فرجينيا وجامايكا ۰ فقد تساوى السكان العبيد فى المستعمرتين

(*) عصر التنوير : عصر الحركة الفلسفية والادبية فى غرب اوروبا ، بين سنتى ١٦٩٠ ، ١٧٧٠ تقريبا ، وتتميز بالتشكيك فى القيم التقليدية ، ومعتقداتها ، والميل نحو الفردية المطلقة ، وابراز فكرة التقدم البشرى العام ، وبالمناهج التجريبية ، وتحكم العقل فى كل شىء — (المترجم) ۰

في العدد تقريبا ، سنة ١٧٧٥ ، بامتلاك فرجينيا لنحو ٢٠٠٫٠٠٠ عبد ، وجامايكا نحو ١٩٣٫٠٠٠ • ولكن ، فيما بين سنتى ١٧٠٠ ، ١٧٧٥ كانت فرجينيا قد استوردت ما لا يزيد عن ١٠٠٫٠٠٠ عبد ، فى أكثر التقديرات تساهلا ، بينما كان صافى أعداد المستوردين فى جامايكا أكثر من ذلك بثلاث مرات ونصف • ومن المحتمل أن تكون الحياة بالنسبة للعبيد الأفارقة فى المزارع الجنوبية فى القرن الثامن عشر كانت صحية عنها فى الأجزاء الأخرى من العالم الجديد ، وأنه بسبب المعدل الاحصائى بين الذكور والاناث ، الأكثر ملاءمة عنه فى مناطق المزارع الأخرى ، كانت فرص الحياة العائلية أكبر بكثير •

وبالمقارنة ، نجد أن القبائل الهندية ، شرق جبال الأبلاش قد عانت من الانخفاض السكانى الكبير فى القرنين الأولين من الاحتكاك بالأوروبيين • ورغم أنهم لم يصابوا بنفس النسب الفاجعة ، كما حدث مع سكان المكسيك الأصليين ومعظم أجزاء أمريكا اللاتينية ، فان نسبة الوفيات والانحدار الطبيعى ظلت مغايرة تماما للزيادة الطبيعية للأفارقة المستعبدين • ولم يبق من السكان الهنود عشية الثورة سوى بقايا قليلة ، خاصة فى مناطق استيطان البيض ، على امتداد السهل الساحلى من ماين حتى جورجيا ، فقد أحصت كونيكتيكت مثلا ، ٩٣٠ هنديا فى تعداد رسمى سنة ١٧٦٢ ، ووجدت ماساشوستس ١٦٨١ هنديا سنة ١٧٦٤ ، وسجلت فرجينيا ١٣٠ هنديا فقط سنة ١٧٧٤ ، وكان الاجمالى فى رود أيلاند ١٨٤٢ هنديا فى نفس السنة • وفى نفس الوقت ، كان السكان السود يزدادون بسرعة بصرف النظر عن الزيادة عن طريق الاستيراد • وكان ذلك راجعا الى عدة عوامل • أولها أن الأفارقة كانوا أكثر مقاومة للأمراض الوبائية الأوروبية ، كما تم تحصينهم فى منتصف القرن الثامن عشر ، مثل البيض ضد السفاح الأكبر — مرض الجدرى ، ذلك القاتل الرهيب الذى لا تكاد توجد قبيلة أو عشيرة هندية فى الجزء الشرقى من القارة قد أفلتت منه • وقد هلك القسم الأكبر من قبائل الماساشوستس الشرقية ، حتى قبل مجىء البيوريتان ، ثم انهار الرقم ثانية بأعداد جوهرية فى السنوات الأولى من الاستيطان الأبيض • وابتلى الايروكوا عدة مرات فى القرنين السابع عشر والثامن عشر • ونقص سكان الكتاوبا فى كارولينا الشمالية الى النصف فى وباء مستقل سنة ١٧٥٩ ، وأصاب الشيروكى وباء الجدرى المريع ، بشكل خطير سنة ١٧٣٨ حتى انهم فقدوا نصف عددهم ، طبقا لتقديرات كثيرة • ثم اكتسح المرض الكريك فى السنوات الأخيرة من القرن السابع عشر ، واستمر فى انقاص أعدادهم فى العقود التالية • ويقل عن ذلك أهمية بكثير ، فى عملية القتل ، تلك الحروب التى جرت بين القبائل والمستوطنين الأوروبيين ، وبين بعضهم البعض بتحريض من شركائهم فى

التجارة · ولكن هؤلاء كانوا يأخذون ضربية على الرأس ، الأمر الذى لم يكن له نظير فى تجربة الرق · ومن الأسباب الأخرى لحرمان البلاد من سكانها ، شرب الكحول الذى أخذ حقه من حصد الرؤوس ، بالرغم من أنه كان يقتل ببطء اذا قورن بالجدرى أو الأوبئة الأخرى ·

هذه العوامل المهلكة ، التى قضت على الجزء الأعظم من القرى الهندية فى كل مكان بشرق أمريكا الشمالية ، بينما هى عوامل عارضة بالنسبة للعبيد كانت ترتبط بحسابات البيض لفائدة السود فى مواجهة الهنود · وبطبيعة الحال ، لم يكن للمستعمرين سيطرة مباشرة على العوامل البكتريولوجية والعوامل السكانية · ولكنهم كانوا ينشدون بلهفة زيادة السكان العبيد السود بينما يقللون السكان الهنود ولهذا الغرض بدءوا سياسة تؤثر فى المنحنيات السكانية ، ان لم تتحكم فيها · فالسود مثلا ، كانوا يطعمون ضد الجدرى ، ويلقون العلاج اذا مرضوا · وكان مالك المزرعة ، يصون بذلك ملكيته مثلما يحافظ على صحة خيوله وحيوانات مزرعته · أما الهنود ، فكانوا ، على كل حال ، اذا ما التقطوا مرضا وبائيا ، فكل ما يفعله المستعمر أن يشكر الله على ما رآه مناسبا لانقاص عددهم ، لكى يفسحوا المكان للرجال « المتمدنين » · ولقد شن المستعمرون الأوروبيون حرب الجراثيم ، من وقت لآخر ، عن وعى منهم · فتكرر نشرهم للجدرى فى السلع التجارية ، ولم يهتموا بصد المرض الوبائى وسط الهنود دون عبيدهم · وكذلك الحال مع المشروبات الروحية ، فكانت توزع على العبيد أيام العطلات ، وأحيانا فى نهاية الأسبوع كمكافأة على الرضوخ والاذعان ، أو ليزيدوا من رغبتهم فى قبول نظام العمل · ولكن الكحول لم يكن يوزع بين القبائل الهندية لكى يغرسوا فيهم الاتكال والاعتماد عليهم فقط ، بل ولكى يدمنوه أيضا · فكان شراب الروم نموذجا سهلا لسيطرة المستعمرين فى تعاملاتهم مع كل من الأفارقة والهنود · ولكن القصد منه أن يحفظ الحياة بين السود ، بينما يدمرها بين الهنود ·

وكان البيض يسيطرون الى حد ما ، على القاتل الثالث ، وهو الحرب · فكانت ثورة السود تقمع ، بطبيعة الحال ، بأقصى سرعة ممكنة ، لأنها تهديد مباشر لنظام العمل وللسيطرة الاجتماعية للبيض · ولكن الحرب مع الهنود ، وما بين الهنود أنفسهم كانت دائما موضوعا محسوبا بعناية فى أذهان البيض · فبمجرد أن انتهى المستعمرون ، فى القرن السابع الى أنه يمكنهم التغلب على القبائل المحلية حتى تعللوا بكل ذريعة ، مهما كانت تافهة ، لشن الحرب على القبائل الساحلية · وهكذا ، كتب عمانويل داوننج Emanuel Downing ، نسيب جون وينثروب ، الى زعيم مستعمرة ماساشوستس ، سنة ١٦٤٥ أنه يعتقد أن الحرب مع الهنود

النارإجانست لابد وأن تكون ميزة « جديرة جدا بالاعتبار » للمستعمرة • وكانت حجة داوننج ، المحامى ، بأن من الخطيئة ، فى نظر الله أن « يملك البيوريتان القوة بأيديهم ويسمحوا لهم بأن يبقوا على عبادة الشيطان التى يمارسونها بأيديهم دائما » • ثم تنبأ بتاريخ القرن التالى مشيرا الى أنه « اذا ما قضى الرب ، فى حرب عادلة ، بتسليمهم [أى النارإجانسيت] لأيدينا ، بذلك يسهل علينا أن يكون لدينا من الرجال والنساء والأطفال ما يكفى لنستبدلهم بالمغاربة (البربر) الذين سيكونون نهبا أكثر فائدة لنا مما نتخيل ، لأنى لا أتصور كيف يمكننا أن نزدهر دون أن نستولى على رصيد كاف من العبيد يؤدون لنا كل شئوننا ، لأن أبنـاء أبنائنـا سيشق عليهم أن يروا تلك القارة العظيمة مليئة بالناس ، وخدمنا سيظلون ينشدون الحرية من أجل أن يغرسوها لأنفسهم ، ولا يبقون الا نظير أجور مرتفعة جدا ، وأظنك تعلم جيدا جدا أن انفاقنا على ٢٠ من البربر أرخص من أن نعول خادما انجليزيا واحدا » (٢١) •

ان رغبـة داوننج فى أن يرضى الرب ، بينما يخدم المطالب المادية للمستعمرين كانت نموذجا لأسلوب القرن السابع عشر فى تبرير الحرب ضد القبائل المحلية •• ولكن هذه الحجج ، فى القرن الثامن عشر قد صيغت بلغة دنيوية (غير دينية) خالصة ثم طبقت على القبائل الداخلية القوية أكثر منه على المجتمعات الساحلية الصغيرة ، وفى هذا السياق المتغير ، عملت السياسة على خلق العداوات بين المجموعات الهندية • ولم يكن ذلك أكبر مانع لقيام ثورات شاملة لكل الهنود ضد الأوروبيين فقط بل وساهم أيضا فى الانحسار السكانى العام للهنود •

وهكذا ، بينما أفلت أهالى أمريكا الأصليون من الرق ، فى غالب الأحوال ، ووجدوا أنفسهم يواجهون السكان الأوروبيين الذين جاءوا فجأة ، وازدادوا بسرعة ، والذين ينشدون الأرض التى احتلوها ، ولا يمكنهم تصور أى أسلوب يمكن أن يفيد الهنود به مجتمع البيض سوى المساعدة فى عملية اهلاك غالبيتهم هلاكا شاملا وطردهم من الأرض • ولم يكن ذلك صحيحا فى معظم الفترة الاستعمارية ، لأنه حينما كان السـكان الأوروبيون قلة منقسمة الى أسبان وفرنسيين وانجليز ، يتنافسون على التفوق فى القارة ، بينما كانت تجارة الجلود والفراء عاملا رئيسيا ومهما فى الاقتصاد الاستعمارى ، كان الهنود يمثلون جانبا فعالا ، على كل حال ، أصبح للتجارة الهنـدية الجانب الأصغر فى الاقتصاد الاستعمارى حيث أصبح صيد السمك وبناء السفن فى نيوانجلند ، وانتاج الحبوب والمواشى فى المستعمرات الوسطى ، والتبغ ، والأرز ، والنيلة فى المزارع الجنوبية هى الصـور الأساسية للنشاط الاقتصادى • وبالقضـاء على

فرنسا ، سنة ١٧٦٣ كمنافس استعماري زالت الحاجة الى التأييد العسكري الهندي • وفى النهاية ، أدى النمو الهائل للسكان فى الجيلين السابقين للثورة ، الى امتلاك وديان الأنهار الداخلية بالقارة ، وانهماك المتعهدين الشرقيين الكامل على السواء ، الذين خلق لهم النمو السكانى مصدرا جديدا للثروة أعظم بكثير من تجارة الفراء ، والمستوطنين المندفعين بحشود كبيرة الذين تدفقوا عبر الشعاب الجبلية فى منطقة ما وراء الأبلاش •

والتناقض الأخير ، الملحوظ ، هو أن كثيرا من المجتمعات الهندية جسدت ما جاء الانجليز وغيرهم من الأوروبيين ليكتشفوه فى العالم الجديد ، ولكنهم كانوا يتعرضون للتخريب والطرد الى الغرب اذا ما جرؤوا على بلوغ ما لم يبلغه الأوروبيون •

حقا ، ان كثيرا من المستعمرين جاءوا مغامرين عبر الأطلنطى ، لا لشيء أكثر من المكسب المادى ، الا أن كثيرين غيرهم رأوا « قفار » أمريكا الشمالية مكانا يمكن للأوروبيين المبتذلين والفاسدين أخلاقيا ، والماديين ، والأنانيين أن يبدءوا فيه حياة جديدة ، تتركز حول مفاهيم مفقودة من مدة طويلة ولكنها نافعة دائما ، وهى تبادل المنافع التجارية ، والتعلق بالقيم الروحية ، والعيش فى جماعة مشتركة ، فى نظام خاص • فاعتبارا من جون وينثروب ، الى وليام بن ، الى جون أدامز نجد فكره :زدراع الأوروبيين ونقلهم الى حياة جديدة ، يبنون فيها مجتمعا فاضلا ، فى مدن مرتفعة قد أخذت طريقها خلال حياة الوافدين المليئة بالأحلام • ومع ذلك ، مع مرور الوقت ، وبعد أن أصبح الأوروبيون أكثر عددا ، اتضح بجلاء أن الناس فى أمريكا الشمالية ، الذين كانوا متمسكين بهذه القيم ، بشكل جيد ، ويؤسسون مجتمعهم من حولهم ، هم الذين تعرضوا للطرد من الأرض •

ولم يكن الجانب الرومانسى فى فكر التنوير ، فى القرن الثامن عشر ، هو الذى بالغ دون غيره فى تصوير الهنود على أنهم يمتلكون شكلا أفضل للحياة ، فقد كتب الشاعر الانجليزى ، توماس تراهيرن Thomas Traherne ، فى بداية الستينات من القرن السابع عشر أن :

> **التراب أحسن من التبر ، و ••• الماء ، كل نقطة منه أغلى من الجوهر • وان هذه كلها هى الكنوز العظيمة الخالدة : وكل ثروة عداها ، أيا كانت هى خبث بالمقارنة ••• الشمس رائعة • والانسان مخلوق جميل ••• النجوم تخدمنا من فوقنا ، والعالم مخلوق لأجلك •• لكن أن تزعم ان هذا المنزل لك ، وهذى الأراضى لغيرك ، وهذه الحلية التافهة شيء جميل ••**

فتلك همجية مفرطة ، وحماقة غريبة ٠٠٠ لأن الطبيعة تكذب كلامك ٠٠٠ بهذا يمكنك أن تدرك من هم الهنود البرابرة ، الأجلاف ٠ اذ أنه لا توجد ، يقينا أمة للخلاص تحت قبة السماء أكثر وحشية وسخافة من العالم المسيحى (٢٢) ٠

ترددت أصداء هذه الأفكار فى أروقة تاريخ القرنين السابع عشر والثامن عشر ٠ وكان المستعمرون ، رغم قسوتهم وجفاء عاطفتهم يدركون أن المجتمع الهندى ، ولو أنه بدون مشاكلهم وشخصياتهم المزرية على الاطلاق ، قد سبب العار والخزى للمجتمع الأبيض ٠ ان المبعوثين الانجليز ، للتحقيق فى ثورة بيكون ، سنة ١٦٧٦ ، كتبوا خطابا لاذعا بالسخرية الى حاكم جورجيا ومجلسها التشريعى ، يطلبون منهم أن يوقفوا اغتصاب الأراضى من المستوطنين الذين لهم حق شرعى فعلا فى كل الأراضى التى تمكنوا من استغلالها ، ولكنهم « مازالوا يتوقون ، ويسعون الى حرمانهم [الهنود الحمر] من المزيد ، لمجرد شهوة الترف دون أية حاجة فعلية اليها ، مما يخجلنا ، ويجعلنا عارا ومصدر سخرية لأولئك الوثنيين الأكثر منا أخلاقا » (٢٣) ٠ وبعد ذلك بثلاثة أرباع القرن ، شجب حاكم ماساشوستس توماس باونول Thomas Pownall المستعمرين ، بشدة ، لخرقهم لمبادئهم وقال انه « لم تكن هناك حدود للاحتيال ، وسوء الاستغلال ، والكذب ، الذى عومل به هؤلاء الناس المساكين وناءوا به » (٢٤) ، كما أن ادموند أتكين ، التاجر الهندى من كارولينا الجنوبية ، والرجل الذى لا يعرف الهنود من حكايات قاعات الاستقبال وصالونات الحفلات الرسمية ، بل من الاحتكاك الشخصى لسنوات عديدة ، قد كتب سنة ١٧٥٥ :

لا يفهم شعب فى العالم مصلحته القومية ، ويناضل من أجلها أحسن من الهنود الحمر ٠٠٠٠ ومع ذلك لا يوجد شعب على وجه الأرض أكثر منهم انفتاحا ، ووضوحا ، واستقامة فى معاهداتهم العامة ٠ كما لا يفوقهم أحد فى التقيد بها ٠٠٠٠ كان من السهل أن يبرزوا فى كسر كل المعاهدات الموقعة ، بين الهنود والبيض ، والمذابح البشرية التى نتجت عن ذلك ، التى خلقت الرعب للأولين (الهنود) بقدر ما كان الآخرون هم المعتدين أولا ، أصبح الهنود يطردون تحت القهر والاستغلال ، ودفاعهم عن حقوقهم الطبيعية (٢٥) ٠

لقد وقف المراقبون الأوروبيون طول الفترة الاستعمارية ، فى رهبة أمام الخصائص الهندية الرئيسة من حسن وفادة ، وسماحة نفس ،

وشجاعة ، وروح الاهتمام المتبادل • وجسد الهنود الفضائل المسيحية بدون جهد ، تقريبا ، في ركن من الأرض كان الأوروبيون ، وهم يحاولون أن يقيموا فيه مجتمعا بنفس الخصائص المميزة قد انجذبوا الى الاتجاه المعاكس بفضل وفرة الطبيعة حولهم ـ نحو النزعة الفردية ، والولوع بالجدل والخصام ، وتوسيع الثروة ، واستغلال الآخرين من البشر ، ان مبشر بنسلفانيا المورافى (*) جون هيكويلدر J. Heckewelder كان واحدا من سلسلة طويلة من المستعمرين ، بدأت بروجر وليامز سنة ١٦٤٣ ، الذى دعا مواطنيه البيض أن يقارنوا سلوكهم الشخصى بسلوك الهنود الذين يعرفهم فكتب لهم :

ان كل ما يحيا على الأرض ، وكل ما ينبت من التربة ، وكل ما فى الأنهار والمياه التى تفيض فى مثيلاتها ، قد أعطى لنا جميعا ، وكل واحد مؤهل لنصيبه • من هذا المبدأ (المصدر) يفيض كرم الوفادة كما لو كان من نهره • ولا يعتبرون ذلك فضيلة ، وانما واجبا لازما ، ومن ثم ، فانهم لا يبحثون عن اعذار ابدا ليتجنبوا العطاء ، بل يوفرون احتياجات جارهم بسخاء تلقائى من المواد التى يعدونها لاستعمالهم الخاص • فهم كرماء للكل ، بلا استثناء ، وسيتقاسمون مع الآخرين ، ومع الغرباء عادة حتى آخر كسرة خبز • يؤثرون على انفسهم ، فيفضلون أن يبيتوا على الطوى ، بدلا من أن يثقل كاهلهم انهم اهملوا واجبهم فلم يشبعوا مطالب الغريب ، مريضا كان أو محتاجا (٣٦) •

لم يكن هيكويلدر بحاجة الى أن يسخر من هذه النقطة ـ وهى أن هذه الفضائل الهندية تقترب جدا من مفاهيم المسيحية ، لدرجة أن معظم سكان المستعمرات وجدوها ملائمة وكافية للاعتراف بها •

هذا النوع من البراءة هو ما أغرى بالتدمير والابادة • فبتجسيد الهنود لبعض الفضائل التى كان الأوروبيون يأملون اعادة ترتيب نظامهم الحضارى عليها ، ولكنهم لم يستطيعوا ، كان الهندى بمثابة رسالة مزعجة تذكرهم بانحطاط الرجل الأوروبى بدلا من تقدمه فى محيط عالمه الجديد • ولعل الانجليز ، والألمان ، والايرلنديين من أصل اسكتلندى ، والسويديين ، والفنلنديين ، والهولنديين ، والهوجونوت الفرنسيين قد هنأوا أنفسهم

(*) المورافى : أحد ابناء الطائفة المورافية ، وهى طائفة بروتستانتية استلهمت تعاليمها من المصلح الدينى البوهيمى جون هس المتوفى سنة ١٤١٥ ـ (المترجم) •

عشـــية الثورة الأمريكية « لتذليلهم القفار » ، وبناء الموانى البحرية المزدهرة ، حيث لم يقمها أحد من قبل ، ولاقامة المدن والكنائس ، والمدارس والحكومات على امتداد آلاف الأميال من الســهل الساحلى من ماين حتى جورجيا · لقد اختاروا مبدأ الانتــاج وشدة الحرص على الاكتســاب ، وباشروا كليهما بشكل مطرد ، الى حد بعيد · الا أن الناظر فى أى اتجاه حوله ، يتضح له أن ذلك كله قد تم انجازه بثمن رهيب من الاستغلال ، ومعاناة البشر ، والاستعباد ، وتحويل الملكية واغتصابها ·

المراجـــع

1. Quoted in Francis Paul Prucha, « American Indian Policy in Formative Years : The Indian Trade and Intercourse Acts, 1790-1834 » (Lincoln : University of Nebraska Press, 1970 rpr), p. 5.

2. John R. Alden, « John Stuart and the Southern Colonial Frontier : A Study of Indian Relations, War, Trade and Land Problems in the Southern Wilderness, 1754-1775 » (Ann Arbor : University of Michigan Press, 1944), p. 177.

3. Quoted in Howard H. Peckham, « Pontiac and the Indian Uprising » (Chicago : University of Chicago Press, 1961), p. 86.

4. Ibid., pp. 97-98.

5. Anthony F. C. Wallace, « The Death and Rebirth of the Seneca » (New York : Alfred A. Knopf, Inc., 1970), p. 120.

6. Ibid., p. 118.

7. Ibid., pp. 120-21.

8. Quoted in Peckham, « Pontiac and the Indian Uprising », p. 119.

9. Quoted in Prucha, « American Indian Policy », p. 19.

10. Quoted in Jordan,« White Over Black : American Attitudes Toward the Negro, 1550-1812 » (Chapel Hill : University of North Carolina Préss, 1968), p. 291.

11. (John Allen). « The Watchman's Alarm to Lord Nh » (1774), in Bernard Bailyn, « The Ideological Origins of the American Revolution » (Cambridge : Harvard University Press, 1967), p. 240.

12. Quoted in Ibid., p. 244.

13. Quoted in Gary B. Nash, « Slaves and Slaveholders in Colonial Philadelphia », William and Mary Quarterly, 3rd ser., 29 (1973) : 243.

14. Quoted in Jordan, « White Over Black, » p. 273.

15. Thomas Jefferson, « Notes on the State of Virginia, ed. » Thomas P. Abernethy (New York : Harper & Row Publishers, 1964), p. 155.

16. Pauline Maier, « The Charleston Mob and the Evolution of Popular Politics in Revolutionary South Carolina, 1765-1784 », Perspectives in American History, 4 (1970) : 176-77.

17. Quoted in Benjamin Quales, « The Negro in the American Revolution » (Chapel Hill : University of North Carolina Press, 1961) , p. 20 n.

18. Benjamin F. Stevens, ed., « Facsimiles of Manuscripts in European Archives Relating to America, 1773-1783 » (London, 1889-1895), 24, No. 2079.

19. Quoted in David D. Wallace, « South Carolina : A Short Story, 1520-1948 » (Chapel Hill : University of North Carolina Press, 1951), pp. 91-92.

20. Jordan, « White Over Black », p. 208.

21. Quoted in Almon W. Lauber, « Indian Slavery in Colonial Times Within the Present Limits of the United States » (New York · Columbia University Press, 1913), p. 311.

22. Thomas Traherne, « Centuries, Poems and Thanksgivings, ed. » H. M. Margoliouth (London : Oxford at the Clarendon Press, 1958), I : 115, 117.

23. Virginia Magazine of History and Biography, 14 (1906-7) : 274.

24. Quoted in Georgiana C. Nammack, « Fraud, Politics, and the Dispossession of the Indians ; The Iroquois Land Frontiers in the Colonial Period » (Norman : University of Oklahoma Press, 1969), p. 31.

25. Jacobs, ed. « Atkin Report and Plan », p. 38.

26. Heckewelder, « Account of the History, Manners, and Customs of the Indian Nations, Who Once Inhabited Pennsylvania ... » (Philadelphia : American Philosophical Society, 1918), p. 85.

اقـرأ فى هـذه السـلسلة

احلام الاعلام وقصص اخرى	برتراند رسـل
الالكترونيات والحياة الحديثة	ى · رادونسكايا
نقطـة مقابل نقطـة	الدس هكسلى
الجغرافيا فى مائة عـام	ت · و · فريمـان
الثقـافة والمجتمـع	رايموند وليامز
تاريخ العلم والتكنولوجيا (٢ جـ)	ر · ج · فوربس
الأرض الغـامضة	ليستردبل راى
الرواية الانجليـزية	والتـر الـن
المرشد الى فن المسرح	لويس فارجـاس
آلهـة مصر	فرانسوا دوماس
الانسان المصرى على الشاشة	د · قدرى حفنى وآخرون
القاهرة مدينة الف ليلة وليلة	أولج فولكف
الهوية القومية فى السينما العربية	هاشم النحـاس
مجمـوعات النقـود	ديفيد وليام ماكدوال
الموسيقى ـ تعبير نفسى ـ ومنطق	عزيز الشـوان
عصر الرواية ـ مقال فى النوع الادبى	د· محسن جاسم الموسوى
ديـلان تومـاس	اشراف س · بى · كوكس
الانسان ذلك الكائن الفريد	جـون لويس
الرواية الحـديثة	جول ويست
المسرح المصرى المعـاصر	د· عبد المعطى شعراوى
على محمـود طـه	أنـور المعـداوى
القـوة النفسـية للاهرام	بيل شول وادنبيت
فـن الترجمـة	د · صـفاء خـلوصى
تولسـتوى	رالف ئى ماتـلو
سـتندال	فيكتور برومبير

رسائل وأحاديث من المنفى	فيكتور هوجو
الجزء والكل (محاورات فى مضمار الفيـزياء الذرية)	فيرنر هيزنبرج
التراث الغامض ماركس والماركسيون	سدنى هوك
فن الأدب الروائى عند تولستوى	ف · ع · أدنيكوف
ادب الأطفـال	هادى نعمـان الهيتى
أحمد حسن الزيات	د · نعمة رحيم العزاوى
أعلام العرب فى الكيمياء	د · فاضل احمد الطائى
فكرة المسرح	جلال العشرى
الجحيم	هنرى باربوس
صنع القرار السياسى	السيد عليوة
التطور الحضارى للانسان	جاكوب برونوفسكى
هل نستطيع تعليم الأخلاق للأطفال ؟	د · روجر ستروجان
تربية الدواجن	كاتى ثير
الموتى وعالمهم فى مصر القديمة	ا · سبنسر
النحل والطب	د · ناعوم بيتروفيتش
سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى	جوزيف داهموس
سياسة الولايات المتحدة الأمريكية ازاء مصر ١٨٣٠ ـ ١٩١٤	د · لينوار تشامبرز رايت
كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السنة	د · جون شندلر
الصحافة	بيير البير
اثر الكوميديا الالهية لدانتى فى الفن التشكيلى	الدكتور غبريال وهبه
الأدب الروسى قبل الثورة البلشفية وبعدها	د · رمسيس عوض
حركة عدم الانحياز فى عالم متغير	د· محمد نعمان جلال
الفكر الأوربى الحديث (٤ ج)	فرانكلين ل · باومر
الفن التشكيلى المعاصر فى الوطن العربى ١٨٨٥ ـ ١٩٨٥	شوكت الربيعى
التنشئة الأسرية والأبناء الصغار	د· محيى الدين أحمد حسين

نظريات الفيلم الكبرى	تاليف : ج • دادلى أندرو
مختارات من الأدب القصصى	جوزيف كونراد
الحياة فى الكون كيف نشأت وأين توجد؟	د• جوهان دروشنر
حرب الفضاء	طائفة من العلماء الأمريكيين
ادارة الصراعات الدولية	د • السيد عليوة
الميكروكمبيوتر	د • مصطفى عنانى
مختارات من الأدب اليابانى	صبرى الفضل
الفكر الأوربى الحديث ٢ ج	فرانكلين ل • باومر
تاريخ ملكية الأراضى فى مصر الحديثة	جابرييل باير
اعلام الفلسفة السياسية المعاصرة	انطونى دى كرسبنى
كتابة السيناريو للسينما	دوايت سوين
الزمن وقياسه	زافيلسكى ف • س
اجهزة تكييف الهواء	ابراهيم القرضاوى
الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعى	بيتر رداى
سبعة مؤرخين فى العصور الوسطى	جوزيف داهموس
التجربة اليونانية	س • م بورا
مراكز الصناعة فى مصر الاسلامية	د• عاصم محمد رزق
العلم والطلاب والمدارس	رونالد د • سمبسون ونورمان د• اندرسون
الشارع المصرى والفكر	د• أنور عبد الملك
حوار حول التنمية الاقتصادية	ولت وتيمان روستو
تبسيط الكيمياء	فريد • س • هيس
العادات والتقاليد المصرية	جون بوركهارت
التذوق السينمائى	الان كاسبيار
التخطيط السياحى	سامى عبد المعطى
البذور الكونية	فريد هويل شاندرا يكراماسينج
دراما الشاشة (٢ ج)	حسين حلمى المهندس
الهيروبين والايدز	روى روبرتسون
صور افريقية	دوركاس ماكلينتوك
نجيب محفوظ على الشاشة	هاشم النحاس

الكمبيوتر فى مجالات الحياة	د٠ محمود سرى طـه
المخدرات حقائق اجتماعية ونفسية	بيتـر لـورى
وظائف الأعضاء من الألف الى الياء	بوريس فيدوروفيتش سيرجيف
الهنـدسة الوراثية	ويليام بينز
تربية اسـماك الزينـة	ديفيـد الدرتون
كتب غيرت الفكر الانسانى (٣ جـ)	أحمد محمد الشنوانى
الفلسفة وقضايا العصر (٣ جـ)	جمعها : جون ر٠ بورر وملتون جولدينجر
الفكر التاريخى عنـد الاغريق	ارنولد توينبى
قضايا وملامح فى الفن التشكيلى المعاصر	د ٠ صـالح رضـا
التغذية فى البلدان النامية	م٠هـ ٠ كنج وآخـرون
بداية بلا نهـاية	جـورج جاموف
الحرف والصناعات فى مصر الاسلامية	د٠ السيد طه أبو سديرة
حـوار حـول النظـامين الرئيسيين للكـون	جاليليـو جاليليـه
الارهـاب	اريك موريس وآلان هـو
اخنـاتون	سـيريل الـدريد
القبيـلة الثـالثة عشرة	آرثر كيسـتلر
الفلسفة وقضايا العصر (جـ)	جـون بـورد
الأساطير الاغريقية والرومانية	ب ٠ كوملان
تاريخ العلم والتكنولوجيا	ر ٠ ج ٠ فوريس
التـوافق النفسى	توماس ا ٠ هاريس
الدليل البيليوجرافى	مجموعة من الباحثين
لغـة الصـورة	روى أرمـز
الثورة الاصلاحية فى اليابان	ناجـاى متشـيو
العـالم الثـالث غـدا	بول هاريسون
الانقـراض الكبيـر	ميخائيل البى ، جيمس لفلوك
تاريـخ النقود	فيكتـور مورجان
التحليل والتوزيع الأوركسـترالى	أعداد محمد كمال اسماعيل
الشاهنامة (٢ جـ)	أبو القاسـم الفردوسى
الحيـاة الكريمـة (٢ جـ)	بيرتون بورتر
قيـام الدولة العثمانية	محمد فؤاد ، كوبريلى

عن النقد السينمائى الأمريكى	ادوارد ميرى
ترانيم زرادشت	اختيار / د· فيليب عطية
السينما العربيـة	اعداد / مونى براج وآخرون
دليل تنظيم المتـاحف	آدامز فيليب
سقوط المطر وقصص اخـرى	نادين جورديمر وآخرون
جماليـات فن الاخراج	زيجمونت هبنر
التاريخ من شتى جوانبه (٣ جـ)	ستيفن اوزمنت
الحملة الصليبية الأولى	جوناثان ريلى سميث
التمثيل للسينما والتليفزيون	تونى بار
العثمانيون فى أوربا	بـول كولنـر
صناع الخلود	موريس بير برابر
الكنائس القبطية القديمة فى مصر (جزآن)	الفريد ج· بطلر
رحلات فارتيما	رودريجو فارتيما
انهم يصنعون البشر (٢ جـ)	فانس بكارد
فى النقد السينمائى الفرنسى	اختيار / د· رفيق الصبان
السينما الخيالية	بيتـر نيكوللز
السلطة والفرد	برتراند راصل
الأزهر فى الف عام	بينارد دودج
رواد الفلسفة الحديثة	ريتشارد شاخت
سفر نامه	ناصر خسرو علوى
مصر الرومانيـة	نفتالى لويس
كتابة التاريخ فى مصر القرن التاسع عشر	جاك كرابس جونيور
الاتصال والهيمنة الثقافية	هربرت شـيلر
مختارات من الآداب الآسيوية	اختيار / صبرى الفضل

كتب غيرت الفكر الانسانى (٣ جـ)	احمد محمد الشنوانى
الشموس المتفجرة	اسحق عظيموف
مدخل الى علم اللغة	لوريتــو تود
حديث النهر	اعداد / سوريال عبد الملك
من هم التتــار	د٠ ابرار كريم الله
ماستريخت	اعداد / جابر محمد الجزار
معالم تاريخ الانسانية ٤ جـ	هـ٠ج٠ ولز
حضارة الاسلام	جوستاف جرونيباوم
الحملات الصليبية	ستيفن رانسيمان
الطفــل ٢ جـ	أرنولد جزل
افريقيا الطريق الآخر	بادى اونيمود
الســحر والعلم والدين	برنسلاو مالينوفسكى
الكون ٠ ذلك المجهول	جلال عبد الفتاح
تكنولوجيا فن الزجاج	محمد زينهم
حرب المستقبل	مارتن فان كريفلد
الفلسفة الجوهرية	سوندارى
الاعلام التطبيقى	فرانسيس ج٠ برجين
تبســيط المفاهيم الهندسية	جى كارفيـــل
تحول السلطة	ألفين توفلر

لا يبدأ تاريخ أمريكا بعام ١٤٩٢م على حد ما تقول معظم كتب التاريخ. فقد وفدت إلى الأمريكتين مجموعات من الشعوب المهاجرة من آسيا قبل اكتشاف كولومبوس بألوف السنين. لكن معظم أبناء تلك الشعوب التي عرفت باسم الهنود الحمر والتي أسس بعضها حضارات راقية خاصة في أمريكا الوسطى وشمال أمريكا الجنوبية قد تعرضوا للإبادة في كثير من المناطق وأجلوا عن ديارهم لإفساح المجال أمام المهاجرين البيض لاستغلال تلك الأرض. كما جلبت حشوداً من المواطنين الأفارقة إلى أمريكا للعمل كرقيق في المناطق المدارية التي لم يكن السكان البيض قادرين على العمل فيها بأيديهم ..

ويميط هذا الكتاب اللثام عن تلك الصفحة المجهولة من تاريخ تأسيس المجتمع الأمريكي حتى عشية الثورة الأمريكية وعرض بأمانة ودقة علمية لقصة اللقاء بين الحضارات المختلفة ثم الصراع والتفاعل بينها ...

٥٠٠ قرش

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب